



مع سورة البقرة

دكتور
خالد النجار



مع سورة البقرة

دكتور
خالد النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

مع سورة البقرة

الحمد لله الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان،
والصلاة والسلام على النبي العدنان، الذي قال: (الصَّيَّامُ وَالْقُرْآنُ
يَشْفَعَانِ لِلْعِبَادِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصَّيَّامُ: رَبِّ إِنِّي مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ
وَالشَّرَابَ بِالنَّهَارِ فَشَفَّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ الْقُرْآنُ رَبِّ مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ
فَشَفَّعْنِي فِيهِ، فَيُشَفَّعَانِ) [أحمد].

أما بعد:

فإن من أفضل ما أنفقت فيه الأعمار كتاب الله تعالى تلاوة
وحفظا ودراسة وتدبرا، ولقد مررت مع القرآن بتجربة شخصية
عانيت فيها من كتب التفسير المختصرة جدا والتي تبلغ حجم كف
اليدين الواحدة، فلقد كانت -على عظم فائدتها للكثيرين- أشبه
بقاموس ترجمة لأحد اللغات الأجنبية، فكانت الكلمة من القرآن
إذا أعينني تفسيرها نظرت في تلك المختصرات لأقف على المعنى
المراد في كلمة أو كلمتين على الأكثر، وهذه الطريقة المفرطة في
الاختصار جعلت المعاني تتفلت مني سراعاً، ذلك لأن النفس

جبلت على معايشة المعاني كي تشرب أبعادها وتلم بأجوائها،
ووجدت أن هذا النوع من المختصرات لا يناسبني شخصيا في
الوقت الذي قد يناسب غيري، فهرعت إلى كتب التفسير المطولة
أتعيش مع الآية ومعانيها، فراقني الأمر ووجدت للآيات رسوخا في
صدري بفارق كبير عن طريقة المختصرات، إلا أن كل مفسر من
جهابذة السلف والخلف قد أبدع فيما كتب -جزاهم الله عن
الإسلام والقرآن خيرا- فكان كل تفسير بالنسبة لي حديقة غناء
مختلفة عن أخواتها، حتى أنني كلما انتهيت من تفسير وشرعت في
آخر، أقول في نفسي: قد استفرغ المفسر السالف كل المعاني،
لكن سرعان ما أتعجب من معاني جديدة مع كل تفسير جديد
أطالعه، فرأيت أن أجمع ما تيسر لي لأكون أفق شخصي من
المعايشة مع الآيات بما يشبع نهمتي التي افتقدتها في المختصرات
التفسيرية الوجيزة، فتجمع لي طرفا منها بين المبسط والمعتدل،
دون إسهاب تعجز عنه الهمة ولا اختصار لا تشبع منه الهمة، وكان
اعتمادي في أغلب الأحيان على البداية بأيسر التفاسير للعلامة أبي
بكر الجزائري طيب الله ثراه، ثم أتبعه بكتاب أضواء البيان
للشنقيطي، ثم البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ثم التحرير

والتنوير لابن عاشور، ثم تفسير ابن كثير وتفسير القرآن للعثيمين،
أيضا لم أنس حظي من تفسير القرطبي وزهرة التفاسير وتفسير أبي
السعود والقاسمي وغيرهم من كوكبة المفسرين رحمهم الله تعالى
جميعا، فخرج هذا السفر الذي أَرْضَى نفسي تجاه كتاب الله تعالى،
وأشبع رغبتني في فهم المعاني القرآنية الجليلة، فرأيت أن أنشره
لعل الفائدة تطال غيري من أهل كتاب الله تعالى، فهذا أرجى
للقبول، وأوفى للأمانة، وأعظم للأجر.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجنبنا الزلل، ويبسط علينا
التوفيق ويعين على التمام، وأن يجعله نافعا لجامعه وقارئه .. إنه نعم
المولى ونعم النصير.

د/ خالد سعد النجار

مصر - طنطا - محافظة الغربية

alnagggar66@hotmail.com

** سميت هذه السورة «سورة البقرة» في المروي عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وما جرى في كلام السلف.

** في الترمذي - بسند ضعيف - عن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ، وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَفِيهَا آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ، هِيَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ)، وسنام كل شيء أعلاه، وهذا ليس علما لها، ولكنه وصف تشریف.

** قال خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ إِنَّهَا «فسطاط القرآن» والفسطاط ما يحيط بالمكان، لإحاطتها بأحكام كثيرة.

قال أهل اللغة: "الْفُسْطَاطُ: المدينة التي فيها مُجْتَمَعُ النَّاسِ. أو الْمِصْرُ الْجَامِعُ، وكل مدينة فُسْطَاط.

وقال الزمخشري وغيره: هو الخيمة العظيمة.. ضُرب من الأبنية في السفر دون السُّرادق، ويسمى أيضا الخُباء، وهو أحد بيوت العرب، ويكون من وبر أو صوف، ولا يكون من شعر، ويكون على عمودين أو ثلاثة، وبه سُميت المدينة. ويقال لمِصر الفُسطاط، لأنه قد جمع الدواوين وحوى أمير المؤمنين، وفصل بين المغرب وديار العرب، واتسع بقعته وكثر ناسه وتنفر أقليمه".

فهذه السورة مترامية أطرافها، وأساليبها ذات أفنان. قد جمعت من وشائج أغراض السور ما كان مصداقا لتلقيبها فسطاط القرآن. ومعظم أغراضها ينقسم إلى قسمين: قسم يثبت سمو هذا الدين على ما سبقه وعلو هديه وأصول تطهيره النفوس، وقسم يبين شرائع هذا الدين لأتباعه وإصلاح مجتمعهم.

قال ابن العربي: سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألف أمر، وألف نهْي، وألف حكم، وألف خبر. وبعث رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعثا وهم ذوو عدد وقدم عليهم أحدثهم سنا لحفظه سورة البقرة، وقال له: (اذهب فأنت أميرهم) [أخرجه الترمذي عن أبي هريرة وحسنه، ولكنه مرسل].

[وخالِدُ بْنُ مَعْدَانَ صاحب خبر «فسطاط القرآن»: تابعي، ثقة، ممن اشتهروا بالعبادة. أصله من اليمن، وإقامته في حمص بالشام، وكان يتولى شرطة يزيد بن معاوية. قال ابن عساكر في ترجمته: "كان إذا أمر الناس بالغزو يجعل فسطاطه أول فسطاط يضرب. وكان كثير التسبيح فلما مات بقيت أصبعه تتحرك كأنه يسبح" لقي سبعين رجلا من أصحاب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وكان من خيار عباد الله، قدم العباس بن الوليد واليا على حمص، فحضر يوم الجمعة الصلاة وخالد بن معدان في الصف، فلما رآه إذا على العباس ثوب حرير، فقام إليه خالد وشق الصفوف حتى أتاه فقال يا بن أخي إن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نهى الرجال عن لبس هذا، فقال يا عم هلا قلت أخفى من هذا، قال: والله لا سكنت بلدا أنت فيه، فخرج منها وسكن طرطوس، فكتب العباس إلى أبيه يخبره بذلك، فكتب الوليد إليه: يا بني ألحقه بعطائه أينما كان، فإننا لا نأمن أن يدعو علينا بدعوة فنهلك، فأقام بطرطوس متعبدا مرابطا إلى أن مات]

** نزلت سورة البقرة بالمدينة بالاتفاق وهي أول ما نزل في المدينة وحكى ابن حجر في شرح البخاري الاتفاق عليه، وقيل

نزلت سورة المطففين قبلها بناء على أن سورة المطففين مدنية، ولا شك أن سورة البقرة فيها فرض الصيام، والصيام فرض في السنة الأولى من الهجرة، فرض فيها صوم عاشوراء ثم فرض صيام رمضان في السنة الثانية لأن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صام سبع رمضانات أولها رمضان من العام الثاني من الهجرة. فتكون سورة البقرة نزلت في السنة الأولى من الهجرة في أواخرها أو في الثانية. وفي سنن النسائي عن عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: "وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ" تعني النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وكان بناء رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على عائشة في شوال من السنة الأولى للهجرة. وقيل في أول السنة الثانية، وقد روى عنها أنها مكثت عنده تسع سنين فتوفي وهي بنت ثمان عشرة سنة وبنى بها وهي بنت تسع سنين.

إلا أن اشتمال سورة البقرة على أحكام الحج والعمرة وعلى أحكام القتال من المشركين في الشهر الحرام والبلد الحرام ينبئ بأنها استمر نزولها إلى سنة خمس وسنة ست، وقد يكون ممتدا إلى ما بعد سنة ثمان كما يقتضيه قوله: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ}

[البقرة: ١٩٧]

**** وقال بعض أهل العلم: وقد عدت سورة البقرة السابعة والثمانين في ترتيب نزول السور نزلت بعد سورة المطففين وقبل آل عمران.**

**** قال ابن عثيمين: نزلت سورة البقرة بعد الهجرة؛ ولذلك فهي مدنية؛ فإن كل ما نزل بعد الهجرة فهو مدني؛ وما نزل قبلها فهو مكّي؛ هذا هو الصحيح؛ لأن العبرة بالزمن لا بالمكان.**

وغالب السور المدنية يكون فيها تفصيل أكثر من السور المكية؛ ويكون التفصيل فيها في فروع الإسلام دون أصوله؛ وتكون غالباً أقل شدة في الزجر والوعظ والوعيد؛ لأنها تخاطب قومًا كانوا مؤمنين موحدين قائمين بأصول الدين، ولم يبق إلا أن تُبَيَّن لهم فروع الدين ليعملوا بها؛ وتكون غالباً أطول آيات من السور المكية.

**** وسورة البقرة أطول سورة في القرآن، وهي سورة مدنية نزلت على مدى عشر سنوات قضاها رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في المدينة، ففيها أول ما نزل من الأحكام في المدينة بعد الهجرة بشأن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، قال تعالى: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا..} [البقرة: ١٤٤].**

وفيهما آخر آية نزلت من القرآن وهي قول الله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [البقرة: ٢٨١]، والآية التي ختم الله بها آخر أحكام القرآن نزولاً وهي آيات تحريم الربا: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ.. وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [البقرة: ٢٧٥-٢٨١].

عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَنَّهَا قَالَتْ: "لَمَّا أُنْزِلَتِ الْآيَاتُ الْأَوَاخِرُ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَتَلَاهُنَّ فِي الْمَسْجِدِ، فَحَرَّمَ التَّجَارَةَ فِي الْخَمْرِ" [متفق عليه].
وفيهما أطول آية في القرآن وهي آية الدين: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ..} [البقرة: ٢٨٢].

عَنْ يُوسُفُ بْنُ مَاهَكَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: "إِنِّي عِنْدَ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- إِذْ جَاءَهَا عِرَاقِيٌّ فَقَالَ: أَيُّ الْكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَيَحَكَ وَمَا يَضُرُّكَ؟ قَالَ: يَا أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، أَرِنِي مُصْحَفَكَ، قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ، قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيُّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ، إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ

سُورَةُ مِنَ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى
الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ
لَقَالُوا لَا نَدْعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا لَا نَدْعُ الزَّنا أَبَدًا،
لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَإِنِّي لَجَارِيَةُ أَلْعَبُ: {بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ
وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ}، وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ،
قَالَ: فَأَخْرَجَتْ لَهُ الْمُصْحَفَ، فَأَمَلْتُ عَلَيْهِ آيَ السُّورِ " [رواه
البخاري].

وفيهما أعظم آية في القرآن ألا وهي آية الكرسي: {اللَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ..} [البقرة: ٢٥٥].

** وإذ كانت أول سورة نزلت بعد الهجرة فقد عني بها الأنصار
وأكبوا على حفظها، يدل لذلك ما جاء في السيرة أنه لما انكشف
المسلمون يوم حنين قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- للعباس:
"اصرخ يا معشر الأنصار يا أهل السَّمُرَةِ -يعني شجرة البيعة في
الحديبية- يا أهل سورة البقرة" فقال الأنصار: لبيك لبيك يا رسول
الله أبشر.

وعن سُفْيَانَ قَالَ: "سَمِعْتُ الزُّهْرِيَّ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فَلَمْ أَحْفَظْهُ عَنْ
كَثِيرِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ عَبَّاسٌ وَأَبُو سُفْيَانَ مَعَهُ، أَيَّ مَعَ النَّبِيِّ -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: فَخَطَبَهُمْ، وَقَالَ: (الآنَ حَمَى
الْوَطِيسُ)، وَقَالَ: (نَادِ يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ) [رواه أحمد].

قال ابن كثير: "كان المسلمون يتنادون في معاركهم يوم حنين
ويوم اليمامة يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ".

** وفي الموطأ قال مالك إنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث
على سورة البقرة ثمانين سنين يتعلمها، وفي صحيح البخاري: كان
نصراني أسلم فقرأ البقرة وآل عمران وكان يكتب للنبي -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثم ارتد إلى آخر القصة.

** قال القرطبي: وهذه السورة فضلها عظيم وثوابها جسيم.
ويقال لها: «فسطاط القرآن»، قاله خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ. وذلك لعظمها
وبهائها، وكثرة أحكامها ومواعظها. وتعلمها عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-
بفقهها وما تحتوي عليه في اثنتي عشرة سنة، وابنه عبد الله في
ثمانين سنين.

** وروى مسلم عن أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ
الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ،
فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَاتَانِ أَوْ

كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ
الْبَقَرَةِ فَإِنَّ أَخَذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرَكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ) قَالَ
مُعَاوِيَةُ بَلَّغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ السَّحَرَةُ

** وروى مسلم أيضا عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ
إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ).

** وروى الدارمي -بسند ضعيف- عن عبد الله [أي ابن
مسعود] قال: "ما من بيت يقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه
الشيطان وله ضراط".

وقال -أي عَبْدُ اللَّهِ بن مسعود-: "إِنْ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ وَإِنْ
سَنَامُ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَإِنْ لِكُلِّ شَيْءٍ لِبَابٌ وَإِنْ لِبَابُ الْقُرْآنِ
الْمِفْصَلُ". قال أبو محمد الدارمي: الباب: الخالص. [إسناده
حسن]

** وروى الدارمي في مسنده عن الشعبي قال: قال عبد الله
[أي ابن مسعود]: "مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ،
لَمْ يَدْخُلْ ذَلِكَ الْبَيْتَ شَيْطَانٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى يُصْبِحَ: أَرْبَعًا مِنْ
أَوَّلِهَا، وَآيَةِ الْكُرْسِيِّ، وَآيَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَثَلَاثُ خَوَاتِيمِهَا، أَوَّلُهَا: {لِلَّهِ

مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ
تُخَفَّوْهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ { [البقرة: ٢٨٤] } .. [رجاله ثقات غير أنه

منقطع الشعبي لم يسمع من ابن مسعود]

وعن الشعبي عنه: لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ولا شيء
يكرهه، ولا يقرآن على مجنون إلا أفاق.

وقال المغيرة بن سبيع - وكان من أصحاب عبد الله -: لم ينس
القرآن.

وقال إسحاق بن عيسى: لم ينس ما قد حفظ.

** وفي صحيح أبي حاتم البستي عن سهل بن سعد - رضي
الله عنه - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: (إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ
سَنَامًا، وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، مَنْ قَرَأَهَا فِي بَيْتِهِ لَيْلًا لَمْ
يَدْخُلِ الشَّيْطَانُ بَيْتَهُ ثَلَاثَ لَيَالٍ، وَمَنْ قَرَأَهَا نَهَارًا لَمْ يَدْخُلِ
الشَّيْطَانُ بَيْتَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ). [ضعفه شعيب الأرنؤوط وقال الألباني:
صحيح - «دون ثلاثة ليال ...»] قال أبو حاتم: قوله - صلى الله
عليه وسلم -: (لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام) أراد به مَرَدَّةَ
الشَّيَاطِينِ دُونَ غَيْرِهِمْ.

**** وفي كتاب «الاستيعاب» لابن عبد البر: وكان لبيد بن ربيعة من شعراء الجاهلية، أدرك الإسلام فحسن إسلامه وترك قول الشعر في الإسلام، سأله عمر في خلافته عن شعره واستنشدته، فقرأ سورة البقرة، فقال: إنما سألتك عن شعرك، فقال: ما كنت لأقول بيتا من الشعر بعد إذ علمني الله البقرة وآل عمران، فأعجب عمر قوله، وكان عطاؤه ألفين فزاده خمسمائة.**

وقد قال كثير من أهل الأخبار: إن لبيدا لم يقل شعرا منذ أسلم. وقال بعضهم: لم يقل في الإسلام إلا قوله:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي... حتى اكتسيت من الإسلام

سربالا

قال ابن عبد البر: وقد قيل إن هذا البيت لقردة بن نفثة السلولي، وهو أصح عندي.

وقال غيره: بل البيت الذي قال في الإسلام:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه... والمرء يصلحه القرين الصالح

**** وإذ قد كان نزول هذه السورة في أول عهد بإقامة الجامعة**

الإسلامية واستقلال أهل الإسلام بمدينتهم كان من أول أغراض

هذه السورة تصفية الجامعة الإسلامية من أن تختلط بعناصر مفسدة

لما أقام الله لها من الصلاح سعيًا لتكوين المدينة الفاضلة النقية من شوائب الدجل والدخل.

قال صاحب نظم الدرر: "وتصنيف الناس آخر الفاتحة ثلاثة أصناف: مهتدين، ومعاندين، وضالين، مثل تصنيفهم أول البقرة ثلاثة: متقين، وكافرين مصارحين وهم المعاندون، وضالين وهم المنافقون، وإجمالهم في الفاتحة وتفصيلهم هنا من بديع الأساليب، وهو دأب القرآن العظيم الإجمال ثم التفصيل"

الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥)

{الم} تقرأ لا على حسب الكتابة: "أَلَمْ"؛ ولكن على حسب اسم الحرف: "أَلِفْ لَامْ مِيمٌ".

وتحير المفسرون في محل هاته الحروف الواقعة في أول هاته السورة، وفي فواتح سور عدة جميعها تسع وعشرون سورة ومعظمها

في السور المكية. ومجموع ما وقع من حروف الهجاء أوائل السور أربعة عشر حرفاً وهي نصف حروف الهجاء.

** والأرجح من تلك الأقوال ثلاثة: وهي كونها تلك الحروف لتبكي المعاندين وتسجيلاً لعجزهم عن المعارضة، أو كونها أسماء للسور الواقعة هي فيها، أو كونها أقساماً أقسم بها لتشريف قدر الكتابة، وتنبية العرب الأميين إلى فوائد الكتابة لإخراجهم من حالة الأمية، وأرجح هذه الأقوال الثلاثة هو أولها.

قال في أضواء البيان: القول الذي يدل استقراء القرآن على رجحانه فهو: أن الحروف المقطعة ذكرت في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها. وحكى هذا القول الرازي في تفسيره عن المبرد، وجمع من المحققين، وحكاه القرطبي عن الفراء وقطرب، ونصره الزمخشري في الكشاف.

قال ابن كثير: وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية، وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي، وحكاه لي عن ابن تيمية.

ووجه شهادة استقراء القرآن لهذا القول: أن السور التي افتتحت بالحروف المقطعة يذكر فيها -دائماً- عقب الحروف المقطعة الانتصار للقرآن وبيان إعجازه، وأنه الحق الذي لا شك فيه.

وذكر ذلك بعدها دائماً دليل استقرائي على أن الحروف المقطعة قصد بها إظهار إعجاز القرآن، وأنه حق.

قال تعالى في "البقرة": {الم}، واتبع ذلك بقوله: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ}، وقال في "آل عمران": {الم}، واتبع ذلك بقوله: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}، وقال في "الأعراف": {المص}، ثم قال: {كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ}، وقال في سورة "يونس": {الر}، ثم قال: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ}، وقال في سورة "هود": {الر}، ثم قال: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}، وقال في "يوسف": {الر}، ثم قال: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}، وهكذا في أغلب السور؛ إلا بعض السور القليلة لم يذكر فيها القرآن؛ لكن ذكر ما كان من خصائص القرآن:

فمثلاً قوله تعالى: {كهيعص} [مريم: ١] ليس بعدها ذكر للقرآن؛ ولكن جاء في السورة خاصية من خصائص القرآن. وهي ذكر قصص من كان قبلنا: {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا} [مريم: ٢] كذلك في سورة الروم قال تعالى في أولها: {الم * غَلَبَتْ الرُّومُ} [الروم: ١-٢]؛ فهذا الموضع أيضاً ليس فيه ذكر للقرآن؛ ولكن في السورة ذكر شيء من خصائص القرآن. وهو الإخبار عن المستقبل: {غَلَبَتْ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ} [الروم: ٢-٤]

وكذلك أيضاً قوله تعالى: {الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} [العنكبوت: ١-٢] ليس فيها ذكر القرآن؛ ولكن فيها شيء من القصص الذي هو أحد خصائص القرآن: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} [العنكبوت: ٣]

** وهاته الفواتح قرآن لا محالة ولكن اختلف في أنها آيات مستقلة والأظهر أنها ليست بآيات مستقلة بل هي أجزاء من الآيات الموالية لها على المختار من مذاهب جمهور القراء.

وروى عن قراء الكوفة أن بعضها عدوه آيات مستقلة وبعضها لم يعدوه وجعلوه جزء آية مع ما يليه.

ويدل لإجراء السلف حكم أجزاء الآيات عليها أنهم يقرؤونها إذا قرؤوا الآية المتصلة بها، ففي جامع الترمذي في كتاب التفسير في ذكر سبب نزول سورة الروم. عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: "لَمَّا كَانَ يَوْمٌ بَدَرِ ظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ، فَأَعْجَبَ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِينَ، فَنَزَلَتْ {الم غُلِبَتِ الرُّومُ} [الروم: ٢] إِلَى قَوْلِهِ {يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ} [الروم: ٤] قَالَ: «فَفَرَحَ الْمُؤْمِنُونَ بِظُهُورِ الرُّومِ عَلَى فَارِسَ».

وفيه أيضا فَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُحِبُّ ظُهُورَ فَارِسَ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ وَلَا إِيْمَانٍ بَبْعَثٍ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ، خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ يَصِيحُ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ {الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ} [الروم: ١]

وفي سيرة ابن إسحاق من رواية ابن هشام عنه فقرأ رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على عتبة بن ربيعة: {حَم تَنْزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} حتى بلغ قوله {فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} [فصلت: ١٣] الحديث.

وعلى هذا الخلاف اختلف في أجزاء قراءتها في الصلاة عند الذين يكتفون في قراءة السورة مع الفاتحة بآية واحدة مثل أصحاب أبي حنيفة.

{ذَلِكَ} اسم إشارة للبعيد لإظهار رفعة شأن هذا القرآن وجعله بعيد المنزلة لشرفه وعظمته. وقد شاع في الكلام البليغ تمثيل الأمر الشريف بالشيء المرفوع في عزة المنال لأن الشيء النفيس عزيز على أهله فمن العادة أن يجعلوه في المرتفعات صونا له عن الدروس وتناول كثرة الأيدي والابتدال، فالكتاب هنا لما ذكر في مقام التحدي بمعارضته بما دلت عليه حروف التهجي في {آلم} كان كالشيء العزيز المنال بالنسبة إلى تناولهم إياه بالمعارضة أو لأنه لصدق معانيه ونفع إرشاده بعيد عمن يتناوله بهجر القول كقولهم: **{أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ}** [يونس: ٣٨] وقولهم: **{أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}** [الأنعام: ٢٥].

ولا يرد على هذا قوله تعالى: **{وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ}** [الأنعام: ٩٢] فذلك للإشارة إلى كتاب بين يدي أهله لترغيبهم في العكوف عليه والاتعاظ بأوامره ونواهيه.

{الْكِتَابُ} اشتقاقه من كتب بمعنى: «جمع وضم» لأن الكتاب تجمع أوراقه وحروفه.

{لَا رَيْبَ} الريب الشك بتهمة، وحقيقة الريب قلق النفس، أو تحرك القلب واضطرابه بالشكوك والأوهام، يقال: رابه الشيء إذا شككه. فهو شك مصحوب بقلق لقوة الداعي الموجب للشك؛ أو لأن النفس لا تطمئن لهذا الشك؛ فهي قلقة منه. بخلاف مطلق الشك.

وريب الدهر: صروفه وخطوبه. وريب الزمان وريب المنون نواب ذلك، قال الله تعالى: **{نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ}** [الطور: ٣٠] ويقابل الريب: الطمأنينة بالسكون إلى الحق على الدوام.

وقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (دَعْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رَيْبَةٌ) [مسند أحمد] أي دع الفعل الذي يقربك من الشك في التحريم إلى فعل آخر لا يدخل عليك في فعله شك في أنه مباح.

قال ابن عثيمين: والنفي هنا على بابه؛ فالجملة خبرية؛ هذا هو الراجح؛ وقيل: إنه بمعنى النهي. أي لا ترتابوا فيه؛ والأول أبلغ؛ فإن قال قائل: ما وجه رجحانه؟

فالجواب: أن هذا يبنى على قاعدة هامة في فهم وتفسير القرآن: وهي أنه يجب علينا إجراء القرآن على ظاهره، وأن لا نصرفه عن الظاهر إلا بدليل، مثل قوله تعالى: **{وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ}** [البقرة: ٢٢٨]، فهذه الآية ظاهرها خبر؛ لكن المراد بها الأمر؛ لأنه قد لا تتربص المطلقة؛ فما دمت تريد تفسير القرآن الكريم فيجب عليك أن تجريه على ظاهره إلا ما دلّ الدليل على خلافه؛ وذلك لأن المفسر للقرآن شاهد على الله بأنه أراد به كذا وكذا؛ وأنت لو فسرت كلام بشر على خلاف ظاهره لَلَامَكَ هذا المتكلم، وقال: "لماذا تحمل كلامي على خلاف ظاهره! ليس لك إلا الظاهر"؛ مع أنك لو فسرت كلام هذا الرجل على خلاف ظاهره لكان أهون لوماً مما لو فسرت كلام الله؛ لأن المتكلم - غير الله - ربما يخفى عليه المعنى، أو يعييه التعبير، أو يعبر بشيء ظاهره خلاف ما يريده، فتفسره أنت على ما تظن أنه يريده؛ أما كلام الله عزّ وجلّ فهو صادر عن علم، وبأبلغ كلام،

وأفصحته؛ ولا يمكن أن يخفى على الله عز وجل ما يتضمنه كلامه؛
فيجب عليك أن تفسره بظاهره.

والذي أوجب أن يفسروا النفي بمعنى النهي قالوا: لأنه قد
حصل فيه ريب من الكفار والمنافقين؛ قال تعالى: **{فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ
يَتَرَدَّدُونَ}** [التوبة: ٤٥]؛ فلا يستقيم النفي حينئذ؛ وتكون هذه
القرينة الواقعية من ارتياب بعض الناس في القرآن قرينةً موجبة
لصرف الخبر إلى النهي؛ ولكننا نقول: إن الله تعالى يتحدث عن
القرآن من حيث هو قرآن. لا باعتبار من يتلى عليهم القرآن؛
والقرآن من حيث هو قرآن لا ريب فيه؛ عندما أقول لك: "هذا
الماء عذب" فهذا بحسب وصف الماء بقطع النظر عن كون هذا
الماء في مذاق إنسان من الناس ليس عذبا؛ كون مذاق الماء
العذب مرأً عند بعض الناس فهذا لا يؤثر على طبيعة الماء العذب.

فما علينا من هؤلاء إذا كان القرآن عندهم محل ريبة؛ فإن
القرآن في حد ذاته ليس محل ريبة؛ والله سبحانه وتعالى يصف
القرآن من حيث هو قرآن؛ على أن كثيراً من الذين ادّعوا الارتياب
كاذبون يقولون ذلك جحوداً، كما قال تعالى: **{قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ
لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ**

اللَّهُ يَجْحَدُونَ [الأنعام: ٣٣]؛ فكثير منهم ربما لا يكون عنده
ارتياح حقيقي في القرآن؛ ويكون في داخل نفسه يعرف أن هذا
ليس بقول الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأن محمداً -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لا يستطيع أن يأتي بمثله؛ ولكن مع ذلك
يجحدون، وينكرون.

وعلى هذا فالوجه الأول هو الوجه القوي الذي لا انفصام عنه.
وهو أن الله تعالى وصف القرآن من حيث هو قرآن بقطع النظر
عمن يُتلى عليهم هذا القرآن: أيرتابون، أم لا يرتابون فيه.
{فِيهِ} وقف بعض القراء على قوله تعالى: **{لَا رَيْبَ}**، ووقف
بعضهم على قوله تعالى: **{فِيهِ}**.

{هُدًى} الهدى: هو الإرشاد والبيان، ومعناه: الدلالة الموصلة
إلى الحق، والهدى الشرعي هو الإرشاد إلى ما فيه صلاح العاجل
الذي لا ينقض صلاح الآجل. وأثر هذا الهدى هو الاهتداء
فالمتقون يهتدون بهديه والمعاندون لا يهتدون لأنهم لا يتدبرون.

وجملة **{لَا رَيْبَ}** إن كان الوقف على قوله: **{لَا رَيْبَ}** تعريض
بكل المرتابين فيه من المشركين وأهل الكتاب أي أن الارتياح في
هذا الكتاب نشأ عن المكابرة، وأن لا ريب فإنه الكتاب الكامل،

وإن كان الوقف على قوله: **{فيه}** كان تعريضا بأهل الكتاب في تعلقهم بمحرف كتابهم مع ما فيهما من مثار الريب والشك من الاضطراب الواضح الدال على أنه من صنع الناس، قال تعالى: **{أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}** [النساء: ٨٢]

{لِلْمُتَّقِينَ} المتقي: من جعل بينه وبين مقت الله وقاية بحفظ الجوارح من المخالفات، وحفظ القلوب من المساويء والهفوات. والمتقي من اتصف بالاتقاء وهو طلب الوقاية، والوقاية الصيانة والحفظ من المكروه، فالمتقي هو الحذر المتطلب للنجاة من شيء مكروه مضر، والمراد هنا المتقين لله تعالى، أي الذين هم خائفون غضبه واستعدوا لطلب مرضاته واستجابة طلبه فإذا قرئ عليهم القرآن استمعوا له وتدبروا ما يدعو إليه فاهتدوا.

والتقوى الشرعية هي امتثال الأوامر واجتناب المنهيات من الكبائر وعدم الاسترسال على الصغائر ظاهرا وباطنا، أي اتقاء ما جعل الله الاقتحام فيه موجبا غضبه وعقابه، فالكبائر كلها متوعد فاعلها بالعقاب دون اللوم.

فالمراد أن القرآن من شأنه الإيصال إلى المطالب الخيرية وأن المستعدين للوصول به إليها هم المتقون أي هم الذين تجردوا عن المكابرة ونزهوا أنفسهم عن حضيض التقليد للمضلين وخشوا العقابة وصانوا أنفسهم من خطر غضب الله.. هذا هو الظاهر، والمراد بالمتقين المؤمنون الذين آمنوا بالله وبمحمد وتلقوا القرآن بقوة وعزم على العمل به كما ستكشف عنهم الأوصاف الآتية في قوله تعالى: **{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}** إلى قوله: **{مِنْ قَبْلِكَ}** [البقرة: ٤]

وفيه: أن المهتدي بهذا القرآن هم المتقون؛ فكل من كان أتقى لله كان أقوى اهتداءً بالقرآن الكريم؛ لأنه عُلّق الهدى بوصف؛ والحكم إذا عُلّق بوصف كانت قوة الحكم بحسب ذلك الوصف المعلق عليه؛ لأن الوصف عبارة عن علة؛ وكلما قويت العلة قوي المعلول.

وصرح في هذه الآية بأن هذا القرآن: **{هُدًى لِلْمُتَّقِينَ}**، ويفهم من مفهوم الآية -أعني مفهوم المخالفة المعروف بدليل الخطاب- أن غير المتقين ليس هذا القرآن هدى لهم، وصرح بهذا المفهوم في آيات أخر كقوله: **{قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا**

يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرَّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى { [فصلت: ٤٤] وقوله:
{وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ
إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء: ٨٢] وقوله: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّنْ
يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ، وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى
رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ} [التوبة: ١٢٥-١٢٤] وقوله تعالى:
{وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا} الآيتين
[المائدة: ٦٤، ٦٨].

ومعلوم أن المراد بالهدى في هذه الآية الهدى الخاص الذي
هو التفضل بالتوفيق إلى دين الحق، لا الهدى العام الذي هو
إيضاح الحق.

وبعد أن ذكر الله عزّ وجلّ أن المتقين هم الذين ينتفعون
ويهدون بهذا الكتاب، بيّن لنا صفات هؤلاء المتقين؛ فذكر في
هذه الآية ست صفات:

{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ} الإيمان: التصديق، ومنه قوله تعالى: {قَالُوا يَا
أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّبُّ وَمَا
أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ} [يوسف: ١٧]

{بِالْغَيْبِ} مصدر غاب يغيب إذا توارى، والمراد بالغيب ما لا يدرك بالحواس مما أخبر الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صريحا بأنه واقع أو سيقع، مثل: وجود الله، ووجود الملائكة، والشیاطین، وأشراط الساعة، والبعث والروح، وما أستاذر الله بعلمه.

وكان الوصف تعريضا بالمشركين الذين أنكروا البعث وقالوا: **{هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ}** [سبأ: ٧] فجمع هذا الوصف بالصرحة ثناء على المؤمنين، وبالتعريض ذما للمشركين بعدم الاهتداء بالكتاب، وذما للمنافقين الذين يؤمنون بالظاهر وهم مبطنون الكفر، وسيعقب هذا التعريض بصريح وصفهم في قوله: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** [البقرة: ٦] الآيات، وقوله: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}** [البقرة: ٨].

وخص بالذكر الإيمان بالغيب دون غيره من متعلقات الإيمان لأن الإيمان بالغيب -أي ما غاب عن الحس- هو الأصل في اعتقاد إمكان ما تخبر به الرسل عن وجود الله والعالم لعلوي، فإذا آمن به المرء تصدى لسماع دعوة الرسول وللنظر فيما يبلغه عن الله تعالى فسهل عليه إدراك الأدلة، وأما من يعتقد أن ليس وراء عالم

الماديات عالم آخر وهو ما وراء الطبيعة فقد راض نفسه على الإعراض عن الدعوة إلى الإيمان بوجود الله وعالم الآخرة كما كان حال الماديين وهم المسمون بالدهريين الذين قالوا: **{وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ}** [الجاثية: ٢٤] وقريب من اعتقادهم اعتقاد المشركين ولذلك عبدوا الأصنام المجسمة ومعظم العرب كانوا يشبتون من الغيب وجود الخالق وبعضهم يشب الملائكة ولا يؤمنون بسوى ذلك.

{وَيُقِيمُونَ} وأصل القيام في اللغة هو الانتصاب المضاد للجلوس والاضطجاع، وإنما يقوم القائم لقصد عمل صعب لا يتأتى من قعود، فيقوم الخطيب ويقوم العامل ويقوم الصانع ويقوم الماشي فكان للقيام لوازم عرفية مأخوذة من عوارضه اللازمة، ولذلك أطلق مجازا على النشاط في قولهم قام بالأمر، ومن أشهر استعمال هذا المجاز قولهم: «قامت السوق، وقامت الحرب».

وقد حصل من إفادة المضارع التجدد تأكيد ما دل عليه مادة الإقامة من المواظبة والتكرر ليكون الشاء عليهم بالمواظبة على الصلاة أصرح.

{الصَّلَاةُ} من الصلاة، وهو عرق غليظ متصل بالظهر يفترق من عند عجب الذنب، ويمتد منه عرقان في كل ورك يقال لهما الصلوان، فإذا ركع المصلي أو ساجد ينثني صلواه ويتحرك، فسمي بذلك مُصلياً، ومما يؤيد أنها مشتقة من هذا كتابتها بالواو في المصاحف إذ لولا قصد الإشارة إلى ما اشتقت منه ما كان وجه لكتابتها بالواو وهم كتبوا الزكاة والربا والحياة بالواو إشارة إلى الأصل.

وجعل ابن عطية الصلاة مما أخذ من صلى بمعنى «دعا»، وقال: "والقول إنها من الدعاء أحسن". وإنما أطلقت على الدعاء لأنه يلزم الخشوع والانخفاض والتذل، والصلاة حقيقة شرعية تنتظم من أقوال وهيئات مخصوصة.

والمراد بـ {الصلاة} هنا الجنس؛ فتعم الفريضة والنافلة. ويتفرع على ذلك: الترغيب في إقامة الصلاة؛ لأنها من صفات المتقين؛ وإقامتها أن يأتي بها مستقيمة على الوجه المطلوب في خشوعها وقيامها وقعودها وركوعها وسجودها، وغير ذلك.

{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ} الرزق: العطاء، وهو ما يناله الإنسان من موجودات هذا العالم التي يسد بها ضروراته وحاجاته.

وفيه أن صدقة الغاصب باطلة؛ لقوله تعالى: **{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ}**؛ لأن الغاصب لا يملك المال الذي تصدق به، فلا تقبل صدقته.

{يُنْفِقُونَ} يقال: نفق الشيء أي نفذ، وأصل هذه المادة تدل على الخروج والذهاب. أي: مما أعطيناهم من المال يخرجون.

والإنفاق إعطاء الرزق فيما يعود بالمنفعة على النفس والأهل والعيال ومن يرغب في صلته أو التقرب لله بالنفع له من طعام أو لباس. وأريد به هنا بثه في نفع الفقراء وأهل الحاجة وتسديد نوائب المسلمين بقرينة المدح واقتترانه بالإيمان والصلاة فلا شك أنه هنا خصلة من خصال الإيمان الكامل، وما هي إلا الإنفاق في سبيل الخير والمصالح العامة إذ لا يمدح أحد بإنفاقه على نفسه وعياله إذ ذلك مما تدعو إليه الجبله فلا يعتني الدين بالتحريض عليه.

وفيه: أن الإنفاق غير الزكاة لا يتقدر بشيء معين؛ لإطلاق الآية، سواء قلنا: إن "من" للتبعض؛ أو للبيان. ويتفرع على هذا جواز إنفاق جميع المال في طرق الخير، كما فعل أبو بكر -رضي الله عنه- حين تصدق بجميع ماله؛ لكن هذا مشروط بما إذا لم يترتب عليه ترك واجب من الإنفاق على الأهل، ونحوهم؛ فإن ترتب عليه ذلك فالواجب مقدم على التطوع.

فإن قيل: هذا الذي قررتم يقتضي أن الإنفاق المحمود هو إنفاق ما زاد على الحاجة الضرورية، مع أن الله تعالى أثنى على قوم بالإنفاق وهم في حاجة إلى ما أنفقوا، وذلك في قوله: **{وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}** [الحشر: ٩].

فالظاهر في الجواب -والله تعالى أعلم- هو ما ذكره بعض العلماء من أن لكل مقام مقالا، ففي بعض الأحوال يكون الإيثار ممنوعا. وذلك كما إذا كانت على المنفق نفقات واجبة. كنفقة الزوجات ونحوها فتبرع بالإنفاق في غير واجب وترك الفرض لقوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنَى) [البخاري] وكأن يكون لا صبر عنده عن سؤال الناس فينفق ماله ويرجع إلى الناس يسألهم ماله، فلا يجوز له ذلك، والإيثار فيما إذا كان لم يضيع نفقة واجبة، وكان واثقا من نفسه بالصبر والتعفف وعدم السؤال.

وقوله: **{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}** صلة الثالثة في وصف المتقين مما يحقق معنى التقوى وصدق الإيمان من بذل عزيز على النفس في مرضاة الله؛ لأن الإيمان لما كان مقره القلب ومترجمه اللسان

كان محتاجا إلى دلائل صدق صاحبه وهي عظام الأعمال، من ذلك التزام آثاره في الغيبة الدالة عليه {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ} ومن ذلك ملازمة فعل الصلوات لأنها دليل على تذكر المؤمن من آمن به. ومن ذلك السخاء ببذل المال للفقراء امتثالاً لأمر الله بذلك.

وهذه الصفات هي دلائل إخلاص الإيمان لأن الإيمان بما لا يصل إليه الحس أدل دليل على قوة اليقين حتى أنه يتلقى من الشارع ما لا قبل للرأي فيه، وشأن النفوس أن تنبو عن الإيمان به لأنها تميل إلى المحسوس، فالإيمان به على علته دليل قوة الإيمان بالمخبر وهو الرسول إن كان المراد من الغيب ما قابل الشهادة، ولأن الصلاة كلفة بدنية في أوقات لا يتذكرها مقيمها - أي محسن أدائها - إلا الذي امتلأ قلبه بذكر الله تعالى على ما فيها من الخضوع وإظهار العبودية، ولأن الزكاة أداء المال وقد علم شح النفوس قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا} [المعارج: ٢١] ولأن المؤمنين بعد الشرك كانوا محرومين منها في حال الشرك بخلاف أهل الكتاب فكان لذكرها تذكير بنعمة الإسلام.

واجتلبت في الإخبار عنهم بهذه الصلوات الثلاث صيغة المضارع الدالة على التجدد إيذاناً بتجدد إيمانهم بالغيب وتجدد

إقامتهم الصلاة والإنفاق إذ لم يكونوا متصفين بذلك إلا بعد أن جاءهم هدى القرآن.

وتقديم **{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ}** على **{يُنْفِقُونَ}** لمجرد الاهتمام بالرزق في عرف الناس فيكون في التقديم إيذان بأنهم ينفقون مع ما للرزق من المعزة على النفس كقوله تعالى: **{وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ}** [الإنسان: ٨]، مع رعي فواصل الآيات على حرف النون.

وفي الإتيان بـ «من» التي هي للتبويض إيماء إلى كون الإنفاق المطلوب شرعا هو إنفاق بعض المال لأن الشريعة لم تكلف الناس حرجا، وهذا البعض يقل ويتوفر بحسب أحوال المنفقين. فالواجب منه ما قدرت الشريعة نصابه ومقاديره من الزكاة وإنفاق الأزواج والأبناء، وما زاد على الواجب لا ينضبط تحديده وما زاد فهو خير.

{وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ} أي يؤمنون بجميع الكتب المنزلة؛ وبدأ بالقرآن مع أنه آخرها زمناً؛ لأنه مهيمن على الكتب السابقة ناسخ لها؛ والمراد بـ **{مَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ}** التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وموسى، وغيرها.

{وَبِالْآخِرَةِ} الحياة الآخرة هي التي ليس بعدها شيء، وضدها الحياة الدنيا أي القرية بمعنى الحاضرة، ولذلك يقال لها العاجلة

ثم صارت الآخرة علما بالغلبة على الحياة الحاصلة بعد الموت وهي الحاصلة بعد البعث لإجراء الجزاء على الأعمال.

فمعنى **{وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ}** أنهم يؤمنون بالبعث والحياة بعد الموت، وما يتبعه مما يكون يوم القيامة من الثواب والعقاب وغيرهما؛ وإنما نص على الإيقان بالآخرة مع دخوله في الإيمان بالغيب لأهميته؛ لأن الإيمان بها يحمل على فعل المأمور، وترك المحذور؛ و "الإيقان" هو الإيمان الذي لا يتطرق إليه شك.

قال أهل العلم: وإنما خص هذا الوصف بالذكر عند الشئ عليهم من بين بقية أوصافهم لأنه ملاك التقوى والخشية التي جعلوا موصوفين بها لأن هذه الأوصاف كلها جارية على ما أجمله الوصف بالمتقين، فإن اليقين بدار الثواب والعقاب هو الذي يوجب الحذر والفكرة فيما ينجي النفس من العقاب وينعمها بالثواب وذلك الذي ساقهم إلى الإيمان بالنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

{هُم يُوقِنُونَ} اليقين هو العلم بالشيء عن نظر واستدلال فلا يتطرق إليه أدنى شك، ولا يكون إلا في أمر ذي نظر، فيكون أخص من الإيمان ومن العلم. واحتج الراغب لذلك بقوله تعالى: **{لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ}** [التكاثر: ٦]

فالتعبير عن إيمانهم بالآخرة بمادة الإيقان لأن هاته المادة تشعر بأنه علم حاصل عن تأمل وغوص الفكر في طريق الاستدلال لأن الآخرة لما كانت حياة غائبة عن المشاهدة غريبة بحسب المتعارف وقد كثرت الشبه التي جرت المشركين والدهريين على نفيها وإحالتها، كان الإيمان بها جديرا بمادة الإيقان بناء على أنه أخص من الإيمان.

وتقديم المجرور {وَبِالْآخِرَةِ} لمجرد الاهتمام مع رعاية الفاصلة بالنون، وقيل أن في هذا التقديم ثناء على هؤلاء بأنهم أيقنوا بأهم ما يوقن به المؤمن.

وهذا كله تخصيص لهم بمزية يجب اعتبارها وإن كان التفاضل بعد ذلك بقوة الإيمان ورسوخه وشدة الاهتداء.

{أُولَئِكَ} المشار إليهم ما تقدم ممن اتصفوا بالصفات الخمس؛ وأشار إليهم بصيغة البعد لعلّ مرتبتهم، واسم الإشارة هنا حل محل ذكر ضميرهم والإشارة أحسن منه وقعا لأنها تتضمن جميع أوصافهم المتقدمة.

{عَلَى} الإتيان بحرف الاستعلاء {عَلَى} تمثيل لحالهم بأن شبهت هيئة تمكّنهم من الهدى وثباتهم عليه ومحاولتهم الزيادة به

والسير في طريق الخيرات بهيأة الراكب في الاعتلاء على المركوب والتمكن من تصريفه والقدرة على إرضاه. وأصله: "أولئك على مطية الهدى".

قال ابن عثيمين: {على} للاستعلاء؛ وتفيد علوهم على هذا الهدى، وسيرهم عليه، كأنهم يسيرون على طريق واضح بين؛ فليس عندهم شك؛ تجدهم يُقبلون على الأعمال الصالحة وكأن سراجاً أمامهم يهتدون به: تجدهم مثلاً ينظرون في أسرار شريعة الله وحكمها، فيعلمون منها ما يخفى على كثير من الناس؛ وتجدهم أيضاً عندما ينظرون إلى القضاء والقدر كأنما يشاهدون الأمر في مصلحتهم حتى وإن أصيبوا بما يضرهم أو يسوءهم، يرون أن ذلك من مصلحتهم؛ لأن الله قد أنار لهم الطريق؛ فهم على هدى من ربهم وكأن الهدى مركب ينجون به من الهلاك، أو سفينة ينجون بها من الغرق؛ فهم متمكنون غاية التمكن من الهدى؛ لأنهم عليه.

{هُدًى} الهدى: الاهتداء، ومعناه راجع إلى معنى الإرشاد كيفما تصرف. قال أبو المعالي: وقد ترد الهداية والمراد بها إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المفضية إليها، من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: **{فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ. سَيَهْدِيهِمْ}**

[محمد: ٤-٥] ومنه قوله تعالى: **{فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ}**
[الصافات: ٢٣] معناه فاسلكوهم إليها.

والهدى هُديان: «هدى دلالة»، وهو الذي تقدر عليه الرسل
وأتباعهم، قال الله تعالى: **{وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ}** [الرعد: ٧]. وقال:
{وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: ٥٢] فأثبت لهم
الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه، وتفرد هو سبحانه بهدى
«التأييد والتوفيق»، فقال لنبيه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **{إِنَّكَ لَا
تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}** [القصص: ٥٦] فالهدى على هذا يجيء
بمعنى: "خلق الإيمان في القلب"، ومنه قوله تعالى: **{أُولَئِكَ عَلَى
هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ}** [البقرة: ٥] وقوله: **{وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}** [فاطر: ٨]
{مَنْ رَبِّهِمْ} وصف الهدى بأنه من ربهم للتنويه بذلك الهدى
وتعظيمه وتشريفه، وسلامة منهجهم.. والربوبية هنا خاصة متضمنة
للتربية الخاصة التي فيها سعادة الدنيا والآخرة.

وكل ذلك يرجع إلى تعظيم المتصفين بالتمكن منه، مع الإشارة
بأنهم بمحل العناية من الله، وكذلك إضافة الرب إليهم هي إضافة
تعظيم لشأن المضاف إليه.

وقوله: **{أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ}** جملة مستأنفة استئنافا

بيانيا لأن السامع إذا سمع ما تقدم من صفات الثناء عليهم ترقب فائدة تلك الأوصاف، كما أن تلك الأوصاف هي سبب تمكنهم من هدى ربهم.

{وَأُولَئِكَ} ووجه تكرير اسم الإشارة التنبيه على أن كِلْتَا الْأَثَرَتَيْنِ جَدِيرَةٌ بِالاعتناء والتنويه، فلا تذكر إحداهما تبعا للأخرى بل تخص بجملة وإشارة خاصة ليكون اشتهاهم بذلك اشتها را بكِلْتَا الجملتين، وأنهم ممن يقال فيه كلا القولين.

ووجه العطف بالواو دون الفصل أن بين الجملتين توسطًا بين «كمالي الاتصال» و «الانقطاع» لأنك إن نظرت إلى اختلاف مفهومهما وزمن حصولهما فإن مفهوم إحداهما وهو الهدى حاصل في الدنيا ومفهوم الأخرى وهو الفلاح حاصل في الآخرة كانتا منقطعتين. وإن نظرت إلى تسبب مفهوم إحداهما عن مفهوم الأخرى، وكون كل منهما مقصودا بالوصف كانتا متصلتين، فكان التعارض بين كمالي الاتصال والانقطاع منزلا إياهما منزلة المتوسطتين، ومعلوم أن حالة التوسط تقتضي العطف كما تقرر في علم المعاني.

{هُمُ الْمُفْلِحُونَ} الفلاح هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب؛ فهي كلمة جامعة لانتفاء جميع الشرور، وحصول جميع الخير.

وضمير الفصل {هم} للتأكيد، والتعريف في المفلحون للجنس، وهو الأظهر إذ لا معهود هنا بحسب ظاهر الحال، وهو يفيد الاختصاص الحقيقي، مع الاهتمام بالخبر.

قال في الكشف: "الذين إن حصلت صفة المفلحين وتحققوا ما هم وتصوروا بصورتهم الحقيقية فَهُمْ هُمْ".

والفلاح: الفوز وصلاح الحال، فيكون في أحوال الدنيا وأحوال الآخرة، والمراد به في اصطلاح الدين الفوز بالنجاة من العذاب في الآخرة.

قال في الكشف: "انظر كيف كرر الله عز وجل التنبيه على اختصاص المتقين بنيل ما لا يناله أحد على طرق شتى وهي ذكر اسم الإشارة وتكريره وتعريف المفلحين، وتوسيط ضمير الفصل بينه وبين {أُولَئِكَ} ليبصر مراتبهم ويرغبك في طلب ما طلبوا وينشطك لتقديم ما قدموا".

وفيه: أن الفلاح مرتب على الاتصاف بما ذكر؛ فإن اختلت صفة منها نقص من الفلاح بقدر ما اختل من تلك الصفات؛ لأن الصحيح من قول أهل السنة والجماعة، والذي دلّ عليه العقل والنقل، أن الإيمان يزيد وينقص ويتجزأ؛ ولولا ذلك ما كان في الجنات درجات: هناك رتب كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ [البعيد الذاهب الماضي الذي تدلى للغروب وبعد عن العيون] مِنَ الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لَتَفَاضُلٍ مَا بَيْنَهُمْ) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟ قَالَ: (بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رَجُلٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ)، أي ليست خاصة بالأنبياء.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧)

هذا انتقال من الشناء على الكتاب ومتقليديه ووصف هديه وأثر ذلك الهدى في الذين اهتدوا به، والشناء عليهم الراجع إلى الشناء على الكتاب لما كان الشناء إنما يظهر إذا تحققت آثار الصفة التي استحق بها الشناء، ولما كان الشيء قد يقدر بضده انتقل إلى الكلام على الذين لا يحصل لهم الاهتداء بهذا الكتاب، وسجل أن حرمانهم من الاهتداء بهديه إنما كان من خبث أنفسهم إذ نبوا بها عن ذلك، فما كانوا من الذين يفكرون في عاقبة أمورهم، ويحذرون من سوء العواقب فلم يكونوا من المتقين، وكان سواء عندهم الإنذار وعدمه فلم يتلقوا الإنذار بالتأمل بل كان سواء والعدم عندهم، وقد قرنت الآيات فريقين فريقا أضمر الكفر وأعلنه وهم من المشركين كما هو غالب اصطلاح القرآن في لفظ: **{الَّذِينَ كَفَرُوا}** وفريقا أظهر الإيمان وهو مخادع وهم المنافقون المشار إليهم بقوله تعالى: **{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}** [البقرة: ٨].

{إِنَّ} حرف توكيد، ومجيء "إن" للاهتمام كثير في الكلام وهو في القرآن كثير

{الَّذِينَ كَفَرُوا} الكُفْر: التغطية والستر، ومنه سُمِّي الليل كافراً، فيقال: «الليل الكافر»، ومنه قوله تعالى: **{كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ}** [الحديد: ٢٠] يعني الزُّرَّاع لتغطيتهم البذر في الأرض.

قال أبو العباس المقرئ: ورد لفظ «الكفر» في القرآن على أربعة أضرب:

** الأول: الكُفْر بمعنى ستر التوحيد وتغطيته، قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** فهذا كفر إنكار الخالق أو إنكار كماله أو إنكار ما جاءت به رسله.

** الثاني: بمعنى الجُحود، قال تعالى: **{فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ}** [البقرة: ٨٩].

** الثالث: بمعنى كفر النعمة، قال تعالى: **{لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}** [إبراهيم: ٧] أي: بالنعمة، ومثله: **{واشكروا لي وَلَا تَكْفُرُونِ}** [البقرة: ١٥٢] وقال تعالى: **{قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ}** [النمل: ٤٠].

**** الرابع: البراءة، قال تعالى: {إِنَّا بُرَءَاؤُا مِّنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ} [الممتحنة: ٤] أي: تبرأنا منكم، وقوله: {ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ} [العنكبوت: ٢٥].**

والمقصود هنا الكافرون الخُلص الذين ماتوا على الكفر؛ فالمراد هنا من الكفر أبلغ أنواعه بقرينة قوله: **{ لَا يُؤْمِنُونَ }** فهم فريقا خاصا من الكفار لا يرجى إيمانهم، وهم الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، والمقصود من ذلك أن عدم اهتدائهم بالقرآن كان لعدم قابليتهم لا لنقص في دلالة القرآن على الخير وهديه إليه.

ففي هذه السورة العظيمة ابتداءً الله تعالى فيها بتقسيم الناس إلى ثلاثة أقسام: المؤمنون الخُلص؛ ثم الكافرون الخُلص؛ ثم المؤمنون بالسنتهم دون قلوبهم؛ فبدأ بالطيب، ثم الخبيث، ثم الأخبث؛ إذاً الطيب: هم المتقون المتصفون بهذه الصفات؛ والخبيث: الكفار؛ والأخبث: المنافقون.

{سَوَاءٌ} مستو، أي: «هما سَيَّان» بمعنى: مثلاًن {عَلَيْهِمْ}
وإنما عدى سواء بـ {على} هنا وفي غير موضع ولم يعلق بـ "عند أو لدي" ونحوهما مع أنه المقصود من الاستعلاء في مثله، للإشارة

إلى تمكن الاستواء عند المتكلم وأنه لا مصرف له عنه ولا تردد له فيه، فالمعنى: سواء عندهم الإنذار وعدمه.

{أَنْذَرْتَهُمْ} "الإنذار" هو الإعلام المقرون بالتخويف؛ وقيل: الإعلام مع التخويف في مدة تسع التحفظ من المخوف، وإن لم تسع سمي إعلاماً وإشعاراً أو إخباراً.

والرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بشير ونذير؛ بشير معلم بما يسر بالنسبة للمؤمنين؛ ونذير معلم بما يسوء بالنسبة للكافرين.

{أَمْ لَمْ} حرف نفي وهو مما يختص بالمضارع **{تُنذِرُهُمْ}** والمعنى: سواء عليهم إنذارك وعدمه، فإنذار النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وعدمه بالنسبة لهؤلاء الكفار المعاندين والمخاصمين الذين تبين لهم الحق ولكن جحدوه مستوٍ عليهم.

{لَا يُؤْمِنُونَ} هذا محط الفائدة في نفي التساوي. أي إنهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون؛ وتعليل ذلك قوله تعالى: **{خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ..}**

وهذا تسلية من الله لرسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لا اعتذاراً للكفار، ولا تبيساً له -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

{خَتَمَ اللَّهُ} الختم هو "الطبع والسد والغلق" على الإناء من أجل ألا يخرج منه شيء، ولا يدخل إليه شيء، مع وضع علامة مرسومة في خاتم ليمنع ذلك من فتح المختوم، فإذا فتح علم صاحبه أنه فتح لفساد يظهر في أثر النقش، وقد اتخذ النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خاتماً لذلك، وقد كانت العرب تختتم على قوارير الخمر ليصلحها انحباس الهواء عنها، وتسلم من الأقدار في مدة تعتيقها، وطين الختم طين خاص يشبه الجبس يبل بماء ونحوه ويشد على الموضع المختوم فإذا جف كان قوي الشد لا يقلع بسهولة.

{عَلَى قُلُوبِهِمْ} فهؤلاء -والعياذ بالله- قلوبهم مختوم عليها لا يصدر منها خير، ولا يصل إليها خير **{وَعَلَى سَمْعِهِمْ}** فلا تسمع خيراً تنتفع به **{وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ}** أي غطاء يحول بينها وبين النظر إلى الحق؛ ولو نظرت لم تنتفع. كقوله تعالى: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}** [النحل: ١٠٨]

والغشاوة تناسب الأبصار لأن الختم يناسب الأسماع كما يناسب القلوب إذ كلاهما يشبه بالوعاء ويتخيل فيه

معنى الغلق والسد. كقوله تعالى: **{وَحْتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً}** [الجاثية: ٢٣]

وفي أفراد السمع لطيفة روعيت من جملة بلاغة القرآن هي أن القلوب كانت متفاوتة واشتغالها بالتفكر في أمر الإيمان والدين مختلف باختلاف وضوح الأدلة، وبالكثرة والقلة، وتتلقى أنواعا كثيرة من الآيات فلكل عقل حظه من الإدراك، وكانت الأبصار أيضا متفاوتة التعلق بالمرئيات التي فيها دلائل الوجدانية في الآفاق، وفي الأنفس التي فيها دلالة، فلكل بصر حظه من الالتفات إلى الآيات المعجزات والعبر والمواعظ، فلما اختلفت أنواع ما تتعلق به جمعت. وأما الأسماع فإنما كانت تتعلق بسماع ما يلقي إليها من القرآن فالجماعات إذا سمعوا القرآن سمعوه سماعا متساويا وإنما يتفاوتون في تدبره والتدبر من عمل العقول فلما اتحد تعلقها بالمسموعات جعلت سمعا واحدا.

وفي تقديم السمع على البصر في مواقعه من القرآن دليل على أنه أفضل فائدة لصاحبه من البصر فإن التقديم مؤذن بأهمية المقدم، وذلك لأن السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل، وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه

أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع، ولأن السمع ترد إليه الأصوات المسموعة من الجهات الست بدون توجه، بخلاف البصر فإنه يحتاج إلى التوجه بالالتفات إلى الجهات غير المقابلة.

والآية نعي على الموصوفين بذلك والتشنيع بحالهم لأن ذلك باعتبار ما لهم من الميل والاكْتِسَاب، وَبِالتَّحْقِيقِ القدرة على الفعل والترك التي هي دون الخلق، فالله تعالى قدر الشرور وأوجد في الناس القدرة على فعلها ولكنه نهاهم عنها لأنه أوجد في الناس القدرة على تركها أيضا، فلا تعارض بين القدر والتكليف.

قال ابن عاشور: هذه الجملة جارية مجرى التعليل للحكم السابق في قوله تعالى: **{سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}** [البقرة: ٦] وبيان لسببه في الواقع ليدفع بذلك تعجب المتعجبين من استواء الإنذار وعدمه عندهم ومن عدم نفوذ الإيمان إلى نفوسهم مع وضوح دلائله، فإذا علم أن على قلوبهم ختما وعلى أسماعهم وأن على أبصارهم غشاوة علم سبب ذلك كله وبطل العجب، فالجملة استئناف بياني يفيد جواب سائل يسأل عن سبب كونهم لا يؤمنون، وموقع هذه الجملة في نظم الكلام مقابل موقع جملة **{أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ}** [البقرة: ٥] فلهذه

الجملة مكانة بين ذم أصحابها بمقدار ما لتلك من المكانة في
الثناء على أربابها.

قال أهل المعاني: وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة
أوصاف: بالختم والطبع والضيق والمرض والرّين والموت والقساوة
والانصراف والحمية والإنكار.

فقال في الختم: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [البقرة: ٧].

وقال في الطبع: {وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}
[التوبة: ٨٧]. وقال: {بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ}
[النساء: ١٥٥].

وقال في الضيق: {وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا}
[الأنعام: ١٢٥].

وقال في المرض: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [محمد: ٢٩].
وقال في الرين: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}
[المطففين: ١٤].

وقال في الموت: {أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ} [الأنعام: ١٢٢].
وقال: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ}
[الأنعام: ٣٦]

وقال في القساوة: {فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ} [الزمر: ٢٢]. وقال: {ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} [البقرة: ٧٤].

وقال في الانصراف: {ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} [التوبة: ١٢٧].

وقال في الحمية: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ} [الفتح: ٢٦].

وقال في الإنكار: {قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} [النحل: ٢٢].

{وَلَهُمْ عَذَابٌ} العذاب مشتق من الحبس والمنع، يقال في اللغة: أعذبه عن كذا أي أحبسه وأمنعه، ومنه سمي عذوبة الماء، لأنها قد أعذبت بالحبس في الوعاء ليصفو ويفارقه ما خالطه. ومنه قول علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "أعذبوا نساءكم عن الخروج"، أي احبسوهن.

وعنه -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وقد شيع سرية فقال: أعذبوا عن ذكر النساء فإن ذلك يكسرکم عن الغزو.

فسمي العذاب عذاباً لأن صاحبه يحبس ويمنع عنه جميع ما يلائم الجسد من الخير ويهال عليه أضدادها.

{عَظِيمٌ} وهو عذاب النار؛ وعظمه الله تعالى؛ لأنه لا يوجد أشد من عذاب النار.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)

{وَمِنْ} للتبعيض؛ أي: وبعض الناس، وهم المنافقون؛ ولم يصفهم الله تعالى بوصف لا بإيمان، ولا بكفر؛ لأنهم كما وصفهم الله تعالى في سورة النساء: **{مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}** [النساء: ١٤٣]

{النَّاسِ} اسم جمع لا واحد له من لفظه، ومرادفه: أناسي، جمع: إنسان أو إنسي. قال تعالى: **{لِنُخِي بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْعَامَ كَثِيرًا}** [الفرقان: ٤٩] سُمُوا أناساً: من الأنس؛ لأن بعضهم يأنس بعضاً، ويركن إليه؛ ولهذا يقولون:

«الإنسان مدني بالطبع»؛ بمعنى: أنه يحب المدنية. يعني الاجتماع، وعدم التفرق.

{مَنْ يَقُولُ} بلسانه، وفي التعبير بـ **{يَقُولُ}** في مثل هذا المقام إيماء إلى أن ذلك غير مطابق للواقع لأن الخبر المحكي عن الغير إذا لم يتعلق الغرض بذكر نصه وحكى بلفظ **{يَقُولُ}** أو ما ذلك إلى أنه غير مطابق لاعتقاده أو أن المتكلم يكذبه في ذلك، ففيه تمهيد لقوله: **{وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}**.

{آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ} واقتصروا من متعلق الإيمان على الله واليوم الآخر حيدة منهم عن أن يعترفوا بالإيمان برسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وبما أنزل إليه وإيهاماً أنهم من طائفة المؤمنين.

قال ابن عاشور: وإنما اقتصر القرآن من أقوالهم على قولهم: **{آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ}** مع أنهم أظهروا الإيمان بالنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، إيجازاً لأن الأول هو مبدأ الاعتقادات كلها لأن من لم يؤمن برب واحد لا يصل إلى الإيمان بالرسول إذ الإيمان بالله هو الأصل وبه يصلح الاعتقاد وهو أصل العمل، والثاني هو الوازع والباعث في الأعمال كلها وفيه صلاح الحال العملي. أو هم الذين اقتصروا في قولهم على هذا القول لأنهم لغلوهم في الكفر لا

يستطيعون أن يذكروا الإيمان بالنبي -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
استثقالا لهذا الاعتراف فيقتصرون على ذكر الله واليوم الآخر إيهاما
للاكتفاء ظاهرا ومحافظة على كفرهم باطنا لأن أكثرهم وقادتهم من
اليهود.

{وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} أي بقلوبهم. وفيه أن الإيمان لا بد أن
يتطابق عليه القلب، واللسان. ووجه الدلالة: أن هؤلاء قالوا: "آمنا"
بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم؛ فصح نفي الإيمان عنهم؛ لأن الإيمان
باللسان ليس بشيء.

{يُخَادِعُونَ} الخداع: قيل إظهار غير ما في النفس، وأصله
«الإخفاء»، ومنه سمي البيت المفرد في المنزل مخدعاً لتستر أهل
صاحب المنزل فيه، ومنه الأخدعان: وهما العرقان المستبطنان في
العنق، وقيل الخداع أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من
المكروه.

والخداع فعل مذموم إلا في الحرب، والانخداع تمشي حيلة
المخداع على المخدوع، وهو مذموم أيضا لأنه من البله، وأما إظهار
الانخداع مع التفطن للحيلة -إذا كانت غير مضرّة- فذلك من
الكرم والحلم.

وفي الحديث النبوي: (الْمُؤْمِنُ غَرٌّ [ساذج] كَرِيمٌ، وَالْفَاجِرُ خَبٌّ لَثِيمٌ) [أبو داود] أي من صفات المؤمن الصفح والتغاضي حتى يظن أنه غر ولذلك عقبه بكريم لدفع الغرية المؤذنة بالبله، فإن الإيمان يزيد الفطنة لأن أصول اعتقاده مبنية على نبذ كل ما من شأنه تضليل الرأي وطمس البصيرة ألا ترى إلى قوله: "والسعيد من وعظ بغيره" مع قوله: "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين" وكلها تنادي على أن المؤمن لا يليق به البله، وأما معنى المؤمن غر كريم فهو أن المؤمن لما زكت نفسه عن ضمائر الشر وَخُطُورِهَا بَبَالِهِ وحمل أحوال الناس على مثل حاله فعرضت له حالة استئمان تشبه الْغَرِيَّةَ، فإن كل ذلك من أسباب جودة الرأي ورقة القلب فلا عجب أن يكون سريع التأثر منها.

{الله} مخادعة المنافقين الله تعالى هو من حيث الصورة لا من حيث المعنى من جهة تظاهرهم بالإسلام الذي يعصمون به دمائهم وأموالهم وهم مبطنون للكفر، قاله جماعة، أو من حيث عدم عرفانهم بالله وصفاته فظنوا أنه ممن يصح خداعه. ومخادعة الله لهم حيث أجرى عليهم أحكام المسلمين واكتفى منهم في الدنيا بإظهار الإسلام، وإن أبطنوا خلافه.

{يُخَادِعُونَ اللَّهَ} بلفظ المضارع لا بلفظ الماضي لأن الماضي يشعر بالانقطاع بخلاف المضارع، فإنه يشعر في معرض الذم أو المدح بالديمومة.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا} وفي مخادعتهم للمؤمنين فوائد لهم من تعظيمهم عند المؤمنين، والتطلع على أسرارهم فيغشونها إلى أعدائهم، ورفع حكم الكفار عنهم من القتل وضرب الجزية، وغير ذلك، وما ينالون من الإحسان بالهدايا وقسم الغنائم.

{وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ} وما ينفذ سوء الخداع إلا على أنفسهم حيث منّوها الأمانى الكاذبة. فالحصر هنا يدل على أن خداعهم هذا لا يضر الله تعالى شيئاً، ولا رسوله ولا المؤمنين.

{وَمَا يَشْعُرُونَ} أي يفتنون أن وبال خدعهم راجع عليهم، فيظنون أنهم قد نجوا بخدعهم وفازوا، وإنما ذلك في الدنيا، وفي الآخرة يقال لهم: **{ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا}** [الحديد: ١٣].

قال أهل اللغة: الشعور: إدراك الشيء من وجه يدق، مشتق من الشَّعر، والإدراك بالحاسة مشتق من الشَّعار، وهو ثوب يلي الجسد، ومشاعر الإنسان حواسه.

وقيل: شعرت بالشيء أي فطنت له، ومنه الشاعر لفطنته، لأنه يظن لما لا يظن له غيره من غريب المعاني. ومنه قولهم: ليت شعري: أي ليتني علمت. يقال في التحير في علم أمر خفي، ولولا الخفاء لما تمنى علمه بل لعلمه بلا تمن.

وفيه أن العمل السيئ قد يُعمي البصيرة؛ فلا يشعر الإنسان بالأمور الظاهرة؛ لقوله تعالى: **{وَمَا يَشْعُرُونَ}** أي ما يشعرون أنهم يخدعون أنفسهم؛ و "الشعور" أخص من العلم؛ فهو العلم بأمور دقيقة خفية؛ ولهذا قيل: إنه مأخوذ من الشعر؛ والشعر دقيق؛ فهؤلاء الذين يخادعون الله والرسول والمؤمنين لو أنهم تأملوا حق التأمل لعرفوا أنهم يخدعون أنفسهم، لكن لا شعور عندهم في ذلك؛ لأن الله تعالى قد أعمى بصائرهم -والعياذ بالله- فلا يشعرون بهذا الأمر.

{فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ} هذه الجملة جملة اسمية تدل على مكث وتمكن هذا المرض في قلوبهم؛ ولكنه مرض على وجه قليل أثر بهم حتى بلغوا النفاق؛ ومن أجل هذا المرض قال سبحانه وتعالى: **{فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا}** فالفاء هنا عاطفة؛ ولكنها تفيد معنى السببية: زادهم الله مرضاً على مرضهم؛ لأنهم -والعياذ بالله- يريدون الكفر؛

وهذه الإرادة مرض أدى بهم إلى زيادة المرض؛ لأن الإرادات التي في القلوب عبارة عن صلاح القلوب، أو فسادها؛ فإذا كان القلب يريد خيراً فهو دليل على سلامته، وصحته؛ وإذا كان يريد الشر فهو دليل على مرضه وعلته.

قال الجنيد: علل القلوب من اتباع الهوى، كما أن علل الجوارح من مرض البدن.

وقد تلخص في القرآن من المعاني السببية التي تحصل في القلب سبعة وعشرون مرضاً، وهي: الرين، والزيع، والطبع، والصرف، والضيق، والخرج، والختم، والإقفال، والإشراب، والرعب، والقساوة، والإصرار، وعدم التطهير، والنفور، والاشمئزاز، والإنكار، والشكوك، والعمى، والإبعاد بصيغة اللعن، والتأبي، والحمية، والبغضاء، والغفلة، والغمزة، واللهو، والارتياب، والنفاق.

وظاهر آيات القرآن تدل على أن هذه الأمراض معان تحصل في القلب فتغلب عليه، وللقلب أمراض غير هذه من الغل والحقد والحسد، ذكرها الله تعالى مضافة إلى جملة الكفار.

{فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا} وزيادة المرض إما من حيث أن ظلمات كفرهم تحل في قلوبهم شيئاً فشيئاً، وإلى هذا أشار بقوله تعالى:

{ظَلَمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ} [النور: ٤٠] أو من حيث أن المرض حصل في قلوبهم بطريق الحسد أو الهم، بما يجدد الله سبحانه لدينه من علو الكلمة ولسوله وللمؤمنين من النصر ونفاذ الأمر، أو لما يحصل في قلوبهم من الرعب، وإسناد الزيادة إلى الله تعالى إسناد حقيقي.

وفيه أن المعاصي والفسوق، تزيد وتنقص، كما أن الإيمان يزيد وينقص.

وأن الإنسان إذا لم يكن له إقبال على الحق، وكان قلبه مريضاً فإنه يعاقب بزيادة المرض؛ وهذا المرض الذي في قلوب المنافقين: شبهات، وشهوات؛ فمنهم من علم الحق، لكن لم يُرده؛ ومنهم من اشتبه عليه؛ وقد قال الله تعالى في سورة النساء: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا}** [النساء: ١٣٧]، وقال تعالى في سورة المنافقين: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ}** [المنافقون: ٣]

وفيه أن أسباب إضلال الله العبد هو من العبد؛ لقوله تعالى: **{فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا}**؛ ومثل ذلك قوله تعالى:

{ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ } [الصف: ٥] ، وقوله تعالى: { وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ } [الأنعام: ١١٠] ، وقوله تعالى: { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمَ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ } [المائدة: ٤٩]

{ وَلَهُمْ عَذَابٌ } عقوبة { أَلِيمٌ } أي مؤلم؛ فهو شديد، وعظيم، وكثير؛ لأن الأليم قد يكون مؤلماً لقوته، وشدته: فضربة واحدة بقوة تؤلم الإنسان؛ وقد يكون مؤلماً لكثرته: فقد يكون ضرباً خفيفاً؛ ولكن إذا كثر وتوالى آلم؛ وقد اجتمع في هؤلاء المنافقين الأمران؛ لأنهم في الدرك الأسفل من النار. وهذا ألم حسي؛ وقال تعالى في أهل النار: { وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } [السجدة: ٢٠] ، وهذا ألم قلبي يحصل بتوبيخهم.

{ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ } فالعقوبات لا تكون إلا بأسباب. أي أن الله لا يعذب أحداً إلا بذنب. وفيه ذم الكذب وأنه من أقبح الخصال.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ} والقائل لهم: **{لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ}** بعض من وقف على حالهم من المؤمنين الذين لهم اطلاع على شؤونهم لقراءة أو صحبة، فيخلصون لهم النصيحة والموعظة رجاء إيمانهم، ويسترون عليهم خشية عليهم من العقوبة، وعلمًا بأن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يغضي عن زلاتهم.

ولا يصح أن يكون القائل لهم الله والرسول إذ لو نزل الوحي مُعَيَّنِينَ مِنْهُمْ لَعَلِمَ كُفْرُهُمْ، وَلَوْ نَزَلَ مُجْمَلًا كَمَا تَنْزِلُ مَوَاطِنُ الْقُرْآنِ لم يستقم جوابهم بقولهم **{إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}**.

{لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ} الفساد: تصيير الأشياء الصالحة مضرة، كالغش في الأطعمة، وقيل: التغير عن حالة الاعتدال والاستقامة.

وذكر المحل الذي أفسدوا ما يحتوي عليه وهو «الأرض» لتفطيع فسادهم بأنه مبثوث في هذه الأرض لأن وقوعه في رقعة منها تشويه لمجموعها.

والمقصود بالفساد هنا السعي في الأرض بالمعاصي - كما فسر به ذلك السلف - ويكون إما بترك امتثال الأمر واجتناب النهي، أو بالكفر، أو بالنفاق الذي ضافوا به الكفار وأطلعوهم على أسرار المؤمنين، أو بتهيج الحروب والفتن.

ووجه الفساد بهذه الأقوال التي قيلت أنها كلها كبائر عظيمة ومعاص جسيمة، وزادها تغليظاً إصرارهم عليها، والأرض متى كثرت معاصي أهلها وتواترت، قلّت خيراتها ونزعت بركاتها ومنع عنها الغيث الذي هو سبب الحياة، كما قال تعالى: **{ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}** [الروم: ٤١] فكان فعلهم الموصوف أقوى الأسباب لفساد الأرض وخرابها. كما أن الطاعة والاستغفار سبب لكثرة الخيرات ونزول البركات ونزول الغيث.

ومن المفسرين من فصل فقال:

أما إفساد الأرض نفسها: فإن المعاصي سبب للقحط، ونزع
البركات، وحلول الآفات في الثمار، وغيرها، كما قال تعالى عن آل
فرعون لما عصوا رسوله موسى عليه السلام: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ
فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصِ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}
[الأعراف: ١٣٠]، فهذا فساد في الأرض.

وأما الفساد في أهلها: فإن هؤلاء المنافقين يأتوا إلى اليهود،
ويقولون لهم: {لَئِنْ أَخْرَجْتُمْ لَنُخْرِجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا
أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}
[الحشر: ١١] فيزدادوا استعداداً للرسول -صلى الله عليه وسلم-
ومحاربة له؛ كذلك أيضاً من فسادهم في أهل الأرض: أنهم يعيشون
بين المسلمين، ويأخذون أسرارهم ويفشونها إلى أعدائهم؛ ومن
فسادهم في أهل الأرض: أنهم يفتحون للناس باب الخيانة والتقية،
بحيث لا يكون الإنسان صريحاً واضحاً، وهذا من أخطر ما يكون
في المجتمع.

{قَالُوا إِنَّمَا} أداة حصر **{نَحْنُ مُصْلِحُونَ}** فأخرجوا الجواب
جملة اسمية لتدل على ثبوت الوصف لهم، وأكدوها بـ «إنما»
دلالة على الحصر وقوة اتصافهم بالإصلاح.

وفيه أن من أعظم البلوى أن يُزَيَّن للإنسان الفساد حتى يرى أنه
مصلح؛ لقولهم: **{إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}** كقوله تعالى: **{أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ
سُوْءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}**
[فاطر: ٨]

وهذا الجواب الصادر من المفسدين لا ينشأ إلا عن مرض
القلب وأفن الرأي، لأن شأن الفساد أن لا يخفي ولئن خفي
فالتصميم عليه واعتقاد أنه صلاح بعد الإيقاظ إليه والموعظة إفراط
في الغباوة أو المكابرة وجهل فوق جهل.

{ألا} حرف تنبيه وتأکید، فإن أدوات الاستفتاح مثل «ألا» و
«أما» لما كان شأنها أن ينبه بها السامعون دلت على الاهتمام
بالخبر وإشاعته وإعلانه، فلا جرم أن تدل على أبلغية ما تضمنه
الخبر من مدح أو ذم أو غيرهما. **{إِنَّهُمْ}** توكيد أيضا **{هُمْ}** ضمير
فصل للتوكيد كذلك.

{الْمُفْسِدُونَ} فائت لهم ضد ما ادعوه مقابلاً لهم ذلك في
جملة اسمية مؤكدة بأنواع من التأكيد منها: التصدير بـ «ألا» و
«إن» وبالمجيء بـ «هم»، وبالمجيء بالألف واللام التي تفيد
الحصر عند بعضهم.

والمعنى: هم لا غيرهم المفسدون؛ وهذا كقوله تعالى: **{هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ}** [المنافقون: ٤] أي هم لا غيرهم؛ فلا عدااء أبلغ من عدااء المنافقين للمؤمنين؛ ولا فساد أعظم من فساد المنافقين في الأرض.

فإن أفعالهم التي يبتهجون بها وَيَزْعُمُونَهَا منتهى الحِدْقِ وَالْفِطْنَةِ وخدمة المصلحة الخالصة آيلة إلى فساد عام لا محالة، إلا أنهم لم يهتدوا إلى ذلك لخفائه وللغشاوة التي ألقى على قلوبهم من أثر النفاق ومخالطة عظماء أهله، فإن حال القرين وسخافة المذهب تطمس على العقول النيرة، وتخف بالأحلام الراجحة حتى ترى حسنا ما ليس بالحسن.

وفيه: أنه ليس كل من ادعى شيئا يصدق في دعواه؛ لأنهم قالوا: **{إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}**؛ فقال الله تعالى: **{أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ}**؛ وليس كل ما زينته النفس يكون حسناً، كما قال تعالى: **{أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}** [فاطر: ٨]

{وَلَكِنْ} حرف استدراك، لا يجوز أن يكون ما قبلها موافقاً لما بعدها **{لَا يَشْعُرُونَ}** أي لا يشعرون أنهم مفسدون؛ لأن الفساد أمر

حسي يدرك بالشعور والإحساس؛ فلبلاذتهم وعدم فهمهم للأمور، لا يشعرون بأنهم هم المفسدون دون غيرهم.

جعل لدعواهم ما هو إفساد إصلاحاً كمن انتفى عنه الشعور وكأنهم من البهائم، لأن من كان متمكناً من إدراك شيء فأهمل الفكر والنظر حتى صار يحكم على الأشياء الفاسدة بأنها صالحة، فقد انتظم في سلك من لا شعور له ولا إدراك، أو من كابر وعاند فجعل الحق باطلاً، فهو كذلك أيضاً.

وفيه تسلية عن كونهم لا يدركون الحق، إذ من كان من أهل الجهل فينبغي للعالم أن لا يكثر بمخالفته.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا} لما نهاهم تعالى عن الإفساد أمرهم بالإيمان لأن الكمال يحصل بترك ما لا ينبغي وبفعل ما ينبغي، وبدأ بالمنهي عنه لأنه الأهم، ولأن المنهيات عنها هي من «باب التروك»، والتروك أسهل في الامتثال من امتثال المأمورات بها.

{كَمَا آمَنَ النَّاسُ} والمراد بالناس من عدا المخاطبين، كلمة تقولها العرب في الإغراء بالفعل والحث عليه لأن شأن النفوس أن تسرع إلى التقليد والاقتراء بمن يسبقها في الأمر، فلذلك يأتون بهاته الكلمة في مقام الإغراء أو التسلية أو الائتساء.

وفيه إشارة إلى الإخلاص، وإلا فهم ناطقون بكلمتي الشهادة غير معتقديها.

قال في البحر المحيط: ويعني بالناس رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأصحابه، قاله ابن عباس، أو عبد الله بن سلام ونحوه ممن حسن إسلامه من اليهود، قاله مقاتل، أو معاذ بن جبل وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير وجماعة من وجوه الأنصار عدهم الكلبي.

{قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ} السفه: الخفة، ومنه قيل للثوب الخفيف النسج: سفيه، وفي الناس خفة، والعرب تطلق السفاهة على أفن الرأي وضعفه، وتطلقها على سوء التدبير للمال. قال تعالى: **{وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ}** [النساء: ٥] وقال: **{فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا}** [البقرة: ٢٨٢] لأن ذلك إنما يجيء من ضعف الرأي.. ونظير السفه النزق والطيش، ونقيض السفه: الرشد.

ويحتمل أن يكون قولهم ذلك من باب التعنت والتجلد حذراً من الشماتة، وهم عالمون بأنهم ليسوا بسفهاء.

قال ابن عاشور: ووصفهم المؤمنين بالسفاهة بهتان لزعمهم أن مخالفتهم لا تكون إلا لخفة في عقولهم، وليس ذلك لتحقيرهم، كيف وفي المسلمين سادة العرب من المهاجرين والأنصار. وهذه شنشنة أهل الفساد والسفه أن يرموا المصلحين بالمذمات بهتاناً ووقاحة ليلهوهم عن تتبع مفاسدهم، ولذلك قال أبو الطيب:

وإذا أتت مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني كامل
وقال في البحر المحيط: ويحتمل أن يكون ذلك من باب الاعتقاد الجزم عندهم، فيكونوا قد نسبوه للسفه معتقدين أنهم سفهاء، وذلك لما أدخلوا به من النظر والفكر الصحيح المؤدي إلى إدراك الحق، وهم كانوا في رئاسة ويسار، وكان المؤمنون إذ ذاك أكثرهم فقراء وكثير منهم موال، فاعتقدوا أن من كان بهذه المثابة كان من السفهاء لأنهم اشتغلوا ما لا يجدي عندهم وكسلوا عن طلب الرئاسة والغنى وما به السؤدد في الدنيا، وذلك هو غاية السفه عندهم.

وفيه: شدة طغيان المنافقين؛ لأنهم أنكروا على الدين عرضوا عليهم الإيمان: {قَالُوا أُنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ}؛ وهذا غاية ما

يكون من الطغيان؛ ولهذا قال الله تعالى في آخر الآية: {وَيَمُدُّهُمْ
فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}

{أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ} لما كان قولهم {أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ
السَّفَهَاءُ} فيه إثبات منهم في دعواهم بسفه المؤمنين أنهم
موصوفون بضد السفه، وهو رزاة الأحلام ورجحان العقول، فرد الله
عليهم قولهم وأثبت أنهم هم السفهاء، وصدر الجملة بـ «ألا» التي
للتنبيه لينادي عليهم المخاطبين بأنهم السفهاء، وأكد ذلك بـ «إِنَّ»
وبضمير الفصل «هم».

قال ابن عاشور: أتى بما يقابل جفاء طبعهم انتصارا للمؤمنين،
ولولا جفاء قولهم {أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السَّفَهَاءُ} لما تصدى القرآن
لسبابهم مع أن عاداته الإعراض عن الجاهلين، ولكنهم كانوا مضرب
المثل: «قُلْتُ فَأَوْجِبْتَ»، ولأنه مقام بيان الحق من الباطل فتحسن
فيه الصراحة والصرامة كما تقرر في آداب الخطابة، وأعلن ذلك
بكلمة «ألا» المؤذنة بالتنبيه للخبر، وجاء بصيغة القصر على نحو
ما قرر في {أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ} ليدل على أن السفاهة
مقصورة عليهم دون المؤمنين فهو إضافي لا محالة. وإذا ثبتت لهم

السفاهة انتفى عنهم الحلم لا محالة لأنهما ضدان في صفات العقول.

{وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ} وإنما قال هناك **{لَا يَشْعُرُونَ}** وهنا **{لَا يَعْلَمُونَ}** لأن المثبت لهم هناك هو الإفساد، وهو مما يدرك بأدنى تأمل، لأنه من المحسوسات التي لا تحتاج إلى فكر كثير، فنفي عنهم ما يُدرك بالمشاعر -وهي الحواس- مبالغة في تجهيلهم، وهو أن الشعور الذي قد يثبت للبهائم منفي عنهم.. لكن المثبت هنا هو «السفه»، والمصدر به هو الأمر بالإيمان، وذلك مما يحتاج إلى إمعان فكر واستدلال ونظر تام يفضي إلى الإيمان والتصديق، ولم يقع منهم المأمور به فناسب ذلك نفي العلم عنهم، ولأن السفه هو خفة العقل والجهل بالمأمور والعلم نقيض الجهل، فقابله بقوله: **{لَا يَعْلَمُونَ}**، لأن عدم العلم بالشيء جهل به.

وقيل: لأن اتصافهم بالسفه ليس مما شأنه الخفاء حتى يكون العلم به شعورا ويكون الجهل به نفي شعور، بل هو وصف ظاهر لا يخفى لأن لقاءهم كل فريق بوجه واضطرابهم في الاعتماد على إحدى الخلتين وعدم ثباتهم على دينهم ثباتا كاملا ولا على الإسلام كذلك كاف في النداء بسفاهة أحلامهم فإن السفاهة صفة لا تكاد

تخفي.. فظنهم أن ما هم عليه من الكفر رشد، وأن ما تقلده المسلمون من الإيمان سفه يدل على انتفاء العلم عنهم.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رِيحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)

{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا} كإيمانكم، فأظهروا أنهم مؤمنون بمجرد القول لا بعقد القلب، أي نطقوا بكلمة الإسلام وغيرها مما يترجم عن الإيمان.

{وَإِذَا خَلَوْا} انفردوا، فالخلو: الانفراد، وخلا به أي انفرد {إِلَى} وقد عدى هنا بـ «إلى» ليشير إلى أن الخلوة كانت في مواضع هي مآبهم ومرجعهم وأن لقاءهم للمؤمنين إنما هو صدفة ولمحات قليلة، أفاد ذلك كله قوله {لَقُوا} و {خَلَوْا}. وهذا من بديع فصاحة الكلمات وصراحتها.

{شَيَاطِينِهِمْ} الشيطان كل متمرّد أو مارد -يعني عات- من الجن والإنس والدواب، من «شطن» بمعنى بُعد، لأنّه أبعد عن رحمة الله وعن الجنة.

وقد وصف النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الكلب الأسود بأنّه شيطان؛ وليس معناه شيطان الجن؛ بل معناه: الشيطان في جنسه: لأنّ أعتى الكلاب، وأشدّها قبحاً هي الكلاب السود؛ فلذلك قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (الْكَلْبُ الْأَسْوَدُ شَيْطَانٌ) [مسلم]؛ ويقال للرجل العاتي: هذا شيطان بني فلان. أي مريدهم وعاتيهم.

قيل: هم اليهود الذين كانوا يأمرّونهم بالتكذيب، قاله ابن عباس. أو رؤسائهم في الكفر، قاله ابن مسعود. أو شياطين الجن، قاله الكلبي. أو كهنتهم، قاله الضحاك وجماعة.

وكان في عهد رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من الكهنة جماعة منهم: كعب بن الأشرف من بني قريظة، وأبو بردة في بني أسلم، وعبد الدار في جهينة، وعوف بن عامر في بني أسد، وابن السوداء في الشام، وكانت العرب يعتقدون فيهم الاطلاع على علم الغيب، ويعرفون الأسرار، ويداوون المرضى، وسموا شياطين لتمردهم وعتوّهم، أو باسم قرنائهم من الشياطين، إن فسروا

بالكهنة، أو لشبههم بالشياطين في وسوستهم، وغرورهم، وتحسينهم للفواحش، وتقبيحهم للحسن.

{قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ} بالتأكيد، لأنه لما بدا من إبداعهم في النفاق عند لقاء المسلمين ما يوجب شك كبرائهم في البقاء على الكفر، وتطرق به التهمة أبواب قلوبهم، احتاجوا إلى تأكيد ما يدل على أنهم باقون على دينهم، وكذلك قولهم **{إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}**.

قال ابن عاشور: لكن مخاطبتهم المؤمنين انتفى عنها ما يقتضي تأكيد الخبر - **{قَالُوا آمَنَّا}** - لأن المخبرين لم يتعلق غرضهم بأكثر من ادعاء حدوث إيمانهم لأن نفوسهم لا تساعد على أن يتلفظوا بأقوى من ذلك، ولأنهم علموا أن ذلك لا يروج على المسلمين أي فاقصروا على اللازم من الكلام، فإن عدم التأكيد في الكلام قد يكون لعدم اعتناء المتكلم بتحقيقه، ولعلمه أن تأكيده عبث لعدم رواجه عند السامع.

{إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ} الاستهزاء: الاستخفاف والسخرية. والسين والتاء للتأكيد مثل استجاب.

فلم يكتفوا بالإخبار بالموافقة، بل بينوا أن سبب مقاتلتهم للمؤمنين إنما هو الاستهزاء والاستخفاف. وذلك من إتقان نفاقهم.

{اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} لم تعطف هاته الجملة على ما قبلها لأنها جملة مستأنفة استئنفاً بيانياً، ومن الذي يتولى مقابلة صنعهم؟ فكان للاستئناف بقوله: **{اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ}** غاية الفخامة والجزالة، ولأجل اعتبار الاستئناف قدم اسم الله تعالى على الخبر الفعلي. ولم يقل: "يستَهْزِئُ الله بهم"، لأن مما يجول في خاطر السائل أن يقول: من الذي يتولى مقابلة سوء صنعهم؟ فَأَعْلِمَ أن الذي يتولى ذلك هو رب العزة تعالى. وفي ذلك تنويه بشأن الْمُنتَصِرِ لهم وهم المؤمنون كما قال تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا}** [الحج: ٣٨]

والمعنى: أي ينتقم الله تعالى منهم ويعاقبهم، ويسخر بهم ويجازيهم على استهزائهم، فسمى العقوبة باسم الذنب. هذا قول الجمهور من العلماء، كناية عن مجازاته لهم، وأطلق اسم الاستهزاء على المجازاة ليعلم أن ذلك جزاء الاستهزاء، بدليل قوله: **{وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ}** ولم يقع استهزاء حقيقي في الدنيا.

والعرب تستعمل ذلك كثيراً في كلامهم، وتسمى «المشاكلة»، ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم:
ألا لا يجهلن أحد علينا... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فسمى انتصاره جهلاً، والجهل لا يفتخر به ذو عقل، وإنما قال ليزدوج الكلام فيكون أخف على اللسان من المخالفة بينهما. وكانت العرب إذا وضعوا لفظاً بإزاء لفظ جواباً له وجزاء ذكره بمثل لفظه وإن كان مخالفاً له في معناه، وعلى ذلك جاء القرآن والسنة: قال الله عز وجل: **{وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}** [الشورى: ٤٠]. وقال: **{فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}** [البقرة: ١٩٤] والجزاء لا يكون سيئة. والقصاص لا يكون اعتداء، لأنه حق وجب، ومثله: **{وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ}** [آل عمران: ٥٤]. و**{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا، وَأَكِيدُ كَيْدًا}** [الطارق: ١٥-١٦].

{إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ، اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} وليس منه سبحانه مكر ولا هزء إنما هو جزاء لمكرهم واستهزائهم وجزاء كيدهم، فأطلق على الشيء ما أشبهه صورة لا معنى، وكذلك قوله **{يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ}** [النساء: ١٤٢]. **{فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ}** [التوبة: ٧٩].

وقال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا) [البخاري]. قيل: حتى بمعنى الواو أي وتملوا. وقيل

المعنى وأنتم تملون. وقيل: المعنى لا يقطع عنكم ثواب أعمالكم حتى تقطعوا العمل.

والاستهزاء لا يكون كملاً عند الإطلاق؛ ولكن هو كمال عند التقييد؛ فهذا لا يجوز أن يوصف به إلا مقيداً، مثل: الخداع، والمكر، والاستهزاء، والكيد. فلا يصح أن تقول: إن الله مكر على سبيل الإطلاق، ولكن قل: إن الله مكر بمن يمكر به، وبرسله، ونحو ذلك.

ولم يبين هنا شيئاً من استهزائه بهم. وذكر بعضه في سورة الحديد في قوله: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [الحديد: ١٣].

أو أنه لم يعجل لهم العقوبة في الدنيا، بل أملى وأخرهم إلى الآخرة، أو عن تجديد الله لهم نعمة كلما أحدثوا ذنباً، فيظنون أن ذلك لمحبة الله لهم، أو عن فتح باب الجنة فيسرعون إليه فيغلق، فيضحك منهم المؤمنون، أو عن خمود النار فيمشون فيخسف

بهم، أو عن قوله تعالى: {ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ} [الدخان: ٤٩]

ويقول ابن عثيمين: والاستهزاء هنا في الآية على حقيقته؛ لأن استهزاء الله بهؤلاء المستهزين دال على كماله، وقوته، وعدم عجزه عن مقابلتهم؛ فهو صفة كمال هنا في مقابل المستهزين مثل قوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا، وَأَكِيدُ كَيْدًا} [الطارق: ١٥ - ١٦] أي أعظم منه كيداً؛ فالاستهزاء من الله تعالى حق على حقيقته، ولا يجوز أن يفسر بغير ظاهره؛ فتفسيره بغير ظاهره محرم؛ وكل من فسر شيئاً من القرآن على غير ظاهره بلا دليل صحيح فقد قال على الله ما لم يعلم؛ والقول على الله بلا علم حرام، كما قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: ٣٣]؛ فكل قول على الله بلا علم في شرعه، أو في فعله، أو في وصفه غير جائز؛ بل نحن نؤمن بأن الله جل وعلا يستهزئ بالمنافقين استهزاءً حقيقياً؛ لكن ليس كاستهزائنا؛ بل أعظم من استهزائنا، وأكبر، وليس كمثله شيء.

وهذه القاعدة يجب أن يسار عليها في كل ما وصف الله به نفسه؛ فكما أنك لا تتجاوز حكم الله فلا تقول لما حرم: "إنه حلال"، فكذلك لا تقول لما وصف به نفسه أن هذا ليس المراد؛ فكل ما وصف الله به نفسه يجب عليك أن تبقيه على ظاهره، لكن تعلم أن ظاهره ليس كالذي ينسب لك؛ فاستهزاء الله ليس كاستهزائنا؛ وقرب الله ليس كقربنا؛ واستواء الله على عرشه ليس كاستوائنا على السرير؛ وهكذا بقية الصفات نجريها على ظاهرها، ولا نقول على الله ما لا نعلم؛ ولكن ننزه ربنا عما نزه نفسه عنه من مماثلة المخلوقين؛ لأن الله تعالى يقول: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** [الشورى: ١١]

أما الخيانة فلا يوصف بها الله مطلقاً؛ لأن الخيانة صفة نقص مطلق؛ و"الخيانة" معناها: الخديعة في موضع الائتمان. وهذا نقص؛ ولهذا قال الله عز وجل: **{وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** [الأنفال: ٧١]، ولم يقل: فخانهم؛ لكن لما قال تعالى: **{إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ}** قال: **{وَهُوَ خَادِعُهُمْ}** [النساء: ١٤٢]؛ لأن الخديعة صفة مدح مقيدة؛ ولهذا قال الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (الْحَرْبُ خُدْعَةٌ)

[البخاري]، وقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (ولا تخن من خانك) [البیهقي في شعب الإيمان]؛ لأن الخيانة تكون في موضع الائتمان؛ أما الخداع فيكون في موضع ليس فيه ائتمان؛ والخيانة صفة نقص مطلق.

وفي مقابلة استهزائهم بالمؤمنين باستهزاء الله بهم ما يدل على عظم شأن المؤمنين وعلو منزلتهم، وليعلم المنافقون أن الله هو الذي يذب عنهم ويحارب من حاربهم.

وفي افتتاح الجملة باسم التفخيم العظيم، حيث صدرت الجملة به، وجعل الخبر فعلاً مضارعاً {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ} يدل عندهم على التجدد والتكرار، فهو أبلغ في النسبة من الاستهزاء المخبر به في قولهم.

أي تجدد إملاء الله لهم زماناً إلى أن يأخذهم العذاب، ليعلم المسلمون أن ما عليه أهل النفاق من النعمة إنما هو إملاء وإن طال، كما قال تعالى: {لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ} [آل عمران: ١٩٦].

{وَيَمُدُّهُمْ} المد: التطويل، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً}

[الفرقان: ٤٥] وأصل المد: الزيادة، وكل شيء دخل في شيء فكثره فقد مدّه، ومنه: مدد الجيش، قال تعالى: **{وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا}** [نوح: ١٢]

{فِي طُغْيَانِهِمْ} الطغيان: مجاوزة المقدار المعلوم، يقال طغى الماء، وطحّت النار. والمعنى: أن الله تعالى يطول لهم في الطغيان بالتمكين من العصيان. قاله ابن مسعود، أو الإملاء والإمهال. قاله ابن عباس، أو الزيادة من الطغيان. قاله مجاهد، أو تكثير الأموال والأولاد وتطييب الحياة، أو تطويل الأعمار ومعافاة الأبدان، وصرف الرزايا، وتكثير الأرزاق.

وإنما أضاف الطغيان لضمير المنافقين ولم يقل: في الطغيان، بتعريف الجنس كما قال في سورة الأعراف [٢٠٢]: **{وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ}** إشارة إلى تفضيع شأن هذا الطغيان وغرابته في بابه وإنهم اختصوا به حتى صار يعرف بإضافته إليهم.

{يَعْمَهُونَ} العمه: التردد والتحير، وهو شبيه بالعمى، إلا أن العمى توصف به العين التي ذهب نورها «عمى البصر»، والعمه للرأي الذي غاب عنه الصواب «عمى البصيرة». فالعمة: انطماس البصيرة وتحير الرأي.

{أُولَئِكَ} "أولاء" اسم إشارة؛ والمشار إليهم المنافقون؛ وجاءت الإشارة بصيغة البعد لبعد منزلة المنافق سفولاً.

{الَّذِينَ اشْتَرَوْا} الاشتراء والشراء بمعنى: الاستبدال بالشيء والاعتياض منه، إلا أن الاشتراء يستعمل في الابتاع والبيع **{الضَّالَّةُ}** العماية؛ وهي ما ساروا عليه من النفاق **{بِالْهُدَى فَمَا رِبِحَتْ}** هو ما يحصل من الزيادة على رأس المال **{تَجَارَتُهُمْ}** هي صناعة التاجر، وهو الذي يتصرف في المال لطلب النمو والزيادة. والمقصود نفي التجارة أي لا يتوهم أن هذا الشراء الذي وقع هو تجارة فليس بتجارة وإذا لم يكن تجارة انتفى الربح فكأنه قال: فلا تجارة لهم ولا ربح.

{وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا؛ ولذلك لا يرجعون؛ وهكذا كل فاسق، أو مبتدع يظن أنه على حق فإنه لن يرجع؛ فالجاهل البسيط خير من هذا؛ لأن هذا جاهل مركب يظن أنه على صواب، وليس على صواب.

وفيه أن المدار في الربح والخسران على اتباع الهدى؛ فمن اتبعه فهو الرابح؛ ومن خالفه فهو الخاسر؛ ويدل لذلك قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}**

* تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ { [الصف: ١٠-١١] تقف على {خير لكم}؛ لأن {إن كنتم تعلمون} إذا وصلناها بما قبلها صار الخير معلقاً بكوننا نعلم. وهو خير علمنا أم لم نعلم.

وقد عُلِمَ من قوله: {اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى} إلى {وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} فتعين أن الاهتداء المنفي هو الاهتداء بالمعنى الأصلي في اللغة، وهو: معرفة الطريق الموصل للمقصود، وليس هو بالمعنى الشرعي المتقدم في قوله: {اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى} فلا تكرير في المعنى، فَلَا يَرُدُّ أَنَّهُمْ لما أخبر عنهم بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى كان من المعلوم أنه لم يبق فيهم هدى.

فقوله: {وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ} كمل المعنى بذلك، وتم به المقصود، وهذا النوع من البيان يقال له: التتميم.

فمعنى نفي الاهتداء كناية عن إضاعة القصد أي أنهم أضاعوا ما سعوا له ولم يعرفوا ما يوصل لخير الآخر ولا ما يضر المسلمين.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ

بُحْمٍ عُمِيٍّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ
فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ
الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ
الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا
أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)

{مَثَلُهُمْ} وصفهم وحالهم.. والمقصود من ذكر المثل أنه يؤثر
في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، لأن الغرض من
ضرب المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد
الوقوف على ماهيته ويصير الحس مطابقاً للعقل. لأن النفس إلى
المحسوس أميل.

والتمثيل منزع جليل بديع من منازع البلغاء لا يبلغ إلى محاسنه
غير خاصتهم. وأمثال العرب باب من أبواب بلاغتهم، وأنهم لا
يكادون يضربون مثلاً ولا يرونه أهلاً للتسيير وجديراً بالتداول إلا
قولاً فيه بلاغة وخصوصية في فصاحة لفظ وإيجازه ووفرة معنى،
فالمثل قول عزيز ليس في متعارف الأقوال العامة بل هو من أقوال
فحول البلاغة، وشاع إطلاق لفظ المثل على الحالة العجيبة الشأن،

فإطلاق المثل دوماً على القول البديع السائر بين الناس الصادر من قائله على الحال العجيبة.

وأدخلوا الكاف ونحوها من حروف التشبيه على المشبه به منهما، ولا يطلقون ذلك على التشبيه البسيط فلا يقولون: "مثل فلان كمثل الأسد"، وقلما شبهوا حالاً مركبة بحال مركبة مقتصرين على الكاف كقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ} [الرعد: ١٤] بل يذكرون لفظ المثل في الجانبين غالباً نحو الآية هنا، وربما ذكروا لفظ المثل في أحد الجانبين كقوله: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ} [يونس: ٢٤] وذلك ليتبادر للسامع أن المقصود تشبيه حالة بحالة لا ذات بذات ولا حالة بذات.

قال الزمخشري: لما جاء بحقيقة صفتهم عقبها بذكر ضرب المثل زيادة في الكشف وتتميماً للبيان، ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب بأنه مشاهد،

وفيه تبيكت للخصم الألد وقمع لسورة الجامع الآبي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وكلام الأنبياء والحكماء، فقال الله تعالى: **{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}** [العنكبوت: ٤٣]

قال العلماء: لما تحدث الله تعالى عن المنافقين في سورة البقرة ضرب لهم مثلين: ناريا ومائيا، فالناري هو: **{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ..}**. والمائي: **{أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ..}**.

وشبهه في التمثيل الأول بمستوقد النار، وإظهاره الإيمان بالإضاءة، وانقطاع جدواه بذهاب النور.

وشبهه في الثاني دين الإسلام بالصيب وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيبهم من الإفزاع والفتن من جهة المسلمين بالصواعق.

والتمثيل الثاني أبلغ لأنه أدلّ على فرط الحيرة وشدة الأمر، ولذلك آخر فصار ارتقاء من الأهون إلى الأغلظ.

{كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا} أي طلب من غيره أن يوقد له ناراً، أو طلب من غيره ما يوقد به النار بنفسه، ووقود النار ارتفاع لهيبها.

{فَلَمَّا} «لَمَّا» حرف يدل على وقوع شيء عند وقوع غيره
{أَضَاءَتْ} الإضاءة: الإشراف، وهو فرط الإنارة **{مَا حَوْلَهُ}** أي
أنارت ما حول المستوقد **{ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ}** وأبقى حرارة النار،
وأُسند إذهابه إلى الله تعالى لأنه حصل بلا سبب من ريح أو مطر أو
إطفاء مُطفئ، والعرب والناس يسندون الأمر الذي لم يتضح سببه
لاسم الله تعالى كما تقدم عند قوله: **{وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ}**
[البقرة: ١٥]

{وَتَرَكَهُمْ} تفيد تحقيرهم **{فِي ظُلُمَاتٍ}** دال على شدة الظلمة،
كقوله تعالى: **{قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}**
[الأنعام: ٦٣] وقول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (فَإِنَّ الظُّلْمَ
ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [مسلم] فإن الكثرة لما كانت في العرف سبب
القوة، أطلقوها على مطلق القوة، وإن لم يكن تعدد ولا كثرة، مثل
لفظ «كثير» كما في قوله تعالى: **{وَادْعُوا تَبُورًا كَثِيرًا}**
[الفرقان: ١٤].. وقيل لم يرد في القرآن ذكر الظلمة مفردا، ولعل
لفظ ظلمات أشهر إطلاقا في فصيح الكلام.

لكن بلاغة القرآن وكلام الرسول عليه السلام لا تسمح
باستعمال جمع غير مراد به فائدة زائدة على لفظه المفرد، ويتعين

في هذه الآية أن جمع {ظُلُمَاتٍ} أشير به إلى أحوال من أحوال المنافقين كل حالة منها تصلح لأن تشبه بالظلمة وتلك هي: حالة الكفر، وحالة الكذب، وحالة الاستهزاء بالمؤمنين، وما يتبع تلك الأحوال من آثار النفاق.

{لَا يُبْصِرُونَ} تأكيد من حيث المعنى، لأن من ذهب نوره بقي في ظلمة لا يبصر، والقصد منه زيادة إيضاح الحالة التي صاروا إليها فإن للدلالة الصريحة من الارتسام في ذهن السامع ما ليس للدلالة الضمنية.

فإنهم لا يقصدون من البيان إلا شدة تصوير المعاني ولذلك يطنون ويشبهون ويمثلون ويصفون المعرفة ويأتون بالحال ويعددون الأخبار والصفات فهذا إطناب بديع.

وهذا المثل ضربه الله للمنافق لأنه أظهر الإسلام فحقن به دمه ومشى في حرمة وضيائه ثم سلبه في الآخرة عند حاجته إليه.

وقيل: أحوال ومظاهر حسنة تلوح على المنافقين حينما يحضرون مجلس النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وحينما يتظاهرون بالإسلام والصلاة والصدقة مع المسلمين ويصدر منهم طيب القول وقويم السلوك وتشرق عليهم الأنوار النبوية فيكاد نور الإيمان

يخترق إلى نفوسهم، ولكن سرعان ما يعقب تلك الحالة الطيبة حالة تضادها عند انفضاضهم عن تلك المجالس الزكية وخلوصهم إلى بطانتهم من كبرائهم أو من أتباعهم فتعاودهم الأحوال الذميمة من مزاولة الكفر وخداع المؤمنين والحقْد عليهم والاستهزاء بهم ووصفهم بالسفه، مثل ذلك التظاهر وذلك الانقلاب بحال الذي استوقد نارا ثم ذهب عنه نورها.

فشبه الهدى الذي باعوه بالنور الذي حصل للمستوقد، والضلالة المشتراة بالظلمات.

قال ابن عاشور: وهذا التمثيل تمثيل لحال المنافقين في ترددهم بين مظاهر الإيمان وبواطن الكفر، فوجه الشبه هو ظهور أمر نافع ثم انعدامه قبل الانتفاع به، فإن في إظهارهم الإسلام مع المؤمنين صورة من حسن الإيمان وبشاشته لأن للإسلام نورا وبركة ثم لا يلبثون أن يرجعوا عند خلوهم بشياطينهم فيزول عنهم ذلك ويرجعوا في ظلمة الكفر أشد مما كانوا عليه لأنهم كانوا في كفر فصاروا في كفر وكذب وما يتفرع عن النفاق من المدام، فإن الذي يستوقد النار في الظلام يتطلب رؤية الأشياء فإذا انطفأت النار صار أشد حيرة منه في أول الأمر لأن ضوء النار قد عود بصره فيظهر أثر

الظلمة في المرة الثانية أقوى ويرسخ الكفر فيهم. وبهذا تظهر نكتة البيان بجملة **{ لَا يُبْصِرُونَ }** لتصوير حال من انطفأ نوره بعد أن استضاء.

وفي هذه الآية نجد اختلافاً في الضمائر: {استوقد}: مفرد؛ {حواله}: مفرد؛ {بنورهم}: جمع؛ {تركهم}: جمع؛ {لا يبصرون}: جمع؛ قد يقول قائل: كيف يجوز في أفصح الكلام أن تكون الضمائر مختلفة والمرجع فيها واحد؟

والجواب أن الذي استوقد النار كان مع رفقة، فاستوقد النار له ولرفقته؛ ولهذا قال تعالى: **{ أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ .. }** إلخ.

وتكون الآية ممثلة لرؤساء المنافقين مع أتباعهم؛ لأن رأس المنافقين هو الذي استوقد النار، وأراد أن ينفع بها أقرانه، ثم ذهبت الإضاءة، وبقيت الحرارة والظلمة، وتركهم جميعاً في ظلمات لا يبصرون.

{ صُم } "الأصم" الذي لا يسمع، لكنه هنا ليس على سبيل الإطلاق؛ بل أريد به شيء معين: أي هم صم عن الحق، فلا يسمعون؛ والمراد نفي السمع المعنوي. وهو السمع النافع؛ لا

الحسي. وهو الإدراك؛ لأن كلهم يسمعون القرآن، ويفهمون معناه، لكن لما كانوا لا ينتفعون به صاروا كالصم الذين لا يسمعون؛ وذلك مثل قول الله تعالى: **{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}** [الأنفال: ٢١].

{بُكُمْ} جمع أبكم؛ وهو الذي لا ينطق؛ والمراد أنهم لا ينطقون بالحق؛ وإنما ينطقون بالباطل

{عُمِّي} جمع أعمى؛ والمراد أنهم لا ينتفعون بما يشاهدونه من الآيات التي تظهر على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام.

أريد بذلك المبالغة في ذمهم، وأنهم من الجهل والبلادة أسوأ حالاً من البهائم وأشبه حالاً من الجمادات التي لا تسمع ولا تتكلم ولا تبصر.

فمن عدم هذه المدارك الثلاثة كان من الذم في الرتبة القصوى، ولذلك لما أراد إبراهيم -على نبينا وعليه السلام- المبالغة في ذم آلهة أبيه قال: **{يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً}** [مريم: ٤٢]

والمعنى كل واحد منهم كالأصم الأبكم الأعمى وليس المعنى على التوزيع فلا يفهم أن بعضهم كالأصم وبعضهم كالأبكم وبعضهم كالأعمى.

وحذف المسند إليه في هذا المقام استعمال شائع عند العرب إذا ذكروا موصوفا بأوصاف أو أخبار جعلوه كأنه قد عُرِفَ لِلْسَّامِعِ فيقولون: فلان أو فتى أو رجل أو نحو ذلك على تقدير: «هو فلان». ومنه قوله تعالى: {جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءٌ حِسَاباً رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} [النبا: ٣٦-٣٧] التقدير: "هو رب السماوات".

{فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} الفاء هذه عاطفة، لكنها تفيد السببية. أي بسبب هذه الأوصاف الثلاثة لا يرجعون عن غيِّهم؛ فلا ينتفعون بسماع الحق، ولا بمشاهدته، ولا ينطقون به. وتعذر طمع رجوعه إلى رشد أو صواب.

قال في البحر المحيط: جملة خبرية من حيث المعنى مترتبة على الجملة السابقة ومتعقتها، لأن من كانت فيه هذه الأوصاف الثلاثة، التي هي كناية عن عدم قبول الحق، جدير أن لا يرجع إلى

إيمان. وقيل: عن الضلالة بعد أن اشتروها، أو عن التمسك بالنفاق.

وأسند عدم الرجوع إليهم لأنه لما جعل تعالى لهم عقولاً للهداية، وبعث إليهم رسلاً بالبراهين القاطعة، وعدلوا عن ذلك إلى اتباع أهوائهم، والجري على مألوف آبائهم، كان عدم الرجوع من قبل أنفسهم.

{أَوْ} للتنويع، أتى بصورة تخالف ما صور سالفاً لأن تجدد الصورة عند النفس أحب من تكررها.

{كَصَيْبٍ} المطر والغيث الذي فيه الحياة، مثل للإسلام **{مِّنَ السَّمَاءِ}** ليس بقيد للصيب، وإنما هو وصف كاشف جيء به لزيادة استحضار صورة الصيب في هذا التمثيل إذ المقام مقام إطناب. كقول امرئ القيس:

كجلمود صخر حطه السيل من علٍ

إذ قد علم السامع أن السيل لا يحط جلمود صخر إلا من أعلى، ولكنه أراد التصوير، وكقوله تعالى: **{وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ}** [الأنعام: ٣٨]، وقوله: **{كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ}**

[الأنعام: ٧١] وقال تعالى: {فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ} [لأنفال: ٣٢].

والسمااء تطلق على الجو المرتفع فوقنا الذي نخاله قبة زرقاء، وعلى الهواء المرتفع قال تعالى: {كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} [إبراهيم: ٢٤] وتطلق على السحاب، وتطلق على المطر نفسه، ففي الحديث الذي رواه أبو داود عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَّةِ فِي إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: (هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟) قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: قَالَ: (أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنُوءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ).

{فِيهِ ظُلُمَاتٌ} مثل لإسلام المنافقين وما فيه من إبطان ظلمات الكفر.

{وَرَعْدٌ} سمي هذا الصوت رعداً لأنه يردد سامعه، ومنه رعدت الفرائص، أي حركت وهزت كما تهزه الرعدة. وهو مثل لما في

الإسلام من «وعيد القرآن» إلا أنه بالنسبة لهؤلاء المنافقين وخوفهم منه كأنه رعد شديد.

{وَبَرْقٌ} مثل لما في الإسلام من «وعيد القرآن» إلا أنه بالنسبة لما فيه من نور، وهدى يكون كالبرق؛ لأن البرق ينير الأرض. **{يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ}** أراد بالأصابع بعضها، لأن الأصبع كلها لا تجعل في الأذن، إنما تجعل في الأنملة، لكن هذا من الاتساع، وهو إطلاق كل على بعض، ولأن هؤلاء لفرط ما يهولهم من إزعاج الصواعق كأنهم لا يكتفون بالأنملة، بل لو أمكنهم السد بالأصبع كلها لفعلوا.

{مِّنْ} سببية **{الصَّوَاعِقِ}** جمع صاعقة؛ وهي ما تصعق. أي تُهلك مَنْ أصابته؛ هذه الصواعق معروفة بآثارها؛ فهي نار تنطلق مع البرق أحياناً؛ وتنقذ من السحاب إذا اصطكت أجرامه، فإذا أصابت أحداً أو شيئاً أحرقتة وأتت عليه.

و "الصواعق" عبارة عما في القرآن من الإنذار والتخويف؛ ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى عنهم في آية أخرى: **{يَخْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ}** [المنافقون: ٤] وفي هذا تشبيه لجزع المنافقين من آيات الوعيد.

{حَذَرٌ} خوف **{الْمَوْتِ}** فيجعلون أصابعهم في آذانهم من هذه الصواعق لئلا يموتوا؛ ولكنهم لا ينجون منها بهذا الفعل؛ إلا أنهم كالنعامة إذا رأت الصياد أدخلت رأسها في الرمل لئلا تراه؛ وتظن أنها إذا لم تره تنجو منه! وكذلك الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق لا يسلمون بهذا؛ إذا أراد الله تعالى أن يصيبهم أصابهم؛ ولهذا قال تعالى:

{وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ} فلن ينفعهم الحذر .. كناية عن كونه تعالى لا يفوته، كما لا يفوت المحاط المحيط به، فقل: بالعلم، وقيل: بالقدرة، وقيل: بالإهلاك.

ولما بين الله شدة الصوت، وأنهم لفرارهم منه، وعدم تحملهم إياه يجعلون أصابعهم في آذانهم بين شدة الضوء عليهم، فقال تعالى:

{يَكَادُ} من أفعال المقاربة **{الْبَرْقُ يَخْطِفُ}** الخطف الأخذ بسرعة **{أَبْصَارَهُمْ}** أي يأخذها بسرعة، فتعمى؛ وذلك لقوته، وضعف أبصارهم **{كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ}** فكانهم ينتهزون فرصة الإضاءة.

والبرق مثل للإسلام، وإضاءة البرق حصول ما يرجونه من سلامة نفوسهم وأموالهم، فيسرعون إلى متابعتة **{وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا}** معنى القيام هنا عدم المشي أي الوقوف في الموضع. أي: وإذا نزلت بهم محنة أو تكاليف شاقة كالجهاد والنفقة سخطوا وثبتوا على نفاقهم.

قال ابن عثيمين: البرق: نور الإسلام، لكنه ليس نوراً يستمر؛ نور البرق ينقطع في لحظة؛ وميض؛ فهؤلاء لم يدخل الإيمان في قلوبهم أصلاً، ولا فكروا في ذلك؛ وإنما يرون هذا النور العظيم الذي شع، فينتفعون به لمجرد خطوة يخطونها فقط؛ وبعد ذلك يقفون؛ كذلك أيضاً يكاد البرق يخطف أبصارهم؛ لأنهم لا يتمكنون من رؤية النور الذي جاء به النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ بل لكبريائهم، وحسدهم للعرب يكاد هذا البرق يعمي أبصارهم؛ لأنه قوي عليهم لا يستطيعون مدافعتة ومقابلته.

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ} لعجل لهم العقوبة في الدنيا، فذهب بسمعهم وأبصارهم، فلم ينتفعوا بها في الدنيا، لأنهم لم يستعملوها في الحق فينتفعوا بها في آخرتهم. إلا أن الله لم يشأ ذلك إمهالاً لهم وإقامة للحجة عليهم.

وخص السمع والأبصار لتقدم ذكرهما في قوله: {يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ}، وفي قوله: {يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ}.

وفيه أنه ينبغي للإنسان أن يلجأ إلى الله عز وجل أن يمتعه بسمعه وبصره؛ وفي الدعاء النبوي المأثور: (اللَّهُمَّ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا) [الترمذي: حسن صحيح]

{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} القدرة: القوة على الشيء والاستطاعة له.

فبعد ذكر أحوال المؤمنين ثم الكافرين أتبع هؤلاء بأحوال المنافقين المخادعين المستهزئين وآخر ذكرهم وإن كانوا أسوأ أحوالاً من المشركين، لأنهم اتصفوا في الظاهر بصفات المؤمنين وفي الباطن بصفات الكافرين، فقدم الله ذكر المؤمنين، وثنى بذكر أهل الشقاء الكافرين، وثلاث بذكر المنافقين الملحدين، وأمعن في ذكر مخازيهم فأنزل فيهم ثلاث عشرة آية، كل ذلك تقبيح لأحوالهم وتنبيه على مخازي أعمالهم، ثم لم يكتف بذكر ذلك حتى أبرز أحوالهم في سورة الأنفال، فكان ذلك أدعى للتفكير عما اجتروحه من قبيح الأفعال.

فوردت في شأن المنافقين ثلاث عشرة آية نعي عليهم فيها خبثهم، ومكرهم، وسوء عواقبهم، وسفه أحلامهم، وجهالتهم، وأردف ذلك بشتى واستهزاء وتمثيل حالهم في أشنع الصور وهم أحرىاء بذلك، فإن الخطة التي تدربوا فيها تجمع مدام كثيرة إذ النفاق يجمع الكذب، والجبن، والمكيدة، وأفن الرأي، والبله، وسوء السلوك، والطمع، وإضاعة العمر، وزوال الثقة، وعداوة الأصحاب، واضمحلال الفضيلة.

أما (الكذب) فظاهر، وأما (الجبن) فلأنه لولاه لما دعاه داع إلى مخالفة ما يبطن، وأما (المكيدة) فإنه يحمل على اتقاء الاطلاع عليه بكل ما يمكن، وأما (أفن الرأي) فلأن ذلك دليل على ضعف في العقل إذ لا داعي إلى ذلك، وأما (البله) فللجهل بأن ذلك لا يطول الاغترار به، وأما (سوء السلوك) فلأن طبع النفاق إخفاء الصفات المذمومة، والصفات المذمومة إذا لم تظهر لا يمكن للمربي ولا للصديق ولا لعموم الناس تغييرها على صاحبها فتبقى كما هي وتزيد تمكنا بطول الزمان حتى تصير ملكة يتعذر زوالها، وأما (الطمع) فلأن غالب أحوال النفاق يكون للرغبة في حصول النفع، وأما (إضاعة العمر) فلأن العقل ينصرف إلى ترويج أحوال

النفاق وما يلزم إجراؤه مع الناس ونصب الحيل لإخفاء ذلك، وفي ذلك ما يصرف الذهن عن الشغل بما يجدي، وأما (زوال الثقة) فلأن الناس إن اطلعوا عليه ساء ظنهم فلا يثقون بشيء يقع منه ولو حقا، وأما (عداوة الأصحاب) فكذلك لأنه إذا علم أن ذلك خلق لصاحبه خشي غدره فحذره فأدى ذلك إلى عداوته، وأما (اضمحلال الفضيلة) فنتيجة ذلك كله.

وقد أشار قوله تعالى: **{وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}** إلى الكذب، وقوله: **{يُخَادِعُونَ}** إلى المكيدة والجبين، وقوله: **{وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ}** إلى أفن الرأي، وقوله: **{وَمَا يَشْعُرُونَ}** إلى البله، وقوله: **{فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}** إلى سوء السلوك، وقوله: **{فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا}** إلى دوام ذلك وتزايد مع الزمان، وقوله: **{قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}** إلى إضاعة العمر في غير المقصود، وقوله: **{قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ}** مؤكدا بـ «إن» إلى قلة ثقة أصحابهم فيهم، وقوله: **{فَمَا رِبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ}** إلى أن أمرهم لم يحظ بالقبول عند أصحابهم، وقوله: **{صُمُّ بَكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}** إلى اضمحلال الفضيلة منهم.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ
بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا
لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)

استئناف ابتدائي ثنى به العنان إلى موعظة كل فريق من الفرق
الأربع المتقدم ذكرها، موعظة تليق بحاله، بعد أن قضى حق وصف
كل فريق منهم بخلاله، ومثلت حال كل فريق وضربت له أمثاله،
فإنه لما استوفى أحوالا للمؤمنين وأضدادهم من المشركين
والمنافقين، لا جرم تهيأ المقام لخطاب عمومهم بما ينفعهم إرشادا
لهم ورحمة بهم، لأنه لا يرضى لهم الضلال، ولم يكن ما ذكر آنفا
من سوء صنعهم حائلا دون إعادة إرشادهم والإقبال عليهم
بالخطاب، ففيه تأنيس لأنفسهم بعد أن هددهم ولامهم وذم صنعهم
ليعلموا أن الإغلاظ عليهم ليس إلا حرصا على صلاحهم وأنه غنى
عنهم كما يفعله المربي الناصح حين يزجر أو يوبخ فيرى انكسار
نفس مُرَبَّاهُ فَيَجْبُرُ خَاطِرَهُ بِكَلِمَةٍ لَيِّنَةٍ لِيُرِيَهُ أَنَّهُ إِنَّمَا أَسَاءَ إِلَيْهِ
استصلاحا وحبا لخيره فلم يترك من رحمته لخلقه حتى في حال
عتوهم وضلالهم وفي حال حملهم إلى مصالحهم.

وبعد فهذا الاستثناس وجبر الخواطر يزداد به المحسنون
إحسانا وينكف به المجرمون عن سوء صنْعِهِمْ فيأخذ كل فريق من
الذين ذكروا فيما سلف حظه منه.

{يَا} حرف نداء وهو أم باب النداء، وأكثر حروف النداء
استعمالاً فهو أصل حروف النداء، وقد يُحذف نحو: **{يُوسُفُ}**
{أَعْرِضْ} [يوسف: ٢٩] وينادى به المندوب والمستغاث، والقريب
والبعيد، وعلى كثرة وقوع النداء في القرآن لم يَقَعْ نداءٌ إلا به.

{أَيُّهَا النَّاسُ} وروي عن ابن عباس ومجاهد وعلقمة أنهم قالوا:
كل شيء نزل فيه: **{يا أيها الناس}** فهو مكّي، و **{يا أيها الذين**
آمنوا} فهو مدني.

أما في **{يا أيها الذين آمنوا}** فصحيح، وأما في **{يا أيها الناس}**
فيحمل على الغالب، لأن هذه السورة مدنية، وقد جاء فيها **{يا أيها**
الناس}.

وقال ابن عثيمين: النداء هنا وجّه لعموم الناس مع أن السورة
مدنية؛ والغالب في السور المدنية أن النداء فيها يكون موجهاً
للمؤمنين. والله أعلم بما أراد في كتابه؛ ولو قال قائل: لعل هذه آية
مكية جعلت في السورة المدنية؟

فالجواب: أن الأصل عدم ذلك - أي عدم إدخال الآية المكية في السور المدنية أو العكس؛ ولا يجوز العدول عن هذا الأصل إلا بدليل صحيح صريح؛ وعلى هذا فما نراه في عناوين بعض السور أنها مدنية إلا آية كذا، أو مكية إلا آية كذا غير مسلم حتى يثبت ذلك بدليل صحيح صريح؛ وإلا فالأصل أن السورة المدنية جميع آياتها مدنية، وأن السور المكية جميع آياتها مكية إلا بدليل ثابت. والمقصود بالنداء من قوله: **{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ }** الإقبال على موعظة «نبذ الشرك» وذلك هو غالب اصطلاح القرآن في الخطاب بـ **{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ }**، وقرينة ذلك هنا قوله **{ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ }** [البقرة: ٢٢]

{اعْبُدُوا رَبَّكُمْ} العبادة في الأصل «التذل والخصوع»، ولما كان التذل والخصوع إنما يحصل عن صدق اليقين كان الإيمان بالله وتوحيده بالالهية مبدأ العبادة لأن من أشرك مع المستحق ما ليس بمستحق فقد تباعد عن التذل والخصوع له.

و «العبادة» تطلق على معنيين؛ أحدهما: التعبد. وهو فعل العابد؛ والثاني: المتعبد به. وهي كل قول أو فعل ظاهر أو باطن يقرب إلى الله عز وجل.

والمعنى: تذللوا له بالطاعة؛ وذلك بفعل الأوامر، واجتناب
النواهي، ذلاً تاماً ناشئاً عن المحبة والتعظيم؛ و «الرب» هو الخالق
المالك المدبر لشؤون خلقه.

والأمر بالعبادة شمل المؤمنين والكافرين. لا يقال: المؤمنون
عابدون، فيكف يصح الأمر بما هم ملتبسون به؟ قيل: لأنه في
حقهم أمر بالدوام والمواظبة والازدياد من العبادة، فصح مواجهة
الكل بالعبادة.

وانظر لحسن مجيء كلمة «الرب» هنا، فإنه السيد والمصلح،
إذ لم يقل: "اعبدوا الله"، لأن في الإتيان بلفظ الرب إيذاناً بأحقية
الأمر بعبادته، فإن المدبر لأمر الخلق هو جدير بالعبادة لأن فيها
معنى الشكر وإظهار الاحتياج.

وإفراد اسم "الرب" دل على أن المراد رب جميع الخلق وهو
الله تعالى إذ ليس ثمة رب يستحق هذا الاسم بالإفراد والإضافة إلى
جميع الناس إلا الله، ففيها دعوة صريحة للتوحيد.

وفيه العناية بالعبادة؛ ويستفاد هذا من وجهين؛ «الوجه الأول»:
تصدير الأمر بها بالنداء؛ «والوجه الثاني»: تعميم النداء لجميع
الناس مما يدل على أن العبادة أهم شيء؛ بل إنَّ الناس ما خلُقوا

إلا للعبادة، كما قال تعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** [الذاريات: ٥٦]

{الَّذِي خَلَقَكُمْ} «صفة كاشفة» تبين بعض معنى الربوبية، وبيان لموجب العبادة وأحقيتها؛ وليست «صفة احترازية»؛ لأنه ليس لنا ربان أحدهما خالق، والثاني غير خالق؛ بل ربنا هو الخالق.

والخطاب إن كان عاماً، كان قوله: **{الَّذِي خَلَقَكُمْ}** صفة مدح، وإن كان لمشركي العرب كانت للتوضيح، إذ لفظ الرب بالنسبة إليهم مشترك بين الله تعالى وبين آلهتهم، ونبه بوصف «الخلق» على استحقاقه العبادة دون غيره **{أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}** [النحل: ١٧] أو على امتنانه عليهم بالخلق على الصورة الكاملة، والتمييز عن غيرهم بالعقل، والإحسان إليهم بالنعمة الظاهرة والباطنة، أو على إقامة الحجة عليهم بهذا الوصف الذي لا يمكن أن يشرك معه فيه غيره، ووصف الربوبية والخلق موجب للعبادة، إذ هو جامع لمحبة الاصطناع والاختراع، والمحبة يكون على أقصى درجات الطاعة لمن يحب.

{وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} أي في خلقكم من سائر الأمم الماضية، والمعطوف متقدم في الزمان على المعطوف عليه، وبدأ به - وإن

كان متأخراً في الزمان - لأن علم الإنسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره، إذ أقرب الأشياء إليه نفسه، ولأنهم المواجهون بالأمر بالعبادة، فتنبيههم أولاً على أحوال أنفسهم أكد وأهم، وبدأ أولاً بصفة الخلق إذ كانت العرب مقرة بأن الله خالقها، وهم المخاطبون والناس تبع لهم، إذ نزل القرآن بلسانهم.

{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} ليست {لعل} هنا بمعنى «كي» لأنه قول مرغوب عنه، ولكنها للترجي والإطماع، وهو بالنسبة إلى المخاطبين لأن الترجي لا يقع من الله تعالى إذ هو **{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}** وهي متعلقة بقوله: **{اعْبُدُوا رَبَّكُمْ}**، فكأنه قال: إذا عبدتم ربكم رجوتم التقوى، وهي التي تحصل بها الوقاية من النار والفوز بالجنة.

{الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا} المقصود بالإيماء إلى سبب آخر لاستحقاقه العبادة وإفراده بها، فإنه لما أوجب عبادته أنه خالق الناس كلهم أتبع ذلك بصفة أخرى تقتضي عبادتهم إياه وحده، وهي نعمه المستمرة عليهم مع ما فيها من دلائل عظيم قدرته فإنه مكن لهم سبل العيش وأولها المكان الصالح للاستقرار عليه بدون لغوب فجعله كالفرش لهم.

والله تعالى قد وصف الأرض بأوصاف متعددة: وصفها بأنها فراش، وبأنها ذلول، وبأنها مهاد.

{وَالسَّمَاءَ بِنَاءٍ} البناء أبلغ في الإحكام وأتقن في الصنعة وأمنع لوصول الأذى إلى من تحته، فوصف السماء بالأبلغ والأتقن والأمنع، ونبه بذلك على إظهار قدرته وعظيم حكمته، إذ المعلوم أن كل بناء مرتفع لا يتهياً إلا بأساس مستقر على الأرض أو بعمد وأطناب مركوزة فيها، والسماء في غاية ما يكون من العظم، وهي سبع طباق بعضها فوق بعض، وعليها من أثقال الأفلاك وأجناس الأملاك وأجرام الكواكب التي لا يعبر عن عظمها ولا يحصي عددها، وهي مع ذلك بغير أساس يمسكها ولا عمد تقلها ولا أطناب تشدها، وهي لو كانت بعمد وأساس كانت من أعظم المخلوقات وأحكم المبدعات، فكيف وهي عارية عن ذلك ممسكة بالقدرة الإلهية: **{إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}** [فاطر: ٤١] وقيل: سميت بناء لتمامها كما يتماسك البناء بعضه ببعض.

قال ابن عاشور: وأما وجه شبه السماء بالبناء فهو أن الكرة الهوائية جعلها الله حاجزة بين الكرة الأرضية وبين الكرة الأثرية. فهي كالبناء فيما يراد له البناء وهو الوقاية من الأضرار النازلة، فإن للكرة الهوائية دفعا لأضرار أظهرها دفع ضرر طغيان مياه البحار على الأرض ودفع أضرار بلوغ أهوية تندفع عن بعض الكواكب إلينا وتلطيفها حتى تختلط بالهواء أو صد الهواء إياها عنا مع ما في مشابهة الكرة الهوائية لهيئة القبة.

والقبة بيت من آدم مقبب وتسمى بناء، والبناء في كلام العرب ما يرفع سمكه على الأرض للوقاية سواء كان من حجر أو من آدم أو من شعر، ومنه قولهم: "بنى على امرأته" إذا تزوج، لأن المتزوج يجعل بيتا يسكن فيه مع امرأته، وقد اشتهر إطلاق البناء من آدم، ولذلك سموا آدم الذي تبنى منه القباب مبناة بفتح الميم وكسرهما، وهذا كقوله في سورة الأنبياء {وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا}.

ويكفي في الامتنان بخلق السماء إشعار السامعين لهذه الآية بأن في خلق السماء على تلك الصفة ما في إقامة البناء من الفوائد على الإجمال ليفرضه السامعون على مقدار قرائحهم وأفهامهم ثم يأتي تأويله في قابل الأجيال.

وقد امتن الله وضرب العبرة بأقرب الأشياء وأظهرها لسائر الناس حاضريهم وباديهم وبأول الأشياء في شروط هذه الحياة. وفيهما أنفع الأشياء وهما الهواء والماء النابع من الأرض وفيهما كانت أول منافع البشر، وفي تخصيص الأرض والسماء بالذكر نكتة أخرى وهي التمهيد لما سيأتي من قوله **{وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً}** إلخ. وابتدأ بالأرض لأنها أول ما يخطر ببال المعتبر ثم بالسماء لأنه بعد أن ينظر لما بين يديه ينظر إلى ما يحيط به.

{وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ} ليست هي السماء الأولى؛ بل المراد هنا العلو؛ لأن الماء -الذي هو المطر- ينزل من السحاب، والسحاب بين السماء والأرض.

{مَاءً} هذا امتنان بما يلحق الإيجاد مما يحفظه من الاختلال، ورحمته بإنزال المطر من السماء؛ فلو كان كل الماء الذي تحيي به الأرض يجري على الأرض لأضر الناس؛ ولحُرم منه أراضٍ كثيرة، كالأراضي المرتفعة مثلاً التي لن يأتيها شيء؛ ولكن من نعمة الله أن ينزل من السماء؛ ثم هناك شيء آخر أيضاً: أنه ينزل رذاذاً. يعني قطرةً قطرةً؛ ولو نزل كأفواه القرب لأضر بالناس.

{فَأَخْرَجَ بِهِ} الهاء في {به} عائدة إلى الماء، والباء معناها السببية. فالماء سبب للخروج، كما أن ماء الفحل سبب في خلق الولد، وهذه السببية مجاز، إذ الباري تعالى قادر على أن ينشئ الأجناس، وقد أنشأ من غير مادة ولا سبب، ولكنه تعالى لما أوجد خلقه في بعض الأشياء عند أمر ما أجرى ذلك الأمر مجرى السبب لا أنه سبب حقيقي.

ولله تعالى في إنشاء الأمور منتقلة من حال إلى حال حكم يستنصر بها، لم يكن في إنشائها دفعة واحدة من غير انتقال أطوار، لأن في كل طور مشاهدة أمر من عجيب التنقل وغريب التدريج تزيد المتأمل تعظيماً للباري.

{مِنَ الشَّمَرَاتِ} من للتبعيض، فكان بعض الثمار رزقاً لنا وبعضها لا يكون رزقاً لنا، وهو الواقع، فكم من شجرة أثمرت شيئاً لا يمكن أن يكون رزقاً لنا.

{رِزْقاً لَّكُمْ} مؤمن وكافر، لكن فضل الله على المؤمن دائم متصل بفضل الآخرة؛ وفضل الله على الكافر منقطع بانقطاعه من الدنيا.

وناسب في الآية تنكير الماء وكون {من} دالة على التبعية وتنكير الرزق، إذ المعنى: وأنزل من السماء بعض الماء فأخرج به بعض الثمرات بعضها رزقا لكم.

وانتهى عند قوله: **{رِزْقًا لَّكُمْ}** ذكر خمسة أنواع من الدلائل: اثنين من الأنفس خلقهم وخلق من قبلهم، وثلاثة من غير الأنفس كون الأرض فراشاً وكون السماء بناءً وأنزل من السماء ماء .. والحاصل من مجموعهما تقدم خلق الإنسان لأنه أقرب إلى معرفته، وثنى بخلق الآباء، وثالث بالأرض لأنها أقرب إليه من السماء، وقدم السماء على نزول المطر وإخراج الثمرات، لأن هذا كالأمر المتولد بين السماء والأرض والأثر متأخر عن المؤثر.

وأشار في هذه الآية إلى ثلاثة براهين من براهين البعث بعد الموت وبينها مفصلة في آيات أخر.

«البرهان الأول»: خلق الناس أولاً المشار إليه بقوله **{اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ}** لأن الإيجاد الأول أعظم برهان على الإيجاد الثاني، وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة كقوله: **{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ}** [الروم: ٢٧]، وقوله: **{كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ}** [الأنبياء: ١٠٤]، وكقوله: **{فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا}**

قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ { [الإسراء: ٥١] ، وقوله: { قُلْ يُحْيِيهَا
الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ { [الشعراء: ٧٩] ، وقوله: { أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ
الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ { [ق: ١٥] ، وكقوله: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ
فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ { [الحج: ٥] ، وكقوله:
{ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى { [الواقعة: ٦٢] .

ولذا ذكر تعالى أن من أنكر البعث فقد نسي الإيجاد الأول،
كما في قوله: { وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ { [يس: ٧٨] . وقوله:
{ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ
الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا { [مريم: ٦٦-٦٧] ، ثم
رتب على ذلك نتيجة الدليل بقوله: { فَوَرَبَّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ {
[مريم: ٦٨] إلى غير ذلك من الآيات .

«البرهان الثاني»: خلق السماوات والأرض المشار إليه بقوله:
{ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً { ؛ لأنهما من أعظم
المخلوقات، ومن قدر على خلق الأعظم فهو على غيره قادر من
باب أخرى .

وأوضح الله تعالى هذا البرهان في آيات كثيرة كقوله تعالى:
{ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ { [غافر: ٥٧] ،

وقوله: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} [يس: ٨١]، وقوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ} [الأحقاف: ٣٣]، وقوله: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ} [الإسراء: ٩٩]، وقوله: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا} [النازعات: ٢٧] إلى غير ذلك من الآيات.

«البرهان الثالث»: إحياء الأرض بعد موتها؛ فإنه من أعظم الأدلة على البعث بعد الموت، كما أشار له هنا بقوله: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ} وأوضحه في آيات كثيرة كقوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [فصلت: ٣٩] وقوله: {وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} [ق: ١١]، يعني: خروجكم من قبوركم أحياء بعد أن كنتم عظاما رميما. وقوله: {وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ} [الروم: ١٩]، وقوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ

مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ
الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الأعراف: ٥٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

قال بعض المفسرين: اختص تعالى بهذه المخلوقات وهي:
الخلقة البشرية، والبنيتان الأرضية والسماوية، لأنها محل الاعتبار
ومسرح الإبصار ومواطن المنافع الدنيوية والأخروية، وبها يقوم
الدليل على وجود الصانع وقدرته وحكمته وحياته وإرادته، وغير
ذلك من صفاته الذاتية والفعلية، وانفراده بخلقها وأحكامها، وقدم
الخلقة البشرية، وإن كانت للعالم الأصغر، لما فيها من بدائع
الصنعة ما لا يعبر عنه وصف لسان ولا يحيط بكنهه فكر إنسان،
وظهور حسن الصنعة في الأشياء اللطيفة الجرم أعظم منه في
الأجرام العظام، ولأن اعتبار الإنسان بنفسه في قلب أحواله أقرب
إلى ذهنه.

{فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً} سموا أنداداً على جهة المجاز من
حيث أشركوهم معه تعالى في التسمية بالإلهية والعبادة، صورة لا
حقيقة، لأنهم لم يكونوا يعبدونهم لذواتهم بل للتقرب إلى الله
تعالى، وكانوا يسمون الله إله الآلهة ورب الأرباب.

والند: المساوي والمماثل في أمر من مجد أو حرب، وزاد بعض أهل اللغة أن يكون مناوئاً أي معادياً، وكأنهم نظروا إلى اشتقاقه من «ند» إذا نفر وعاند. ومن شابه شيئاً في وصف ما قيل: هو مثله وشبهه ونده في ذلك الوصف دون بقية أوصافه، والنهي عن اتخاذ الأنداد بصورة الجمع هو على حسب الواقع لأنهم لم يتخذوا له تعالى نداً واحداً، وإنما جعلوا له أنداداً كثيرة، فجاء النهي على ما كانوا اتخذه.

والمعنى: لا تثبتوا لله أندادا تجعلونها جعلاً وهي ليست أندادا، وسماها أندادا تعريضا بزعمهم لأن حال العرب في عبادتهم لها كحال من يسوي بين الله وبينها وإن كان أهل الجاهلية يقولون إن الآلهة شفعاء ويقولون: "ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفاً"، وجعلوا الله خالق الآلهة فقالوا في التلبية: "ليكن لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك"، لكنهم لما عبدوها ونسوا بعبادتها والسعي إليها والندور عندها وإقامة المواسم حولها عبادة الله، أصبح عملهم عمل من يعتقد التسوية بينها وبين الله تعالى لأن العبرة بالفعل لا بالقول. وفي ذلك معنى من التعريض بهم ورميهم باضطراب الحال ومناقضة الأقوال للأفعال.

{وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أنه لا ند له في الخلق والرزق وإنزال المطر، وما أشبه ذلك من معاني الربوبية ومقتضياتها؛ لأن المشركين يقرّون بأن الخالق هو الله، والرازق هو الله، والمدبر للأمر هو الله، إقراراً تاماً، ويعلمون أنه لا إله مع الله في هذا؛ لكن في العبادة ينكرون التوحيد: يشركون؛ يجعلون مع الله إلهاً آخر؛ وينكرون على من وحّد الله حتى قالوا في الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **{أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}** [ص: ٥]

والآية جملة حالية، وفيها من التحريك إلى ترك الأنداد وإفراد الله بالوحدانية ما لا يخفى، أي أنتم من ذوي العلم والتمييز بين الحقائق والإدراك للطائف الأشياء والاستخراج لغوامض الدلائل، في الرتبة التي لا تليق لمن تحلى بها أن يجعل لله نداً وهو خلقه. إذ ذاك فعل من كان أجهل العالم وأبعدهم عن الفطنة وأكثرهم تجويزاً للمستحيالات.

قال ابن عاشور: وقد جعلت هاته الحال محط النهي والنفي تمليحاً في الكلام للجمع بين التوبيخ وإثارة الهمة، فإنه أثبت لهم علماً ورجاحة الرأي ليشير همّتهم ويلفت بصائرهم إلى دلائل الوحدانية ونهاهم عن اتخاذ الآلهة أو نفي ذلك مع تلبسهم به

وجعله لا يجتمع مع العلم توبيخاً لهم على ما أهملوا من مواهب عقولهم وأضاعوا من سلامة مداركهم. وهذا منزع تهذيبي عظيم: أن يعمد المربي فيجمع لمن يربيه بين ما يدل على بقية كمال فيه حتى لا يقتل همته باليأس من كماله، فإنه إذا ساءت ظنونه في نفسه خارت عزيمته وذهبت مواهبه، ويأتي بما يدل على نقائص فيه ليطلب الكمال فلا يستريح من الكد في طلب العلا والكمال.

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (٢٤)

{وَإِنْ كُنْتُمْ} الخطاب لمن جعل الله أنداداً **{فِي رَيْبٍ}** "الريب" يفسره كثير من الناس بالشك؛ ولا شك أنه قريب من معنى الشك، لكنه يختلف عنه بأن "الريب" يُشعر بقلق مع الشك، وأن الإنسان في قلق عظيم مما وقع فيه الشك؛ وذلك لأن ما جاء به الرسول حق؛ والشاك فيه لا بد أن يعتريه قلق من أجل أنه شك في أمر لا بد من التصديق به؛ بخلاف الشك في الأمور الهينة، فلا يقال:

"ريب"؛ وإنما يقال في الأمور العظيمة التي إذا شك فيها الإنسان وجد في داخل نفسه قلقاً واضطراباً.

{مَّمَّا نَزَّلْنَا} أي القرآن، وفيه إثبات علو الله عز وجل؛ لأنه إذا تقرر أن القرآن كلامه، وأنه منزل من عنده لزم من ذلك علو المتكلم به؛ وعلو الله عز وجل ثابت بالكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة؛ وتفاصيل هذه الأدلة في كتب العقائد؛ ولولا خوض أهل البدعة في ذلك ما احتيج إلى كبير عناء في إثباته؛ لأنه أمر فطري؛ ولكن علماء أهل السنة يضطرون إلى مثل هذا لدحض حجج أهل البدع.

{عَلَى عَبْدِنَا} لم يصرح هنا باسم هذا العبد الكريم، صلوات الله وسلامه عليه، وصرح باسمه في موضع آخر وهو قوله: **{وَأَمْنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ}** [محمد: ٢]، صلوات الله وسلامه عليه.

والله تبارك وتعالى وصف رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالعبودية في المقامات العالية: في بيان تكريمه بإنزال القرآن كما قال تعالى: **{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}** [الفرقان: ١]، وقال تعالى: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا}** [الكهف: ١]، وقال تعالى: **{هُوَ**

الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ { [الحديد: ٩]

وفي بيان تكريمه بالإسراء والمعراج، كما قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا} [الإسراء: ١] وقال تعالى: {فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ} [النجم: ١٠]

وفي الدفاع عنه هذه الآية {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ} وقوله تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر: ٣٦]

و "العبودية": هي التذلل للمحبوب والمعظم. والعبودية لله عزّ وجلّ هي غاية الحرية؛ لأن من لم يعبد الله فلا بد أن يعبد غيره؛ فإذا لم يعبد الله عزّ وجلّ -الذي هو مستحق للعبادة- عبّد الشيطان، كما قال ابن القيم رحمه الله.

فأفضل أوصاف الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هي العبودية والرسالة؛ ولهذا قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لا تُطْرُونِي [مُجَاوِزَةَ الْحَدِّ فِي الْمَدْحِ وَالْكَذْبِ فِيهِ]) كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ [مالك في الموطأ]؛ وعن أبي

هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أتى بهدية فلم يجد شيئاً يضعها عليه قال ضعها على الحضيض [يعنى الأرض] ثم نزل يأكل ثم قال: (إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأشرب كما يشرب العبد) [الديلمى]

وفي ذكر هذه الآية المتعلقة برسالة محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إشارة إلى كلمتي التوحيد؛ وهما شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله؛ لكن شهادة أن لا إله إلا الله: توحيد القصد؛ والثاني: توحيد المتابعة؛ فكلاهما توحيد؛ لكن الأول توحيد القصد بأن يكون العمل خالصاً لله؛ والثاني توحيد المتابعة بأن لا يتابع في عبادته سوى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وإذا تأملت القرآن وجدت هكذا: يأتي بما يدل على التوحيد، ثم بما يدل على الرسالة؛ ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: **{أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ}** [المؤمنون: ٦٨]، ثم قال تعالى: **{أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ}** [المؤمنون: ٦٩]؛ وهذا مطّرد في القرآن الكريم.

{فَأْتُوا بِسُورَةٍ} لما احتج تعالى عليهم بما يثبت الوجدانية ويبطل الإشراك، وعرفهم أن من جعل لله شريكاً فهو بمعزل من

العلم والتمييز، أخذ يحتج على من شك في النبوة بما يزيل شبهته، وهو كون القرآن معجزة، وبين لهم كيف يعلمون أنه من عند الله أم من عنده، بأن يأتوا هم ومن يستعينون به بسورة من هذا، وهم الفصحاء البلغاء المجيدون حبك الكلام، والمتقلبون في أفانين البيان، والمشهود لهم في ذلك بالإحسان.

وطلب منهم الإتيان بمطلق سورة التي أقلها ثلاث آيات، فلم يقترح عليهم الإتيان بسورة طويلة فيعنتوا في ذلك، بل سهل عليهم وأراح عليهم بطلب الإتيان بسورة ما، وهذا هو غاية التبكيت والتخجيل لهم.

وإنما كان التحدي بسورة ولم يكن بمقدار من آيات القرآن لأن من جملة وجوه الإعجاز أمورا لا تظهر خصائصها إلا بالنظر إلى كلام مستوفي في غرض من الأغراض من براعة فواتح الكلام وخواتمه، واستيفاء الغرض المسوق له الكلام، وصحة التقسيم، ونكت الإجمال والتفصيل، وأحكام الانتقال من فن إلى آخر من فنون الغرض، وفصل الجمل ووصلها، والإيجاز والإطناب، ونحو ذلك مما يرجع إلى نكت مجموع نظم الكلام، وتلك لا تظهر مطابقتها جلية إلا إذا تم الكلام واستوفى الغرض حقه.

فلا جرم كان لنظم القرآن وحسن سبكه إعجاز يفوت قدرة البشر وهو غير الإعجاز الذي لجمله وتراكيبه وفصاحة ألفاظه. فكانت السورة من القرآن بمنزلة خطبة الخطيب وقصيدة الشاعر لا يحكم لها بالتفوق إلا باعتبارات مجموعها بعد اعتبار أجزائها. ولذلك قال الطيبي: "ولسر النظم القرآني كان التحدي بالسورة، وإن كانت قصيرة دون الآيات وإن كانت ذوات عدد".

والتنكير للإفراد أو النوعية. أي بسورة واحدة من نوع السور وذلك صادق بأقل سورة ترجمت باسم يخصها، وأقل السور في عدد الآيات سورة الكوثر. وقد كان المشركون بالمدينة تبعاً للمشركين بمكة وكان نزول هذه السورة في أول العهد بالهجرة إلى المدينة فكان المشركون كلهم ألبا على النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يتداولون الإغراء بتكذيبه وصد الناس عن اتباعه، فأعيد لهم التحدي بإعجاز القرآن الذي كان قد سبق تحديهم به في سورة يونس وسورة هود وسورة الإسراء.

وقد كان التحدي أولاً بالإتيان بكتاب مثل ما نزل منه ففي سورة الإسراء: {قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً}

[الإسراء: ٨٨]. فلما عجزوا اسْتُنْزِلُوا إِلَى الْإِثْيَانِ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ
كما في سورة هود {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ
مُفْتَرِيَاتٍ} [هود: ١٣]. ثم اسْتُنْزِلُوا إِلَى الْإِثْيَانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ كما في
سورة يونس {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ} [يونس: ٣٨]
{مَنْ مِثْلِهِ} يحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى القرآن المنزل؛
والمعنى: من مثل ما نزلنا على عبدنا. أي من جنسه، ويحتمل أن
يكون عائداً إلى الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ والمعنى: من
مثل محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ وكلاهما صحيح.

فالقول الأول على أنماط:

- من مثل القرآن في حسن النظم، وبديع الرصف، وعجيب
السرد، وغرابة الأسلوب وإيجازه وإتقان معانيه.
- وقيل: في غيوبه من إخباره بما كان وبما يكون.
- وقيل: في احتوائه على الأمر والنهي، والوعد والوعيد،
والقصص والحكم، والمواعظ والأمثال.
- وقيل: في صدقه وسلامته من التبديل والتحريف.

- وقيل: في أنه لا يخلق على كثرة الرد، ولا تملأ الأسماع،

ولا يمحوه الماء، ولا تفنى عجائبه، ولا تنتهي غرائبه، ولا

ترول طلاوته على تواليه، ولا تذهب حلاوته من لهوات تاليه.

- وقيل: في دوام آياته وكثرة معجزاته.

والقول الثاني في المثلية وكون الضمير عائداً على المنزل عليه

محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - على أنماط:

- من مثله من أمة لا يحسن الكتابة، على الفطرة الأصلية.

- من مثله لم يدارس العلماء، ولم يجالس الحكماء، ولم يؤثر

عنه قبل ذلك تعاطي الأخبار، ولم يرحل من بلده إلى غيره

من الأمصار.

- من مثله على زعمكم أنه ساحر شاعر مجنون.

- من مثله من أبناء جنسه وأهل مدرته.

والاحتمالات التي احتملها قوله: {مَنْ مِثْلِهِ} كلها مرادة لرد

دعاوى المكذبين في اختلاف دعاويهم، فإن منهم من قال: القرآن

كلام بشر، ومنهم من قال: هو مكتوب من أساطير الأولين، ومنهم

من قال: إنما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ. وهاته الوجوه في معنى الآية تفند جميع

الدعاوى فإن كان كلام بشر فأتوا بِمِثَالِهِ أَوْ بِمِثْلِهِ، وإن كان من

أساطير الأولين فأتوا أنتم بجزء من هذه الأساطير، وإن كان يُعَلِّمُهُ
بَشَرٌ فأتوا أنتم مِنْ عِنْدِهِ بِسُورَةٍ فما هو ببخيل عنكم إن سألتموه.
وكل هذا إرخاء لعنان المعارضة وتسجيل للإعجاز عند عدمها.
فالتحدي على صدق القرآن هو مجموع مماثلة القرآن في ألفاظه
وتراكيبه، ومماثلة الرسول المنزل عليه في أنه أُمِّي لم يسبق له تعليم
ولا يعلم الكتب السالفة، قال تعالى: **{أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ
الْكِتَابَ}** [العنكبوت: ٥١]

{وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ} ولما طلب منهم المعارضة بسورة على
تقدير حصولهم في ريب من كونه من عند الله، لم يكتف بقولهم
ذلك بأنفسهم، حتى طلب منهم أن يدعوا شهداءهم على الاجتماع
على ذلك والتظافر والتعاون والتناصر، فقال: **{وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ}**،
وفسر هنا ادعوا: استغيثوا بمن يشهدكم ويحضركم من الأعوان
والأنصار.

{مَنْ دُونِ اللَّهِ} مما سوى الله، أي وادعوا من دون الله
شهداءكم، ولا تستشهدوا بالله تعالى، أمره تعالى إياهم بالمعارضة
وبدعاء الأنصار والأعوان، مع علمه أنهم لا يقدرُونَ على ذلك، أمر
تهكم وتعجيز.

وقيل: المراد هنا ادعوا آلهتكم بقرينة قوله: **{مِنْ دُونِ اللَّهِ}** أي ادعوهم من دون الله كدأبكم في الفرع إليهم عند مهماتكم معرضين بدعائهم واستنجاحهم عن دعاء الله واللجأ إليه، ففي الآية إدماج توبيخهم على الشرك في أثناء التعجيز عن المعارضة، وهذا الإدماج من أفانين البلاغة أن يكون مراد البليغ غرضين فيقرن الغرض المسوق له الكلام بالغرض الثاني، وفيه تظهر مقدرة البليغ إذ يأتي بذلك الاقتران بدون خروج عن غرضه المسوق له الكلام ولا تكلف.

{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} فيما تقتدرون عليه من المعارضة، وقد حكى عنهم في آية أخرى: **{وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}** [الأنفال: ٣١] **{فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا}** إثارة لهممهم ليكون عجزهم بعد ذلك أبلغ وأبدع **{وَلَنْ تَفْعَلُوا}** قطعاً لأطماعهم.

وإنما عبر بلم تفعلوا ولن تفعلوا دون فإن لم تأتوا بذلك ولن تأتوا كما في قوله تعالى قال: **{اتُّنَوِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ}** إلى قوله: **{فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ}** [يوسف: ٦٠] لأن في لفظ تفعلوا هنا من الإيجاز ما ليس مثله في الآية الأخرى إذ الإتيان المتحدى به

في هذه الآية إتيان مكيف بكيفية خاصة وهي كون المأتي به مثل هذا القرآن ومشهودا عليه ومستعانا عليه بشهادتهم، فكان في لفظ تفعلوا من الإحاطة بتلك الصفات والقيود إيجاز لا يقتضيه الإتيان الذي في سورة يوسف.

وفي ذلك دليان على إثبات النبوة.

أحدهما: صحة كون المتحدي به معجزاً، الثاني: الإخبار بالغيب من أنهم لن يفعلوا، وهذا لا يعلمه إلا الله تعالى، ويدل على ذلك أنهم لو عارضوه لتوفرت الدواعي على نقله خصوصاً من الطاعنين عليه، فإذا لم ينقل دل على أنه إخبار بالغيب وكان ذلك معجزه.

{فَاتَّقُوا النَّارَ} جواب للشرط، وكنى به عن ترك العناد، لأن من عاند بعد وضوح الحق له استوجب العقاب بالنار، واتقاء النار من نتائج ترك العناد ومن لوازمه.

وهو إيجاز بديع وذلك أن اتقاء النار لم يكن مما يؤمنون به من قبل لتكذيبهم بالبعث فإذا تبين صدق الرسول لزمهم الإيمان بالبعث والجزاء.

وعرف {النار} هنا لأنه قد تقدم ذكرها نكرة في سورة التحريم، والتي في سورة التحريم نزلت بمكة، وهذه بالمدينة. فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [التحريم: ٦] وإذا كررت النكرة سابقة ذكرت ثانية بالألف واللام، وصارت معرفة لتقدمها في الذكر ووصفت بالتي وصلتها.

{الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} هذه الحجارة قال كثير من العلماء: إنها حجارة من كبريت. واختصت بذلك لما فيها من سرعة الالتهاب، وتنن الرائحة، وعظم الدخان، وشدة الالتصاق بالبدن، وقوة حرها إذا حميت. قيل: هو الكبريت الأسود، أو حجارة مخصوصة أعدت لجهم، إذا اتقدت لا ينقطع وقودها.

وقال بعضهم: إنها الأصنام التي كانوا يعبدونها. وهذا القول يبينه ويشهد له قوله تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [الأنبياء: ٩٨] وفيه إهانة هؤلاء الكفار بإذلال آلهتهم، وطرحها في النار.

وحكمة إلقاء حجارة الأصنام في النار مع أنها لا تظهر فيها حكمة الجزاء أن ذلك تحقير لها وزيادة إظهار خطأ عبدتها فيما

عبدوا، وَتَكَرَّرَ لحسرتهم على إهانتها، وحسرتهم أيضا على أن كان ما أعدوه سببا لعزهم وفخرهم صار سببا لعذابهم، وما أعدوه لنجاتهم سببا لعذابهم

وفي هذه الآية تعريض بتهديد المخاطبين، والمعنى المعرض به فاحذروا أن تكونوا أنتم وما عبدتم وقود النار، وقرينة التعريض قوله: **{فَاتَّقُوا}** وقوله: **{وَالْحِجَارَةُ}** لأنهم لما أمروا باتقائها أمر تحذير علموا أنهم هم الناس، ولما ذكرت الحجارة علموا أنها أصنامهم، فلزم أن يكون الناس هم عباد تلك الأصنام.

وليس في ذلك أيضاً ما يدل على أنها ليس فيها غير الناس والحجارة، بدليل ما ذكر في غير موضع من كون الجن والشياطين فيها، وقدم الناس على الحجارة لأنهم العقلاء الذين يدركون الآلام والمعذبون، أو لكونهم أكثر إيقاداً للنار من الجماد لما فيهم من الجلود واللحوم والشحوم والعظام والشعور، أو لأن ذلك أعظم في التخويف. فإنك إذا رأيت إنساناً يحرق، أقشعرّ بدنك وطاش لبك، بخلاف الحجر.

{أُعِدَّتْ} قال ابن عطية: "ردّا على من قال: إن النار لم تخلق حتى الآن، وهو القول الذي سقط فيه منذر بن سعيد". ومعناه أنه

زعم أن الإِعداد لا يكون إلا للموجود، لأن الإِعداد هو التهيئة والإِعداد للشيء.

ومندر الذي ذكره ابن عطية كان يعرف بالبلوطي، وكان قاضي القضاة بالأندلس، وكان معتزلياً في أكثر الأصول ظاهرياً في الفروع، وله ذكر ومناقب في التواريخ، وهو أحد رجالات الكمال بالأندلس. وسرى إليه ذلك القول من قول كثير من المعتزلة، وهي مسألة تذكر في أصول الدين وهو: أن مذهب أهل السنة أن الجنة والنار مخلوقتان على الحقيقة.

وذهب كثير من المعتزلة والجهمية والنجاومية إلى أنهما لم يخلقا بعد، وأنهما سيخلقان.

ووجود الجنة والنار أمر دلت عليه السنة أيضاً؛ فإن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عُرِضَتْ عَلَيْهِ الجنة والنار، ورأى أهلها يعذبون فيها: رأى عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ الخُزَاعِي يجر قصبه - أي أمعاءه - في النار؛ ورأى المرأة التي حبست الهرة حتى ماتت جوعاً: فلم تكن أطعمتها، ولا أرسلتها تأكل من خشاش الأرض؛ ورأى فيها صاحب المحجن - الذي كان يسرق الحُجَّاجَ بمحجنه - يعذب: وهو رجل معه محجن - أي عصا محنية الرأس - كان يسرق

الحُجَاج بهذا المحجن؛ إذا مر به الحجاج جذب متاعهم؛ فإن تفتن صاحب الرجل لذلك ادعى أن الذي جذبه المحجن؛ وإن لم يتفتن أخذه؛ فكان يعذب -والعياذ بالله- بمحجنه في نار جهنم.

قال ابن عثيمين: هل النار باقية؛ أو تفتنى؟

ذكر بعض العلماء إجماع السلف على أنها تبقى ولا تفتنى؛ وذكر بعضهم خلافاً عن بعض السلف أنها تفتنى؛ والصواب أنها تبقى أبد الآبدين؛ والدليل على هذا من كتاب الله عز وجل في ثلاث آيات من القرآن: في سورة النساء، وسورة الأحزاب، وسورة الجن؛ فأما الآية التي في النساء فهي قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [النساء: ١٦٨-١٦٩]؛ والتي في سورة الأحزاب قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [الأحزاب: ٦٤-٦٥]؛ والتي في سورة الجن قوله تعالى: {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا} [الجن: ٢٣]؛ وليس بعد كلام الله كلام؛ حتى إنني أذكر تعليقا لشيوخنا عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- على كتاب «شفاء العليل» لابن القيم؛ ذكر أن هذا من باب: "لكل جواد كبوة؛ ولكل

صارم نبوة". وهو صحيح؛ كيف إن المؤلف رحمه الله يستدل بهذه الأدلة على القول بفناء النار مع أن الأمر فيها واضح؟! غريب على ابن القيم - رحمه الله - أنه يسوق الأدلة بهذه القوة للقول بأن النار تفنى! وعلى كل حال، كما قال شيخنا في هذه المسألة: "لكل جواد كبوة؛ ولكل صارم نبوة"؛ والصواب الذي لا شك فيه - وهو عندي مقطوع به - أن النار باقية أبد الآبدين؛ لأنه إذا كان يخلد فيها تخليداً أبدياً لزم أن تكون هي مؤبدة؛ لأن ساكن الدار إذا كان سكونه أبدياً لا بد أن تكون الدار أيضاً أبدية.

وأما قوله تعالى في أصحاب النار: {فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ} * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} [هود: ١٠٦-١٠٧] من الزيادة على مدتهما مما لا ينتهي له، والمعنى خالدين فيها أبداً، وقيل: إلا ما شاء ربك من إخراج عصاة الموحدين بعد مدّة من مكثهم في النار، فهي كقوله تعالى في أصحاب الجنة: {وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ} [هود: ١٠٨] أي خالدين فيها أبداً، وقيل: إلا الفريق الذي شاء الله تأخيرهم، وهم عصاة الموحدين، فإنهم يبقون في النار فترة من الزمن، ثم يخرجون

منها إلى الجنة بمشيئة الله ورحمته، لكن لما كان أهل الجنة نعيمهم وثوابهم فضلاً ومِنَّةً، بيّن أن هذا الفضل غير منقطع، فقال تعالى: **{عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ}** [هود: ١٠٨]؛ ولما كان عذاب أهل النار من باب العدل، والسلطان المطلق للرب عزّ وجلّ قال تعالى في آخر الآية: **{إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}** [هود: ١٠٧]؛ وليس المعنى: **{إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}** أنه سوف يخرجهم من النار، أو سوف يُفني النار.

{لِلْكَافِرِينَ} ولا يدل إعدادهما للكافرين على أنهم مخصوصون بها، كما ذهب إليه بعض المتأولين من أن نار العصاة غير نار الكفار، وقد ثبت في الحديث الصحيح إدخال طائفة من أهل الكبائر النار، لكنه اكتفى بذكر الكفار تغليباً للأكثر على الأقل. فأما من دخلها من عصاة المؤمنين فإنهم لا يخلدون فيها؛ فهم فيها كالزوار؛ لا بد أن يخرجوا منها؛ فلا تسمى النار داراً لهم؛ بل هي دار للكافر فقط؛ أما المؤمن العاصي -إذا لم يعف الله عنه- فإنه يعذب فيها ما شاء الله، ثم يخرج منها إما بشفاعته؛ أو بمنة من الله وفضل؛ أو بانتهاء العقوبة.

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا
هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا
أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥)

{وَبَشِّرِ} البشارة: أول خبر يرد على الإنسان من خير كان أو
شر، وأكثر استعماله في الخير. قالوا: وسمي بذلك لتأثيره في
البشرة، فإن كان خيراً أثر المسرة والانبساط واستنارة الوجه، وإن
كان شراً أثر القبض والانكماش واسوداد الوجه.

ومناسبة قوله تعالى: **{وَبَشِّرِ..}** لما قبله ظاهره، وذلك أنه لما
ذكر ما تضمن ذكر الكفار وما تؤول إليه حالهم في الآخرة، وكان
ذلك من أبلغ التخويف والإنذار، أعقب ما تضمن ذكر مقابلتهم
وأحوالهم وما أعد الله لهم في الآخرة من النعيم السرمدي. وهكذا
جرت العادة في القرآن غالباً، متى جرى ذكر الكفار وما لهم أعقب
بالمؤمنين وما لهم وبالعكس، لتكون الموعظة جامعة بين الوعيد
والوعد واللفظ والعنف، لأن من الناس من لا يجذبه التخويف
ويجذبه اللطف، ومنهم من هو بالعكس.

{الَّذِينَ آمَنُوا} بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر،
والقدر خيره وشره؛ لكن ليس الإيمان بهذه الأشياء مجرد التصديق
بها؛ بل لا بد من قبول وإذعان؛ وإلا لما صح الإيمان.

{وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} وهي الصادرة عن محبة، وتعظيم لله عزَّ
وجلَّ المتضمنة للإخلاص لله، والمتابعة لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ-؛ فما لا إخلاص فيه فهو فاسد؛ وما لم يكن على الاتِّباع
فهو مردود لا يقبل

وفيه دليل على أن الذين أمر الله بأن يمشروا هم من جمعوا بين
الإيمان والأعمال الصالحات، وأن من اقتصر على الإيمان فقط
دون الأعمال الصالحات لا يكون مبشراً.

{أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ} الجنة: البستان الذي سترت أشجاره أرضه
لكثرتها وكثافتها، وكل شيء ستر شيئاً فقد أجنه، ومن ذلك: الجنة
والجنة والجن والمجن والجنين. فإن كان فيه كرم فهي فردوس.
وذلك من وسائل التنعم والترفيه عند البشر قاطبة لاسيما في بلد
تغلب عليه الحرارة كبلاد العرب قال تعالى: **{وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً}**

[النبا: ١٦]

والمراد بالجنة شرعاً: الدار التي أعدها الله للمتقين، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وجنات جمع جنة، وهو جمع قلة، والجنان أنواع فروي عن ابن عباس أنها سبع جنات، وروى البخاري عن عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (جَنَّتَانِ مِنْ فَضَّةٍ آتِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آتِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِذَاءُ الْكِبَرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ).

{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} من أسفلها، أي من بين أشجارها وقصورها؛ وليس من تحت سطحها؛ لأن جريانها من تحت سطحها لا فائدة منه؛ وأكمل محاسن الجنات جريان المياه في خلالها وذلك شيء اجتمع البشر كلهم على أنه من أنفس المناظر لأن في الماء طبيعة الحياة ولأن الناظر يرى منظراً بديعاً وشيئاً لذيذاً.

وسمي النهر «نهرًا» لاتساعه، ومنه "النهار" لاتساع ضوئه. ولم يبين هنا أنواع هذه الأنهار، ولكنه بين ذلك في قوله: **{فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى}** [محمد: ١٥].

ولما كانت الجنة لا تشوق، والروض لا يروق إلا بالماء الذي يقوم لها مقام الأرواح للأشباح، ما كاد مجيء ذكرها إلا مشفوعاً بذكر الأنهار، مقدماً هذا الوصف فيها على سائر الأوصاف.

وقد روي عن مسروق: أن أنهار الجنة تجري في غير أخاديد، وأنها تجري على سطح أرض الجنة منبسطة.

وإذا صح هذا النقل، فهو أبلغ في النزهة، وأحلى في المنظر، وأبهج للنفس. فإن الماء الجاري ينبسط على وجه الأرض جوهره فيحسن اندفاعه وتكسره، وأحسن البساتين ما كانت أشجاره ملتفة وظله ضافياً وماؤه صافياً مناسباً على وجه أرضه، لاسيما الجنة، حصاؤها الدر والياقوت واللؤلؤ، فتتكسر تلك المياه على ذلك الحصى، ويجلو صفاء الماء بهجة تلك الجواهر، وتسمع لذلك الماء المتكسر على تلك اليواقيت والآلياء له خيراً.

{كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ}

لأنه يشبه ما سبقه في حجمه ولونه وملمسه.. وغير ذلك من صفاته؛ فيظنون أنه هو الأول؛ ولكنه يختلف عنه في الطعم والمذاق اختلافاً عظيماً؛ ولهذا قال:

{وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا} قال الحسن ومجاهد: يرزقون الثمرة ثم يرزقون بعدها مثل صورتها، والطعم مختلف، فهم يتعجبون لذلك ويخبر بعضهم بعضاً.

وقال ابن عباس: ليس في الجنة شيء مما في الدنيا سوى الأسماء، وأما الذوات فمتباينة.

ويحتمل أن في ذلك تعجيباً لهم والشيء العجيب لذيد الوقع عند النفوس ولذلك يرغب الناس في مشاهدة العجائب والنوادر. وهذا الاحتمال هو الأظهر من السياق.

**هل زوّد آدم عليه السلام من ثمار الجنة لما أهبط إلى

الأرض؟

هذا الخبر رواه ابن أبي الدنيا في "صفة الجنة"، والبزار في "المسند"، وابن فيل "جزء ابن فيل"، والطبراني، وساق روايته بإسنادها الكامل ابن كثير في "البداية والنهاية":

عَنْ قَسَامَةَ بْنِ زُهَيْرٍ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَمَّا أَهْبَطَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ مِنْ

الْجَنَّةِ زَوَّدَهُ مِنْ ثِمَارِهَا، فَثِمَارُكُمْ هَذِهِ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ هَذِهِ
تَتَغَيَّرُ وَثِمَارُ الْجَنَّةِ لَا تَتَغَيَّرُ).

وخالفهما جمع من الرواة عن عوف، فرووه موقوفا من كلام أبي
موسى الأشعري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-.

قال البزار -رحمه الله تعالى-: “ وَهَذَا الْحَدِيثُ قَدْ رَوَاهُ غَيْرُ
وَاحِدٍ عَنْ عَوْفٍ عَنْ قَسَامَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى مَوْقُوفًا، وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا
رَفَعَهُ إِلَّا رُبْعِيٌّ ” انتهى.

فرواه عبد الرزاق في “التفسير”، وعنه ابن أبي حاتم في
”التفسير“ والبزار في “المسند“ والطبري في “التفسير”، والحاكم
في “المستدرک”، ومن طريقه البيهقي في “البعث والنشور“ عن
هَوْذَةَ بن خَلِيفَةَ. وأبو بكر الدينوري في “المجالسة وجواهر العلم“
كلهم يروونه: عن عَوْفٍ، عَنْ قَسَامَةَ بْنِ زُهَيْرٍ، عَنْ أَبِي مُوسَى
الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ:

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حِينَ أَهْبَطَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ عَلَّمَهُ صَنْعَةَ
كُلِّ شَيْءٍ، وَزَوَّدَهُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ مِثْلَ ثَمَرَتِكُمْ هَذِهِ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ
غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ تَتَغَيَّرُ وَتِلْكَ لَا تَتَغَيَّرُ.

وهؤلاء الرواة عن عوف ثقات، وهوذة بن خليفة صدوق، قال فيه الإمام أحمد رحمه الله تعالى: ما أضبط هذا الأصم - يعني هوذة - عن عوف، أرجو أن يكون صدوقا.

وعوف الأعرابي وهو ابن أبي جميلة، قد وثّق. قال الذهبي - رحمه الله تعالى -: عوف الأعرابي قال النسائي: ثقة ثبت. وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: عوف بن أبي جميلة، الأعرابي العبدي، البصري: ثقة زُمي بالقدر وبالتشيع " انتهى. وكذا قسامة بن زهير: " ثقة "

فالمراجع أن الخبر موقوف من كلام أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه -.

قال الحاكم رحمه الله تعالى عقب روايته: " صحيح الإسناد، ولم يخرجاه " ووافقه الذهبي.

وقال الشيخ الألباني رحمه الله تعالى: ضعيف مرفوعا، صحيح موقوفاً

والجنة التي أهبط منها آدم عليه السلام هي جنة الخلد، وكون آدم عليه السلام قد زود بثمار الجنة، وأن ثمار الدنيا من تلك الثمار، كما في بعض روايات هذا الخبر: (فَثِمَارُكُمْ هَذِهِ مِنْ ثِمَارِ

الجنة)، لا يعني هذا أن هذه الثمار باقية على هيئتها وطعمها الذي كان في الجنة، فقد نص الخبر أن بينهما فرق، ففيه: (غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ تَتَغَيَّرُ وَتِلْكَ لَا تَتَغَيَّرُ)

وقد روى ابن أبي حاتم في "التفسير"، والطبري في "التفسير" عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ شَيْءٌ يُشْبَهُ مَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْأَسْمَاءَ.

وروى الطبري في "التفسير"، قال عبد الرحمن بن زيد في قوله: {وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا}. قال: يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا، التُّفَّاحُ بالتُّفَّاحِ، والرُّمَّانُ بالرُّمَّانِ، قالوا في الجنة: {هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ} في الدنيا {وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا} يعرفونه، وليس هو مثله في الطعم.

فهذا الخبر الصواب فيه أنه موقوف من كلام أبي موسى الأشعري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، ومثله لا يقال بالرأي؛ ولا يبعد أن يكون ذلك من جملة أخبار أهل الكتاب، فهم أهل العناية بمثل ذلك.

وكون ثمار الدنيا من ثمار الجنة: لا يعني أنها الآن تشبهها في الشكل والطعم، وإنما يراد به، والله أعلم: تأكيد حقيقتها، وأصل

معناها، وإن كانت صفاتها متفاوتة؛ كما قال ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ شَيْءٌ يُشْبِهُ مَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْأَسْمَاءُ.

{وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ} ولما كانت مجامع اللذات في المسكن البهي والمطعم الشهي والمنكح الوضي، ذكرها الله تعالى فيما يبشر به المؤمنون. وقد بدأ بالمسكن لأن به الاستقرار في دار المقام، وثنى بالمطعم لأن به قوام الأجسام، ثم ذكر ثالثاً الأزواج لأن بها تمام الالتئام.

والأزواج جمع "زوج"، وهو من جموع القلة، لأن زوجاً جمع على "زوجة" نحو: عود وعودة، وهو من جموع الكثرة، لكنه ليس في الكثير من الكلام مستعملاً، فلذلك استغنى عنه بجمع القلة توسعاً وتجاوزاً. وفي حديث أنس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إنها زوجتي) أخرجه مسلم.

وهو شامل للأزواج من الحور، ومن نساء الدنيا؛ ويطلق "الزوج" على الذكر والأنثى؛ ولهذا يقال للرجل: "زوج"، وللمرأة: "زوج"؛ لكن في اصطلاح الفرضيين صاروا يلحقون التاء للأنثى فرقاً بينها وبين الرجل عند قسمة الميراث.

{مُطَهَّرَةٌ} يشمل طهارة الظاهر، والباطن؛ فهي مطهرة من الأذى والقذر: لا بول، ولا غائط، ولا حيض، ولا نفاس، ولا استحاضة، ولا عرق، ولا بخر، مطهرة من كل شيء ظاهر حسي؛ مطهرة أيضاً من الأقدار الباطنة، كالغل، والحقْد، والكراهية، والبغضاء، وغير ذلك.

ومجيء هذه الصفة مبنية للمفعول، ولم تأت {طاهرة أو طاهرات}، أفخم لأنه أفهم أن لها مطهراً وليس إلا الله تعالى. فهنّ مطهرات ظاهراً وباطناً من كل ما يشين، لأن من طهره الله تعالى ووصفه بالتطهير كان في غاية النقاء والنظافة والوضاءة.

ولم يبين هنا سائر صفات تلك الأزواج، ولكنه بين صفاتهن الجميلة في آيات أخر كقوله: **{وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ}** [الصافات: ٤٨]، وقوله: **{كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ}** [الرحمن: ٥٨]، وقوله: **{وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ}** [الواقعة: ٢٣-٢٢]، وقوله: **{وَكَوَاعِبُ أُنْثَىٰ} [النبا: ٣٣]**، إلى غير ذلك من الآيات المبينة لجميل صفاتهن.

{وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} احتراس من توهم الانقطاع بما تعودوا من انقطاع اللذات في الدنيا لأن جميع اللذات في الدنيا معرضة للزوال وذلك ينغصها عند المنعم عليه.

فلما ذكر تعالى مسكن المؤمنين ومطعمهم ومنكحهم، وكانت هذه الملاذ لا تبلغ درجة الكمال مع توقع خوف الزوال أعقب ذلك تعالى بما يزيل تنغيص التنعم بذكر الخلود في دار النعيم. وفيه أن جزاء المؤمنين العاملين للصالحات أكبر بكثير مما عملوا وأعظم؛ لأنهم مهما آمنوا وعملوا فالعمر محدود وينتهي؛ لكن الجزاء لا ينتهي أبداً؛ هم مخلدون فيه أبد الآباد؛ كذلك أيضاً الأعمال التي يقدمونها قد يشوبها كسل؛ قد يشوبها تعب؛ قد يشوبها أشياء تنقصها، لكن إذا منّ الله عليه، فدخل الجنة فالنعيم كامل.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٦) الَّذِينَ

يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ
بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ
(٢٧)

{إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي} لا يمنعه الحياء من ضرب الأمثال، وإن
صغرت كالبعوضة أو أصغر منها كجناحها ما دام يثبت به الحق؛
فالعبرة بالغاية.

وأصل الاستحياء الانقباض عن الشيء والامتناع منه خوفاً من
مواقعة القبح، أو لاستشعار أنه لا يليق أو لا يُحَسِّن في متعارف
أمثاله. والاستحياء والحياء واحد، فالسين والتاء فيه للمبالغة مثل
استقدم واستأخر واستجاب.

وفي الآية أن الحياء لا ينبغي أن يمنع من فعل المعروف وقوله
والأمر به، وأنه يستحسن ضرب الأمثال لتقريب المعاني إلى
الأذهان.

وفي الآية أيضا إثبات صفة الحياء لله عز وجل؛ ووجه الدلالة:
أن نفي الاستحياء عن الله في هذه الحال دليل على ثبوته فيما
يقابلها؛ وقد جاء ذلك صريحاً في السنة، كما في قول النبي -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ

يَدِيهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ) [سنن الترمذي]؛ والحياء الثابت لله تعالى ليس كحياء المخلوق؛ لأن حياء المخلوق انكسار لما يَدُهُمُ الإنسان ويعجز عن مقاومته؛ فتجده ينكسر، ولا يتكلم، أو لا يفعل الشيء الذي يُستَحْيَا منه؛ وهو صفة ضعف ونقص إذا حصل في غير محله.

{أَنْ يَضْرِبَ} يجعل ويصير، من قولهم ضرب خيمة وضرب بيتا، كما قال تعالى **{فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ}** [النحل: ٧٤] أي لا تجعلوا له مماثلا من خلقه.

{مَثَلًا} تنكير **{مَثَلًا}** للتنويع بقريئة بيانه بقوله: **{بِعُوضَةٍ فَمَا فَوْقَهَا}**.

والتمثيل يكشف المعنى ويوضح المطلوب، والعاقل إذا سمع التمثيل استبان له به الحق، وما زال الناس يضربون الأمثال بالبهايم والطيور والأجناس والحشرات والهوام، ولسان العرب ملآن من ذلك، فإنكار ضرب الأمثال جهالة مفرطة أو مكابرة واضحة.

قال بعض السلف: إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: **{وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}** [العنكبوت: ٤٣]

فالله تعالى يضرب الأمثال؛ لأن الأمثال أمور محسوسة يستدل بها على الأمور المعقولة؛ انظر إلى قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا}؛ وهذا البيت لا يقيها من حرٍّ، ولا بردٍ، ولا مطرٍ، ولا رياحٍ {وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ} [العنكبوت: ٤١]؛ وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [الرعد: ١٤] إنسان بسط كفيه إلى غدير مثلاً، أو نهر يريد أن يصل الماء إلى فمه! هذا لا يمكن؛ فهؤلاء الذين يمدون أيديهم إلى الأصنام كالذي يمد يديه إلى النهر ليلبغ فاه؛ فالأمثال لا شك أنها تقرب المعاني إلى الإنسان إما لفهم المعنى؛ وإما لحكمتها وبيان وجه هذا المثل.

{مَا} ما إبهامية تتصل بالنكرة فتؤكد معناها من تنويع أو تفخيم أو تحقير، نحو لأمر ما، وأعطاه شيئاً ما. وقيل {ما} هاهنا للتقليل، بمعنى شيء، أي: أي شيء كأن يجعله **{بِعُوضَةٍ}** مثلاً. والبعوضة حشرة صغيرة طائرة ذات خرطوم دقيق ثاقب ماص تحوم على

الإنسان لمتص بخرطومها من دمه غذاء لها، وتسمى أيضا
الناموسة.

{فَمَا فَوْقَهَا} فما فوقها في الكبر، وهذا قول قتادة وابن
جريج. واختيار ابن جرير، ويؤيده ما رواه مسلم عن عائشة - رضي
الله عنها - أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: (مَا مِنْ
مُسْلِمٍ يُشَاكُ شَوْكَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلَّا كُتِبَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَمُحِيتَ عَنْهُ
بِهَا خَطِيئَةٌ).

وقيل: فما فوقها في الصغر والحقارة، فيكون المعنى أدنى من
البعوضة، لأن الغرض المقصود هو الصغر. كما إذا وصف رجل
باللؤم والشح، فيقول السامع: "نعم، وهو فوق ذلك"، يعني فيما
وصفت. وهذا قول الكسائي وأبي عبيدة، قال الرازي: وأكثر
المحققين، وفي الحديث: (وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَرْنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ
بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ) [الترمذي].

فالفوقية تكون للأدنى وللأعلى، كما أن الوراء تكون للأمام
وللخلف، كما في قوله تعالى: **{وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ
غَضَبًا}** [الكهف: ٧٩] أي كان أمامهم.

وهو في هذه الآية صالح للمعنيين أي ما هو أشد من البعوضة في الحقارة وما هو أكبر حجما منها.

قال أهل العلم: وفي المعنى الذي أسند الله إليه عدم الاستحياء من أجله في ضرب المثل بهذه المصغرات والمستضعفات وجوه:

أحدها: أن البعوضة قد أوجدها على الغاية القصوى من الإحكام وحسن التأليف والنظام، وأظهر فيها -مع صغر حجمها- من بدائع الحكمة كمثل ما أظهره في الفيل الذي هو في غاية الكبر وعظم الخلقة.

وإذا كل واحد منهما قد استوفى نصاب حسن الصنعة وبدائع التأليف والصنعة، فضرب المثل بالصغير والكبير سيان عنده إذا كانا في توفية الحكمة سواء.

الثاني: أن في البعوضة -مع صغر حجمها وضعف بنيانها- من حسن التأليف ودقيق الصنع، من اختصار الخصر ودقة الخرطوم ولطيف تكوين الأعضاء ولين البشرة، ما يعجز أن يحاط بوصفه، وهي مع ذلك تبضع بشوكة خرطومها -مع لينها- جلد الجاموس والفيل، وتهتدي إلى مراق البشرة بغير دليل، فلا يستحيي الله تعالى أن يضرب بها المثل، إذ ليس في وسع أحد من البشر أن يخلق

مثلها ولا أقل منها، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} [الحج: ٧٣]

الثالث: أن البعوضة لما كانت من أصغر ما خلق الله تعالى خصها بالذكر في القلة، فلا يستحي أن يضرب المثل في الشيء الكبير بالكبير والحقير بالحقير، وله المثل الأعلى في ضرب الأمثال.

فالمثل بالذباب والبعوض والعنكبوت، وما يجري مجراه، أتى به تعالى في غاية ما يكون من التمثيل، وأحسن ما يكون من التشبيه، لأن الذي جعلها مثلاً لهم في غاية ما يكون من الحقارة، وضعف القوة، وخسة الذات والفعل، فلو شبههم بغير ذلك ما حسن موقع التشبيه، ولا عذب مذاق التمثيل، إذ الشيء لا يشبه إلا بما يماثله ويشاكله، ومن أتى بالشيء على وجهه فلا يستحيا منه.

{فَأَمَّا} تصدير الجملتين بـ «أما» التي معناها الشرط مشعر بالتوكيد، إذ هي أبلغ من: فالذين آمنوا يعلمون، والذين كفروا يقولون.

{الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ} يعلمون أنه كلام

الرحمن، وأنه من عند الله.

وفيه فضيلة الإيمان، وأن المؤمن لا يمكن أن يعارض ما أنزل الله عز وجل بعقله، فلا يعترض، ولا يقول: لم؟، ولا: كيف؟؛ بل يقول: سمعنا وأطعنا وصدقنا؛ لأنه يؤمن بأن الله عز وجل له الحكمة البالغة فيما شرع، وفيما قدر.

وفيه إثبات الربوبية الخاصة؛ لقوله تعالى: **{من ربهم}**؛ واعلم أن ربوبية الله تعالى تنقسم إلى قسمين: عامة؛ وخاصة؛ فالعامة هي الشاملة لجميع الخلق، وتقتضي التصرف المطلق في العباد؛ والخاصة هي التي تختص بمن أضيفت له، وتقتضي عناية خاصة؛ وقد اجتمعتا في قوله تعالى: **{قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}** [الأعراف: ١٢١-١٢٢] فالأولى ربوبية عامة؛ والثانية خاصة بموسى وهارون؛ كما أن مقابل ذلك "العبودية" التي تنقسم إلى عبودية عامة، كما في قوله تبارك وتعالى: **{إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا}** [مريم: ٩٣]؛ وخاصة كما في قوله تعالى: **{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ}** [الفرقان: ١]؛ والفرق بينهما أن العامة هي الخضوع للأمر الكوني؛

والخاصة هي الخضوع للأمر الشرعي؛ وعلى هذا فالكافر عبد لله بالعبودية العامة؛ والمؤمن عبد لله بالعبودية العامة والخاصة.

{وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا} مفيدة للتحقير بقرينة المقام

كقوله تعالى: **{أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ}** [الأنبياء: ٣٦]

{أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا} لأنه لم يتبين لهم الحق لإعراضهم عنه،

وقد قال الله تعالى: **{إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}** *

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٣-١٤]

قال ابن عباس والحسن وقتادة ومقاتل والفراء: نزلت في اليهود لما ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه بالعنكبوت والذباب والتراب والحجارة، وغير ذلك مما يستحقر ويطرح. قالوا: إن الله أعز وأعظم من أن يضرب الأمثال بمثل هذه المحقرات، فردّ الله عليهم بهذه الآية.

وقال السدي في تفسيره، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن

ابن عباس -وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: لما

ضرب الله هذين المثليين للمنافقين، يعني قوله: **{مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي**

اسْتَوْقَدَ نَارًا} [البقرة: ١٧] وقوله **{أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ}**

[البقرة: ١٩] الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من

أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله: {هُمُ
الْخَاسِرُونَ}

وقيل نزلت في المشركين.

والكل محتمل.. فهذا اختلافهم في سبب النزول، وقد اختار
ابن جرير ما حكاه السُّدي بشأن المنافقين؛ لأنه أمس بالسورة،
وهو مناسب.

قال ابن عاشور: والوجه أن نجمع بين الروایتين ونبين ما انطوتا
عليه بأن المشركين كانوا يفرعون إلى يهود يثرب في التشاور في
شأن نبوءة محمد -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وخاصة بعد أن هاجر
النبي -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى المدينة، فيتلقون منهم صوراً من
الكيد والتشغب فيكون قد تظاهر الفريقان على الطعن في بلاغة
ضرب المثل بالعنكبوت والذباب، فلما أنزل الله تعالى تمثيل
المنافقين بالذي استوقد ناراً وكان معظمهم من اليهود هاجت
أحناقهم وضاق خناقهم فاختلفوا هذه المطاعن فقال كل فريق ما
نسب إليه في إحدى الروایتين ونزلت الآية للرد على الفريقين
ووضح الصبح لذي عينين.

وإما أن يكون قائله المشركون من أهل مكة مع علمهم بوقوع مثله في كلام بلغائهم كقولهم أجراً من ذبابة، وأسمع من قراد، وأطيش من فراشة، وأضعف من بعوضة. وهذا الاحتمال أدل على أنهم ما قالوا ما هذا التمثيل إلا مكابرة ومعاودة فإنهم لما غلبوا بالتحدي وعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله تعلقوا في معاذيرهم بهاته السفاسف، والمكابرة يقول ما لا يعتقد، والمحجوج المبهوت يستعوج المستقيم ويخفي الواضح، وإلى هذا الثاني ينزع كلام صاحب الكشف وهو أوفق بالسياق.

والسورة وإن كانت مدنية فإن المشركين لم يزالوا يلقون الشبه في صحة الرسالة ويشيعون ذلك بعد الهجرة بواسطة المنافقين. وقد دل على هذا المعنى قوله بعده: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} إلى قوله: {وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا}.

كما قال في سورة المدثر: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ

بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ
جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ} [المدرثر: ٣١]

وجعل تفصيل الناس في هذه الآية قسمين لأن الناس بالنسبة
إلى التشريع والتنزيل قسمان ابتداء مؤمن وكافر، والمقصود من ذكر
المؤمنين هنا الثناء عليهم بثبات إيمانهم وتأييس الذين أرادوا إلقاء
الشك عليهم فيعلمون أن قلوبهم لا مدخل فيها لذلك الشك.
والمراد بالذين كفروا هنا إما خصوص المشركين كما هو مصطلح
القرآن غالباً، وإما ما يشملهم ويشمل اليهود بناء على ما سلف في
سبب نزول الآية.

وإنما عبر في جانب المؤمنين {يعلمون} تعريضاً بأن الكافرين
إنما قالوا ما قالوا عنادا ومكابرة وأنهم يعلمون أن ذلك تمثيل
أصاب المحز، كيف وهم أهل اللسان وفرسان البيان، ولكن شأن
المعاند المكابر أن يقول ما لا يعتقد حسداً وعناداً.

وقال الربيع بن أنس: "هذا مثل ضربه الله تعالى للدنيا وأهلها،
وأن البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا شبعت وامتألت ماتت. كذلك
مثل أهل الدنيا إذا امتلأوا منها كان سبباً لهلاكهم".

وفيه أن كل من اعترض ولو على جزء من الشريعة ففيه شبه بالكفار؛ فمثلاً لو قال قائل: لماذا ينتقض الوضوء بأكل لحم الإبل؟ فالجواب: أن هذا اعتراض على حكم الله عز وجل؛ وهو دليل على نقص الإيمان؛ لأن لازم الإيمان التام التسليم التام لحكم الله عز وجل. إلا أن يقول ذلك على سبيل الاسترشاد، والاطلاع على الحكمة؛ فهذا لا بأس به.

{يُضِلُّ بِهِ} أي بضرب المثل **{كثيراً}** من الناس **{ويَهْدِي بِهِ كثيرًا}** جملتان مستأنفتان جاريتان مجرى البيان والتفسير للجملتين السابقتين المصدرتين بـ «أما»؛ ولهذا ينبغي الوقوف على قوله تعالى: **{مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِذَا مَثَلًا}**

فيزيد هؤلاء ضلالة إلى ضلالهم لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقيناً، من المثل الذي ضربه الله بما ضربه لهم، فذلك إضلال الله إياهم به **{ويَهْدِي بِهِ}** يعني بالمثل كثيراً من أهل الإيمان والتصديق، فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيماناً إلى إيمانهم، لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنه موافق ما ضربه الله له مثلاً وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به.

والتعبير بالكثرة لا ينافي قول الله تعالى: {وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} [سبأ: ١٣] {وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ} [ص: ٢٤] لأن المهتدون في أنفسهم كثير، وإذا وصفوا بالقلة فبالنسبة إلى أهل الضلال.

وإسناد الضلال إلى الله تعالى إسناد حقيقي كما أن إسناد الهداية كذلك، فهو خالق الضلال والهداية.

قال ابن عاشور: إسناد الإضلال إلى الله تعالى مراعي فيه أنه الذي مكن الضالين من الكسب والاختيار بما خلق لهم من العقول وما فصل لهم من أسباب الخير وضده. وفي اختيار إسناده إلى الله تعالى مع صحة إسناده لفعل الضال إشارة إلى أنه ضلال متمكن من نفوسهم حتى صار كالجبله فيهم فهم ميئوس من اهتدائهم كما قال تعالى: {خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ} فإسناد الإضلال إلى الله تعالى منظور فيه إلى خلق أسبابه القريبة والبعيدة وإلا فإن الله أمر الناس كلهم بالهدى وهي مسألة مفروغ منها في علم الكلام.

{وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ} أي الخارجين عن طاعة الله؛ وأصل الفسق خروج الثمرة من قشرها، وهو عاهة أو رداءة في الثمر، فهو

خروج مدموم يعد من الأدواء، تقول العرب: "فسقت الرطبة": إذا خرجت من قشرتها؛ ولهذا يقال للفأرة: فويسقة، لخروجها عن جُحرها للإفساد، وثبت في الصحيحين، عن عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (خَمْسٌ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ الْحَيَّةُ وَالْغُرَابُ الْأَبْقَعُ [هو الذي في ظهره وبطنه بياض] وَالْفَأْرَةُ وَالْكَلْبُ الْعُقُورُ وَالْحُدَيَّا [الحدأة])

والمعنى: إما مسوق لبيان أن للفسق تأثيرا في زيادة الضلال لأن الفسق يرين على القلوب ويكسب النفوس ظلمة فتساقط في الضلال المرة بعد الأخرى على التعاقب، حتى يصير لها دربة فكأنه قيل هؤلاء فاسقون وما من فاسق إلا وهو ضال فما ثبت الضلال إلا بثبوت الفسق.

وإما مسوق لبيان أن الضلال والفسق أخوان فحيثما تحقق أحدهما أنبأ بتحقيق الآخر على نحو «قياس المساواة».

وفيه أن إضلال من ضل ليس لمجرد المشيئة؛ بل لوجود العلة التي كانت سبباً في إضلال الله العبد؛ لقوله تعالى: {وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ}؛ وهذا كقوله تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [الصف: ٥]

والمراد بالفسق هنا الخروج المطلق الذي هو الكفر؛ لأن
الفسق قد يراد به الكفر؛ وقد يراد به ما دونه؛ ففي قوله تبارك
وتعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا
مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تُكَذِّبُونَ} [السجدة: ٢٠] المراد به في هذه الآية الكفر؛ وكذلك
هنا.

قال ابن كثير: فالفاسق يشمل الكافر والعاصي، ولكن فسق
الكافر أشد وأفحش، والمراد من الآية الفاسق الكافر، والله أعلم،
بدليل أنه وصفهم بقوله: {الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ
وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ} وهذه الصفات صفات الكفار المبينة لصفات
المؤمنين، كما قال تعالى في سورة الرعد: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ
إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ *
الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ
اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ} الآيات،
إلى أن قال: {وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا

أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ { [الرعد: ١٩-٢٥] .

والذي عليه سلف هذه الأمة: أن من كان مؤمناً وفسق بمعصية دون الكفر، فإنه فاسق بفسقه مؤمن بإيمانه، وأنه لم يخرج بفسقه عن الإيمان، ولا بلغ حد الكفر. وذهبت الخوارج إلى أن من عصى وأذنب ذنباً فقد كفر بعد إيمانه.

قال ابن عاشور: والفسق مراتب كثيرة تبلغ بعضها إلى الكفر، والكتاب والسنة على جميعها، لكن الذي يستخلص من الجمع بين الأدلة هو ما اصطلح عليه أهل السنة من المتكلمين والفقهاء وهو أن الفسق غير الكفر وأن المعاصي وإن كثرت لا تزيل الإيمان وهو الحق.

{الَّذِينَ يَنْقُضُونَ} النقض الحلّ بعد الإبرام، صفة للفاستين لتقرير اتصافهم بالفسق **{عَهْدَ اللَّهِ}** وصية الله إلى خلقه، وأمره لهم بطاعته، ونهيه لهم عن معصيته في كتبه المنزلّة وعلى السنة أنبيائه المرسلّة، ونقضهم له تركهم العمل به.

{مِنْ بَعْدِ} من بعد إبرامه وتوثيقه بالحلف أو الإشهاد عليه، و {من} متعلقة بقوله {ينقضون}، وهي لا ابتداء الغاية، ويدل على أن

النقض حصل عقيب توثق العهد من غير فصل بينهما، وفي ذلك دليل على عدم اكترائهم بالعهد، فإثر ما استوثق الله منهم نقضوه. **{مِيثَاقِهِ}** من الوثاقة، وهو الشدّ في العقد، وهو العهد المؤكد باليمين، وليس المعنى هنا على ذلك، وإنما كنى به عن الالتزام والقبول.

{وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} من إدامة الإيمان والتوحيد والطاعة وصلة الأرحام.

قال ابن عاشور: وأقول تكميلاً لهذا إن مراد الله تعالى مما شرع للناس منذ النشأة إلى ختم الرسالة واحد وهو: إبلاغ البشر إلى الغاية التي خلقوا لها، وحفظ نظام عالمهم، وضبط تصرفاتهم فيه على وجه لا يعتوره خلل. وإنما اختلفت الشرائع على حسب مبلغ تهیی البشر لتلقي مراد الله تعالى، ولذلك قلما اختلفت الأصول الأساسية للشرائع الإلهية قال تعالى: **{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ}** [الشورى: ١٣].

وإنما اختلفت الشرائع في تفاريع أصولها اختلافاً مراعى فيه مبلغ طاقة البشر، لطفاً من الله تعالى بالناس، ورحمة منه بهم حتى

في حملهم على مصالحهم ليكون تلقيهم لذلك أسهل، وعملهم به أدوم، إلى أن جاءت الشريعة الإسلامية في وقت راهق فيه البشر مبلغ غاية الكمال العقلي وجاءهم دين تناسب أحكامه وأصوله استعدادهم الفكري وإن تخالفت الأعصار وتباعدت الأقطار فكان ديناً عاماً لجميع البشر، فلا جرم أن كانت الشرائع السابقة تمهيداً له لتهيئ البشر لقبول تعاليمه وتفاريحها التي هي غاية مراد الله تعالى من الناس، ولذا قال تعالى: **{إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}** [آل عمران: ١٩]. فما من شريعة سلفت إلا وهي حلقة من سلسلة جعلت وصلة للعروة الوثقى التي لا انفصام لها وهي «عروة الإسلام» فمتى بلغها الناس فقد فصموا ما قبلها من الحلق وبلغوا المراد، ومتى انقطعوا في أثناء بعض الحلق فقد قطعوا ما أراد الله وصله.

{وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ} أي يسعون لما به فساد الأرض فساداً معنوياً كالمعاصي؛ وفساداً حسياً كتخريب الديار وقتل الأنفس. قال ابن عاشور: ومن الفساد في الأرض عكوف قوم على دين قد اضمحل وقت العمل به، وأصبح غير صالح لما أراد الله من البشر، فإن الله ما جعل شريعة من الشرائع خاصة وقابلة للنسخ إلا

وقد أراد منها إصلاح طائفة من البشر معينة في مدة معينة في علمه، وما نسخ ديننا إلا لتمام وقت صلوحيته للعمل به، فالتصميم على عدم تلقي الناسخ وعلى ملازمة المنسوخ هو عمل بما لم يبق فيه صلاح للبشر، فيصير ذلك فسادا في الأرض لأنه كمداداة المريض بدواء كان وصف له في حالة تبدلت من أحوال مرضه حتى أتى دين الإسلام عاما دائما لأنه صالح لكل.

{أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} وسبب خسرانهم استبدالهم النقص بالوفاء، والقطع بالوصل، والإفساد بالإصلاح.

وهي جملة اسمية مؤكدة بضمير الفصل: {هم} كقوله تعالى:

{لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} [الشعراء: ٤٠]

واعلم أن نزول هذه الآيات ونحوها في بعض أهل الكتاب أو المشركين هو وعيد وتوبيخ للمشركين وأهل الكتاب، وهو أيضا موعظة وذكرى للمؤمنين ليعلم سامعوه أن كل من شارك هؤلاء المذمومين فيما أوجب ذمهم وسبب وعيدهم هو آخذ بحظ مما نالهم من ذلك على حسب مقدار المشاركة في الموجب.

وقد تضمنت هذه الآية الكبيرة نوعاً من البديع يسميه أرباب البيان: «الطباق»، وهو أن تأتي بالشيء وضده، ووقع هنا في قوله

تعالى: {بعوضة فما فوقها}، فإنهما دليان على الحقير والكبير، وفي قوله: {فأما الذين آمنوا}، {وأما الذين كفروا}، وفي قوله تعالى: {يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً}، وفي قوله: {ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه}، وفي قوله: {ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل}.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)

{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ} الاستفهام هنا للتعجب مع التقرير والتوبيخ لعدم وجود مقتض للكفر. والمعنى: أخبروني على أي حال تكفرون؟!

وهذا الخطاب فيه التفات، لأن الكلام قبل كان بصورة الغيبة، ألا ترى إلى قوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا} إلى آخره؟ وفائدة هذا الالتفات أن الإنكار إذا توجه إلى المخاطب كان أبلغ من توجهه

إلى الغائب لجواز أن لا يصله الإنكار، بخلاف من كان مخاطباً، فإن الإنكار عليه أردع له عن أن يقع فيما أنكر عليه.

وأتى بصيغة {تكفرون} مضارعاً ولم يأت به ماضياً - وإن كان الكفر قد وقع منهم-، لأن الذي أنكر تعجب منه الدوام على ذلك، والمضارع هو المشعر به، ولئلا يكون ذلك توبيخاً لمن وقع منه الكفر ثم آمن، إذ لو جاء {كيف كفرتم بالله} لاندرج في ذلك من كفر ثم آمن كأكثر الصحابة رضي الله عنهم.

والكُفر -بضم الكاف- أصله جحد المنعم عليه نعمة المنعم، اشتق من مادة «الكُفر» بفتح الكاف وهو الحجب والتغطية لأن جاحد النعمة أخفى الاعتراف بها كما أن شاكرها أعلنها. وضده الشكر، ثم أطلق الكُفر في القرآن على الإِشراك بالله في العبادة بناء على أنه أشد صور كُفر النعمة.

وأما إطلاقه في السنة وفي كلام أئمة المسلمين فهو الاعتقاد الذي يخرج معتقده عن الإسلام، وما يدل على ذلك الاعتقاد من قول أو فعل دلالة لا تحتمل غير ذلك.

وقد ورد إطلاق الكُفر في كلام الرسول -عليه السلام- وكلام بعض السلف على ارتكاب جريمة عظيمة في الإسلام إطلاقاً على

وجه التغليظ بالتشبيه المفيد لتشنيع ارتكاب ما هو من الأفعال
المباحة عند أهل الكفر، ولكن بعض فرق المسلمين يتشبثون
بظاهر ذلك الإطلاق فيقضون بالكفر على مرتكب الكبائر ولا
يلتفتون إلى ما يعارض ذلك في إطلاقات كلام الله ورسوله.

ومذهب أهل الحق من السلف والخلف أنه لا يكفر أحد من
المسلمين بذنوب أو ذنوب من الكبائر فقد ارتكبت الذنوب الكبائر
في زمان رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والخلفاء فلم يعاملوا
المجرمين معاملة المرتدين عن الدين، والقول بتكفير العصاة خطر
على الدين لأنه يؤول إلى انحلال جامعة الإسلام ويهون على
المذنب الانسلاخ من الإسلام منشدا: "أنا الغريق فما خوفي من
البلل".

{وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ} هذا برهان على بطلان كفرهم، إذ كيف
يكفر العبد ربه وهو الذي خلقه بعد أن لم يك شيئا.

والواو في **{وَكُنْتُمْ}** واو الحال، على إضمار «قد». أي: "وقد
كنتم أمواتاً فأحياكم" نحو قوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا}**
وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} [يوسف: ٤٥] **{وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ}**
[هود: ٤٢]

{ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} والإماتة الأولى هي كونهم نطفاً وعلقاً ومضغاً، والإماتة الثانية هي موتهم عند انقضاء آجالهم في الدنيا، والإحياء الأولى نفخ الروح فيهم وإخراجهم أحياء من بطون أمهاتهم، والإحياء الثانية بعثهم من قبورهم أحياء يوم القيامة، وهذا نظير قوله تعالى: **{قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَخْيَتْنَا اثْنَتَيْنِ}** [غافر: ١١]

وفيه أن الموت يطلق على ما لا روح فيه. وإن لم تسبقه حياة؛ يعني: لا يشترط للوصف بالموت تقدم الحياة؛ لقوله تعالى: **{وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ}**؛ أما ظن بعض الناس أنه لا يقال: "ميت" إلا لمن سبقت حياته؛ فهذا ليس بصحيح؛ بل إن الله تعالى أطلق وصف الموت على الجمادات؛ قال تعالى في الأصنام: **{أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء}** [النحل: ٢١]

وفيه أن الجنين لو خرج قبل أن تنفخ فيه الروح فإنه لا يثبت له حكم الحي؛ ولهذا لا يُغَسَّل، ولا يكفن، ولا يصلي عليه، ولا يرث، ولا يورث؛ لأنه ميت جماد لا يستحق شيئاً مما يستحقه الأحياء؛ وإنما يدفن في أيّ مكان في المقبرة، أو غيرها.

{ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} فيها من الترهيب والترغيب ما يزيد المسيء خشية ويرده عن بعض ما يرتكبه، ويزيد المحسن رغبة في الخير ويدعوه رجاءه إلى الازدياد من الإحسان، وفيها رد على الدهرية والمعطلة ومنكري البعث، إذ هو بيده الإحياء والإماتة والبعث وإليه يرجع الأمر كله.

قال ابن عطية: "وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتاً معدومين ثم للإحياء في الدنيا ثم للإماتة فيها، قوي عليهم لزوم الإحياء الآخر وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها".

والآية تفريع عن الاستدلال وليس هو بدليل إذ المشركون ينكرون الحياة الآخرة فهو إدماج وتعليم وليس باستدلال، أو يكون ما قام من الدلائل على أن هناك حياة ثانية قد قام مقام العلم بها وإن لم يحصل العلم فإن كل من علم وجود الخالق العدل الحكيم ورأي الناس لا يجرون على مقتضى أوامره ونواهيه فيرى المفسد في الأرض في نعمة والصالح في عناء علم أن عدل الله وحكمته ما كان ليضيع عمل عامل وأن هنالك حياة أحكم وأعدل من هذه الحياة تكون أحوال الناس فيها على قدر استحقاقهم وسمو حقائقهم.

ثم أخذ يذكرهم عظيم إحسانه وجزيل امتنانه من خلق الأرض المقلّة، والسماء المظلة، وخلق جميع ما في الأرض لهم، وعظيم قدرته وتصرفه في العالم العلوي، وأن العالم العلوي والعالم السفلي بالنسبة إلى قدرته على السواء، وأنه عليم بكل شيء.

{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} هذا إما استدلال ثان على شناعة كفرهم بالله تعالى وعلى أنه مما يقضى منه العجب فإن دلائل ربوبية الله ووحدانيته ظاهرة في خلق الإنسان وفي خلق جميع ما في الأرض فهو ارتقاء في الاستدلال بكثرة المخلوقات.

وإما أن يكون قوله: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ..}** امتنانا عليهم بالنعم لتسجيل أن إشراكهم كفران بالنعمة أدمج فيه الاستدلال على أنه خالق لما في الأرض من حيوان ونبات ومعادن استدلالا بما هو نعمة مشاهدة كما أشار إليه قوله: **{لَكُمْ}**

قال أبو عثمان: "وهب لك الكل وسخره لك لتستدل به على سعة جوده، وتسكن إلى ما ضمنه لك من جزيل العطاء في المعاد، ولا تستكثر كثير بره على قليل عملك، فإنه قد ابتدأك بعظيم النعم قبل العمل وقبل التوحيد".

والعجب أن من الناس من سَخَّرَ نفسه لما سخره الله له؛ فخدم الدنيا، ولم تخدمه؛ وصار أكبر همه الدنيا: جمع المال، وتحصيل الجاه، وما أشبه ذلك.

وفيه حِلَّة كل ما في الأرض من مطاعم ومشارب وملابس ومراكب إلا ما حرمه الدليل الخاص من الكتاب أو السنة. وهنا تأكيد لهذا العموم بقوله تعالى: {جميعاً} مع أن {ما} موصولة تفيد العموم؛ لكنه سبحانه وتعالى أكدّه حتى لا يتوهم واهم بأن شيئاً من أفراد هذا العموم قد خرج من الأصل.

{ثُمَّ اسْتَوَى} أقبل وعمد إلى خلقها وقصد من غير أن يريد فيما بين ذلك خلق شيء آخر، وهو استعارة من قولهم: "استوى إليه كالسهم المرسل"، إذا قصده قصداً مستوياً من غير أن يلوي على شيء.

والاستواء أصله الاستقامة وعدم الاعوجاج، يقال: صراط مستو، واستوى فلان وفلان، واستوى الشيء، ويطلق مجازاً على القصد إلى الشيء بعزم وسرعة كأنه يسير إليه مستوياً لا يلوي على شيء.

وقد تقرر في العقول من أن الله تعالى يستحيل أن يتصف بالانتقال المعهود في غيره تعالى، وأن يحل فيه حادث أو يحل هو في حادث.

{إِلَى السَّمَاءِ} مشتقة من السمو وهو العلو، وكانت السماء دخاناً **{فَسَوَّاهُنَّ}** خلقهن في استقامة، واستقامة الخلق هي انتظامه على وجه لا خلل فيه ولا ثلم **{سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}** أتم خلقهن سبع سماوات تاما مستويات لا فطور فيها ولا صدع.

والذي تدل عليه هذه الآية أن خلق ما في الأرض لنا متقدم على تسوية السماء سبعا لا غير، والمختار أن جرم الأرض خلق قبل السماء، وخلقت السماء بعدها، ثم دحيت الأرض [أي بُسِطت وخلق فيها منافعها] بعد خلق السماء، وبهذا يحمل الجمع بين الآيات.

قال ابن عاشور: وقد جرى اختلاف بين علماء السلف في مقتضى الأخبار الواردة في خلق السماوات والأرض، فقال الجمهور منهم مجاهد والحسن ونسب إلى ابن عباس إن خلق الأرض متقدم على خلق السماء لقوله تعالى هنا: **{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}** وقوله في سورة حم السجدة **{قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي**

يَوْمَيْنِ} إلى أن قال {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} [فصلت: ١١].

وقال قتادة والسدى ومقاتل إن خلق السماء متقدم واحتجوا بقوله تعالى: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا بَنَاهَا رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا} إلى قوله: {وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} [النازعات: ٢٧-٣٠].

وقد أجيب بأن الأرض خلقت أولا ثم خلقت السماء ثم دحيت الأرض فالمتأخر عن خلق السماء هو دحو الأرض.

{وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} نتيجة لما ذكره من دلائل القدرة التي لا تصدر إلا من عليم، فمن علمه عز وجل أنه علم كيف يخلق هذه السماء.

وختم ذلك بالفضل الأكبر من إعلامهم بإحاطة علمه بجميع الأشياء من الابتداء إلى الانتهاء.

وناسب مقطع هذه الآية بالوصف بمبالغة العلم، لأنه تقدم ذكر خلق الأرض والسماء والتصرف في العالم العلوي والسفلي وغير ذلك من الإماتة والإحياء، وكل ذلك يدل على صدور هذه الأشياء عن العلم الكامل التام المحيط بجميع الأشياء.

وقالوا: علمُ الله تعالى يتميز على علم عباده بكونه واحداً يعلم به جميع المعلومات، وبأنه لا يتغير بتغيرها، وبأنه غير مستفاد من حاسة ولا فكر، وبأنه ضروري لثبوت امتناع زواله، وبأنه تعالى لا يشغله علم عن علم [أي لا يشغله تعلق علم شيء عن تعلقه بشيء آخر]، وبأن معلوماته تعالى غير متناهية.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)

ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما امتن عليهم بخلق ما في الأرض لهم، وكان قبله إخراجهم من العدم إلى الوجود، أتبع ذلك ببدء خلقهم، وامتن عليهم بتشريف أبيهم وتكريمه وجعله خليفة وإسكانه دار كرامته، وإسجاد الملائكة تعظيماً لشأنه وتنبيهاً على مكانه واختصاصه بالعلم الذي به كمال الذات وتمام الصفات، ولا شك أن الإحسان إلى الأصل إحسان إلى الفرع، وشرف الفرع بشرف الأصل.

{وَإِذْ} واذكر يا محمد **{قَالَ رَبُّكَ}** وإسناد القول إلى الرب في غاية من المناسبة والبيان، لأنه لما ذكر أنه خلق لهم ما في الأرض، كان في ذلك صلاح لأحوالهم ومعاشهم، فناسب ذكر الرب وإضافته إلى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تنبيه على شرفه واختصاصه بخطابه، وهز لاستماع ما يذكر بعد ذلك من غريب افتتاح هذا الجنس الإنساني، وابتداء أمره ومآله.

قال ابن عاشور: أسندت حكاية هذا القول إلى الله سبحانه بعنوان «الرب» لأنه قول منبئ عن تدبير عظيم في جعل الخليفة في الأرض، ففي ذلك الجعل نعمة تدبير مشوب بلطف وصلاح وذلك من معاني الربوبية، ولما كانت هذه النعمة شاملة لجميع النوع أضيف وصف الرب إلى ضمير أشرف أفراد النوع وهو النبي محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مع تكريمه بشرف حضور المخاطبة.

{لِلْمَلَائِكَةِ} مشتقة من الألوكة وهي الرسالة، والملائكة مخلوقات نورانية سماوية مجبولة على الخير قادرة على التشكل في خرق العادة.

{إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} يخلف الله في عبادته بإبلاغ شريعته والدعوة إليها، والحكم بين عبادته؛ أو يخلف من سبقه؛ أو يتناسلون ويخلف بعضهم بعضاً.

قال أهل العلم: وفي قوله: **{خَلِيفَةً}** أوجه من التفسير للعلماء: أحدهما: أن المراد بالخليفة أبونا آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام؛ لأنه خليفة الله في أرضه في تنفيذ أوامره. أي جاعل في الأرض مدبراً يعمل ما نريده في الأرض فهو استعارة أو مجاز مرسل وليس بحقيقة لأن الله تعالى لَمْ يَكُنْ حَالاً فِي الْأَرْضِ ولا عاملاً فيها العمل الذي أودعه في الإنسان وهو السُّلْطَنَةُ على موجودات الأرض، ولأن الله تعالى لم يترك عملاً كان يعملُه فوكله إلى الإنسان بل التدبير الأعظم لم يزل لله تعالى فالإنسان هو الموجود الوحيد الذي استطاع بما أودع الله في خلقه أن يتصرف في مخلوقات الأرض بوجوه عظيمة لا تنتهي خلاف غيره من الحيوان.

فَالْخَلِيفَةُ آدَمُ وَخَلَفِيَّتُهُ قيامه بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي، ومما يشمله هذا التصرف تصرف آدم بسن النظام لأهله وأهاليهم على حسب وفرة عددهم واتساع تصرفاتهم.

فكانت الآية من هذا الوجه إيحاء إلى حاجة البشر إلى إقامة خليفة لتنفيذ الفصل بين الناس في منازعاتهم إذ لا يستقيم نظام يجمع البشر بدون ذلك، وقد بعث الله الرسل وبين الشرائع فربما اجتمعت الرسالة والخلافة وربما انفصلتا بحسب ما أراد الله من شرائعه إلى أن جاء الإسلام فجمع الرسالة والخلافة لأن دين الإسلام غاية مراد الله تعالى من الشرائع وهو الشريعة الخاتمة ولأن امتزاج الدين والملك هو أكمل مظاهر الخُطَّتَيْنِ قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ} [النساء: ٦٤] ولهذا أجمع أصحاب رسول الله بعد وفاة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على إقامة الخليفة لحفظ نظام الأمة وتنفيذ الشريعة ولم ينزع في ذلك أحد من الخاصة ولا من العامة إلا الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى، من جفاة الأعراب ودعاة الفتنة فالمناظرة مع أمثالهم سدى.

وقيل: خليفة لأنه صار خلفا من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبله.

وقيل: لأنه إذا مات يخلفه من بعده.

وقوله: **{خَلِيفَةً}** مفرد أريد به الجمع، أي خلائف، وهو اختيار ابن كثير. والمفرد إن كان اسم جنس يكثر في كلام العرب إطلاقه مراداً به الجمع كقوله تعالى: **{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ}** [القمر: ٥٤]؛ يعني وأنهار، بدليل قوله: **{فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ}** [محمد: ١٥] وقوله: **{وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}** [الفرقان: ٧٤]، وقوله: **{فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا}** [النساء: ٤]

وإذا كانت هذه الآية الكريمة تحتل كل هذه الأوجه. فقد دلت آيات أخر على أن المراد بالخليفة: الخلائف من آدم وبنيه لا آدم نفسه وحده. كقوله تعالى: **{قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ}** [البقرة: ٣٠]. ومعلوم أن آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ليس ممن يفسد فيها، ولا ممن يسفك الدماء.

وكقوله: **{هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ}** [فاطر: ٣٩]، وقوله: **{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ}** [الأنعام: ١٦٥]، وقوله: **{وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ}** [النمل: ٦٢] ونحو ذلك من الآيات.

ويمكن الجواب عن هذا بأن المراد بالخليفة آدم، وأن الله أعلم الملائكة أنه يكون من ذريته من يفعل ذلك الفساد وسفك الدماء.

فقالوا ما قالوا، وأن المراد بخلافة آدم الخلافة الشرعية، وبخلافة ذريته أعم من ذلك، وهو أنهم يذهب منهم قرن ويخلفه قرن آخر. وقول الله تعالى هذا موجه إلى الملائكة على وجه الإخبار ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني على وجه يزيل ما علم الله أنه في نفوسهم من سوء الظن بهذا الجنس، وليكون كالاتشارة لهم تكريماً لهم فيكون تعليماً في قالب تكريم مثل إلقاء المعلم فائدة للتلميذ في صورة سؤال وجواب وليسن الاستشارة في الأمور، ولتنبيه الملائكة على ما دق وخفي من حكمه خلق آدم.. كذا ذكر المفسرون.

قال القرطبي: هذه الآية أصل في نصب إمام وخليفة؛ يسمع له ويطاع؛ لتجتمع به الكلمة وتنفذ به أحكام الخليفة، ولا خلاف في وجوب ذلك بين الأمة، ولا بين الأئمة إلا ما روي عن الأصم [أبي بكر الأصم المعتزلي] حيث كان عن الشريعة أصم إلى أن قال: ودليلنا قول الله تعالى: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} [البقرة: ٣٠] وقوله تعالى: {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ} [ص: ٢٦] وقال: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لَيْسَتْ خَلْفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ} [النور: ٥٥] أي: يجعل منهم خلفاء إلى غير ذلك من الآي.

وأجمعت الصحابة على تقديم الصديق بعد اختلاف وقع بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة في التعيين، حتى قالت الأنصار: "منا أمير ومنكم أمير"، فدفعهم أبو بكر وعمر والمهاجرون عن ذلك وقالوا لهم: إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش، ورووا لهم الخبر في ذلك، فرجعوا وأطاعوا لقريش.

فلو كان فرض الإمامة غير واجب لا في قريش ولا في غيرهم لما ساغت هذه المناظرة والمحاورة عليها. ولقال قائل: إنها غير واجبة لا في قريش ولا في غيرهم. فما لتنازعكم وجه، ولا فائدة في أمر ليس بواجب، ثم إن الصديق -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لما حضرته الوفاة عهد إلى عمر في الإمامة، ولم يقل له أحد هذا أمر غير واجب علينا ولا عليك. فدل على وجوبها وأنها ركن من أركان الدين الذي به قوام المسلمين والحمد لله رب العالمين. [تفسير القرطبي]

{قَالُوا} وَفَصَلَ الْجَوَابَ وَلَمْ يَعْطِفْ بِالْفَاءِ أَوْ الْوَاوِ جَرِيًا بِهِ عَلَى طريقة متبعة في القرآن في حكاية المحاورات وهي طريقة عربية،

وإنما حذفوا العاطف في أمثاله كراهية تكرير العاطف بتكرير أفعال القول، فإن المحاورة تقتضي الإعادة في الغالب فطردوا الباب فحذفوا العاطف في الجميع وهو كثير في التنزيل.

وربما عطفوا ذلك بالفاء لنكتة تقتضي مخالفة الاستعمال وإن كان العطف بالفاء هو الظاهر والأصل، ومما عطف بالفاء قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ {المؤمنون: ٢٣-٢٤}

وقد يعطف بالواو أيضا كما في قوله: {فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ {المؤمنون: ٣٢-٣٣}

وذلك إذا لم يكن المقصود حكاية التحاور بل قصد الإخبار عن أقوال جرت أو كانت الأقوال المحكية مما جرى في أوقات متفرقة أو أمكنة متفرقة.

ويظهر ذلك لك في قوله تعالى: {قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ} [غافر: ٢٥] إلى قوله: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى}

[غافر: ٢٦] ثم قال تعالى: {وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ}

ثم قال: {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ} [غافر: ٢٨]

{أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا} بالكفر والمعاصي {وَيَسْفِكُ}

السفك: الصب والإراقة، ولا يستعمل إلا في الدم، وعطف سفك الدماء على الإفساد للاهتمام به، وفي المجيء بالصلة جملة فعلية دلالة على توقع أن يتكرر الإفساد والسفك من هذا المخلوق، فالتعبير بالفعل المضارع في قوله: {مَنْ يُفْسِدُ} {وَيَسْفِكُ} يدل على التجدد والحدوث دون الدوام أي من يحصل منه الفساد تارة وسفك الدماء تارة.

{الدماء} قياساً على خلق من الجن حصل منهم ما تخوفوه،

وفي هذا دليل لمن رجع قول أنهم خليفة لمن سبقهم، وأنه كان على الأرض مخلوقات قبل ذلك تسفك الدماء، وتفسد فيها.

وقال بعضهم: مجرد مشاهدة الملائكة لهذا المخلوق العجيب

المراد جعله خليفة في الأرض كاف في إحاطتهم بما يشتمل عليه من عجائب الصفات على نحو ما سيظهر منها في الخارج لأن مداركهم غاية في السمو لسلامتها من كدرات المادة.

واستفهام الملائكة للاستطلاع، والاستعلام، والتعجب،
والاستبعاد من أن تتعلق الحكمة بذلك، وليس للاعتراض.

وقولهم هذا دليل على أنهم علموا أن مراد الله من خلق الأرض
هو صلاحها وانتظام أمرها وإلا لما كان للاستفهام المشوب
بالتعجب موقع، وهم علموا مراد الله ذلك من تلقيهم عنه سبحانه
أو من مقتضى حقيقة الخلافة أو من قرائن أحوال الاعتناء بخلق
الأرض وما عليها على نظم تقتضي إرادة بقائها إلى أمد، وقد دلت
آيات كثيرة على أن إصلاح العالم مقصد للشارع قال تعالى: {فَهَلْ
عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ
الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ} [محمد: ٢٣] وقال: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي
الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ}
[البقرة: ٢٠٥]

ولا يرد هنا أن هذا القول غيبة وهم منزهون عنها لأن ذلك
العالم ليس عالم تكليف ولأنه لا غيبة في مشورة ونحوها كالخطبة
والتجريح لتوقف المصلحة على ذكر ما في المستشار في شأنه من
النقائص، ورجحان تلك المصلحة على مفسدة ذكر أحد بما يكره،
ولأن الموصوف بذلك غير معين إذا الحكم على النوع، فانتفى

جميع ما يترتب على الغيبة من المفساد في واقعة الحال فلذلك لم يحجم عنها الملائكة.

{وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ} أي نسبح ملتبسين بحمدك، كما تقول: "جاء زيد بشيابه"، فنقول: "سبحان الله وبحمده".

{نُسَبِّحُ} التسبيح: تنزيه الله وتبرئته عن النقائص، ولا يستعمل إلا لله تعالى، وقد ذكروا أن التسبيح مشتق من السَّبَح وهو الذهاب السريع في الماء، وأريد البعد الاعتباري وهو الرفعة أي التنزيه عن أحوال النقائص.

أي نُنَزَّه؛ والذي يُنَزَّه الله تعالى عنه شيئان؛ أولاً: النقص؛ والثاني: النقص في كماله؛ وزد ثالثاً إن شئت: مماثلة المخلوقين؛ كل هذا يُنَزَّه الله عنه.

النقص: مطلقاً؛ يعني أن كل صفة نقص لا يمكن أن يوصف الله بها أبداً. لا وصفاً دائماً ولا خبراً.

والنقص في كماله: فلا يمكن أن يكون في كماله نقص؛ قدرته: لا يمكن أن يعتريها عجز؛ قوته: لا يمكن أن يعتريها ضعف؛ علمه: لا يمكن أن يعتريه نسيان... وهلم جراً؛ ولهذا قال عز وجل: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ**

لُغُوبٍ { [ق: ٣٨] أي تعب، وإعياء؛ فهو عز وجل كامل الصفات
لا يمكن أن يعتري كماله نقص.

ومماثلة المخلوقين: هذه إن شئنا أفردناها بالذكر؛ لأن الله تعالى أفردنا بالذكر، فقال: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}** [الشورى: ١١].
وقال تعالى: **{وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}** [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: **{فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ}** [النحل: ٧٤]؛ وإن شئنا جعلناها داخلة في القسم الأول «النقص» لأن تمثيل الخالق بالمخلوق يعني النقص؛ بل المفاضلة بين الكامل والناقص تجعل الكامل ناقصاً، كما قال القائل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره .. إذا قيل إن السيف أمضى من
العصا

{بِحَمْدِكَ} الحمد هو الشاء، والثناء ناشئ عن التوفيق للخير
والإنعام على المثنى.. وبحمدك أي: بتوفيقك وإنعامك.

قال العلماء: الباء هنا للمصاحبة. أي: تسبيحاً مصحوباً بالحمد
مقروناً به؛ فتكون الجملة متضمنة لتزيه الله عن النقص، وإثبات
الكمال لله بالحمد؛ لأن الحمد: وصف المحمود بالكمال محبة
وتعظيماً؛ فإن وصفت مرة أخرى بكمال فسَمَّه ثناءً؛ والدليل على

هذا ما جاء في الحديث الصحيح أن الله تعالى قال: (قَسَمْتُ
الصلاة بيني وبين عبدي نصفين؛ فإذا قال: {الحمد لله رب
العالمين} قال تعالى: حمدني عبدي؛ وإذا قال: {الرحمن الرحيم}
قال تعالى: أثني عليّ عبدي)؛ لأن نفي النقص يكون قبل إثبات
الكمال من أجل أن يرد الكمال على محل خالٍ من النقص.

{وَنُقَدِّسُ لَكَ} ننزهك عما لا يليق بك.. توكيد، لأن التقديس
هو: التطهير، والتسييح هو: التنزيه والتبرئة من السوء. والمعنى:
ونحن نعظمك وننزهك، والأول بالقول والعمل، والثاني باعتقاد
صفات الكمال المناسبة للذات العلية، فلا يتوهم التكرار بين نسبح
ونقدس.

وأصل التقديس: التطهير والبعد عما لا ينبغي. واللام في {لك}
زائدة لتقوية المعنى. وقيل: اللام هنا للاختصاص؛ فتنفيذ الإخلاص؛
وهي أيضاً للاستحقاق؛ لأن الله -جلّ وعلا- أهل لأن يقديس.

وبناء «قدس» كيفما تصرف فإن معناه التطهير، ومنه قوله
تعالى: **{ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ}** [المائدة: ٢١] أي المطهرة.
وقال: **{الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ}** [الحشر: ٢٣] يعني الطاهر، ومثله:
{بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى} [طه: ١٢] وبیت المقدس سمي به لأنه

المكان الذي يتقدس فيه من الذنوب أي يتطهر، ومنه قيل للسطل: قدس، لأنه يتوضأ فيه ويتطهر، ومنه القادوس.

وفي الحديث: (لا قدست أمة [يريد لا طهرها الله] لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعنع) [أي دون أن يصيبه أذى أو ضرر] أخرجه ابن ماجة في سننه [صحيح الجامع].. فالقدس: الطهر من غير خلاف.

قال ابن عثيمين: "التقديس" معناه التطهير؛ وهو أمر زائد على "التنزيه"؛ لأن "التنزيه" تبرئة، وتخلية؛ و"التطهير" أمر زائد؛ ولهذا نقول في دعاء الاستفتاح: (اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب؛ اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس؛ اللهم اغسلني من خطاياي بالماء، والثلج، والبَرْد): فالأول: طلبُ المباعدة؛ والثاني: طلبُ التنقية. يعني: التخلية بعد المباعدة؛ والثالث: طلبُ الغسل بعد التنقية حتى يزول الأثر بالكلية؛ فيجمع الإنسان بين تنزيه الله عز وجل عن كل عيب ونقص، وتطهيره. أنه لا أثر إطلاقاً لما يمكن أن يعلق بالذهن من نقص.

قولهم {وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ} يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون الغرض منه تفويض الأمر إلى الله تعالى واتهام علمهم فيما أشاروا به كما يفعل المستشار مع من يعلم أنه أسد منه رأيا وأرجح عقلا فيشير ثم يفوض، كما قال أهل مشورة بلقيس إذ قالت: **{أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأَوْلُو بِأسٍ شَدِيدٍ}** أي الرأي أن نحاربه ونصده عما يريد من قوله: **{وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ}** [النمل: ٣١]

{وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ}

الاحتمال الثاني: أن يكون الغرض من قولهم **{وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ}** التعريض بأنهم أولى بالاستخلاف، والذين لا يصدر منهم عصيان مراد الله هم أولى بالاستخلاف ممن يتوقع منه الفساد وسفك الدماء.

وفي الآية إشارة إلى وصف الإنسان نفسه بما فيه من الخير لا بأس به إذا كان المقصود مجرد الخبر دون الفخر، وجواز التمدح إلى من له الحكم في التولية ممن يقصد الولاية، إذا أمن على نفسه الجور والحيف، ورأى في ذلك مصلحة. ولذلك جاز ليوسف - على نبينا وعليه السلام - طلبه الولاية، ومدح نفسه بما فيها فقال: **{قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ}** [يوسف: ٥٥]

{قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} أي أعلم ما في البشر من صفات الصلاح ومن صفات الفساد، وأعلم أن صلاحه يحصل منه المقصد من تعمير الأرض وأن فسادها لا يأتي على المقصد بالإبطال، وأن في ذلك كله مصالح عظيمة ومظاهر لتفاوت البشر في المراتب، واطلاعا على نموذج من غايات علم الله تعالى وإرادته وقدرته بما يظهره البشر من مبالغ نتائج العقول والعلوم والصنائع والفضائل والشرائع وغير ذلك، وأجعل فيهم الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين والخاشعين. يعني: وستغير الحال؛ ولا تكون كالتي سبقت.

ثم لما أخبر تعالى الملائكة عن وجه الحكمة في خلق آدم وذريته على سبيل الإجمال، أراد أن يفصل، فبين لهم من فضل آدم ما لم يكن معلوماً لهم، وذلك بأن علمه الأسماء ليظهر فضله وقصورهم عنه في العلم، فتأكد الجواب الإجمالي بالترتيب.

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

(٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ
مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)

{وَعَلَّمَ آدَمَ} نبي الله أبو البشر عليه السلام {الْأَسْمَاءُ} أسماء
الأجناس كلها كالماء والنبات والحيوان والإنسان {كُلَّهَا} تأكيد
لمعنى الاستغراق.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره: والصحيح أنه علمه
أسماء الأشياء كلها وذواتها وصفاتها وأفعالها حتى الفسوة والفُسية
يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر، ولهذا قال البخاري
في تفسير هذه الآية في كتاب التفسير من صحيحه _ فذكر ابن
كثير إسناد البخاري _ عن أنس عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
قال: (يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُونَ لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا
فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ
مَلَائِكَتُهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ ... الحديث"، فدل هذا على أنه
علمه أسماء جميع المخلوقات ولهذا قال: {ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى
الْمَلَائِكَةِ} يعني المسميات . اهـ.

وقد سرد الأقوال في هذه المسألة الحافظ ابن حجر في الفتح فقال: واختلف في المراد بالأسماء: ف قيل أسماء ذريته، وقيل أسماء الملائكة، وقيل أسماء الأجناس دون أنواعها، وقيل أسماء كل ما في الأرض، وقيل أسماء كل شيء حتى القصعة.

وقال الإمام الشوكاني في فتح القدير: والأسماء هي العبارات والمراد أسماء المسميات قال بذلك أكثر العلماء وهو المعنى الحقيقي للاسم والتأكيد بقوله {كلها} يفيد أنه علمه جميع الأسماء ولم يخرج عن هذا شيء منها كائنا ما كان. أه

وتعليم آدم الأسماء وإظهار فضيلته بقبوله لهذا التعليم دون الملائكة جعله الله حجة على قوله لهم: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} أي ما لا تعلمون من جدارة هذا المخلوق بالخلافة في الأرض.

{ثُمَّ عَرَضَهُمْ} العرض: إظهار الشيء حتى تعرف جهته.. فعرض المسميات أمامهم، ولما كان بينهم العقلاء غلب جانبهم لشرفهم، فأتى بضمير المذكر العاقل للمسميات في قوله: {عَرَضَهُمْ} وإلا لقال عرضها.

{عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي} أخبروني، وهي للتحدي، أو أمر تعجيز بقرينة كون المأمور يعلم أن الأمر عالم بذلك **{بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ}**

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فيما تعتقدون من أنني لم أخلق أعلم منكم. أو أراد إن كنتم صادقين في أنكم أفضل من هذا المخلوق إن كان قولهم: **{وَنَحْنُ نُسَبِّحُ}** تعريضا بأنهم أحقاء بذلك. أو أراد إن كنتم صادقين في عدم جدارة آدم بالخلافة كما دل عليه قولهم: **{أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا}**

فالعلم بالأسماء عبارة عن القوة الناطقة الصالحة لاستفادة المعارف وإفادتها، أو عبارة عن معرفة حقائق الأشياء وخصائصها، أو عبارة عن معرفة أسماء الذوات والمعاني، وكل ذلك يستلزم ثبوت العالمية بالفعل أو بالقوة، وصاحب هذا الوصف هو الجدير بالاستخلاف في العالم لأن وظيفة هذا الاستخلاف تدبير وإرشاد وهدى ووضع الأشياء مواضعها دون احتياج إلى التوقيف في غالب التصرفات، وكل ذلك محتاج إلى القوة الناطقة أو فروعها، والقوى المَلِكِيَّةِ على شرفها إنما تصلح لأعمال معينة قد سخرت لها لا تعدوها ولا تتصرف فيها بالتحليل والتركيب، وما يذكر من تنوع تصرفها وصواب أعمالها إنما هو من توجيه الله تعالى إياها وتلقيه المعبر عنه بالتسخير. وبذلك ظهر وجه ارتباط الأمر بالإنباء بهذا الشرط.

{قَالُوا سُبْحَانَكَ} تنزيها لك وتقديساً.. وافتتاح كلامهم بالتسبيح وقوف في مقام الأدب والتعظيم لذي العظمة المطلقة، فقدموا بين يدي الجواب تنزيه الله اعتذاراً عن مراجعتهم بقولهم: **{أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا}** فهو افتتاح من قبيل براعة الاستهلال عن الاعتذار. ، وإشعاراً بأن ما صدر منهم قبل يمحوه هذا التنزيه لله تعالى.

{لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا} خبر مراد منه الاعتراف بالعجز لا الإخبار عن حالهم لأنهم يوقنون أن الله يعلم ما تضمنه كلامهم.

أجابوا بنفي العلم بلفظ **{لَا}** التي بنيت معها النكرة، فاستغرق كل فرد من أنواع العلوم، ثم استثنوا من ذلك ما علمهم هو تعالى، فقالوا: **{إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا}**، وهذا غاية في ترك الدعوى والاستسلام التام للمعلم الأول الله تعالى.. قال أبو عثمان المغربي: "ما بلاء الخلق إلا الدعوى".

والواجب على من سئل عن علم أن يقول إن لم يعلم: «الله أعلم، ولا أدري»، اقتداء بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء، لكن قد أخبر الصادق أن بموت العلماء يقبض العلم، فيبقى ناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم فيضلون ويضلون.

وأما ما ورد من الأخبار عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأصحابه والتابعين بعدهم في معنى الآية فروى أبو حاتم البستي في المسند الصحيح له عن ابن عمر أن رجلا سأل رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أي البقاع شر؟ قال: (لا أدري حتى أسأل جبريل) فسأل جبريل، فقال: لا أدري حتى أسأل ميكائيل، فجاء فقال: (خير البقاع المساجد، وشرها الأسواق).

وقال الصديق للجدة: ارجعي حتى أسأل الناس.

وكان علي يقول: وأبردها على الكبد، ثلاث مرات. قالوا وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: أن يسأل الرجل عما لا يعلم فيقول: الله أعلم.

وسأل ابن عمر رجل عن مسألة فقال: لا علم لي بها، فلما أدبر الرجل. قال ابن عمر: نعم ما قال ابن عمر، سئل عما لا يعلم فقال لا علم لي به! ذكره الدارمي في مسنده.

وفي صحيح مسلم عن أبي عقيل يحيى بن المتوكل صاحب بهية قال: كنت جالسا عند القاسم بن عبيد الله ويحيى بن سعيد، فقال يحيى للقاسم: يا أبا محمد إنه قبيح على مثلك عظيم أن يسأل عن شيء من أمر هذا الدين فلا يوجد عندك منه علم ولا

فرج، أو علم ولا مخرج؟ فقال له القاسم: وعم ذاك؟ قال: لأنك ابن إمامي هدى: ابن أبي بكر وعمر. قال يقول له القاسم: أقبح من ذاك عند من عقل عن الله أن أقول بغير علم أو آخذ عن غير ثقة. فسكت فما أجابه.

وقال مالك بن أنس: سمعت ابن هرمز يقول: ينبغي للعالم أن يورث جلساءه من بعده لا أدري حتى يكون أصلا في أيديهم، فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال: لا أدري.

وذكر الهيثم بن جميل قال: شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري. قلت: ومثله كثير عن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين. وإنما يحمل على ترك ذلك الرياسة وعدم الإنصاف في العلم. قال ابن عبد البر: من بركة العلم وآدابه الإنصاف فيه، ومن لم ينصف لم يفهم ولم يتفهم.

روى يونس بن عبد الأعلى قال: سمعت ابن وهب يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: "ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف".

قلت: هذا في زمن مالك فكيف في زماننا اليوم الذي عم فينا الفساد وكثر فيه الطغام! وطلب فيه العلم للرياسة لا للدراية، بل للظهور في الدنيا وغلبة الأقران بالمرء والجدال الذي يقسي القلب ويورث الضغن، وذلك مما يحمل على عدم التقوى وترك الخوف من الله تعالى.

أين هذا مما روي عن عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وقد قال: لا تزيدوا في مهور النساء على أربعين أوقية ولو كانت بنت ذي العصبة - يعني يزيد بن الحصين الحارثي - فمن زاد ألقيت زيادته في بيت المال، فقامت امرأة من صوب النساء طويلة فيها فطس فقالت: ما ذلك لك! قال: ولم؟ قالت لأن الله عز وجل يقول: **{وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا}** [النساء: ٢٠] فقال عمر: امرأة أصابت ورجل أخطأ!

وروى وكيع عن أبي معشر عن محمد بن كعب القرظي قال: سأل رجل عليا -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن مسألة فقال فيها، فقال الرجل: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كذا وكذا، فقال علي: أصبت وأخطأت، وفوق كل ذي علم عليم.

وذكر أبو محمد قاسم بن أصبغ قال: لما رحلت إلى المشرق
نزلت القيروان فأخذت على بكر بن حماد حديث مسدد، ثم
رحلت إلى بغداد ولقيت الناس، فلما انصرفت عدت إليه لتمام
حديث مسدد، فقرأت عليه فيه يوما حديث النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ-: «أنه قدم عليه قوم من مضر من مجتابي النمار» فقال:
إنما هو مجتابي الثمار، فقلت إنما هو مجتابي النمار، هكذا قرأته
على كل من قرأته عليه بالأندلس والعراق، فقال لي: بدخولك
العراق تعارضنا وتفخر علينا! أو نحو هذا. ثم قال لي: قم بنا إلى
ذلك الشيخ - لشيخ كان في المسجد - فإن له بمثل هذا علما،
فقمنا إليه فسألناه عن ذلك فقال: إنما هو مجتابي النمار، كما
قلت. وهم قوم كانوا يلبسون الثياب مشققة، جيوبهم أمامهم.
والنمار جمع نمرة. فقال بكر بن حماد وأخذ بأنفه: رغم أنفي
للحق، رغم أنفي للحق. وانصرف.

وقال يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأحسن:

إذا ما تحدثت في مجلس... تنهى حديثي إلى ما علمت

ولم أعد علمي إلى غيره... وكان إذا ما تنهى سكت

{إِنَّكَ أَنْتَ} ضمير فصل، وتوسيطه من صيغ القصر فالمعنى قصر العلم والحكمة على الله تعالى **{الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}** ساقوه مساق التعليل لقولهم: **{لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا}** لأن المحيط علمه بكل شيء المحكم لكل خلق إذا لم يجعل لبعض مخلوقاته سبيلا إلى علم شيء لم يكن لهم قبل بعلمه إذ الحصول بقدر القبول والاستعداد أي فلا مطمع لنا في تجاوز العلم إلى ما لم تهئ لنا علمه بحسب فطرتنا.

والحكيم فعيل من أحكم إذا أتقن الصنع بأن حاطه من الخل. وأصل مادة حكم في كلام العرب للمنع من الفساد والخلل، ومنه حَكَمَ الدابة للحديدة التي توضع في فم الفرس لتمنعه من اختلال السير، وأحكم فلان فلانا منعه. والحكمة ضبط العلم وكماله.

فالحكيم هو المتقن للأمور كلها الذي يضع كل شيء في موضعه، ولا يفعل ولا يترك إلا لحكمه، من أحكم الشيء: أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد.

أو الحكيم بمعنى ذي الحكمة كامل العلم، وتعقيب العليم بالحكيم من إتباع الوصف بأخص منه، فإن مفهوم الحكمة زائد

على مفهوم العلم لأن الحكمة كمال في العلم فهو كقولهم: خَطِيبٌ
مِصْقَعٌ وَشَاعِرٌ مُفْلِقٌ.

ولما نفوا العلم عن أنفسهم أثبتوه لله تعالى على أكمل أوصافه
من المبالغة فيه، ثم أردفوا الوصف بالعلم، الوصف بالحكمة، لأنه
سبق قوله: **{إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}**. فلما صدر من هذا
المجوعول خليفة، ما صدر من فضيلة العلم تبين لهم وجه الحكمة
في جعله خليفة.

فانظر إلى حسن هذا الجواب كيف قدموا بين يديه تنزيه الله
تعالى، ثم اعترفوا بالجهل، ثم نسبوا إلى الله العلم والحكمة،
وناسب تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة، لأنه المتصل
به في قوله: **{وعلم}**، **{أنبئوني}**، **{لا علم لنا}**. فالذي ظهرت به
المزية لآدم والفضيلة هو «العلم»، فناسب ذكره متصلاً به، ولأن
الحكمة إنما هي آثاره وناشئة عنه، ولذلك أكثر ما جاء في القرآن
تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة.

{قَالَ} لما دخل هذا القول في جملة المحاوراة جردت الجملة
من الفاء **{يَا آدَمُ}** وابتداء خطاب آدم بندائه مع أنه غير بعيد عن
سماع الأمر الإلهي للتنويه بشأن آدم وإظهار اسمه في الملاء الأعلى

حتى ينال حسن السمعة مع ما فيه من التكريم عند الأمر لأن شأن الأمر والمخاطب إذا تلطف مع المخاطب أن يذكر اسمه ولا يقتصر على ضمير الخطاب حتى لا يساوي بخطابه كل خطاب، ومنه ما جاء في حديث الشفاعة بعد ذكر سجود النبي -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وحمده الله بمحامد يلهمه إياها فيقول: (يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع) وهذه نكتة ذكر الاسم حتى في أثناء المخاطبة.

ونداء آدم باسمه العلم هي عادة الله مع أنبيائه، قال تعالى: {يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} [هود: ٤٦] {يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ} [هود: ٤٨] {يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا} [الصافات: ١٠٤-١٠٥] {يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [القصص: ٣٠] {إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ} [المائدة: ١١٠]، ونادى محمداً نبينا -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وعلى سائر الأنبياء بالوصف الشريف من الإرسال والإنباء فقال: {يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ} {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ} فانظر تفاوت ما بين هذا النداء وذاك النداء.

{أُنَبِّئُهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ}
استفهام تقريرى **{إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** فالسموات
ذات عدد؛ لقوله تعالى: {السموات}؛ و {الأرض} جاءت مفردة،
والمراد بها الجنس؛ لأن الله تعالى قال: **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ**
سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [الطلاق: ١٢] أي في العدد.
{وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} من نحو قولهم في أنفسهم
إن الله لن يخلق خلقا أكرم عليه منا.

وقد أريد من هذه القصة إظهار مزية نوع الإنسان وأن الله يخص
أجناس مخلوقاته وأنواعها بما اقتضته حكمته من الخصائص
والمزايا لئلا يخلو شيء منها عن فائدة من وجوده في هذا العالم؛
وإظهار فضيلة المعرفة وشرف العلم وفضل العالم على الجاهل،
وفضيلة الاعتراف بالعجز والقصور، وأن الاعتراف بالحق من
خصال الفضائل الملائكية، وجواز العتاب على من ادعى دعوى هو
غير متأهل لها.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى
وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ

وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦)

{وَإِذْ} وأذكر إذ **{قُلْنَا}** بضمير الجمع من باب التعظيم. لا التعداد **{لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ}** سجود تحية وإكرام، وليس المراد به هنا الركوع؛ لأن الله تعالى فرّق بين الركوع والسجود، كما في قوله تعالى: **{تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا}** [الفتح: ٢٩]، وقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا}** [الحج: ٧٧]

{فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ} استثناء منقطع لأن إبليس لم يكن من جنس الملائكة، قال تعالى: **{إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ}** [الكهف: ٥٠] .. قيل كان اسمه الحارث، ولما تكبر عن طاعة الله أبلسه الله أي أيأسه من كل رحمة وخير ومسّخه شيطانا.

{أَبَى} امتنع ورفض السجود لآدم **{وَاسْتَكْبَرَ}** أظهر الكبر والترفع **{وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}** في علم الله بناءً على أن {كان} فعل ماضٍ؛ والماضي يدل على شيء سابق؛ لكن هناك تخريجاً أحسن من هذا: أن نقول: إن {كان} تأتي أحياناً مسلوبة الزمان، ويراد بها

تحقق اتصاف الموصوف بهذه الصفة ورسوخها؛ ومن ذلك قوله تعالى: **{وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}** [النساء: ٩٦]، وقوله تعالى: **{وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}** [النساء: ١٥٨]، وقوله تعالى: **{وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا}** [النساء: ١٣٤]، وما أشبهها؛ هذه ليس المعنى أنه كان فيما مضى؛ بل لا يزال؛ فتكون {كان} هنا مسلوقة الزمان، ويراد بها تحقيق اتصاف الموصوف بما دلت عليه الجملة؛ وهذا هو الأقرب، وليس فيه تأويل؛ ويُجرى الكلام على ظاهره.

وأما الإتيان بخبر **{وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}** دون أن يقول [وكان كافرا] فلأن إثبات الوصف لموصوف بعنوان كون الموصوف واحدا من جماعة تثبت لهم ذلك الوصف أدل على شدة تمكن الوصف منه مما لو أثبت له الوصف وحده، بناء على أن الواحد يزداد تمسكا بفعله إذا كان قد شاركه فيه جماعة لأنه بمقدار ما يرى من كثرة المتلبسين بمثل فعله تبعد نفسه عن التردد في سداد عملها وعليه جاء قوله تعالى: **{قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}**

[النمل: ٢٧]

وفيه: التحذير من الكبر والحسد حيث كانا سبب ابلاس الشيطان، وامتناع اليهود من قبول الإسلام، والتنبيه إلى أن من المعاصي ما يكون كفراً أو يقود إلى الكفر.

{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ} نداء آدم قبل تخويله سكنى الجنة نداء تنويه بذكر اسمه بين الملائكة الأعلى لأن نداءه يسترعي إسماع أهل الملائكة الأعلى فيتطلعون لما سيخاطب به، وينتزع من هذه الآية أن العالم جدير بالإكرام بالعيش الهنيء، كما أخذ من التي قبلها أنه جدير بالتعظيم.

والجنة قطعة من الأرض فيها الأشجار المثمرة والمياه وهي أحسن مقر للإنسان إذا لفحه حر الشمس ويأكل من ثمره إذا جاع ويشرب من المياه التي يشرب منها الشجر ويروقه منظر ذلك كله. فالجنة تجمع ما تطمح إليه طبيعة الإنسان من اللذات.

والجنة التي أسكنها الله تعالى آدم عليه السلام، هي جنة الخلد، التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة برحمة الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

"الْجَنَّةُ الَّتِي أَسْكَنَهَا آدَمَ وَزَوْجَتُهُ، عِنْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: هِيَ جَنَّةُ الْخُلْدِ "

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "الصواب أن الجنة التي أسكنها الله تعالى آدم وزوجه هي الجنة التي وعد المتقون؛ لأن الله تعالى يقول لآدم: {اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ}، والجنة عند الإطلاق هي جنة الخلد التي في السماء".

ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

—قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [البقرة: ٣٤-٣٦]، فقلوه: {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} بعد قوله: {اهْبِطُوا} دليل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في الأرض.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنََّّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّمَا أَهْبَطُوا إِلَى الْأَرْضِ؛ فَإِنَّهُمْ لَوْ كَانُوا فِي الْأَرْضِ وَانْتَقَلُوا إِلَى أَرْضٍ أُخْرَى، كَانَتْ قَوْمَ مُوسَى مِنْ أَرْضٍ إِلَى

أَرْضٍ: لَكَانَ مُسْتَقَرُّهُمْ وَمَتَاعُهُمْ إِلَى حِينٍ فِي الْأَرْضِ، قَبْلَ الْهُبُوطِ
وَبَعْدَهُ"

- وصف سبحانه جنة آدم بصفات لا تكون إلا في جنة الخلد،
فقال: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا
تَصْحَى} [طه: ١١٨-١١٩]؛ وهذا لا يكون في الدنيا أصلا.

- روى مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَعَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (يَجْمَعُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ، فَيَقُومُ
الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا،
اسْتَفْتَحْ لَنَا الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُم مِّنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ
آدَمَ، لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ ...)
وهذا يدل على أن الجنة التي أخرج منها، هي بعينها التي يُطلب
منه أن يستفتحها، وخطيئته لم تخرجهم من جنات الدنيا.

- جاءت الجنة معرفة بلام التعريف [التعريف بالألف واللام
للعهد] في جميع المواضع، ولا جنة يعهدا المخاطبون ويعرفونها
إلا جنة الخلد؛ فقد صار هذا الاسم علما عليها بالغلبة، كالمدينة
والبيت والكتاب ونظائرها، فحيث ورد لفظها معروفا: انصرف إلى

الجنة المعهودة المعلومة في قلوب المؤمنين، وأما إن أريد به جنة غيرها، فإنها تجيء منكراً أو مقيدة.

أما ما رواه البخاري، ومسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر) فافرءوا إن شئتم: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ}. فمعناه: أن في الجنة من النعيم ما لم تره عين، ولا سمعت به أذن، ولا خطر على قلب بشر، ولا ينفي ذلك أن يكون فيها ما رآته عين.

قال ابن الجوزي رحمه الله: "اعلم أن الله عز وجل وعد الصالحين من جنس ما يعرفونه من مطعم ومشرب وملبس ومنكح وغير ذلك، ثم زادهم من فضله ما لا يعرفونه فقال: (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)".

وروى أبو داود عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (لما خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء، فقال: أي رب وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ...)

قال العراقي رحمه الله:

فَقَدْ دَلَّ هَذَا الْحَدِيثُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَطْلَعَ جَبْرِيلَ -
عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى مَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ فِيهَا، فَقَدْ رَأَتْهُ عَيْنٌ ؟ !
قُلْتُ: الْجَوَابُ عَنْهُ مِنْ أَوْجُهٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَ فِيهَا بَعْدَ رُؤْيَا جَبْرِيلَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -
أُمُورًا كَثِيرَةً لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهَا جَبْرِيلُ وَلَا غَيْرُهُ، فَتِلْكَ الْأُمُورُ هِيَ الْمُشَارِ
إِلَيْهَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ.

ثَانِيهَا: أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَعْيُنِ وَالْآذَانِ: أَعْيُنُ الْبَشَرِ وَآذَانُهَا، بِدَلِيلِ
قَوْلِهِ (وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ)؛ فَأَمَّا الْمَلَائِكَةُ: فَلَا مَانِعَ مِنْ إِطْلَاعِ
بَعْضِهِمْ عَلَى ذَلِكَ.

ثَالِثُهَا: أَنَّ ذَلِكَ يَتَجَدَّدُ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ فِي كُلِّ وَقْتٍ".

{وَكَلَّا مِنْهَا رَغْدًا} العيش أو الرزق الطيب الهنيء الواسع الذي
لا عناء فيه ولا تقدير.

وقدم (رغدا) في آية **{فَكَلَّا مِنْهَا رَغْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا}**؛ لأنه في
سياق ذكر الجنة، وقد أبيح لآدم وحواء الأكل من كل ما فيها من
الأطعمة والثمار لتكمل لهما النعمة فلا يتعديان إلى الشجرة -وهي
شجرة واحدة حرمها الله عليهما- فيخرجان من الجنة.

وأخرت (رغدا) في آية {وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا} [البقرة: ٥٨] التي هي خطاب لبني إسرائيل، لأنهم في الدنيا، والرغد فيها أقل من الرغد في الجنة، بدليل ما تسبوا به على أنفسهم أن حرم الله عليهم بعض الطيبات كما قال تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبَصَدَّهُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا} [النساء: ١٦٠].

ثم تقديم الاسم أو الفعل في السياق يدل على الاهتمام به أكثر مما بعده. ومن ذلك تقديم (رغدا) في الآية الأولى على الرغبة في {حيث شئتما}، وفي الآية الثانية حيث السياق سياق امتنان قدمت رغبته (حيث شئتم) على (رغد) الدنيا.

ثم إن المقصود من حكاية القصص في القرآن عامة إنما هو بيان المعنى والعبرة من القصة، فلا يضر اختلاف اللفظ إذا ظهر كل المعنى أو بعضه. ولهذا لم تأت كلمة (رغدا) في آية الأعراف: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ} [الأعراف: ١٩].

{حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} أي من المعتدين وأشهر معاني الظلم في استعمال العرب هو: الاعتداء،

والاعتداء إما اعتداء على نهى الناهي - إن كان المقصود من النهي الجزم بالترك-، وإما اعتداء على النفس والفضيلة - إن كان المقصود من النهي عن الأكل من الشجرة بقاء فضيلة التمتع لآدم في الجنة، فعلى الأول الظلم لأنفسهما بارتكاب غضب الله وعقابه، وعلى الثاني الظلم لأنفسهما بحرمانها من دوام الكرامة.

{فَازَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا} حملهما على الوقوع في الزلل، وهو مخالفتهما لنهى الله تعالى لهما عن الأكل من الشجرة **{فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ}** من نعيم الجنة **{وَقُلْنَا اهْبِطُوا}** دل على أن الجنة في مكان عال **{بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}** الشيطان عدو لآدم وحواء **{وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ}** الاستقرار والبقاء والإقامة **{وَمَتَاعٌ}** الانتفاع الذي يمتد وقته **{إِلَى حِينٍ}** الوقت مطلقا قد يقصر أو يطول والمراد به نهاية الحياة.

وتفيد الآية إثارة الحسرة في نفوس بني آدم على ما أصاب آدم من جراء عدم امتثاله لوصاية الله تعالى، وموعظة تنبهه بوجوب الوقوف عند الأمر والنهي، والترغيب في السعي إلى ما يعيدهم إلى هذه الجنة التي كانت لأبيهم، وتربية العداوة بينهم وبين الشيطان وجنده إذ كان سببا في جر هذه المصيبة لأبيهم حتى يكونوا أبدا

ثأراً لأبيهم معادين للشيطان ووسوسته مسيين الظنون بإغرائه كما أشار إليه قوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ} [الأعراف: ٢٧]

وقوله هنا: {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} وهذا أصل عظيم في تربية العامة، ولأجله كان قادة الأمم يذكرون لهم سوابق عداوات منافسيهم ومن غلبهم في الحروب ليكون ذلك باعثاً على أخذ الثأر.

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)

{فَتَلَقَّى} التلقي: استقبال إكرام ومسرة، قال تعالى: {وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ} [الأنبياء: ١٠٣] ووجه دلالة على ذلك أنه صيغة تفعل من لقيه وهي دالة على التكلف لحصوله وتطلبه وإنما يتكلف ويتطلب لقاء الأمر المحبوب بخلاف «لَاقَى» فلا يدل على كون

المُلاقى محبوباً، بل تقول: لاقى العدو. واللقاء الحضور نحو الغير بقصد أو بغير قصد، وفي خير أو شر، قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا}** [الأنفال: ١٥] الآية فالتعبير بتلقي هنا مؤذن بأن الكلمات التي أخذها آدم كلمات نافعة له.

{آدَمُ} ولم تذكر توبة حواء هنا مع أنها مذكورة في مواضع أخرى نحو قوله: **{قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا}** [الأعراف: ٢٣] لظهور أنها تتبعه في سائر أحواله، وأنه أرشدها إلى ما أرشد إليه، وإنما لم يذكر في هذه الآية لأن الكلام جرى على الابتداء بتكريم آدم وجعله في الأرض خليفة فكان الاعتناء بذكر تقلباته هو الغرض المقصود.

{مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ} هي قوله: **{قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [الأعراف: ٢٣]

وقول الإنسان: "ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين" سبب لقبول توبة الله على عبده؛ لأنها اعتراف بالذنب؛ وفي هذا القول أربعة أنواع من التوسل؛ الأول: التوسل بالربوبية؛ الثاني: التوسل بحال العبد: **{ظلمنا أنفسنا}**؛ الثالث: تفويض الأمر إلى الله؛ لقوله: **{وإن لم تغفر لنا...}** إلخ؛

الرابع: ذكر حال العبد إذا لم تحصل له مغفرة الله ورحمته؛ لقوله تعالى: **{لنكونن من الخاسرين}**

{فَتَابَ عَلَيْهِ} وفقه للتوبة فتاب وقبل توبته؛ فيكون في ذلك مَنَّتَان؛ الأولى: التوفيق للتوبة، حيث تلقى الكلمات من الله؛ والثانية: قبول التوبة، حيث قال تعالى: **{فتاب عليه}**.

فلله تعالى على عبده في التوبة منتين:

الأولى: قبل توبة العبد؛ وهي «التوفيق للتوبة»؛ والثانية بعد توبة العبد؛ وهي «قبول التوبة»؛ وكلاهما في القرآن؛ قال الله تبارك وتعالى: **{وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** [التوبة: ١١٨]

فقوله تعالى: **{ثم تاب عليهم}** أي وفقهم للتوبة، وقوله تعالى: **{ليتوبوا}** أي يقوموا بالتوبة إلى الله؛ وأما توبة القبول ففي قوله تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}** [الشورى: ٢٥]

{إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ} صيغة مبالغة من "تاب"؛ وذلك لكثرة التائبين،

وكثرة توبة الله تعالى

{الرَّحِيمُ} جار مجرى العلة للتواب، إذ قبوله التوبة عن عباده ضرب من الرحمة بهم وإلا لكانت التوبة لا تقتضي إلا نفع التائب نفسه بعدم العود للذنوب حتى تترتب عليه الآثام. وأما الإثم المترتب فكان من العدل أن يتحقق عقابه لكن الرحمة سبقت العدل هنا بوعده من الله.

{قُلْنَا اهْبِطُوا} الواو ضمير جمع، وعبر به عن اثنين لأن آدم وحواء هما أبوا بني آدم كافة؛ فوجه الخطاب إليهما بصيغة الجمع باعتبارهما مع الذرية **{مِنْهَا}** أنزلوا من الجنة إلى الأرض لتعيشوا فيها متعادين **{جَمِيعاً}** آدم وزوجه، وهو تأكيد.

{فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى} شرع ضمنه كتابٌ وبينه رسولٌ، وفيه أن من تعبد لله بغير ما شرع فهو على غير هدى؛ فيكون ضالاً كما شهدت بذلك السنة؛ فقد كان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في خطبة الجمعة يقول: (وشر الأمور محدثاتها؛ وكل محدثة بدعة؛ وكل بدعة ضلالة).

{فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ} أخذ بشرعي فلم يخالفه ولم يحد عنه **{فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ}** أي فيما يستقبل؛ لأنهم آمنون **{وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}** أي على ما مضى؛ لأنهم قد اغتيموه، وقاموا فيه بالعمل الصالح؛ بل هم مطمئنون غاية الطمأنينة

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} أي بالآية الشرعية؛ وإن انضاف إلى ذلك الآية الكونية زاد الأمر شدة؛ لكن المهم الآية الشرعية؛ لأن من المكذبين الكافرين من آمنوا بالآية الكونية دون الشرعية؛ فمثلاً كفار قريش مؤمنون بالآية الكونية مقرون بأن الله خالق السموات والأرض، وأنه المحيي، وأنه المميت، وأنه المدبر لجميع الأمور؛ لكنهم كافرون بالآية الشرعية.

{أُولَئِكَ} أشار إليهم بإشارة البعيد لانحطاط رتبته لا ترفيعاً لهم، وتعلية لهم.

{أَصْحَابُ النَّارِ} أي الملازمون لها؛ ولهذا لا تأتي "أصحاب النار" إلا في الكفار؛ لا تأتي في المؤمنين أبداً؛ لأن المراد الذين هم مصاحبون لها؛ والمصاحب لا بد أن يلزم من صاحبه.

{هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} أي ماكنون؛ والمراد بذلك المكث الدائم الأبدي؛ ودليل ذلك ثلاث آيات في كتاب الله؛ قوله تعالى: **{إِنَّ**

الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا {
 [النساء: ١٦٨-١٦٩]؛ وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا {
 [الأحزاب: ٦٤-٦٥]؛ وقوله تعالى: {وَمَنْ يَعَصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا} [الجن: ٢٣]

وفيه: انحطاط رتبة من اتصفوا بهذين الوصفين: الكفر، والتكذيب.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠)

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل - عليهم الصلاة والسلام- وهو اسم عجمي، وبنو تميم تقول: «إسرائيلين» بالنون، و «إسرا» بالعبرانية: عبد، و «إيل»: الله، فمعناه: عبد الله، وبنو إسرائيل: هم أولاد يعقوب -عليه السلام- الاثنى عشر المشهورين بالأسباط لأنهم أسباط إسحاق بن إبراهيم،

فالسبط ولد الابن، وإلى هؤلاء الأسباط يرجع نسب جميع بني إسرائيل.

وهذا النداء للتذكير بنعم أنعم الله بها على أسلافهم وكرامات أكرمهم بها، فكان لندائهم بعنوان كونهم أبناء يعقوب وأعقابه مزيد مناسبة لذلك، ألا ترى أنه لما ذُكِّروا بعنوان التدين بدين موسى ذُكِّروا بوصف الذين هادوا في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا} [البقرة: ٦٢]

وهذه الآيات انتقال من موعظة المشركين إلى موعظة الكافرين من أهل الكتاب وبذلك تتم موعظة الفرق كلها، لأن فريق المنافقين لا يعدوا أن يكونوا من المشركين أو من أهل الكتاب اليهود، ووجه الخطاب هنا إلى بني إسرائيل وهم أشهر الأمم المتدنية ذات الكتاب الشهير والشريعة الواسعة، وذلك لأن هذا القرآن جاء يهدي للتي هي أقوم فكانت هاته السورة التي هي فسطاطه مشتملة على الغرض الذي جاء لأجله، وقد جاء الوفاء بهذا الغرض على أبداع الأساليب وأكمل وجوه البلاغة، فكانت فاتحتها في التنويه بشأن هذا الكتاب وآثار هديه وما يكتسب متبعوه من الفلاح دنیا وأخرى، وبالتحذير من سوء مغبة من يعرض عن هديه ويتنكب

طريقه، ووصف في خلال ذلك أحوال الناس تجاه تلقي هذا الكتاب من مؤمن وكافر ومنافق، بعد ذلك أقبل على أصناف أولئك بالدعوة إلى المقصود.

وأيضاً لما قدم دعوة الناس عموماً وذكر مبدأهم، دعا بني إسرائيل خصوصاً وهم اليهود، وجرى الكلام معهم من هنا إلى حزب {سيقول السفهاء} فتارة دعاهم بالملاطفة وذكر الإنعام عليهم وعلى آبائهم، وتارة بالتخويف، وتارة بإقامة الحجة وتوبيخهم على سوء أعمالهم، وذكر العقوبات التي عاقبهم بها.

فذكر من النعم عليهم عشرة أشياء، وهي: {وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ} [البقرة: ٤٩] {وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ} [البقرة: ٥٠]، {ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ} [البقرة: ٥٦]، {وَوَضَّلْنَا عَلَيْكَ الْغَمَامَ} [البقرة: ٥٧]، {وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَنْ وَالسَّلْوى} [البقرة: ٥٧]، {ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ} [البقرة: ٥٢]، {فَتَابَ عَلَيْكُمْ} [البقرة: ٥٤]، {نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ} [البقرة: ٥٨]، {وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} [البقرة: ٥٣]، {فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا} [البقرة: ٦٠].

وذكر من سوء أفعالهم عشرة أشياء: قولهم: سمعنا وعصينا، واتخذتم العجل، وقالوا أرنا الله جهرة، وبدل الذين ظلموا، ولن نصبر على طعام واحد، ويحرفونه، وتوليتهم من بعد ذلك، وقست قلوبكم، وكفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق.

وذكر من عقوباتهم عشرة أشياء: ضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأؤوا بغضب من الله، ويعطوا الجزية، واقتلوا أنفسهم، وكونوا قردة، وأنزلنا عليهم رجزاً من السماء، وأخذتكم الصاعقة، وجعلنا قلوبهم قاسية، وحرمنا عليهم طيبات أحلت لهم.

ولم يدع اليهود إلى توحيد ولا اعتراف بالخالق لأنهم موحدون، ولكنه دعاهم إلى تذكر نعم الله عليهم، وإلى ما كانت تلاقيه أنبياءهم من مكذبيهم، ليرجعوا على أنفسهم بمثل ما كانوا يؤنبون به من كذب أنبياءهم، وذكرهم ببشارات رسلهم وأنبيائهم بنبي يأتي بعدهم.

وهذا كله جزاء لآبائهم المتقدمين، وخوطب المعاصرون لمحمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ لأنهم متبعون لهم راضون بأحوالهم، وقد وبخ المعاندين لمحمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بتوبيخات أخرى، وهي: كتمانهم أمر محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مع معرفتهم به،

ويحرّفون الكلم ويقولون هذا من عند الله، وتقتلون أنفسكم، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم، وحرصهم على الحياة، وعداوتهم لجبريل واتباعهم للسحر، وقولهم نحن أبناء الله، وقولهم يد الله مغلولة.

{اذْكُرُوا نِعْمَتِي} في إضافة النعمة إليه -جل وعلا- إشارة إلى عظم قدرها وسعة برها وحسن موقعها.

والمراد بالنعمة هنا جميع ما أنعم الله به على المخاطبين مباشرة أو بواسطة الإنعام على أسلافهم، فإن النعمة على الأسلاف نعمة على الأبناء لأنها سمعة لهم، وقدوة يقتدون بها، وبركة تعود عليهم منها، وصلاح حالهم الحاضر كان بسببها، وبعض النعم يكون فيما فطر الله عليه الإنسان من فطنة وسلامة ضمير وتلك قد تورث في الأبناء. ولولا تلك النعم لهلك سلفهم أو لساءت حالهم فجاء أبناؤهم في شر حال. فيشمل هذا جميع النعم التي أنعم الله بها عليهم فهو بمنزلة: "اذكروا نعمي عليكم".

والأمر بذكر النعمة هنا مراد منه لازمه وهو شكرها، ومن أول مراتب الشكر ترك المكابرة في تلقي ما ينسب إلى الله من الرسالة بالنظر في أدلتها ومتابعة ما يأتي به المرسلون.

قال بعض السلف: "عبيد النعم كثيرون، وعبيد المُنعم قليلون،
فالله تعالى ذكّر بني إسرائيل نعمه عليهم، ولما آل الأمر إلى أمة
محمد -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذكر المُنعم فقال: **{فَاذْكُرُونِي
أَذْكُرْكُمْ}** [البقرة: ١٥٢] فدل ذلك على فضل أمة محمد -صَلَّى
اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على سائر الأمم".

ويفيد مع ذلك أمرهم بتذكر النعم التي أنعم بها عليهم لينصرفوا
بذلك عن حسد غيرهم، فإن تذكير الحسود بما عنده من النعم عظة
له وصرف له عن الحسد الناشئ عن الاشتغال بنعم الغير، وهذا
تعريض بهم أنهم حاسدون للعرب فيما أوتوا من الكتاب والحكمة
ببعثة محمد -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وانتقال النبوة من بني إسرائيل
إلى العرب، وإنما ذكّروا بذلك لأن للنفس غفلة عما هو قائم بها،
وإنما تشتغل بأحوال غيرها لأن الحس هو أصل المعلومات، فإذا
رأى الحاسد نعم الغير نسي أنه أيضا في نعمة، فإذا أريد صرفه عن
الحسد ذكّر بنعمه حتى يخف حسده، فإن حسدهم هو الذي حال
دون تصديقهم به فيكون وزانه وزان قوله تعالى: **{أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ
عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِ}** [النساء: ٥٤]

{الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} لأن تذكير النعم السالفة يُطَمِّع في النعم الخالفة، وذلك الطمع يمنع من إظهار المخالفة. وأشار بهذه الجملة إلى أن هذه النعم فضل محض من الله عز وجل. وأن تذكير العبد بنعمة الله تعالى عليه أدعى لقبوله الحق، وأقوم للحجة عليه؛ وهي من الوسائل الناجعة في الدعوة إلى الله عز وجل.

وتقديمه على قوله: **{وَأَوْفُوا بِعَهْدِي}** من باب تقديم التَّخْلِيَةِ على التَّحْلِيَةِ، ويكون افتتاح خطابهم بهذا التذكير تهيئة لنفوسهم إلى تلقي الخطاب بسلامة طوية وإنصاف.

{وَأَوْفُوا بِعَهْدِي} سماه الله تعالى عهدا تارة، وسماه ميثاقا تارة أخرى، قال جل ذكره: **{لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا}** [المائدة: ٧٠] وميثاقه وعهد الله إليهم هو حفظ الدين وصيانيته، والقيام بواجبه بالبلاغ والتذكير والتعليم، والإيمان بالنبى الأمي لو أدركوه أو سمعوا به.. وعهدهم إليه سبحانه أن يشبههم على ذلك ويدخلهم الجنة.

ولم يبين هنا ما عهده وما عهدهم، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر كقوله: **{وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ}**

وَأَمْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ {
[المائدة: ١٢]، فعهدهم هو المذكور في قوله: {لَنْ أَقْمَتُمُ الصَّلَاةَ
وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَأَمْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا}،
وعهده هو المذكور في قوله: {لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ}.

وأشار إلى عهدهم أيضا بقوله: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ} [آل عمران: ١٨٧]

ومن لطائف القرآن في اختيار لفظ "العهد" للاستعارة هنا
لتكليف الله تعالى إياهم أن ذلك خطاب لهم باللفظ المعروف
عندهم في كتبهم فإن التوراة المنزلة على موسى عليه السلام تلقب
عندهم بالعهد لأنها وصاياات الله تعالى لهم ولذا عبر عنه في مواضع
من القرآن بالميثاق وهذا من طرق الإعجاز العلمي الذي لا يعرفه
إلا علماءهم وهم أشح به منهم في كل شيء بحيث لا يعرف ذلك
إلا خاصة أهل الدين، فمجيئه على لسان النبي العربي الأمي دليل
على أنه وحي من العلام بالغيوب.

{أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ} عن داود بن مهران، قال: سَمِعْتُ فُضَيْلاً يَقُولُ فِي قَوْلِهِ: **{وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ}** قَالَ: "أَوْفُوا بِمَا أَمَرْتُكُمْ أَوْفِ لَكُمْ بِمَا وَعَدْتُكُمْ".

والذي يظهر -والله أعلم- أن المعنى طلب الإيفاء بما التزموه لله تعالى، وترتيب إنجاز ما وعدهم به "عهداً" على سبيل المقابلة، أو إبرازاً لما تفضل به تعالى في صورة الشروط الملتمزم به فتتوفر الدواعي على الإيفاء بعهد الله، كما قال تعالى: **{وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ}** [التوبة: ١١١] **{لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا}** [مريم: ٨٧] وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَلَى الْعِبَادِ فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ لَمْ يُضَيَّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا اسْتِخْفَافًا بِحَقِّهِنَّ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ) [أبو داود]

{وَاِيَّايَ فَارْهَبُونِ} الرهبة: خوف مع تحرُّز. ورهبة الله تعالى عبادة لأنه أمر بها وهي تنطوي على الإخلاص الذي هو من أعمال القلوب.

قال السلمي: الرهبة خشية القلب من رديء خواطره.

وقال سهل: {وإياي فارهبون}، موضع اليقين بمعرفته، {وإياي فاتقون}، موضع العلم السابق وموضع المكر والاستدراج.
وقال القشيري: أفردوني بالخشية لانفرادي بالقدرة على الإيجاد.

وَأْمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ
وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١)

{وَأْمِنُوا} شروع في دعوة بني إسرائيل إلى الإسلام وهدى القرآن وهذا هو المقصود من خطابهم، ولكن قدم بين يديه ما يهيئ نفوسهم إلى قبوله كما تتقدم المقدمة على الغرض، والتخلية على التحلية.

{بِمَا أُنزِلَتْ} بالذي أنزلته، وهو القرآن، وقوله {أُنزِلَتْ} دون التصريح باسمه إيماء إلى تعليل الأمر بالإيمان به وهو أنه منزل من الله.

وإن كان الإيمان بالقرآن من جملة العهد الذي أخذ عليهم إلا أنه لم يلتفت إليه هنا من تلك الجهة لأنهم عاهدوا الله على أشياء كثيرة كما تقدم ومن جملتها الإيمان بالرسل والكتب التي تأتي بعد

موسى عليه السلام إلا إن ذلك مجمل في العهد، فخصه هنا لمزيد من الاهتمام والتحريض.

{مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ} التوراة والإنجيل والزبور، اختيار التعبير بـ **{لِّمَا مَعَكُمْ}** دون التوراة مع أنها عبر بها في مواضع غير هذا لأن في كتب الأنبياء من بعد موسى عليه السلام بشارات ببعثة محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أصرح مما في التوراة فكان التنبيه إليها أوقع.

والمراد من كون القرآن مصدقا لما معهم أنه يشتمل على الهدى الذي دعت إليه أنبيائهم من التوحيد والأمر بالفضائل واجتناب الرذائل وإقامة العدل ومن الوعد والوعيد والمواعظ والقصص، فما تماثل منه بها فأمره ظاهر، وما اختلف فإنما هو لاختلاف المصالح والعصور مع دخول الجميع تحت أصل واحد.

فالإيمان بالقرآن لا ينافي تمسكهم القديم بدينهم ولا ما سبق من أخذ رسلهم عليهم العهد باتباعه. ومما يشمله تصديق القرآن لما معهم أن الصفات التي اشتمل عليها القرآن ودين الإسلام والجائي به موافقة لما بشرت به كتبهم فيكون وروده معجزة لأنبيائهم وتصديقا آخر لدينهم وهو أحد وجهين.

وهذا الخطاب لمن كان بحضرة رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بالمدينة. وجعل كونه مصدقا لما في التوراة علامة على أنه من عند الله. وهي «العلامة الدينية» المناسبة لأهل العلم من أهل الكتاب، فكما جعل «الإعجاز اللفظي» علامة على كون القرآن من عند الله لأهل الفصاحة والبلاغة من العرب كما أشير إليه بقوله: {فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ} [البقرة: ٢٣]؛ كذلك جعل «الإعجاز المعنوي» وهو اشتماله على الهدى الذي هو شأن الكتب الإلهية، علامة على أنه من عنده لأهل الدين والعلم بالشرائع. ثم الإيمان بالقرآن يستلزم الإيمان بالذي جاء به وبالذي أنزله.

وفي الآية أن الكافر مخاطب بالإسلام؛ وهذا مجمع عليه، لكن هل يخاطب بفروع الإسلام؟

الجواب: فيه تفصيل؛ إن أردت بالمخاطبة أنه مأمور أن يفعلها فلا؛ لأنه لا بد أن يُسلم أولاً، ثم يفعلها ثانياً؛ فروى مسلم عن ابن عباسٍ أَنَّ مُعَاذًا قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: (إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا

لِذَلِكَ فَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تَتَّخِذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ
فَتَرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ) إِذَا هُمْ لَا يَخَاطَبُونَ بِالْفِعْلِ. يَعْنِي لَا يَقَالُ: افْعَلُوا؛
فَلَا نَقُولُ لِلكَافِرِ: تَعَالِ صَلِّ؛ بَلْ نَأْمُرُهُ أَوَّلًا بِالْإِسْلَامِ

وَإِنْ أَرَدْتَ بِالْمَخَاطَبَةِ أَنَّهُمْ يَعَاقِبُونَ عَلَيْهَا إِذَا مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ
فَهَذَا صَحِيحٌ؛ وَلِهَذَا يَقَالُ لِلْمَجْرِمِينَ: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٢)
قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ (٤٤)
وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ (٤٦)
حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧)} [المدثر] يَعْنِي هَذَا دَأْبُهُمْ حَتَّى مَاتُوا؛ وَوَجْهُ
الدَّلَالَةِ مِنَ الْآيَةِ أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّهُمْ كَانُوا مَخَاطَبِينَ بِالْفُرُوعِ لَكَانَ قَوْلُهُمْ:
{لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ..} عَبَثًا لَا فَائِدَةَ
مِنْهُ، وَلَا تَأْثِيرَ لَهُ.

{وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ} جَمْعُ الضَّمِيرِ فِي {تَكُونُوا} مَعَ إِفْرَادِ
لَفْظِ {كَافِرٍ} يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْكَافِرِ «فَرِيقٌ» ثَبَتَ لَهُ الْكُفْرُ
لَا فَرْدٌ وَاحِدٌ، فِإِضَافَةُ {أَوَّلَ} إِلَى {كَافِرٍ} بَيَانِيَّةٌ تَفِيدُ مَعْنَى «فَرِيقٌ»
هُوَ أَوَّلُ فَرَقِ الْكَافِرِينَ.

وَالنَّهْيُ عَنْ أَنْ يَكُونُوا أَوَّلَ الْكَافِرِينَ يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونُوا أَوَّلَ
الْمُؤْمِنِينَ، فَذَكَرَ الْأَوَّلِيَّةَ تَعْرِيزًا بِأَنَّهُ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونُوا أَوَّلَ مُؤْمِنِينَ

به، لمعرفتهم به وبصفته، ولأنهم كانوا هم المبشرين بزمانه والمستفتحين على الذين كفروا به، فلما بعث كان أمرهم على العكس.

والتكني عن الاتصاف بالنقيض بلفظ النهي عن أن يكون أول في نقيضه طريقة عربية ورد عليها قول أبي العاص الثقفي لقومه ثقيف حين هموا بالارتداد مع من ارتد من العرب بعد وفاة النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "يا معشر ثقيف كنتم آخر العرب إسلاما، فلا تكونوا أولهم ارتدادا" أي دوموا على الإيمان، وهو عكس الآية، وليس المراد كونوا آخر الناس ارتدادا.

وقد يقال: أنه قد سبقهم أهل مكة للكفر لأن آية البقرة في خطاب اليهود نزلت في المدينة فقد تحقق أن اليهود لم يكونوا أول الكافرين فالنهي عن أن يكونوا أول الكافرين تحصيل حاصل.

ووجه الاندفاع أن المقصود الأهم هو التعريض بالمشركين والذين هم أشد من اليهود كفرا، أي: لا تكونوا في عدادهم، أو: لا تكونوا مثل أول كافر به من أهل مكة. كما قال تعالى: **{قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}** [الزخرف: ٨١] أي: مع أول المبادرين والعابدین.

وبهذا كله يتضح أن قوله: **{وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}** لا يتوهم منه أن يكون النفي منصبا على القيد بحيث يفيد عدم النهي عن أن يكونوا ثاني كافر أو ثالث كافر بسبب القرينة الظاهرة، وأن أول كافر ليس من قبيل الوصف اللازم.

وقد يكون "أول" كناية عن القدوة في الأمر لأن الرئيس وصاحب اللواء ونحوهما يتقدمون القوم.. قال القشيري: "لا تسنوا الكفر سُنَّة، فإن وزر المبتدئين فيما يسنون أعظم من وزر المقتدين فيما يتبعون".

{وَلَا تَشْتَرُوا} الاشتراء هنا مجاز يراد به الاستبدال، وهذا النهي موجه إلى علماء بني إسرائيل وهم القدوة.

{بِآيَاتِي} جمع آية، وأصلها في اللغة العلامة على المنزل أو على الطريق، ثم أطلقت الآية على الحجة لأن الحجة علامة على الحق، ولذلك سميت معجزة الرسول آية كما في قوله تعالى: **{فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ}** [النمل: ١٢] **{وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ}** [الأعراف: ٢٠٣]، وأطلقت أيضا على الجملة التامة من القرآن قال تعالى: **{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ}** [آل

عمران: ٧] لأن جمل القرآن حجة على صدق الرسول لأن بلاغتها معجزة.

{ثَمَنًا قَلِيلًا} لا تستبدلوا بآياتي العظيمة أشياء حقيرة خسيسة، والمناسبة أن الذي صدهم عن قبول دعوة الإسلام هو خشيتهم أن تزول رئاستهم في قومهم فكانوا يتظاهرون بإنكار القرآن ليلتف حولهم عامة قومهم فتبقى رئاستهم عليهم، روى البخاري عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (لَوْ آمَنَ بِي عَشْرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ [من أحبارهم وزعمائهم] لَأَمَنَ بِي الْيَهُودُ [اتباعا لهم]) وفي رواية لمسلم: (لَوْ تَابَعَنِي عَشْرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ لَمْ يَبْقَ عَلَى ظَهْرِهَا يَهُودِيٌّ إِلَّا أَسْلَمَ)

ووصف الثمن بالقليل، لأن ما حصل عوضاً عن آيات الله كائناً ما كان لا يكون إلا قليلاً، وإن بلغ ما بلغ. فليس المراد به «التقييد» بحيث يفيد النهي عن أخذ عوض قليل دون أخذ عوض له بال، وإنما هو وصف ملازم للثمن المأخوذ عوضاً عن استبدال الآيات، فإن كل ثمن في جانب ذلك هو قليل، فذكر هذا القيد مقصود به تحقير كل ثمن في ذلك.

وإضافة آيات إلى ضمير الجلالة للتشريف. قال الشيخ محمد بن عرفة: "عظم الآيات بشيئين الجمع والإضافة إلى ضمير الجلالة، وحقر العوض بتحقيقين التنكير والوصف بالقلة". أي وفي ذلك تعريض بغبن صفقتهم إذ استبدلوا نفيسا بخسيس.

وقد أجمل العوض الذي استبدلوا به الآيات فلم يبين أهو الرئاسة أو الرشى التي يأخذونها ليشمل ذلك اختلاف أحوالهم فإنهم متفاوتون في المقاصد التي تصدهم عن اتباع الإسلام على حسب اختلاف همهم.

والخطاب وإن كان لبني إسرائيل غير أن خطابات القرآن وقصصه المتعلقة بالأمم الأخرى إنما يقصد منها الاعتبار والاعتاظ فنحن محدورون من مثل ما وقعوا فيه بطريق الأولى لأننا أولى بالكمالات النفسية، فعلمائنا منهيون على أن يأتوا بما نهى عنه بنو إسرائيل من الصدف عن الحق لأغراض الدنيا وكذلك كانت سيرة السلف رضي الله عنهم.

وفي الآية: أن من اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً ففيه شبه من اليهود؛ فالذين يقرؤون العلم الشرعي من أجل الدنيا يكون فيهم شبه باليهود؛ لأن اليهود هم الذين يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً؛ وفي

الحديث الذي رواه أبو داود عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال
رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ
وَجْهَ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ
عَرَفَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) يَعْنِي رِيحَهَا.

{وَايَا فَاتَّقُونَ} أي لا تتقوا إلا إياي. و «التقوى» اتخاذ وقاية
من عذاب الله عز وجل بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ ففي الآية
الأولى: **{وَايَا فَارْهَبُونَ}** أمر بالتزام الشريعة، وألا يخالفوها
عصياناً؛ وفي هذه الآية: **{وَايَا فَاتَّقُونَ}** أمر بالتزام الشريعة، وألا
يخالفوها لا في الأمر، ولا في النهي.

فالتعبير في الأول بارهبون وفي الثاني باتقون لأن الرهبة مقدمة
التقوى إذ التقوى رهبة معتبر فيها العمل بالمأمورات واجتناب
المنهيات بخلاف مطلق الرهبة فإنها اعتقاد وانفعال دون عمل.

ولأن الآية المتقدمة تأمرهم بالوفاء بالعهد فناسبها أن يخوفوا من
نكثه، وهذه الآية تأمرهم بالإيمان بالقرآن الذي منعهم منه بقية
دهمائهم فناسبها الأمر بأن لا يتقوا إلا الله.

وفرضت هنا مسألة جعلها المفسرون متعلقة بهاته الآية -وإن
كان تعلقها بها ضعيفاً-، وهي مسألة: «أخذ الأجرة على تعليم

القرآن والدين»، ويتفرع عنها أخذ الأجرة على تعليم العلم وعلى بعض ما فيه عبادة كالأذان والإمامة.

وحاصل القول فيها أن الجمهور من العلماء أجازوا أخذ الأجر على تعليم القرآن فضلاً عن الفقه والعلم، فقال بجواز ذلك الحسن وعطاء والشعبي وابن سيرين ومالك والشافعي وأحمد وأبو ثور والجمهور، وحجتهم في ذلك الحديث الصحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- مَرُّوا بِمَاءٍ فِيهِمْ لَدِيغٌ، فَعَرَضَ لَهُمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَاءِ فَقَالَ: هَلْ فِيكُمْ مِنْ رَاقٍ، إِنَّ فِي الْمَاءِ رَجُلًا لَدِيغًا؟ فَانْطَلَقَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَقَرَأَ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ عَلَى شَاءٍ [مجموعة من الغنم]، فَبَرَأَ، فَجَاءَ بِالشَّاءِ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَكَرِهُوا ذَلِكَ، وَقَالُوا: أَخَذْتَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا؟ حَتَّى قَدِمُوا الْمَدِينَةَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخَذَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ أَجْرًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللَّهِ) [رواه البخاري ومسلم]

وقد بوب عليه النووي -رحمه الله- في شرحه لمسلم بقوله: «باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار».

وقال النووي في شرحه للحديث: هذا تصريح بجواز أخذ الأجرة على الرقية، بالفاتحة والذكر، وأنها حلال لا كراهة فيها، وكذا الأجرة على تعليم القرآن، وهذا مذهب الشافعي، ومالك، وأحمد، وإسحاق، وأبي ثور، وآخرين من السلف، ومن بعدهم.

وعليه فلا محل لهاته الآية على هذا المعنى عندهم بحال؛ لأن المراد بالاشتراء فيها معناه المجازي وليس في التعليم استبدال ولا عدول ولا إضاعة.

وقد نقل ابن رشد إجماع أهل المدينة على الجواز ولعله يريد إجماع جمهور فقهاءهم. وفي المدونة: لا بأس بالإجازة على تعليم القرآن.

ومنع ذلك ابن شهاب من التابعين من فقهاء المدينة وأبو حنيفة وإسحاق بن راهويه وتمسكوا بالآية وبأن التعليم لذلك طاعة وعبادة كالصلاة والصوم فلا يؤخذ عليها كذلك، وبما روى ابن ماجة عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: عَلَّمْتُ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ الْقُرْآنَ وَالْكِتَابَةَ، فَأَهْدَى إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ قَوْسًا، فَقُلْتُ لَيْسَتْ بِمَالٍ وَأَرْمِي عَنْهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ. فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْهَا فَقَالَ: (إِنْ سَرَّكَ أَنْ تُطَوَّقَ بِهَا طَوْقًا مِنْ نَارٍ
فَاقْبَلْهَا) [حسن]

وأجاب عن ذلك القرطبي بأن الآية محلها فيمن تعين عليه
التعليم فأبى إلا بالأجر، ولا دليل على ما أجاب به القرطبي. فالوجه
أن ذلك كان في صدر الإسلام وبث الدعوة فلو رخص في الأجر
فيه لتعطل تعليم كثير لقلة من ينفق في ذلك لأن أكثرهم لا يستطيعه
ومحمل حديث ابن عباس على ما بعد ذلك حين شاع الإسلام وكثر
حفاظ القرآن. وأقول لا حاجة إلى هذا كله لأن الآية بعيدة عن هذا
الغرض

وقد أفتى متأخرو الحنفية بجواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن
والفقه.. قال في الدرر وشرحه: "ويفتي اليوم بصحتها أي الإجارة
لتعليم القرآن والفقه". فلما وقع الفتور في الأمور الدينية جوزها
المتأخرون.

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

(٤٢)

{وَلَا تَلْبِسُوا} اللبس خلط بين متشابهات في الصفات يعسر معه التمييز أو يتعذر **{الْحَقَّ}** الحق: الأمر الثابت من "حق" إذا ثبت ووجب، وهو ما تعترف به سائر النفوس بقطع النظر عن شهواتها **{بِالْبَاطِلِ}** الباطل: ضد الحق، وهو الأمر الزائل الضائع، والمراد به هنا ما تتبرأ منه النفوس وتزيله مادامت خالية عن غرض أو هوى، وسمي باطلا لأنه فعل يذهب ضياعا وخسارا على صاحبه.

فلبس الحق بالباطل ترويج الباطل في صورة الحق، حتى يوهم أنه يريد الحق، قال تعالى: **{وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْذُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ}** [الأنعام: ١٣٧] لأنهم أوهموهم أن ذلك قرينة إلى الأصنام.

واليهود كانوا يأتون بمشتبهات تُشَبِّه على الناس؛ فيقولون مثلاً: محمد حق، لكنه رسول الأميين لا جميع الناس.

وأكثر أنواع الضلال الذي أدخل في الإسلام هو من قبيل لبس الحق بالباطل، فقد قال الذين ارتدوا من العرب ومنعوا الزكاة أننا كنا نعطي الزكاة للرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ونطيعه فليس علينا طاعة لأحد بعده، وهذا نقض لجامعة الملة في صورة الأنفة من الطاعة لغير الله.

وقد فعل ذلك الناقمون على عثمان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فلبسوا بأمور زينوها للعامة كقولهم رقي إلى مجلس النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في المنبر وذلك استخفاف لأن الخليفين قبله نزل كل منهما عن الدرجة التي كان يجلس عليها سلفه. وسقط من يده خاتم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وذلك رمز على سقوط خلافته. وقد قالت الخوارج: «لا حكم إلا لله» فقال علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: «كلمة حق أريد بها باطل».

وحرف أقوام آيات بالتأويل البعيد ثم سمو ذلك بالباطن وزعموا أن للقرآن ظاهرا وباطنا فكان من ذلك لبس كثير، ثم نشأت عن ذلك نحلة الباطنية. ثم تأويلات المتفلسفين في الشريعة كأصحاب الرسائل الملقبين بإخوان الصفاء. ثم نشأ تلبيس الواعظين والمرغبين والمرجئة فأخذوا بعض الآيات فأشاعوها وكتبوها ما يقيدها ويعارضها نحو قوله تعالى: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ} [الزمر: ٥٣] فأوهموا الناس أن المغفرة عامة لكل ذنب وكل مذهب ولو لم يتب وأغضوا عن آيات الوعيد وآيات التوبة.

وللتفادي من هذا الوصف الذي ذمه الله تعالى قال علماء أصول الفقه: إن التأويل لا يصح إلا إذا دل عليه دليل قوي، أما إذا وقع التأويل لما يظن أنه دليل فهو تأويل باطل، فإن وقع بلا دليل أصلاً فهو لعب لا تأويل.

ومن فوائد الآية: أنه ليس هناك إلا حق وباطل؛ وإذا تأملت القرآن والسنة وجدت الأمر كذلك؛ قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [الحج: ٦٢]، وقال تعالى: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [سبأ: ٢٤]، وقال تعالى: {فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} [يونس: ٣٢]، وقال تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ} [الكهف: ٢٩]، وقال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ) [مسلم]

فإن قال قائل: أليس هناك مرتبة بين الواجب، والمحرم؛ وبين المكروه، والمندوب. وهو المباح؟ قلنا: بلى، لا شك في هذا؛ لكن المباح نفسه لا بد أن يكون وسيلة إلى شيء؛ فإن لم يكن وسيلة إلى شيء صار من قسم الباطل كما جاء في الحديث: (لَيْسَ مِنَ اللَّهِوَ إِلَّا ثَلَاثٌ: تَأْدِيبُ الرَّجُلِ فَرَسَهُ، وَمُلَاعَبَتُهُ أَهْلَهُ، وَرَمْيُهُ بِقَوْسِهِ

وَنَبِّلهُ) [ضعيف أبي داود]؛ وهذه الأشياء الثلاثة إنما استثنيت؛ لأنها مصلحة. كلها تعود إلى مصلحة.

{وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ} إنما نهوا عن الأمرين معا على وجه الجمع تعريضا بهم بأنهم لا يرجا منهم أكثر من هذا الترك للبس وهو ترك اللبس المقارن لكتم الحق فإن كونه جريمة في الدين أمر ظاهر. أما ترك اللبس الذي هو بمعنى التحريف في التأويل فلا يرجا منهم تركه إذ لا طماعية في صلاحهم العاجل.

وهذا من معجزات القرآن وهو أنه شرح من أحوال بني إسرائيل ما لا يعلمه إلا أحبارهم وخاصتهم مع حرصهم على كتمانهم والاستئثار به خشية المزاحمة في الجاه والمنافع، فجاء القرآن على لسان أبعد الناس عنهم وعن علمهم صادعا بما لا يعلمه غير خاصتهم، فكانت هذه المعجزة للكتابين قائمة مقام المعجزة البلاغية للأمينين.

وفي الآية: تحريم كتمان الحق؛ لقوله تعالى: **{وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ}**؛ ولكن هل يقال: إن الكتمان لا يكون إلا بعد طلب؟

الجواب: نعم، لكن الطلب نوعان: طلب بلسان المقال؛ وطلب بلسان الحال؛ فإذا جاءك شخص يقول: ما تقول في كذا، وكذا:

فهذا طلب بلسان المقال؛ وإذا رأيت الناس قد انغمسوا في محرم: فبيانه مطلوب بلسان الحال؛ وعلى هذا فيجب على الإنسان أن يبين المنكر، ولا ينتظر حتى يُسأل؛ وإذا سئل ولم يُجب لكونه لا يعلم فلا إثم عليه؛ بل هذا هو الواجب؛ لقوله تعالى: **{وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}** [الإسراء: ٢٣]

فإذا رأى من المصلحة ألا يبين فلا بأس أن يكتم كما جاء في حديث علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!"؛ وقال ابن مسعود: "إنك لن تحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة"؛ فإذا رأيت من المصلحة ألا تبين فلا تبين ولا لوم عليك.

{وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} وأنتم من ذوي العلم، فلا يناسب من كان عالماً أن يكتم الحق ويلبسه بالباطل.

وهذه الحال، وإن كان ظاهرها أنها قيد في النهي عن اللبس والكتم، فلا تدل بمفهومها على جواز اللبس والكتم حالة الجهل، لأن الجاهل بحال الشيء لا يدري كونه حقاً أو باطلاً، وإنما

فائدتها: أن الإقدام على الأشياء القبيحة مع العلم بها أفحش من الإقدام عليها مع الجهل بها.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّائِعِينَ (٤٣)

{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} أي اتوا بها مستقيمة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، ومكملاتها؛ وهذا كما أمر الله تعالى به بني إسرائيل أمر به هذه الأمة.

فهو أمر بالتلبس بشعار الإسلام عقب الأمر باعتقاد عقيدة الإسلام في قوله تعالى: **{وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ}** [البقرة: ٤١] وأمروا بالصلاة والزكاة لأن الأولى عمل يدل على تعظيم الخالق والسجود إليه وخلع الآلهة، ومثل هذا الفعل لا يفعله المشرك لأنه يغيظ آلهته بالفعل ويقول الله أكبر، ولا يفعله الكتابي لأنه يخالف عبادته.

ولأن الزكاة إنفاق المال وهو عزيز على النفس فلا يبذله المرء في غير ما ينفعه إلا عن اعتقاد نفع أخروي، فلذلك عقب الأمر بالإيمان بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لأنهما لا يتجشهما إلا مؤمن صادق. ولذلك جاء في المنافقين **{وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ}**

قَامُوا كُسَالَى { [النساء: ١٤٢] وقوله: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ} [الماعون: ٥-٤] وفي الصحيح أن صلاة العشاء أثقل صلاة على المنافقين.

وفيها دليل لما فعل أبو بكر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- من قتال مانعي الزكاة، وإطلاق اسم المرتدين عليهم؛ لأن الله جعل الصلاة والزكاة أمانة صدق الإيمان إذ قال لبي إسرائيل: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ} ولهذا قال أبو بكر لما راجعه عمر في عزمه على قتال أهل الردة حين منعوا إعطاء الزكاة وقال له: "كيف تقاتلهم وقد قالوا لا إله إلا الله، وقد قال رسول الله: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها). فقال أبو بكر: "لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال"، فحصل من عبارته على إيجازها جواب عن دليل عمر.

{وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} تأكيد لمعنى الصلاة لأن لليهود صلاة لا ركوع فيها فلكن لا يقولوا إننا نقيم صلاتنا دفع هذا التوهم بقوله {وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}

والاستدلال بقوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} على أن المراد به تسوية الصفوف فيه نظر، وذلك أن

الله أمر موسى وأخاه بإقامة الصلاة فقال تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٨٧] وتسوية الصفوف من خصائص هذه الأمة، كما روى مسلم في صحيحه عن رُبَيْعٍ عَنْ حُذَيْفَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ، وَذَكَرَ خَصْلَةً أُخْرَى) [مسلم]

وفي رواية: (فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا وَجُعِلَ تُرَابُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ، وَأُوتِيتُ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ: خَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لَمْ يُعْطَهَا أَحَدٌ قَبْلِي) [مسلم وأحمد والنسائي].

واستدل بعض العلماء بهذه الآية على وجوب صلاة الجماعة؛ ولكن في هذا الاستدلال شيء؛ لأنه لا يلزم من المعية المصاحبة في الفعل؛ ولهذا قيل لمريم: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [آل عمران ٤٣] والنساء ليس عليهن جماعة؛ إذاً لا

نسلم أن هذه الآية تدل على وجوب صلاة الجماعة؛ ولكن -
الحمد لله- وجوب صلاة الجماعة ثابتة بأدلة أخرى ظاهرة من
الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة رضي الله عنهم.

فمن ذلك ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله
عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: (إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ
صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا
وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَمُرَ بِالصَّلَاةِ فَتُقَامَ ثُمَّ أَمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ ثُمَّ
أَنْطَلِقَ مَعِيَ بِرِجَالٍ مَعَهُمْ حُزْمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ
فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ) [مسلم]

ونقل غير واحد إجماع الصحابة على ذلك، وحكى الكساني -
من الحنفية- العمل عليها جيلا بعد جيل، وأن ذلك أمانة وجوبها.
وينقل في كلام فقهاء الحنفية: أن الجماعة سنة مؤكدة، ومرادهم
بذلك الوجوب، قال علاء الدين السمرقندي في «تحفة الفقهاء»:
"إن الجماعة واجبة، وقد سماها بعض أصحابنا: سنة مؤكدة،
وكلاهما واحد" وبنحوه قال الكساني وغيره.

والشافعي نص على الوجوب في كتابه «الأم» قال: "فلا أرخص
لمن قدر على صلاة الجماعة في ترك إتيانها إلا من عذر".

وقال النووي: "وهذا قول اثنين من كبار أصحابنا المتمكنين في
الفقه والحديث، وهما: أبو بكر بن خزيمة، وابن المنذر.. "

وجماهير أصحاب أحمد على الوجوب، وهو المشهور عنه.
قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى
اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ.
فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ -صلى الله عليه وسلم- سُنَنَ الْهُدَى. وَإِنَّهُنَّ
مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا
الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ.
وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَعْمِدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ
الْمَسَاجِدِ، إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَرَفَعَهُ بِهَا
دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةٌ، وَلَقَدْ رَأَيْنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ
مَعْلُومٌ نِفَاقُهُ. وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ
فِي الصَّفِّ". [رَوَاهُ مُسْلِمٌ]

وكثير من فقهاء المتأخرين من الحنفية والشافعية والمالكية يرون
استحباب صلاة الجماعة في المسجد، ومذهبهم -وإن كان لهم
سلف فيه- إلا أنه يخالف مذهب أئمتهم وظواهر الأدلة.

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤)

{أَتَأْمُرُونَ} استفهام للتوبيخ والتقريع والإنكار، ويتولد منه معنى التعجب من حال الموبخ وذلك لأن الحالة التي وبخوا عليها حالة عجيبة لما فيها من إرادة الخير للغير وإهمال النفس منه فحقيق بكل سامع أن يعجب منها.

وأتى بالمضارع **{أتأمرون}**، وإن كان قد وقع ذلك منهم للدلالة على الديمومة وكثرة التلبس بالفعل.

{النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ} وعبر عن ترك فعلهم بالنسيان مبالغة في الترك، فكأنه لا يجري لهم على بال، وعلق النسيان بالأنفس تأكيداً للمبالغة في الغفلة المفرطة. فيقبح في العقول أن يأمر الإنسان بخير وهو لا يأتيه، وأن ينهى عن سوء وهو يفعله.

وقد ترى الواحد منهم يأمر أقاربه باتباع الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ويقول: إنه حق؛ لكن تمنعه رئاسته، وجاهه أن يؤمن به؛ ومن أمثلة ذلك ما رواه أبو داود عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ غُلَامًا مِنَ الْيَهُودِ كَانَ مَرِضَ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَعُودُهُ فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ: (أَسْلِمَ) فَنَظَرَ إِلَى أَبِيهِ وَهُوَ عِنْدَ

رَأْسِهِ فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: "أَطِعْ أَبَا الْقَاسِمِ" فَأَسْلَمَ، فَقَامَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ: (يَقُولُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ)
وسبب هذا التوبيخ والتعجب وجوه:

الأول: أن المقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إرشاد الغير إلى تحصيل المصلحة، وتحذيره عما يوقعه في المفسدة، والإحسان إلى النفس أولى من الإحسان إلى الغير.
الثاني: أن من وعظ الناس، وأظهر علمه للخلق، ثم لم يتعظ صار ذلك الوعظ سبباً لرغبة الناس في المعصية؛ لأن الناس يقولون: إنه مع هذا العلم لولا أنه مُطَّلِع على أن الامتناع عنها محال عملياً لما انزلق في المعصية.

الثالث: العالم إذا خالف صار أشد لوماً من الجاهل، وهذا أمر فُطر الناس عليه؛ فتجد العامة إذا فعل العالم منكراً قالوا: كيف تفعل هذا وأنت رجل عالم؟! أو إذا ترك واجباً قالوا: كيف تترك هذا وأنت عالم?!.

الرابع: إذا كان الواعظ زاجراً عن المعصية، ويأتي بفعل يوجب الجرأة على المعصية، فكأنه جمع بين المتناقضين، وذلك لا يليق بالعاقل.

الخامس: أن من وعظ، فلا بد وأن يجتهد في أن يصير وعظه نافذاً في القلوب، والإقدام على المعصية مما يُنقّر القلوب عن القبول.

قال عليّ كرم الله وجهه: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك، وجاهل متنسك.

وقال السلمي: أتطالبون الناس بحقائق المعاني، وأنتم قلوبكم خالية عن ظواهر رسومها؟!

وقال القشيري: أتحرّضون الناس على البدار وترضون بالتخلف؟ وقال: أتدعون الخلق إلينا وتقعّدون عنا؟!

وقال أبو عمرو بن مطر: حضرت مجلس أبي عثمان الحيريّ الزاهد فخرج وقعد على موضعه الذي كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال سكوته، فناداه رجل كان يعرف بأبي العباس: ترى أن تقول في سكوتك شيئاً؟ فأنشأ يقول:

وَعَيْرُ تَقِيٍّ يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتَّقَى ... طَيْبٌ يُدَاوِي وَالطَّيِّبُ مَرِيضٌ
قال: فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه جاءه رجل فقال له: يا ابن عباس إني أريد أن آمر بالمعروف، وأنهي عن المنكر، فقال ابن

عباس: أو بلغت ذلك؟ فقال أرجو، قال: فإن لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب الله فافعل، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ} [البقرة: ٤٤]، وقوله تعالى: {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: ٣]، وقوله تعالى عن العبد الصالح شعيب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ} [هود: ٨٨]

واعلم أن التحقيق أن هذا الوعيد الشديد، ليس على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنما هو على ارتكابه المنكر عالماً بذلك، ينصح الناس عنه، فالحق أن الأمر بالمعروف غير ساقط عن صالح ولا طالح، والوعيد على المعصية، لا على الأمر بالمعروف، لأنه في حد ذاته ليس فيه إلا الخير.

فلو ترك الأمر بالمعروف مع تركه فعله ارتكب جنايتين: الأولى: ترك الأمر بالمعروف؛ والثانية: عدم قيامه بما أمر به؛ وكذلك لو أنه ارتكب ما يُنهى عنه، ولم يَنْهَ عنه فقد ارتكب مفسدتين: الأولى: ترك النهي عن المنكر؛ والثانية: ارتكابه للمنكر.

ولهذا نقول: مُرَّ بالمعروف، وجاهد نفسك على فعله، وأنه عن

المنكر، وجاهد نفسك على تركه.

قال القرطبي: "احتجّت المبتدعة بقوله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ}، وقوله تعالى: {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} على أنه يشترط فيمن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر أن يكون عدلاً.

قال: وهذا استدلال ساقط؛ لأن الذم هاهنا إنما وقع على ارتكاب ما نهى عنه لا عن نهيه عن المنكر، ولا شك أن النهي عن المنكر ممن يأتيه أقبح ممن لا يأتيه، وأيضاً فإن العدالة محصورة في القليل من الناس، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عام في جميع الناس".

{وَأَنْتُمْ تَسْلُونَ} التلاوة: التابع، ومنه القراءة وتلاوة القرآن، لأنّ القارئ يُتبع كلماته بعضها ببعض. ومنه: {وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا} [الشمس: ٢]

{الْكِتَابِ} أي أنكم مباشروا الكتاب وقارئوه، وعالمون بما انطوى عليه، وهذا من شأنه أن يذكرهم بمخالفة حالهم لما يتلونه. فكيف امتثلتموه بالنسبة إلى غيركم؟ وخالفتموه بالنسبة إلى أنفسكم؟ كقوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [آل عمران: ٧١]

{أَفَلَا تَعْقِلُونَ} العقل: الإدراك المانع من الخطأ، ومنه عقل البعير، يمنعه من التصرف، والعقل: الدّية لأن جنسها إبل تعقل في فناء الولي، أو لأنها تمنع من قتل الجاني.

ووجه المشابهة بين حالهم وحال من لا يعقلون أن من يستمر به التغفل عن نفسه وإهمال التفكير في صلاحها مع مصاحبة شيئين يذكرانه، قارب أن يكون منفيًا عنه التعقل.

فنبههم على أن فيهم إدراكاً شريفاً يمنعهم من قبيح ما ارتكبه من أمر غيرهم بالخير ونسيان أنفسهم عنه، وإن هذه حالة من سلب العقل، إذ العاقل ساع في تحصيل ما فيه نجاته وخلاصه أولاً، ثم يسعى بعد ذلك في خلاص غيره.. أبدأ بنفسك ثم بمن تعول. ومركوز في العقل أن الإنسان إذا لم يحصل لنفسه مصلحة، فكيف يحصلها لغيره؟

والآية جملة اعتراض بين قوله: **{وَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ}** [البقرة: ٤٣] وقوله: **{وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ}** [البقرة: ٤٥] ووجه المناسبة في وقوعه هنا أنه لما أمرهم بفعل شعائر الإسلام من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وذيل ذلك بقوله: **{وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}** ليشير إلى صلاتهم التي يفعلونها، أصبحت لا تغني عنهم، ناسب أن يزداد

لذلك أن ما يأمر به دينهم من البر ليسوا قائمين به على ما ينبغي، فجيء بهذا الاعتراض، وللتنبية على كونه اعتراضا لم يقرن بالواو لئلا يتوهم أن المقصود الأصلي التحريض على الأمر بالبر وعلى ملازمته، والغرض من هذا هو النداء على كمال خسارتهم ومبلغ سوء حالهم الذي صاروا إليه حتى صاروا يقومون بالوعظ والتعليم كما يقوم الصانع بصناعته والتاجر بتجارته لا يقصدون إلا إيفاء وظائفهم الدينية حقها ليستحقوا بذلك ما يعوضون عليه من مراتب ورواتب فهم لا ينظرون إلى حال أنفسهم تجاه تلك الأوامر التي يأمرون بها الناس.

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ
(٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ
(٤٦)

{وَاسْتَعِينُوا} الاستعانة: طلب المعونة، أي استعينوا على أموركم
{بِالصَّبْرِ} الصبر: حبس النفس على المكروه، وقدم الصبر على الصلاة، قيل: لأن تأثير الصبر في إزالة ما لا ينبغي، وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي، والنفي مقدم على الإثبات.

وحسبك بمزية الصبر أن الله جعله مكمل سبب الفوز في قوله
تعالى {وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر]

قال أهل العلم: والصبر ثلاثة أنواع؛ -وأخذوا هذا التقسيم من
الاستقراء-:

الأول: الصبر على طاعة الله؛ والثاني: الصبر عن معصية الله؛
والثالث: الصبر على أقدار الله.

فالصبر على الطاعة هو أشقها وأفضلها؛ لأن الصبر على الطاعة
يتضمن فعلاً وكفاً اختيارياً: فعل الطاعة؛ وكف النفس عن التهاون
بها، وعدم إقامته؛ فهو إيجابي إيجابي.

والصبر عن المعصية ليس فيه إلا كف فقط؛ لكنه أحياناً يكون
شديداً على النفس؛ ولهذا جعل النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
الشاب الذي دعت امرأته ذات منصب وجمال، فقال: "إني أخاف
الله" في رتبة الإمام العادل من حيث إن الله يظله في ظله يوم لا ظل
إلا ظله. وإن كان الإمام العادل أفضل؛ لأن قوة الداعي في
الشباب، وكون المرأة ذات منصب وجمال، وانتفاء المانع فيما إذا
كان خالياً بها يوجب الوقوع في المحذور؛ لكن قال: "إني أخاف

الله"؛ ربما يكون هذا الصبر أشق من كثير من الطاعات؛ لكن نحن لا نتكلم عن العوارض التي تعرض لبعض الناس؛ إنما نتكلم عن الشيء من حيث هو؛ فالصبر على الطاعة أفضل من الصبر عن المعصية؛ والصبر عن المعصية أفضل من الصبر على أقدار الله؛ لأنه لا اختيار للإنسان في دفع أقدار الله؛ لكن مع ذلك قد يجد الإنسان فيه مشقة عظيمة؛ ولكننا نتكلم ليس عن صبر معين في شخص معين؛ قد يكون بعض الناس يفقد حبيبه أو ابنه أو زوجته، أو ما أشبه ذلك، ويكون هذا أشق عليه من كثير من الطاعات من حيث الانفعال النفسي؛ والصبر على أقدار الله ليس من المكلف فيه عمل؛ لأن ما وقع لا بد أن يقع. صبرت، أم لم تصبر.

{وَالصَّلَاةُ} تكون عوناً إذا أتى بها على وجه كامل. وهي التي يكون فيها حضور القلب، والقيام بما يجب فيها أما صلاة غالب الناس اليوم فهي صلاة جوارح لا صلاة قلوب؛ ولهذا تجد الإنسان من حين أن يكبر يفتح عليه أبواب واسعة عظيمة من الهواجس التي لا فائدة منها؛ ولذلك من حين أن يسلم تنجلي عنه وتذهب؛ لكن الصلاة الحقيقية التي يشعر الإنسان فيها أنه قائم بين يدي الله، وأنها روضة فيها من كل ثمرات العبادة لا بد أن يسلو بها عن

كل هم؛ لأنه اتصل بالله عز وجل الذي هو محبوبه، وأحب شيء إليه؛ ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ) [النسائي]؛ أما الإنسان الذي يصلي ليتسلى بها، لكن قلبه مشغول بغيرها فهذا لا تكون الصلاة عوناً له؛ لأنها صلاة ناقصة؛ فيفوت من آثارها بقدر ما نقص فيها، وكثير من الناس يدخل في الصلاة، ويخرج منها لا يجد أن قلبه تغير من حيث الفحشاء والمنكر. هو على ما هو عليه؛ لا لأن قلبه لذكر، ولا تحول إلى محبة العبادة.

وأما نتيجة الاستعانة بالصلاة، فقد أشار لها تعالى في آيات من كتابه، فذكر أن من نتائج الاستعانة بها النهي عما لا يليق، وذلك في قوله: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} [٢٩-٤٥]، وأنها تجلب الرزق وذلك في قوله: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى} [٢٠/١٣٢]؛ ولذا كان -صلى الله عليه وسلم- إذا حزبه أمر [نزل به أمر] بادر إلى الصلاة.

وإيضاح ذلك: أن العبد إذا قام بين يدي ربه يناجيه ويتلو كتابه هان عليه كل ما في الدنيا رغبة فيما عند الله. ورهبة منه فيتباعد عن كل ما لا يرضي الله فيرزقه الله ويهديه.

على أن في الصلاة سرا إلهيا لعله ناشئ عن تجلي الرضوان الرباني على المصلي فلذلك نجد للصلاة سرا عظيما في تجلية الأحزان وكشف غم النفس وهذا أمر يجده من راقبه من المصلين.

قال ابن عاشور: "خطاب لبني إسرائيل بالإرشاد إلى ما يعينهم على التخلق بجميع ما عدد لهم من الأوامر والنواهي الراجعة إلى التحلي بالمحامد والتخلي عن المذمات، له أحسن وقع من البلاغة .. فالأمر بالاستعانة بالصبر لأن الصبر ملاك الهدى فإن مما يصد الأمم عن اتباع دين قويم إلفهم بأحوالهم القديمة وضعف النفوس عن تحمل مفارقتها فإذا تدرعوا بالصبر سهل عليهم اتباع الحق. وأما الاستعانة بالصلاة فالمراد تأكيد الأمر بها الذي في قوله: **{وَأَقِمْوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ}** [البقرة: ٤٣] وهذا إظهار لحسن الظن بهم وهو طريق بديع من طرق الترغيب".

{وَأَنَّهَا} أي الصلاة **{لَكَبِيرَةٌ}** والمراد بالكبيرة هنا: الصعبة التي تشق على النفوس، وإطلاق الكبير على الأمر الصعب والشاق مجاز

مشهور في كلام العرب لأن المشقة من لوازم الأمر الكبير في حمله أو تحصيله، قال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} [البقرة: ١٤٣] وقال: {وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ} [الأنعام: ٣٥]. وقال: {كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ} [الشورى: ١٣]

{إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} الخشوع: قريب من الخضوع، وأصله: اللين والسهولة، وقيل: الاستكانة والتذلل.

والمعنى: وإنها لكبيرة على كل أحد إلا على الخاشعين، وهم المتواضعون المستكينون، وإنما لم تشق على الخاشعين، لأنها منطوية على أوصاف هم متحلون بها لخشوعهم من القيام لله والركوع له والسجود له والرجاء لما عنده من الثواب. فلما كان مآل أعمالهم إلى السعادة الأبدية، سهل عليهم ما صعب على غيرهم من المنافقين والمرائين بأعمالهم الذين لا يرجون لها نفعاً.

فتحقيق العبادة لله سبحانه وتعالى بالخشوع له مما يسهل العبادة على العبد؛ فكل من كان لله أخشع كان لله أطوع؛ لأن

الخشوع خشوع القلب؛ والإخبات إلى الله تعالى، والإنابة إليه تدعو إلى طاعته.

{الَّذِينَ يَظُنُّونَ} يوقنون، والظنّ: ترجيح أحد الجانبين، وهو الذي يعبر عنه النحويون بالشك، وقد يطلق على التيقن، ومنه: **{إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ}** [الحاقة: ٢٠]

{أَنَّهُمْ مُّلاقُوا رَبِّهِمْ} الملاقاة: مفاعلة تكون من اثنين، لأن من لاقاك فقد لاقيته، وحمله الجمهور على ظاهره من غير حذف ولا كناية بأن اللقاء هو رؤية الباري تعالى، ولا لقاء أعظم ولا أشرف منها، وقد جاءت بها السنة المتواترة، وإلى اعتقادها ذهب أكثر المسلمين **{وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}**

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨)

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} أعيد نداؤهم ثانياً على طريق التوكيد، ولينبهوا لسماع ما يرد عليهم من تعداد النعم التي أنعم الله بها عليهم،

وتفصيلها نعمة نعمة، فالنداء الأول للتنبيه على طاعة المنعم، والنداء الثاني للتنبيه على شكر النعم.

وربما كان تعداد النعم مغنيا عن الأمر بالطاعة والامتثال لأن من طبع النفوس الكريمة امتثال أمر المنعم لأن النعمة تورث المحبة.

{اذْكُرُوا نِعْمَتِي} والنعمة هنا مراد بها جميع النعم، أراد "نعمي" فهي واحد بمعنى الجمع، كقوله تعالى: **{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}** [النحل: ١٨]

{الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} وهذا التذكير مقصود به الحث على الاتسام بما يناسب تلك النعمة ويستبقي ذلك الفضل.

{وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ} وهو من عطف الخاص على العام لأن النعمة اندرج تحتها التفضيل المذكور، وهو ما انفردت به الواو دون سائر حروف العطف.

{عَلَى الْعَالَمِينَ} أصل "عالمين" كل من سوى الله، كما قال تعالى: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [الفاتحة: ٢]؛ فليس ثم إلا رب ومربوب؛ العالم: مربوب؛ والله: رب؛ فالعالم من سوى الله؛ وسمي عالماً؛ لأنه عَلم على خالقه؛ فإن العالم من آيات الله سبحانه

وتعالى الدالة على كمال علمه، وقدرته، وسلطانه، وحكمته، وغير ذلك من معاني ربوبيته.

{فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} أي عالمي زمانهم، فآتاهم من النعم الدينية والدنيوية ما لم يؤت غيرهم من الناس، وذلك على عهد موسى عليه السلام وفي أزمنة صلاحهم واستقامتهم.

ومعنى هذا التفضيل أن الله قد جمع لهم من المحامد التي تتصف بها القبائل والأمم ما لم يجمعه لغيرهم وهي: شرف النسب. وكمال الخلق. وسلامة العقيدة. وسعة الشريعة. والحرية. والشجاعة. وعناية الله تعالى بهم في سائر أحوالهم. وقد أشارت إلى هذا آية **{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ}** [المائدة: ٢٠]

وهذه الأوصاف ثبتت لأسلافهم في وقت اجتماعها، وقد شاع أن الفضائل تعود على الخلف بحسن السمعة وإن كان المخاطبون يومئذ لم يكونوا بحال التفضيل على العالمين، ولكنهم ذكروا بما كانوا عليه فأن فضائل الأمم لا يلاحظ فيها الأفراد ولا العصور.

قال القشيري: أشهد بني إسرائيل فضل أنفسهم فقال: **{وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}**، وأشهد المسلمين فضل نفسه سبحانه وتعالى فقال: **{قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ}** [يونس: ٥٨] فشتان بين من مشهودة فضل ربه، ومن مشهودة فضل نفسه.

فالحاصل أن بني إسرائيل لا شك أفضل العالمين حينما كانوا عباد الله الصالحين؛ أما حين ضربت عليهم الذلة، واللعنة، والصغار فإنهم ليسوا أفضل العالمين؛ بل منهم القردة، والخنازير؛ وهم أذل عباد الله لقوله تعالى: **{ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بَأْنَهُمْ كَانُوا يُكْفَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}** [آل عمران: ١١٢]، وقوله تعالى: **{لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ}** [الحشر: ١٤].

{وَاتَّقُوا} وكأنهم لما أمروا بذكر النعم وتفضيلهم ناسب أن من أنعم عليه وفضل يكون محصلاً للتقوى **{يَوْمًا}** أي يوم القيامة.

والمعنى: أي اتخذوا وقاية من هذا اليوم بالاستعداد له بطاعة الله وتقواه.

{لَا تَجْزِي} الإجزاء: الإغناء والكفاية {نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ} تنكير النفس في الموضعين وهو في حيز النفي يفيد عموم النفوس، أي: لا يغني أحد كائنا من كان فلا تغني عن الكفار آلهتهم ولا صلحاؤهم على اختلاف عقائدهم في غناء أولئك عنهم {شَيْئاً} فلا تغني نفس عن نفس أخرى أي غنى ما دامت كافرة. وهو بمعنى قوله تعالى: {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} [الانفطار: ١٩]

وهذا عطف "التحذير على التذكير" فإنه لما ذكرهم بالنعمة وخاصة تفضيلهم على العالمين في زمانهم وكان ذلك منشأ غرورهم بأنه تفضيل ذاتي فتوهموا أن التقصير في العمل الصالح لا يضرهم فعقب بالتحذير من ذلك.

{وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ} الشفاعة: السعي والوساطة في حصول نفع أو دفع ضرر، ويقال لطالب الشفاعة مستشفع. وهي مشتقة من "الشَّفَع"، وهو الزوج، لأن الطالب أو التائب يأتي وحده فإذا لم

يجد قبولاً ذهب فأتى بمن يتوسل به فصار ذلك الثاني شافعاً للأول أي مصيره شفعاً. ومنها «الشُّفْعَةُ»؛ لأنها ضَمَّ ملك إلى غيره.

وظاهر هذه الآية عدم قبول الشفاعة مطلقاً يوم القيامة، ولكنه بين في مواضع آخر أن الشفاعة المنفية هي الشفاعة للكفار، والشفاعة لغيرهم بدون إذن رب السماوات والأرض.

أما الشفاعة للمؤمنين بإذنه فهي ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع. فنص على عدم الشفاعة للكفار بقوله: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} [الأنبياء: ٢٨]، وقد قال: {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} [الزمر: ٧]. وقال تعالى عنهم مقرراً له: {فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ} [الشعراء: ١٠٠]. وقال: {فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ} [المدثر: ٤٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال في الشفاعة بدون إذنه: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [البقرة: ٢٥٥] وقال: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [النجم: ٢٦]. وقال: {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} [طه: ١٠٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

وادعاء شفعاء عند الله للكفار أو بغير إذنه، من أنواع الكفر به
جل وعلا، كما صرح بذلك في قوله: {وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ
اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [يونس: ١٨].

هذا الذي قررناه من أن الشفاعة للكفار مستحيلة شرعا مطلقا،
يستثنى منه شفاعته -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لعمه أبي طالب في
نقله من محل من النار إلى محل آخر منها، كما ثبت عنه -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الصحيح فهذه الصورة التي ذكرنا من
تخصيص الكتاب والسنة.

{وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ} فداء تعاض به، لأن الفادي يعدل
المفدي بمثله في القيمة أو العين ويسويه به، كمال قال تعالى: {يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا
فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ
الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا.. }
[المائدة: ٩٥] أو كفارة أن يشتري بقيمة مثل الصيد طعامًا يهديه
لفقراء الحرم لكل مسكين نصف صاع، أو يصوم بدلا من ذلك يوما
عن كل نصف صاع من ذلك الطعام.

{وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} بدفع العذاب عنهم.

وقد كانت اليهود تتوهم أو تعتقد أن نسبتهم إلى الأنبياء وكرامة أجدادهم عند الله تعالى مما يجعلهم في أمن من عقابه على العصيان والتمرد كما هو شأن الأمم في إبان جهالتها وانحطاطها، وقد أشار إلى هذا قوله تعالى: **{وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ}** [المائدة: ١٨].

وهذا التأييس يستتبع تحقير من توهمهم الكفرة شفعاء، وإبطال ما زعموه مغنيا عنهم من غضب الله من قرابين قربوها ومجادلات أعدوها وقالوا: **{هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ}** [يونس: ١٨] **{يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا}** [النحل: ١١١]

وترتيب هذه الجمل في غاية الفصاحة، وهي على حسب الواقع في الدنيا، لأن المأخوذ بحق، إما أن يؤدي عنه الحق فيخلص، أو لا يقضى عنه فيشفع فيه، أو لا يشفع فيه فيفدى، أو لا يفدى فيتعاون بالإخوان على تخليصه. فهذه مراتب يتلو بعضها بعضاً. فلهذا -والله أعلم- جاءت مترتبة في الذكر هكذا.

ولما كان الأمر مختلفاً عند الناس في الشفاعة والفدية، فمن يغلب عليه حب الرياسة قدم الشفاعة على الفدية، ومن يغلب عليه

حب المال قدم الفدية على الشفاعة، جاءت هذه الجمل هنا مقدماً
فيها الشفاعة، وجاءت الفدية مقدمة على الشفاعة في جملة أخرى
{وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا
تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} [البقرة: ١٢٣]، ليدل ذلك على
اختلاف الأمرين.

وبدء هنا بالشفاعة، لأن ذلك أليق بعلو النفس، وجاء هنا بلفظ
القبول، وهناك بلفظ النفع، إشارة إلى انتفاء أصل الشيء، وانتفاء ما
يترتب عليه.

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ
رَّبِّكُمْ عَظِيمٍ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا
آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠)

{وَإِذْ} اذكروا وقت {نَجَّيْنَاكُمْ} أصله: "ألقيناكم على النجاة"
وهو ما ارتفع واتسع من الأرض، ثم سمي كل فائز ناجياً كأنه خرج
من الضيق والشدة إلى الرخاء والراحة.

وخرج بقوله: أنجيناكم إلى ضمير المتكلم المعظم نفسه من ضمير المتكلم الذي لا يدل على تعظيم، لأن هذا الفعل الذي هو الإنجاء من عدوهم، هو من أعظم أو أعظم النعم، فناسب الأعظم نسبته للمعظم نفسه.

والمعنى نجينا أسلافكم وآباءكم فأعتدّها منّة عليهم؛ لأنّهم نجوا بنجاتهم، ومآثر الآباء مفاخر الأبناء، فعدى فعل {أنجيناً} إلى ضمير المخاطبين مع أن التنجية إنما كانت تنجية أسلافهم لأنّ تنجية أسلافهم تنجية للخلف، فإنه لو بقي أسلافهم في عذاب فرعون لكان ذلك لاحقاً لأخلافهم فلذلك كانت منّة التنجية منّتين: منّة على السلف، ومنّة على الخلف، فوجب شكرها على كل جيل منهم، ولذلك أوجبت عليهم شريعتهم الاحتفال بما يقابل أيام النعمة عليهم من أيام كل سنة وهي أعيادهم، وقد قال الله لموسى: **{وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ}** [إبراهيم: ٥]

فائدة: كل ما ذكر في هذه السور من الأخبار معجزات للنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ لأنه أخبر بها من غير تعلم.

{مَنْ آل} أصل آل أهل قلبت هاؤه همزة تخفيفاً ليتوصل بذلك إلى تسهيل الهمزة مدا **{فِرْعَوْن}** علم لمن ملك القبط

ومصر، كما قيل: قيصر لمن ملك الروم، وكسرى لمن ملك الفرس،
والنجاشي لمن ملك الحبشة، وتُبّع لمن ملك اليمن، وقد اشتق
منه: تفرعن الرجل، إذا تجبر وعتا.

والأهل والآل يراد به الأقارب والعشيرة والموالي وخاصة
الإنسان وأتباعه. والمراد من آل فرعون وَزَعْتُهُ وَوُكَلَاؤُهُ، ويختص
الآل بالإضافة إلى ذي شأن وشرف دنيوي ممن يعقل فلا يقال آل
الجاني ولا آل مكة، ولما كان فرعون في الدنيا عظيما وكان
الخطاب متعلقا بنجاة دنيوية من عظيم في الدنيا أطلق على أتباعه
آل فلا تَوَقَّفَ في ذلك حتى يحتاج لتأويله بقصد التهكم كما أُوِّلَ
قوله تعالى: {أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} [غافر: ٤٦] لأن
ذلك حكاية لكلام يقال يوم القيامة وفرعون يومئذ محقر، هلك عنه
سلطانه.

وإنما جعلت النجاة من آل فرعون ولم تجعل من فرعون مع أنه
الآمر بتعذيب بني إسرائيل تعليقا للفعل بمن هو من متعلقاته على
طريقة الحقيقة العقلية، وتنبيها على أن هؤلاء الْوَزَعَةُ والمكلفين بني
إسرائيل كانوا يتجاوزون الحد المأمور به في الإعانت على عادة
المنفذين فإنهم أقل رحمة وأضيق نفوسا من ولاية الأمور، كما قال

الشاعر الراعي [لقب الراعي لكثرة وصفه للإبل] يخاطب الخليفة
عبد الملك بن مروان:

إن الذين أمرتهم أن يعدلوا ... لم يفعلوا مما أمرت فتيلا
جاء في التاريخ أن مبدأ استقرار بني إسرائيل بمصر كان سببه
دخول يوسف -عليه السلام- في تربية طيفار كبير شرط فرعون،
وكانت مصر منقسمة إلى قسمين: مصر العليا الجنوبية المعروفة
اليوم بالصعيد لحكم فراعنة من القبط وقاعدتها «طيبة»، ومصر
السفلى وهي الشمالية وقاعدتها «منفيس» وهي القاعدة الكبرى
التي هي مقر الفراعنة وهذه قد تغلب عليها العمالقة من الساميين
أبناء عم ثمود وهم الذين يلقبون في التاريخ المصري بالرعاة
الرحالين وبالهكسوس في سنة ٣٣٠٠ أو سنة ١٩٠٠ قبل
المسيح على خلاف ناشئ عن الاختلاف في مدة بقائهم بمصر
الذي انتهى سنة ١٧٠٠ ق.م، عند ظهور العائلة الثامنة عشرة.

فكان يوسف عند رئيس شرط فرعون العَمَلِيقي، وكان ذلك في
حدود سنة ١٧٣٩ قبل ميلاد المسيح، ثم كانت سكنى بني
إسرائيل مصر بسبب تنقل يعقوب وأبنائه إلى مصر حين ظهر أمر
يوسف وصار بيده حكم المملكة المصرية السفلى.

وكانت معاشرة الإسرائيليين للمصريين حسنة زمنا طويلا، غير أن الإسرائيليين قد حافظوا على دينهم ولغتهم وعاداتهم فلم يعبدوا آلهة المصريين وسكنوا جميعا بجهة يقال لها أرض جاسان، ومكث الإسرائيليين على ذلك نحو من أربعمئة سنة تغلب في خلالها ملوك المصريين على ملوك العمالة وطردهم من مصر حتى ظهرت في مصر العائلة التاسعة عشرة، وملك ملوكها جميع البلاد المصرية، ونبغ فيهم رمسيس الثاني الملقب بالأكبر في حدود سنة ١٣١١ قبل المسيح، وكان محاربا باسلا وثار في وجهه الممالك التي أخضعها أبوه ومنهم الأمم الكائنة بأطراف جزيرة العرب، فحدثت أسباب أو سوء ظنون أوجبت تنكر القبط على الإسرائيليين وكلفوهم أشق الأعمال وسخروهم في خدمة المزارع والمباني وصنع الآجر.

وتقول التوراة إنهم بنوا لفرعون مدينة مَخَازِنَ (فَيْثُومَ) ومدينة (رَعْمِيسَ) ثم خشي فرعون أن يكون الإسرائيليون أعوانا لأعدائه عليه، فأمر باستئصالهم وكأنه اطلع على مساعدة منهم لأبناء نسبهم من العمالة والعرب، فكان يأمر بقتل آبائهم وسبي نسائهم وتسخير كبارهم، ولا بد أن يكون ذلك لما رأى منهم من التنكر، أو

لأن القبط لما أفرطوا في استخدام العبرانيين علم فرعون أنه إن اختلطت جيوشه في حرب لا يسلم من ثورة الإسرائيليين فأمر باستئصالهم.

وأما ما يحكيه القصاصون أن فرعون أخبره كاهن أن ذهاب ملكه يكون على يد فتى من إسرائيل فلا أحسبه صحيحا إذ يبعد أن يروج مثل هذا على رئيس مملكة فيفني به فريقا من رعاياه، اللهم إلا أن يكون الكهنة قد أغروا فرعون باليهود قصدا لتخليص المملكة من الغرباء أو تفرسوا من بني إسرائيل سوء النوايا فابتكروا ذلك الإنباء الكهنوتي لإقناع فرعون بوجوب الحذر من الإسرائيليين، ولعل ذبح الأبناء كان من فعل المصريين استخفافا باليهود، فكانوا يقتلون اليهودي في الخصام القليل كما أنبأت بذلك آية {فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ} [القصص: ١٥] والحاصل أن التاريخ يفيد على الإجمال أن عداوة عظيمة نشأت بين القبط واليهود آلت إلى أن استأصل القبط الإسرائيليين.

ولقد أبدع القرآن في إجمالها إذ كانت تفاصيل إجمالها كثيرة لا يتعلق غرض التذكير ببيانها. [التحرير والتنوير]

{يَسْؤُمُونَكُمْ} يكلفونكم ويلزمونكم به، وقيل: يزيدونكم على سوء العذاب وهو استعارة من السوم في البيع، إنما هو أن يزيد البائع المشتري على ثمن، ويقل المشتري عن الثمن. وقيل من "السوم" وهو الرعي؛ ومنه السائمة. أي: الراعية. والمعنى: أنهم لا يرفعونكم إلا بهذا البلاء العظيم. وقيل من الوسم، أي: يعلمونكم من العلامة، ومعناه: أن الأعمال الشاقة لكثرة مزاولتها تصير عليهم علامة بتأثيرها في جلودهم وملابسهم، كالحدادة والنجارة.

{سُوءَ الْعَذَابِ} أشقه وأصعبه، وحكي أن فرعون جعل بني إسرائيل خدماً في الأعمال من البناء والزراعة والخدمة، ومن لم يكن منهم في عمل من هذه الأعمال فعليه الجزية، فذوو القوة ينحتون السواري من الجبال حتى قرحت أعناقهم وأيديهم ودبرت ظهورهم من قطعها ونقلها، وطائفة ينقلون له الحجارة والطين ويبنون له القصور، وطائفة يضربون اللبن ويطبخون الآجر، وطائفة نجارون وحدادون، والضعفة جعل عليهم الخراج ضريبة يؤدونها كل يوم. فمن غربت عليه الشمس قبل أن تؤديها غلت يده إلى عنقه شهراً. والنساء يغزلن الكتان وينسجن.

{يُذَبِّحُونَ} التشديد للتكثير **{أَبْنَاءُكُمْ}** لخوف فرعون من ذهاب ملكه على يد مولود من بني إسرائيل. والمراد بالأبناء: الأطفال الذكور، يقال: إنه قتل أربعين ألف صبي.

والجملة في موضع «بدل البعض» تخصيصاً لأعظم أحوال سوء العذاب بالذكر، وهذا هو الذي يطابق آية سورة إبراهيم [٦] التي ذكر فيها **{وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ}** بالعطف على **{سُوءَ الْعَذَابِ}**.

قال ابن عثيمين: وجاء في سورة إبراهيم: **{يَسْأَلُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ}** بالواو عطفاً على قوله تعالى: **{يسألونكم}**؛ والعطف يقتضي المغايرة؛ فيكون المعنى أنهم جمعوا بين سوم العذاب وهو التنكيل والتعذيب، وبين الذبح.

{وَيَسْتَحْيُونَ} يستبقون، والاستحياء استفعال يدل على الطلب للحياة أي يقونهن أحياء أو يطلبون حياتهن **{نِسَاءَكُمْ}** يتركون بناتكم أحياء للخدمة، وكلّ فرعون بذلك القوابل، وإنما سمّي الصغار نساءً، على معنى أنهنّ يبقين حتّى يصرنّ نساءً. وإنما كان استبقاء النساء من سوء العذاب، لأنهم كانوا يستبقونهن للاسترقاق والخدمة، فصار ذلك هو سوء العذاب، لا الاستبقاء.

{وَفِي ذَلِكُمْ} إشارة إلى ذبح الأبناء واستحياء النساء **{بَلَاءٌ}**

البلاء: الاختبار بالخير والشر، قال تعالى: **{وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ}** [الأعراف: ١٦٨] وقال **{وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً}** [الأنبياء: ٣٥] وهو مجاز مشهور حقيقته «بلاء الثوب» وهو تخلقه وترهله، ولما كان الاختبار يوجب الضجر والتعب سمي بلاء كأنه يخلق النفس، ثم شاع في اختبار الشر لأنه أكثر إغناة للنفس، فأشهر استعماله إذا أطلق أن يكون للشر فإذا أرادوا به الخير احتاجوا إلى قرينة أو تصريح كقولهم: خير البلاء، فيطلق البلاء غالباً على المصيبة التي تحل بالعبد لأن بها يختبر مقدار الصبر والأناة.

{مَنْ رَبَّكُمْ} دليل على أن الخير والشر من الله تعالى، بمعنى أنه خالقهما.

{عَظِيمٌ} يقال إنه سخرهم فبنوا سبعة حوائط جائعة أكبادهم عارية أجسادهم، وذبح منهم أربعين ألف صبي. فأى ابتلاء أعظم من هذا، وكونه عظيماً هو بالنسبة للمخاطب والسامع، لا بالنسبة إلى الله تعالى، لأنه يستحيل عليه اتصافه بالاستعظام.

قال القشيري: "من صبر في الله على بلاء الله عوضه الله صحبة أوليائه. هؤلاء بنو إسرائيل صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه، فجعل منهم أنبياء، وجعل منهم ملوكاً، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين". ولم تنزل النعم تمحو آثار النقم

{وَإِذْ} واذكروا إذ **{فَرَقْنَا}** وأصل الفرق الفصل بين الشيئين، ومنه فرق الشعر، ومنه الفرقان **{وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ}** [آل عمران: ٤] الكتب الفاصلة بين الحق والباطل، ومنه **{فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا}** [المرسلات: ٤] يعني الملائكة تنزل بالفرق بين الحق والباطل، ومنه **{يَوْمَ الْفُرْقَانِ}** [الأنفال: ١٤] يعني يوم بدر، كان فيه فرق بين الحق والباطل، ومنه **{وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ}** [الإسراء: ١٠٦] أي فصلناه وأحكمناه.

{بِكُمُ الْبَحْرِ} مكان مطمئن من الأرض يجمع المياه، ويجمع في القلة على أبحر، وفي الكثرة على بحور وبحار، وأصله قيل: الشق، وقيل: السعة والانبساط.

فمن الأول: البحيرة، وهي التي شقت أذنّها، ومن الثاني: البحيرة، المدينة المتسعة، وتبحر في العلم: أي اتسع، وفرس بحر: واسع العدو، ومن ذلك قول رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

في فرس أبي طلحة الذي يقال له مَنْدُوب: (وإن وجدناه لبحرا) والبحر أيضا الماء المالح، لكن جاء استعماله في الماء الحلو والماء المالح، قال تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} [فاطر: ١٢] واستعماله للمالح هو الأصل والأشهر. والبحر المذكور هنا: هو بحر القلزم، وهو البحر الأحمر اليوم.

{فَأَنْجَيْنَاكُمْ} فيه بيان قدرة الله تعالى على كل شيء؛ فهذا الماء السيل أمره الله -تبارك وتعالى- أن يتمايز، وينفصل بعضه عن بعض؛ فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم. أي كالجبل العظيم؛ وثم وجه آخر من هذه القدرة: أن هذه الطرق صارت ييساً في الحال مع أنه قد مضى عليها سنون كثيرة لا يعلمها إلا الله عز وجلّ والماء من فوقها، ولكنها صارت في لحظة واحدة ييساً، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لَا تَخَافُ دَرْكاً وَلَا تَخْشَى} [طه: ٧٧]؛ وقد ذكر بعض المفسرين أنه كانت في هذه الفرق فتحات ينظر بعضهم إلى بعض. حتى لا ينزعجوا، ويقولوا: أين أصحابنا؟! وهذا ليس ببعيد على الله سبحانه وتعالى.

{وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ} زيادة في التفصيل بذكر نعمة أخرى عظيمة خارقة للعادة بها كان تمام الإنجاء من آل فرعون، وفيها بيان مقدار إكرام الله تعالى لهم، ومعجزة لموسى عليه السلام. ولم يذكر في هاته الآية غرق فرعون لأن محل المنة هو إهلاك الذين كانوا مباشرين لتسخير بني إسرائيل وتعذيبهم والذين هم قوة فرعون، وقد ذكر غرق فرعون في آيات أخرى.

{وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} وهذا الحال زيادة في تقرير النعمة وتعظيمها، فإن مشاهدة المنعم عليه للنعمة لذة عظيمة لاسيما مشاهدة إغراق العدو، كما أن مشاهدة فرق البحر نعمة عظيمة لما فيها من مشاهدة معجزة تزيدهم إيماناً، وحادث لا تتأتى مشاهدته لأحد.

وإسناد النظر إليهم باعتبار أن أسلافهم كانوا ناظرين ذلك لأن النعمة على السلف نعمة على الأبناء لا محالة.

وَإِذْ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ (٥٣)

{وَإِذْ} واذكروا إذ **{وَأَعَدْنَا}** المراد من المواعدة هنا أمر الله تعالى موسى أن ينقطع أربعين ليلة لمناجاته، وإطلاق الوعد على هذا الأمر من حيث إن ذلك تشریف لموسى ووعد له بكلام الله وبإعطاء الشريعة.

وهذه المواعدة للتكلم، أو لإنزال التوراة. قال المهدوي: "وكان ذلك بعد أن جاوز البحر، وسأله قومه أن يأتيهم بكتاب من عند الله، فخرج إلى الطور في سبعين رجلاً من خيار بني إسرائيل، وصعد الجبل وواعدهم إلى تمام أربعين ليلة، فقعدوا فيما ذكره المفسرون عشرين يوماً وعشرة ليال، فقالوا: قد أخلفنا مواعده".

{مُوسَى} هو رسول الله تعالى إلى بني إسرائيل، وصاحب شريعة التوراة، وهو موسى بن عمران، ولم يذكر اسم جده، ولكن الذي جاء في التوراة أنه هو وأخوه هارون من سبط لاوى بن يعقوب.

ولد بمصر، وأمه تسمى "يوحانذ" وهي أيضاً من سبط لاوى وكان زوجها قد توفي حين ولدت موسى، وأخته كان اسمها مريم، وتبنته امرأة فرعون وسمته موسى، قيل إنه مركب من كلمة «مو» بمعنى الماء، وكلمة «شى» بِمَعْنَى الْمُنْقِذِ أو الشجر، وقد صارت في العربية موسى، والأظهر أن هذا الاسم مركب من اللغة العبرية لا

من القبطية، فلعله كان له اسم آخر في قصر فرعون وأنه غير اسمه بعد ذلك.

{أَرْبَعِينَ لَيْلَةً} بأيامها، وهي ذو القعدة وعشر من ذي الحجة. وكان ذلك بعد خلاصهم من قوم فرعون وإنجائهم من البحر.

ولم يبين هنا هل واعده إياها مجتمعة أو متفرقة؟ ولكنه بين في سورة الأعراف أنها متفرقة، وأنه واعده أولاً ثلاثين، ثم أتمها بعشر، وذلك في قوله تعالى: **{وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً}** [الأعراف: ١٤٢].

وتفسير الأربعين بالليلة دون اليوم، لأن شهور العرب وضعت على سير القمر، والهلال إنما يهل بالليل، فكان أول الشهر ليلة الهلال، وصارت الأيام تبعاً لليالي، أو لأن الظلمة أقدم من الضوء، وخلق الليل قبل النهار، قال تعالى: **{وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ}** [يس: ٣٧]

{ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ} إلها، وكان من ذهب.. وهو المقصود، وأما ما ذكر قبله فهو تمهيد وتأسيس لبنائه وتهويل لذلك الجرم وإظهارا لسعة عفو الله تعالى وحلمه عنهم. وتوسيط التذكير بالعفو

عن هذه السيئة بين ذكر النعم المذكورة مراعاة لترتيب حصولها في الوجود ليحصل غرضان غرض التذكير وغرض عرض تاريخ الشريعة. **{مِنْ بَعْدِهِ}** أي بعد غيبته في الطور.. وفائدة ذكر {من بعده}

لزيادة التشنيع بأنهم كانوا جديرين بانتظارهم الشريعة التي تريدهم كما لا بالنكوص على أعقابهم عما كانوا عليه من التوحيد والانغماس في نعم الله تعالى، وبأنهم كانوا جديرين بالوفاء لموسى فلا يحدثوا ما أحدثوا في مغيبه بعد أن رأوا معجزته وبعد أن نهاهم عن هاته العبادة لما قالوا له: **{اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ}** [الأعراف: ١٣٨]

وفائدة ذكر {مِنْ} للإشارة إلى أن اتخاذ ابتداء من أول أزمان بعدية مغيب موسى عليه السلام وهذه أيضا حالة غريبة لأن شأن التغير عن العهد أن يكون بعد طول المغيب على أنه ضعف في العهد.

{وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ} أي لا شبهة لكم في اتخاذه.. شتان بين أمة وأمة، فأمة موسى -عليه السلام- غاب نبينهم أربعين يوماً، فاتخذوا العجل معبودهم، ورضوا بأن يكون لهم بمثل العجل معبوداً **{فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ}** [طه: ٨١] وأمة محمد المصطفى -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مضى من وقت نبيهم سنون كثيرة فلو سمعوا واحداً يذكر في وصف معبودهم ما يوجب تشبيهاً لما أبقوا على حُشاشتهم [بقية الروح أو رمق الحياة]، ولو كان في ذلك ذهاب أرواحهم.

{ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ} أتى بها؛ لأن العفو إنما حصل حين تابوا إلى الله، وقتلوا أنفسهم.

وهو تذكير لهم بنعمة عفو الله عن جرمهم العظيم بعبادة غيره وذلك مما فعله سلفهم، فإسناد تلك الأفعال إلى ضمير المخاطبين باعتبار ما عطف عليه من قوله: **{ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ}** فإن العفو عن الآباء منة عليهم وعلى أبنائهم يجب على الأبناء الشكر عليه.

{لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} رجاء لحصول شكركم، وعدل عن لام التعليل -لتشكرون- إيماء إلى أن شكرهم مع ذلك أمر يتطرقه احتمال التخلف، فذكر حرف الرجاء دون حرف التعليل من بديع البلاغة، فتفسير لعل بمعنى لكي يفيد هذه الخصوصية.

والمعنى: أي لكي تشكروا عفوي عنكم وحسن صنيعي إليكم، وأصل الشكر هو تصور النعمة وإظهارها، وبضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها، والشكر على ثلاثة أضرب:

شكر القلب وهو تصور النعمة، وشكر اللسان وهو الشاء على النعمة، وشكر سائر الجوارح في السر والعلانية. ولذلك قال تعالى: **{اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا}** [سبأ: ١٣]

****** قيل الشكر لمن فوقك بالطاعة والثناء، ولنظير له بالمكافأة، ولمن دونه بالإحسان والإفضال.

****** وقال الشبلي: الشكر التواضع، والمحافظة على الحسنات، ومخالفة الشهوات، وبذل الطاعات، ومراقبة جبار الأرض والسموات.

قال سهل بن عبد الله: الشكر الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية في السر والعلانية.
وقال الفضيل: شكر كل نعمة أن لا يعصى الله بعدها بتلك النعمة.

وعن الجنيد قال: كنت بين يدي السري السقطي ألعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر فقال لي: يا غلام ما الشكر؟ فقلت: ألا يعصى الله بنعمه. فقال لي: أخشى أن يكون حظك من الله لسانك. قال الجنيد: فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري لي.

****** وقيل الشكر العجز عن الشكر.. قال الجنيد: حقيقة الشكر العجز عن الشكر.

وقال داود عليه السلام - سبحان من جعل اعتراف العبد بالعجز عن الشكر شكراً، كما جعل اعترافه بالعجز عن معرفته معرفة.

وقال موسى عليه السلام: كيف أشكرك وأصغر نعمة وضعتها بيدي من نعمك لا يجازي بها عملي كله، فأوحى الله إليه يا موسى الآن شكرتني.

****** وقيل شكر النعمة أن لا يراها ألبتة، ويرى المنعم. **{وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ}** التوراة، فهذا تذكير بنعمة نزول الشريعة التي بها صلاح أمورهم وانتظام حياتهم وتأليف جماعتهم مع الإشارة إلى تمام النعمة، وهم يعدونها شعار مجدهم وشرفهم لسعة الشريعة المنزلة لهم حتى كانت كتاباً فكانوا به أهل كتاب أي أهل علم تشريع.

وفيه فضيلة التوراة؛ لأنه أُطلق عليها اسم {الكتاب}؛ و "أل" هذه للعهد الذهني؛ فدل هذا على أنها معروفة لدى بني إسرائيل، وأنه إذا أُطلق الكتاب عندهم فهو التوراة؛ أيضاً سماها الله تعالى

الفرقان، كما سمي القرآن الفرقان؛ لأن كلا الكتابين أعظم الكتب، وأهداهما؛ لقوله تعالى: {قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [القصص: ٤٩] يعني: التوراة والقرآن؛ ودل هذا على أن التوراة مشاركة للقرآن في كونها فرقاناً؛ ولهذا كانت عمدة الأنبياء من بني إسرائيل، كما قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ} [المائدة: ٤٤]

{وَالْفُرْقَانُ} مشتق من «الْفَرْقِ» وهو الفصل، استعير لتمييز الحق من الباطل فهو وصف لغوي للتفرقة، فقد يطلق على كتاب الشريعة، وعلى المعجزة، وعلى نصر الحق على الباطل، وعلى الحجة القائمة على الحق وعلى ذلك جاءت آيات:

****{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ} [الفرقان: ١]** هو

القرآن فذكره باسمين تأكيداً. فالتوراة أيضاً لها صفتان: كونها كتاباً منزلاً، وكونها فرقاناً تفرق بين الحق والباطل.

كما قال: {وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ} [آل عمران: ٤] عطفًا على {نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} [آل عمران: ٣]

** وقوله: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ} [الأنبياء: ٤٨] أراد المعجزات لأن هارون لم يؤت وحيا.

** وقوله: { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ } [أنفال: ٤١] يعني يوم النصر يوم بدر، فالفرقان هنا النصر الذي فرّق الله به بين موسى وفرعون، حتى أنجى موسى وقومه، وأغرق فرعون وقومه.

{لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} هو محل المنة لأن إتيان الشريعة لو لم يكن لاهتدائهم وكان قاصرا على عمل موسى به لم يكن فيه نعمة عليهم.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)

{وَإِذْ} واذكروا يا بني إسرائيل حين **{قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ}** وهذا الخطاب هو محاوره موسى لقومه حين رجع من الميقات ووجدهم قد عبدوا العجل.

عدّ صاحب المنتخب هذا إنعاماً خامساً، وقيل: هذه الآية وما بعدها منقطعة مما تقدم من التذكير بالنعم، وذلك لأنه أمر بالقتل، والقتل لا يكون نعمة، وضُِعِفَ بأن من أعظم النعم التنبيه على ما به يتخلصون من عقاب الذنب العظيم، وهو التوبة. وإذا كان قد عدّ عليهم النعم الدنيوية، فلأن يعدد عليهم النعم الدينية أولى.

قال ابن عاشور: هذه نعمة أخرى وهي نعمة نسخ تكليف شديد عليهم كان قد جعل جابراً لما اقترفوه من إثم عبادة الوثن، فحصل العفو عنهم بدون ذلك التكليف فتمت المنّة، وبهذا صح جعل هذه منّة مستقلة بعد المنّة المتضمن لها قوله تعالى **{ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ}** [البقرة: ٥٢] لأن العفو عن المؤاخذه بالذنب في الآخرة قد يحصل مع العقوبة الدنيوية من حد ونحوه وهو حينئذ منّة إذ لو شاء الله لجعل للذنب عقابين دنيوي وآخرين كما كان الذنب للنفس والبدن ولكن الله برحمته جعل الحدود جوابر في الإسلام كما في الحديث الصحيح، فلما عفا الله عن بني إسرائيل على أن

يقتلوا أنفسهم فقد تفضل بإسقاط العقوبة الأخروية التي هي أثر الذنب، ولما نسخ تكليفهم بقتل أنفسهم فقد تفضل بذلك فصارت منتان.

{ يَا قَوْم } وإقبال موسى عليهم بالنداء، ونداؤه بلفظ يا قوم، مشعر بالتحنن عليهم، وأنه منهم، وهم منه، ولذلك أضافهم إلى نفسه، كما يقول الرجل: يا أخي، ويا صديقي، فيكون ذلك سبباً لقبول ما يلقي إليه، بخلاف أن لو ناداه باسمه، أو بالوصف القبيح الصادر منه.

فناداهم بوصف القومية تحبباً، وتودداً، وإظهاراً بأنه ناصح لهم؛ لأن الإنسان ينصح لقومه بمقتضى العادة.

وفيه أنه ينبغي للداعي إلى الله تعالى أن يستعمل الأسلوب الذي يجذب إليه الناس، ويعطفهم عليه؛ لقوله تعالى حكاية عن موسى: {يا قوم}؛ فإن هذا لا شك فيه من التودد، والتلطف، والتحبب ما هو ظاهر.

{ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ } نقصتم أنفسكم حقها؛ لأن "الظلم" في الأصل بمعنى النقص، كما قال الله تعالى: **{ كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا }** [الكهف: ٣٣] أي لم تنقص.

{أَنْفُسَكُمْ} أكد الجملة لبيان حقيقة ما هم عليه. وأي ظلم أعظم من اتخاذ إله غيره **{إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}** [لقمان: ١٣] ونص على أنهم ظلموا أنفسهم بذلك لأنه أفحش الظلم، لأن نفس الإنسان أحب شيء إليه، فإذا ظلمها، كان ذلك أفحش من أن يظلم غيره.

{بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ} إلهاً تعبدونه من دون الله؛ وهذا العجل كان من ذهب، وأن الذي فتن الناس به رجل يقال له: السامري. فلم يبين هنا من أي شيء هذا العجل المعبود من دون الله؟ ولكنه بين ذلك في مواضع أخر كقوله: **{وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ}** [الأعراف: ١٤٨]، وقوله: **{وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ}** [طه: ٨٧-٨٨]

ولم يذكر المفعول الثاني للاتخاذ في جميع القرآن وتقديره: باتخاذكم العجل إلهاً؛ كما أشار له في سورة "طه" بقوله: **{فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ، فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى}**

قال السلمي: عجل كل واحد نفسه، فمن أسقط مراده وخالف هواه فقد بريء من ظلمه.

{فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ} أي منشئكم وموجدكم من العدم، إذ موجد الأعيان هو الموجد حقيقة. وأما عمل العجل واتخاذ فليس فيه إبراز الذوات من العدم، إنما ذلك تأليف تركيب لا خلق أعيان، فنبهوا بلفظ الباري على الصانع، أي الذي أوجدكم هو المستحق للعبادة، لا الذي صنعه، مصنوع مثله.

قال الزمخشري: "فإن قلت: من أين اختص هذا الموضع بذكر الباري؟ قلت: الباري هو الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت، **{مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُتٍ}** [الملك: ٣] ومتميزاً بعضه من بعض بالأشكال المختلفة والصور المتباينة، فكان فيه تقريع بما كان منهم من ترك عبادة العالم الحكيم الذي برأهم بلطف حكمته على الأشكال المختلفة، أبرياء من التفاوت والتنافر إلى عبادة البقر التي هي مثل في الغباوة والبلادة. في أمثال العرب: «أبلد من ثور»، حتى عرّضوا أنفسهم لسخط الله ونزول أمره بأن يفك ما ركبه من خلقهم وينشر ما نظم من صورهم وأشكالهم حين لم يشكروا النعمة في ذلك وغطوها بعبادة من لا يقدر على شيء منها" انتهى كلامه.

وفيه أنه ينبغي التعبير بما يناسب المقام؛ لقوله: **{فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ}**؛ لأن ذكر "البارئ" هنا كإقامة الحجة عليهم في أن العجل لا يكون إلهاً؛ فإن الذي يستحق أن يكون إلهاً هو البارئ. أي الخالق سبحانه وتعالى.

{فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ} ما أمروا أن يقتل كل واحد منهم نفسه؛ بل يقتل بعضهم بعضاً؛ ونظير ذلك قوله تعالى: **{وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ}** [الحجرات: ١١] أي لا يعيب بعضكم بعضاً؛ وعبر عن ذلك بـ "النفس" ؛ لأن الأمة كنفس واحدة؛ فمن لمر أخاه فكمن لمر نفسه.

فالأنفس مراد بها الأشخاص كما في قوله تعالى: **{فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ}** [النور: ٦١] أي فليسلم بعضكم على بعض وقوله: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ}** [البقرة: ٨٤] أي لا يسفك بعضكم دماء بعض.

والمعنى: ليقتل البريء منكم المجرم، وكانت توبة بني إسرائيل قتل أنفسهم، وفي ذلك من الاتعاظ والاعتبار ما يوجب مبادرة الازدجار عن مخالفة الملك القهار.

وهذا تشريع حكم لا يكون مثله إلا عن وحي لا عن اجتهاد -
وإن جاز الاجتهاد للأنبياء- فإن هذا حكم مخالف لقاعدة «حفظ
النفوس» التي قد اتفقت عليها شرائع الله فهو يدل على أنه كلفهم
بقتل أنفسهم.

فلما أمرهم موسى بالقتل قالوا: نصبر لأمر الله فجلسوا بالأفنية
محتبين وقيل لهم: من مد حبوته أو مد طرفه إلى قاتله أو اتقاه بيد
أو رجل فهو ملعون مردودة توبته، وأصلت القوم عليهم الخناجر،
فكان الرجل يرى ابنه وأباه وأخاه وقريبه وصديقه وجاره فلم يمكنهم
المضي لأمر الله تعالى، قالوا: يا موسى كيف نفعل؟ فأرسل الله
تعالى عليهم ضباباً وسحابة سوداء لا يبصر بعضهم بعضاً فكانوا
يقتلونهم إلى المساء، فلما كثر القتل دعا موسى وهارون عليهما
السلام وبكيا وتضرعا وقالوا: يا رب هلكت بنو إسرائيل، البقية
البقية، فكشف الله تعالى السحابة وأمرهم أن يكفوا عن القتل
فتكشفت عن ألوف من القتلى.

يروى عن علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قال: "كان عدد القتلى
سبعين ألفاً، فاشتد ذلك على موسى فأوحى الله تعالى إليه: أما

يرضيك أن أدخل القاتل والمقتول الجنة، فكان من قتل منهم شهيدا ومن بقي مكفرا عنه ذنوبه".

وانظر إلى لطف الله بهذه الملة المحمدية، إذ جعل توبتها في الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم على عدم المعاودة إليه.

وأنكر المعتزلة هذه التوبة بالقتل، وهو مبني على قاعدتهم في الاعتزال من «مراعاة المصلحة». فقالوا: "وهذا لا يجوز أن يأمر الله به، لأن العبادات الشرعية إنما تحسن لكونها مصالح لذلك المكلف، ولا يكون مصلحة إلا في الأمور المستقبلية، وليس بعد القتل حال تكليف حتى يكون القتل مصلحة فيه، وهذا بخلاف ما يفعله الله من الإمامة، لأن ذلك من فعل الله تعالى، فيحسن أن يفعله إذا كان صلاحاً لمكلف آخر، وبخلاف أن يأمر الله بأن يجرح نفسه أو يقطع عضواً من أعضائه، ولا يحصل الموت عقبيه، لأنه لما بقي بعد ذلك الفعل حياً لم يمتنع أن يكون ذلك الفعل صلاحاً في الأفعال المستقبلية".

مع أنه يمكن أن يقال هنا بالمصلحة، لأن الأمر بالقتل ليس إلا من باب الزواجر والروادع، وليس من شرط ذلك اعتبار حال المكلف، بل يصنع الزواجر لازدجار غيره. وإذا فعل مثل هذا الفعل

العظيم الذي هو القتل بمن عبد العجل، اتعظ به غيره وانكف عن الوقوع فيما لا يكون التوبة منه إلا بالقتل.

{ذَلِكُمْ} أي قتل أنفسكم **{خَيْرٌ}** من العصيان والإصرار على الذنب **{لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ}** وكرر الباري باللفظ الظاهر تأكيداً، ولأنها جملة مستقلة فناسب الإظهار، وللتنبية على أن هذا الفعل هو راجح عند الذي أنشأكم، فكما رأى أن إنشاءكم راجح، رأى أن إعدامكم بهذا الطريق من القتل راجح، فينبغي التسليم له في كل حال، وتلقي ما يرد من قبله بالقبول والامثال.

{فَتَابَ عَلَيْكُمْ} أي فامثلتم ذلك فتاب عليكم **{إِنَّهُ هُوَ الثَّوَابُ}** أي كثير التوبة: لكثرة توبته على العبد الواحد، وكثرة توبته على التائبين الذين لا يحصيهم إلا الله، فهو يتوب في المرات المتعددة على عبده، ويتوب على الأشخاص الكثيرين الذين تكثر توبتهم **{الرَّحِيمُ}** أي ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء.

وفيه أنه ينبغي للإنسان أن يتعرض لما يقتضيه هذان الاسمان من أسماء الله تعالى؛ فيتعرض لتوبة الله، ورحمته؛ فيتوب إلى ربه سبحانه وتعالى، ويرجو الرحمة؛ وهذا هو أحد المعاني التي قال عنها رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ

اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَّنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ [البخاري]؛ فإن من إحصائها أن يتعبد الإنسان بمقتضاها.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧)

{وَإِذْ قُلْتُمْ} اذكروا أيضاً يا بني إسرائيل إذ قلتم...؛ والخطاب لمن كان في عهد الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لكن إنعامه على أول الأمة إنعام على آخرها؛ فصح توجيه الخطاب إلى المتأخرين مع أن هذه النعمة على من سبقهم.

{يَا مُوسَى} في نداء بني إسرائيل لنبيهم باسمه سوء أدب منهم معه، إذ لم يقولوا: يا نبي الله، أو يا رسول الله، أو يا كليم الله، أو غير ذلك من الألفاظ التي تشعر بصفات التعظيم، وهي كانت عاداتهم معه: **{يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ}**، **{يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ}** **{يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}**. وقد

قال الله تعالى لهذه الأمة المحمدية: **{ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا }** [النور: ٦٣]

{لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ} لن نصدّقك فيما جئت به من الوحي والتوراة، وليس في الآية ما يدل على أنهم كفروا حين قولهم هذا، ولكنها دالة على عجرتهم وقلة اكتراثهم بما أوتوا من النعم وما شاهدوا من المعجزات حتى راموا أن يروا الله جهرة وإن لم يروه دخلهم الشك في صدق موسى عليه السلام.

{حَتَّى نَرَى} نبصر **{اللَّهُ جَهْرَةً}** عيانا، من الجهر وهو الظهور الواضح، إما بحاسة البصر نحو رأيتَه جهارا، ومنه جهر البئر إذا أظهر مائه، وإما بحاسة السمع نحو **{وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ}** [طه: ٧] وكقولك: جهر بالقراءة وبالدعاء، أي أعلن بها فأريد بها نوع من الرؤية البصرية التي لا حجاب دونها ولا ساتر.

والمعنى: حتى نبصر الله عيانا، ووجه العدول عن أن يقول عيانا إلى قوله "جهرة" لأن جهرة أفصح لفظا لخفته، فإنه غير مبدوء بحرف حلق، والابتداء بحرف الحلق أتعب للحلق عند وقوعه في وسط الكلام، ولسلامته من حرف العلة، وكذلك يجتبي البلغاء

بعض الألفاظ على بعض لحسن وقعها في الكلام وخفتها على السمع، وللقرآن السهم المعلى في ذلك وهو في غاية الفصاحة. ولم يقولوا ذلك ويسألوا الرؤية إلا على سبيل التعنت، لأن رؤيته - عز وجل - لا تحصل إلا في الآخرة، فطلبها في الدنيا هو مستنكر.

وفيه أن من سأل ما لا يمكن فهو حري بالعقوبة؛ لقوله تعالى: **{فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ}**؛ لأن الفاء تدل على السببية. ولا سيما في مثل حال هؤلاء الذين قالوا هذا عن تشكك؛ وفرق بين قول موسى عليه السلام: **{رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ}** [الأعراف: ١٤٣]، وبين قول هؤلاء: **{لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}**؛ فموسى قال ذلك شوقاً إلى الله عز وجل، وليلتذذ بالرؤية إليه؛ أما هؤلاء فقالوه تشككاً. يعني: لسنا بمؤمنين إلا إذا رأيناه جهرة؛ ففرق بين الطالبين.

{فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ} نار من السماء أحرقتهم، وأجمع المفسرون على أن المدة من الموت أو الصعق كانت يوماً وليلة. **{وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}** أي ينظر بعضكم إلى بعض حين أخذكم الموت. فائدة التقييد بهذا الحال الدلالة على أن الصاعقة التي

أصابته نار الصاعقة لا صوتها الشديد لأن الحال دلت على أن الذي أصابهم مما يرى.

وفيه أن ألم العقوبة ووقعها إذا كان الإنسان ينظر إليها أشد؛ لقوله تعالى: **{وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}**؛ فإن الإنسان إذا رأى الناس يتساقطون في العقوبة يكون ذلك أشد وقعاً عليه.

قال بعضهم: لما أحلهم الله محل مناجاته، وأسمعهم لذيذ خطابه، اشرأبت نفوسهم للفخر وعلو المنزلة، فعاملهم الله بنقيض ما حصل في أنفسهم بالصعقة التي هي خضوع وتذلل تأديباً لهم وعبرة لغيرهم، **{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ}** [آل عمران: ١٣]

{ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ} تذكير بنعمة أخرى نشأت بعد عقاب على جفاء طبع **{مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ}** والبعث هنا: الإحياء، ذكر أنهم لما ماتوا لم يزل موسى يناشد ربه في إحيائهم ويقول: "يا رب إن بني إسرائيل يقولون قتلت خيارنا" حتى أحياهم الله جميعاً رجلاً بعد رجل، ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون.

وهذه إحدى الآيات الخمس التي في سورة البقرة التي فيها إحياء الله تعالى الموتى؛ والثانية: في قصة صاحب البقرة؛ والثالثة:

في {الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ
اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ} [البقرة: ٢٤٣]؛ والرابعة: في قصة الذي {مَرَّ
عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ
مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ} [البقرة: ٢٥٩]؛ والخامسة في
قصة إبراهيم: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمَ تُوْمَنٍ قَالَ
بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي..} [البقرة: ٢٦٠]

والله تعالى على كل شيء قدير، ولا ينافي هذا ما ذكر الله في
قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
تُبْعَثُونَ} [المؤمنون: ١٥-١٦]؛ لأن هذه القصص الخمس،
وغيرها - كإخراج عيسى الموتى من قبورهم - تعتبر أمراً عارضاً يؤتى
به لآية من آيات الله سبحانه وتعالى؛ أما البعث العام فإنه لا يكون
إلا يوم القيامة؛ ولهذا نقول في شبهة الذين أنكروا البعث من
المشركين، ويقولون: {مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}
[الأنبياء: ٣٨]، ويقولون: {فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}
[الدخان: ٣٦] نقول: إن هؤلاء مموهون؛ فالرسل لم تقل لهم:
إنكم تبعثون الآن؛ بل يوم القيامة؛ ولينتظروا، فسيكون هذا بلا
ريب.

{لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} لعلكم تشكرون نعمته بالإحياء بعد الموت، أو لعلكم تشكرون نعمة الله بعدما كفرتموها إذا رأيتم بأس الله في رميكم بالصاعقة وإذا قتكم الموت، فإنما بعثهم بعد الموت في دار الدنيا ليكلفهم وليتمكنوا من الإيمان ومن تلافي ما صدر عنهم من الجرائم.

ولفظ الشكر يتناول جميع الطاعات لقوله تعالى: **{اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا}** [سبأ: ١٣] والشكر هو القيام بطاعة المنعم إقراراً بالقلب، واعترافاً باللسان، وعملاً بالأركان؛ فيعترف بقلبه أنها من الله، ولا يقول: إنما أوتيته على علم عندي؛ كذلك أيضاً يتحدث بها بلسانه اعترافاً لا افتخاراً؛ وكذلك أيضاً يقوم بطاعة الله سبحانه وتعالى بجوارحه؛ وبهذه الأركان الثلاثة يكون كمال الشكر.

قال ابن جرير: عن محمد بن إسحاق، قال: لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وحرّق العجل وذراه في اليم، اختار موسى منهم سبعين رجلاً الخَيْرَ فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما صنعتهم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه،

وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعِلْم، فقال له السبعون -فيما ذكر لي- حين صنعوا ما أمروا به وخرجوا للقاء الله، قالوا: يا موسى، اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع، لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل. فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: **{لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً}** فأخذتهم الرجفة، وهي الصاعقة، فماتوا جميعًا. وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: **{رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ}** [الأعراف: ١٥٥] قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل بما يفعل السفهاء منا؟ أي: إن هذا لهم هلاك. اخترت منهم سبعين رجلا الخير فالخير، أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد! فما الذي يصدقوني به ويأمنوني عليه بعد هذا؟ **{إِنَّا هُذْنَا إِلَيْكَ}** [الأعراف: ١٥٦] فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل، ويطلب إليه

حتى ردّ إليهم أرواحهم، وطلب إليه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا؛ إلا أن يقتلوا أنفسهم.

{وَوَضَّلْنَا} فالظل من نعم الله التي امتن بها على عباده، فقال تعالى: **{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا}** [النحل: ٨١] **{عَلَيْكُمْ الْغَمَامُ}** والغمام من الغم، وأصله التغطية والستر، وسمي السحاب غماماً لأنه يغطي وجه الشمس. وكان ذلك في التيه بين الشام ومصر لما شكوا حر الشمس.

{وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ} قال مجاهد: هو شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار طعمه كالشهد، وقيل: مادة صمغية جوية ينزل على شجر البادية شبه الدقيق المبلول، فيه حلاوة إلى الحموضة ولونه إلى الصفرة. كان ينزل عليهم بين طلوع الفجر وطلوع الشمس؛ فإذا قاموا أكلوا منه.

روى البخاري عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (الْكَمَاءُ [نبت لا ورق ولا ساق له، يوجد بالأرض بغير زرع] مِنَ الْمَنَّاءِ [الذي نزل على بني إسرائيل أو من شيء يشبه طبعاً أو طعماً أو نفعاً أو من حيث حصوله بلا تعب] وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ)

{وَالسَّلَوَى} طائر يشبه السمانى، وفيه أن لحم الطيور من أفضل اللحوم؛ لأن الله تعالى هيا لهم لحوم الطير. وهو أيضاً لحوم أهل الجنة، كما قال تعالى: **{وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ}** [الواقعة: ٢١]

{كُلُوا} قلنا لهم: كلوا **{مِنْ طَيِّبَاتِ}** أمر إباحة، فالإنسان لا ينبغي أن يتعفف عن الشيء المباح؛ ولهذا قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: "من امتنع من أكل الطيبات لغير سبب شرعي فهو مذموم"؛ وهذا صحيح؛ لأنه ترك ما أباح الله له وكأنه يقول: إنه لا يريد أن يكون لله عليه منة؛ فالإنسان لا ينبغي أن يمتنع عن الطيبات إلا لسبب شرعي؛ والسبب الشرعي قد يكون لسبب يتعلق ببدنه؛ وقد يكون لسبب يتعلق بدينه؛ وقد يكون لسبب يتعلق بغيره؛ فقد يمتنع الإنسان عن اللحم؛ لأن بدنه لا يقبله، فيكون تركه له من باب الحمية؛ وقد يترك الإنسان اللحم، لأنه يخشى أن تتسلى به نفسه حتى يكون همه أن يذهب طيباته في حياته الدنيا؛ وقد يترك الإنسان الطيب من الرزق مراعاة لغيره، مثل ما يذكر عن عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في عام الرمادة -عام الجذب المشهور- أنه كان لا يأكل إلا الخبز والزيت، حتى اسود جلده، ويقول: "بئس الوالي

أنا إن شبعنا والناس جوعاً؛ فيكون تركه لذلك مراعاة لغيره؛ إذاً من امتنع من الطيبات لسبب شرعي فليس بمذموم.

والمباح من الزرق هو الطيب، والتحريم في أكل الخبيث، والخبيث نوعان: خبيث لذاته؛ وخبيث لكسبه؛ فالخبيث لذاته كالميتة، والخنزير، والخمر، وما أشبهها، كما قال الله تعالى: {قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ} [الأنعام: ١٤٥] أي نجس خبيث؛ وهذا محرم لذاته؛ محرم على جميع الناس؛ وأما الخبيث لكسبه فمثل المأخوذ عن طريق الغش، أو عن طريق الربا، أو عن طريق الكذب، وما أشبه ذلك؛ وهذا محرم على مكتسبه، وليس محرماً على غيره إذا اكتسبه منه بطريق مباح؛ ويدل لذلك أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يعامل اليهود مع أنهم كانوا يأكلون السحت، ويأخذون الربا، فدل ذلك على أنه لا يحرم على غير الكاسب..

{مَا رَزَقْنَاكُمْ} ولا تدخروا لغد ففعلوا، فقطع الله ذلك عنهم،

ودود وفسد ما ادخروا.

روى مسلم .. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَوْلَا
بَنُو إِسْرَائِيلَ لَمْ يَخْبُثْ الطَّعَامُ وَلَمْ يَخْنَزِ اللَّحْمُ [أي لم يتغير ولم
ينتن لأن بني إسرائيل لما أنزل الله عليهم المن والسلوى نهوا عن
ادخارها فادخروا ففسد وأنتن واستمر من ذلك الوقت] وَلَوْلَا حَوَاءُ
لَمْ تَخُنْ أَنْثَى زَوْجَهَا الدَّهْرَ) [أي أبدا لأنها ألجأت آدم إلى الأكل
من الشجرة مطاوعة لعدوه إبليس وذلك خيانة له فنزع العرق في
بناتها]

{وَمَا ظَلَمُونَا} نفي أنهم لم يقع منهم ظلم لله تعالى، وفي هذا
دليل على أنه ليس من شرط نفي الشيء إمكان وقوعه، لأن ظلم
الإنسان لله تعالى لا يمكن وقوعه ألبته.

وقيل: مثار ذكر هذه الجملة هو ما تضمنته بعض الجمل التي
سبقت من أن ظلما قد حصل منهم من قوله **{ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ
بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ}** [البقرة: ٥١] وقوله **{إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ
بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ}** [البقرة: ٥٤] وما تضمنه قوله **{فَأَخَذْتَكُمْ
الصَّاعِقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}** [البقرة: ٥٥] الدال على أن ذلك عذاب
جروه إلى أنفسهم، فأتى بهذه الجملة كالفدلكة لما تضمنته الجمل
السابقة نظير قوله **{وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ}** [البقرة: ٩] عقب

قوله {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا} [البقرة: ٩] ونظير قولهم {وَزَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [سبأ: ١٩] بعد الكلام السابق وهو قوله {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً} [سبأ: ١٨].

{وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} ولكن لم يزالوا ظالمي أنفسهم بكثرة ما يصدر منهم من المخالفات. أما الله -تبارك وتعالى- فإنهم لا يظلمونه؛ لأنه سبحانه وبحمده لا يتضرر بمعصيتهم، كما لا ينتفع بطاعتهم.

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ
وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ
الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ
بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٥٩)

{وَإِذْ} هذا تذكير بنعمة أخرى مكنوا منها، فما أحسنوا قبولها ولا رعوها حق رعايتها، فحرموا منها إلى حين، وعوقب الذين كانوا السبب في عدم قبولها.

وفي التذكير بهذه النعمة امتنان عليهم ببذل النعمة لهم لأن النعمة نعمة وإن لم يقبلها المنعم عليه، وإثارة لحسرتهم على ما فات أسلافهم وما لقوه من جراء إعجابهم بآرائهم، وموعظة لهم أن لا يقعوا فيما وقع فيه الأولون، فقد علموا أنهم كلما صدّفوا عن قدر حق النعم نالتهم المصائب. قال الشيخ ابن عطاء الله: "من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها".

{قُلْنَا} أي على لسان موسى.. وفي الأعراف {وَإِذْ قِيلَ} وأجيب بأنه صرح بالفاعل في البقرة لإزالة الإبهام، وحذف في الأعراف للعلم به في سورة البقرة.

{ادْخُلُوا} والأمر بالدخول أمر بما يتوقف الدخول عليه أعني القتال كما دلت عليه آية المائدة إذ قال: **{ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ}** إلى قوله: **{وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ}** [المائدة: ٢١] فإن الارتداد على الأدبار من الألفاظ المتعارفة في الحروب كما قال تعالى: **{فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ}** [أنفال: ١٥]

قال هنا: {ادخلوا}، وفي الأعراف {اسكنوا}. وأجيب بأن الدخول مقدّم على السكنى، فذكر الدخول في السورة المتقدمة. والسكنى في المتأخرة.

و{ادخلوا} أمر كوني، وشرعي؛ لأنهم أمروا بأن يدخلوها سجداً وهذا أمر شرعي؛ ثم فتحت، فدخلوها بالأمر الكوني.

{هذه} دليل على أنهم قاربوها وعابنوها، لأن هذه إشارة لحاضر قريب {الْقَرْيَةِ} بيت المقدس، والقرية هي البلد المسكونة؛ مأخوذة من القرى وهو التجمع؛ وسميت البلاد المسكونة قرية لتجمع الناس بها؛ ومفهوم القرية في اللغة العربية غير مفهومها في العرف؛ لأن مفهوم القرية في العرف: البلد الصغير؛ وأما الكبير فيسمى مدينة؛ ولكنه في اللغة العربية -وهي لغة القرآن- لا فرق بين الصغير والكبير؛ فقد سمي الله -عز وجل- مكة قرية، كما في قوله تعالى: {وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ} [محمد: ١٣] المراد بقريته التي أخرجته: مكة، وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [الشورى: ٧] فسمى مكة أم القرى وهو شامل للبلاد الصغيرة والكبيرة.

{فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا} أي طمأنينة وهنيئاً لا أحد يعارضكم في ذلك، ولا يمانعكم.

وعن سر تقديم «رغدا» في آية: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ} [البقرة: ٣٥] وتأخيرها في هذه الآية أن آدم وزوجه عليهما السلام داخل الجنة، وكل شيء لهما مباح، ولا تعب في الجنة ولا نصب، وكان لهما ما يطلبان دون عناء عدا الأكل من الشجرة المحرمة التي امتحنا بها، فإذا التزما النهي كانا من الخالدين في الجنة، وإلا ظلما نفسيهما وخرجا منها إلى حيث العمل والجهد والشقاء ثم الموت والبلى. فالرغد بين يديهما حاصل وسينقطع إذا خالفا، ولأن الهناء والسعادة حاصل ابتداء قدم الرغد على قوله {حيث شئتما}

أما في الحديث عن بني إسرائيل في هذه الآية الثامنة والخمسين من السورة نفسها، فلن يكون الرغد حاصلًا إلا حين يقاتلون العدو ويدخلون المدينة فاتحين. وما الرغد إلا نتيجة لقتال العدو وفتح المدينة، فتأخرت كلمة الرغد عن قوله تعالى: {حيث شئتم}

وفي الأعراف: {وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ}

سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ [الأعراف: ١٦١] أثبت {رغداً} بعد الأمر بالدخول لأنها حالة قدوم فالأكل فيها ألد وأتم وهم إليه أحوج، بخلاف السكنى فإنها حالة استقرار واطمئنان فليس الأكل فيها ألد ولا هم إليه أحوج.

وقال ابن عاشور: المقام قد يقتضي شيئين متساويين أو أشياء متساوية فيكون البليغ مخيراً في أحدهما وله ذكرهما تفنناً وقد وقع في القرآن كثير من هذا:

من ذلك قوله **{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا}** بواو العطف في سورة البقرة وقوله في الأعراف **{فَكُلَا}** بفاء التفريع وكلاهما مطابق للمقام، فإنه أمر ثان وهو أمر مفرع على الإسكان فيجوز أن يحكي بكل من الاعتبارين، ومنه قوله في سورة البقرة **{وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا}** وفي سورة الأعراف: **{وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا}** فعبر مرة بـ **{ادْخُلُوا}** ومرة بـ **{اسْكُنُوا}** وعبر مرة بواو العطف ومرة بفاء التفريع. وهذا التخالف بين الشيئين يقصد لتلوين المعاني المعادة حتى لا تخلو إعادتها عن تجدد معنى وتغاير أسلوب، فلا تكون إعادتها مجرد تذكير.

{وَادْخُلُوا الْبَابَ} أحد أبواب بيت المقدس، ويدعى الآن: باب حطة **{سُجِّدًا}** قال بعض أهل العلم: السجود الذي أمروا به عند الدخول هو سجود الشكر، وفسر السجود هنا بأنه الركوع، رواه سعيد بن جبير والعمري عن ابن عباس، لأنهم أمروا بالسجود مقترنا بالدخول، وهذا يتحقق بالركوع، والسجود في اللغة يطلق على الانحناء على سبيل التعظيم، سواء مس الأرض أو لم يمسه.

لكن في الصحيحين عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- إن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (قيل لبي إسرائيل **{ادْخُلُوا** الباب سُجِّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ} فبدلوا، فدخلوا الباب يَزْحَفُونَ على استأهِمهم، وقالوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ).

قالوا حبة في شعرة أو في شعيرة، والظاهر أنهم استهزأوا بالكلام الذي أعلنه موسى عليه السلام في الترغيب في فتح الأرض وكنوا عن ذلك بأن محاولتهم فتح الأرض كَمُحَاوَلَةِ رَبْطِ حَبَّةٍ بِشَعْرَةٍ أَي فِي التَّعَدُّرِ، أَوْ هُوَ كَأَكْلِ حَبَّةٍ مَعَ شَعْرَةٍ تَخْنُقُ أَكْلَهَا، أَوْ حَبَّةٌ مِنْ بُرٍّ مَعَ شُعِيرَةٍ.

{وَقُولُوا حِطَّةً} حط عنا ذنوبنا، فهي بمعنى قولوا: ربنا اغفر لنا؛ والمراد: اطلبوا المغفرة من الله سبحانه وتعالى إذا دخلتم وسجدتم.

وقد روي عن ابن عباس أنهم أمروا بهذه اللفظة بعينها، قيل: والأقرب خلافه، لأن هذه اللفظة عربية وهم ما كانوا يتكلمون بها، ولأن الأقرب أنهم أمروا بأن يقولوا قولاً دالاً على التوبة والندم والخضوع، حتى لو قالوا: اللهم إنا نستغفرك ونتوب إليك، لكان الخضوع حاصلاً، لأن المقصود من التوبة إما بالقلب فبالندم وإما باللسان فبذكر لفظ يدل على حصول الندم في القلب، وذلك لا يتوقف على ذكر لفظة بعينها.

{نَغْفِرُ} "المغفرة" هي ستر الذنب، والتجاوز عنه؛ ومعناه أن الله ستر ذنبك، ويتجاوز عنك، فلا يعاقبك؛ لأن "المغفرة" مأخوذة من «الْمِغْفَرُ» وهو ما يوقى به الرأس في الحرب؛ لأنه يستر ويقي؛ ومن فسر "المغفرة" بمجرد الستر فقد قصر؛ لأن الله تعالى إذا خلا بعبده المؤمن يوم القيامة وقرره بذنوبه قال: (قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم) أي اليوم أسترها أيضاً، ثم أتجاوز عنها.

{لَكُمْ خَطَايَاكُمْ} جمع خَطِيَّةٍ، كـ "مطايا" جمع مطية؛ و "الخطية" ما يرتكبه الإنسان من المعاصي عن عمد؛ وأما ما يرتكبه عن غير عمد فيسمى "أخطاءاً"؛ ولهذا يفرق بين "مخطئ"،

و"خاطئ"؛ الخاطئ ملوم؛ والمخطئ معذور، كما قال الله تعالى:
{نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ} [العلق: ١٦]، وقال تعالى: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا
إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} [البقرة: ٢٨٦]

وردت هنا {خطاياكم}، وفي الأعراف {خطيئتكم} وأجيب بأن
الخطايا جمع كثرة، فناسب حيث قرن به ما يليق بجوده، وهو
غفران الكثير. والخطيئات جمع قلة لما لم يضاف ذلك إلى نفسه.
{وَسَنَزِيدُ} الزيادة ارتفاع عن القدر المعلوم، وضده النقص، أي
سنعطي زيادة على مغفرة الذنوب.

وإثبات الواو في {وَسَنَزِيدُ} هنا، وحذفها في الأعراف. أجيب
بأنه لما تقدم أمران كان المجيء بالواو مؤذناً بأن مجموع الغفران
والزيادة جزاء واحد لمجموع الأمرين، وحيث تركت أفاد توزع كل
واحد على كل واحد من الأمرين، فالغفران في مقابلة القول،
والزيادة في مقابلة ادخلوا.

{الْمُحْسِنِينَ} هذا جواب الأمر، أي: إذا فعلتم ما أمرناكم
غفرنا لكم الخطيئات وضعفنا لكم الحسنات.
و "الإحسان" نوعان:

الأول: إحسان في عبادة الله؛ وقد فسرهُ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بقوله: (أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ) [البخاري]

والنوع الثاني: إحسان في معاملة الخلق وهو بذل المعروف، وكفُّ الأذى.

وكان هذا لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون -عليه السلام-، وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب -باب البلد- {سُجِّدَا} أي: شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر، وردّ بلدهم إليهم وإنقاذهم من التيه والضلال.

وحاصل الأمر: أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول، وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها، والشكر على النعمة عندها، والمبادرة إلى ذلك من المحبوب لله تعالى، كما قال تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [سورة النصر]

{فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا} ظاهره انقسامهم إلى ظالمين وغير ظالمين، وأن الظالمين هم الذين بدلوا، فإن كان كلهم بدلوا، كان ذلك من وضع الظاهر موضع المضمّر إشعاراً بالعلة، وكأنه قيل: فبدّلوا، لكنه أظهره تنبيهاً على علة التبديل، وهو الظلم، أي لولا ظلمهم ما بدلوا، والمبدّل به محذوف تقديره: فبدّل الذين ظلموا بقولهم حطة.

وفي هذا موعظة وذكرى لكل من ينصب نفسه لإرشاد قوم ليكون على بصيرة بما يأتي ويذر وعلم بعواقب الأمور فمن البر ما يكون عقوقاً، وفي المثل: «على أهلها تجني براقش» وهي اسم كلبة قوم كانت تحرسهم بالليل فدل نبحها أعداءهم عليهم فاستأصلوهم فضربت مثلاً.

{قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ} قالوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ.. وضعوا مكان ما أمروا به من التوبة والاستغفار قولاً مغايراً له مشعراً باستهزائهم بما أمروا به، والإعراض عما يكون عنه غفران خطاياهم. كل ذلك من عدم مبالاة بأوامر الله، فاستحقوا بذلك النكال.

{فَأَنزَلْنَا} الفاء للسببية؛ والمعنى: فبسبب ما حصل منهم من التبديل أنزلنا **{عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا}** ولم يقل عليهم لئلا يتوهم أن

الرجز عم جميع بني إسرائيل {رَجْزاً} عذابا {مِّنَ السَّمَاءِ} إن كان
الرجز من السماء فظاهراً (كالحجارة، والصواعق، والبرد،
والريح..)، وإن فسر بغيره كالطاعون فهو إشارة إلى الجهة التي
يكون منها القضاء عليهم، أو مبالغة في علوه بالقهر والاستيلاء.

وقيل: وهو الطاعون. وإنما جعل من السماء لأنه لم يكن له
سبب أرضي من عدوى أو نحوها، فَعُلم أنه رمتهم به الملائكة من
السماء بأن ألقيت عناصره وجراثيمه عليهم فأصيبوا به دون غيرهم.
وفي البخاري أن رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذَكَرَ
الْوَجَعَ فَقَالَ: (رَجْزٌ أَوْ عَذَابٌ عَذَّبَ بِهِ بَعْضُ الْأُمَمِ ثُمَّ بَقِيَ مِنْهُ بَقِيَّةٌ
فَيَذْهَبُ الْمَرَّةَ وَيَأْتِي الْأُخْرَى فَمَنْ سَمِعَ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا يُقْدِمَنَّ عَلَيْهِ
وَمَنْ كَانَ بِأَرْضٍ وَقَعَ بِهَا فَلَا يَخْرُجْ فِرَارًا مِنْهُ)

{بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} أي يخرجون عن طاعة الله عز وجل..
وفائدة التكرار التأكيد، لأن الوصف دال على العلية، فالظاهر أن
التبديل سببه الظلم، وأن إنزال الرجز سببه الظلم أيضاً.

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ
فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ

كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
(٦٠)

{وَإِذِ} واذكروا، وقد أشارت الآية إلى حادثة معروفة عند اليهود في التوراة **{اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ}** طلب لهم من الله تعالى السقيا أي الماء للشرب وغيره، وكان هذا الاستسقاء في التيه، وهذا هو الإنعام التاسع، وهو جامع لنعم الدنيا والدين.. أما في الدنيا فلأنه أزال عنهم الحاجة الشديدة إلى الماء، ولولا هو لهلكوا في التيه، وهذا أبلغ من الماء المعتاد في الأنعام لأنهم في مفازة منقطعة. وأما في الدين فلأنه من أظهر الدلائل على وجود الصانع وقدرته وعلمه، وعلى صدق موسى عليه السلام.

قال ابن عاشور: تذكير بنعمة أخرى جمعت ثلاث نعم، وهي: الري من العطش، وتلك نعمة كبرى أشد من نعمة إعطاء الطعام، ولذلك شاع التمثيل بري الظمان في حصول المطلوب. وكون السقي في مظنة عدم تحصيله وتلك معجزة لموسى وكرامة لأُمته لأن في ذلك فضلا لهم. وكون العيون اثنتي عشرة ليستقل كل سبط بمشرب وذلك التقسيم من الرفق بهم لئلا يتزاحموا ويتدافعوا مع كثرتهم فيهلكوا.

{فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ} عصا موسى التي كانت معه منذ خرج

من بلاد مدين، وهذه "العصا" كان فيها أربع آيات عظيمة:.

● أولاً: أنه يلقيها، فتكون حية تسعى، ثم يأخذها، فتعود عصا.

● ثانياً: أنه يضرب بها الحجر، فينفجر عيوناً.

● ثالثاً: أنه ضرب بها البحر، فانفلق؛ فكان كل فرق كالطود

العظيم.

● رابعاً: أنه ألقاها حين اجتمع إليه السحرة، وألقوا حبالهم،

وعصيهم، فألقاها فإذا هي تلقف ما يأفكون.

{الْحَجَرُ فَانْفَجَرَتْ} تشققت منه هذه العيون، ومنه سمي

"الفجر"؛ لأنه ينشق به الأفق. وجاء هنا: {انفجرت} وفي الأعراف:

{انبجست} فليل: هما سواء، انفجر وانبجس وانشق مترادفات.

وقيل: بينهما فرق، وهو أن الانبجاس أضيق فهو أول خروج الماء،

والانفجار اتساعه وكثرته. وظاهر القرآن استعمالهما بمعنى واحد،

لأن الآيتين قصة واحدة.

والفاء في قوله: {فانفجرت} قالوا هي فاء فصيحة وهي الفاء

العاطفية إذ لم يصلح المذكور بعدها لأن يكون معطوفاً على

المذكور قبلها فيتعين تقدير معطوف آخر بينهما يكون ما بعد الفاء

معطوفا عليه. فتسميتها بالفصيحة لأنها أفصحت عن محذوف،
والتقدير في مثل هذا: «فضرب فانفجرت».

{ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا } العين من الأسماء المشتركة: فالعين من
الماء مُشَبَّهَةٌ بالعين من الحيوان لخروج الماء منها، كخروج الدمع
من عين الحيوان.

وكل عين يشرب منها سبط من أسباطهم الاثنى عشر حتى لا
يتزاحموا فيتضرروا.

{ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ } من الأسباط **{ مَشْرَبُهُمْ }** مكان شربهم،
نص على المشرب تنبيهاً على المنفعة العظيمة التي هي سبب
الحياة، وإن كان سرد الكلام قد علم كل أناس عينهم.

{ كُلُوا وَاشْرَبُوا } أي وقلنا لهم.. وقد جمع بين الأكل والشرب
وإن كان الحديث على السقي لأنه قد تقدمه إنزال المن والسلوى.
وبدء بالأكل لأنه المقصود أولاً، وثنى بالشرب لأن الاحتياج إليه
حاصل عن الأكل.

{ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ } ولما كان مأكلهم ومشروبهم حاصلين لهم من
غير تعب منهم ولا تكلف، أضيفا إلى الله تعالى، وإن كانت جميع
الأرزاق منسوبة إلى الله تعالى، سواء كانت مما تسبب العبد في

كسبها أم لا، واختص بالإضافة للفظ الله، إذ هو الاسم العلم الذي لا يشركه فيه أحد، الجامع لسائر الأسماء.

وهذا التفات، إذ تقدم **{فَقُلْنَا اضْرِبْ}**، ولو جرى على نظم واحد لقال: من رزقنا.

وفيه أن الله سبحانه وتعالى «قادر جواد»؛ ولهذا أجاب الله تعالى دعاء موسى؛ لأن العاجز لا يسقي؛ والبخيل لا يعطي.

{وَلَا تَعْتَوُوا} العَثِيّ والعِثِيّ: شدة الفساد والإسراع فيه **{فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}** حالا مؤكدة لعاملها .. والإفساد العمل بغير طاعة الله ورسوله في كل مجالات الحياة. فالإفساد في الأرض يكون بالمعاصي.

لما أمروا بالأكل والشرب من رزق الله، ولم يقيد ذلك عليهم بزمان ولا مكان ولا مقدار من مأكول أو مشروب، كان ذلك إنعاماً وإحساناً جزيلاً إليهم، واستدعى ذلك التبسط في المآكل والمشارب، وأنه ينشأ عن ذلك القوة الغضبية، والقوة الاستعلائية. نهاهم عما يمكن أن ينشأ عن ذلك، وهو الفساد، حتى لا يقابلوا تلك النعم بما يكفرها، وهو الفساد في الأرض.

كذلك النعمة قد تنسي العبد حاجته إلى الخالق فيهجر
الشرعة فيقع في الفساد قال تعالى: {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا
رَاهُ اسْتَغْنَى} [العلق: ٦-٧]

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا
رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا
وَعَدْسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ
خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ
وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١)

{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى} الأولى قولهم: يا بني الله أو يا رسول الله،
ولكن هذا من سوء خلقهم، وقلة أدبهم.

{لَنْ نَصْبِرَ} لم يكن قولهم هذا معصية لأن النوع الواحد أربعين
سنة يمل ويشتهي إذ ذاك غيره، ولأنهم ما تعودوا ذلك النوع. ورغبة
الإنسان فيما اعتاده، وإن كان خسيساً، فوق رغبة ما لم يعتده، وإن
كان شريفاً، ولأن ذلك يكون سبباً لانتقالهم عن التيه الذي ملوه،

لأن تلك الأطعمة لا توجد فيه، فأرادوا الحلول بغيره، ولأن المواظبة على طعام واحد سبب لنقص الشهوة وضعف الهضم وقلة الرغبة، والاستكثار من الأنواع بعكس ذلك.

قال ابن عاشور: فالذي عندي في تفسير الآية أنها انتقال من تعداد النعم المعقبة بنعم أخرى إلى بيان سوء اختيارهم في شهواتهم، والاختيار دليل عقل اللبيب، وإن كان يختار مباحا، مع ما في صيغة طلبهم من الجفاء وقلة الأدب مع الرسول ومع المنعم إذ قالوا: {لن نصبر} فعبروا عن تناول المن والسلوى بالصبر المستلزم الكراهية، وأتوا بما دل عليه {لن} في حكاية كلامهم من أنهم لا يتناولون المن والسلوى من الآن، فإن {لن} تدل على استغراق النفي لأزمة فعل {نصبر} من أولها إلى آخرها وهو معنى التأييد، وفي ذلك إلقاء لموسى أن يبادر بالسؤال يظنون أنهم أياسوه من قبول المن والسلوى بعد ذلك الحين، فكان جواب الله لهم في هذه الطلبة أن قطع عنايته بهم وأهملهم ووكلمهم إلى نفوسهم ولم يرهم ما عودهم من إنزال الطعام وتفجير العيون بعد فلق البحر وتظليل الغمام، بل قال لهم {اهْبِطُوا مِصْرًا} فأمرهم بالسعي لأنفسهم وكفى بذلك تأديبا وتوبيخا.

{عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ} المن والسلوى.. ووصف الطعام بواحد، وإن كان طعامين - المن والسلوى اللذان رزقوهما في التيه - لأنهم أرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدل ويتكرر كل يوم، ولو كان على مائدة الرجل ألوان عديدة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها. وقيل: أرادوا بالطعام الواحد السلوى، لأن المن كان شرباً، أو شيئاً يتحلون به، وما كانوا يعدون طعاماً إلا السلوى.

وقيل: عبر عنهما بالواحد، كما عبر بالاثنتين عن الواحد نحو: **{يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ}** [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب.

{فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ} الأولى قولهم: ادع الله تعالى لنا أو ادع لنا ربنا عز وجل.

قيل: هذا سوء أدب وجفاء منهم. وقيل: وإنما سألوا من موسى أن يدعو لهم بما اقترحوه ولم يدعواهم، لأن إجابة الأنبياء أقرب من إجابة غيرهم، ولذلك قالوا: ربك، ولم يقولوا: ربنا، لأن في ذلك من الاختصاص به ما ليس فيهم من مناجاته وتكليمه وإتيانه التوراة، فكأنهم قالوا: ادع لنا الذي هو محسن لك، فكما أحسن إليك في أشياء، كذلك نرجو أن يحسن إلينا في إجابة دعائك.

{يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ} فيه جواز إسناد الشيء إلى مكانه لا إلى الفاعل الأول؛ لقولهم **{مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ}**؛ والذي ينبت حقيقة هو الله سبحانه وتعالى.

فالحادث بسبب معلوم له صور:

الأولى: أن يضيفه إلى الله وحده.

الثانية: أن يضيفه إلى الله تعالى مقروناً بسببه المعلوم؛ مثل أن يقول: "لولا أن الله أنجاني بفلان لغرقت".

الثالثة: أن يضيفه إلى السبب المعلوم وحده مع اعتقاد أن الله هو المسبب؛ لما رواه البخاري عن عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: (نَعَمْ، هُوَ فِي ضَخْضَاخٍ مِنْ نَارٍ لَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)

الرابعة: أن يضيفه إلى الله مقروناً بالسبب المعلوم بـ"ثم"، كقوله: "لولا الله ثم فلان"؛ وهذه الأربع كلها جائزة ..

الصورة الخامسة: أن يضيفه إلى الله، وإلى السبب المعلوم مقروناً بالواو؛ فهذا شرك، كقوله: "لولا الله وفلان، كما روى أحمد

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ؟، فَقَالَ: (جَعَلْتَنِي لِلَّهِ عَدْلًا، بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ)
الصورة السادسة: أن يضيفه إلى الله، وإلى السبب المعلوم مقروناً بالفاء، مثل: "لولا الله ففلان"؛ فهذا محل نظر: يحتمل الجواز، ويحتمل المنع.

الصورة السابعة: أن يضيفه إلى سبب موهوم ليس بثابت شرعاً، ولا حساً، كأولئك الذين يعلقون التمايم البدعية، أو يلبسون حلقات، أو خيوطاً لدفع البلاء، أو رفعه كما زعموا؛ فهذا شرك.

فإذا قال قائل: أليس الله قد ذم قارون حينما قال: **{إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي}** [القصص: ٧٨] ؛ فنسب حصول هذا المال إلى العلم؛ وهذا قد يكون صحيحاً؟

فالجواب: أن قارون أنكر أن يكون من الله ابتداءً؛ ومعلوم أن الإنسان إذا أضاف الشيء إلى سببه دون أن يعتقد أن الله هو المسبب فهو مشرك؛ وأيضاً فإن قارون أراد بقوله هذا أن يدفع وجوب الإنفاق عليه مبتغياً بذلك الدار الآخرة.

{مِنْ بَقْلِهَا} كُلُّ مَا تُنْبِتُهُ الْأَرْضُ مِنَ النَّجْمِ أَي: مِمَّا لَا سَاقَ لَهُ
{وَقَثَائِهَا} الخيار والقتة ونحوها **{وَفُومِهَا}** الحِنطة وقيل الثوم لذكر
البصل بعده، ولما في التوراة **{وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا}**
{قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى} أقل صلاحاً وخيريه ومنافع
{بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ} وفي الاستبدال للخير بالأدنى النداء بنهاية
حماقتهم وسوء اختيارهم.

والتفضيل يقع من جهة الطيب واللذة، والمن والسلوى لا شك
أنهما أطيب من البقول التي طلبوها. وعن الحسن كانوا قوماً فلاحه
فنزعوا إلى عِكرِهِمْ [أصلهم]

{اهْبِطُوا} للإباحة المشوبة بالتوبيخ **{مِصْرًا}** مدينة من المدن
قيل لهم هذا وهم في التيه كالتعجيز لهم والتحدي لأنهم نكلوا عن
قتال الجبارين فأصيبوا بالتيه وحرموا خيرات مدينة القدس
وفلسطين. وفيه إغراض عن طلبهم إذ ليس حولهم يومئذ بلد قريب
يستطيعون وصوله.

وقيل أراد اهبطوا مصر أي بلد مصر بلد القبط، أي: ارجعوا
إلى مصر التي خرجتم منها. .. قال أشهب، قال لي مالك: هي
مصر قريتك مسكن فرعون.

والأمر لمجرد التوبيخ إذ لا يمكنهم الرجوع إلى مصر. وقصد منه أيضا التهديد على تذكرهم أيام ذلهم وعنائهم وتمنيهم الرجوع لتلك المعيشة، كأنه يقول لهم: ارجعوا إلى ما كنتم فيه إذ لم تقدروا قدر الفضائل النفسية ونعمة الحرية والاستقلال.

{فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ} الفاء للتعقيب وليست للتعليل لعدم قصد الترغيب في هذا الهبوط حتى يعلل، وإنما هو كلام غضب.

{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ} أحاطت بهم ولازمتهم، شبهت الذلة والمسكنة في الإحاطة بهم واللزوم بالبيت أو القبة يضربها الساكن ليلزمها.

وأصل الضرب في كلام العرب يرجع إلى معنى التقاء ظاهر جسم بظاهر جسم آخر بشدة، يقال: ضرب بعصا وبيده وبالسيف وضرب بيده الأرض إذا ألصقها بها، وتفرعت عن هذا معان مجازية ترجع إلى «شدة اللصوق». فمنه ضرب في الأرض: سار طويلا، وضرب قبة وبيتا في موضع كذا بمعنى شدها ووثقها من الأرض.

{الذَّلَّةُ} الصغار والاحتقار والهوان؛ فلا يقابلون عدواً، وقد قال الله تعالى: **{لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ}** [الحشر: ١٤]

{وَالْمَسْكَنَةُ} الفقر مشتقة من السكون لأن الفقر يقلل حركة صاحبه. وتطلق على الضعف ومنه المسكين للفقير. ومعنى لزوم الذلة والمسكنة لليهود أنهم فقدوا البأس والشجاعة وبدا عليهم سيما الفقر والحاجة مع وفرة ما أنعم الله عليهم، فإنهم لما سئموها صارت لديهم كالعدم، ولذلك صار «الحرص» لهم سجية باقية في أعقابهم.

فلا توجد أمة أهون قلوباً، ولا أبخل من اليهود، فالأموال كثيرة، لكن قلوبهم خائرة، وأيديهم مغلولة.

{وَبَاؤُوا بِغَضَبِ مَنْ اللَّهَ} البوء: الرجوع، وهو هنا مستعار لانقلاب الحالة مما يرضي الله إلى غضبه.

رجعوا من طول عملهم وكثرة كسبهم بغضب الله وسخطه عليهم وبئس ما رجعوا به، وفي وصف الغضب بكونه من الله تعظيم للغضب، وتفخيم لشأنه.

مضمون تلك الجمل ذكر ما منّ الله تعالى به عليهم من نعمة تحريرهم من استعباد القبط إياهم وسوقهم إلى الأرض التي وعدهم فتضمن ذلك نعمتي التحرير والتمكين في الأرض وهو جعل الشجاعة طوع يدهم لو فعلوا، فلم يقدرُوا قدر ذلك، وتمنوا العود

إلى المعيشة في مصر إذ قالوا {لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ} وتقاعسوا عن دخول القرية وجبنوا عن لقاء العدو كما أشارت له الآية الماضية وفصلته آية المائدة، فلا جرم إذ لم يشكروا النعمة ولم يقدروها أن تنتزع منهم ويسلبوها ويعوضوا عنها بضدها وهو الذلة المقابلة للشجاعة إذ لم يثقوا بنصر الله إياهم، والمسكنة وهي العبودية فتكون الآية مسوقة مساق المجازاة للكلام السابق فهذا وجه العطف.

وفيه إثبات صفة «الغضب» لله تعالى؛ وغضب الله سبحانه وتعالى صفة من صفاته؛ لكنها لا تماثل صفات المخلوقين؛ فنحن عندما نغضب تنتفخ الأوداج منا، ويحمر الوجه، ويقفُّ الشعر، ويفقد الإنسان صوابه؛ وهذه العوارض لا تكون في غضب الله؛ لأن الله ليس كمثله شيء؛ بل هو غضب يليق بالله عزّ وجلّ دال على كمال عظمته وسلطانه؛ وإذا قلنا بهذا، وسلّمنا أن الغضب صفة حقيقية برئت بذلك ذمتنا، وصرنا حسب ما أمر الله به ورسوله.

{ذَلِكَ} إشارة إلى ما أصابهم من الذلة والمسكنة والغضب، وإنما كان ما في الآية أولى بالافراد لأن الذلة والمسكنة والغضب مما لا يشاهد فلا يشار إلى ذاتها ولكن يشار إلى مضمون الكلام

وهو شيء واحد أي مذكور ومقول ومن هذا قوله تعالى **{ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ}** [آل عمران: ٥٨]. ومنه قوله تعالى **{عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ}** [البقرة: ٦٨]

{بِأَنَّهُمْ} الباء سببية، أي بسبب أنهم **{كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ}** مشتق من النبوة. وهو الارتفاع؛ لارتفاع منزلة الأنبياء، وقيل: من النبأ لأن الأنبياء مخبرون عن الله عز وجل. قتلوا يحيى وشعيا وزكريا. وروي عن ابن مسعود قتل بنو إسرائيل سبعين نبياً.

وقد قتل اليهود من الأنبياء أشعياء بن أموص الذي كان حيا في منتصف القرن الثامن قبل المسيح، قتله الملك منسي ملك اليهود سنة ٧٠٠ قبل المسيح، نشر نشرا على جذع شجرة. وأرمياء النبي الذي كان حيا في أواسط القرن السابع قبل المسيح وذلك لأنه أكثر التوبيخات والنصائح لليهود فرجموه بالحجارة حتى قتلوه وفي ذلك خلاف. وزكرياء الأخير أبا يحيى قتله هيرودس العبراني ملك اليهود من قبل الرومان لأن زكرياء حاول تخليص ابنه يحيى من القتل وذلك في مدة نبوءة عيسى، ويحيى بن زكرياء قتله هيرودس لغضب ابنة أخت هيرودس على يحيى.

{بَغَيْرِ الْحَقِّ} أي بالباطل المحض؛ وهذا القيد لبيان الواقع، وللتشجيع عليهم بفعلهم؛ لأنه لا يمكن قتل نبي بحق أبداً.
قال في البحر المحيط: ولم يرد هذا على أن قتل النبيين ينقسم إلى قتل بحق وقتل بغير حق، بل ما وقع من قتلهم إنما وقع بغير حق، لأن النبي معصوم من أن يأتي أمراً يستحق عليه فيه القتل، وإنما جاء هذا القيد على سبيل التشجيع لقتلهم، والتبحيح لفعلهم مع أنبيائهم، أي بغير الحق عندهم، أي لم يدعوا في قتلهم وجهاً يستحقون به القتل عندهم.

وقيل: جاء ذلك على سبيل التأكيد كقوله تعالى: **{وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}** [الحج: ٤٦]

وإنما قال الأنبياء لأن الرسل لا تسلط عليهم أعداؤهم لأنه مناف لحكمة الرسالة التي هي التبليغ قال تعالى: **{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا}** [غافر: ٥١] وقال: **{وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}** [المائدة: ٦٧] ومن ثم كان ادعاء النصارى أن عيسى قتله اليهود ادعاء منافياً لحكمة الإرسال، ولكن الله أنهى مدة رسالته بحصول المقصد مما أرسل إليه.

{ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} الاعتداء: مجاوزة الحق إلى

الباطل، والمعروف إلى المنكر، والعدل إلى الظلم.

ومعناه: أن الذي حملهم على جحود آيات الله وقتلهم الأنبياء

إنما هو تقدم عصيانهم واعتدائهم، فجسروهم هذا على ذلك، إذ المعاصي بريد الكفر.

وفيه تنبيه على أن إدمان العاصي يفضي إلى التغلغل فيها

والتنقل من أصغرها إلى أكبرها.

وفيه أيضا استحسان الوعظ والتذكير بنعم الله تعالى ونقمه في

الناس.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)

توسط هاته الآية بين آيات ذكر بني إسرائيل بما أنعم الله

عليهم وبما قابلوا به تلك النعم من الكفران وقلة الاكتراث،

فجاءت معترضة بينها لمناسبة يدرکها كل بليغ، وهي أن ما تقدم من

حكاية سوء مقابلتهم لنعم الله تعالى قد جرّت عليهم ضرب الذلة

والمسكنة ورجوعهم بغضب من الله تعالى عليهم، ولما كان الإنحاء عليهم بذلك من شأنه أن يفزعهم إلى طلب الخلاص من غضب الله تعالى، لم يترك الله تعالى عادته مع خلقه من الرحمة بهم وإرادته صلاح حالهم، فبين لهم في هاته الآية أن باب الله مفتوح لهم، وأن اللجأ إليه أمر هين عليهم وذلك بأن يؤمنوا ويعملوا الصالحات.

ومن بديع البلاغة أن قرن معهم في ذلك ذكر بقية من الأمم ليكون ذلك تأنيسا لوحشة اليهود من القوارع السابقة في الآيات الماضية وإنصافا للصالحين منهم، واعترافا بفضلهم، وتبشيرا لصالحى الأمم من اليهود وغيرهم الذين مضوا مثل الذين كانوا قبل عيسى وامتثلوا لأنبيائهم، ومثل الحواريين، والموجودين في زمن نزول الآية مثل عبد الله بن سلام وصهيب، فقد وفّت الآية حق الفريقين من الترغيب والبشارة، وراعت المناسبتين للآيات المتقدمة مناسبة اقتران الترغيب بالترهيب، ومناسبة ذكر الضد بعد الكلام على ضده.

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا} وابتدئ بذكر المؤمنين للاهتمام بشأنهم ليكونوا في مقدمة ذكر الفاضلين فلا يذكر أهل الخير إلا ويذكرون معهم، ومن مراعاة هذا المقصد قوله تعالى **{لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي}**

الْعِلْمُ مِنْهُمْ} أي الذين هادوا **{وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ}** [النساء: ١٦٢]، ولأنهم القدوة لغيرهم كما قال تعالى: **{فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا}** فالمراد من الذين آمنوا في هذه الآية هم المسلمون الذين صدقوا بالنبي محمد -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ، وهذا لقب للأمة الإسلامية في عرف القرآن.

{وَالَّذِينَ هَادُوا} هم بنو إسرائيل، ومعناه صاروا يهودا، نسبوا إلى يهوذا وهو أكبر ولد يعقوب عليه السلام، فقلبت العرب الذال دالا، لأن الأعجمية إذا عربت غيرت عن لفظها.

ويهوذا علم أحد أسباط إسرائيل، وهذا الاسم أطلق على بني إسرائيل بعد موت سليمان -عليه السلام- سنة ٩٧٥ قبل المسيح، فإن مملكة إسرائيل انقسمت بعد موته إلى مملكتين مملكة «رَحَبَعَامَ بْنِ سُلَيْمَانَ» ولم يتبعه إلا سبط يهوذا وسبط بنيامين وتلقب بمملكة يهوذا لأن معظم أتباعه من سبط يهوذا وجعل مقر مملكته هو مقر أبيه (أورشليم)، ومملكة ملكها «يُورَبَعَامُ بْنُ بَنَاطَ» غلام سليمان وكان شجاعا نجيبا، فملكته بقية الأسباط العشرة عليهم، وجعل مقر مملكته (السَّامِرَة) وتلقب بِمَلِكِ إِسْرَائِيلَ، إلا أنه وقومه أفسدوا الديانة الموسوية وعبدوا الأوثان

فلأجل ذلك انفصلوا عن الجامعة الإسرائيلية ولم يدم ملكهم في السامرة إلا مائتين ونيفا وخمسين سنة ثم انقرض على يد ملوك الآشوريين فاستأصلوا الإسرائيليين الذين بالسامرة وخربوها ونقلوا بني إسرائيل إلى بلاد آشور عبيدا لهم وأسكنوا بلاد السامرة فريقا من الآشوريين فمن يومئذ لم يبق لبني إسرائيل ملك إلا ملك يهوذا بأورشليم يتداوله أبناء سليمان -عليه السلام- فمنذ ذلك غلب على بني إسرائيل اسم يهود أي يهوذا ودام ملكهم هذا إلى حد سنة ١٢٠ قبل المسيح في زمن الأمبراطور أَدْرِيَانُ الروماني الذي أجلى اليهود الجلاء الأخير فتفرقوا في الأقطار باسم اليهود هم ومن التحق بهم من فلول بقية الأسباط.

ولعل هذا وجه اختيار لفظ **{وَالَّذِينَ هَادُوا}** في الآية دون (اليهود) للإشارة إلى أنهم الذين انتسبوا إلى اليهود ولو لم يكونوا من سبط يهوذا. ثم صار اسم اليهود مطلقا على المتدينين بدين التوراة، قال تعالى: **{وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ}** [البقرة: ١١٣] ويقال تهود إذا اتبع شريعة التوراة. ويقال هاد إذا دان باليهودية، قال تعالى: **{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ}** [الأنعام: ١٤٦]

وقيل: سموا بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل.. هاد: تاب.
والهائد: التائب، قال الشاعر: إني امرؤ من حبه هائد.. أي تائب.
وفي التنزيل: **{إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}** [الأعراف: ١٥٦] أي تبنا. وهاد
القوم يهودون هودا وهيادة إذا تابوا. وقال ابن عرفة: **{هدنا إليك}**
أي سكنا إلى أمرك. والهواة السكون والموادة.

{وَالنَّصَارَى} اسم جمع نصري أو نصيري نسبة إلى الناصرة،
وهي قرية نشأت منها مريم أم المسيح -عليهما السلام-، وقد
خرجت مريم من الناصرة قاصدة بيت المقدس فولدت المسيح في
بيت لحم، ولذلك كان بنو إسرائيل يدعونه يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ أو
النَّصْرِيِّ فهذا وجه تسمية أتباعه بالنصارى.

{وَالصَّابِئِينَ} جمع صابئ، وقيل: صاب، ولذلك اختلفوا في
همزه، فهمزه الجمهور إلا نافعا. فمن همزه جعله من صبأت النجوم
إذا طلعت، وصبأت ثنية الغلام إذا خرجت. ومن لم يهمز
{وَالصَّابِئِينَ} جعله من صبا يصبو إذا مال، لأن أهل هذا الدين مالوا
عن كل دين إلى دين عبادة النجوم، والأصل توافق القراءات في
المعنى.

فالصائبى في اللغة: من خرج ومال من دين إلى دين، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم «قد صبا». فالصائبون قد خرجوا من دين أهل الكتاب.

والصائبة طائفة تعتبر أن نبي الله يحيى -عليه السلام- نبيا لها، ولذلك النصارى يسمونهم «يوحناسية» نسبة إلى يوحنا وهو يحيى، وهي طائفة يهودية نصرانية ظهرت قديما في العراق في بلاد الكلدان وهي باقية إلى اليوم ويطلق عليها: «الصائبة المندائية».

يقدر أصحابها الكواكب والنجوم ويعظمونها، ومن طقوسهم التعميد كالنصارى إلا أنه تعميد في المياه الجارية. لأنهم يؤمنون بخالق العالم وأنه واحد حكيم مقدس عن سمات الحوادث، غير أنهم قالوا إن البشر عاجزون عن الوصول إلى جلال الخالق فلزم التقرب إليه بواسطة مخلوقات مقربين لديه وهي الأرواح المجردات الطاهرة المقدسة، وزعموا أن هذه الأرواح ساكنة في الكواكب، وأنها تنزل إلى النفوس الإنسانية وتتصل بها بمقدار ما تقترب نفوس البشر من طبيعة الروحانيات، فعبدوا الكواكب بقصد الاتجاه إلى روحانياتها.

ولأجل نزول تلك الروحانيات على النفوس البشرية يتعين تزكية النفس بتطهيرها من آثار القوى الشهوانية والغضبية بقدر الإمكان والإقبال على العبادة بالتضرع إلى الأرواح وتطهير الجسم والصيام والصدقة والطيب، وألزموا أنفسهم فضائل النفس الأربع الأصلية وهي: العفة، والعدالة، والحكمة، والشجاعة.

** تأسيسها:

تدعي طائفة الصابئة المندائية بأن دينها يعود إلى عهد آدم - عليه السلام-، وينسبون أنفسهم إلى سام بن نوح -عليه السلام- .. فهم ساميون.

ويزعم أصحابها أن يحيى -عليه السلام- هو نبيهم الذي أرسل إليهم، وكانوا يسكنون في القدس، وطردوا بعد الميلاد من فلسطين، فهاجروا منها إلى حران، وقد أثروا هناك بمن حولهم وتأثروا بعبدة النجوم والكواكب من الصابئة الحرانيين.

ثم هاجروا من حران إلى الموطن الحالي في جنوب العراق وإيران، ومازالوا هناك، حيث يعرفون «بصابئة البطائح».

** زعماء طائفتهم:

«الكنزبرا» الشيخ عبد الله بن الشيخ سام الذي كان مقيما في بغداد سنة ١٩٦٩م وهو الرئيس الروحي لهم، سكن في دار واقعة بجانب السفارة البريطانية في الكرخ ببغداد عام ١٩٥٤م.

**كتبهم وإعتقاداتهم:

لديهم عدد من الكتب المقدسة باللغة السامية القريبة من السريانية وهي:

١- الكنزاربا: وهو الكتاب العظيم، ويعتقدون أنه مصحف آدم عليه السلام، وفيه مواضيع كثيرة عن النظام وتكوين العالم وحساب الخليقة وأدعية وقصص.

٢- دراشة إديها: وهو ما يدعون أنه تعاليم "يحيى" ومنه تعاليم وحياة النبي يحيى.

٣- الفلستا: أي عقد الزواج، ويتعلق بالاحتفالات والنكاح الشرعي والخطبة.

٤- سدرة إدنشماثا: وتدور محتوياته حول التعميد والدفن والحداد، وانتقال الروح من الجسد إلى الأرض، ومن ثم إلى عالم الأنوار.

٥- كتاب الديونان: وفيه قصص وسير بعض الروحانيين.

٦- كتاب أسفر ملواشة: أي سفر البروج لمصرفة حوادث السنة المقبلة عن طريق علم التنجيم والفلك.

٧- كتاب النيانى: وهو كتاب الأناشيد والأذكار الدينية.

٨- كتاب قماها ذهيفل: وهو مؤلف من ٢٠٠ سطر، عبارة

عن حجاب، ومن يحمله لا يؤثر فيه سلاح ولا نار بزعمهم!!

٩- تفسير بغره: يختص بعلم التشريح لجسم الإنسان

والأطعمة المناسبة لكل طقس وهناك كتب أخرى مثل كتاب ترسسر

ألف شياله، ديوان طقوس التطهير، وكتاب كدا واكد فيانا.

** رجال الدين وطبقاتهم:

يشترط برجل الدين أن يكون سليم الجسم، صحيح الحواس،

متزوجا منجبا، غير مختون، وكلمته نافذة في شؤون الطائفة

كحالات الولادة والتسمية والتعميد والزواج والصلاة والذبح

والجنازة، وتكون مرتبة رجال الدين على النحو التالي:

١- الحلالى (الشماس) يسير في الجنائز، ويقيم سنن الذبح

للعمامة ولا يتزوج إلا بكرا!! وإذا خالف هذه التعاليم سقطت مرتبته

ومنع من وظيفته، إلا إذا تعمد هو وزوجته ٣٦٠ مرة في ماء نهر

جاري.

٢- الترميدة: إذا تمكن الحلالى من الكتابين المقدسين: سدره
إنشماثا والنيانى فإنه يتعمد بالإرتماس [أي الانغماس] فى الماء
الموجود عند "المندي" ويبقى بعدها سبعة أيام مستيقظا لا تغمض
له عين حتى لا يحتلم، ثم يترقى بعدها إلى ترميدة وينحصر عمله
فى العقد على البنات الأبكار.

٣- الأيسق: الترميدة الذى يختص فى العقد على الأرامل
يتحول إلى "أيسق" ولا يحق له الانتقال من مرتبته هذه.

٤- الكنزبرا: الترميدة الفاضل الذى لم يعقد على الثيات من
النساء مطلقا، ويمكنه أن ينتقل إلى الكنزبرا إذا حفظ كتاب الكنزبرا
فيصبح عندئذ مفسرا له ويجوز له مالا يجوز لغيره.

٥- الريشر أمة: أي رئيس الأمة وصاحب الكلمة النافذة، ولا
يوجد بين الطائفة اليوم من بلغ هذه الدرجة.

٦- الرباني: وهو الذى لم يصل إلى هذه الدرجة إلا "يحيى بن
زكريا" عليهما السلام ولا يجوز أن يوجد شخصان من هذه الرتبة فى
وقت واحد.

** اعتقادهم بالخالق:

مبدئيا يعتقدون بوجود الإله الخالق الواحد الأزلي، الذي لا
تصله الحواس ولا يفضي إليه مخلوق، لكنهم يجعلون بعد هذا الإله
٣٦٠ شخصا خلقوا ليفعلوا أفعال الإله!

هؤلاء ليسوا بآلهة ولا ملائكة، يعملون كل شيء من رعد وبرق
ومطر وشمس وليل ونهار... وهم ليسوا مخلوقين مثل بقية
الكائنات الحية، لكن الله ناداهم بأسمائهم فخلقوا وتزوجوا بنساء
من صنفهم، ويتناسلون بأن يلفظ أحدهم كلمة، فتحمل امرأته فوراً
وتلد واحدا منهم!!.

** معابدهم:

"المندي" وهو المعبد للصابئة، وتوجد فيه كتبهم، ويجري فيه
تعميد رجال الدين، ويقام على ضفاف الجهة اليمنى من النهر
الجاري، ولهذا المعبد باب واحد ويقابل الجنوب بحيث يستقبل
الداخل إليه من جهة نجم القطب الشمالي، ولا بد من وجود قناة
فيه متصلة بالنهر، وهذا المعبد لا تدخله النساء مطلقاً.

** الصلاة عندهم:

تؤدى الصلاة عندهم ثلاث مرات يوميا، قبيل الشروق، عند
الزوال، قبيل الغروب.

وتستحب أن تكون جماعة في أيام الآحاد والأعياد، وفيها وقوف وركوع وجلوس على الأرض من غير سجود، وتستغرق ساعة وربعا تقريبا، ويتوجه المصلي خلالها إلى (الجدي) بلباسه الطاهر، صاف القدمين، ويتلو سبع قراءات يمجد فيها الرب.

** الصوم:

الصابئة تحرم الصوم اليوم لأنه من باب تحريم ما أحل الله. ولكنهم يمتنعون عن أكل اللحوم المباحة لهم لمدة ٣٦ يوما متفرقة على طول أيام السنة.

** الطهارة:

الطهارة مفروضة على الذكر والأنثى سواء، وتكون الطهارة في الماء الجاري غير المنقطع عن مجراه الطبيعي، والجنابة عندهم تحتاج إلى طهارة، وذلك بالإرتماس في الماء ثلاث دفعات مع استحضار نية الاغتسال من غير قراءة، لأن القراءة لا تجوز على جنابة، ويعقب الارتماس الوضوء وهو واجب لكل صلاة، حيث يتوضأ الشخص وهو متجه إلى نجم القطب ويكون الوضوء على هيئة وضوء المسلمين مصحوبا بأدعية خاصة.

** أنواع التعميد:

يعتبر التعميد من أبرز مظاهر هذه الديانة، ولا يكون إلا في الماء الحي الجاري، ولا تتم طقوس إلا بالارتماس في الماء سواء أكان صيفا أو شتاء، وقد أجاز لهم رجال الدين عندهم مؤخرا الاغتسال بالحمامات كما أجازوا لهم كذلك ماء العيون النابعة لتحقيق الطهارة.

يجب أن يتم التعميد على أيدي رجال الدين، ويكون العماد في حالات الولادة والزواج، وعماد الجماعة، وعماد الأعياد، ويكون كما يلي:

١- عمادة الولادة: يعمد المولود بعد ٤٥ يوما ليصبح طاهرا من دنس الولادة، حيث يدخل الوليد في الماء الجاري إلى ركبتيه مع الاتجاه جهة نجم القطب، ويوضع في يده خاتم أخضر من نبت الآس.

٢- عمادت الزواج: يتم يوم الأحد وبحضور ترميدة وكنزبرا، ويتم بثلاث دفعات في الماء مع قراءة من كتاب "ألفستا" ولباس خاص، ثم يشربان من زجاجة ملئت بماء من النهر يسمى (مبوهة) ثم يطعمان (البهثة) ويدهن جنيهما بدهن السمسم.

٣- عماد الجماعة: يشمل أبناء الطائفة كافة رجالا ونساء وكبارا وصغارا، وذلك بالإرتماس في الماء الجاري قبل تناول الطعام في كل يوم من الأيام الخمس.

٤- عماد الأعياد: وهذه الأعياد هي العيد الكبير، العيد الصغير، عيد البنجة، عيد يحيى كما أنهم يعمدون المحتضر ودفنه، ومن مات بدون عمادة فإنه يموت نجسا ويحرم لمسه، ومن مات يغسل ويكفن ويدفن حيث يموت ولا يجوز نقله من بلد إلى آخر مطلقا..

أما من يموت غيلة وفجأة، فإنه لا يغسل ولا يلمس، ويقوم الكنزبرا الواجب العماد عنه.

** طريقة الدفن:

تكون بوضع الميت مستلقيا على ظهره ووجهه ورجلاه متجهان نحو برج الجدي. يحرم على أهل الميت البكاء والعويل والندب، والموت عندهم مدعاة للسرور ويكون يوم المأتم أكثر الأيام فرحا حسب "وصية يحيى لزوجته".

تعتقد طائفة الصابئة بعدم الخلود في النار، بل عندما يموت الإنسان، إما ينتقل إلى الجنة أو المطهر حيث يعذب بدرجات

متفاوتة، ثم تنتقل روحه إلى الملاء الأعلى، فالروح خالدة والجسد فان.

قبل الزواج تقوم والددة الكنزبرا أو امرأته بفحص كل فتاة عذراء بعد تعميدها، ولا يعترف الصابئة بالطلاق إلا إذا كانت هناك انحرافات أخلاقية، وتم التفريق بين الزوج والزوجة عن طريق الكنزبرا.

** السنة المندائية

السنة المندائية هي ٣٦٠ يوما في ١٢ شهرا، وفي كل شهر ثلاثون يوما مع خمسة أيام كبس يقام فيها عيد البنية. والصابئة يعتقدون بصحة التاريخ الهجري، ويستعملونه بسبب اختلاطهم بالمسلمين، وقد تأثروا باليهودية والمسيحية والمجوسية، ويعظمون يوم الأحد كالنصارى ويقدسونه، ولا يعملون فيه أي شيء على الإطلاق.

من غرائبهم أنهم لا يلبسون اللون الأزرق النيلي مطلقا، ويتنبؤون بحوادث المستقبل عن طريق التأمل في السماء والنجوم، ويستعملون بعض الحسابات الفلكية لذلك.

من اعتقاداتهم أن الشخص المتوفى دون إنجاب أولاد، فإنه يمر بالمطهر بعد إقامته في العالم الآخر، وللرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء حسب ما تسمح له ظروفه. يرفضون شرب الدواء، ولا اعتراض على دهن الجسم والحقن الجلدية.

لا تؤكل الذبائح إلا أن تذبح بيدي رجال الدين الصابئة وبحضور الشهود ولهم طريقة في الذبح... أما الميراث فيكون محصورا في الابن الأكبر، وقد جاوروا المسلمين وأخذوا بقانون الميراث الإسلامي.

تأثر الصابئة بكثير من الديانات، وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم مقترنا باليهود والنصارى والمجوس والمشركين في سورة البقرة والمائدة والحج.

** انتشارهم

تنتشر طائفة الصابئة على الضفاف السفلى من نهري دجلة والفرات ويسكنون منطقة الأهوار وشط العرب والبصرة وقلعة صالح والحلفاية، والزكية وسوق الشيوخ والقرنه، وبعدد من الألوية مثل لواء بغداد والحلة والكوت والديوانية وكركوك والموصل، وفي

مواضع أخرى في العراق، كما ينتشرون في إيران، ويقدر عددهم بحوالي عشرة آلاف شخص معظمهم في العراق.

رحل بعضهم إلى بيروت ودمشق والإسكندرية، ومنهم في طرابلس لبنان، ولهم جاليات في إيطاليا وفرنسا وأميركا، وهم يتقربون إلى أصحاب الديانات الأخرى وليس لهم طموح سياسي.

ودين الصابئة كان معروفا للعرب في الجاهلية، بسبب جوار بلاد الصابئة في العراق والشام لمنازل بعض قبائل العرب مثل ديار بكر وبلاد الأنباط المجاورة لبلاد تغلب وقضاة.

ألا ترى أنه لما بعث محمد -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وصفه المشركون بالصائب، وربما دعوه بـ «ابن أبي كبشة» الذي هو أحد أجداد آمنة الزهرية أم النبي -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، كان أظهر عبادة الكواكب في قومه فزعموا أن النبي ورث ذلك منه وكذبوا.

وفي حديث عمران ابن حصين أنهم كانوا في سفر مع النبي -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ونفذ مأوهم فابتغوا الماء فلقوا امرأة بين مزادتين على بعير فقالوا لها انطلقني إلى رسول الله فقالت الذي يقال له الصائب قالوا هو الذي تعين. وساق حديث تكثير الماء.

وقد اختلف علماء الإسلام في إجراء الأحكام على الصابئة، فعن مجاهد والحسن أنهم طائفة بين اليهود والمجوس، وقال البيضاوي: هم قوم بين النصارى والمجوس فمن العلماء من ألحقهم بأهل الكتاب، ومن العلماء من ألحقهم بالمجوس، وسبب هذا الاضطراب هو اشتباه أحوالهم وتكتمهم في دينهم، وما دخل عليه من التخليط بسبب قهر الأمم التي تغلبت على بلادهم. فالقسم الذي تغلب عليهم الفرس اختلط دينهم بالمجوسية، والذين غلب عليهم الروم اختلط دينهم بالنصرانية.

قال ابن شاس في كتاب الجواهر الثمينة: قال الشيخ أبو الطاهر -يعني ابن بشير التنوخي القيرواني-: "منعوا ذبائح الصابئة لأنهم بين النصرانية والمجوسية". ولا شك أنه يعني صابئة العراق، الذين كانوا قبل ظهور الإسلام على بلادهم على دين المجوسية.

وفي التوضيح على مختصر ابن الحاجب الفرعي في «باب الذبائح» قال الطرطوشي: لا تؤكل ذبيحة الصابيء وليست بحرام كذبيحة المجوسي، وفيه في «باب الصيد» قال مالك: لا يؤكل صيد الصابيء ولا ذبيحته.

وفي شرح عبد الباقي علي خليل: إن أخذ الصابئ بالنصرانية ليس بقوي كما ذكره أبو إسحاق التونسي، وعن مالك لا يتزوج المسلم المرأة الصائبة.

ويجيز أغلب فقهاء المسلمين أخذ الجزية من معتنقيها أسوة باليهود والنصارى.

ووجه الاقتصار في الآية، على ذكر هذه الأديان الثلاثة مع الإسلام دون غيرها من نحو المجوسية والدهريين والزنادقة أن هذا مقام دعوتهم للدخول في الإسلام والمتاب عن أديانهم التي أبطلت لأنهم أرجي لقبول الإسلام من المجوس والدهريين لأنهم يشبتون الإله المتفرد بخلق العالم ويتبعون الفضائل على تفاوت بينهم في ذلك، فلذلك اقتصر عليهم تقريبا لهم من الدخول في الإسلام. ألا ترى أنه ذكر المجوس معهم في قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِّينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}** [الحج: ١٧] لأن ذلك مقام تثبيت للنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - والمسلمين.

{مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ} الإيمان الكامل، وهو الإيمان برسالة محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بقرينة المقام.

{وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ} أي ثوابهم؛ وسمى الله تعالى "الثواب" أجراً؛ لأنه سبحانه وتعالى التزم على نفسه أن يجزي به كالتزام المستأجر بدفع الأجرة للأجير.

{عِنْدَ رَبِّهِمْ} أطلق الأجر على الثواب مجازاً لأنه في مقابلة العمل الصالح والمراد به نعيم الآخرة، وليس أجراً دنيوياً بقرينة المقام.

وإضافة {عند} لاسم الرب تعالى مما يزيد الأجر تحققاً لأن المضاف إليه أكرم الكرماء فلا يفوت الأجر الكائن عنده.

{وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} "الخوف": هو الهَمُّ مما يستقبل؛ و "الحزن": هو الغم على ما فات من محبوب، أو ما حصل من مكروه.

ولما كان الخوف والحزن متلازمين كانت خصوصية كل منهما سارية في الآخر.

فالمقصود من الآية فتح باب الإنابة، وتذكيراً لليهود بأنهم لا منزلة لهم على غيرهم من الأمم حتى لا يتكلوا على الأوهام أنهم أحباء الله وأن ذنوبهم مغفورة.

وفي ذلك أيضا إشارة إلى أن المؤمنين الخالصين من اليهود وغيرهم ممن سلف مثل النقباء الذين كانوا في المناجاة مع موسى ومثل يوشع بن نون وكالب بن يفنة [لأنهما اتبعا الرب تماما] لهم هذا الحكم، وهو أن لهم أجرا عند ربهم.

وقد استشكل ذكر {الَّذِينَ آمَنُوا} في عداد هؤلاء، وإجراء قوله: {مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ} عليهم مع أنهم مؤمنون فذكرهم تحصيل الحاصل، ف قيل: أريد به خصوص «المؤمنين بالسنتهم فقط، وهم المنافقون».

وقيل أراد به الجميع وأراد بمن آمن من دام بالنسبة للمخلصين ومن أخلص بالنسبة للمنافقين.

وقيل: المخلصون وإن كان إيمانهم حاصلا فقد بقي عليهم العمل الصالح.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ

كُونُوا قِرْدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا
وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦)

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ} الميثاق: العهد الثقيل المؤكد باليمين؛
وسمي بذلك من الوثاق. وهو الحبل الذي يُشد به المأسور، كما
في قوله تعالى: {فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا
أَتَخْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ} [محمد: ٤]

وهذا هو الإنعام العاشر، لأنه إنما أخذ ميثاقهم لمصلحتهم،
والميثاق المراد به الشريعة حيث وعدهم بالعمل بها وقد سمته
كتبهم «عهدا» فهو العهد منهم ليعملن بما في التوراة، فلما جاء
موسى قرءوا ما فيها من الثقل فامتنعوا من أخذها، ومنه قوله
تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ}
[البقرة: ٨٣]

قال القفال: قال ميثاقكم ولم يقل موثيقكم، لأنه أراد ميثاق
كل واحد منكم، كقوله: {ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} [الحج: ٥] أو لأن ما

أخذه على واحد منهم، أخذه على غيره، فكان ميثاقاً واحداً، ولو جمع لا حتمل التغاير.

{وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ} الجبل الذي ناجى الله تعالى عليه موسى -عليه السلام- ببرية سيناء.. أوضحه بقوله: **{وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ}** [الأعراف: ١٧١].

وسبب رفعه امتناعهم من دخول الأرض المقدسة، أو من السجود، أو من أخذ التوراة والتزمها.. أقوال ثلاثة.

روي أن موسى لما جاء إلى بني إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة قال لهم: "خذوها والتزموها"، فقالوا: لا، إلا أن يكلمنا الله بها، كما كلمك، فصعقوا ثم أحيوا.

فقال لهم: خذوها، فقالوا: لا. فأمر الله تعالى الملائكة فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله، وكذلك كان عسكرهم، فجعل عليهم مثل الظلة، وأخرج الله تعالى البحر من ورائهم، وأضرم ناراً بين أيديهم، فاحتاط بهم غضبه، ف قيل لهم: خذوها وعليكم الميثاق أن لا تضيعوها، وإلا سقط عليكم الجبل، وغرقكم البحر، وأحرقكم النار، فسجدوا توبة لله، وأخذوا التوراة بالميثاق، وسجدوا على شق لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفاً. فلما

رحمهم الله قالوا: لا سجدة أفضل من سجدة تقبلها الله ورحم بها،
فَأَمَرُوا سَجُودَهُمْ عَلَى شِقِّ وَاحِدٍ.

{خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ} قائلين لهم خذوا، وذلك هو الذي أخذ
الميثاق عليه. والأخذ مجاز عن التلقي والتفهم.

ولم يبين هنا هذا الذي آتاهم ما هو، ولكنه بين في موضع آخر
أنه الكتاب الفارق بين الحق والباطل، وذلك في قوله: **{وَإِذْ آتَيْنَا
مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}** [البقرة: ٥٣]

{بِقُوَّة} بإتقان التلقي وجدّ واجتهاد وعزيمة، والباء للمصاحبة،
أي أخذاً مصحوباً بقوة، فلا تهملوا شيئاً منه **{وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ}** أي
اذكروا كل ما فيه، واعملوا به؛ لأن {ما} اسم موصول يفيد العموم.
والمعنى: احفظوا ما فيه ولا تنسوه وادرسوا ألفاظه وتدبروا معانيه
وطبقوه في حياتكم.

{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} علة للأمر بقوله: **{خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ}** ولذلك فصلت بدون عطف.

فالأخذ بهذا الميثاق الذي آتاهم الله تعالى على وجه القوة،
وذكر ما فيه وتطبيقه يوجب التقوى؛ لأن الطاعات يجز بعضها
بعضاً، كما قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا**

كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ { [البقرة: ١٨٣] ؛
فالطاعات يجبر بعضها بعضاً، لأن الطاعة إذا ذاق الإنسان طعمها
نشط، وابتغى طاعة أخرى، ويتغذى قلبه؛ وكلما تغذى من هذه
الطاعة رغب في طاعة أخرى؛ وبالعكس المعاصي: فإنها توجب
وحشة بين العبد وبين الله عزّ وجلّ، ونفوراً، والمعاصي يجبر بعضها
بعضاً؛ وسبق قوله تعالى: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا
بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ
بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [البقرة: ٦١]

والذي يفهم من سياق الكلام أنهم امتثلوا الأمر وفعلوا
مقتضاه، يدل على ذلك {ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ} أي أعرضتم عن
الميثاق والعمل بما فيه، وأصل التولي: أن يكون بالجسم، ثم
استعمل في الإعراض عن الأمور والأديان.

وقد عُلِمَ أنهم بعدما قبلوا التوراة، تولوا عنها بأمور، فحرّفوها،
وتركوا العمل بها، وقتلوا الأنبياء، وكفروا بالله، وعصوا أمره. ومن
ذلك ما اختص به بعضهم، وما عمله أوائلهم، وما عمله أواخرهم.

ولم يزالوا في التيه، مع مشاهدتهم الأعاجيب، يخالفون موسى،
ويظاهرون بالمعاصي في عسكرهم، حتى خسف ببعضهم، وأحرقت

النار بعضهم، وعوقبوا بالطاعون، وكل هذا مذكور في تراجم التوراة التي يقرءون بها، ثم فعل ساحروهم ما لا خفاء به، حتى عوقبوا بتخريب بيت المقدس، وكفروا بالمسيح وهموا بقتله.

وقيل: لم يؤمنوا إلا حين رفع فوقهم الطور كأنه ظلة، وظنوا أنه واقع بهم؛ فحينئذ آمنوا؛ وهذا الإيمان في الحقيقة يشبه إيمان المكروه الذي قيل له: إما أن تؤمن؛ أو تُقتل. وفيه لؤم بني إسرائيل؛ لأنهم بعد أن رجع الجبل إلى مكانه تولوا.

{فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ} الفضل: قبول التوبة، والرحمة: العفو عن الزلة.

{لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ} الخسران: هو النقصان، ومعناه من الهالكين في الدنيا والآخرة، أي الذين خسروا الدنيا والآخرة، فلم يربحوا منهما بشيء؛ لأن أخسر الناس هم الكفار؛ فلا هم استفادوا من دنياهم، ولا من آخرتهم.

وفيه أن الإنسان لا يستقل بنفسه في التوفيق.

{وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ} الخطاب لبني إسرائيل؛ أي علمتم علم القين، وعرفتم معرفة تامة.

وإنما خالف في حكاية هاته القصة أسلوب حكاية ما تقدمها وما تلاها من ذكر {إذ} المؤذنة بزمان القصة والمشعرة بتحقيق وقوعها إلى قوله هنا: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ} لمعنى بديع هو من وجوه إعجاز القرآن، وذلك أن هذه القصة المشار إليها بهذه الآية ليست من القصص التي تضمنتها كتب التوراة مثل القصص الأخرى المأتي في حكايتها بكلمة إذ لأنها متواترة عندهم بل هذه القصة وقعت في زمن داود عليه السلام، فكانت غير مسطورة في الأسفار القديمة وكانت معروفة لعلمائهم وأخبارهم فأطلع الله تعالى نبيه - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عليها، وتلك معجزة غيبية وأوحى إليه في لفظها ما يؤذن بأن العلم بها أخفى من العلم بالقصص الأخرى فأسند الأمر فيها لعلمهم إذ قال: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ}.

{الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ} وغلب إطلاق الاعتداء على مخالفة الحق وظلم الناس، والمراد هنا «اعتداء الأمر الشرعي» لأن الأمر الشرعي يشبه بالحد في أنه يؤخذ بما شمله ولا يؤخذ بما وراءه، والاعتداء الواقع منهم هو اعتداء أمر الله تعالى إياهم من عهد موسى بأن يحافظوا على حكم السبت وعدم الاكتساب فيه ليتفرغوا فيه للعبادة بقلب خالص من الشغل بالدنيا، فكانت طائفة من

سكان أيلة [بلدة على خليج صغير من البحر الأحمر في أطراف مشارف الشام وتعرف اليوم بالعقبة، وهي غير إيلياء الذي هو اسم بيت المقدس] على البحر رأوا تكاثر الحيتان يوم السبت بالشاطئ لأنها إذا لم تر سفن الصيادين وشباكهم أمنت فتقدمت إلى الشاطئ تفتح أفواهها في الماء لابتلاع ما يكون على الشواطئ من آثار الطعام ومن صغير الحيتان وغيرها، فقالوا: "لو حفرنا لها حياضا وشرعنا إليها جداول يوم الجمعة فتمسك الحياض الحوت إلى يوم الأحد فنصطادها"

وفعلوا ذلك فغضب الله تعالى عليهم لأنهم تحيلوا على اعتياض العمل في السبت، مع ما اقترن به من الاستخفاف واعتقادهم أنهم علموا ما لم تهتد إليه شريعتهم فعاقبهم الله تعالى بما ذكره هنا.

{فِي السَّبْتِ} تجاوزوا الحدّ فيه حيث حرم عليهم الصيد فيه فصادوا.. أجمل قصتهم هنا وفصلها في سورة "الأعراف"، في قوله: **{وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ}** [الآيات:

[١٦٣

{فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً} بتصيير أجسامهم أجسام قردة مع بقاء

الإدراك الإنساني وهذا قول جمهور العلماء والمفسرين.

ومعنى كونهم قردة أنهم لما لم يتلقوا الشريعة بفهم مقاصدها ومعانيها وأخذوا بصورة الألفاظ فقد أشبهوا العجماوات في وقوفها عند المحسوسات فلم يتميزوا عن العجماوات إلا بالشكل الإنساني، وهذه القردة تشاركهم في هذا الشبه، وهذا معنى قول مجاهد: "هو مسخ قلوب لا مسخ ذوات".

ثم إن القائلين بوقوع المسخ في الأجسام اتفقوا أو كادوا على أن الممسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام وأنه لا يتناسل، ففي صحيح مسلم قال رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ هِيَ مِمَّا مُسِخَ فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَهْلِكْ قَوْمًا أَوْ يُعَذِّبْ قَوْمًا فَيَجْعَلَ لَهُمْ نَسْلًا وَإِنَّ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ) أي: قبل مسخ بني إسرائيل، فدل على أنها ليست من المسخ.

أما ما رواه مسلم في «بَاب فِي الْفَارِ وَأَنَّهُ مَسْخٌ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (فُقِدَتْ أُمَّةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا يُدْرَى مَا فَعَلَتْ، وَلَا أَرَاهَا إِلَّا الْفَارَ،

أَلَا تَرَوْنَهَا إِذَا وُضِعَ لَهَا أَلْبَانُ الْإِبِلِ لَمْ تَشْرَبْهُ، وَإِذَا وُضِعَ لَهَا أَلْبَانُ الشَّاءِ شَرِبْتَهُ) قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَحَدَّثْتُ هَذَا الْحَدِيثَ كَغَبًّا، فَقَالَ: أَنْتَ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؟! قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ ذَلِكَ مِرَارًا قُلْتُ: أَأَقْرَأُ التَّوْرَةَ؟!..

أي: هل أنا أقرأ التوراة حتى أنقل منها؟ استفهام استنكاري، ومعناه ما أعلم ولا عندي شيء إلا عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولا أنقل عن التوراة ولا غيرها من كتب الأوائل شيئا، بخلاف كعب الأحبار وغيره ممن له علم بعلم أهل الكتاب .. أي لا أقول إلا ما سمعته من رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وقد تأول الحديث ابن عطية وابن رشد في البيان وغير واحد من العلماء بأن هذا قاله النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن اجتهاد قبل أن يوقفه الله على أن الممسوخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام ولا يتناسل كما هو صحيح مسلم.

ويؤيد هذا أنه قاله عن اجتهاد قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (ولا أراها). ولا شك أن هاته الأنواع من الحيوان موجودة قبل المسخ، وأن المسخ إليها دليل على وجودها ومعرفة الناس بها.

{خَاسِئِينَ} مبعدين ذليين.. روي في بعض قصصهم: أن الواحد منهم كان يأتيه الشخص من أقاربه الذين نهوهم فيقول له: ألم أنك؟ فيقول له برأسه: بلى، وتسيل دموعه على خده، ولم يتعرض في هذا المسخ شيء منهم خنازير.

قال ابن عاشور: وهذا الأمر التكويني كان لأجل العقوبة على ما اجتروا من الاستخفاف بالأمر الإلهي حتى تحيلوا عليه، وفي ذلك دليل على أن الله تعالى لا يرضى بالحيل على تجاوز أوامره ونواهيه، فإن شرائع الله تعالى مشروعة لمصالح وحكم، فالتحيل على خرق تلك الحكم بإجراء الأفعال على صور مشروعة مع تحقق تعطيل الحكمة منها جراءة على الله تعالى، ولا حجة لمن ينتحل جواز الحيل بقوله تعالى في قصة أيوب **{وَأَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ}** [ص: ٤٤] لأن تلك فتوى من الله تعالى لنبي لتجنب الحنث الذي قد يتفادى عنه بالكفارة، ولكن الله لم يرض أصل الحنث لنبيه لأنه خلاف الأولى فأفتاه بما قاله، وذلك مما يعين على حكمة اجتناب الحنث لأن فيه محافظة على تعظيم اسم الله تعالى فلا فوات للحكمة في ذلك.

وقال ابن عثيمين: وفيها تحريم الحيل، وأن المتحيل على المحارم لا يخرج عن العدوان؛ لقوله تعالى: **{الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ}**؛ بل الحيل على فعل محرم أعظم إثماً من إتيان المحرم على وجه صريح؛ لأنه جمع بين المعصية، والخداع؛ ولهذا كان المنافقون أشد جرمًا وعداوة للمؤمنين من الكفار الصرحاء؛ قال أيوب السخيتاني -رحمه الله- في المتحيلين: "إنهم يخادعون الله كما يخادعون الصبيان؛ ولو أتوا الأمر على وجهه لكان أهون".

{فَجَعَلْنَاهَا} أي فجعلنا عقوبة كينونتهم قردة خاسئين {نَكَالًا} عبرة، والنَّكَالُ: الْعِقَابُ الشَّدِيدُ الَّذِي يَرْدَعُ الْمُعَاقَبَ عَنِ الْعُودِ لِلْجِنَايَةِ وَيَرْدَعُ غَيْرَهُ عَنِ ارْتِكَابِ مِثْلِهَا، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ نَكَلَ إِذَا امْتَنَعَ، وَيُقَالُ: نَكَلَ بِهِ تَنكِيلًا وَنَكَالًا مَعْنَى عَاقَبَهُ بِمَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْعُودِ.

{لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا} من حضرها من الناجين أو لما حولها من القرى، وما خلفها ممن يجيء بعدهم، ويكون "الخلف" هنا بمعنى الأمام، كما جاء "الوراء" بمعنى الأمام في قوله تعالى: **{وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}** [الكهف: ٧٩]

{وَمَوْعِظَةٌ} الموعظة ما به الوعظ، وهو الترهيب من الشر
{لِّلْمُتَّقِينَ} يتعظون بها فلا يقدمون على معاصي الله عز وجل..
خص المتقين لأنهم الذين ينتفعون بالعظة والتذكير، قال تعالى:
{وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: ٥٥] **{إِنَّمَا أَنْتَ**
مُنذِرٌ مِّنْ يَخْشَاهَا} [النازعات: ٤٥]

وفيه أن المواعظ قسمان: كونية، وشرعية؛ فالموعظة هنا كونية
قدرية؛ لأن الله أحل بهم العقوبة التي تكون نكالاً لما بين يديها،
وما خلفها، وموعظة للمتقين؛ وأما الشرعية فمثل قوله تعالى: **{يَا**
أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ
وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٥٧]؛ والمواعظ الكونية أشد
تأثيراً لأصحاب القلوب القاسية؛ أما المواعظ الشرعية فهي أعظم
تأثيراً في قلوب العارفين بالله اللينة قلوبهم؛ لأن انتفاع المؤمن
بالشرائع أعظم من انتفاعه بالمقدورات.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا
اتَّخِذْنَا هُزُوءًا قَالِ أَعِودُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ
(٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ

إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا
تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ
إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعُ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ
(٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ
عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا
بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ
فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ
(٧١)

ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها، أنه تقدم ذكر مخالفتهم
لأنبيائهم وتكذيبهم لهم في أكثر أنبيائهم، فناسب ذلك ذكر هذه
الآية لما تضمنت من المراجعة والتعنت والعناد مرة بعد مرة.

قال ابن عاشور: تعرضت هذه الآية لقصة من قصص بني
إسرائيل ظهر فيها من قلة التوقير لنبیهم ومن الإعنات في المسألة
والإلحاح فيها إما للتفصي من الامتثال وإما لبعد أفهامهم عن
مقصد الشارع ورومهم التوقيف على ما لا قصد إليه.

{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ} وإضافة "القوم" إليه لبيان أنه عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يقول لهم إلا ما فيه خير؛ لأن الإنسان سوف ينصح لقومه أكثر مما ينصح لغيرهم.

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ} صَدَّر الأمر من الله تعالى؛ ولم يقل: آمركم، ولا قال: اذبحوا؛ ليكون أعظم وقعاً في نفوسهم، وأدعى إلى قبوله وامتناله.

{أَنْ تَذَبَحُوا بَقَرَةً} وإنما اختص البقر من سائر الحيوانات لأنهم كانوا يعظمون البقر، فاختبروا بذلك، إذ هذا من الابتلاء العظيم، وهو أن يؤمر الإنسان بقتل من يحبه ويعظمه.

{قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا} سخرية.. وهي أبلغ من قول "أستهزئ بنا"؛ لأن الأولى تفيد أنهم جعلوا محل استهزاء. بخلاف الثانية فإنما تدل على حصول الاستهزاء. ولو بمرة واحدة.

وإنما قالوا ذلك لاستبعادهم أن يكون ذبح البقرة سبباً لزوال ما بينهم من المداراة.

وفيه دليل على سوء عقيدتهم في نبيهم وتكذيبهم له، إذ لو علموا أن ذلك إخبار صحيح عن الله تعالى، لما كان جوابهم إلا امتثال الأمر، وجوابهم هذا كفر بموسى.

{قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ} أي اعتصم بالله تعالى، والاستعاذة لا تكون إلا بالله عز وجل؛ وقد تكون بالمخلوق فيما يقدر عليه، مثل قوله -صلى الله عليه وسلم-: (سَتَكُونُ فِتْنُ الْقَاعِدِ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ وَالْقَائِمِ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي وَمَنْ يُشْرِفَ لَهَا تَسْتَشْرِفُهُ وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ). [البخاري من حديث أبي هريرة]

{أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} من أولي الجهل فأتخذ عباد الله هزواً؛ والمراد بـ "الجهل" هنا السفه، كما في قوله تعالى: **{إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ}** [النساء: ١٧]. أي بسفاهة

وهو تبرؤ وتنزه عن الهزء لأنه لا يليق بالعقلاء الأفاضل، فإنه أخص من المزح لأن في الهزؤ مزحاً مع استخفاف واحتقار للممزوح معه، على أن المزح لا يليق في المجامع العامة والخطابة، فضلاً على أنه لا يليق بمقام الرسول ولذا تبرأ منه موسى بأن نفى أن يكون من الجاهلين كناية عن نفي المزح بنفي ملزومه، وبالف في التنزه بقوله: **{أَعُوذُ بِاللَّهِ}** أي منه لأن العياذ بالله أبلغ كلمات النفي، فإن المرء لا يعوذ بالله إلا إذا أراد التغلب على أمر عظيم لا

يغلبه إلا الله تعالى. وصيغة: **{أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}** أبلغ في انتفاء الجهالة من أن لو قال: "أعوذ بالله أن أجهل".

وقال في البحر المحيط: لما فهم موسى -عليه السلام- عنهم أن تلك المقالة التي صدرت عنهم إنما هي لاعتقادهم فيها أنه أخبر عن الله بما لم يأمر به، استعاذ بالله وهو الذي أخبر عنه، أن يكون من الجاهلين بالله، فيخبر عنه بأمر لم يأمر به تعالى، إذ الإخبار عن الله تعالى بما لم يخبر به الله إنما يكون ذلك من الجهل بالله تعالى.

وقوله: **{مِنَ الْجَاهِلِينَ}**، فيه تصريح أن ثم جاهلين، واستعاذ بالله أن يكون منهم، وفيه تعريض أنهم جاهلون، وكأنه قال: "أن أكون منكم"، لأنهم جؤزوا على من هو معصوم من الكذب، وخصوصاً في التبليغ، عن الله أن يخبر عن الله بالكذب.

{قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ} فأمره أمراً، ثم أضافوا ربوبية الله عز وجل إلى موسى، كأنهم متبرئون من ذلك؛ فلم يقولوا: "ادع ربنا"، أو "ادع الله".

{يَبِينُ لَنَا مَا هِيَ} وهذا القول أيضاً فيه تعنيت منهم وقلة طواعية، إذ لو امتثلوا فذبحوا بقرة، لكانوا قد أتوا بالمأمور، ولكن شددوا، فشدد الله عليهم.

{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ} من البقر وهو الشق، لأنها تشق الأرض، والذكر: ثور.

{لَا فَارِضٌ} المسنة لأنها فرضت سنّها أي قطعتها. والفرض القطع، ويقال للقديم فارض، وقيل: ولدت بطوناً كثيرة فاتسع جوفها، لأن الفارض في اللغة: الواسع، أو الكبيرة الهرمة عند الجمهور.

{وَلَا بَكْرٌ} الفتية التي لم تلد ولم يقرعها الفحل، مشتقة من البكرة وهي أول النهار، لأن البكر في أول سنوات عمرها.

وهذا تفسير الكلمة، أو معرفة معنى الكلمة بمعرفة ما يقابلها. وله نظير في القرآن، مثل قوله تعالى: **{فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ وَفِرُوا جَمِيعاً}** [النساء: ٧١]؛ فكلمة: {ثبات} هنا يتبين معناها بما ذكر مقابلاً لها. وهو قوله تعالى: **{أَوْ وَفِرُوا جَمِيعاً}**؛ فيكون معناها: متفرقين أفراداً.

وقوله: **{لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ}** صفة للبقرة، والصفة إذا كانت منفية بلا، وجب تكرارها، لنفي ذينك الوصفين ولا يقصد إثبات وصف آخر وسط بينهما كقوله تعالى: **{انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ}** [المرسلات: ٣٠-٣١] **{وَوَيْلٌ مِّن يَّحْمُومٍ}** [دخان شديد السواد] **{لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ}** [الواقعة: ٤٣-٤٤]

{عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ} متوسطة السن، قد ولدت بطناً أو بطنين، وإنما جعلت عواناً لأنه أكمل أحوالها.. وجاء في جوابهم بهذا الإطناب دون أن يقول من أول الجواب إنها عوان تعريضا بغاوتهم واحتياجهم إلى تكثير التوصيف حتى لا يترك لهم مجالا لإعادة السؤال.

{فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ} هذا الأمر من موسى؛ وليس من كلام الله عز وجل.. والفاء هي الفصيحة وموقعها هنا موقع قطع العذر مع الحث على الامتثال، حيث حرّضهم على امتثال ما أمروا به شفقة منه.

{قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَّنَا مَا لَوْنُهَا} وذلك كله يدل على نقص فطرهم وعقولهم، إذ قد تقدّم أمران: أمر الله لهم بذبح بقرة،

وأمر المبلغ عن الله، الناصح لهم، المشفق عليهم، بقوله: **{فَفَاعِلُوا مَا تُوْمَرُونَ}**، ومع ذلك لم يرتدعوا عن السؤال عن لونها.

{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا} شديد أو خالص أو صافي الصفرة، لأن صفرة البقر تقرب من الحمرة غالباً فأكدته بفاقع، والفقوع خاص بالصفرة، كما اختص الأحمر بقان والأسود بحالك والأبيض بناصع.

{تَسُرُّ النَّاطِرِينَ} تبهج الناظرين إليها، وجاء بوصف الجمع في {الناظرين}، ليوضح أن أعين الناس طامحة إليها، متلذذة فيها بالنظر. فليست مما تعجب شخصاً دون شخص، ولذلك أدخل الألف واللام التي تدل على الاستغراق.

والأصفر هو اللون المعروف، ولذلك أكد بالفقوع والسرور، ولم يكتف بقوله: «صفراء فاقعة»، لأنه أراد تأكيد نسبة الصفرة، فحكم عليها أنها صفراء، ثم حكم على اللون أنه شديد الصفرة، فابتدأ أولاً بوصف البقرة بالصفرة، ثم أكد ذلك بوصف اللون بها، فكأنه قال: هي صفراء، ولونها شديد الصفرة.

{قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا} تعليل لتكرار هذا السؤال إلى أن الحامل على استقصاء أوصاف هذه

البقرة، وهو تشابهها علينا، فإنه كثير من البقر يماثلها في السن واللون.

وقيل: اعتذار عن إعادة السؤال، وإنما لم يعتذروا في المرتين الأوليين واعتذروا الآن لأن للثالثة في التكرير وقعا من النفس في التأكيد والسامة وغير ذلك، ولذلك كثر في أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة.

وفي الحقيقة أنه ليس في هذا اشتباه؛ إذ ذكر لهم أنها بقرة، وذكر لهم سنّها؛ وذكر لهم لونها؛ فأين التشابه؟! لكن هذا من عنادهم، وتعنتهم، وتباطئهم في تنفيذ أمر الله.

{وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ} إلى عين البقرة المأمور بذبحها، وفيها تنشيط لموسى ووعد له بالامتنال لينشط إلى دعاء ربه بالبيان ولتندفع عنه سامة مراجعتهم التي ظهرت بوارقها في قوله: **{فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ}** ولإظهار حسن المقصد من كثرة السؤال وأن ليس قصدهم الإعنات. تفاديا من غضب موسى عليهم.

والتعليق بـ **{إِنْ شَاءَ اللَّهُ}** للتأدب مع الله في رد الأمر إليه، وإنابة وانقياد ودلالة على ندمهم على ترك موافقة الأمر.

{قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ} بفتح الدال، بمعنى لان

وسهل. وأما الذل بضم الدال فهو ضد العز.

{تُثِيرُ الْأَرْضَ} إثارة الأرض حرثها وقلب داخل ترابها ظاهرا

وظاهره باطنا، أطلق على الحرث فعل الإثارة تشبيها لانقلاب أجزاء

الأرض بثورة الشيء من مكانه إلى مكان آخر كما قال تعالى: **{اللَّهُ**

الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ}

[الروم: ٤٨] أي تبعثه وتنقله، وقوله: **{أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ**

فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

وَأَثَارُوا الْأَرْضَ} [الروم: ٩]

{وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ} لم تدلل بالعمل، لا في حرث، ولا في

سقي، ولهذا نفى عنها إثارة الأرض وسقيها

وقيل المعنى أنها لم تبلغ سن أن يحرق عليها وأن يسقى

بجرها، أي هي عجلة قاربت هذا السن، وهو الموافق لما حدد به

سناها في التوراة.

{مُسَلَّمَةٌ} سالمة من العيوب **{لَا شَيْءَ فِيهَا}** الشية العلامة، من

وشي الثوب إذا نسجه ألوانا، أي لا لون فيها يخالف لونها من سواد

أو بياض ولا أي لون آخر.

{قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ} بحقيقة نعت البقرة، وما بقي فيها إشكال، أرادوا بالحق الأمر الثابت الذي لا احتمال فيه، كما تقول جاء بالأمر على وجهه، ولم يريدوا من الحق ضد الباطل لأنهم ما كانوا يكذبون نبيهم.

ومن المفسرين من قال: مقتضى كلامهم أنه أولاً أتى بالباطل، وقد صدّروا هذه القصة بقولهم **{أَتَّخِذْنَا هُزُوءًا}**؛ يعني الآن عرفنا أنك لست تستهزئ؛ وإنما أنت صادق؛ هذا هو المتبادر من الآية الكريمة، وليس بغريب على تعنتهم أن يقولوا مثل هذا القول.

قال في التحرير والتنوير: فإن قلت لماذا ذكر هنا بلفظ {الحق} وهلا قيل قالوا الآن جئت بالبيان أو بالثبت؟.

قلت: لعل الآية حكى معنى ما عبر عنه اليهود لموسى بلفظ هو في لغتهم محتمل للوجهين فحكى بما يرادفه من العربية تنبيها على قلة اهتمامهم بانتقاء الألفاظ النزيهة في مخاطبة أنبيائهم وكبرائهم، كما كانوا يقولون للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- {راعنا}، فنهينا نحن عن أن نقوله بقوله تعالى **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا}** [البقرة: ١٠٤] وهم لقلة جدارتهم بفهم الشرائع قد توهموا أن في الأمر بذبح بقرة دون بيان صفاتها تقصيرا

كانهم ظنوا الأمر بالذبح كالأمر بالشراء فجعلوا يستوصفونها بجميع الصفات واستكملوا موسى لما بين لهم الصفات التي تختلف بها أغراض الناس في الكسب للبقر ظنا منهم أن في علم النبي بهذه الأغراض الدنيوية كمالا فيه، فلذا مدحوه بعد البيان بقولهم **{الآن جِئْتُ بِالْحَقِّ}** كما يقول الممتحن للتلميذ بعد جمع صور السؤال الآن أصبت الجواب، ولعلمهم كانوا لا يفرقون بين الوصف الطردي وغيره في التشريع. فليحذر المسلمون أن يقعوا في فهم الدين على شيء مما وقع فيه أولئك وذموا لأجله.

{فَذَبْخُوهَا} أي بعد العثور عليها بأوصافها السابقة، ولم يقل يذبحون كراهية إعادة اللفظ تفننا في البيان.

وفي الإسرائيليات أن هذه البقرة كانت عند رجل بارٍّ بأمه، وأنهم اشتروها منه بملء مَسْكها ذهباً. يعني بملء جلدتها ذهباً.

وبذلك يعلم أن أمرهم بهاته الصفات كلها هو تشريع طارئ قصد منه تأديبهم على سؤالهم فإن كان سؤالهم للمطل والتنصل فطلب تلك الصفات المشقة عليهم تأديب على سوء الخلق والتذرع للعصيان، وإن كان سؤالاً ناشئاً عن ظنهم أن الاهتمام بهاته البقرة يقتضي أن يراد منها صفات نادرة كما هو ظاهر قولهم بعد:

{وَأَنَا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ} فتكليفهم بهاته الصفات العسير وجودها مجتمعة تأديب علمي على سوء فهمهم في التشريع كما يؤدب طالب العلم إذا سأل سؤالاً لا يليق برتبته في العلم.

وقد قال عمر لأبي عبيدة في واقعة الفرار من الطاعون لو غيرك قالها يا أبا عبيدة. ومن ضروب التأديب الحمل على عمل شاق، وقد أدب رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عمه عباساً -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- على الخرص حين حمل من خمس مال المغنم أكثر من حاجته.. فروى البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ أَتَى النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَقَالَ (انْشُرُوهُ فِي الْمَسْجِدِ) وَكَانَ أَكْثَرَ مَالٍ أَتَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى الصَّلَاةِ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ جَاءَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ فَمَا كَانَ يَرَى أَحَدًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِذْ جَاءَهُ الْعَبَّاسُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْطِنِي فَإِنِّي فَادَيْتُ نَفْسِي وَفَادَيْتُ عَقِيلاً فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (خُذْ) فَحَتَا فِي ثَوْبِهِ ثُمَّ ذَهَبَ يُقْلُهُ [يرفعه ويحمله] فَلَمْ يَسْتَطِعْ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْمُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعُهُ إِلَيَّ. قَالَ: (لَا) قَالَ: فَارْفَعُهُ أَنْتَ عَلَيَّ. قَالَ: (لَا) فَشَرَّ مِنْهُ ثُمَّ ذَهَبَ يُقْلُهُ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ

أَوْمَرُ بَعْضَهُمْ يَرْفَعُهُ عَلَيَّ قَالَ: (لَا) قَالَ: فَارْفَعُهُ أَنْتَ عَلَيَّ. قَالَ:
(لَا) فَنَثَرَ مِنْهُ ثُمَّ اخْتَمَلَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى كَاهِلِهِ ثُمَّ انْطَلَقَ فَمَا زَالَ رَسُولُ
اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُتْبِعُهُ بَصَرَهُ حَتَّى خَفِيَ عَلَيْنَا عَجَبًا مِنْ
حِرْصِهِ فَمَا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَثَمَّ مِنْهَا دِرْهَمٌ.
ومما يدل على أنه تكليف لقصد التأديب أن الآية سيقّت
مساك الذم لهم وعدت القصة في عداد قصص مساويهم وسوء
تلقّيههم للشريعة بأصناف من التقصير عملا وشكرا وفهما بدليل قوله
تعالى آخر الآيات: {وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ} مع ما روى عن ابن عباس
-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أنه قال: "لو ذبحوا أي بقرة أجزأتهم ولكن
شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم".

وبهذا تعلمون أن ليس في الآية دليل على تأخير البيان عن
وقت الخطاب ولا على وقوع النسخ قبل التمكن لأن ما طرأ
تكليف خاص للإعنات على أن الزيادة على النص ليست بنسخ
عند المحققين وتسميتها بالنسخ اصطلاح القدماء.

{وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ} أي ما قاربوا أن يفعلوا؛ وقاموا بذبحها
على مضض، وذلك بإيرادهم الطلب عن سنّها، ولونها، وعملها،
وهذا تباطؤ يبعدهم من الفعل؛ لكنهم فعلوا.

والسبب الذي لأجله ما كادوا يذبحون هو: إمّا غلاء ثمنها، وإمّا خوف فضيحة القاتل، وإمّا قلة انقياد وتعنت على الأنبياء على ما عهد منهم.

وهذا تعريض بهم بذكر حال من سوء تلقيهم الشريعة تارة بالإعراض والتفريط، وتارة بكثرة التوقف والإفراط، وفيه تعليم للمسلمين بأصول التفقه في الشريعة، والأخذ بالأوصاف المؤثرة في معنى التشريع دون الأوصاف الطردية.

وكان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ينهي أصحابه عن كثرة السؤال وقال: (مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ) [مسلم]

وبين للذي سأله عن اللقطة ما يفعله في شأنها.. فروى البخاري عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الْجُهَنِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَسَأَلَهُ عَمَّا يَلْتَقِطُهُ؟ فَقَالَ: (عَرَفَهَا سَنَةً ثُمَّ احْفَظْ عِفَاصَهَا [وعائها] وَوِكَاءَهَا [الخيط الذي تُشَدُّ بِهِ]، فَإِنْ جَاءَ أَحَدٌ يُخْبِرُكَ بِهَا، وَإِلَّا فَاسْتَنْفِقْهَا) قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَضَالَّةُ الْغَنَمِ؟ قَالَ: (لَكَ أَوْ لِأَخِيكَ أَوْ لِلذَّئْبِ) [ورخص في ضالة الغنم أي إن لم

تأخذها أنت أخذها إنسان سواك أو أكلها الذئب فخذها] قَالَ:
فضالة الإبل؟ فتمعر وجه النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: (ما
لك ولها معها حذاؤها وسقاؤها ترد الماء وتأكل الشجر) [وغلظ
في ضالة الإبل وأراد بحذاؤها أخفافها أي أنها تقوى على قطع
البلاد. وسقاؤها؛ أنها على ورود المياه وكذلك البقر والخيول والبغال
والحمير وكل ما استقل بنفسه. ومنه قول عمر -رضي الله تعالى
عنه- لثابت بن الضحاك -وكان وجد بعيرا-: اذهب إلى الموضع
الذي وجدته فيه فأرسله]

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ
(٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى
وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ
ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا
يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ
وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ (٧٤)

{وَإِذْ} تصديره بـ «إِذْ» على طريقة حكاية ما سبق من تعداد النعم والألطف ومقابلتهم إياها بالكفران والاستخفاف، يومئ إلى أن هذه قِصَّةٌ غَيْرُ قِصَّةِ الذبح ولكنها حدثت عقب الأمر بالذبح لإظهار شيء من حكمة ذلك الأمر الذي أظهروا استنكاره عند سماعه إذ قالوا **{أَتَتَّخِذُنَا هُزُوءًا}** وفي ذلك إظهار معجزة لموسى عليه السلام.

{قَتَلْتُمْ} يشير إلى وقوع قَتْلٍ فيهم وهي طريقة القرآن في إسناد أفعال البعض إلى الجميع جريا على طريقة العرب في قولهم: "قتلت بنو فلان فلانا"، وذلك أن نفرا من اليهود قتلوا ابنَ عَمِّهِمُ الْوَحِيدَ ليرثوا عمهم، وطرحوه في محلة قوم، وجاءوا موسى يطالبون بدم ابن عمهم بهتانا، وأنكر المتهمون، فأمره الله تعالى بأن يضرب القتل ببعض تلك البقرة فينطق ويخبر بقاتله.

{نَفْسًا} النفس الواحد من الناس لأنه صاحب نَفْسٍ أَيْ رُوحٍ وَتَنَفُّسٍ، وَهِيَ مَأْخُودَةٌ مِنَ التَّنَفُّسِ وفي الحديث: (مَا مِنْ نَفْسٍ مِّنْفُوسَةٍ إِلَّا كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ) [البخاري] ولا شعارها بمعنى التَّنَفُّسِ.

واختلَفَ في جَوَازِ إِطْلَاقِ «النَّفْسِ» على الله تعالى وإضافتها

إليه:

ف قيل يجوز لقوله تعالى حكاية عن كلام عيسى: {تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} [المائدة: ١١٦] ولقوله في الحديث القدسي (فَإِنْ ذَكَرْنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي) [البخاري]

وقيل لا يجوز إلا للمشكلة، كما في الآية والحديث القدسي. والظاهر الجواز ولا عبرة بأصل مأخذ الكلمة من التنفس، فالنفس أيضا الذات .. قال تعالى: {يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا} [النحل: ١١١]. وتطلق النفس على روح الإنسان وإدراكه، ومنه قوله تعالى {تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي} وقول العرب: "قلت في نفسي" أي في تفكري دون قول لفظي، ومنه إطلاق العلماء الكلام النفسي على المعاني التي في عقل المتكلم التي يعبر عنها باللفظ. والأمر بذبح البقرة متقدماً والقتل تأخر، كحالهما في التلاوة. وهذا لتظهر الحكمة البالغة في تكليفهم أولاً ذبح بقرة، هل يمثلون ذلك أم لا؟ وامثال التكاليف التي لا يظهر فيها ببادئ الرأي حكمة أعظم من امثال ما تظهر فيه حكمة، لأنها طوعية صرف، وعبودية

محضة، واستسلام خالص، بخلاف ما تظهر له حكمة، فإن في العقل داعية إلى امتثاله، وحضاً على العمل به.

ولم يصرح هل هذه النفس ذكر أو أنثى؟. وقد أشار إلى أنها ذكر بقوله: **{فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَبَعْضِهَا}**

{فَادَارَأْتُمْ فِيهَا} التدارؤ هو التدافع، بأن يكون بعضهم طرح قتله على بعض، وقذف بعضهم بعضاً بالتهمة والبراءة.

والكلمة افتعال، وادارأتم أصله تدارأتم تفاعل من الدرء وهو الدفع لأن كل فريق يدفع الجناية عن نفسه، فلما أريد إدغام التاء في الدال على قاعدة تاء الافتعال مع الدال والذال جلبت همزة الوصل لتيسير التسكين للإدغام.

{وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} أي مظهر ما كنتم تخفونه من تعيين القاتل؛ وذلك بالآية العظيمة التي بينها في قوله تعالى: **{فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَبَعْضِهَا}** وهي جملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه، مشعرة بأن التدارؤ لا يجدي شيئاً، إذ الله تعالى مظهر ما كنتم من أمر القتل.

{فَقُلْنَا} القائل هو الله عزّ وجلّ؛ ولكن عن طريق الوحي إلى نبيه موسى -عليه الصلاة والسلام-؛ وأضاف قول موسى إليه تبارك

وتعالى؛ لأنه هو الأمر به، كما في قوله سبحانه وتعالى: { لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ } [القيامة: ١٦-١٨]: فالمراد بقوله تعالى: {قَرَأْنَاهُ} قرأه جبريل -عليه الصلاة والسلام-؛ فهنا قوله تعالى: {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا} يعني أن الله تعالى أمر نبيه موسى -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فقال لهم بأمر الله: {اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا}

{اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا} الظاهر أنهم أمروا أن يضربوه بأي بعض كان، وفي الكلام حذف يدل عليه ما بعده وما قبله، والتقدير: فضرِبوه فحيي، دل على ضربوه قوله تعالى: {اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا}، ودل على فحيي قوله تعالى: {كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى}

ومن الفوائد: أن المبهم في أمور متعددة أيسر على المكلف من المعين؛ وذلك إذا كانوا قد أمروا أن يضربوه ببعضها فقط؛ فإذا قيل لك: "افعل بعض هذه الأشياء" يكون أسهل مما إذا قيل لك: "افعل هذا الشيء بعينه"؛ فيكون في هذا توسعة على العباد إذا خيروا في أمور متعددة. والله أعلم..

{كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى} والمماثلة إنما هي في مطلق الإحياء لا في كيفية الإحياء، فيكون ذلك إشارة إلى إحياء القتل.

وروي أنه قام وأوداجه تشخب دماً، وأخبر بقاتله فقال: "قتلني ابن أخي"، فقال بنو أخيه والله ما قتلناه، فكذبوا بالحق بعد معاينته، ثم مات مكانه.

والخطاب هنا على نحو الخطاب في الآيات السابقة المبني على تنزيل المخاطبين منزلة أسلافهم لحمل تبعتهم عليهم بناء على أن: «خلق السلف يسري إلى الخلف».

قال في البحر المحيط: وإذا كان ذلك خطاباً لبني إسرائيل الحاضرين إحياء القتل، فحكمه مشاهدة ذلك، وإن كانوا مؤمنين بالبعث، اطمئنان قلوبهم وانتفاء الشبهة عنهم، إذ الذي كانوا مؤمنين به بالاستدلال آمنوا به مشاهدة.

وقال ابن عاشور: وإنما تعلق إرادة الله تعالى بكشف حال قتلي هذا القتل مع أن دمه ليس بأول دم طلّ في الأمم إكراماً لموسى عليه السلام أن يضيع دم في قومه وهو بين أظهرهم وبمرآى منه ومسمع لا سيما وقد قصد القاتلون استغفال موسى ودبروا المكيدة في إظهارهم المطالبة بدمه فلو لم يظهر الله تعالى هذا الدم في أمة لضعف يقينها برسولها ولكان ذلك مما يزيدهم شكاً في صدقه فينقلبوا كافرين فكان إظهار هذا الدم كرامة لموسى

ورحمة بالأمة لئلا تضل فلا يشكل عليكم أنه قد ضاع دم في زمن نبينا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما في حديث حويصة ومحبيصة الآتي لظهور الفرق بين الحالين بانتفاء تدبير المكيدة وانتفاء شك الأمة في رسولها وهي خير أمة أخرجت للناس.

فروى مسلم عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ وَرَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ أَنَّ مُحَيِّصَةَ بِنَ مَسْعُودٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ سَهْلٍ انْطَلَقَا قَبْلَ خَيْبَرَ فَتَفَرَّقَا فِي النَّخْلِ فَقُتِلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَهْلٍ فَاتَّهَمُوا الْيَهُودَ فَجَاءَ أَخُوهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَابْنَا عَمِّهِ حُوَيْصَةُ وَمُحَيِّصَةُ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَتَكَلَّمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي أَمْرِ أَخِيهِ وَهُوَ أَصْغَرُ مِنْهُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (كَبُرَ الْكُبْرُ) أَوْ قَالَ: (لَيَبْدَأُ الْأَكْبَرُ) فَتَكَلَّمَا فِي أَمْرِ صَاحِبَيْهِمَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَقْسِمُ خَمْسُونَ مِنْكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ فَيُدْفَعُ بِرُمَّتِهِ) [الرُّمَّة -بضم الراء- الحبل والمراد هنا الحبل الذي يربط في رقبة القتال ويسلم فيه إلى ولي القتل] قَالُوا: أَمْرٌ لَمْ نَشْهَدْهُ كَيْفَ نَحْلِفُ. قَالَ: (فَتَبَرُّكُمْ يَهُودُ بِأَيْمَانِ خَمْسِينَ مِنْهُمْ) قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَوْمٌ كُفَّارٌ [أي: كيف نقبل أيمانهم وهم كفار يكذبون]. قَالَ فَوَدَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ قَبْلِهِ [عني: لم يضيع دمه، بل

وداه من عنده صلوات الله وسلامه وبركاته عليه] قَالَ سَهْلٌ فَدَخَلْتُ
مَرْبَدًا [الموضع الذي يجتمع فيه الإبل] لَهُمْ يَوْمًا فَرَكَضَتْنِي نَاقَةٌ مِنْ
تِلْكَ الْإِبِلِ رَكُضَةً بِرَجْلِهَا [يعني: أن هذه الإبل التي وداه الرسول -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بها جعلوها في مكان معين يقال له: المربد،
فدخل سهل -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فركضته ناقة من تلك الإبل ركضة،
فهو يتذكر الذي حصل في هذه الحادثة، حيث إنه رأى تلك الإبل
التي دفعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم دية لعبد الله بن
سهل]

{وَيُزِيكُمُ آيَاتِهِ} أي يظهرها لكم حتى تروها.. والظاهر أن
الآيات جمع في اللفظ والمعنى، وهي ما أراهم من إحياء الميت،
والعصا، والحجر، والغمام، والمن والسلوى، والسحر، والبحر،
والطور، وغير ذلك.

وكانوا مع ذلك أعمى الناس قلوباً، وأشد قسوة وتكديباً لنبيهم
في تلك الأوقات التي شاهدوا فيها تلك العجائب والمعجزات.
وقال صاحب المنتخب: **{وَيُزِيكُمُ آيَاتِهِ}**، وإن كانت آية
واحدة، لأنها تدل على وجود الصانع القادر على كل المقدورات،
العالم بكل المعلومات، المخترع في الإيجاد والإبداع، وعلى صدق

موسى -عليه الصلاة والسلام-، وعلى براءة ساحة من لم يكن قاتلاً، وعلى تعيين تلك التهمة على من باشر ذلك القتل. انتهى كلامه.

{لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} "لعل" للتعليل؛ أي لأجل أن تعقلوا عن الله - تبارك وتعالى - آياته، وتفهموها؛ والعقل هو ما يحجز الإنسان عن فعل ما لا ينبغي؛ وهو خلاف الذكاء؛ فالذكاء هو سرعة البديهة والفهم؛ وقد يكون الإنسان ذكياً، ولكنه ليس بعاقل.

قال الماوردي: كان الضرب بميت لا حياة فيه، لئلا يلتبس على ذي شبهة أن الحياة إنما انقلبت إليه مما ضرب به لتزول الشبهة وتتأكد الحجة.

{ثُمَّ} للترتيب الرتبي الذي تنهياً له "ثم" إذا عطفت الجمل ..أي: ومع ذلك كله لم تلن قلوبكم ولم تنفعكم الآيات، فقست قلوبكم وكان من البعيد قسوتها.

{قَسَتْ قُلُوبُكُمْ} القساوة موضوعة للأجسام حقيقة، واستعملت في القلوب مجازاً وهو الصحيح، فقد شاع هذا المجاز حتى ساوى الحقيقة وصار غير محتاج إلى القرينة.

كنى بالقسوة عن نبوّ القلب عن الاعتبار، وأن المواعظ لا تجول فيه. لأن صدور هذا الخارق العظيم الخارج عن مقدار البشر فيه من الاعتبار والعظات ما يقتضي لين القلوب والإنابة إلى الله تعالى، والتسليم لأقضيته، فصدر مهم غير ذلك من غلط القلوب وعدم انتفاعها، بما شاهدت، والتعنت والتكذيب، حتى نقل أنهم بعدما حيي القتل، وأخبر بمن قتله قالوا: كذب.

وأيضاً من أسباب قسوة قلوبهم، ما أشار الله تعالى إليه في مواضع أخر كقوله: **{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً}** [المائدة: ١٣]، وقوله: **{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ}** [الحديد: ١٦] أي الزمن بينهم وبين أنبيائهم.

{مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ} زيادة تعجيب من طرق القساوة للقلب بعد تكرر جميع الآيات السابقة المشار إلى مجموعها بذلك.

إشعاراً بأن القسوة كان ابتداءؤها عقيب مشاهدة ذلك الخارق، ولكن العطف بـثم يقتضي المهلة، فيتدافع معنى «ثم»، ومعنى «من»، فلا بد من تجوّز في أحدهما. والتجوز في ثم أولى، لأن

سجايهم تقتضي المبادرة إلى المعاصي بحيث يشاهدون الآية العظيمة، فينحرفون إثرها إلى المعصية عناداً وتكديماً.

{فَهِى كَالْحِجَارَةِ} أشهر الأشياء في وصف القساوة هو الحجر، وقد كانت صلابة الحجر أعرف للناس وأشهر لأنها محسوسة فلذلك شبه بها.

والمعنى: قلوبهم صلبة، لا تخلخلها الخوارق، كما أن الحجر خلق صلباً، وجمعت الحجارة ولم تفرد، فيقال كالحجر، فيكون أخصر، إذ دلالة المفرد على الجنس كدلالة الجمع، لأنه قول الجمع بالجمع، لأن قلوبهم جمع، فناسب مقابلته بالجمع، ولأن قلوبهم متفاوتة في القسوة، كما أن الحجارة متفاوتة في الصلابة.

وفيه تشبيه المعقول بالمحسوس؛ لأن الحجارة أمر محسوس؛ والقلب قسوته أمر معقول؛ إذ إنه ليس المعنى أن القلب الذي هو المضغة يقسو؛ القلب هو هو؛ لكن المراد: أنه يقسو قسوة معنوية بإعراضه عن الحق، واستكباره عليه؛ فهو أمر معنوي شبه بالأمر الحسي؛ وهذا من بلاغة القرآن تشبيه المعقول بالمحسوس حتى يتبين.

{أَوْ} هنا ليست للشك؛ لأن الله سبحانه وتعالى عالم بحالها؛ لكن اختلف العلماء -رحمهم الله- هل هي بمعنى «بل»، فتكون للإضراب؛ أو إنها لتحقيق ما سبق. أي أنها إن لم تكن أشد من الحجارة فهي مثلها؟

في هذا قولان لأهل العلم؛ وهي كقوله تعالى: **{وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}** [الصافات: ١٤٧] فمن العلماء من قال: إن «أو» بمعنى «بل». أي: "بل يزيدون على مائة ألف"؛ ومنهم من قال: إنها لتحقيق ما سبق. أي: "إن لم يزيدوا على مائة ألف فإنهم لن ينقصوا"؛ والله أعلم بما أراد في كتابه..

ووجه تفضيل تلك القلوب على الحجارة في القساوة أن القساوة التي اتصفت بها القلوب مع كونها نوعا مغايرا لنوع قساوة الحجارة قد اشتركا في جنس القساوة الراجعة إلى معنى عدم قبول التحول، فهذه القلوب قساوتها عند التمحيص أشد من قساوة لحجارة لأن الحجارة قد يعتريها التحول عن صلابتها وشدتها بالتفتت والتشقق وهذه القلوب لم تجد فيها محاولة.

{أَشَدُّ قَسْوَةً} وقيل: أو للتنويع، وكأن قلوبهم على قسمين: قلوب كالحجارة قسوة، وقلوب أشد قسوة من الحجارة، فأجمل

ذلك في قوله: **{ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ}**، ثم فصل ونوع إلى مشبه بالحجارة، وإلى أشدّ منها، إذ ما كان أشدّ، كان مشاركاً في مطلق القسوة، ثم امتاز بالأشدية.

والمعنى أن قلوب هؤلاء جاسية صلبة لا تلينها المواعظ، ولا تتأثر للزواج، وإن من الحجارة ما يقبل التخلخل، وأنها متفاوتة في قبول ذلك.

{وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَّا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ} تعليل لوجه التفضيل إذ من شأنه أن يستغرب. كأنه يجعل مضمون هذه المعطوفات غير راجع إلى معنى تشبيه القلوب بالحجارة في القساوة بل يجعلها إخباراً عن مزايا فضلت بها الحجارة على قلوب هؤلاء بما يحصل عن هذه الحجارة من منافع في حين تعطل قلوب هؤلاء من صدور النفع بها.

والتفجر: التفتح بالسعة والكثرة، والانفجار دونه، والمعنى: إن من الحجارة ما فيه خروق واسعة يندفق منها الماء الكثير الغمر.

{وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَشَقُّقُ} التشقق: التصدّع بطول أو بعرض، فينبع منه الماء بقلّة حتى لا يكون نهراً **{فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهْطُ}** الهبوط: التردّي من علو إلى أسفل **{مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}** من

خوفه للعلم بعظمته، ومن بديع التخلص تأخر قوله تعالى: {وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ}

واختلف المفسرون في ذلك، فقال قوم معناه: من خشية الحجارة لله تعالى، فهي مصدر مضاف للمفعول، وأن الله تعالى جعل لهذه الأحجار التي تهبط من خشية الله تعالى تمييزاً قام لها مقام الفعل المودع فيمن يعقل، واستدل على ذلك بأن الله تعالى وصف بعض الحجارة بالخشية، وبعضها بالإرادة، ووصف جميعها بالنطق والتحميد والتقديس والتأويب والتصدع، وكل هذه صفات لا تصدر إلا عن أهل التمييز والمعرفة.

قال تعالى: {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١] {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء: ٤٤] {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ} [سبأ: ١٠]

وفي صحيح مسلم عن عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنِّي لَا أَعْرِفُ حَجْرًا بِمَكَّةَ
كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَا أَعْرِفُهُ الْآنَ)

وأنه بعد مبعثه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ما مرّ بحجر ولا مدر
إلا سلم عليه، وفي الحجر الأسود الذي رواه علي -رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ- قَالَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْحَجَرِ
الْأَسْوَدِ وَلَهُ لِسَانٌ ذَلِقٌ [فصيح بليغ] يَشْهَدُ لِمَنْ يَسْتَلِمُهُ بِالتَّوْحِيدِ)
[الحاكم والبيهقي]

وفي حديث الحجر الذي فرّ بثوب موسى -عليه السلام-
وصار يعدو خلفه ويقول: (ثَوْبِي حَجَرٌ ثَوْبِي حَجَرٌ) [البخاري].
وفي الحديث عن جبل أحد، قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:
(هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ) [البخاري]

وفي حديث حراء في صحيح مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ عَلَى جَبَلٍ حِرَاءٍ
فَتَحَرَّكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (اسْكُنْ حِرَاءَ
فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صَدِيقٌ أَوْ شَهِيدٌ وَعَلَيْهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ - وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ)

وفي حديث: تسبيح صغار الحصى بكف رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فعن ثابت البناني عن أنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أخذ حصيات في يده فسبحن حتى سمعنا التسبيح ثم صيرهن في يد أبي بكر فسبحن حتى سمعنا التسبيح، ثم صيرهن في يد عمر فسبحن حتى سمعنا التسبيح، ثم صيرهن في يد عثمان فسبحن حتى سمعنا التسبيح، ثم صيرهن في أيدينا رجلا رجلا فما سبحت حصاة منهن [الهيثمي في مجمع الزوائد]

وفي حديث نبي الله يونس -عليه السلام-: وَقَدْ كَانَ وَكَلَّ بِهِ الْحُوتُ، فَلَمَّا وَقَعَ ابْتَلَعَهُ فَأَهْوَى بِهِ إِلَى قَرَارِ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ يُنْسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ تَسْبِيحَ الْحَصَى [مصنف ابن أبي شيبة]

وقد دلت هذه الجملة وأحاديث أخر على نطق الحيوانات والجمادات، وانقياد الشجر وغير ذلك. فلولا أنه تعالى أودع فيها قوة مميزة، وصفة ناطقة، وحركة اختيارية، لما صدر عنها شيء من ذلك، ولا حسن وصفها به... وإلى هذا ذهب مجاهد وابن جريج

وجماعة... واختيار ابن عطية -رحمهم الله تعالى-، أن الله يخلق
للحجارة قدراً ما من الإدراك، تقع به الخشية والحركة.

وذهب قوم إلى أن الخشية هنا مجاز من مجاز الاستعارة، كما
استعيرت الإرادة للجدار في قوله تعالى: {فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ
أَنْ يَنْقُضَ} [الكهف: ٧٧] أي من رأى الحجر متردياً من علو إلى
أسفل، تخيل فيه الخشية، فاستعار الخشية، كناية عن الانقياد لأمر
الله، وأنها لا تمتنع على ما يريد الله تعالى فيها. فمن يراها يظن أن
ذلك الانفعال السريع هو مخافة خشية الله تعالى.

وهذا قول من ذهب إلى أن الحياة والنطق لا يحلان في
الجمادات، وذلك ممتنع عندهم. وتأولوا ما ورد في القرآن
والحديث، مما يدل على ذلك على أن الله تعالى قرن بها ملائكة،
هي التي تسلم وتتكلم، كما ورد أن الرحم معلقة بالعرش، تنادي:
اللهم صل من وصلني، واقطع من قطعني. والأرحام ليست بجسم،
ولا لها إدراك، ويستحيل أن تسجد المعاني، أو تتكلم، وإنما قرن
الله تعالى بها ملكاً يقول ذلك القول.

وتأولوا: هذا جبل يحبنا ونحبه، أي يحبه أهله ونحب أهله،
كقوله تعالى: {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا
وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [يوسف: ٨٢]

{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} هذا فيه وعيد، أي فعلتم ما
فعلتم وما الله بغافل عن كل صنعكم، وذلك أنه لما قال: {ثُمَّ
قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ}، أفهم أنه ينشأ عن قسوة القلوب
أفعال فاسدة وأعمال قبيحة، من مخالفة الله تعالى، ومعاودة رسله،
فأعقب ذلك بتهديدهم بأن الله تعالى ليس بغافل عن أعمالهم، بل
هو تعالى يحصيها عليهم، وإذا لم يغفل عنها كان مجازياً عليها.
وهذه الصفة من صفات الله سبحانه وتعالى السلبية؛ والصفات
السلبية هي التي ينفيها الله سبحانه وتعالى عن نفسه. وتتضمن
أمرين هما: نفي هذه الصفة؛ وإثبات كمال ضدها.

ونفي الله تعالى الغفلة عنه. وانتفاء الشيء عن الشيء قد يكون
لكونه لا يمكن منه عقلاً، ولكونه لا يقع منه مع إمكانه.
وقد ذهب القاضي إلى أنه لا يصح أن يوصف الله تعالى بأنه
ليس بغافل، قال: لأنه يوهم جواز الغفلة عليه، وليس الأمر كما
ذهب إليه، لأن نفي الشيء عن الشيء لا يستلزم إمكانه. ألا ترى

إلى قوله تعالى: {لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ} [البقرة: ٢٥٥] وقوله: {وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ} [الأنعام: ١٤] فقد نفى عنه تعالى ما لا يستلزم إمكانه له.

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ
كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ
(٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُسْهُمْ
إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ
بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)

{أَفَتَطْمَعُونَ} الطمع ترقب حصول شيء محبوب مع الرغبة
الأكيدة، وهو يرادف الرجاء، وهو ضد اليأس، الهمزة للاستفهام؛
والمراد به الاستبعاد، والتثبيس.

{أَنْ يُؤْمِنُوا} اليهود {لَكُمْ} جماعة المؤمنين، وإنما نهينا عن
الطمع في إيمانهم لا عن دعوتهم للإيمان لأننا ندعوهم للإيمان
وإن كنا آيسين منه لإقامة الحجة عليهم في الدنيا عند إجراء أحكام
الكفر عليهم وفي الآخرة أيضا، ولأن الدعوة إلى الحق قد تصادف

نفساً نيرة فتنفعها فإن استبعاد إيمانهم حكم على غالبهم وجمهرتهم
أما الدعوة فإنها تقع على كل فرد منهم.

{وَقَدْ} الواو واو الحال، وقد للتحقيق **{كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ}**
أسلافهم من الأحرار من عاداتهم تحريف كلام الله، وهم سالكو
سننهم ومتبعوهم في تضليلهم، فيكون الحال قيماً في الطمع
المستبعد، أي يستبعد الطمع في إيمان هؤلاء وصفتهم هذه.

{يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ} وسماعهم كلام الله على التقديرين هو
سماع الوحي بواسطة الرسول إن كان الفريق من الذين كانوا زمن
موسى أو بواسطة النقل إن كان من الذين جاءوا من بعده. أما سماع
كلام الله مباشرة فلم يقع إلا لموسى عليه السلام وأياً ما كان
فالمقصود بهذا الفريق جمع من علمائهم دون عامتهم.

{ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ} بتبديل ألفاظ من تلقائهم، وقيل: بالتأويل، مع
بقاء لفظ التوراة.

والتحريف أصله مصدر من حَرَّفَ الشَّيْءَ إِذَا مَالَ بِهِ إِلَى
الْحَرْفِ، وهو يقتضي الخروج عن جادة الطريق. ولما شاع تشبيه
الحق والصواب والرشد والمكارم بالجادة وبالصرائط المستقيم شاع
في عكسه تشبيه ما خالف ذلك بالانحراف وبيِّنات الطريق.

فالمراد بالتحريف إخراج الوحي والشرعة عما جاءت به إما بتبديل وهو قليل وإما بكتمان بعض وتناسيه وإما بالتأويل البعيد وهو أكثر أنواع التحريف.

{مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ} من بعد ما ضبطوه وفهموه، ولم تشبهه عليهم صحته **{وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** ومتعلق العلم محذوف، أي أنهم قد حرفوه، أو ما في تحريفه من العقاب، أو أنه الحق، أو أنهم مبطلون كاذبون.

وهو قيد في القيد يعني يسمعون ثم يعقلونه ثم يحرفونه وهم يعلمون أنهم يحرفون، وأن قوما توارثوا هذه الصفة لا يطمع في إيمانهم لأن الذين فعلوا هذا إما أن يكونوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو بني عمهم فالغالب أن يكون خلقهم واحدا وطباعهم متقاربة كما قال نوح عليه السلام: **{وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا}** [نوح: ٢٧] وللعرب والحكماء في هذا المعنى أقوال كثيرة مرجعها إلى أن الطباع تورث، ولذلك كانوا يصفون القبيلة بصفات جمهورها أو أراد بالفريق علماءهم وأحبارهم، فالمراد: لا طمع لكم في إيمان قوم هذه صفات خاصتهم وعلمائهم فكيف ظنكم بصفات دهمائهم لأن الخاصة في كل أمة هم مظهر محامدها وكمالاتها فإذا بلغت

الخاصة في الانحطاط مبلغا شنيعا فاعلم أن العامة أفضع وأشنع، وأراد بالعامة الموجودين منهم زمن القرآن لأنهم وإن كان فيهم علماء إلا أنهم كالعامة في سوء النظر ووهن الوازع.

وفي الآية أن الإنكار على العالم أشد من الإنكار على الجاهل، لأن عند العالم دواعي الطاعة، لما علم من ثوابها، وتواني المعصية لما علم من عقابها.

وفي الآية أيضا دليل على أن العالم بالحق المعاند فيه أبعد عن الرشد، لأنه علم الوعد والوعيد ولم يشنه ذلك عن عناده.

فقد كان اليهود جبهة تضليل الناس وتحريف للكتاب وتلبيس للحق بالباطل، كل ذلك عن قصد وعلم بدافع الحسد ومناصفة العداء، وخصم هذا حاله فلا دواء له لأن المدلس لا يؤمن جانبه، والمضلل لا يصدق، والحاسد لا يشفيه إلا زوال النعمة عن المحسود.

{وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُسْهُمْ إِلَى بَعْضٍ}
{وَإِذَا انْفَرَدَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، أَيِ الَّذِينَ لَمْ يَنَافِقُوا إِلَى مِنْ نَافِقٍ {قَالُوا}
عَاتِبِينَ عَلَيْهِمْ {أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ} بما أنزل الله
عليكم في التوراة **{لِيَحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ}** عند اجتماعهم بهم

في الآخرة، كما قال تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ
تَخْتَصِمُونَ} [الزمر: ٣١]

قال ابن عاشور: وذلك يوم القيامة لا محالة، أي يجعلون ذلك
حجة عليكم أمام الله على صدق رسولهم وعلى تبعثكم في عدم
الإيمان به، وذلك جار حكاية حال عقيدة اليهود من تشبيههم الربَّ
سبحانه وتعالى بِحُكَّامِ الْبَشَرِ فِي تَمْشِي الْحِيلِ عَلَيْهِ، وفي أنه إنما
يأخذ المسببات من أسبابها الظاهرية، فلذلك كانوا يرتكبون التَّحِيلَ
في شرعهم، وتجدد كتبهم ملامى بما يدل على أن الله ظهر له كذا،
وعلم أن الأمر الفلاني كان على خلاف المظنون، وكقولهم في سِفْرِ
التَّكْوِينِ: «وقال الرب هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا يعرف
الخير والشر» وقال فيه: «ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر
فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه فقال
أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته... فما ظنك بقوم
هذه مَبَالِغُ عَقَائِدِهِمْ أَنْ لَا يَقُولُوا لَا تَعْلَمُوهُمْ لئلا يحاجوكم عند الله
يوم القيامة.

{أَفَلَا تَعْقِلُونَ} فلا تحدثونهم بذلك، والهمزة للاستفهام؛

والمراد به التوبيخ؛ يعني: أين عقولكم؟!

وهذا من بقية مقولهم لقومهم، ولا يصح جعله خطاباً من الله للمسلمين تذيلاً لقوله: **{أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ}** لأن المسلمين وفيهم الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ليسوا جديرين بمثل هذا التوبيخ، وحسبهم ما تضمنه الاستفهام من الاستغراب أو النهي.

{أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} توبيخ من الله لهم، أي إذا كان علم الله محيطاً بجميع أفعالهم، وهم عالمون بذلك، فكيف يسوغ لهم أن ينافقوا ويتظاهروا للمؤمنين بما يعلم الله منهم خلافه، فلا يجمع حالة نفاقهم بحالة علمهم بأن الله عالم بذلك

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)

{وَمِنْهُمْ} من اليهود عوام **{أُمِّيُونَ}** الأمي من لا يعرف القراءة والكتابة، والأظهر أنه منسوب إلى «الأمة» بمعنى عامة الناس فهو يرادف العامي، وقيل منسوب إلى «الأم» وهي الوالدة، أي أنه بقي

على الحال التي كان عليها مدة حضانة أمه إياه فلم يكتسب علما جديدا.

وقد اشتهر اليهود عند العرب بوصف «أهل الكتاب» فلذلك قيل هنا: **{وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ}** أي ليس جميعهم أهل كتاب. ولم تكن الأمية في العرب وصف ذم لكنها عند اليهود وصف ذم كما أشار إليه قوله تعالى: **{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ}** [آل عمران: ٧٥] وقال ابن صياد للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أشهد أنك رسول الأميين، وذلك لما تقتضيه الأمية من قلة المعرفة، ومن أجل ذلك كانت الأمية معجزة للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حيث كان أعلم الناس مع كونه نشأ أميا قبل النبوة.

{لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ} التوراة **{إِلَّا أَمَانِيَّ}** جمع أمانية، وهي ما يتمناه المرء في نفسه من شيء يريد الحصول عليه. أو هي تكلف تقدير حصول شيء متعذر أو متعسر.

قيل الأمانى القراءة والتلاوة. وقال مجاهد: الأمانى الأكاذيب.. على قولين.

فعلى القول الأول معناه: «لا يعلمون الكتاب إلا قراءة وتلاوة»، أي لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون على ما

يسمعونه يتلى عليهم. فلا يقرؤون الكتاب ولا يفهمونه، لكن يسمعون من أحبارهم. وهذا أثرا من آثار الأمية أي لا يعلمون التوراة إلا علما مختلطا حاصلًا مما يسمعون ولا يتقنونه.

وقيل: أي لا يعلمون الكتاب إلا كلمات يحفظونها ويدرسونها لا يفقهون منها معنى كما هو عادة الأمم الضالة إذ تقتصر من الكتب على السرد دون فهم.

وعلى القول الثاني: «لا يعلمون الكتاب إلا أكاذيب وأباطيل» فقل أن الاستثناء منقطع، لأن الأمانى ليست من جنس الكتاب، ولا مندرجة تحت مدلوله، ويدل لهذا القول: قوله تعالى: {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ} [البقرة: ١١١]، وقوله: {لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ} [النساء: ١٢٣].

وأمانيتهم أن الله يعفو عنهم ويرحمهم ولا يؤاخذهم بخطاياهم، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، أو ما يمنيهم أحبارهم من أن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة، أو لا يعلمون إلا أكاذيب مختلقة سمعوها من علمائهم فنقلوها على التقليد، قاله ابن عباس ومجاهد، واختاره الفراء.

الأماني لغة هي الأكاذيب، يقال: تمنى الرجل، إذا كذب واختلق الحديث، ومنه قول عثمان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: (والله ما تَمَنَيْتُ [أي ما كذبت] ولا تَغَنَيْتُ منذُ أَسَلَمْتُ). وقال أعرابي لابن دأب في شيء حدث به: أهذا شيء رويته أم تمنيته؟ أي اختلقته.

والكاذب ما كذب إلا لأنه يتمنى أن يكون ما في نفس الأمر موافقا لخبره، فمن أجل ذلك حدثت العلاقة بين الكذب والتمني فاستعملت الأمنية في الأكذوبة، فالأماني هي التقادير النفسية -أي الاعتقادات- التي يحسبها صاحبها حقا وليست بحق

أو هي الفعال التي يحسبها العامة من الدين وليست منه بل ينسون الدين ويحفظونها، وهذا دأب الأمم الضالة عن شرعها أن تعتقد مالها من العوائد والرسوم والمواسم شرعا،

أو هي التقادير التي وضعها الأخبار موضع الوحي الإلهي إما زيادة عليه حتى أنستهم الأصل وإما تضليلا وهذا أظهر الوجوه.

{وَإِنْ} إن هنا: هي النافية، بمعنى ما **{هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}** ليسوا على يقين.

في هذه الآية دليل على أن المعارف كسبية، وعلى بطلان التقليد، وعلى أن المغتر بإضلال المضل مذموم، وعلى أن الاكتفاء

بالظن في الأصول غير جائز، وعلى أن القول بغير دليل باطل، وعلى أن ما تساوي وجوده وعدمه لا يجوز المصير إلى أحدهما إلا بدليل سمعي.

والمعنى الإجمالي: كيف تطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم محرفين وفريق جهلة، وإذا انتفى إيمان أهل العلم منهم – المظنون بهم تطلب الحق المنجى والاهتداء إلى التفرقة بينه وبين الباطل – فكانوا يحرفون الدين ويكابرون فيما يسمعون من معجزة القرآن في الإخبار عن أسرار دينهم، فكيف تطمعون أيضا في إيمان الفريق الأميين الذين هم أبعد عن معرفة الحق وألهي عن تطلبه وأضل في التفرقة بين الحق والباطل وأجدر بالافتداء بأئمتهم وعلمائهم.

{فَوَيْلٌ} كلمة أصلها العذاب والهلكة، والويل: البلية **{لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ}** ما يكتبه علماء اليهود من أباطيل وينسبونه إلى الله تعالى ليتوصلوا به إلى أغراض دنيّة من متاع الدنيا القليل، فكتبوا أشياء اختلقوها، وأحكاماً بدلوها من التوراة حتى استقر حكماً بينهم.

وقيل: خاف ملوكهم على ملكهم، إذا آمن الناس كلهم، فجاءوا إلى أحبار اليهود فجعلوا لهم عليهم وضائع ومآكل، وكشطوا من التوراة، وكتبوا بأيديهم كتاباً، وحللوا فيه ما اختاروا، وحرّموا ما اختاروا.

{بأيديهم} أتى بها لتأكيد ما يقتضيه ظاهر اللفظ، ولرفع المجاز الذي كان يحتمله.

وفي هذا التأكيد أيضاً تقبيح لفعلهم، إذ لم يكتفوا بأن يأمرّوا بالاختلاق والتغيير، حتى كانوا هم الذين تعاطوا ذلك بأنفسهم، واجترحوه بأيديهم.

وهذا نظير قوله تعالى: **{يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ}** [آل عمران: ١٦٧] وقوله: **{ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ }** [الأنعام: ٣٨]. والقصد منه تحقيق وقوع الكتابة، وأنهم في ذلك عامدون قاصدون.

{ثُمَّ يَقُولُونَ} أي لأتباعهم الأميين الذين لا يعلمون إلا ما قرئ لهم **{هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا}** علة في القول **{بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً}** الثمن هنا: هو عرض الدنيا، أو الرّشا والمآكل التي كانت لهم،

ووصف بالقلة لكونه فانياً، أو حراماً، أو حقيراً، أو لا يوازنه شيء لا ثمن ولا مِثْمَن.

فمهما حصل للمرء في الدنيا من رئاسة، وجاه، ومال، وولد .. فهو قليل بالنسبة للآخرة؛ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام البخاري عَنْ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (مَوْضِعُ سَوْطٍ [متر تقريباً] فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَعْدَوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) فالدنيا من أولها إلى آخرها برئاساتها، وأموالها، وبنيتها، وقصورها، وكل ما فيها؛ من متاع الدنيا القليل.

قال ابن عاشور: والضمن المقصود هنا هو إرضاء العامة بأن غيروا لهم أحكام الدين على ما يوافق أهواءهم أو انتحال العلم لأنفسهم مع أنهم جاهلون فوضعوا كتاباً تافهة من القصص المعلومات البسيطة ليتفقهوا بها في المجمع لأنهم لما لم تصل عقولهم إلى العلم الصحيح وكانوا قد طمعوا في التصدر والرئاسة الكاذبة لفقوا نتفا سطحية وجمعوا موضوعات وفراغات لا تثبت على محك العلم الصحيح ثم أشاعوها ونسبوها إلى الله ودينه وهذه

شنشنة الجهلة المتطلعين إلى الرئاسة من غير أهلية ليظهروا في صور العلماء لدى أنظار العامة ومن لا يميز بين الشحم والورم. أه وقد جمعوا في هذا الفعل أنهم ضلوا وأضلوا، وكذبوا على الله، وضموا إلى ذلك حب الدنيا. وهذا الوعيد مرتب على كتابة الكتاب المحرّف، وعلى إسناده إلى الله تعالى. وكلاهما منكر، والجمع بينهما أنكر. وهذا يدل على تحريم أخذ المال على الباطل، وإن كان برضا المعطي.

{فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ} كتابتهم مقدمة نتيجتها كسب المال الحرام، فلذلك كرر الويل في كل واحد منهما، لئلا يتوهم أن الوعيد هو على المجموع فقط... فكل واحد من هذين متوعد عليه بالهلاك.

قال ابن عاشور: تفصيل لجنس الويل إلى ويلين وهما ما يحصل لهم من الشر لأجل ما وضعوه وما يحصل لهم لأجل ما اكتسبوه من جراء ذلك، فهو جزاء بالشر على الوسيلة وعلى المقصد.

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢)

{وَقَالُوا} أراد به أنهم قالوه عن اعتقاد، والضمير في: وقالوا، عائد على اليهود الذين يكتبون الكتاب. جمعوا إلى تبديل كتاب الله وتحريفه، وأخذهم به المال الحرام، وكذبهم على أنه من عند الله تعالى.. الإخبار بالكذب البحت عن مدة إقامتهم في النار.

{لَنْ تَمَسَّنَا} تصيبنا **{النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً}** قلائل يحصرها العدّ. والوصف بمعدودة مؤذن بالقلّة لأن المراد بالمعدود الذي يعده الناس إذا رأوه أو تحدثوا عنه، وقد شاع في العرف والعوائد أن الناس لا يعمدون إلى عد الأشياء الكثيرة دفعا للملل أو لأجل الشغل سواء عرفوا الحساب أم لم يعرفوه لأن المراد العد بالعين واللسان لا العد بجمع الحسابات إذ ليس مقصودا هنا.

روي عنهم أنهم يعذبون سبعة أيام، عدد أيام الدنيا، سبعة آلاف لكل ألف يوم، ثم ينقطع العذاب.

وروي عنهم أنهم يعذبون أربعين يوماً، عدد عبادتهم العجل، وقيل: أربعين يوماً تحلة القسم.

وقيل: أربعين ليلة، ثم ينادي: "اخرجوا كل مختون من بني إسرائيل"، فنزلت هذه الآية تدحض قولهم.

وقد دل هذا القول على اعتقاد مقرر في نفوسهم يشيعونه بين الناس بالسنتهم قد أنبأ بغرور عظيم من شأنه أن يقدموا على تلك الجريمة وغيرها إذ هم قد أمنوا من المؤاخذة إلا أياما معدودة تعادل أيام عبادة العجل أو أياما عن كل ألف سنة من العالم يوم وإن ذلك عذاب مكتوب على جميعهم، فهم لا يتوقون الإقدام على المعاصي لأجل ذلك.

{قُلْ} جوابا لكلامهم **{أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا}** أي وعدا مؤكدا، فمثل هذا الإخبار بالجزم لا يكون إلا ممن اتخذ عند الله عهداً بذلك، وأنتم لم تتخذوا به عهداً، فهو كذب وافتراء.

فهو استفهام تقريرى للإلجاء إلى الاعتراف بأصدق الأمرين
وليس إنكارى لوجود المعادل وهو {أم تقولون} لأن الاستفهام
الإنكارى لا معادل له.

وذكر اتخاذ دون أعاهدتم أو عاهدكم لما في اتخاذ من
توكيد العهد، و {عند} لزيادة التأكيد.

{فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ} والتقدير فإن كان ذلك فلكم العذر
في قولكم لأن الله لا يخلف عهده.

وفيه أن الله سبحانه وتعالى لن يخلف وعده؛ وكونه لا يخلف
الوعد يتضمن صفتين عظيمتين هما: الصدق، والقدرة، لأن إخلاف
الوعد إما لكذب، وإما لعجز؛ فكون الله -جلّ وعلا- لا يخلف
الميعاد يقتضى كمال صدقه، وكمال قدرته.

{أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} هذه الجملة جواب
الاستفهام الذي ضمن معنى الشرط، وأخرج ذلك مخرج المتردد
في تعيينه على سبيل التقرير، وإن كان قد علم وقوع أحدهما، وهو
قولهم على الله ما لا يعلمون، ونظيره: {وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ
فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [سبأ: ٢٤] وقد علم أيهما على هدى وأيهما هو
في ضلال.

وفيه حسن مجادلة القرآن؛ لأنه حصر هذه الدعوى في واحد من أمرين، وكلاهما منتفٍ.

{بَلَى} أبطال لقولهم، فهي حرف جواب يثبت به ما بعد النفي، فإذا قلت: ما قام زيد، فقلت: نعم، كان تصديقاً في نفي قيام زيد. وإذا قلت: بلى، كان نقضاً لذلك النفي، فلما قالوا: {لن تمسنا النار}، أجيئوا بقوله: بلى، ومعناها: تمسكم النار. والمعنى على التأييد، وبين ذلك بالخلود.

{مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً} هي الكفر والشرك، قاله ابن عباس ومجاهد. فالسيئة هنا السيئة العظيمة وهي «الكفر» بدليل العطف عليها بقوله: **{وَأَحَاطَتْ}** "الإحاطة" في اللغة: الشمول؛ أي صارت كالحائط عليه، وكالسور. أي اكتنفته من كل جانب **{بِهِ خَطِيئَتُهُ}** الخطيئة اسم لما يقترفه الإنسان من الجرائم من خطي إذا أساء، والإحاطة مستعارة لعدم الخلو عن الشيء، لأن ما يحيط بالمرء لا يترك له منفذا للإقبال على غير ذلك، قال تعالى: **{وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ}** [يونس: ٢٢] وإحاطة الخطيئات هي حالة «الكفر» لأنها تجرئ على جميع الخطايا ولا يعتبر مع الكفر عمل صالح. قال أبو وائل: الخطيئة: صفة للشرك.

وقيل: هي الكبائر التي يموت وهو مصر عليها دون توبة، قال
عكرمة: مات ولم يتب منها. وقال قتادة: الكبيرة الموجبة لأهلها
النار.

قال أبو علي: إما أن يكون المعنى: أحاطت بحسناته خطيئته،
أي: أحبطتها، من حيث أن المحيط أكثر من المحاط به، فيكون
كقوله تعالى: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [التوبة: ٤٩] وقوله
{أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا} [الكهف: ٢٩] أي سورها أو يكون معنى
أحاطت به أهلكته، كقوله تعالى: {إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ} [يوسف: ٦٦].

{فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ} الذين هم أهلها حقيقة، لا من دخلها
ثم خرج منها، فسموا أصحاباً لها لملازمتهم إياها {هُمُ فِيهَا
خَالِدُونَ} إشارة إلى أن المراد: الكفار.

فلذلك لم تكن في هذه الآية حجة للزاعمين خلود أصحاب
الكبائر من المسلمين في النار إذ لا يكون المسلم محيطاً به
الخطيئات بل هو لا يخلو من عمل صالح وحسبك من ذلك سلامة
اعتقاده من الكفر وسلامة لسانه من النطق بكلمة الكفر الخبيثة.

والآية سند لما تضمنته {بلى} من إبطال قولهم: أي ما أنتم إلا ممن كسب سيئة إلخ ومن كسب سيئة وأحاطت به خطيئاته فأولئك أصحاب النار.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} أي عملوا الأعمال الصالحات؛ والعمل يصدق على القول والفعل؛ وليس العمل مقابل القول؛ بل الذي يقابل القول: الفعل؛ وإلا فالقول، والفعل كلاهما عمل؛ لأن القول عمل اللسان، والفعل عمل الجوارح.

{أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} تذييل لتعقيب النذارة بالبشارة على عادة القرآن.

وقد وصف الله تعالى القرآن بأنه مثاني. أي تُثَنَّى فيه المعاني، والأحوال، فقال -جل ذكره-: **{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي}** [الزمر: ٢٣].. فقل ما ذكر في القرآن آية في الوعيد، إلا وذكرت آية في الوعد. وفائدة ذلك ظهور عدله تعالى، واعتدال رجاء المؤمن وخوفه، وكمال رحمته بوعده وحكمته بوعيده.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا
لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ (٨٣)

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ} الميثاق: العهد الشديد، وسمي ميثاقاً؛ لأنه
يوثق به المعاهد، كالحبل الذي توثق به الأيدي والأرجل؛ لأنه يُلزمه
{بَنِي إِسْرَائِيلَ} هذه الآية مناسبة للآيات الواردة قبلها في ذكر
توبيخ بني إسرائيل وتقريعهم، وتبيين ما أخذ عليهم من ميثاق العبادة
للَّهِ، وإفراده تعالى بالعبادة، وما أمرهم به من مكارم الأخلاق، من
صلة الأرحام والإحسان إلى المساكين، والمواظبة على ركني
الإسلام البدني والمالي: ثم ذكر توليهم عن ذلك، ونقضهم لذلك
الميثاق، على عادتهم السابقة وطريقتهم المألوفة لهم.

{لَا تَعْبُدُونَ} "العبادة" معناها: الذل، والخضوع؛ مأخوذة من
قولهم طريق معبد. أي مدلل {إِلَّا اللَّهَ} فأمرهم أن يعبدوه ولا
يشركوا به شيئاً. وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال
تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

أَنَا فَاعْبُدُونِ { [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: ٣٦]

والآية خبر في معنى الأمر، ومجيء الخبر للأمر أبلغ من صيغة الأمر لأن الخبر مستعمل في غير معناه لعلاقة مشابهة الأمر الموثوق بامتثاله بالشيء الحاصل حتى إنه يخبر عنه.

وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تعالى، أن يعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين، وأكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين

{وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} أي وأمرناهم إحسانا بالوالدين. وهو برا بهما وعظفا عليهما ونزولا عند أمرهما، فيما لا يخالف أمر الله تعالى.

وقرن الله عز وجل في هذه الآية حق الوالدين بالتوحيد، لأن النشأة الأولى من عند الله، والنشء الثاني - وهو التربية - من جهة الوالدين، ولهذا قرن تعالى الشكر لهما بشكره فقال: **{أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ}** [لقمان: ١٤].

{وَذِي} صاحب **{الْقُرْبَى}** القرابة، ويشمل: القرابة من قبل الأم؛ والقرابة من قبل الأب. ولكن يجب أن نعلم أن الإحسان

يتفاوت؛ فكل من كان أقرب فهو أولى بالإحسان؛ لأن الحكم إذا عُلّق بوصف قوي بحسب قوة ذلك الوصف؛ فمثلاً يجب عليك من صلة العم أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد العم؛ ويجب عليك من صلة الخال أكثر مما يجب عليك من صلة أولاد الخال.

{وَالْيَتَامَى} جمع يتيم، وهو الذي مات أبوه قبل أن يبلغ من ذكر أو أنثى، وأوصى الله تعالى باليتامى؛ لأنه ليس لهم من يربهم أو يعولهم؛ إذ إن أباهم قد توفي؛ فهم محل للرأفة والرحمة والرعاية.

وهو يشمل الإحسان إليهم أنفسهم؛ والإحسان في أموالهم؛ لقوله تعالى: **{وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [الأنعام: ١٥٢]

{وَالْمَسَاكِينَ} الفقير الذي أسكنه الفقر؛ لأن الإنسان إذا اغتنى فإنه يطغى، ويزداد، ويرتفع، ويعلو؛ وإذا كان فقيراً فإنه بالعكس، وهنا يدخل الفقراء مع المساكين؛ لأن "الفقراء"، و"المساكين" من الأسماء التي إذا قرنت افترقت؛ وإذا افترقت اجتمعت؛ فكلمة "الفقراء" إذا كانت وحدها شملت الفقراء، والمساكين؛ و"المساكين" إذا كانت وحدها شملت الفقراء، والمساكين؛ وإذا

قيل: فقراء ومساكين. مثل آية الزكاة: **{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ
وَالْمَسَاكِينِ}** [التوبة: ٦٠] صار "الفقراء" لها معنى؛ و"المساكين"
لها معنى؛ لما اجتمعت الآن افرقت: ف"الفقير": من لا يجد شيئاً
من الكفاية، أو يجد دون النصف؛ و"المسكين": من يجد نصف
الكفاية دون كمالها.

وكان تقديم الوالدين لأنهما أكد في البر والإحسان، فجاء هذا
الترتيب اعتناء بالأوكد. وتأخرت درجة المساكين، لأنه يمكنه أن
يتعهد نفسه بالاستخدام، ويصلح معيشته، بخلاف اليتامى، فإنهم
لصغرهم لا ينتفع بهم، وهم محتاجون إلى من ينفعهم.

{وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} كلموهم طيباً، ولينوا لهم جانباً، ويدخل
في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف.. ولما كان
القول سهل المرام، إذ هو بدل لفظ، لا مال، كان متعلقه بالناس
عموماً إذ لا ضرر على الإنسان في الإحسان إلى الناس بالقول
الطيب.

فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس لنا ووجهه منبسطة طلقاً
مع البر والفاجر، والسني والمبتدع، من غير مدهانة، ومن غير أن
يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضي مذهبه، لأن الله تعالى قال لموسى

وهارون: {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا} [طه: ٤٤] فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه. وقال طلحة بن عمر: قلت لعطاء إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل في حدة فأقول لهم بعض القول الغليظ، فقال: لا تفعل! يقول الله تعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا}. فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى فكيف بالحنيفي؟؟

قال القشيري: التعبد بهذه الخصال حاصل لنا في شرعنا، وأولها التوحيد، وهو أفراد الله بالعبادة والطاعة، ثم ردك إلى مراعاة حق مثلك، إظهاراً أن من لا يصلح لصحبة شخص مثله، كيف يقوم بحق معبود ليس كمثله شيء؟ فإذا كانت التربية المتضمنة حقوق الوالدين توجب عظيم هذا الحق، فما حق تربية سيدك لك؟ كيف تؤدي شكره؟ ثم ذكر عموم رحمته لذي القربى، واليتامى والمساكين، وأن يقول للناس حسناً.. وحقيقة العبودية الصدق مع الحق، والرفق مع الخلق.

{وَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ} أي اتوا بها قائمة. أي قويمة ليس فيها نقص؛ وذلك بأن يأتوا بها بشروطها وأركانها وواجباتها؛ وكمال ذلك أن يأتوا بمستحباتها.

{وَأَتُوا الزَّكَاةَ} هي النصيب الذي أوجبه الله لمستحقه في الأموال الزكوية.. أطلقت الزكاة على الصدقة مطلقاً أو على الصدقة الواجبة على الأموال وليس المراد الكناية عن شريعة الإسلام لما علمت من أن هاته المعاطيف تابعة لبيان الميثاق وهو عهد موسى عليه السلام.

فالآية أفادت وجوب الزكاة على من كان قبلنا؛ ولكن لا يلزم أن يكونوا مساوين لنا في الأموال التي تجب فيها الزكاة، ولا في مقدار الزكاة، ولا في أهلها الذين تدفع إليهم.

{ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ} التولي: ترك الشيء وراء الظهر؛ وهذا أبلغ من الإعراض؛ لأن الإعراض قد يكون بالقلب، أو بالبدن مع عدم استدبار.

{إِلَّا قَلِيلاً مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مَّعْرُضُونَ} جملة حالية؛ أي توليتم في إعراض؛ وذلك أن المتولي قد لا يكون عنده إعراض في قلبه. فقد يتولى بالبدن، ولكن قلبه متعلق بما وراءه؛ ولكن إذا تولى مع الإعراض فإنه لا يرجى منه أن يُقْبَلَ بعد ذلك.

والمعنى: توليتم وأنتم معرضون عن الوصايا التي تضمنت ذلك الميثاق عن تعمد وجراحة وقلة اكتراث بالوصايا وتركها للتدبر فيها والعمل بها.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْصَرُونَ (٨٦)

{وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ} لا يسفك بعضكم

دم بعض على اعتبار أن بعض أفراد الجماعة هم من نفسها

{وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ} لا يخرج بعضكم بعضاً،

فلا تخرجون أنفسكم، أي إخوانكم، لأنكم كنفس واحدة. وإنما الخطابُ ههنا باعتبار تنزيل ديارهم منزلة ديار المخاطبين بناءً على تنزيل أنفسهم منزلتهم لتأكيد المبالغة وتشديد التشنيع

قال ابن عاشور: وليس المراد النهي عن أن يسفك الإنسان دم نفسه أو يخرج نفسه من داره لأن مثل هذا مما يزع المرء عنه وازعه الطبيعي فليس من شأن الشريعة الاهتمام بالنهي عنه. وإنما المراد أن لا يسفك أحد دم غيره ولا يخرج غيره من داره على حد قوله تعالى: **{فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ}** [النور: ٦١] أي فليسلم بعضكم على بعض. وهذا كثير في استعمال القرآن ونكتته الإشارة إلى أن المغايرة في حقوق أفراد الأمة مغايرة صورية وأنها راجعة إلى شيء واحد وهو المصلحة الجامعة أو المفسدة الجامعة، ومثله قوله تعالى: **{لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ}** [النساء: ٢٩]

والنفس مأخوذة من النفاسة، فنفس الإنسان أشرف ما فيه. والدار: المنزل الذي فيه أبنية المقام بخلاف منزل الارتحال. وقال الخليل: كل موضع حله قوم فهو دار لهم وإن لم تكن فيه أبنية.

وقيل: سميت دارا لدورها على سكانها، كما سمي الحائط حائطا لإحاطته على ما يحويه.

وأشارت هذه الآية إلى وصيتين من الوصايا الإلهية الواقعة في العهد المعروف بالكلمات العشر المنزلة على موسى عليه السلام من قوله لا تقتل، لا تشته بيت قريبك فإن النهي عن شهوة بيت القريب لقصد سد ذريعة السعي في اغتصابه منه بفحوى الخطاب وعليه إضافة ميثاق إلى ضمير المخاطبين مراعى فيها أنهم لما كانوا متدينين بشريعة التوراة فقد التزموا بجميع ما تحتوي عليه.

{ثُمَّ أَفَرَرْتُمْ} بالميثاق **{وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ}** حالية أي لا تنكرون إقراركم بذلك إذ قد تقلدتموه والتزمتهم التدين به.

أي تعلمون أن الله أخذه عليكم، وأراد على قدماء بني إسرائيل، إن كان الخطاب وارداً عليهم، وإن كان على معاصريه -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من أبنائهم، فمعناه: وأنتم تشهدون على أسلافكم بما أخذه الله عليهم من العهد، إما بالنقل المتواتر، وإما بما تتلونه من التوراة.

{ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ} منادى حذف منه حرف النداء. أي: يا هؤلاء **{تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ}** هذا استبعاد لما أخبر عنهم به من القتل

والإجلاء والعدوان، بعد أخذ الميثاق منهم، وإقرارهم وشهادتهم
{وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ} وأصله: تتظاهرون
{عَلَيْهِمْ} تتعاونون **{بِالْإِثْمِ}** المعصية، وهي الفعل الذي يستحق
فاعله اللوم والعقاب، والمعنى تتغالبون عليهم بما يوجب الإثم،
وهذا من إطلاق السبب على مسببه **{وَالْعُدْوَانِ}** تجاوز الحد في
الظلم، أي الاعتداء على الغير بغير حق؛ فكل عدوان معصية؛
وليست كل معصية عدواناً. إلا على النفس: فالرجل الذي يشرب
الخمير عاصٍ وآثم؛ والرجل الذي يقتل معصوماً هذا آثم ومعتد؛
والذي يخرج من بلده آثم ومعتد.

{وَإِنْ يَأْتِوكُمُ أُسَارَى} جمع أسير؛ وتجمع أيضاً على أسرى، كما
في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَى}**
[الأنفال: ٧٠] **{تُفَادُوهُمْ}** تفدوهم ببذل المال أو بالبدل أسير
بأسير. وأتت بصيغة المفاعلة المستعملة في المبالغة في الفداء أي
تفدوهم فداء حريصاً.

{وَهُوَ مُحَرَّمٌ} والمحرم الممنوع ومادة حرم في كلام العرب
للمنع، والحرام الممنوع منعاً شديداً أو الممنوع منعاً من قبل الدين،
ولذلك قالوا الأشهر الحرم وشهر المحرم.

{عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ} تقدّمت أربعة أشياء: قتل النفس، والإخراج

من الديار، والتظاهر، والمفاداة، وهي محرّمة.

تشنيع وتبليد لهم توهّموا القرية فيما هو من آثار المعصية أي كيف ترتكبون الجناية وتزعمون أنكم تتقربون بالفداء وإنما الفداء المشروع هو فداء الأسرى من أيدي الأعداء لا من أيديكم فهلا تركتم موجب الفداء؟

واختص هذا القسم بتأكيد التحريم، وإن كانت كلها محرّمة، لما في الإخراج من الديار من معرّة الجلاء والنفي الذي لا ينقطع شره إلا بالموت، وذلك بخلاف القتل، لأن القتل، وإن كان من حيث هو هدم البنية، أعظم، لكن فيه انقطاع الشر، وبخلاف المفاداة بها، فإنها من جريرة الإخراج من الديار والتظاهر، لأنه لولا الإخراج من الديار والتظاهر عليهم، ما وقعوا في قيد الأسر.

وتروى كتب التاريخ في حروب بعث القائمة بين الأوس والخزرج، أنه لما تقاتل الأوس والخزرج اعتزل اليهود الفريقين زمنا طويلا والأوس مغلوبون في سائر أيام القتال فدبر الأوس أن يخرجوا يسعون لمحالفة قريظة والنضير فلما علم الخزرج تواعدوا اليهود إن فعلوا ذلك فقالوا لهم إنا لا نحالف الأوس ولا نحالفكم فطلب

الخزرج على اليهود رهائن أربعين غلاما من غلمان قريظة والنضير
فسلموهم لهم. ثم إن عمرو بن النعمان البياضي الخزرجي أطمع
قومه أن يتحولوا لقريظة والنضير لحسن أرضهم ونخلهم وأرسل إلى
قريظة والنضير يقول لهم إما أن تخلوا لنا دياركم وإما أن نقتل
الرهائن فخشى القوم على رهائنهم واستشاروا كعب ابن أسيد
القرظي فقال لهم يا قوم امنعوا دياركم وخلوه يقتل الغلمان فما هي
إلا ليلة يصيب أحدكم فيها امرأته حتى يولد له مثل أحدكم فلما
أجابت قريظة والنضير عمرا بأنهم يمنعون ديارهم عدا عمرو على
الغلمان فقتلهم فلذلك تحالفت قريظة والنضير مع الأوس فسعى
الخزرج في محالفة بني قينقاع من اليهود وبذلك نشأ قتال بين فرق
اليهود وكان بينهم يوم بعث قبل الهجرة بخمس سنين فكانت
اليهود تتقاتل وتجلى المغلوبين من ديارهم وتأسرهم، ثم لما ارتفعت
الحرب جمعوا مالا وفدوا به أسرى اليهود الواقعين في أسر أحلاف
أحد الفريقين من الأوس أو الخزرج فغيرت العرب اليهود بذلك
وقالت كيف تقاتلونهم ثم تفدونهم بأموالكم فقالوا قد حرم علينا
قتالهم ولكننا نستحي أن نخذل حلفاءنا وقد أمرنا أن نفدي
الأسرى.

فاستنكر الله تعالى أفعالهم هذه، فهم يقتل بعضهم بعضا خلافا للنص، ولكنهم يفتكون الأسرى ويفادونهم عملا بنص التوراة.

{أَفْتَوْمُنُونَ} استفهام توبيخ وإنكار **{بِبَعْضِ الْكِتَابِ}** وهو الفداء **{وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ}** وهو القتل والإخراج.

والذي يعبد الله على هذه الطريق لم يعبد الله حقيقة؛ وإنما عبد هواه؛ فإذا صار الحكم الشرعي يناسبه قال: آخذ به؛ وإذا كان لا يناسبه راوغ عنه بأنواع التحريف، والتماس الأعذار.

وفيه أن أن الكفر ببعض الشريعة كفر بجميعها؛ وجه ذلك أن الله توعد هؤلاء الذين يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض؛ ومثل ذلك إذا آمن ببعض الرسل دون بعض فإنه كفر بالجميع؛ ودليل ذلك قوله تبارك وتعالى: **{كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ}** [الشعراء: ١٠٥] ونوح هو أول الرسل لم يسبقه رسول؛ ومع ذلك جعل الله المكذبين له مكذبين لجميع الرسل؛ ولقوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١)}** [النساء]

{فَمَا جَزَاء} الجزاء يطلق في الخير والشر. قال تعالى:
{وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا} [الإنسان: ١٢]، وقال: **{فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ}** [النساء: ٩٣] **{مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيًا}** ذل
وفضيحة **{فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}** كالسبي والقتل لبني قريظة، والجلاء
والإخراج من الأرض لبني النضير، وليس ما أصابهم في الدنيا
تكفيراً لذنوبهم، بل نقمة وغضباً عليهم

{وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي يوم البعث؛ وسمي بذلك؛ لأن الناس
يقومون فيه من قبورهم لرب العالمين؛ ولأنه يقوم فيه الأشهاد؛ ولأنه
يقام فيه العدل.

{يُرَدُّونَ} يصيرون **{إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ}** أعظمه، وهو الخلود في
النار، وأشدّيته من حيث أنه لا انقضاء له، أو أنواع عذاب جهنم،
لأنها دركات مختلفة، وفيها أودية وحيات، أو العذاب الذي لا فرح
فيه ولا روح مع اليأس من التخلص، أو الأشدّية هي بالنسبة إلى
عذاب الدنيا، أو الأشدّية بالنسبة إلى عذاب عامتهم، لأنهم الذين
أضلّوهم ودلسوا عليهم، أقوال خمسة.

{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ} هذه صفة سلبية. أي نفى الله سبحانه وتعالى
عن نفسه صفة الغفلة؛ وذلك لكمال علمه، ومراقبته.

وصفات الله تعالى ثبوتية، ومنفية؛ لكن يجب أن نعلم أن النفي المحض لا يوجد في صفات الله تعالى؛ وإنما النفي الواقع في صفاته لبيان كمال ضد ذلك المنفي؛ ففي قوله تبارك وتعالى: **{وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}** [الكهف: ٤٩] إثبات كمال العدل مع نفي الظلم عنه؛ وفي قوله تعالى: **{وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ}** [ق: ٣٨] إثبات كمال القوة مع نفي اللغوب عنه؛ وعلى هذا فقس؛ فالضابط في الصفات التي نفاها الله تعالى عن نفسه أنها تدل على نفي تلك الصفة، وعلى ثبوت كمال ضدها.

{عَمَّا تَعْمَلُونَ} وقد دلت هذه الآية على أن الله يعاقب الحائدين عن الطريق بعقوبات في الدنيا وعقوبات في الآخرة **{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا}** الشراء والبيع يقتضيان عوضاً ومعوّضاً أعياناً. فتوسعت العرب في ذلك إلى المعاني، وجعل إيثارهم بهجة الدنيا وزينتها على النعيم السرمدي اشتراء، إيثاراً للعاجل الفاني على الآجل الباقي، إذ المشتري ليس هو المؤثر لتحصيله، والثلث المبدول فيه مرغوب عنه عنده، ولا يفعل ذلك إلا مغبون الرأي فاسد العقل.

قال بعض أرباب المعاني: إن الدنيا: ما دنا من شهوات القلب، والآخرة: ما اتصلت برضا الرب.

{الْحَيَاةُ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ} وهؤلاء الذين يخالفون أوامر التوراة، ويعملون ببعض ما جاء فيها، هم الذين استحبوا الحياة الدنيا، وآثروها وفضلوها على الآخرة.

أي اختاروا الدنيا على الآخرة؛ فالآخرة عندهم مزهود فيها مبيعة؛ والدنيا مرغوب فيها مشتراة؛ ووصفت هذه الحياة بالدنيا لدنوها زمنًا. لأنها سابقة على الآخرة؛ ولدنوها منزلة. لأنها دون الآخرة؛ وفي البخاري عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا)

{فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ} أي لا يهَوَّن عنهم لا زمنًا، ولا شدة، ولا قوة **{وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ}** أي ولا أحد يمنع عنهم عذاب الله؛ لقوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ (٤٩) قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٥٠)}** [غافر]؛ فهم يائسون من الخروج؛ فلم يقولوا: "أخرجنا من النار"، ولم يقولوا: "يخفف عنا دائماً"؛ بل قالوا: {يخفف عنا يوماً

من العذاب}: يتمنون أن العذاب يخفف عنهم يوماً واحداً من الأبدى السرمدي؛ ولكن ذلك لا يحصل لهم؛ فيقال لهم توبيحاً، وتقريعاً، وتنديماً: {أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا}؛ ولا ينفعهم الدعاء، كما قال تعالى: {وما دعاء الكافرين إلا في ضلال}، أي ضياع.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (٨٧)

{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى} ابن عمران أفضل أنبياء بني إسرائيل {الْكِتَابَ} التوراة، وأنزلت عليه جملة واحدة {وَقَفَّيْنَا} أتبعنا لأن التابع يأتي في قفا المتبوع {مِنْ بَعْدِهِ} قفوت الأثر: اتبعته، والأصل أن يجيء الإنسان تابِعاً لقفا الذي اتبعه، ثم توسع فيه حتى صار لمطلق الاتباع، وإن بعد زمان المتبوع من زمان التابع.

{بِالرُّسُلِ} أي أرسلناهم على أثره كقوله تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا} [المؤمنون: ٤٤] وهم: يوشع، وشمويل، وشمعون،

وداود، وسليمان، وشعيا، وأرميا، وعزير، وحزقييل، وإلياس، وأليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وغيرهم.

وقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ

الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ} [المائدة: ٤٤]

{وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ} أضاف عيسى إلى أمه رداً على

اليهود فيما أضافوه إليه. وعيسى بالسريانية معناه المبارك ومريم بمعنى الخادم.

وخص كل من موسى الذي كلمه الله، وعيسى من بين الأنبياء لما أوتيا من الآيات العظيمة، والمعجزات الباهرة، ولأن آيتيهما موجودتان، فتخصيصهما بالذكر طعن على تابعيهما حيث لم ينقادوا لهذين الرسولين العظيمين، ووقع منهم المنازعة والخلاف.

كما أجمل الله تعالى ذكر الرسل، وفصل ذكر عيسى، لأن من قبله كانوا متبعين شريعة موسى، وأما عيسى فنسخ شرعه كثيراً من شرع موسى.

{الْبَيِّنَاتِ} الحجج الواضحة الدالة على نبوته، وتشمل الآية

الشرعية، كالشريعة التي جاء بها؛ والآية القدريّة الكونية، كإحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم بإذن الله، وإبراء الأكمه، والأبرص،

وأنه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه، فيكون طيراً يطير بإذن الله؛ وكذلك أيضاً يخبرهم بما يأكلون، وما يدخرون في بيوتهم؛ قال العلماء: إنما أعطي هذه الآية الكونية؛ لأن الطب في عهده ارتقى إلى درجة عالية، فأتاهم بآيات لا يقدر الأطباء على مثلها؛ كما أن محمداً -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ترقى في عهده الكلام إلى منزلة عالية في البلاغة والفصاحة؛ فاتاه الله سبحانه وتعالى القرآن العظيم الذي عجزوا أن يأتوا بمثله.

ونص هنا لعيسى على الآيات {البنات} تقبيحاً لأفعال اليهود حيث أنكروا نبوته مع ما ظهر على يديه من الآيات الواضحة.

{وَأَيَّدْنَاهُ} قويناه، من الأيد، وهو القوة، كقوله تعالى: **{فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}** [الصف: ١٤] أي قويناهم عليهم، كما قال الله تعالى: **{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}** [الذاريات: ٤٧] أي بقوة..

{بِرُوح} الروح هي التي بها حياة الأجسام **{الْقُدُس}** و"الْقُدُس"، و"الْقُدُس" الطاهر، كقوله تعالى: **{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ}** [المائدة: ١١٠]

وروح القدس هو جبريل عليه السلام في أصح الأقوال، وهو الرسول الكريم الموصوف في القرآن بالقوة والمكانة عند الله تعالى، قال الله: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٌ} [التكوير: ١٩-٢١].

وفي سبب تسميته بروح القدس، قال النحاس: وسمي جبريل روحا وأضيف إلى القدس، لأنه كان بتكوين الله عز وجل له روحا من غير ولادة والد ولده، وكذلك سمي عيسى روحا لهذا. وروى غالب بن عبد الله عن مجاهد قال: القدس هو الله عز وجل. وكذا قال الحسن: القدس هو الله، وروحه جبريل.

ويقول الإمام الواحدي: "وإنما سُمي جبريل رُوحًا؛ لأنه بمنزلة الأرواح للأبدان؛ يحيا بما يأتي من البيان عن الله عز وجل من يُهدى به، كما قال عز وجل: {أَوْمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَخْيَيْنَاهُ} [الأنعام: ١٢٢]، أي: كان كافرًا فهديناه.

وجمع هذه الأقوال في البحر المحيط: وتسمية جبريل بذلك، لأن الغالب على جسمه الروحانية، وكذلك سائر الملائكة، أو لأنه يحيا به الدين، كما يحيا البدن بالروح، فإنه هو المتولي لإنزال الوحي، أو لتكوينه روحاً من غير ولادة.

ومعنى قوله تعالى: {أيدناه}، أي: قويناه، وأعناؤه. ومن وجوه التأييد:

أن جبريل ربي عيسى عليهما السلام، وكان معه في جميع أحواله، وصعد به إلى السماء. والتأييد في دعوته إلى الدين، لأنه الذي يلقي إلى عيسى ما يأمره الله بتبليغه. على أن أعظم وجوه التأييد مطلقا، تأييد بوحى الله جل جلاله، وخبر السماء؛ وإنما خص جبريل بذلك، لأنه ملك الوحي الموكل به.

قال شيخ الإسلام: "وروح القدس: قد يراد بها الملك المقدس كجبريل، ويراد بها الوحي والهدى والتأييد الذي ينزله الله بواسطة الملك أو بغير واسطته، وقد يكونان متلازمين، فإن الملك ينزل بالوحي، والوحي ينزل به الملك، والله تعالى يؤيد رسله بالملائكة وبالهدى، كما قال تعالى عن نبيه محمد -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:

{فَأَنْزَلَ اللّٰهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا} [التوبة: ٤٠]

وقال الشيخ الطاهر ابن عاشور رحمه الله: "وقوله: وآتيناه عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس: البينات هي المعجزات

الظاهرة البينة، وروح القدس هو جبريل، فإن الروح هنا بمعنى الملك الخاص، كقوله: **{ تَنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا }** [القدر: ٤] والقدس، بضم القاف، وبضم الدال عند أهل الحجاز، وسكونها عند بني تميم؛ بمعنى: الخلوص والنزاهة، فإضافة روح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة، ولذلك يقال: «الروح القدس».

وقيل القدس اسم الله كالقدوس، فإضافة روح إليه إضافة أصلية، أي روح من ملائكة الله.

وروح القدس هو جبريل قال تعالى: **{ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ }** [النحل: ١٠]

وفي الحديث: (إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ أَجَلَهَا وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ) [رواه أبو نعيم في الحلية]

وفي البخاري عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ أَنَّهُ سَمِعَ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيَّ يَسْتَشْهَدُ أَبَا هُرَيْرَةَ: أَنْشُدَكَ اللَّهَ هَلْ سَمِعْتَ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ- وَسَلَّمَ يَقُولُ: (يَا حَسَّانُ أَجِبْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -

صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - اللّٰهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ) قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ
نَعَمْ. وفي رواية للبخاري (اهْجُؤْهُمْ أَوْ هَاجِئْهُمْ وَجِبْرِيلُ مَعَكَ)

وإنما وصف عيسى بهذين، مع أن سائر الرسل أيدوا بالبينات
وبروح القدس؛ للرد على اليهود الذين أنكروا رسالته ومعجزاته،
وللرد على النصارى الذين غلوا فزعموا ألوهيته، ولأجل هذا ذكر
معه اسم أمه - مهما ذكر - للتنبيه على أن ابن الإنسان لا يكون
إلها، وعلى أن مريم أمة الله تعالى، لا صاحبة؛ لأن العرب لا تذكر
أسماء نسائها وإنما تكتفي، فيقولون ربة البيت، والأهل، ونحو ذلك،
ولا يذكرون أسماء النساء إلا في الغزل، أو أسماء الإماء".

{أَفْكُلْمَا} استفهام للتوبيخ والتقريع **{جَاءَكُمْ}** والخطاب في
جاءكم يجوز أن يكون عاماً لجميع بني إسرائيل، إذ كانوا على طبع
واحد من سوء الأخلاق، وتكذيب الرسل، وكثرة سؤالهم لأنبيائهم،
والشك والارتياب فيما اتوهم به،، أو يكون عائداً إلى أسلافهم
الذين فعلوا ذلك. وسياق الآيات يدل عليه،، أو إلى من بحضرة
رسول الله -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من أبنائهم، لأنهم راضون
بفعلهم، والراضي كالفاعل.

وقد كذبوا رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيما جاء به،
وسقوه السم ليقتلوه، وسحروه.

{رَسُولٌ} من أولئك الرسل **{بِمَا}** بشرع **{لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ}**
وأسند الهوى إلى النفس، ولم يسند إلى ضمير المخاطب، فيكون
«بما لا تهوون» إشعاراً بأن النفس يسند إليها غالباً الأفعال السيئة،
قال تعالى: **{قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا}** [يوسف: ١٨] **{إِنَّ**
النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ} [يوسف: ٥٣] **{فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ**
فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [المائدة: ٣٠]

والتعبير عنه بالهوى للإيذان بأن مدار الرد والقبول عندهم هو
المخالفة لأهواء أنفسهم والموافقة لها لا شيء آخر.

{اسْتَكْبَرْتُمْ} وفي ذلك ما كانوا عليه من طبيعة الاستكبار الذي
هو محل النقائص ونتيجة الإعجاب. وهو نتيجة الجهل بالنفس
المقارن للجهل بالخالق، وإن ذلك كان يتكرر منهم بتكرر مجيء
الرسول إليهم، وهو استكبار بمعنى التكبر، وهو مشعر بالتكلف
والتفعل لذلك لا أنهم يصيرون بذلك كبراء عظماء، بل يتفعلون
ذلك ولا يبلغون حقيقته، لأن الكبرياء إنما هو لله تعالى، فمحال أن
يتصف بها غيره حقيقة.

وفيه أن من استكبر عن الحق إذا كان لا يوافق هواه من هذه الأمة فهو شبيه ببني إسرائيل؛ فإذا استكبر عن الحق. سواء تحيل على ذلك بالتحريف؛ أو أقر بأن هذا الحق، ولكنه استكبر عنه. فإنه مشابه ببني إسرائيل.

والخارجون عن الحق ينقسمون إلى قسمين: قسم يقرُّ به، ويعترف بأنه عاصٍ؛ وهذا أمره واضح، وسبيله بيّن، وقسم آخر يستكبر عن الحق، ويحاول أن يحرف النصوص إلى هواه؛ وهذا الأخير أشد على الإسلام من الأول؛ لأنه يتظاهر بالاتباع وهو ليس من أهله.

{فَفَرِيقًا} طائفة {كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ} معطوف على قوله: {استكبرتم}، فنشأ عن الاستكبار مبادرة فريق من الرسل بالكذب فقط، حيث لا يقدرّون على قتله، وفريق بالقتل إذا قدرّوا على قتله. وتهياً لهم ذلك، كزكريا ويحيى عليهما السلام، ويتضمن أن من قتله فقد كذّبوه. واستغنى عن التصريح بتكذيبه للعلم بذلك، فذكر أقبح أفعالهم معه، وهو قتله.

وتقديم {فريقاً} في الموضوعين للاهتمام وتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم، وإيثار صيغة الاستقبال في القتل لاستحضار صورته الهائلة.

وأتى بفعل القتل مضارعاً، إما لكونه حكيت أنه الحال الماضية، إن كانت أريدت فاستحضرت في النفوس، وصور حتى كأنه ملتبس به مشروع فيه، ولما فيه من مناسبة رؤوس الآي التي هي فواصل، لأنه لو قال: "فريقاً قتلتم" لم تتناسب مع التي قبلها، والتي بعدها، وإما لكونه مستقبلاً، لأنهم يرومون قتل رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ولذلك سحروه وسموه.

ففي سنن البيهقي أَهَدَتْ لِلنَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَهُودِيَّةٌ شَاةً مَحْنُوذَةً [مشوية] سَمَّتْهَا فِي ذِرَاعِهَا فَأَكَلَ مِنْهَا هُوَ يَعْنِي وَغَيْرُهُ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَا زَالَتِ الْأُكْلَةُ الَّتِي أَكَلْتُ مِنَ الشَّاةِ تُعَادُنِي حَتَّى كَانَ هَذَا أَوَانٌ قَطَعْتُ أَبْهَرِي).

وقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عند موته: (ما زالت أكلة خبير تعاودني فهذا أوان انقطاع أبْهَرِي) [ابن السني وأبو نعيم وصححه الألباني] وكان في ذلك على هذا الوجه تنبيه على أن عاداتهم قتل أنبيائهم، لأن هذا النبي المكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، وقد

أمرُوا بالإيمان به والنصر له، يرومون قتله. فكيف من لم يكن فيه تقدم عهد من الله؟ فقتله عندهم أولى.

قال ابن عطية عن بني إسرائيل: كانوا يقتلون في اليوم ثلاثمائة نبي، ثم تقوم سوقهم آخر النهار. وروي سبعين نبياً، ثم تقوم سوق نقلهم آخر النهار.

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ
(٨٨) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ
وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ
مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩)

{وَقَالُوا} الضمير في قالوا عائد على اليهود، وهم أبناء بني إسرائيل الذين كانوا بحضرة رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، قالوا ذلك بهتاً ودفعاً لما قامت عليهم الحجج وظهرت لهم البينات، وأعجزتهم عن مدافعة الحق المعجزات.

{قُلُوبُنَا غُلْفٌ} من قرأ: {غُلْفٌ} بالإسكان من الغلاف هو الغشاء الساتر للشيء من وصول ما يكره له.

فمعناه عليها غلف لا تصل إليها الموعظة، وتكسوها غشاوة تسترها عن الفهم والوعي والتمييز. وهذا كلام كانوا يقولونه للنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حين يدعوهم للإسلام قصدوا به التهم وقطع طمعه في إسلامهم وهو كقول المشركين: **{قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ}** [فصلت: ٥]

وفي الكلام توجيه لأن أصل الأغلف أن يكون محجوباً عم لا يلائمه فإن ذلك معنى الغلاف، فهم يخيلون أن قلوبهم مستورة عن الفهم ويريدون أنها محفوظة من فهم الضلالات، ولذلك قال المفسرون إنه مؤذن بمعنى أنها لا تعي ما تقول ولو كان لوعته، وهذان المعنيان اللذان تضمنهما التوجيه يلاقيهما الرد بقوله تعالى: **{بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ}** أي ليس عدم إيمانهم لقصور في أفهامهم، ولا لربوها عن قبول مثل ما دعوا إليه، ولكن لأنهم كفروا فلعنهم الله بكفرهم وأبعدهم عن الخير وأسبابه. وأما من قرأ **{غُلْف}** بضم اللام، فمعناه أنها أوعية للعلم فلو كان ما تقوله حقاً وصدقاً لوعته.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن قلوبنا غلف، أي مملوءة علماً، فلا تسع شيئاً، ولا تحتاج إلى علم غيره، فإن الشيء المغلف لا يسع غلافه غيره.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن قلوبهم غلف على ما فيها من دينهم وشريعتهم، واعتقادهم أن دوام ملتهم إلى يوم القيامة، وهي لصلابتها وقوتها، تمنع أن يصل إليها غير ما فيها، كالغلاف الذي يصون المغلف أن يصل إليه ما بغيره.

وفي الكلام التفات من الخطاب إلى الغيبة، وإبعاد لهم عن مقام الحضور، فهو من الالتفات الذي نكته أن ما أجرى على المخاطب من صفات النقص والفضاعة قد أوجب إبعاده عن البال وإعراض البال عنه، فيشار إلى هذا الإبعاد بخطابه بخطاب البعد.

{بَلْ} بل: للإضراب، والإضرابُ على قسمين: إبطالٍ وانتقالٍ، وهنا ليس إضراباً عن اللفظ المقول (اضراب انتقالي)، لأنه واقع لا محالة، فلا يضرب عنه، وإنما الإضراب عن النسبة التي تضمنها قولهم: إن قلوبهم غلف (اضراب إبطالي)، أي أن الله تعالى أبطل حجتهم هذه، لأن القلوب خلقت متمكنة من قبول الحق، مفطورة لإدراك الصواب، فأخبروا عنها بما لم تخلق عليه.

{لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ} بل قلوبهم ملعونة بسبب ما تقدم من كفرهم، وجازاهم بالطرد الذي هو اللعن المتسبب عن الذنب الذي هو الكفر.

يعني ليست القلوب غلفاء لا تقبل الحق، لكن هناك شيء آخر هو الذي منع من وصل الحق؛ وهو لعن الله إياهم بسبب كفرهم.

{فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ} فإيماناً قليلاً يؤمنون، لأن دلالة الفعل على مصدره أقوى، ولموافقته ظاهر قوله تعالى: **{فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا}** [النساء: ٤٦] مشارا به إلى إيمانهم ببعض الكتاب، قال معمر: لا يؤمنون إلا بقليل مما في أيديهم ويكفرون بأكثره.

أو إلى إيمانهم ببعض ما يدعو له النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مما يوافق دينهم القديم كالتوحيد ونبوة موسى.

أو إلى إيمان أفراد قليلة منهم، لأن من آمن من المشركين أكثر ممن آمن من اليهود.

ويجوز أن يكون {قليلًا} هنا مستعملا في معنى العدم، فإن القلة تستعمل في العدم في كلام العرب، ويقولون فلان «قليل الحياء» أي عديم الحياء. قال الواقدي: معناه لا يؤمنون قليلا ولا كثيرا.

{وَلَمَّا جَاءَهُمْ} اليهود **{كِتَابٌ}** القرآن **{مَنْ عِنْدَ اللَّهِ}** وصفه
بمن عند الله جدير أن يقبل، ويتبع ما فيه، ويعمل بمضمونه، إذ هو
وارد من عند خالقهم وإلههم الذي هو ناظر في مصالحهم
{مُصَدِّقٌ} موافق، صفة ثانية لزيادة التسجيل عليهم بالمذمة في
هذا الكفر، وقدّمت الأولى عليها، لأن الوصف بكيونته من عند
الله أكد، ووصفه بالتصديق ناشئ عن كونه من عند الله **{لَمَّا**
مَعَهُمْ} من التوراة والإنجيل، كذبوه، ويكون التكذيب حاصلاً بنفس
مجيء الكتاب من غير فكر فيه ولا رؤية، بل بادروا إلى تكذيبه.

{وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ} أي من قبل المجيء **{يَسْتَفْتِحُونَ}**
يستنصرون، والاستفتاح ظاهره طلب الفتح أي النصر قال تعالى:
{إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ} [الأنفال: ١٩]، وفائدتها هنا
استحضار حالتهم العجيبة وهي أنهم كذبوا بالكتاب والرسول في
حال ترقبهم لمجيئه وانتظار النصر به وهذا منتهى الخذلان
والبهتان.

{عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا} يقولون إذا دهمهم العدو: اللهم انصرنا
عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان، الذي نجد نفعه في التوراة،

فكانوا ينصرون، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وثمود وإرم.

{ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا } وما سبق لهم تعريفه للمشركين **{ كَفَرُوا }** به **{ سَتَرَهُ وَجَحَدُوهُ }**، وهذا أبلغ في ذمهم، إذ يكون الشيء المعروف لهم، المستقر في قلوبهم وقلوب من أعلموهم به كيانه ونعته يعمدون إلى ستره وجحدته، كما قال تعالى: **{ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا }** [النمل: ١٤]

{ فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ } جملة دعاء عليهم وعلى أمثالهم، والدعاء من الله تعالى تقدير وقضاء لأنه تعالى لا يعجزه شيء وليس غيره مطلوباً بالأدعية وهذا كقوله: **{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ }** [المائدة: ٦٤] وقوله: **{ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ }** [التوبة: ٣٠]

ولما كان الكتاب جائياً من عند الله إليهم، فكذبوه وسترُوا ما سبق لهم عرفانه، فكان ذلك استهانة بالمرسل والمرسل به. قابلهم الله بالاستهانة والطرْد، وأضاف اللعنة إلى الله تعالى على سبيل المبالغة، لأن من لعنه الله تعالى هو الملعون حقيقة.

كما قال تعالى: {قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً} [ثوابا
بمعنى جزاء] عِنْدَ اللَّهِ [هو] مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ { [المائدة: ٦٠] } وَمَن
يَلْعَنِ اللَّهُ فْلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا { [النساء: ٥٢] } ثم إنه لم يكتف
باللعنة حتى جعلها مستعلية عليهم، كأنه شيء جاءهم من أعلاهم،
فجللهم بها، ثم نبه على علة اللعنة وسببها، وهي الكفر، كما قال
قبل: {بَلْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ}

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ
يُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا
بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) وَإِذَا
قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا
وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ
تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ (٩١)

{بِئْسَمَا} «بئس» مستوفية لجميع الذم، وعكسها «نعم»
{اشْتَرَوْا} باعوا {بِهِ أَنْفُسَهُمْ} مجاز أطلق فيه الاشتراء على استبقاء
الشيء المرغوب فيه تشبيها لاستبقائه بابتياح شيء مرغوب فيه،
فهم قد آثروا أنفسهم في الدنيا فأبقوا عليها بأن كفروا بالقرآن

حسداً. أي بئس العوض بذلهم الكفر ورضاهم به لبقاء الرئاسة والسمعة وعدم الاعتراف برسالة الصادق.

{أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ} أي القرآن، وفي ذلك من التفخيم حيث أظهر موصولاً بالفعل الذي هو «أنزل» المشعر بأنه من العالم العلوي، ونسب إسنادَه إلى الله تعالى.

{بَغِيًّا} أي حسداً، على خروج النبوة منهم إلى العرب، وأصل البغي: الظلم، وأراد به هنا ظلماً خاصاً وهو «الحسد» وإنما جعل الحسد ظلماً لأن الظلم هو: المعاملة بغير حق، والحسد تمنى زوال النعمة عن المحسود ولا حق للحاسد في ذلك لأنه لا يناله من زوالها نفع، ولا من بقائها ضرر، ولقد أجاد أبو الطيب إذ أخذ هذا المعنى في قوله:

وأظلم خلق الله من بات حاسداً** لمن بات في نعمائه يتقلب
{أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ} أي بغوا لتنزيل الله **{مِنْ فَضْلِهِ}** الفضل لغة زيادة العطاء، وفسروه هنا: الوحي والنبوة والكتاب.

{عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} وهم الرسل، وأضاف العباد إليه تشريفاً لهم، كقوله تعالى: **{وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ}** [الزمر: ٧]

والمراد بمن يشاء: محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، لأنهم حسدوه لما لم يكن منهم، وكان من العرب، وعز النبوة من يعقوب إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام كان في إسحاق، فختم في عيسى، ولم يكن من ولد إسماعيل نبي غير نبينا محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فختمت النبوة على غيرهم، وعدموا العز والفضل.

{فَبَاؤُوا} مضوا ورجعوا {بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ} مترادف متكاثر،
ويدل ذلك على تشديد الحال عليهم.

قال ابن عاشور: "الظاهر أن المراد بغضب على غضب، الغضب الشديد على حد قوله تعالى: **{نُورٌ عَلَى نُورٍ}** [النور: ٣٥] أي نور عظيم، وقوله: **{ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكْذِبْ رَأَاهَا}** [النور: ٤٠] وهذا من استعمال التكرير باختلاف صيغة في معنى القوة والشدة"

قال القرطبي: "قال بعضهم المراد به شدة الحال لا أنه أراد غضبين وهما غضب الله عليهم للكفر وللحسد أو للكفر بمحمد وعيسى عليهما السلام".

قال ابن عباس ومجاهد: الغضب الأول بتضييعهم التوراة وتبديلهم، والثاني بكفرهم بمحمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

والقرآن، وقال قتادة: الأول بكفرهم بـعيسى والإنجيل، والثاني بكفرهم بمحمد -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والقرآن، وقال السدي: الأول بعبادة العجل والثاني بالكفر بمحمد -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وفيه أن العقوبات تتراكم بحسب الذنوب جزاءً وفاقاً.
{وَاللَّكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ} يذلمهم ويخزيهم في الدنيا والآخرة، بخلاف عذاب العاصي فإنه كفارة لذنوبه.

ووصف العذاب بالإهانة -وهي الإذلال- لأنه يقتضي الخلود خلوداً لا ينقطع، أو لشدته وعظمته واختلاف أنواعه، أو لأنه جزاء على تكبرهم عن اتباع الحق.

أقام المظهر مقام المضمّر إشعاراً بـعلة كون العذاب المهين لهم، إذ لو أتى "ولهم عذاب مهين"، لم يكن في ذلك تنبيه على العلة.

استدل بعض العلماء بهذه الآية على جواز لعن الكافر المعين؛ ولكن لا دليل فيها؛ لأن اللعن الوارد في الآية على سبيل العموم؛ ثم هو خبر من الله عز وجلّ، ولا يلزم منه جواز الدعاء به؛ ويدل على منع لعن المعين أن النبي -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يقول:

(اللهم العن فلاناً، وفلاناً). لأئمة الكفر، فنهاه الله عن ذلك؛ ولأن الكافر المعين قد يهديه الله للإسلام إن كان حياً؛ وإن كان ميتاً، فقد قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا) [البخاري عن عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-]

ففي البخاري عن سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ مِنَ الرَّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا) بَعْدَ مَا يَقُولُ (سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ) فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ

يُتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ} [آل عمران: ١٢٨]

وَعَنْ حَنْظَلَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ سَمِعْتُ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ فَنَزَلَتْ {لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ إِلَى قَوْلِهِ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}

{وَإِذَا قِيلَ} الأخبار عمن بحضرة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من اليهود، وسياق الآية يدل على أن المراد آبائهم، لأنهم هم الذين قتلوا الأنبياء، وحسن ذلك أن الراضي بالشيء كفاعله،

وأنهم جنس واحد، وأنهم متبعون لهم ومعتقدون ذلك، وأنهم يتولونهم، فهم منهم.

{لَهُمْ آمَنُوا} أي صدّقوا به مع قبوله والإذعان له؛ لأن الإيمان شرعاً: التصديق مع القبول والإذعان؛ وليس كل من صدق يكون مؤمناً حتى يكون قابلاً مدعناً؛ والدليل على ذلك أن أبا طالب كان مصداقاً برسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولم يكن مؤمناً؛ لأنه لم يقبل ولم يدعن.

{بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ} الجمهور: إنه القرآن **{قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا}** يريدون التوراة، وما جاءهم من الرّسالات على لسان موسى، ومن بعده من أنبيائهم.

وذمّوا على هذه المقالة لأنهم أمروا بالإيمان بكل كتاب أنزله الله، فأجابوا بأن آمنوا بمقيد، والمأمور به عام، فلم يطابق إيمانهم الأمر.

{وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ} أي بما سواه، وبه فسر قوله تعالى: **{وَأَحَلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَلِكَ}** [النساء: ٢٤] وقوله: **{فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}** [المؤمنون: ٧]

أو بما بعده، أي ويكفرون بما بعد التوراة، وهو القرآن. والمعنى واحد.

والوراء في الأصل اسم مكان للجهة التي خلف الشيء. جعل الوراء مجازاً أو كناية عن الغائب لأنه لا يبصره الشخص، واستعمل أيضاً مجازاً عن المجاوز لأن الشيء إذا كان أمام السائر فهو صائر إليه فإذا صار وراءه فقد تجاوزه وتباعد عنه.

وقال الجوهري: وراء بمعنى خلف، وقد تكون بمعنى أمام. وهي من الأضداد، قال الله تعالى: **{وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ}** [الكهف: ٧٩] أي أمامهم، وتصغيرها وريئه

{وَهُوَ الْحَقُّ} عائد على القرآن **{مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَهُمْ}** التوراة والإنجيل **{قُلْ فَلِمَ}** التقدير: إن كنتم آمنتم بما أنزل عليكم فلم **{تَقْتُلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ}** وجاء تقتلون بصورة المضارع، والمراد الماضي، إذ المعنى: قل فلم قتلتم، وأوضح ذلك أن هؤلاء الذين بحضرة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لم يصدر منهم قتل الأنبياء، وأنه قيد بقوله **{من قبل}**، فدل على تقدم القتل.

ألا ترى أن حاضري محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لما كانوا راضين بفعل أسفلاهم، بقي لهم من قتل الأنبياء جزء، وفي إضافة

أنبياء إلى الله تشریف عظیم لهم، وأنه كان ينبغي لمن جاء من عند الله أن يعظم أجلّ تعظيم، وأن ينصر لا أن يقتل.
{إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} لأن الإيمان بالتوراة واستحلال قتل الأنبياء لا يجتمعان، فقولكم: إنكم آمنتم بالتوراة كذب وبهت.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)

{وَلَقَدْ جَاءَكُمْ} الخطاب لليهود؛ وهنا خاطبهم باعتبار الجنس لا باعتبار الشخص؛ إذ إن موسى لم يأت هؤلاء الذين كانوا في عهد الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لكنه أتى بني إسرائيل الذين هؤلاء منهم.

{مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ} بالمعجزات الواضحة الدالة على صدقه، ولم يبين هنا ما هذه البينات، وبينها في مواضع آخر كقوله: **{فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ}**

مُفَصَّلَاتٍ { [الأعراف: ١٣٣] وقوله: {فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ} [الشعراء: ٣٣-٣٢] وقوله: {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} [الشعراء: ٦٣]. إلى غير ذلك من الآيات.

وقيل: التسع، وهي: العصا، والسنون، واليد، والدم، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، وفلق البحر.

وإنما كررت هنا لدعواهم أنفا أنهم يؤمنون بما أنزل عليهم {قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا} وهم كاذبون في ذلك.

قال ابن عاشور: وقد بينت أن القرآن ليس مثل تأليف في علم يحال فيه على ما تقدم بل هو جامع مواعظ وتذكيرات وقوارع ومجادلات نزلت في أوقات كثيرة وأحوال مختلفة، فلذلك تتكرر فيه الأغراض لاقتضاء المقام ذكرها حينئذ عند سبب نزول تلك الآيات.

وقال البيضاوي: إن تكرير القصة للتنبيه على أن طريقتهم مع محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - طريقة أسلافهم مع موسى وهي

نكتة في الدرجة الأولى وهذا إلزام لهم بعمل أسلافهم بناء على أن الفرع يتبع أصله والولد نسخة من أبيه وهو احتجاج خطابي.

{ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ} إلهاً عبدتموه في غيبة موسى عليه السلام، وهو مصنوع بين أيديهم وتحت أبصارهم {مِنْ بَعْدِهِ} من بعد ذهابه إلى الطور.

{وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ} أي معتدون؛ وأصل الظلم النقص، كما في قوله تعالى: **{كَلِمَاتِ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئاً}** [الكهف: ٣٣]؛ وسمي العدوان ظلماً؛ لأنه نقص في حق المعتدى عليهم.

ولم يقل سبحانه وتعالى: وأنتم كافرون؛ لأنه كفر يتضمن أشد الظلم وأفحشه، فقد ظلموا أنفسهم بأن أعطوا قوة الحق، فأبوا إلا أن يستضعفوا ويدلوا لمن أذلّوهم، وظلموا الحق وظلموا من أجرى الله تعالى على يده إنقاذهم، فهو كفر يتضمن ظلماً، وكما قال تعالى في آية أخرى: **{وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}** [البقرة: ٥٧].

واتخاذ العجل ليس في التوراة، بل فيها أن يفرد الله بالعبادة، ولأن عبادة غير الله أكبر المعاصي، فكرر عبادة العجل تنبيهاً على

عظيم جرمهم. ولما ذكر ذلك قبل، أعقبه تعداد النعم بقوله: **{ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** [البقرة: ٥٢] وقوله: **{ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [البقرة: ٦٤] وهنا أعقبه التقريع والتوبيخ.

والعرب متى أرادت التنبيه على تقبيح شيء أو تعظيمه، كررته. وفي هذا التكرار أيضاً من الفائدة تذكارهم بتعداد نعم الله عليهم ونقمه منهم، ليزدجر الأخلاف بما حل بالأسلاف.

{وَإِذْ} أي اذكروا إذ **{أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ}** العهد؛ وسمي العهد ميثاقاً؛ لأنه يتوثق به **{وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ}** وهو الجبل المعروف بسيناء؛ رفعه الله عز وجل على رؤوسهم تهديداً لهم؛ فجعلوا يشاهدونه فوقهم كأنه ظلة؛ فسجدوا خوفاً من الله عز وجل، وجعلوا ينظرون إلى الجبل وهم يتضرعون إلى الله سبحانه وتعالى بكشف كربتهم؛ ولهذا ذكر بعض أهل العلم عن اليهود أنهم يرون أن أفضل سجدة يسجدون لله بها أن يسجدوا وقد أداروا وجوههم إلى السماء؛ يقولون: هذه السجدة أنجانا الله بها؛ فهي أشرف سجدة عندنا.

{خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ} أي ما أعطيناكم؛ والمراد به التوراة **{بِقُوَّة}**

بعزم **{وَأَسْمَعُوا}** سماع قبول واستجابة على قول جمهور المفسرين.

قال بعض العلماء هو من السمع بمعنى «الإجابة والامتثال»

ومنه قولهم: "سمعا وطاعة" أي: إجابة وطاعة، ومنه: "سمع الله لمن

حمده" في الصلاة. أي: أجاب دعاء من حمده، ويشهد لهذا

المعنى قوله تعالى: **{إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ**

وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} [النور: ٥١].

قال ابن عاشور: "الظاهر أن قوله: **{خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّة}** لا

يشتمل الامتثال فيكون قوله **{وَأَسْمَعُوا}** دالا على معنى جديد

وليس تأكيدا، ولك أن تجعله تأكيدا لمدلول **{خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ**

بِقُوَّة} بأن يكون الأخذ بقوة شاملا لنية الامتثال، وتكون نكتة

التأكيد حينئذ هي الإشعار بأنهم مظنة الإهمال والإخلال حتى أكد

عليهم ذلك قبل تبين عدم امتثالهم فيما يأتي.

واعلم أن من دلائل النبوة والمعجزات العلمية إشارات القرآن

إلى العبارات التي نطق بها موسى في بني إسرائيل وكتبت في التوراة

فإن الأمر بالسمع تكرر في مواضع مخاطبات موسى لملا بني

إسرائيل بقوله: «اسمع يا إسرائيل» فهذا من نكت اختيار هذا

اللفظ للدلالة على الامتثال دون غيره مما هو أوضح منه، وهذا مثل ما ذكرنا في التعبير بالعهد".

وقيل فيها وجه آخر: أن المراد بقوله **{وَاسْمَعُوا}** بآذانكم سمع إدراك لا سمع استجابة، أي: ولا تمتنعوا من أصل الاستماع. ويدل لهذا الوجه: أن بعض الكفار ربما امتنع من أصل الاستماع خوف أن يسمع كلام الأنبياء، كما في قوله تعالى عن نوح مع قومه: **{وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لَتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا}** [نوح: ٧]. وقوله عن قوم نبينا -صلى الله عليه وسلم-: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}** [فصلت: ٢٦] وقوله: **{وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتُلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا}** [الحج: ٧٢]، وقوله بعدها: **{قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا}** لأن السمع الذي لا ينافي العصيان هو السمع بالآذان دون السمع بمعنى الإجابة.

{قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا} سمعنا بآذاننا وعصينا بلسان الحال والفعال.. قال أهل المعاني: إنهم لم يقولوا **{وَعَصَيْنَا}** بألسنتهم ولكن لما سمعوه تلقوه بالعصيان فنسب ذلك إلى القول اتساعا،

فمن المستبعد قولهم عصينا مع قوة الدعوة في الميثاق الذي أخذ عليهم في حال رفع الجبل فوقهم ودعوتهم إلى سماع الحق.

{وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ} ذكر مكان الإشراب، كقوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا}**
[النساء: ١٠]

والإشراب مخالطة المائع الجامد، وتوسع فيه حتى صار في اللونين، قالوا: وأشرب البياض حمرة، أي خلطتها بالحمرة، ومعناه أنه داخلهم حب عبادته، كما داخل الصبغ الثوب.

وقيل: الإشراب هو جعل الشيء شارباً، واستعير لجعل الشيء متصلاً بشيء وداخلاً فيه، ووجه الشبه هو شدة الاتصال والسريان لأن الماء أسرى الأجسام في غيره، ولذا يقول الأطباء الماء مطية الأغذية والأدوية ومركبها الذي تسافر به إلى أقطار البدن، فلذلك استعاروا الإشراب لشدة التداخل.

وقيل: وإنما عبر عن حب العجل بالشرب دون الأكل، لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل إلى باطنها، ولما كان الشرب مادة حياة ما تخرجه الأرض، نسب ذلك إلى المحبة، لأنها مادة لجميع ما صدر عنهم من الأفعال.

{العجل} أي حب عبادة العجل الذي عبدوه بدعوة السامري لهم بذلك، وأسند الإشراب إلى ذات العجل مبالغة كأنه بصورته أشربوه.

قال ابن عثيمين: "عبر بالعجل عن حبه؛ لأنه أبلغ؛ فكأن نفس العجل دخل في قلوبهم؛ والذي أشرب هذا في قلوبهم هو الله سبحانه وتعالى؛ ولكن من بلاغة القرآن أن ما يكرهه الله يعبر عنه غالباً بالبناء لما لم يسم فاعله؛ لأن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: (والشر ليس إليك) [مسلم]، وقال الله تعالى عن الجن: **{وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا}** [الجن: ١٠]؛ ففي الشر قالوا: {أريد}، ولم ينسبوه إلى الله؛ أما الرشد فنسبوه إلى الله عز وجل".

وإنما شغفوا به استحسانا واعتقادا أنه إلههم، وأن فيه نفعهم لأنهم لما رأوه من ذهب قدسوه من فرط حبهم الذهب. وقد قوى ذلك الإعجاب به بفرط اعتقادهم ألوهيته ولذلك قال تعالى: **{بِكُفْرِهِمْ}** فإن الاعتقاد يزيد المعتقد توغلا في حب معتقده. وذلك لأنهم كانوا مجسمة، أو حلولية ولم يروا جسماً أعجب منه، فتمكن في قلوبهم ما سول لهم السامري.

والظاهر أن الباء للسبب، أي الحامل لهم على عبادة العجل هو كفرهم السابق، قيل: ويجوز أن يكون الباء بمعنى «مع» للمصاحبة، يعنون أن يكون للحال، أي مصحوباً بكفرهم، فيكون ذلك كفراً على كفر.

{قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ} أي بئس إيمان يأمركم بعبادة العجل. أضاف الإيمان إليهم لكونه إيماناً غير صحيح، وعني بإيمانهم الذي زعموا في قولهم: **{نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا}**.

{إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} بزعمكم. أضاف الأمر إلى إيمانهم على طريق التهكم، كما قال أصحاب شعيب: **{أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}** [هود: ٨٧]

والمقصود منه القدح في دعواهم الإيمان بالتوراة، وإبطال ذلك بطريق يستنزل طائرهم ويرمى بهم في مهواة الاستسلام للحجة، فأظهر إيمانهم المقطوع بعدمه في مظهر الممكن المفروض ليتوصل من ذلك إلى تبكيته وإفحامهم نحو: **{قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}** [الزخرف: ٨١]

ولهذا أضيف الإيمان إلى ضميرهم لإظهار أن الإيمان المذموم هو إيمانهم أي الذي دخله التحريف والاضطراب لما هو معلوم من أن الإيمان بالكتب والرسل إنما هو لصالح الناس والخروج بهم من الظلمات إلى النور، فلا جرم أن يكون مرتكبوا هاته الشنائع ليسوا من الإيمان بالكتاب الذي فيه هدى ونور في شيء فبطل بذلك كونهم {مؤمنين} وهو المقصود.

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرْخِزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٩٦)

{قُلْ} يا محمد لبني إسرائيل الذين ادعوا أن الجنة خاصة بهم {إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ} وجمهور المفسرين أن الدار الآخرة «الجنة»، قالوا: وذلك معهود في إطلاقها على الجنة. قال تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا

فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: ٨٣] ومعلوم أن ما يجعل
لهؤلاء هو الجنة، وقال تعالى: {وَلِلَّذَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ}
[الأنعام: ٢٣]

{عِنْدَ اللَّهِ} في حكم الله، أو في غيبه {خَالِصَةً} مختصة بكم،
لا حظ في نعيمها لغيركم {مَنْ دُونَ} سائر {النَّاسِ} وذلك أن
اليهود ادعوا دعاوى باطلة مثل قولهم: {وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا
أَيَّامًا مَّعْدُودَةً} [البقرة: ٨٠] {وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ
هُودًا أَوْ نَصَارَى} [البقرة: ١١١] {وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ
أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [المائدة: ١٨]، فكذبهم الله عز وجل وألزمهم
الحجة فقال:

{فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ} تمنوه بقلوبكم واسألوه بالسنتكم، لأن من
علم أن الجنة مأواه حن إليها ولا سبيل إلى دخولها إلا بعد الموت
فاستعجلوه بالتمني {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} في دعواكم أن الجنة لكم
دون غيركم.

وعلق تمنيههم على شرط مفقود، وهو كونهم صادقين، وليسوا
بصادقين في أن الجنة خالصة لهم دون الناس، فلا يقع التمني:
والمقصود من ذلك التحدي وإظهار كذبهم، وذلك أن من أيقن أنه

من أهل الجنة، اختار أن ينتقل إليها، وأن يخلص من المقام في دار الأكدار، وأن يصل إلى دار القرار.

كما روي عن شهد لهم رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالجنة، كعثمان، وعلي، وعمار، وحذيفة، أنهم كانوا يختارون الموت، وكذلك الصحابة كانت تختار الشهادة.

وفي البخاري عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيْمَانُ بِي وَتَصْدِيقُ بِرُسُلِي أَنْ أَرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَلَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أُحْيَا ثُمَّ أُقْتَلُ) وذلك لما علم -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من فضل الشهادة. وروي عن حذيفة أنه كان يتمنى الموت، فلما احتضر قال: "حَبِيبُ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ، لَا أَفْلَحَ مَنْ نَدِمَ".

وعن عمار، لما كان بصفين قال: "غداً نلقى الأحبة، محمداً وصحبه".

وعن عليّ أنه كان يطوف بين الصفيين بغلالة [كساء]، فقال له ابنه الحسن: ما هذا بزّيّ المحاربين، فقال: يا بنيّ لا يبالي أبوك، أعلى الموت سقط، أم عليه سقط الموت.

وكان عبد الله بن رواحة ينشد، وهو يقاتل الروم:
يا حبذا الجنة واقترابها . . . طيبة وبارد شرابها.. والروم روم قد دنا
عذابها

وفي قصتي قتل عثمان بن عفان وسعيد بن جبير ما يدل على اختيارهما الشهادة، وذلك أن عثمان جاءه جماعة من الصحابة فقالوا له: نقاتل عنك؟ فقال لهم: لا، وكان له قريب من ألف عبد، فشهروا سيوفهم لما هجم عليهم، فقال: من أغمد سيفه فهو حرّ. فصبر حتى قتل.

وأما سعيد، فإن الموكلين به، لما طلبه الحجاج، وشاهدوا من لياذ السباع به وتمسحها به، قالوا: لا ندخل في إراقة دم هذا الرجل الصالح، قالوا له: طلبك ليقتلك، فاذهب حيث شئت، ونحن نكون فداء. فقال: لا والله، إني سألت ربي الشهادة، وقد رزقيها، والله لا برحت.

{وَلَنْ} تدل على النفي المؤبد **{يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا}** تأكيداً للنفي الأول أتبعه تأكيد آخر بذكر السبب ألا وهو ما قدمت أيديهم. وفي سورة الجمعة: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}** [الجمعة: ٦-٧]

وإنما قال هنا: **{ولن يتمنوه}**، وفي سورة الجمعة **{ولا يتمنونه}** لأن دعواهم هنا [وهو أن تكون لهم الدار الآخرة من دون الناس] أعظم من دعواهم هناك [الزعم بأنهم من أولياء الله من دون الناس]، لأن السعادة القصوى فوق مرتبة الولاية، لأن الثانية تراد لحصول الأولى، و «لن» أبلغ في النفي من «لا»، فجعلها للنفي الأعظم.

وقال الماتريدي ما ملخصه: أن المؤمن يقول: إن الجنة له، ومع ذلك ليس يتمنى الموت.

وأجاب: بأنه لم يجعل لنفسه من المنزل عند الله من ادعاء بنوة ومحبة من الله لهم ما جعلته لليهود، لأن جميع المؤمنين -غير

الأنبياء- لا يزول عنهم خوف الخاتمة. والخطيء منهم مفتقر إلى زمان يتدارك فيه تكفير خطئه. فلذلك لم يتمن المؤمنون الموت.

{بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} أي بسبب ما قدمت أيديهم، وهذا من المعجزات، لأنه إخبار بالغيب، ونظيره من الإخبار بالمغيب قوله تعالى: **{فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا}** [البقرة: ٢٤]

وهذا نظير قوله تعالى: **{لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ}** [آل عمران: ١٨١-١٨٢]

ومن الذي قدمته أيديهم: تكذيبهم الأنبياء، وقتلهم إياهم، وقولهم: **{أَرَأَى اللَّهُ جَهْرَةً}** [النساء: ١٥٣]، وقولهم: **{اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا}** [الأعراف: ١٣٨] وقولهم: **{فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}** [المائدة: ٢٤] واعتداؤهم في السبت، وسائر الكبائر التي لم تصدر من أمة قبلهم ولا بعدهم.

ونسب التقديم لليد مجازاً، والمعنى بما قدّموه، إذ كانت اليد أكثر الجوارح تصرفاً في الخير والشر. وكثر هذا الاستعمال في القرآن الكريم: **{ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}**

[الحج: ١٠] {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ
لِّلْعَبِيدِ} [آل عمران: ١٨٢] {وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ
أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: ٣٠] وقيل: المراد اليد حقيقة
هنا، والذي قدّمته أيديهم هو تغيير صفة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ-، وكان ذلك بكتابة أيديهم.

{وَاللَّهُ} صدر لفظ الجلالة إظهاراً للهبة والرهبة {عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ} جملة خبرية معناها التهديد والوعيد، وإلا فعلم الله
متعلق بالظالم وغير الظالم. وفيه جواز تخصيص العموم لغرض
كالتهديد والوعيد.

وإنما ذكر الظالمين، لأن الظلم هو تجاوز ما حدّ الله تعالى، ولا
شيء أبلغ في التعدي من ادعاء خلوص الجنة لمن لم يتلبس بشيء
من مقتضاتها، وانفراده بذلك دون الناس.

{وَلَتَجِدَنَّهُمْ} اليهود {أَخْرَصَ النَّاسَ عَلَى حَيَاةٍ} التنكير لتعميم
معاني الحياة، والمعنى على أي حياة كانت مدتها أو صورتها، سواء
كانت حياة ذل أم كانت حياة عز، وسواء كانت حياة استعباد أم
كانت حياة حرية، وسواء أكانت تحكمها الفضيلة أم كانت
تحكمها الرذيلة، إنهم يحرصون على الحياة ذاتها من غير نظر إلى

وصفها سواء أكانت مقبلة في ذاتها، أم كانت بكرامة من غير مهانة. وإن هذا يدل على كمال الحرص.

{وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا} وأحرص من الذين أشركوا، يعني: اليهود أحرص من المشركين على الرغم من أن اليهود أهل كتاب يؤمنون بالبعث وبالجنة والنار؛ والمشركون لا يؤمنون بذلك، والذي لا يؤمن بالبعث يصير أحرص الناس على حياة؛ لأنه يرى أنه إذا مات انتهى أمره، ولا يعود؛ فتجده يحرص على هذه الحياة التي يرى أنها هي رأس ماله.

{يَوْمَ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ} لو يزداد في عمره **{أَلْفَ سَنَةٍ}** كناية عن الزمان الطويل، وقيل: ذكر ألف عام لأنه كان أكبر عدد في زعمهم.. طلب أعرابي عطاء من حاكم من حكام بني أمية، فأعطاه ألفاً، فقال له قائل: لو طلبت أكثر من ألف لأعطاك، فقال: لو كنت أعلم أن فوق الألف عدداً لطلبت، فالألف كناية عن أكبر عدد.

{وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحِهِ} بدافعه ومانعه، والمزحزة الإبعاد أو الإزالة، وهي تدل على المعاناة في الإبعاد والإخراج من المكان الذي حل فيه **{مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعْمَرَ}** وفيه أن طول العمر لا يفيد المرء شيئاً

إذا كان في معصية الله تعالى، وغَوُرُ فهم السلف حين كرهوا أن يُدعى للإنسان بالبقاء؛ فإن الإمام أحمد كره أن يقول للإنسان: "أطال الله بقاءك"؛ لأن طول البقاء قد ينفع، وقد يضر؛ إذاً الطريق السليم أن تقول: "أطال الله بقاءك على طاعة الله"، أو نحو ذلك **{وَاللَّهُ بَصِيرٌ}** عالم علم من يصير **{بِمَا يَعْمَلُونَ}**

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩) أَوَكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٠)

{قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا} العدو المبغض، وهو مشتق من عدا عليه يعدو بمعنى وثب، لأن المبغض يشب على المبعوض لينتقم منه.

{لِّجِبْرِيلَ} روح القدس الموكل بالوحي، وعداوة اليهود لجبريل نشأت من وقت نزوله بالقرآن على الحبيب محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ - وقيل لأنه ينزل على الأمم التي كذبت رسلها بالعذاب والوعيد.

وفي البخاري عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ بِقُدُومِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ فِي أَرْضٍ يَخْتَرِفُ فَاتَى النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: إِنِّي سَأُثَلِّثُكَ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ، فَمَا أَوَّلُ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؟ وَمَا أَوَّلُ طَعَامِ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ وَمَا يَنْزِعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ أَوْ إِلَى أُمِّهِ؟ قَالَ: (أَخْبَرَنِي بِهِنَّ جَبْرِيلُ آنِفًا) قَالَ: جَبْرِيلُ قَالَ: (نَعَمْ) قَالَ: (ذَاكَ عَدُوُّ الْيَهُودِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ) فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ}.

قال ابن عاشور: ومن عجيب تهافت اعتقادهم أنهم يشبتون أنه ملك مرسل من الله ويبغضونه، وهذا من أخطأ دركات الانحطاط في العقل والعقيدة، ولا شك أن اضطراب العقيدة من أكبر مظاهر انحطاط الأمة لأنه ينبئ عن تظافر آرائهم على الخطأ والأوهام.

{فَإِنَّهُ} أي: جبريل {نَزَّلَهُ} أي القرآن {عَلَى قَلْبِكَ} وهذه الجملة قائمة مقام جواب الشرط {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجَبْرِيلَ}. لظهور أن المراد أن لا موجب لعداوته لأنه واسطة أذنه الله تعالى بالنزول

بالقرآن، فهم بمعاداته إنما يعادون الله تعالى، فالتقدير: من كان
عدوا لجبريل فلا يعاده وليعاد الله تعالى. وهذا الوجه أحسن وأسعد
بقوله تعالى {يَاذُنِ اللَّهِ} وأظهر ارتباطا بقوله بعد {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ}

ويجوز أن يكون التقدير فإنه قد نزل عليه سواء أحبوه أم
عادوه فيكون في معنى الإغابة من باب {قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ} [آل
عمران: ١١٩]

ودلت الآية على تعظيم جبريل والتنويه بقدره، حيث جعله
الواسطة بينه تعالى وبين أشرف خلقه، والمنزل بالكتاب الجامع
للأوصاف المذكورة.

والقلب هنا بمعنى النفس وما به الحفظ والفهم، والعرب تطلق
القلب على هذا الأمر المعنوي نحو: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ
لَهُ قَلْبٌ} [ق: ٣٧] كما يطلقونه أيضا على العضو الباطني
الصَّنَوْبَرِيِّ.

وظاهر هذه الآية أن جبريل ألقى القرآن في قلب النبي -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من غير سماع قراءة، ونظيرها في ذلك قوله
تعالى: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ} [الشعراء: ١٩٣ -

١٩٤] ولكنه بين في مواضع آخر أن معنى ذلك أن الملك يقرؤه عليه حتى يسمعه منه، فتصل معانيه إلى قلبه بعد سماعه وذلك هو معنى تنزيله على قلبه. وذلك كما في قوله تعالى: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: ١٦-١٩] وقوله: {وَلَا تَعْجَلَ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} [طه: ١١٤]

والتنزيل على القلب للإشارة إلى أن القرآن ينزل على القلب ليحفظ في الصدور، لا أن يكتفي فيه بالسطور.

وعبر سبحانه وتعالى بكاف الخطاب للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في قوله {عَلَى قَلْبِكَ} دون أن يقول: قلبي، لبيان أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يحكى قول ربه، ولتأكيد معنى قوله تعالى بإذنه.

{يَاْذُنِ اللّٰهِ} والإذن هنا كوني؛ وقد ذكر العلماء أن إذن الله تعالى نوعان:

** كوني: وهو المتعلق بالخلق والتكوين، ولا بد من وقوع ما أذن الله تعالى فيه بهذا المعنى؛ مثاله قوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} [البقرة: ٢٥٥] وقوله تعالى: {وَمَا هُمْ

بِضَارَيْنَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ { [البقرة: ١٠٢] وقوله تعالى: { مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ { [التغابن: ١١]

والثاني شرعي: وهو ما يتعلق بالشرع والعبادة؛ مثاله قوله تعالى: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ { [يونس: ٥٩] وقوله تعالى: { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ { [الشورى: ٢١]

والفرق بينهما أن المأذون به شرعاً قد يقع وقد لا يقع؛ وأما المأذون به قدرأً فواقع لا محالة؛ ومن جهة أخرى: أن المأذون به شرعاً محبوب إلى الله عز وجل؛ والمأذون به قدرأً قد يكون محبوباً، وقد يكون غير محبوب.

{ مُصَدَّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ } فالقرآن مصدق لما في الكتب السابقة من نعت الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والبشارة به ومن التوحيد ووجوب الإسلام لله تعالى.

كما أن القرآن نوه بالتوراة والإنجيل ووصف كلا بأنه هدى ونور كما في سورة المائدة في قوله تعالى: { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ

وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ { [المائدة: ٤٤]

وقوله جل شأنه: {وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ { [المائدة: ٤٦]

{وَهْدًى وَبُشْرَى} وهدى إلى الحق، وبشرى بالجنة **{لِلْمُؤْمِنِينَ}** خص الهدى والبشرى بالمؤمنين، لأن غير المؤمنين لا يكون لهم هدى به ولا بشرى، كما قال: **{قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى { [فصلت: ٤٤]** ولأن المؤمنين هم المبشرون **{فَبَشِّرْ عِبَادِ { [الزمر: ١٧] {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ { [التوبة: ٢١]** وقيل: القرآن بشرى للمؤمنين؛ وعلامة ذلك أنك تنتفع به؛ فإذا وجدت نفسك منتفعاً به حريصاً عليه تالياً له حق تلاوته فهذا دليل على الإيمان، فتناله البشرى؛ وكلما رأى الإنسان من نفسه كراهة القرآن، أو كراهة العمل به، أو الشاغل في تطبيقه فليعلم أنه إنما فاقد للإيمان بالكلية، أو أن إيمانه ناقص.

فقد حصل من الأوصاف الخمسة للقرآن، وهي: أنه منزل من عند الله بإذن الله. وأنه منزل على قلب الرسول. وأنه مصدق لما سبقه من الكتب. وأنه هاد أبليغ هدى. وأنه بشرى للمؤمنين .. الشناء على القرآن بكرم الأصل. وكرم المقر. وكرم الفئة. ومفيض الخير على أتباعه الأخيار خيرا عاجلا. وواعد لهم بعاقبة الخير. وهذه خصال الرجل الكريم مَحْتَدُهُ [أصله ونسبه] وَبَيْتُهُ وَقَوْمُهُ. السخي بالبذل الواعد به.

{مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ} فابتدأ سبحانه بلفظ الجلالة الكبير في ذاته خالق الوجود، وخالق الملائكة والجن والإنس، والشمس والقمر والسموات والأرض.. ابتدأ بذكره جل جلاله لبيان أن من عاداه فقد تعرض لأعظم نقمة وأشد ضلال وخروج عن الحق، فالابتداء به سبحانه وتعالى لبيان عظم الخطورة التي يتعرضون لها بجهلهم وفساد نفوسهم وضلال فكرهم.

والعداوة بين الله والعبد لا تكون حقيقة، وعداوة العبد لله تعالى مجاز، ومعناها: مخالفة الأمر، وعداوة الله للعبد: مجازاته على مخالفته.

{وَمَلَأْنِيهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} قراءة أبو عمرو وحفص
وهي لغة أهل الحجاز، وهو ميكائيل، ملك من أعظم الملائكة
وقيل معناه عبد الله. قالوا: وجبريل أفضل من ميكائيل، لأنه قدم في
الذكر، ولأنه ينزل بالوحي والعلم، وهو مادة الأرواح. وميكايل ينزل
بالخشب والمطر، وهي مادة الأبدان، وغذاء الأرواح أشرف من
غذاء الأشباح.

{فَإِنَّ اللَّهَ} ولم يأت بالضمير بأنه عدوٌ للتعظيم والتفخيم، لأن
العرب إذا فحمت شيئاً كررته بالاسم الذي تقدم له منه: **{ذَلِكَ وَمَنْ
عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ
غَفُورٌ}** [الحج: ٦٠] **{إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}** [الحج: ٧٤].

{عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ} أراد عدوٌ لهم، وجاء باسم الجلالة بلفظه
الظاهر، ولم يقل فإني عدو أو فإنه عدو، لما يشعر به الظاهر هنا
من القدرة العظيمة، وليدل على أن الله عاداهم لكفرهم، وأن عداوة
الملائكة كفر.. والعدو مستعمل في معناه المجازي وهو ما يستلزمه
من الانتقام والهلاك، وأنه لا يفله.

فرد عليهم في الآية السابقة، بأن جبريل أتى بأصل الخيور كلها، وهو القرآن الجامع لتلك الصفات الشريفة، من موافقته لكتبهم، وكونه هدى وبشرى، فكانت تجب محبته.

وردّ عليهم في هذه الآية، بأن قرنه باسمه تعالى مندرجاً تحت عموم ملائكته، ثم ثانياً تحت عموم رسله، لأن الرسل تشمل الملائكة وغيرهم ممن أرسل من بني آدم، ثم ثالثاً بالتنصيص على ذكره مجرداً مع من يدعون أنهم يحبونه، وهو ميكال، فصار مذكوراً في هذه الآية ثلاث مرار، كل ذلك رد على اليهود وضم لهم، وتنويه بجبريل.

ودلت الآية على أن الله تعالى عدوّ لمن عادى الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال. ولا يدل ذلك على أن المراد من جمع عداوة الجميع، فالله تعالى عدوّه، وإنما المعنى أن من عادى واحداً ممن ذكر، فالله عدوه، إذ معاداة واحد ممن ذكر معاداة للجميع.

فقال بعض الناس: الواو هنا بمعنى «أو» وليست للجمع. وقال بعضهم: الواو للتفصيل، ولا يراد أيضاً أن يكون عدواً لجميع الملائكة، ولا لجميع الرسل، بل هذ من باب التعليق على الجنس بصورة الجمع، كقول: "إن كلمت الرجال فأنت طالق"، لا يريد

بذلك إن كلمت كل الرجال، ولا أقل ما ينطلق عليه الجمع، وإنما علق بالجنس، وإن كان بصورة الجمع، فلو كلمت رجلاً واحداً طلقت، فكذلك هذا الجمع في الملائكة والرسل.

وفيه إثبات صفة العداوة من الله تعالى. أي أن الله يعادي؛ وهي صفة فعلية كالرضا، والغضب، والسخط، والكراهة؛ و "المعاداة" ضدها الموالاة الثابتة للمؤمنين، كما قال الله تعالى: **{اللَّهُ وَلِيُّ** الَّذِينَ آمَنُوا**}** [البقرة: ٢٥٧]

{وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ} فيه إثبات صفة العلو لله تعالى، وعلو الله سبحانه وتعالى من صفاته الذاتية اللازمة له التي لم يزل ولا يزال متصفاً بها؛ وأما استواؤه على العرش فإنه من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته.

{آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ} آيات القرآن الكريم الواضحة فيما تدل عليه من معان. فهي واضحة في ذاتها ودلالاتها.

ووصف القرآن بأنه آيات بينات لا ينافي قوله تعالى: **{مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}** [آل عمران: ٧]؛ لأن هذا التشابه يكون متشابهاً على بعض الناس دون بعض؛ ولأنه يُحمل على المحكم، فيكون الجميع محكماً، كما قال تعالى:

{فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ
وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ
آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا} [آل عمران: ٧]

وفي الانتقال إلى خطاب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إقبال عليه وتسلية له عما لقي منهم، وأن ما أنزل إليه لا يكذب به إلا من لا يؤبه بتكذيبه لكون هذا المنزل دلائل واضحة لا تقصر عن إقناعهم بأحقيتها ولكنهم يظهرون أنفسهم أنهم لم يوقنوا بحقيتها.
{وَمَا يَكْفُرُ بِهَا} يجحد بكونها كتاب الله ووحيه إلى رسوله محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، والإخبار وقع بالمضارع الدال على التجدد.

{إِلَّا الْفَاسِقُونَ} الخارجون عما يجب أن يكونوا عليه من الإيمان بالله والإسلام له ظاهراً وباطناً، وقال الحسن: "إذا استعمل الفسق في شيء من المعاصي، وقع على أعظمه من كفر أو غيره".
وهذا كقوله تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ} [السجدة: ٢٠]

وناسب قوله: **{بَيِّنَات}** لفظ الكفر، وهو التغطية، لأن البين لا يقع فيه إلباس، فعدم الإيمان به ليس لشبهة لأنه بين، وإنما هو تغطية وستر لما هو واضح بين. وستر الواضح لا يقع إلا من متمرّد في فسقه، وكنى بالفسق هنا عن الكفر، لأن الفسق: خروج الإنسان عما حُدّ له.

{أَوْكَلَمَّا} استفهام استنكاري وفيه أيضا إعظام ما يقدمون عليه من تكرّر عهودهم ونقضها، فصار ذلك عادة لهم وسجية **{عَاهَدُوا}** **{عَهْدًا}** الوعد الملزم **{نَبَذَهُ}** طرحه وألقاه غير آبه به ولا ملتفت إليه **{فَرِيقٌ مِّنْهُمْ}** فينبغي أن لا يكثرث بأمرهم، وأن لا يصعب ذلك، فهي تسليّة للرسول -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، إذ كفروا بما أنزل عليه، لأن ما كان ديدناً للشخص وخلقاً لا ينبغي أن يحتفل بأمره.

والمراد بالعهد: «عهد التوراة» أي: ما اشتملت عليه من أخذ العهد على بني إسرائيل بالعمل بما أمروا به أخذاً مكرراً حتى سميت التوراة بالعهد، وقد تكرّر منهم نقض العهد مع أنبيائهم، ومن جملة العهد الذي أخذ عليهم أن يؤمنوا بالرسول المصدق للتوراة. وأسند النبذ إلى فريق إما باعتبار العصور التي نقضوا فيها العهود كما تؤذّن به كلما أو احتراساً من شمول الذم للذين آمنوا منهم.

وليس المراد أن ذلك الفريق قليل منهم فنبه على أنه أكثرهم بقوله:

{بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} فلما كان الفريق ينطلق على القليل والكثير، وأسند النبذ إليه، كان فيما يتبادر إليه الذهن أنه يحتمل أن يكون النابذون قليلاً، فبين أن النابذين هم الأكثر، وصار ذكر الأكثر دليلاً على أن الفريق هنا لا يراد به اليسير منهم، فكان هذا إضراباً عما يحتمله لفظ الفريق من دلالة على القليل.

وقيل: هذا الإضراب للانتقال من وصف إلى وصف: من وصف نقض العهد ونبذه، إلى وصف عدم الإيمان؛ فعليه يكون هذا الإضراب إثباتاً لما قبله، وزيادة وصف. وهو انتفاء الإيمان عن أكثرهم.

ومن أهل الكتاب من لم ينبذ كتاب الله وراء ظهره؛ بل آمن به كالنجاشي من النصارى، وعبد الله بن سلام من اليهود.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى

مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا
يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ
هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ
فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ
وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ
مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ
عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)

{وَلَمَّا} التعبير بـ {لما} دليل على أنهم كانوا يتوقعون مجيئه،
وقد كانوا يتوقعون ذلك ويعرفونه ويستفتحون على الذين كفروا
{جاءهم} أي بني إسرائيل **{رَسُولٌ}** محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ -، والتكثير للتعظيم، أي رسول بالغ أقصى درجات الفضل،
وقد اختاره الله تعالى **{مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ}** تفخيماً لشأنه، إذ الرسول على
قدر المرسل.

{مُصَدِّقٌ} وتصديقه أنه خلق على الوصف الذي ذكر في التوراة وبشرت به، أو تصديقه على قواعد التوحيد وأصول الدين وأخبار الأمم والمواظ والحكم، أو تصديقه: إخباره بأن الذي معهم هو كلام الله، وأنه المنزل على موسى، أو تصديقه: إظهار ما سألوا عنه من غوامض التوراة. قال تعالى: **{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}** [الأعراف: ١٥٧]

{لَمَّا مَعَهُمُ} التوراة **{نَبَذَ}** النبذ والطرح والإلقاء متقاربة، لكن النبذ أكثر ما يقال فيما يئس، والطرح أكثر ما يقال في المبسوط وما يجري مجراه، والإلقاء فيما يعتبر فيه ملاقة بين شيئين. والمعنى: إطراح أحكامه، أو إطراح ما فيه من صفة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، إذ الكفر ببعض كفر بالجميع **{فَرِيقٌ}** جماعة، وبين في موضع آخر أن هؤلاء الذين لم يؤمنوا بالكتاب هم الأكثر، وذلك في قوله تعالى: **{وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}** [آل عمران: ١١٠]

{مَنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ} عبر الله تعالى بالذين أوتوا الكتاب توبيخاً لهم، وتنديداً بفعلهم فإنهم كانوا جديرين بأن يكونوا أول من يأخذ بالكتاب لا أن ينبذوه ويجعلوه وراء ظهورهم ودبر آذانهم.

{كِتَابَ اللَّهِ} التوراة، أو القرآن وهو الراجح لأنه هو الذي جاء به الرسول الكريم، الذي جاء به مصداقاً لما معهم، وأضاف الكتاب إلى الله تعظيماً له، كما أضاف الرسول إليه بالوصف السابق، فصار ذلك غاية في ذمهم، إذ جاءهم من عند الله بكتابه المصدق لكتابهم.

{وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ} وهذا مثل يضرب لمن أعرض عن الشيء جملة، وقالت العرب ذلك لأن ما جعل وراء الظهر فلا يمكن النظر إليه، فهذا النبذ الذي كان منهم لا يرجى بعده قبول، ومثله: **{قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَّ}** [هود: ٩٢]

{كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} تشبيه لمن يعلم بمن يجهل، لأن الجاهل بالشيء لا يحفل به ولا يعتد به، لأنه لا شعور له بما فيه من المنفعة.

وعن سفیان: أدرجوه في الديباج والحريز، وحلوه بالذهب، ولم يحلوا حاله، ولم يحرموا حرامه. [وعلى قول سفیان فالكتاب هو التوراة]

{وَاتَّبِعُوا} أي اقتدوا به إماماً، أو فضلوا، لأن من اتبع شيئاً فضله، وهو إخبار عن حال اليهود في اتباعهم ما لا ينبغي أن يتبع من السحر زمن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأسلافهم أيضاً فشا فيهم السحر، فأمر السحر لم يزل في اليهود قديماً وحديثاً، وفيه أن من ترك الحق ابتلي باتباع البطل.

{مَا تَتْلُوا} وهو مضارع في معنى الماضي، أي ما تلت، أو ما كانت تتلو من السحر **{الشَّيَاطِينُ}** شياطين الجن **{عَلَى مُلْكٍ}** لأن الله جمع له بين النبوة والملك، بل وهبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده **{سُلَيْمَانَ}** على عهده، وفي زمانه، أو على ما تفتريه عن تثبيت ملك سليمان في زعمهم.

وتدور أكثر أقوال المفسرين على أن الذي تلتته الشياطين على ملك سليمان هو بعض أنواع من السحر والشعوذة ابتدعها الشياطين ونسبوها إلى سليمان عليه السلام، وزعموا أنه كان يسخر بها الجن.

وفي الطبري بإسناد حسن لابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: كان الذي أصاب سليمان بن داود، في سبب أناس من أهل امرأة يقال لها جرادة، وكانت من أكرم نسائه عليه. قال: فكان هوى سليمان أن يكون الحق لأهل الجرادة فيقضي لهم، فعوقب حين لم يكن هواه فيهم واحدا. قال: وكان سليمان بن داود إذا أراد أن يدخل الخلاء، أو يأتي شيئا من نسائه، أعطى الجرادة خاتمه. فلما أراد الله أن يتلي سليمان بالذي ابتلاه به، أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه، فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها: هاتي خاتمي! فأخذه فلبسه. فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس. قال: فجاءها سليمان فقال: هاتي خاتمي! فقالت: كذبت، لست بسليمان! قال: فعرف سليمان أنه بلاء ابتلي به. قال: فانطلقت الشياطين فكتبت في تلك الأيام كتبا فيها سحر وكفر، ثم دفنوها تحت كرسي سليمان، ثم أخرجوها فقرأوها على الناس وقالوا: إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب! قال: فبرئ الناس من سليمان وأكفروه، حتى بعث الله محمدا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فأنزل جل ثناؤه: {وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ} يعني الذي كتب الشياطين من السحر والكفر

{وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا}، فَأَنْزَلَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ
وعذره.

وأخرج النسائي وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان آصف
كاتب سليمان وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر
سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين
فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان
يعمل به، فأكفره جهال الناس وسبوه، ووقف علماؤهم فلم يزل
جهالهم يسبونه حتى أنزل الله على محمد **{وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا
الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ}**.

{وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ} الكفر هو السحر، فما كفر سليمان
بإدعائهم أنه استعان بالسحر على تثبيت ملكه.

وهو تنزيه لسليمان عن الكفر، أي ليس ما اختلقته الجن من
نسبة ما تدعيه إلى سليمان تعاطاه سليمان، لأنه كفر، ومن نبأه الله
تعالى منزله عن المعاصي الكبائر والصغائر، فضلاً عن الكفر.

{وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا} كفرهم إما بتعليم السحر، وإما
تعليمهم به **{يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ}** وهو عقد ورقى ينفث فيها
الساحر، فيؤثر في بدن المسحور وعقله؛ وهو أنواع: منه ما يقتل؛

ومنه ما يمرض؛ ومنه ما يزيل العقل ويخدر الإنسان؛ ومنه ما يغير حواس المرء، بحيث يسمع ما لم يكن، أو يشاهد الساكن متحركاً، أو المتحرك ساكناً؛ ومنه ما يجلب المودة؛ ومنه ما يوجب البغضاء؛ المهم أن السحر أنواع؛ وأهله يعرفون هذه الأنواع.

{وَمَا أُنْزِلَ} يعني واتبعوا أيضاً ما أُنزل **{عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ}** بالعراق **{هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ}** السحر ليعلم على جهة التحذير منه، والنهي عنه.

وقيل أن السحرة كثروا في ذلك الزمان، وادعوا النبوة، وتحذّوا الناس بالسحر. فجاءا ليعلما الناس السحر، فيتمكنوا من معارضة السحر، فيتبين كذبهم في دعواهم النبوة، أو لأن المعجزة والسحر ماهيتان متباينتان، ويعرض بينهما الالتباس.

{حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ} أي ابتلاء واختبار **{فَلَا تَكْفُرْ}** فلا تتعلم معتقداً أنه الحق، ولا تستعمله فيما نهيت عنه فتكفر، وإنما علمناك هذا لتتخذ منه وقاية ولتحذره، فكانت طائفة تمتثل وأخرى تخالف **{فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا}** ولم يقل فيعلمانهم، لأن الملكين ما كانا بصدد تعليمه، بل كانا بصدد بيان زيفه **{مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ}** امرأة الرجل **{وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ}**

{اللَّهُ} بقضاء الله، وفيه دليل على أن ما يتعلمون له تأثير وضرر، لكن ذلك لا يضر إلا بإذن الله، لأنه ربما أحدث الله عنده شيئاً، وربما لم يحدث.

{وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ} لا ينفع متخذه بأي صورة من صور النفع. وليس لعاقل أن يقوم بعمل مؤكد الضرر، ولا نفع فيه بأي صورة من النفع.

{وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ} والجملة في معنى المجاز بتشبيه المشتري للسحر بتقديم نفسه العاقلة الطاهرة بحال من يشتري شيئاً تافهاً، ويدفع فيه شيئاً قيماً ويبيع آخرته، فلا يكون له نصيب فيها.

{مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ} نصيب، وليس هناك أحد ليس له نصيب في الآخرة إلا الكفار؛ فالمؤمن مهما عذب فإن له نصيباً من الآخرة، وهو دليل على كفر الساحر كفر مخرج عن الملة. وهذا فيما إذا كان السحر عن طريق الشياطين؛ أما إذا كان عن طريق الأدوية والأعشاب، ونحوها ففيه خلاف بين العلماء.

واختلف العلماء -رحمهم الله- هل تقبل توبته، أو لا؟ والراجح أنها تقبل فيما بينه وبين الله عز وجل؛ أما قتله فيرجع فيه إلى القواعد الشرعية، وما يقتضيه اجتهاد الحاكم.

{وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ} أي باعوا أنفسهم، تأكيد الذم للسحر **{لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}** أي نوع من العلم، فلا يُقدم على السحر من عنده ذرة من العلم.

{وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا} بقلوبهم.. وهذا تمنياً لإيمانهم، كأنه قيل: وليتهم آمنوا، وذلك لأنهم لا إيمان عندهم بشيء، بل هم في اضطراب لا قرار في قلوبهم بشيء، والإيمان إذعان للحقائق، وجعلها مستقرة في القلوب مصدقة للحق، فالمعنى: لو ثبت أنهم آمنوا وأذعنوا وصدقوا بالحق واتقوا غضب الله تعالى وطلبوا رضاه، واتجهوا إلى السير في الطريق السوي لكان ذلك خيراً بدل الاعوجاج الذي اختاروه لأنفسهم، فساروا في طريق عوج، لو فعلوا ذلك لكان لهم ثواب.

{وَاتَّقُوا} بجوارحهم.. أي اتقوا غضب الله بعمل صالح ينفعهم وينفع الناس، ويكونون به مصدر خير لخلطائهم من الناس.

وفيه سعة حلم الله، حيث يعرض عليهم الإيمان، والتقوى فيما مضى، وفيما يستقبل؛ وهذه من سنته سبحانه وتعالى أن يعرض التوبة على المذنبين؛ انظر إلى قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}** [البروج: ١٠] يُحَرِّقُونَ أَوْلِيَاءَهُ، ثم يعرض عليهم التوبة.

{لَمْثُوبَةٌ} أي لثواب، وهو الجزاء والأجر على الإيمان والتقوى بأنواع الإحسان، من ثاب يثوب: إذا رجع؛ لأن الجزاء كأنه عمل الإنسان رجع إليه، وعاد إليه منفعتة وثمرته.

{مَنْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ} أضاف الله تعالى المثوبة إلى نفسه، وجعلها من عنده لأمرين:

**** الأول:** أنها تكون أعظم مما يتصوره العبد؛ لأن العطاء من العظيم عظيم؛ فالعطية على حسب المعطي؛ عطية البخيل قليلة؛ وعطية الكريم كثيرة. وفي البخاري قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا)

**** الثاني:** اطمئنان العبد على حصولها؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد.

{لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} والعلم هنا كناية عن العمل، أي لو كانوا يعملون بعلمهم، ولما انتقت ثمرة العلم الذي هو العمل، جعل العلم منتفياً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا
وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ
مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ (١٠٥)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} هذا أول خطاب خوطب به المؤمنون في
هذه السورة، بالنداء الدال على الإقبال عليهم، وذلك أن أول نداء
جاء أتى عامًّا **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ}** وثاني نداء أتى خاصًّا
{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} وهي الطائفة الكبيرة التي اشتملت على الملتين:
اليهودية والنصرانية، وثالث نداء لأمة محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- المؤمنين.

فكان أول نداء عامًّا، أمروا فيه بأصل الإسلام، وهو عبادة الله،
وثاني نداء ذكروا فيه بالنعمة الجزيلة، وتعبدوا بالتكاليف الجليلة،

وَحَوِّفُوا مِنْ حُلُولِ النِّقَمِ الْوَبِيلَةِ، وَثَالِثٌ نِدَاءٌ عَلِمُوا فِيهِ أَدْباً مِنْ آدَابِ الشَّرِيعَةِ مَعَ نَبِيِّهِمْ، إِذْ قَدْ حَصَلَتْ لَهُمْ عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى، وَالتَّذْكِيرُ بِالنِّعَمِ، وَالتَّخْوِيفُ مِنَ النِّقَمِ، وَالِاتِّعَازُ بِمَنْ سَبَقَ مِنَ الْأُمَمِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَا أَمَرُوا بِهِ عَلَى سَبِيلِ التَّكْمِيلِ، مِنْ تَعْظِيمِ مَنْ كَانَتْ هِدَايَتُهُمْ عَلَى يَدَيْهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

{ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا } يعني لا تقولوا عند مخاطبة النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - راعنا، أي أمهلنا وانظرنا، وبدأ بالنهاي، لأنه من باب التروك، فهو أسهل، ثم أتى بالأمر بعده الذي هو أشق لحصول الاستئناس قبل بالنهاي.

وقد ذكر أن سبب نزول هذه الآية أن اليهود كانت تقصد بذلك إذ خاطبوا رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الرعونة. أو أنه مفاعلة فيوهم مساواة، أي: راعنا بالقول الموجه المرشد نرعى بالاستماع والإنصات.

قال ابن عاشور: وقد ذكروا في سبب نزولها أن المسلمين كانوا إذا ألقى عليهم النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الشريعة والقرآن يتطلبون منه الإعادة والتأني في إلقائه حتى يفهموه ويعوه فكانوا يقولون له: "راعنا يا رسول الله" أي لا تتخرج منا وارفق،، وكان

المنافقون من اليهود يشتمون النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في خلواتهم سرا وكانت لهم كلمة بالعبرانية تشبه كلمة راعنا بالعربية ومعناها في العبرانية سب،، وقيل معناها لا سمعت دعاء، فقال بعضهم لبعض كنا نسب محمدا سرا فأعلنوا به الآن،، أو قالوا هذا وأرادوا به اسم فاعل من رعن إذا اتصف بالرعونة فكانوا يقولون هاته الكلمة مع المسلمين ناوين بها السب فكشفهم الله تعالى وأبطل عملهم بنهي المسلمين عن قول هاته الكلمة حتى ينتهي المنافقون عنها ويعلموا أن الله أطلع نبيه على سرهم.

قال ابن عثيمين: راعنا من المراعاة؛ وهي العناية بالشيء، والمحافظة عليه؛ وكان الصحابة إذا أرادوا أن يتكلموا مع الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قالوا: "يا رسول الله، راعنا؛" وكان اليهود يقولون: "يا محمد، راعنا؛" لكن اليهود يريدون بها معنى سيئاً؛ يريدون "راعنا" اسم فاعل من الرعونة؛ يعني أن الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- راعن؛ ومعنى "الرعونة" الحمق والهوج؛ لكن لما كان اللفظ واحداً وهو محتمل للمعنيين نهى الله عز وجل المؤمنين أن يقولوه تأديباً، وابتعاداً عن سوء الظن؛ ولأن من الناس من يتظاهر

بالإيمان مثل المنافقين. فربما يقول: "راعنا" وهو يريد ما أرادت اليهود؛ فلهذا نُهي المسلمون عن ذلك.

{وَقُولُوا انظُرْنَا} من النظر لا من الانتظار، فإن نظر في الحقيقة بمعنى حرس وصار مجازاً على تدبير المصالح.. فنهوا في هذه القراءة عن أن يخاطبوا الرسول بلفظ يكون فيه أو يوهم شيئاً من الغضب، مما يستحقه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من التعظيم وتلطيف القول وأدبه. وأرشدتهم تعالى إلى كلمة سليمة من كل شبهة تنافي الأدب وهي انظُرنا.

ولم يكن نهياً عن شيء سبق تحريمه، ولكن لما كانت لفظة المفاعلة تقتضي الاشتراك غالباً، فصار المعنى: ليقع منك رعي لنا ومنا رعي لك، وهذا فيه ما لا يخفى مع من يعظم فنهوا عن هذه اللفظة لهذه العلة، وأمروا بأن يقولوا: انظُرنا، إذ هو فعل من النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لا مشاركة لهم فيه معه.

وقد دلت هذه الآية على مشروعية أصل من أصول الفقه وهو من أصول المذهب المالكي يلقب بسد الذرائع وهي الوسائل التي يتوسل بها إلى أمر محظور.

واعلم أن المقصود من هذه الآية يتوقف فهم المراد منها على العلم بأسباب النزول فلا بد من البحث عنه للمفسر، وهذا منه تفسير مبهمات القرآن مثل قوله تعالى {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} [المجادلة: ١] ونحو {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا} فهي تطلب سبب نزولها ليظهر موقعها ووجه معناها، فإن النهي عن أن يقول المؤمنون كلمة لا ذم فيها ولا سخر لا بد أن يكون لسبب، ومثل بعض الآيات التي فيها {وَمِنَ النَّاسِ}.

{وَأَسْمَعُوا} أريد به سماع خاص وهو الوعي ومزيد التلقي حتى لا يحتاجوا إلى طلب المراعاة أو النظر، فأمرهم أن يسمعوا لنبيهم إذا خاطبهم حتى لا يضطروا إلى مراجعته.

{وَاللَّكَافِرِينَ} المراد بهم هنا اليهود {عَذَابٌ} عقوبة {أَلِيمٌ} مؤلم.

قال ابن عاشور: وإنما فصلت هذه الآية عما قبلها لاختلاف الغرضين لأن هذه في تأديب المؤمنين ثم يحصل منه التعريض باليهود في نفاقهم وأذاهم والإشعار لهم بأن كيدهم قد أطلع الله عليه نبيه، وقد كانوا يعدون تفتن المسحور للسحر يبطل أثره

فأشبهه التفتن للنوايا الخبيثة وصريح الآيات قبلها في أحوالهم الدينية المنافية لأصول دينهم ولأن الكلام المفتوح بالنداء والتنبيه ونحوه نحو {يَا أَيُّهَا النَّاسُ} ونحوها لا يناسب عطفه على ما قبله وينبغي أن يعتبر افتتاح كلام.

ومن فوائد الآية:

** أنه ينبغي استعمال الأدب في الألفاظ؛ يعني أن يُتجنب الألفاظ التي توهم سبًا، وشتماً؛ لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنًا وَقُولُوا انظُرْنَا}.

** أن الإيمان مقتضى لكل الأخلاق الفاضلة؛ لأن مراعاة الأدب في اللفظ من الأخلاق الفاضلة.

** أنه ينبغي لمن نهى عن شيء أن يدل الناس على بدله المباح؛ فلا ينهاهم، ويجعلهم في حيرة.

** التحذير من مخالفة أمر الله، وأنها من أعمال الكافرين؛

لقوله تعالى: {وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ}

{مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ} «من» هنا لبيان الجنس؛ وليست

للتبعية أي كل أهل الكتاب {أَهْلَ الْكِتَابِ} وقد يوهم كون البيان

قيداً، وأن الكافرين من غير أهل الكتاب لا يحسدون المسلمين،

فعطف عليه بقوله **{وَلَا الْمُشْرِكِينَ}** ودخلت «لا» للتأكيد، ولو كان في غير القرآن لجاز حذفها.

{أَنْ يُنْزَلَ} بتشديد الزاي؛ وفي قراءة بدون تشديد؛ والفرق بينهما أن "التنزيل": هو إنزاله شيئاً فشيئاً؛ وأما "الإنزال": فهو إنزاله جملة واحدة؛ هذا هو الأصل؛ فهم لا يودون هذا، ولا هذا: لا أن ينزل علينا الخير جملة واحدة؛ ولا أن ينزل شيئاً فشيئاً.

{عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ} من الوحي الإلهي المشتمل على التشريع المتضمن لكل أنواع الهداية وطرق الإسعاد والإكمال في الدارين. أو كان غير ذلك من سائر أنواع الخيرات، من خير الدنيا والآخرة، القليل والكثير؛ لو حصل للكافرين من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ومن المشركين أن يمنعوا القطر عن المسلمين لفعلوا؛ لأنهم ما يودون أن ينزل علينا أيّ خير؛ ولو تمكنوا أن يمنعوا العلم النافع عنا لفعلوا؛ وهذا ليس خاصاً بأهل الكتاب والمشركين في زمان الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ بل هو عام؛ ولهذا جاء بصيغة المضارع: **{ما يود}**؛ وهو دال على الاستمرار.

وفيه أنه يحرم على المسلمين أن يُؤَلُّوا هؤلاء الكفار أيّ قيادة؛ لأنهم ما داموا لا يودون لنا الخير فلن يقودونا لأيّ خير مهما كان

الأمر؛ ولهذا يحرم أن يجعل لهم سلطة على المسلمين لا في تخطيط، ولا في نظام، ولا في أي شيء؛ بل يجب أن يكونوا تحت إمرة المسلمين، وتحت تدبيرهم ما أمكن؛ وإذا استعنا بهم فإنما نستعين بهم لإدراك مصالحنا وهم تحت سلطتنا؛ لأنهم لو استطاعوا أن يمنعوا القطر وينبوع الأرض عن المسلمين لفعلوا؛ إذاً فيجب علينا الحذر من مخططاتهم، وأن نكون دائماً على سوء ظن بهم؛ لأن إحسان الظن بهم في غير محله؛ وإنما يحمل عليه الذل، وضعف الشخصية، والخور، والجبن.

وفيه أن الإنسان الذي لا يود الخير للمسلمين فيه شبه باليهود والنصارى؛ لأن من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم.

{مَنْ رَبَّكُمُ} وسبب عدم ودهم ذلك: أما في اليهود، فلكون النبوة كانت في بني إسماعيل، ولخوفهم على رئاستهم، وأما النصارى، فلتكذبيهم في إدعائهم ألوهية عيسى، وأنه ابن الله تعالى، ولخوفهم على رئاستهم، وأما المشركون، فلبس آلهتهم وتسفيه أحلامهم، ولحسدهم أن يكون رجل منهم يختص بالرسالة، واتباع الناس له.

{وَاللَّهُ يَخْتَصُّ} يفرد بها، وضد الاختصاص: الاشتراك **{بِرَحْمَتِهِ}**
{مَنْ يَشَاءُ} من عباده فحسد الكافرين لكم لا يمنع فضل الله عليكم
ورحمته بكم متى أرادكم بذلك.

وهذا الاختصاص مقرون بالحكمة؛ يعني اختصاصه بالرحمة
لمن يشاء مبني على حكمته سبحانه وتعالى؛ فمن اقتضت حكمته
ألا يختصه بالرحمة لم يرحمه.

وفيه أن خير الله لا يجلبه ودّ وادّ، ولا يرده كراهة كاره؛ لقوله
تعالى: **{وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ}**؛ فلا يمكن لهؤلاء اليهود
والنصارى والمشرّكين أن يمنعوا فضل الله علينا؛ وعلى هذا جاء
الحديث الصحيح: (وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ،
لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ
يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ،
وَجَفَّتِ الصُّحُفُ).

{وَاللَّهُ ذُو} صاحب، والوصف بـ «ذو»، أشرف عندهم من
الوصف بصاحب، لأنهم ذكروا أن ذو أبداً لا تكون إلا مضافة
لاسم، فمدلولها أشرف. ولذلك جاء ذو يزن، ذو الكَلَاع، ولم
يسموا بصاحب يزن ونحوها.

وامتنع أن يقول في صحابي: ذو رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وجاز أن يقول: صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
ولذلك وصف الله تعالى نفسه بقوله: {ذو الجلال} {ذو الفضل}.

{الْفَضْلُ} ما كان من الخير غير محتاج إليه صاحبه، والله عز وجل هو صاحب الفضل إذ كل ما يمن به ويعطيه عباده من الخير هو في غنى عنه ولا حاجة به إليه أبداً.

وفيه إثبات أن فضله ليس كفضل غيره؛ ففضل غيره محدود؛ وأما فضل الله ففضل عظيم لا حدود له؛ فإن الله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم؛ ومن فضله تبارك وتعالى أنه خص هذه الأمة بخصائص عظيمة كثيرة ما جعلها لأحد سواها؛ منها ما جاء في حديث جابر في الصحيحين عن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: (أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً).

{العظيم} والعظمة من جهة سعة وكثرته.. وفيه تنبيه على أن واجب مريد الخير التعرض لفضل الله تعالى والرغبة إليه في أن يتجلى عليه بصفة الفضل والرحمة فيتخلى عن المعاصي والخبائث ويتحلى بالفضائل والطاعات عسى أن يحبه ربه.

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠)

{مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ} والمراد بالآية هنا «حكم الآية» سواء أزيل لفظها أم أبقى لفظها لأن المقصود بيان حكمة إبطال الأحكام لا إزالة ألفاظ القرآن.

{أَوْ نُنسِهَا} يخبر تعالى راداً على الطاعنين في تشريعه الحكيم الذين قالوا: إن محمداً يأمر أصحابه اليوم بأمر وينهى عنه غداً، فقال تعالى: **{نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا}** والخيرية ظاهرة، لأن المأتي به، إن كان أخف من المنسوخ أو المنسوء، فخيرته بالنسبة لسقوط أعباء التكليف، وإن كان أثقل، فخيرته بالنسبة لزيادة الثواب **{أَوْ مِثْلَهَا}** أو مساو لها في التكليف والثواب، وذلك كنسخ التوجه إلى بيت المقدس بالتوجه إلى الكعبة. والحكمة هنا استسلام العبد لأحكام الله عز وجل، وتمام انقياده لها، كما قال تعالى: **{وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ}** [البقرة: ١٤٣]

وهذه الآية مثل قوله تعالى: **{قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي}** [يونس: ١٥] فما يكون للرسول -صلى الله عليه وسلم- أن يبدل شيئاً من القرآن من تلقاء نفسه، ويفهم من قوله **{مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي}** أن الله تعالى يبدل منه ما شاء بما شاء.

وصرح بهذا المفهوم في مواضع أخر كقوله عز وجل: {وَإِذَا
بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [النحل: ١٠١]، وقوله: {سَنُقْرُكَ فَلَا تَنْسَى
إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى} [الأعلى: ٦-٧].
والمراد به هنا رفع الآية؛ وليس مجرد النسيان؛ لأن مجرد النسيان
لا يقتضي النسخ؛ فالنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد ينسى بعض
الآية؛ وهي باقية كما في حديث أبي داود عَنْ الْمُسَوَّرِ بْنِ يَزِيدَ
الْأَسَدِيِّ الْمَالِكِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ، فَتَرَكَ شَيْئًا لَمْ يَقْرَأْهُ، فَقَالَ
لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَرَكْتَ آيَةً كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (هَلَّا أَذْكَرْتَنِيهَا)

وما زعمه المشركون واليهود: من أن النسخ مستحيل على الله
لأنه يلزمه البداء -وهو الرأي المتجدد- ظاهر السقوط، واضح
البطلان لكل عاقل؛ لأن النسخ لا يلزمه البداء البتة، بل الله جل
وعلا يشرع الحكم وهو عالم بأن مصلحته ستنقضي في وقت
معين، وأنه عند ذلك الوقت ينسخ ذلك الحكم ويبدله بالحكم
الجديد الذي فيه المصلحة؛ فإذا جاء ذلك الوقت المعين أنجز

جل وعلا ما كان في علمه السابق من نسخ ذلك الحكم الذي زالت مصلحته بذلك الحكم الجديد الذي فيه المصلحة.

كما أن حدوث المرض بعد الصحة وعكسه، وحدث الغنى بعد الفقر وعكسه، ونحو ذلك لا يلزم فيه البداء؛ لأن الله عالم بأن حكمته الإلهية تقتضي ذلك التغيير في وقته المعين له، على وفق ما سبق في العلم الأزلي، كما هو واضح.

وقد أشار جل وعلا إلى علمه بزوال المصلحة من المنسوخ، وتمحضا في النسخ بقوله: **{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ}** وقوله: **{نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا}** [البقرة: ١٠٦] وقوله: **{سَنُقَرِّكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى}** [٧/٨٧]، فقوله: **{إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى}** بعد قوله: **{إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ}** يدل على أنه أعلم بما ينزل؛ فهو عالم بمصلحة الإنسان، ومصلحة تبديل الجديد من الأول المنسي.

والمقصد من قوله تعالى: **{نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا}** هو إما إتيان تعويض أو إتيان تعزيز، وفيه إظهار منتهى الحكمة، والرد عليهم بأنهم لا يهمهم أن تنسخ شريعة بشرية أو حكم في شريعة بحكم آخر، ولا يقدح ذلك في علم الله تعالى ولا في حكمته ولا

ربوبيته، لأنه ما نسخ شرعا أو حكما ولا تركه إلا وهو قد عوض الناس ما هو أنفع لهم منه حينئذ أو ما هو مثله من حيث الوقت والحال، وما آخر حكما في زمن ثم أظهره بعد ذلك إلا وقد عوض الناس في إبان تأخيره ما يسد مسده بحسب أحوالهم، وذلك مظهر الربوبية فإنه يرب الخلق ويحملهم على مصالحهم مع الرفق بهم والرحمة، ومراد الله تعالى في تلك الأزمنة والأحوال كلها واحد وهو حفظ نظام العالم وضبط تصرف الناس فيه على وجه يعصم أحوالهم من الاختلال بحسب العصور والأمم والأحوال إلى أن جاء بالشرعية الخاتمة، وهي مراد الله تعالى من الناس ولذلك قال: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} [آل عمران: ١٩] وقال أيضا: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا} [الشورى: ١٣] الآية.

قال القرطبي: قال علماؤنا رحمهم الله تعالى: جائز نسخ الأثقل إلى الأخف، كنسخ الشبوت لعشرة بالشبوت لاثنين [في قوله تعالى: {الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} الأنفال: ٦٦]. ويجوز نسخ الأخف إلى الأثقل، كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة برمضان. وينسخ المثل بمثله

ثقلًا وخفة، كالقبلة. وينسخ الشيء لا إلى بدل كصدقة النجوى
[في قوله تعالى: {أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ
فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} المجادلة: ١٣].

وينسخ القرآن بالقرآن. والسنة بالعبرة، وهذه العبارة يراد بها
الخبر المتواتر القطعي. وينسخ خبر الواحد بخبر الواحد.
وحذاق الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنة، وذلك موجود في
قوله عليه السلام: «لا وصية لوارث». وهو ظاهر مسائل مالك.
وأبى ذلك الشافعي وأبو الفرج المالكي، والأول أصح، بدليل أن
الكل حكم الله تعالى ومن عنده وإن اختلفت في الأسماء. وأيضا
فإن الجلد ساقط في حد الزنى عن الشيب الذي يرحم، ولا مسقط
لذلك إلا السنة فعل النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هذا بين.

والحذاق أيضا على أن السنة تنسخ بالقرآن، وذلك موجود في
القبلة، فإن الصلاة إلى الشام لم تكن في كتاب الله تعالى. وفي
قوله تعالى: {فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ} [الممتحنة: ١٠] فإن
رجوعهن إنما كان بصلح النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لقريش.

والحدائق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلا، واختلفوا هل وقع شرعا، فذهب أبو المعالي وغيره إلى وقوعه في نازلة مسجد قباء، وأبى ذلك قوم.

ولا يصح نسخ نص بقياس، إذ من شروط القياس ألا يخالف نصا. وهذا كله في مدة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وأما بعد موته واستقرار الشريعة فأجمعت الأمة أنه لا نسخ، ولهذا كان الإجماع لا ينسخ ولا ينسخ به إذ انعقاده بعد انقطاع الوحي [أي لا نسخ في قياس ولا إجماع]، فإذا وجدنا إجماعا يخالف نصا فيعلم أن الإجماع استند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن، وأن ذلك النص المخالف متروك العمل به، وأن مقتضاه نسخ وبقي سنة يقرأ ويروى، كما آية عدة السنة في القرآن تتلى، فتأمل هذا فإنه نفيس، ويكون من باب نسخ الحكم دون التلاوة، ومثله صدقة النجوى. وقد تنسخ التلاوة دون الحكم كآية الرجم [وهي آية {الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله} فقد نسخ اللفظ من التلاوة وبقي الحكم]. وقد تنسخ التلاوة والحكم معا، ومنه قول الصديق -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: كُنَّا نَقْرَأُ {لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ فَإِنَّهُ كَفَرُ} ومثله كثير [وهو نسخ الآية وحكمها. وهذا معنى قوله {أَوْ نُسِيهَا} وهي

قراءة نافع، فقد ثبت أن قرآنًا نزل وقرأه رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وبعض أصحابه ثم نسخه الله تعالى لفظاً ومعنى فمحاها من القلوب بالمرة فلم يقدر على قراءته أحد، وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي حَرْبِ بْنِ أَبِي الْأَسْوَدِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: بَعَثَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ إِلَى قُرَاءِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ فَدَخَلَ عَلَيْهِ ثَلَاثُ مِائَةِ رَجُلٍ قَدْ قَرَأُوا الْقُرْآنَ فَقَالَ أَنْتُمْ خِيَارُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَقَرَأُوهُمْ فَاتْلُوهُ وَلَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ الْأَمَدُ فَتَقْسُوا قُلُوبُكُمْ كَمَا قَسَتْ قُلُوبُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ.

وإِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ سُورَةَ كُنَّا نُشَبِّهُهَا فِي الطُّولِ وَالشَّدَّةِ بِرَاءَةِ فَأَنْسِيَتْهَا غَيْرَ أَنِّي قَدْ حَفِظْتُ مِنْهَا: {لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَا يَبْتَغَى وَادِيَا ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا الشُّرَابُ} وَكُنَّا نَقْرَأُ سُورَةَ كُنَّا نُشَبِّهُهَا بِأَخَذِ الْمُسَبِّحَاتِ فَأَنْسِيَتْهَا غَيْرَ أَنِّي حَفِظْتُ مِنْهَا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ فَتُكْتَبُ شَهَادَةٌ فِي أَعْنَاقِكُمْ فَتُسْأَلُونَ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ}].

والذي عليه الحذاق أن من لم يبلغه الناسخ فهو متعبد بالحكم الأول، كما في تحويل القبلة. والحذاق على جواز نسخ الحكم قبل فعله، وهو موجود في قصة الذبيح، وفي فرض خمسين صلاة قبل فعلها بخمس.

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} استفهام معناه التقرير.

مثل: **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}** [الشرح: ١] ولما أريد بالقدرة الوصف جاءت على صيغة "فعل"؛ لكن إذا أريد بها الفعل تكون بصيغة "الفاعل"، كما في قوله تعالى: **{قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ}** [الأنعام: ٦٥]؛ و "القدرة" صفة تقوم بالقادر بحيث يفعل الفعل بلا عجز؛ أما "القوة" فصفة تقوم بالقوي بحيث يفعل الفعل بلا ضعف؛ إذاً المقابل للقدرة: العجز؛ لقوله تعالى: **{مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا}** [فاطر: ٤٤]؛ والمقابل للقوة: الضعف، قال تعالى: **{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ}** [الروم: ٥٤]؛ والفرق الثاني بينهما: أن "القوة" يوصف بها من له إرادة، وما ليس له إرادة؛ فيقال: رجل قوي؛ وحديد قوي؛ وأما "القدرة" فلا يوصف بها إلا ذو إرادة؛ فلا يقال: حديد قادر.

وحكمة إفراد المخاطب في قوله **{أَلَمْ تَعْلَمْ}**: أنه ما من شخص إلا يتوهم أنه المخاطب بذلك، والمنبه به، والمقرر على شيء ثابت عنده، وهو أن قدرة الله تعالى متعلقة بالأشياء، فلن

يعجزه شيء، فإذا كان كذلك لم ينكر النسخ، لأن الله تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا رادّ لأمره، ولا معقب لحكمه.

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} هذا أيضاً

استفهام دخل على النفي فهو تقرير، والتقرير معناه: الإيجاب، أي قد علمت أيها المخاطب أن الله له سلطان السموات والأرض والاستيلاء عليهما، فهو يملك أموركم ويدبرها، ويجريها على ما يختاره لكم من نسخ وغيره، وخص السموات والأرض بالملك، لأنهما من أعظم المخلوقات، ولأنهما قد اشتملا على جميع المخلوقات.

وتضمنت هاتان الجملتان التقرير على الوصفين اللذين بهما كمال التصرف، وهما: القدرة والاستيلاء، لأن الشخص قد يكون قادراً، بمعنى أن له استطاعة على فعل شيء، لكنه ليس له استيلاء على ذلك الشيء، فينفذ فيه ما يستطيع أن يفعل. فإذا اجتمعت الاستطاعة وعدم المانعية، كمل بذلك التصرف مع الإرادة. وبدأ بالتقرير على وصف القدرة، لأنه أكد من وصف الاستيلاء والسلطان.

قال ابن عاشور: مسوق لبيان حكمة النسخ والإتيان بالخير والمثل بيانا غير مفصل على طريقة الأسلوب الحكيم، وذلك أنه بعد أن فرغ من التنبيه على أن النسخ الذي استبعدوه وتذرعوا به لتكذيب الرسول هو غير مفارق لتعويض المنسوخ بخير منه أو مثله أو تعزيز المبقى بمثله أريد أن ينتقل من ذلك إلى كشف ما بقي من الشبهة، وهي أن يقول المنكر: وما هي الفائدة في النسخ حتى يحتاج للتعويض؟ وكان مقتضى الظاهر أن يتصدى لبيان اختلاف المصالح ومناسبتها للأحوال والأعصار، وبيان تفاصيل الخيرية والمثلية في كل ناسخ ومنسوخ، ولما كان التصدي لذلك أمرا لم تنهيا له عقول السامعين لعسر إدراكهم مراتب المصالح وتفاوتها لأن ذلك مما يحتاج إلى تأصيل قواعد من أصول شرعية وسياسية، عدل بهم عن بيان ذلك وأجملت لهم بالمصلحة بالحوالة على قدرة الله تعالى التي لا يشذ عنها ممكن مراد، وعلى سعة ملكه المشعر بعظيم علمه. وعلى حاجة المخلوقات إليه إذ ليس لهم رب سواه ولا ولي دونه، وكفى بذلك دليلا على أنه يحملهم على مصالحهم في سائر الأحوال. ومما يزيد هذا العدول توجيهها أن

التصدي للبيان بفتح باب الجدل في إثبات المصلحة وتفاوت ذلك بحسب اختلاف القرائح والفهوم.

{وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ} حافظ يحفظكم بتولي أموركم **{وَلَا نَصِيرٌ}** ناصر يدفع عنكم المكروه.

وأتى بصيغة ولي، وهو فعيل، للمبالغة، ولأنه أكثر في الاستعمال، ولذلك لم يجيء في القرآن وال إلا في سورة الرعد، لمواخاة الفواصل، وأتى بنصير على وزن فعيل، لمناسبة ولي في كونهما على فعيل، ولمناسبة أواخر الآي، ولأنه أبلغ من فاعل.

وتكرر اسم الله ظاهراً في هذه الجمل الثلاث، ولم يضمم للدلالة على استقلال كل جملة منها، وأنها لم تجعل مرتبطة بعضها ببعض ارتباط ما يحتاج فيه إلى إضمار.

ولما كانت الجملتان الأوليان للتقرير، وهو إيجاب من حيث المعنى، ناسب أن تكون الجملة الثالثة نفياً للولي والناصر، أي أن الأشياء التي هي تحت قدرة الله وسلطانه واستيلائه، فالله تعالى لا يحجزه عما يريد بها شيء، ولا مغالب له تعالى فيما يريد.

{أَمْ تُرِيدُونَ} يؤذن بأن السؤال لم يقع، ولكنه ربما جاش في نفوس بعضهم أو ربما أثارته في نفوسهم شبه اليهود في إنكارهم

النسخ وإلقائهم شبهة البداء ونحو ذلك مما قد يبعث بعض المسلمين على سؤال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فآلية مسوقة مساق الإنكار التحذيري.

{أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ} توبيخ لمن طالب الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأمور ليس في مكنته **{كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ}** وسؤال قوم موسى عليه السلام هو قولهم: **{أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً}** [النساء: ١٥٣] **{اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ}** [الأعراف: ١٣٨] فأراد تعالى أن يوبخهم على تعلق إرادتهم بسؤال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وأن يقترحوا عليه، إذ هم يكفيهم ما أنزل إليهم. وشبه سؤالهم بسؤال ما اقترحه آباء اليهود من الأشياء التي مصيرها إلى الوبال.

وفيه: إنكار كثرة الأسئلة لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ لأن الاستفهام: **{أَمْ تُرِيدُونَ}** يقصد به الإنكار؛ وقد قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- محذراً من ذلك: (ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ) [أحمد]؛ وعند البخاري عن سعد بن أبي وقاص -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال: (إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ

جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرِّمْ فَحُرِّمَ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ؛ فهذا نهى، وإنكار على الذين يسألون رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مسائل؛ والمطلوب من المسلم في زمن الوحي أن يسكت حتى ينزل ما أراد الله عز وجل من أمر أو نهى.

وفيه أيضا: أنه لا ينبغي إلقاء السؤال إلا لمصلحة: إما رجل وقعت له مسألة يسأل عن حكمها؛ أو طالب علم يتعلم ليستنتج المسائل من أصولها؛ أما الأسئلة لمجرد استظهار ما عند الإنسان فقط؛ أو أقبح من ذلك من يستظهر ما عند الإنسان ليضرب آراء العلماء بعضها ببعض، وما أشبه ذلك؛ أو لأجل إعنات المسؤول وإحراجهم؛ فكل هذا من الأشياء المذمومة التي لا تنبغي.

{وَمَنْ يَتَّبِدِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ} إعلام بأن من يجري على أسلوب التعنت وسوء الأدب مع الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد يصاب بزيغ القلب فيكفر، كما جاء في قوله: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا**

الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى} [البقرة: ١٦]

قال ابن عاشور: تذييل للتحذير الماضي للدلالة على أن المحذر منه كفر أو يفضي إلى الكفر لأنه ينافي حرمة الرسول والثقة به وبحكم الله تعالى، ويحتمل أن المراد بالكفر أحوال أهل الكفر

أي لا تبدلوا بآدابكم تقلد عوائد أهل الكفر في سؤالهم كما قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في حديث الصحيحين: (فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ) وإطلاق الكفر على أحوال أهله وإن لم تكن كفرا شائع في ألفاظ الشريعة وألفاظ السلف كما قالت جميلة بنت عبد الله بن أبي زوجة ثابت بن قيس: "إني أكره الكفر" تريد الزنا.

{فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} وسط الطريق الآمن من الخروج عن الطريق، لأنه يكون بين بنيات الطريق التي لا تنتهي إلى الغاية. ولما كانت الشريعة توصل سالكيها إلى رضوان الله تعالى، كنى عنها بالسبيل، وجعل من حاد عنها كالضال عن الطريق، وكنى عن سؤالهم نبيهم ما ليس لهم أن يسأله بتبدل الكفر بالإيمان. فصار صدر الآية إنكاراً وتوبيخاً، وعجزها تكفيراً وضلالاً.

ولا يريبك في ذلك وقوع جواب الشرط فعلا ماضيا مع أن الشرط إنما هو تعليق على المستقبل، ولا اقتران الماضي بـ «قد» الدالة على تحقق المضي، لأن هذا استعمال عربي جيد يأتون بالجزاء ماضيا لقصد الدلالة على شدة ترتب الجزاء على الشرط وتحقق وقوعه معه حتى أنه عند ما يحصل مضمون الشرط يكون

الجزاء قد حصل فكأنه حاصل من قبل الشرط نحو {وَمَنْ يَخْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى} [طه: ٨١]

{وَدَّ} أحب، بل إن "الود" خالص المحبة {كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ} من بعد أن ثبت الإيمان في قلوبكم {كُفَّارًا} أي: يودون بكل قلوبهم أن يرجعوكم كفاراً {حَسَدًا} أي الحامل لهم على ودادة ردكم كفاراً هو الحسد، لأن ما أنتم عليه نعمة عظيمة؛ وهؤلاء الكفار أعداء؛ والعدو يحسد عدوه على ما حصل له من نعمة الله، و "الحسد" تمنى زوال نعمة الله عن الغير.

{مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ} ليس من كتاب، ولا من إساءة المسلمين إليهم؛ ولكنه من عند أنفسهم الخبيثة.

وجيء فيه بـ «من» الابتدائية للإشارة إلى تأصل هذا الحسد فيهم وصدوره عن نفوسهم. وأكد ذلك بكلمة «عند» الدالة على الاستقرار ليزداد بيان تمكنه.

وفيه: أن الكفر بعد الإسلام يسمى ردة؛ لقوله تعالى: {لَوْ يَرُدُّونَكُمْ}؛ ولهذا الذي يكفر بعد الإسلام لا يسمى باسم الدين

الذي ارتد إليه؛ فلو ارتد عن الإسلام إلى اليهودية أو النصرانية لم يعط حكم اليهود ولا النصارى.

{مَنْ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} عرفوا أن محمداً رسول الله، وأن دينه هو الدين الحق .. أي وتلك الودادة ابتدأت من زمان وضوح الحق وتبينه لهم بلا شك ولا ريب، فليسوا من أهل الغباوة الذين قد يغرب عليهم وضوح الحق، بل ذلك على سبيل الحسد والعناد. وهذا يدل على أن الكفر يكون عناداً.

{فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا} لا تؤاخذوهم ولا تلوموهم، إذ العفو ترك العقاب، والصفح الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه أي جانبه، وهو مجاز في عدم مواجهته بذكر ذلك الذنب أي عدم لومه وتثريبه عليه وهو أبلغ من العفو.

{حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ} غيا العفو والصفح بهذه الغاية، وهذه موادة إلى أن أتى أمر الله بقتل بني قريظة وإجلاء بني النضير وإذلالهم بالجزية، وغير ذلك مما أتى من أحكام الشرع فيهم وترك العفو والصفح.

وفيه مراعاة الأحوال والواقع، وجواز موادة ومهادنة الكفار إذ لم يكن للمسلمين قوة ولا شوكة، وفيه -أيضا- تطمينا لخواطر

المأمورين حتى لا ييأسوا من ذهاب أذى المجرمين لهم بطلاً، وهذا أسلوب مسلوک في حمل الشخص على شيء لا يلائمه، كقول الناس: «حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً» فإذا جاء أمر الله بترك العفو انتهت الغاية.

{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} لا يعتريه عجز في كل شيء فعله .. وفيه إشعار بالانتقام من الكفار، ووعد للمؤمنين بالنصر والتمكين. وتعليماً للمسلمين فضيلة العفو أي فإن الله قدير على كل شيء، وهو يعفو ويصفح، وفي الحديث عند مسلم عن أبي موسى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَدَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّهُ يُشْرِكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)، أو أراد أنه على كل شيء قدير فلو شاء لأهلكهم الآن.

{وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} أدوا الصلاة على وجه الكمال؛ لأن إقامة الشيء جعله قيماً معتدلاً مستقيماً **{وَأَتُوا الزَّكَاةَ}** مستحقها .. وسميت زكاة؛ لأنها تزكي الإنسان، كما قال الله تعالى: **{خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا}** [التوبة: ١٠٣]؛ فهي تزكي

الإنسان في أخلاقه، وعقيدته، وتطهره من الرذائل؛ لأنها تخرجه من حظيرة البخل إلى حظيرة الأجواد، والكرماء؛ وتكفر سيئاته.

ولما أمر بالعفو والصفح، أمر بالمواظبة على عمودي الإسلام: العبادة البدنية، والعبادة المالية، إذ الصلاة فيها مناجاة الله تعالى والتلذذ بالوقوف بين يديه، والزكاة فيها الإحسان إلى الخلق بالإيثار على النفس، فأمرُوا بالوقوف بين يدي الحق وبالإحسان إلى الخلق. ففي الظرف الذي لم يكن موافقاً للجهد، على المسلمين أن يشتغلوا فيه بالإعداد للجهد، وذلك بتهديب الأخلاق والأرواح وتركية النفوس بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وفعل الخيرات إبقاء على طاقاتهم الروحية والبدنية وثبات لهم إلى حين يؤذن لهم بالجهد.

كما أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أسباب النصر؛ لأن الله ذكرها بعد قوله: **{فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}**؛ وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى: **{وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}**

[الحج: ٤٠-٤١]

{وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ} أي لنجاة أنفسكم **{مَنْ خَيْرٌ}** قليلاً كان أو كثيراً **{تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ}** مدخراً ومعدداً عند الله.. والآية جملة الشرطية عامة لجميع أنواع الخير. والكلام مناسب للأمر بالثبات على الإسلام وللأمر بالعفو والصفح.

{إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} المجيء بالاسم الظاهر يدل على استقلال الجمل، فلذلك جاء إن الله، ولم يجيء إنه، مع إمكان ذلك في الكلام. وهذه جملة خبرية ظاهرة التناسب في ختم ما قبلها بها، تتضمن الوعد والوعيد.

وكنى بقوله: بصير عن علم المشاهد، أي لا يخفى عليه عمل عامل ولا يضيعه، ومن كان مبصراً لفعلك، لم يخف عليه، هل هو خير أو شر.

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى

شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ
قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ (١١٣)

{وَقَالُوا} أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بقرينة قوله بعده:
{إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى} {لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً}
جمع هائد، وقيل: يهودا فحذفت الياء الزائدة، وقدم هوداً على
نصارى لتقدمها في الزمان {أَوْ نَصَارَى} «أو» للتفصيل والتنويع،
فهي من كلام الحاكي في حكايته وليست من الكلام المحكي، إذ
معلوم أن اليهودي لا يأمر بالنصرانية، ولا النصراني يأمر باليهودية
{تِلْكَ} المقولة الصادرة منهم {أَمَانِيَهُمْ} جمع أمنية، وهي: ما
يتمناه المرء بدون ما يعمل للفوز به، فيكون غروراً.

وفيه: أن من اغتر بالأمني، وطمع في المنازل العالية بدون
عمل لها ففيه شبه من اليهود، والنصارى.

{قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ} الحجة الواضحة {إِنْ} أتى بـ «إِنْ»
المفيدة للشك في صدقهم مع القطع بعدم الصدق لاستدراجهم
حتى يعلموا أنهم غير صادقين حين يعجزون عن البرهان لأن كل
اعتقاد لا يقيم معتقده دليل اعتقاده فهو اعتقاد كاذب لأنه لو كان

له دليل لاستطاع التعبير عنه ومن باب أولى لا يكون صادقا عند من يريد أن يروج عليه اعتقاده.

{كُنْتُمْ صَادِقِينَ} كما قال تعالى: **{قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}** [البقرة: ٩٤-٩٥] وقوله **{قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}** [الجمعة: ٦]

وفيه: عدل الله -عز وجل- في مخاطبة عباده، حيث قال تعالى: **{قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ}**؛ لأن هذا من باب مراعاة الخصم، وأنه إن كان لكم بينة فها توها؛ وهذا لا شك من أبلغ ما يكون من العدل؛ وإلا فالحكم لله العلي الكبير.

روي أنه لما جاء وفد نصارى نَجْرَان من اليمن إلى المدينة التقى باليهود في مجلس النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولعدائهم السابق تَمَارَوْا، فادعت اليهود أن الجنة لا يدخلها إلا من كان يهودياً، وادعت النصارى أن الجنة لا يدخلها إلا من كان نصرانياً، فرد الله تعالى عليهم، وأبطل دعواهم حيث طالبهم بالبرهان عليها

فلم يقدرُوا، وأثبت تعالى دخول الجنة لمن زكى نفسه بالإيمان الصحيح والعمل الصالح.

ونَجْرَان قَبيلة من عرب اليمن كانوا ينزلون قرية كبيرة تسمى نجران بين اليمن واليمامة، وهم على دين النصرانية، ولهم الكعبة اليمانية المشهورة، وهي كنيستهم التي ذكرها الأعشى في شعره. وقد وفد منهم على النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في ستين رجلاً، عليهم اثنا عشر نقيباً، ورئيسهم السيد وهو عبد المسيح، وأمين الوفد العاقب واسمه الأيهم، وكان وفودهم في السنة الثانية من الهجرة.

{بَلَى} كلمة يجاب بها المنفي لإثبات نقيض النفي وهو الإثبات، سواء وقعت بعد استفهام عن نفي وهو الغالب نحو قوله تعالى: **{أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ}** [التين: ٨] بلى أي هو أحكم الحاكمين، أو بعد خبر منفي نحو **{أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَهُ عِظَامَهُ بَلَى}** [القيامة: ٤-٣]

{مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ} وإسلام الوجه لله هو تسليم الذات لأوامر الله تعالى، أي: شدة الامتثال، لأن أسلم بمعنى ألقى السلاح وترك

المقاومة قال تعالى: {فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} [آل عمران: ٢٠]

والوجه هنا يحتمل أن يراد به الجارحة خص بالذكر، لأنه أشرف الأعضاء، أو لأنه فيه أكثر الحواس، أو لأنه عبر به عن الذات ومنه: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص: ٨٨] ويحتمل أن يراد به الجهة، والمعنى: أخلص طريقته في الدين لله تعالى.

{لِلَّهِ} انقاد {وَهُوَ مُحْسِنٌ} مخلص، جملة مؤكدة من حيث المعنى، لأن من أسلم وجهه لله فهو محسن.. أي ليس الأمر كما تزعمون، فلا يدخل الجنة يهودي ولا نصراني ولكن يدخلها من أسلم وجهه لله وهو محسن، أي عبد آمن فصدق وعمل صالحاً فأحسن.

وقيل: إظهار أنه لا يغني إسلام القلب وحده ولا العمل بدون إخلاص بل لا نجاة إلا بهما، ورحمة الله فوق ذلك إذ لا يخلو امرؤ عن تقصير.

ويتفرع على هذه الفائدة أن أهل البدع لا ثواب لهم على بدعهم، ولو مع حسن النية؛ لعدم الإحسان الذي هو المتابعة؛ والأجر مشروط بأمرين: الأول: إسلام الوجه لله؛ والثاني: الإحسان.

{فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ} فأجره مستقر له عند ربه، ولما أحال أجره على الله أضاف الظرف إلى لفظه ربه {عِنْدَ رَبِّهِ} الناظر في مصالحة ومربيه ومدبر أحواله، ليكون ذلك أطمع له، فلذلك أتى بصفة الرب، ولم يأت بالضمير العائد على الله في الجملة قبله (يعني: فله أجره عنده)، ولا بالظاهر بلفظ الله (يعني فله أجره عند الله).

فأضاف العندية إليه لفائدتين:

الفائدة الأولى: أنه عظيم؛ لأن المضاف إلى العظيم عظيم؛ ولهذا جاء في حديث أبي بكر الذي علمه الرسول -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إياه أنه قال: (فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ) [البخاري]
والفائدة الثانية: أن هذا محفوظ غاية الحفظ، ولن يضيع؛ لأنك لا يمكن أن تجد أحداً أحفظ من الله؛ إذاً فلن يضيع هذا العمل؛ لأنه في أمان غاية الأمان.

فالإضافة إلى وصف الربوبية ليبين كمال عناية الله بالعامل، وإثابته عليه؛ فالربوبية هنا من الربوبية الخاصة.

{وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} فيما يستقبلونه من أمرهم **{وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}** فيما مضى من أمرهم، وما يتركونه من أمر الدنيا.

وجمع الضمير {عَلَيْهِمْ، هُمْ} حملاً على معنى «من»، فحمل أولاً على اللفظ في قوله: {مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ}، وهذا هو الأفصح، وهو أن يبدأ أولاً بالحمل على اللفظ، ثم بالحمل على المعنى. وهو من تفنن العربية للفصاحة ودفع سامة التكرار.

وفيه: انتفاء الخوف والحزن لمن تعبد لله سبحانه وتعالى بهذين الوصفين؛ وهما الإخلاص والمتابعة؛ ولهذا قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام: ٨٢]

وغير المؤمنين ثملاً قلوبهم رعباً وحزناً؛ قال تعالى: {وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} [البقرة: ١٦٦]، وقال تعالى: {كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [البقرة: ١٦٧]، وقال تعالى: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ} [مريم: ٣٩] إلى غير ذلك من الآية الدالة على هوان هؤلاء الذين لم يهتدوا إلى صراط الحميد.

{وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ} يعتد به من الدين الحق {وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ}

الْكِتَابُ { التوراة والإنجيل، وهذا تعجب ونعي عليهم في مقالاتهم تلك، إذ الكتاب ناطق بخلاف ما يقولونه، شاهدة توراتهم ببشارة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وصحة نبوتهما. وإنجيلهم شاهد بصحة نبوة موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، إذ كتب الله يصدق بعضها بعضاً. فكل فريق يتلو كتابه ويعلم شريعة التوراة والإنجيل، ولكنهم تجاحدوا كفرا وعنادا.

وفي هذا تنبيه لأمة محمد -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في أن من كان عالماً بالقرآن، يكون واقفاً عنده، عاملاً بما فيه، قائلاً بما تضمنه، لا أن يخالف قوله ما هو شاهد على مخالفته منه، فيكون في ذلك كاليهود والنصارى.

{كَذَلِكَ} تشبيه في الادعاء على أنهم ليسوا على شيء **{قَالَ}** الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ { لا علم عندهم ولا كتاب سماوي **{مِثْلَ قَوْلِهِمْ}** وكذلك قال غير هؤلاء من الجاهلين، الذين كفروا بالنبوات، مثل هذه الأقوال، وكفروا عنادا وحسدا.

{فَاللَّهُ يَحْكُمُ} يفصل ويقضي **{بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}** والمقام مقام تحذير.

قال ابن عاشور: والآية معطوفة على قوله: **{وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى}** [البقرة: ١١١] لزيادة بيان أن المجازفة دأبهم، وأن رمى المخالف لهم بأنه ضال شنشنة قديمة فيهم، فهم يرمون المخالفين بالضلال لمجرد المخالفة، فقديمًا رمت اليهود النصارى بالضلال ورمت النصارى اليهود بمثله، فلا تعجبوا من حكم كل فريق منهم بأن المسلمين لا يدخلون الجنة، وفي ذلك إنحاء على أهل الكتاب، وتطمين لخواطر المسلمين، ودفع الشبهة عن المشركين بأنهم يتخذون من طعن أهل الكتاب في الإسلام حجة لأنفسهم على مناوآته وثباتا على شركهم.

وفي الآية إثبات الحكم لله عز وجل؛ لقوله تعالى: **{فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ}**؛ وحكم الله سبحانه وتعالى ينقسم إلى ثلاثة أقسام: شرعي، وكوني، وجزائي

فالشرعي: مثل قوله تعالى: **{ذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ}**

[الممتحنة: ١٠]

والكوني: مثل قوله تعالى عن أخي يوسف: **{فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}** [يوسف: ٨٠]

والجزائي: مثل هذه الآية: **{فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}**؛ والحكم الجزائي هو ثمرة الحكم الشرعي؛ لأنه مبني عليه: إن خيراً فخير؛ وإن شراً فشر؛ هذا الحكم يوم القيامة بين الناس إما بالعدل؛ أو بالفضل؛ ولا يمكن أن يكون بالظلم؛ لقوله تعالى: **{وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}** [فصلت: ٤٦]، وقوله تعالى: **{وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}** [الكهف: ٤٩]، وقوله تعالى في الحديث القدسي: (يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا) [مسلم]؛ هذا بالنسبة لحقوق الله؛ أما بالنسبة لحقوق الخلق فيما بينهم فيقضى بينهم بالعدل.

فإذا قال قائل: إذا كان الله تعالى يجزي المؤمنين بالفضل، فما الجواب عن قوله تعالى: **{لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ}** [يونس: ٤]؟

فالجواب: أن هذا هو الذي أوجبه الله على نفسه؛ والفضل

زيادة.

**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ
وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا**

خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
(١١٤) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ
بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ (١١٦)
بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ (١١٧) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ
تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ
قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨)

{وَمَنْ أَظْلَمُ} الاستفهام للإنكار والنفي، والمعنى: لا أحد
أظلم. والميزان الذي يبين أن الاستفهام بمعنى النفي أنك لو
حذفت الاستفهام، وأقمت النفي مقامه لصح؛ والفائدة من تحويل
النفي إلى الاستفهام أنه أبلغ في النفي؛ إذ إن الاستفهام الذي
بمعنى النفي مشرب معنى التحدي؛ كأنه يقول: بينوا لي أي أحد
أظلم من كذا وكذا.

وأصل الظلم في اللغة «النقص»؛ وهو أن يفرض الإنسان فيما
يجب؛ أو يعتدي فيما يحرم؛ ويدل على هذا قوله تعالى: **{كَلَّا}**

الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا { [الكهف: ٣٣] أي لم تنقص؛ وهو في الشرع بهذا المعنى؛ لأن الظلم عبارة عن تفريط في واجب، أو انتهاك لمحرم - وهذا نقص.

والظلم أيضا الاعتداء على حق الغير بالتصرف فيه بما لا يرضى به، ويطلق على وضع الشيء في غير ما يستحق أن يوضع فيه، والمعنيان صالحان هنا.

وقد تكرر هذا اللفظ في القرآن، وهذا أول موارد، فقال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ} [البقرة: ١٤٠] {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} [الأنعام: ٢١] {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ} [الأنعام: ٩٣] {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ} [الكهف: ٥٧] إلى غير ذلك من الآيات.

{مِمَّن} من الذي {مَنْعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ} أضاف المساجد لله تشريفا، وخص بلفظ المسجد، وإن كان الذي يوقع فيه أفعالا كثيرة من القيام والركوع والقعود والعكوف. وكل هذا متعبد به، ولم يقل: مقام ولا مركع ولا مقعد ولا معكف، لأن السجود أعظم الهيئات الدالة

على الخضوع والخشوع والطواعية التامة. ألا ترى إلى قوله -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثَرُوا
الدُّعَاءَ) [مسلم]، وهي حالة يلقي فيها الإنسان نفسه للانقياد
التام، ويباشر بأفضل ما فيه وأعلاه -وهو الوجه- التراب الذي هو
موطىء قدميه.

{أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ} لأن العبادة هي علة الحياة، فمن منعها
كان كمن أفسد الحياة كلها وعطلها.

وكنى بذكر اسم الله عما يوقع في المساجد من الصلوات
والتقربات إلى الله تعالى بالأفعال القلبية والقلبية، من تلاوة كتبه،
وحركات الجسم من القيام والركوع والسجود والقعود الذي تعبد به
خلقه، وإنما ذكر تعلق المنع بذكر اسم الله تنبيهاً على أنهم منعوا
من أيسر الأشياء، وهو التلفظ باسم الله. فمنعهم لما سواه أولى.

{وَسَعَى فِي خَرَابِهَا} عمل في هدمها وتخريبها حقيقة (خراب
حسي) أو بمنع الصلاة فيها وصرف الناس عن التعبد فيها (خراب
معنوي).

ومن أمثلة الحسي خراب بيت المقدس، على يد بختنصر أو
غيره وهذا القول يبينه ويشهد له قوله جل وعلا: **{فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ**

الْآخِرَةَ لِيُسْوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا} [الإسراء: ٧].

ومن أمثلة الخراب المعنوي صد المشركين النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن البيت الحرام في عمرة الحديبية عام ست، كما قال تعالى: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [الفتح: ٢٥].

{أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ} بشارة من الله عز وجل أن هؤلاء الذين منعوا المساجد - ومنهم المشركون الذين منعوا النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- المسجد الحرام - ستكون الدولة عليهم، ولا يدخلونها إلا وهم ترجف قلوبهم.

وقيل: منعوا مساجد الله في حال أنهم كان ينبغي لهم أن يدخلوها خاشعين من الله فيفسر الخوف بالخشية من الله، فلذلك كانوا ظالمين بوضع الجبروت في موضع الخضوع.

قال في البحر المحيط: والظاهر أن المعنى: أولئك ما ينبغي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا وهم خائفون من الله وجلون من عقابه. فكيف لهم أن يلتبسوا بمنعها من ذكر الله والسعي في تخريبها، إذ هي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه {يُسَبِّحُ لَهُ

فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ { [النور: ٣٦] ؟ وما هذه سبيله ينبغي أن يعظم
بذكر الله فيه، ويسعى في عمارته، ولا يدخله الإنسان إلا وجلاً
خائفاً، إذ هو بيت الله أمر بالمثل فيه بين يديه للعبادة.

ونظير الآية أن يقول: ومن أظلم ممن قتل ولياً لله تعالى؟ ما كان
له أن يلقاه إلا معظماً له مكرماً، أي هذه حالة من يلقي ولياً لله، لا
أن يباشره بالقتل. ففي ذلك تقبيح عظيم على ما وقع منه، إذ كان
ينبغي أن يقع ضده، وهو التبجيل والتعظيم.

ولما لم يقع هذا المعنى الذي ذكرناه للمفسرين، اختلفوا في
الآية على أقوال. ولو أريد ما ذكره، لكان اللفظ: أولئك ما
يدخلونها إلا خائفين، ولم يأت بلفظ: ما كان لهم، الدالة على نفي
الابتغاء. أهـ

{لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ} ذل وهوان {وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
عَظِيمٌ} هذا الجزاء مناسب لما صدر منهم.

أما الخزي في الدنيا فهو الهوان والإذلال، وهو مناسب
للوصف الأول، لأن فيه إهمال المساجد بعدم ذكر الله وتعطيلها
من ذلك، فجوزوا على ذلك بالإذلال والهوان.

وأما العذاب العظيم في الآخرة، فهو العذاب بالنار، وهو إتلاف لهياكلهم وصورهم، وتخريب لها بعد تخريب {كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ} [النساء: ٥٦] وهو مناسب للوصف الثاني، وهو سعيهم في تخريب المساجد، فجوزوا على ذلك بتخريب صورهم وتمزيقها بالعذاب.

ولما كان الخزي الذي يلحقهم في الدنيا لا يتفاوتون فيه حكماً، سواء فسرته بقتل أو سبي للحربي، أو جزية للذمي، لم يحتج إلى وصف.

ولما كان العذاب متفاوتاً، أعني عذاب الكافر وعذاب المؤمن، وصف عذاب الكافر بالعظم ليميز من عذاب المؤمن.

{وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا} الاستقبال بالوجه، أي تتجهوا {فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} هناك الله، إذ الله - عز وجل - محيط بخلقه، فحيثما اتجه العبد شرقاً أو غرباً شمالاً أو جنوباً وجد الله تعالى، إذ الكائنات كلها بين يديه وكيف لا يكون ذلك وقد أخبر عن نفسه أن الأرض قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه، فليس هناك جهة تخلو من علم الله تعالى وإحاطته بها وقدرته عليها. ويقرر هذا قوله {إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ} واسع الذات والصفات

والعلم والقدرة والفضل والجود والكرم {عَلِيمٌ} بكل شيء لأنه محيط بكل شيء.

وجاءت هذه الآية مؤكدة بـ «إِنْ» مصرحاً باسم «الله» فيها دلالة على الاستقلال. كما في قوله تعالى: {وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [البقرة: ١١٠] وكقوله: {وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [البقرة: ١٩٩] وذلك أفخم وأجزل من الضمير «إنه»، لأن الضمير يشعر بقوة التعلق والظاهر يشعر بالاستقلال.

ألا ترى أنه يصح الابتداء به، وإن لم يلحظ ما قبله؟، بخلاف الضمير، فإنه رابط للجملة التي هو فيها بالجملة التي قبلها. وألا ترى إلى أن أكثر ما ورد في القرآن من ذلك إنما جاء بالظاهر؟ كقوله تعالى: {فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا} [النساء: ١٠٣] {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: ٢٠]

{وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} قالت اليهود العزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، وقال بعض مشركي العرب الملائكة بنات الله.

{سُبْحَانَهُ} تنزهه وتقدس عن كل نقص، ومنه أن يكون له ولد. لأنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته؛ وهو سبحانه وتعالى مالك لجميع المخلوقات.

وفيه إشارة إلى أن الولدية نقص بالنسبة إلى الله تعالى، وإن كانت كمالا في الشاهد، لأنها إنما كانت كمالا في الشاهد من حيث إنها تسد بعض نقائصه عند العجز والفقر وتسد مكانه عند الاضمحلال، والله منزّه عن جميع ذلك، فلو كان له ولد لآذن بالحدوث وبالحاجة إليه.

ولما كانت هذه المقالة من أفسد الأشياء وأوضحها في الاستحالة، أتى باللفظ الذي يقتضي التنزيه والبراءة من الأشياء التي لا تجوز على الله تعالى، قبل أن يضرب عن مقالاتهم ويستدل على بطلان دعواهم.

وكان ذكر التنزيه أسبق، لأن فيه ردعاً لمدعي ذلك، وأنهم ادعوا أمراً تنزه الله عنه وتقدس، ثم أخذ في إبطال تلك المقالة فقال:

{بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} جميع ذلك مملوك له، ومن جملتهم من ادعوا أنه ولد الله، والولادة تنافي الملكية، لأن الوالد لا يملك ولده.

{كُلُّ لَّهُ قَانُتُونَ} خاضعون مطيعون تجري عليهم أقداره وتنفذ فيهم أحكامه. وهذه عادة المملوك، واستدل بنتيجة الطوعية على ثبوت الملكية. ومن كان بهذه الصفة لم يجانس الوالد، إذ الولد يكون من جنس الوالد... وهذا من الاستدلال بالعقل على كذب دعوى هؤلاء أن له سبحانه وتعالى ولداً.

قال ابن عاشور: حجة على انتفاء الولد لأن الخضوع من شعار العبيد أما الولد فله إدلال على الوالد وإنما يبر به ولا يقنت، فكان إثبات القنوت كناية عن انتفاء الولدية بانتفاء لازمها.

وفي الآية أن كل من في السموات والأرض قانت لله؛ والمراد القنوت العام - وهو الخضوع للأمر الكوني؛ والقنوت يطلق على معنيين؛ معنى عام وخاص؛ «المعنى الخاص» هو قنوت العبادة

والطاعة، كما في قوله تعالى: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً} [الزمر: ٩]، وكما في قوله تعالى: {وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَانِتِينَ} [التحریم: ١٢]، وكما في قوله تعالى: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} [آل عمران: ٤٣]

و«المعنى العام» هو قنوت الذل العام؛ وهذا شامل لكل من في السموات، والأرض، كما في هذه الآية: {كُلُّ لَهُ قَانِتُونَ}؛ حتى الكفار بهذا المعنى قانتون لله سبحانه وتعالى؛ لا يخرجون عن حكمه الكوني.

{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} موجدتها على غير مثال سابق، ولهذا رتب نفي الولد على كونه بديع السماوات والأرض في سورة الأنعام [١٠] بقوله: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ}.

وفيه كشف لشبهة النصارى الذين توهموا أن مجيء المسيح من غير أب دليل على أنه ابن الله، فبين الله تعالى أن تكوين أحوال الموجودات من لا شيء أعجب من ذلك، وأن كل ذلك راجع إلى التكوين والتقدير سواء في ذلك ما وجد بواسطة تامة أو ناقصة أو

بلا واسطة قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [آل عمران: ٥٩] فليس تخلق عيسى من أم دون أب بموجب كونه ابن الله تعالى.

{وَإِذَا قَضَىٰ} أراد أو حكم بإيجاد {أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} لما ذكر ما دل على الاختراع، ذكر ما يدل على طوعية المخترع وسرعة تكوينه.

قال الطبري: أمره للشيء بكن لا يتقدم الوجود ولا يتأخر عنه، فلا يكون الشيء مأموراً بالوجود إلا وهو موجود بالأمر، ولا موجوداً بالأمر إلا وهو مأمور بالوجود.

فلما ذكر تعالى قولهم {اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} نزه نفسه عن هذا القول الباطل والفرية الممقوتة، ثم ذكر الأدلة المنطقية العقلية على بطلان تلك الدعوى من ستة أوجه:

الوجه الأول: في قوله تعالى: {سُبْحَانَهُ}؛ فإن تنزهه عن النقص يقتضي أن يكون منزهاً عن اتخاذ الولد؛ لأن اتخاذ الولد يقصد به الإعانة، ودفع الحاجة، أو بقاء العنصر؛ والله سبحانه وتعالى منزّه عن ذلك؛ ومنزه أيضاً عن المماثلة؛ ولو كان له ولد لكان مثيلاً له.

الوجه الثاني: في قوله تعالى: **{بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** وعموم ملكه يستلزم استغناءه عن الولد.

الوجه الثالث: في قوله تعالى: **{بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** والمملوك لا يكون ولداً للمالك؛ حتى إنه شرعاً إذا ملك الإنسان ولده يعتق عليه؛ فالمملوك لا يمكن أن يكون ولداً للمالك؛ فالله خالق؛ وما سواه مخلوق؛ فكيف يكون المخلوق ولداً للخالق!

الوجه الرابع: في قوله تعالى: **{كُلُّ لَّهُ قَانِتُونَ}**؛ ووجهه أن العباد كلهم خاضعون ذليلون؛ وهذا يقتضي أنهم مربوبون لله عابدون له؛ والعبد لا يكون ولداً لربه.

الوجه الخامس: في قوله تعالى: **{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}**؛ ووجهه أنه سبحانه وتعالى مبدع السموات والأرض؛ فالقادر على خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق إنساناً بلا أب، كما قال تعالى: **{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** [غافر: ٥٧] .

الوجه السادس: في قوله تعالى: **{وَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}**؛ ومن كان هذه قدرته فلا يستحيل عليه أن يوجد ولداً بدون أب.

فبطلت شبهتهم التي يحتجون بها على أن الله ولداً. وفي الحديث القدسي الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (قَالَ اللَّهُ كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ)

{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} إن كان الموصول الجهلة من العرب، فنفي عنهم العلم، لأنهم لم يكن لهم كتاب، ولا هم أتباع نبوة، وإن كان الموصول اليهود والنصارى، فنفي عنهم العلم، لانتفاء ثمرته، وهو الاتباع له والعمل بمقتضاه.

فكأنه قيل: وقال الذين ليسوا ممن له سجية في العلم لفرط غباوته، فهي مقالة صدرت ممن لا يتصف بتمييز ولا إدراك.

{لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ} بتصديق الرسل {أَوْ تَأْتِينَا آيَةً} كآيات

موسى وعيسى فى العصى وإحياء الموتى.. أرادوا مطلق آية فالتنكير للنوعية وحينئذ فهو مكابرة وجحود لما جاءهم من الآيات وحسبك بأعظمها وهو القرآن، وهم يحسبون أن الآيات هي عجائب الحوادث أو المخلوقات وما دروا أن الآية العلمية العقلية أوضح المعجزات لعمومها ودوامها وقد تحداهم الرسول بالقرآن فعجزوا عن معارضته وكفاهم بذلك آية لو كانوا أهل إنصاف.

{كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} من الأمم {مِثْلَ قَوْلِهِمْ

تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ} تماثلت قلوبهم فى العمى والجهل والتعنت.

ومن المراد بالذين من قبلهم اليهود والنصارى فقد قال اليهود

لموسى: **{لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً} [البقرة: ٥٥]** وسأل

النصارى عيسى: **{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ**

السَّمَاءِ} [المائدة: ١١٢]

وفي هذا الكلام تسلية للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأن ما

لقيه من قومه مثل ما لاقاه الرسل قبله.

وفي الآية أن أقوال أهل الباطل تتشابه؛ كقوله تعالى: **{كَذَلِكَ**

مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُونٌ} *

أَتَوَاصُوا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ} [الذاريات: ٥٢-٥٣]؛ وأنت لو تأملت الدعاوى الباطلة التي رد بها المشركون رسالة الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من زمنه إلى اليوم لوجدت أنها متشابهة، كما قال تعالى: {وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ} [المطففين: ٣٢]؛ واليوم يقولون للمتمسكين بالقرآن والسنة، هؤلاء رجعيون؛ هؤلاء دراويش لا يعرفون شيئا.

وفيها أيضا أن الأقوال تابعة لما في القلوب {تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ}؛ فلتشابه القلوب تشابهت الأقوال.

{قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ} الإيقان: وصف في العلم يبلغ به نهاية الوثاقة في العلم، أي العلم الذي لا يخالجه شك، والمعنى: من كان موقناً، فقد أوضحنا له الآيات، فأمن بها، ووضحت عنده، وقامت به الحجة على غيره.. وجيء بالفعل المضارع في {يوقنون} لدلالته على التجدد والاستمرار كناية عن كون الإيمان خلقا لهم.

والآية تعليلا للإعراض عن جوابهم بأنهم غير أهل للجواب لأن أهل الجواب هم القوم الذين يوقنون، وقد بينت لهم آيات القرآن بما اشتملت عليه من الدلائل، وأما هؤلاء فليسوا أهلا للجواب لأنهم ليسوا بقوم يوقنون بل ديدنهم المكابرة.

فما أنزل الله تعالى وَبَيَّنُّهُ في كتابه من الآيات الدالة على الإيمان به ووجوب عبادته وتوحيده فيها، وعلى صدق نبيه في رسالته ووجوب الإيمان به واتباعه، كاف ومغني عن أية آية مادية يريدونها، ولكن القوم لكفرهم وعنادهم لم يروا في آيات القرآن ما يهديهم وذلك لعدم إيقانهم، والآيات يراها وينتفع بها الموقنون لا الشاكون المكذبون.

وفي البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ [فما من رسول إلا وله آية، فالله تعالى لا يرسل الرسل ويتركهم بدون تأييد]، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

وفي الآية أن أهل الباطل يجادلون بالباطل؛ لأن طلبهم الآيات التي يعينونها ما هو إلا تعنت واستكبار؛ ففي الآيات التي جاءت بها الرسل ما يؤمن على مثلها البشر؛ ثم إنهم لو جاءت الآيات على ما اقترحوا لم يؤمنوا إذا حقت عليهم كلمة ربهم؛ لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} [يونس: ٩٦-٩٧].

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ
الْجَحِيمِ (١١٩) وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى
تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ
أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ
وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ
تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ (١٢١)

{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ} الباء هنا للملابسة أي إرسالك حق، أو
للمصاحبة أي ما أرسلت به حق، والحق هو الآيات الواضحة، وهو
بالنسبة للأخبار الصدق؛ وبالنسبة للأحكام العدل.

{بَشِيرًا} من البشارة؛ وهي الإخبار بما يسر {وَنَذِيرًا} من
الإنذار؛ وهو الإعلام بالمكروه؛ أي بما يخاف منه.

إذ مهمته -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- محصورة في التبشير
والإنذار.. تبشير من آمن وعمل صالحاً بالفوز بالجنة والنجاة من
النار، وإنذار من كفر وعمل سوءاً بدخول النار والعذاب الدائم

فيها.. وهذه الآية تسلية لرسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، فإنه كان يضيق صدره لتماديهم على ضلالهم.

كما قال تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ} [الشورى: ٤٨]، وقوله: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} [الرعد: ٧] وقوله: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القصص: ٥٦]

{وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} والسؤال كناية عن المؤاخذة واللوم، أي لست مؤاخذا ببقاء الكافرين على كفرهم بعد أن بلغت لهم الدعوة.

وقيل: كناية عن فظاعة أحوال المشركين والكافرين حتى أن المتفكر في مصير حالهم ينهى عن الاشتغال بذلك لأنها أحوال لا يحيط بها الوصف ولا يبلغ إلى كنهها العقل في فظاعتها وشناعتها، وذلك أن النهي عن السؤال يرد لمعنى تعظيم أمر المسؤول عنه نحو قول عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: "يصلي أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن" ولهذا شاع عند أهل العلم إلقاء المسائل الصعبة بطريقة السؤال نحو "فإن قلت" للاهتمام.

ويؤيد القول الأول قراءة {تُسألُ}، والقول الثاني يؤيده القراءة الأخرى بالجزم على أن {لا} ناهية؛ و{تُسألُ}: فعل مضارع مبني للفاعل مجزوم بها؛ والمعنى: لا تسأل عن أصحاب الجحيم بما هم عليه من العذاب؛ فإنهم في حال لا يتصورها الإنسان؛ وهذا غاية ما يكون من الإنذار لهؤلاء المكذبين المخالفين الذين هم أصحاب الجحيم؛ فالنهي هنا للتهويل.

والآية معترضة بين حكايات أحوال المشركين وأهل الكتاب القصد منها تأنيس الرسول -عليه الصلاة والسلام- من أسفه على ما لقيه من أهل الكتاب مما يماثل ما لقيه من المشركين، وقد كان يود أن يؤمن به أهل الكتاب فيتأيد بهم الإسلام على المشركين، فإذا هو يلقي منهم ما لقي من المشركين أو أشد وقد قال فيما رواه البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (لَوْ آمَنَ بِي عَشْرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ لَأَمَنَ بِي الْيَهُودُ) وفي رواية مسلم: (لَوْ تَابَعَنِي عَشْرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ لَمْ يَبْقَ عَلَى ظَهْرَهَا يَهُودِيٌّ إِلَّا أَسْلَمَ)

فكان لتذكير الله إياه بأنه أرسله تهدئة لخاطره الشريف، وَعَذَرَ لَهُ إِذْ أَبْلَغَ الرسالة، وتطمين لنفسه بأنه غير مسئول عن قوم رضوا لأنفسهم بالجحيم، وفيه تمهيد لِلتَّائِبِينَ من إيمان اليهود والنصارى. وجيء بالتأكيد وإن كان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لا يتردد في ذلك لمزيد الاهتمام بهذا الخبر، وبيان أنه يُنَوِّه بِهِ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنْ تَنْوِيهِ شَأْنِ الرَّسُولِ.

وجيء بالمسند إليه ضمير الجلالة {أَرْسَلْنَاكَ} تشريفا له - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعز الحضور لمقام التكلم مع الخالق - تعالى وتقدس- كأن الله يشافهه بهذا الكلام بدون واسطة فلذا لم يقل له: "إن الله أرسلك".

{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى} عطف على قوله: {وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} أو على: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ}، وقد جاء هذا الكلام المؤيِّس من إيمانهم بعد أن قدم قبله التأنيس والتسلية على نحو مجيء العتاب بعد تقديم العفو في قوله تعالى: {عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ} [التوبة: ٤٣] وهذا من كرامة الله تعالى لنبهه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والنفي بـ «لن» مبالغة في التأييس لأنها لنفي المستقبل وتأنيده.

والتصريح بلا النافية بعد حرف العطف في قوله {وَلَا النَّصَارَى} للتنصيص على استقلالهم بالنفي وعدم الاقتناع باتباع حرف العطف لأنهم كانوا يُظَنُّ بِهَمَّ خلاف ذلك لإظهارهم شيئاً من المودة للمسلمين، كما في قوله تعالى {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ} [المائدة: ٨٢] وقد تضمنت هذه الآية أنهم لا يؤمنون بالنبي لأنه غير متبع ملتهم، وأنهم لا يصدقون القرآن لأنه جاء بنسخ كتابهم.

{حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ} دينهم وشريعتهم، وهي مجموع عقائد وأعمال يلتزمها طائفة من الناس يتفقون عليها وتكون جامعة لهم كطريقة يتبعونها، ويحتمل أنها مشتقة من أَمَلَّ الكتاب فسميت الشريعة «ملة» لأن الرسول أو واضع الدين يعلمها للناس وَيُمْلِكُهَا عليهم كما سميت «ديناً» باعتبار قبول الأمة لها وطاعتهم وانقيادهم.

ووحدت الملة، وإن كان لهم ملتان، لأنهما يجمعهما الكفر، فهي واحدة بهذا الاعتبار، أو للإيجاز فيكون من باب الجمع في الضمير.

وهو خطاب له -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وتأديب لأُمتِه، فإنهم يعلمون قدره عند ربه، وإنما ذلك ليتأدب به المؤمنون، فلا يوالون الكافرين، فإنهم لا يرضيهم منهم إلا اتباع دينهم.

{قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ} أي الذي هو مضاف إلى الله تعالى تشريفاً **{هُوَ الْهُدَى}** الهدى ما أنزل به كتابه وبعث به رسوله وهو الإسلام الذي أنت عليه، فهو الهدى: أي النافع التام الذي لا هدى وراءه، وما أُمِرتُم باتباعه هو هوى لا هدى **{فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}** [القصص: ٥٠]

قال ابن عاشور: وفيه تعريض بأن ما هم عليه يومئذ شيء حرفوه ووضعوه. فيكون القصر إما حقيقياً ادعائياً بأن يراد هو الهدى الكامل في الهداية فهدى غيره من الكتب السماوية بالنسبة إلى هدى القرآن كلاً هُدى لِأَنَّ هدى القرآن أعم وأكمل فلا ينافي إثبات الهداية لكتابهم كما في قوله تعالى: **{إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ}** [المائدة: ٤٤] وقوله: **{وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ}** [المائدة: ٤٦] وإما قصراً إضافياً، أي: هو الهدى دون ما أنتم عليه من ملة مُبَدَلَةٍ مَشُوبَةٍ

بِضَلَالَاتٍ، وبذلك أيضا لا ينتفي الهدى عن كثير من التعاليم والنصائح الصالحة الصادرة عن الحكماء وأهل العقول الراجحة والتجربة لكنه هدى ناقص.

ثم ذكر تعالى أن ما هم عليه إنما هي أهواء وضلالات ناشئة عن شهواتهم وميولهم، فقال: **{وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ}** جمع هوى، وهو رأى ناشئ عن شهوة لا عن دليل، والجمع دليلاً على كثرة اختلافهم، إذ لو كانوا على حق لكان طريقاً واحداً، قال تعالى: **{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}**

[النساء: ٨٢]

{بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} أي من الدين، وجعله علماً لأنه معلوم بالبراهين الصحيحة. والآية تدل على أنه لا يجوز الوعيد إلا بعد المعذرة أولاً، فيبطل بذلك تكليف ما لا يطاق.

{مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ} من يتولاك ويكفيك أمرك، وقيل: القريب والحليف **{وَلَا نَصِيرٍ}** من ينصرك ويدفع عنك الأذى.

وعطف النصير على الولي احتراساً لأن نفي الولي لا يقتضي نفي كل نصير إذ لا يكون لأحد ولي لكونه دخيلاً في قبيلة ويكون أنصاره من جيرته. وكان القصد من نفي الولاية التعريض بهم في

اعتقادهم أنهم أبناء الله وأحباؤه فنفي ذلك عنهم حيث لم يتبعوا دعوة الإسلام ثم نفى الأعم منه وهذه نكتة عدم الاقتصار على نفى الأعم.

وفيه قطع لأطماعهم أن تُتبع أهواؤهم، لأن من علم أنه لا ولي له ولا نصير ينفعه إذا ارتكب شيئاً كان أبعد في أن لا يرتكبه، وذلك إياس لهم في أن يتبع أهواءهم أحد.

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ} القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وغيرها من كتب الله عز وجل **{يَتْلُونَهُ}** والتلاوة لها معنيان: القراءة لفظاً، والاتباع فعلاً، فحق التلاوة هو العلم والعمل بما في المتلو **{حَقَّ تِلَاوَتِهِ}** لا يحرفون كلمه عن مواضعه، ولا يكتمون الحق الذي جاء فيه من نعت الرسول محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وغيره.

{أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ} ويتضمن الكلام هنا الإيمان بما جاء به الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لا يؤمن به إلا من يتلو الكتاب حق تلاوته سواء التوراة، أو الإنجيل، أو القرآن؛ ومن هؤلاء عبد الله بن سلام من اليهود وعدي بن حاتم وتميم الداري من النصارى.

{وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ} بالكتاب {فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} وأصل

«الخسران» النقص؛ ولهذا يقال: ربح؛ ويقال في مقابله: خسر؛ فهؤلاء هم الذي حصل عليهم النقص لا غيرهم؛ لأنهم مهما أوتوا من الدنيا فإنها زائلة، وفانية، فلا تنفعهم.

كما في قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ}** [المنافقون: ٩]؛ ولما كان الذي يتلهى بذلك عن ذكر الله يظن أنه يربح قال تعالى: **{وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}** يعني: ولو ربحوا في دنياهم.

وفي الآية إيجاز بديع لدلالاتها على أن الذين أوتوا الكتاب يتلونهم حق تلاوته هم المؤمنون دون غيرهم فهم كفرون، فالمؤمنون به هم الفائزون والكافرون هم الخاسرون.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)

{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ} غاية الذكر هي الشكر **{وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}** عالمي زمانهم .. كرر نداء بني إسرائيل هنا وذكرهم بنعمه على سبيل التنبيه والإنذار والتذكير والتوكيد.

{وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي} لا تقضي ولا تغني {نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا} فليس تفضيل آبائكم على العالمين بمغنٍ عنكم شيئاً؛ لا تقولوا: لنا آباء مفضلون على العالمين، وسَنَسَلَمَ بهم من النار، أو من عذاب هذا اليوم، ولا يرد على هذا الشفاعة الشرعية التي ثبتت بها السُّنة لأنها خاصة بالموحدين وإذن رب العالمين.

{وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ} فداء.. أي ما يعدل به العذاب عن نفسه - وهو الفداء -؛ ف «العدل» معناه الشيء المعادل، كما قال الله -تبارك وتعالى-: **{أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ}** [المائدة: ٩٥] أي ما يعادله من الصيام؛ وهنا: لو أتت بالفداء لا يقبل.

{وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ} وساطة أحد.. «الشفاعة» هي التوسط للغير بدفع مضرة، أو جلب منفعة؛ سميت بذلك؛ لأن الشافع إذا انضم إلى المشفوع له، صار شفيعاً بعد أن كان وتراً؛ فالشفاعة لأهل

النار أن يخرجوا منها: شفاعاة لدفع مضرة؛ والشفاعة لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة؛ شفاعاة في جلب منفعة.

وفي الآية ثبوت أصل الشفاعاة في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: **{وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ}**؛ وثبت أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يشفع في أهل الموقف أن يُقضى بينهم، وأنه يشفع في أهل الكبائر أن لا يدخلوا النار؛ وفيمن دخل النار أن يخرج منها؛ فعلى هذا يكون العموم في قوله تعالى: **{وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ}** مخصوصاً بما ثبتت به السنة من الشفاعاة.

أعيدت هذه الآية بالألفاظ التي ذكرت بها هنالك للتنبيه على نكتة التكرير للتذكير ولم يخالف بين الآيتين إلا في الترتيب بين العدل والشفاعة فهناك قدم: **{وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ}** [البقرة: ٤٨] وأخر: **{وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ}** [البقرة: ٤٨] وهنا قدم: **{وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ}** وأخر لفظ الشفاعاة مسنداً إليه **{تنفعها}** وهو تفنن والتفنن في الكلام تنتفي به سامة الإعادة مع حصول المقصود من التكرير.

وقد حصل مع التفنن نكتة لطيفة إذ جاءت الشفاعاة في الآية السابقة مسنداً إليها المقبولية فقدمت على العدل بسبب نفي

قبولها، ونفي قبول الشفاعة لا يقتضي نفي أخذ الفداء، فعطف نفي أخذ الفداء للاحتراس. وأما في هذه الآية فقدم الفداء لأنه أسند إليه المقبولية ونفي قبول الفداء لا يقتضي نفي نفع الشفاعة فعطف نفي نفع الشفاعة على نفي قبول الفداء للاحتراس أيضا.

والحاصل أن الذي نفي عنه أن يكون مقبولا قد جعل في الآيتين أولا وذكر الآخر بعده. وأما نفي القبول مرة عن الشفاعة ومرة عن العدل فلأن أحوال الأقوام في طلب الفكك عن الجنة تختلف فمرة يقدمون الفداء فإذا لم يقبل قدموا الشفعاء. ومرة يقدمون الشفعاء فإذا لم تقبل شفاعتهم عرضوا الفداء.

{وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} مع أن السياق يرجع إلى مفرد في قوله تعالى: **{نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ}**، وقوله تعالى: **{وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا}**، وقوله تعالى: **{وَلَا تَنْفَعُهَا}**؛ جاء الكلام هنا بصيغة الجمع باعتبار المعنى؛ لأن قوله تعالى: **{لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ}** للعموم؛ والعموم يدل على الجمع والكثرة؛ ثم إن هنا مناسبة لفظية؛ وهي مراعاة فواصل الآيات؛ ومراعاة الفواصل أمر ورد به القرآن - حتى إنه من أجل المراعاة يقدم المفضول على الفاضل -، كما في قوله تعالى في سورة طه: **{فَأَلْقَى السَّحَرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى}**

[طه: ٧٠]؛ لأن سورة طه كلها على فاصلة ألف إلا بعض الآيات القليلة؛ فمراعاة الفواصل إذاً من بلاغة القرآن.

وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ
لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ
(١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن
مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ
طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ
قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ
الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ
فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ
وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧)
رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا
مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا

وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)

{وَإِذِ ابْتَلَى} واذكر إذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات. والابتلاء:
الاختبار، ومعناه أنه كلفه بأوامر ونواه، إما من الفضائل والآداب
وإما من الأحكام التكليفية الخاصة به.

{إِبْرَاهِيمَ} مفعول مقدم، وإبراهيم هو الجد الحادي والثلاثون
لنبينا رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ومعنى إبراهيم في لغة
الكلدانيين «أب رحيم» أو «أب راحم» قاله السهيلي وابن عطية،
وفي التوراة أن اسم إبراهيم «إبرام» وأن الله لما أوحى إليه وكلمه
أمره أن يسمى إبراهيم لأنه يجعله أبا لجمهور من الأمم، فمعنى
إبراهيم على هذا أبو أمم كثيرة.

ولد في أور الكلدانيين سنة ١٩٩٦ ست وتسعين وتسعمائة
وألف قبل ميلاد المسيح، ثم انتقل به والده إلى أرض كنعان وهي
أرض الفنيقيين فأقاموا بحاران التي هي حوران ثم خرج منها لقحط
أصاب حاران فدخل مصر وزوجه سارة، وهنالك رام ملك مصر
افتكاك سارة فرأى آية صرفته عن مرامه فأكرمها وأهداها جارية
مصرية اسمها هاجر وهي أم ولده إسماعيل، وسماه الله بعد ذلك

إبراهيم، وأسكن ابنه إسماعيل وأمه هاجر بوادي مكة ثم لما شب إسماعيل بنى إبراهيم البيت الحرام هنالك.

والمقصود من ذكر قصة إبراهيم موعظة المشركين ابتداءً وبني إسرائيل تبعاً له، لأن العرب أشد اختصاصاً بإبراهيم من حيث إنهم يزيدون على نسبهم إليه بكونهم حفظة حرمة، ومنتمين قديماً للحنيفية ولم يطرأ عليهم دين يخالف الحنيفية بخلاف أهل الكتابين.

وفي هذه الآية مقصد آخر وهو تمهيد الانتقال إلى فضائل البلد الحرام والبيت الحرام، لإقامة الحجة على الذين عجبوا من نسخ استقبال بيت المقدس وتذرعوا بذلك إلى الطعن في الإسلام بوقوع النسخ فيه، وإلى تنفير عامة أهل الكتاب من اتباعه لأنه غير قبلتهم ليظهر لهم أن الكعبة هي أجدر بالاستقبال وأن الله استبقاها لهذه الأمة تنبيهاً على مزية هذا الدين.

{رَبُّهُ} فاعل مؤخر، قدم المفعول {إبراهيم} للاهتمام بمن وقع له الابتلاء، إذ معلوم أن الله تعالى هو المبتلي. وقيل: المقصود تشريف إبراهيم بإضافة اسم رب إلى اسمه مع مراعاة الإيجاز، فلذلك لم يقل: "وإذ ابتلى الله إبراهيم".

أضاف الربوبية إلى إبراهيم: وهي من الربوبية الخاصة؛ فالربوبية بإزاء العبودية؛ فكما أن العبودية نوعان - خاصة، وعامة - فالربوبية أيضاً نوعان: خاصة، وعامة؛ وقد اجتمعا في قول السحرة: **{قَالُوا أَمَّا بربِّ الْعَالَمِينَ}** [الأعراف: ١٢١]: هذه عامة؛ **{رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ}** [الأعراف: ١٢٢] هذه خاصة؛ ولا شك أن ربوبية الله سبحانه وتعالى للرسل - ولا سيما أولو العزم منهم؛ وهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام - أخص الربوبيات.

{بِكَلِمَاتٍ} وهذه الأشياء التي فسرت بها الكلمات، إن كانت أقوالاً، فذلك ظاهر في تسميتها كلمات، وإن كانت أفعالاً، فيكون إطلاق الكلمات عليها مجازاً، لأن التكاليف الفعلية صدرت عن الأوامر، والأوامر كلمات.

الأصح في الكلمات التي ابتلى بها أنها التكاليف، أي اختبره بما تعبد به من السنن وقيل هي عشر خلال، خمس منها في الرأس: الفرق وقص الشارب والسواك والمضمضة والاستنشاق، وخمس في البدن: الختان وحلق العانة والاستنجاء وتقليم الأظفار ونتف الإبط، فأتَمَّهْن وعمل بهن ولم يدع منهن شيئاً.

قال بعض أهل العلم: هو أن الله أوحى إليه أن تطهر فتمضمض، ثم أن تطهر فاستنشق، ثم أن تطهر فاستاك، ثم أن تطهر فأخذ من شاربة، ثم أن تطهر ففرق شعره، ثم أن تطهر فاستنجدى، ثم أن تطهر فحلق عانته، ثم أن تطهر فنتف إبطه، ثم أن تطهر فقلّم أظفاره، ثم أن تطهر فأقبل على جسده ينظر ماذا يصنع، فاختن بعد عشرين ومائة سنة. وفي البخاري، أنه اختن وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم. فإن صحت تلك الرواية، فالتأويل أنه اختن بعد عشرين ومائة سنة من ميلاده، وابن ثمانين سنة من وقت نبوته، فيتفق التاريخان، والله أعلم.

قال ابن عاشور: والغرض بيان فضل إبراهيم ببيان ظهور عزمه وامتناله لتكاليف فأتى بها كاملة فجوزي بعظيم الجزاء، وهذه عادة القرآن في إجمال ما ليس بمحل الحاجة، ولعل جمع الكلمات جمع السلامة يؤذن بأن المراد بها أصول الحنيفية وهي قليلة العدد كثيرة الكلفة، فلعل منها الأمر بذبح ولده، وأمره بالاختنان، وبالمهاجرة بهاجر إلى شُقة بعيدة، وأعظم ذلك أمره بذبح ولده إسماعيل بوحي من الله إليه في الرؤيا، وقد سمي ذلك بلاء في قوله تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ} [الصافات: ١٠٦]

{فَأَتَمَّهُنَّ} أذهن، وقام بهن، وأتى بهن على الوجه المأمور به، وجيء فيه بالفاء للدلالة على الفور في الامتثال وذلك من شدة العزم والإتمام، وفي معنى الإتمام قوله تعالى: **{وَأَبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى}** [النجم: ٣٧] وقوله: **{قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا}** [الصافات: ١٠٥] وهذه الجملة هي المقصود من سرد القصة.

{قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} يراد به جميع المؤمنين من الأمم بعده، ويكون ذلك في عقائد التوحيد وفيما وافق من شرائعهم **{إِمَامًا}** يأتون بك في هذه الخصال الحميدة، وقدوة صالحة يقتدي بك الصالحون. فأصله ما يحصل به الأمام أي القصد، ولما كان الدال على الطريق يقتدي به السائر دل الإمام على القدوة والهادي.

وقيل: المراد بالإمام هنا الرسول فإن الرسالة أكمل أنواع الإمامة والرسول أكمل أفراد هذا النوع. وإنما عدل عن التعيين بـ **{رسولا}** إلى **{إماما}** ليكون ذلك دالا على أن رسالته تنفع الأمة المرسل إليها بطريق التبليغ، وتنفع غيرهم من الأمم بطريق الاقتداء، فإن إبراهيم -عليه السلام- رحل إلى آفاق كثيرة فتنقل من بلاد

الكلدان إلى العراق وإلى الشام والحجاز ومصر، وكان في جميع منازل محل التبجيل، ولا شك أن التبجيل يبعث على الاقتداء.

{قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي} واجعل من ذريتي إماماً أيضاً، سأل أن يكون في ذريته الإمامة بأنواعها من رسالة وملك وقدوة على حسب التهيؤ فيهم، وأقل أنواع الإمامة كون الرجل الكامل قدوة لبيه وأهل بيته وتلاميذه.

ولم يقل وذريتي لأنه يعلم أن حكمة الله من هذا العالم لم تجر بأن يكون جميع نسل أحد ممن يصلحون لأن يقتدي بهم فلم يسأل ما هو مستحيل عادة لأن سؤال ذلك ليس من آداب الدعاء.

{قَالَ} الله تعالى {لَا يَنَالُ عَهْدِي} العهد هنا بمعنى الوعد المؤكد. وسمي وعد الله عهداً لأن الله لا يخلف وعده كما أخبر بذلك، فصار وعده عهداً ولذلك سماه النبي عهداً في قوله: (أنشدك عهدك ووعدك)، أي لا ينال وعدي بالإمامة الظالمين منهم.

ومن دقة القرآن اختيار هذا اللفظ هنا لأن اليهود زعموا أن الله عهد لإبراهيم عهداً بأنه مع ذريته ففي ذكر لفظ العهد تعريض بهم وإن كان صريح الكلام لتوبيخ المشركين.

{الظَّالِمِينَ} استجابة مطوية بإيجاز وبيان للفريق الذي تتحقق فيه دعوة إبراهيم والذي لا تتحقق فيه بالاختصار على أحدهما لأن حكم أحد الضدين يثبت نقيضه للآخر على طريقة الإيجاز، وإنما لم يذكر الصنف الذي تحقق فيه الدعوة لأن المقصد ذكر الصنف الآخر تعريضا بأن الذين يزعمون يومئذ أنهم أولى الناس بإبراهيم وهم أهل الكتاب ومشركو العرب هم الذين يحرمون من دعوته، قال تعالى: **{مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ}** [آل عمران: ٦٧ ٦٨] ولأن المربي يقصد التحذير من المفساد قبل الحث على المصالح، فبيان الذين لا تتحقق فيهم الدعوة أولى من بيان الآخرين.

وهذا التفصيل المذكور في ذرية إبراهيم أشار له تعالى في "الصفات" بقوله: **{وَمَنْ ذُرِّيَّتَهُمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ}**.

والمراد بالظالمين ابتداء المشركون أي الذين ظلموا أنفسهم إذ أشركوا بالله قال تعالى: **{إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}** والظلم يشمل أيضا عمل كبائر المعاصي كما وقع في قوله تعالى: **{وَمَنْ ذُرِّيَّتَهُمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ}** [الصفات: ١١٣] وقد وصف القرآن

اليهود بوصف الظالمين في قوله: {وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [المائدة: ٤٥] فالمراد بالظلم المعاصي الكبيرة وأعلاها الشرك بالله تعالى.

وفي الآية تنبيه على أن أهل الكتاب والمشركين يومئذ ليسوا جديرين بالإمامة لاتصافهم بأنواع من الظلم كالشرك وتحريف الكتاب وتأويله على حسب شهواتهم والانهماك في المعاصي حتى إذا عرضوا أنفسهم على هذا الوصف علموا انطباقه عليهم. وإناطة الحكم بوصف الظالمين إيماء إلى علة نفي أن ينالهم عهد الله فيفهم من العلة أنه إذا زال وصف الظلم نالهم العهد.

وفي الآية أن المتصف بالكبيرة ليس مستحقا لإسناد الإمامة إليه أعنى سائر ولايات المسلمين: الخلافة والإمارة والقضاء والفتوى ورواية العلم وإمامة الصلاة ونحو ذلك.

{وَإِذْ} اذكر يا محمد للناس هذا الأمر الذي {جَعَلْنَا} صيرنا {الْبَيْتَ} علم بالغلبة على الكعبة كما غلب النجم على الثريا والكتاب للقرآن، وقد عُرفت الكعبة باسم البيت من عهد الجاهلية، وأتى هنا بـ «أل» للتفخيم والتعظيم {مَثَابَةً لِّلنَّاسِ} من ثاب يثوب إذا

رجع، والمراد بالمشابة أنه يقصده الناس بالتعظيم ويلوذون به. والتاء في مثابة للمبالغة، لكثرة من يثوب إليه.

قال مجاهد وابن جبير: "يثوبون إليه من كل جانب"، أي يحجونه في كل عام، فهم يتفرقون، ثم يثوبون إليه أعيانهم أو أمثالهم، ولا يقضي أحد منهم وطراً.

ولما كان المقصود من هذا ذكر منقبة البيت والمنة على ساكنيه كان الغرض التذكير بنعمة الله أن جعله لا ينصرف عنه قوم إلا ويخلفهم قوم آخرون، فكان الذين يخلفون الزائرين قائمين مقامهم بالنسبة للبيت وسكانه.

{وَأَمْنًا} أخبر به عن البيت باعتبار أنه سبب أمن فجعل كأنه نفس الأمن مبالغة. أي: وجعلناه أمناً للناس؛ أي مكان أمن يأمن الناس فيه على دمائهم، وأموالهم - حتى أشجار الحرم، وحشيشه آمن من القطع، كما قال تعالى: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا}** [إبراهيم: ٣٥] فالناس كانوا يقتتلون، ويغير بعضهم على بعض حول مكة، وهي آمنة من ذلك، ويلقى الرجل قاتل أبيه فلا يهيجه، لأنه تعالى جعل لها في النفوس حرمة، وجعلها أمناً للناس

والطير والوحش إلا الخمس الفواسق، فخصصت من ذلك على لسان رسول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيه ظهور رحمة الله؛ فإنه لما جعل هذا البيت مثابة، والناس لا بد أن يرجعوا إليه رحمهم بأن جعله آمناً؛ وإنما أحلها الله لرسوله -صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ساعة من نهار للضرورة؛ وهي ساعة الفتح؛ ثم قال -صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ) [البخاري]؛ ثم أورد -صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سؤالاً قال فيه: (فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِيهَا فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ)؛ والحكم لله العلي الكبير: أَذِنَ للرسول في تلك الساعة؛ ولكنه لم يأذن لأحد بعده كما لم يأذن لأحد قبله؛ ولهذا نُهي عن حمل السلاح في الحرم حتى يبقى كل إنسان آمناً؛ ولما طعن ابن عمر -رضي الله عنهما- وهو على راحلته في منى - طعنه أحد الخوارج بسنان الرمح في أخمص قدمه حتى لزقت قدمه بالركاب جاءه الحجاج يعوده، فقال الحجاج: لو نعلم من أصابك؟! فقال ابن عمر: أنت أصبتني! قال: وكيف؟ قال: «حملت السلاح في يوم لم يكن يحمل فيه، وأدخلت السلاح الحرم ولم يكن السلاح يدخل

الحرم»؛ وبهذا تعرف عظم جرم أولئك الذين يوقعون المخاوف بين المسلمين في مواسم الحج، وأنهم - والعياذ بالله - من أعظم الناس جرماً؛ لأن الله سبحانه وتعالى جعل هذا البلد آمناً في كل وقت؛ فكيف في وقت أداء مناسك الحج التي ما أمّن - والله أعلم - إلا لأجلها.

ولما كان الغالب على أحوال الجاهلية أخذ القوي مال الضعيف ولم يكن بينهم تحاكم ولا شريعة كان الأمن يومئذ هو الحيلولة بين القوي والضعيف، فجعل الله البيت آمناً للناس يومئذ أي يصد القوي عن أن يتناول فيه الضعيف قال تعالى: **{أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ}** [العنكبوت: ٦٧] فهذه منّة على أهل الجاهلية، وأما في الإسلام فقد أغنى الله تعالى بما شرعه من أحكامه وما أقامه من حكمه فكان ذلك آمناً كافياً. قال السهيلي فقله تعالى: **{مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا}** [آل عمران: ٩٧] إنما هو إخبار عن تعظيم حرمة في الجاهلية نعمة منه تعالى على أهل مكة فكان في ذلك مصلحة لذرية إسماعيل عليه السلام.

والمراد من الجعل في الآية إما الجعل التكويني لأن ذلك قدره الله وأوجد أسبابه فاستقر ذلك بين أهل الجاهلية ويسرهم إلى

تعظيمه، وإما الجعل أن أمر الله إبراهيم بذلك فأبلغه إبراهيم ابنه إسماعيل وبثه في ذريته فتلقاه أعقابهم تلقي الأمور المسلمة، فدام ذلك الأمن في العصور والأجيال من عهد إبراهيم -عليه السلام- إلى أن أغنى الله عنه بما شرع من أحكام الأمن في الإسلام في كل مكان وتم مراد الله تعالى.

فلا يريبكم ما حدث في المسجد الحرام من الخوف في حصار الحجاج في فتنة ابن الزبير ولا ما حدث فيه من الرعب والقتل والنهب في زمن القرامطة حين غزاه الحسن ابن بهرام الجنابي نسبة إلى بلدة يقال لها جنابة كبير القرامطة إذ قتل بمكة آلاف من الناس وكان يقول لهم: يا كلاب أليس قال لكم محمد المكي: **{وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا}** [آل عمران: ٩٧] أي أمن هنا، وهو جاهل غبي لأن الله أراد الأمر بأن يجعل المسجد الحرام مأمنا في مدة الجاهلية إذ لم يكن للناس وازع عن الظلم، أو هو خبر مراد به الأمر مثل **{وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ}** [البقرة: ٢٢٨].

{وَاتَّخِذُوا} على الأمر، وفي قراءة بفتحها **{وَاتَّخِذُوا}**، جعلوه فعلاً ماضياً، أما قراءة: **{وَاتَّخِذُوا}** على الأمر، فاختلف من المواجه

به، فقيل: إبراهيم وذريته، أي: وقال الله لإبراهيم وذريته: اتخذوا.
وقيل: النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأمته، أي: وقلنا اتخذوا.
ويؤيده ما روي عن عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قال: وافقت ربي
في ثلاث، فذكر منها وقلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام
إبراهيم مصلى؟

وروي عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه أخذ بيد عمر
فقال: (هذا مقام إبراهيم)، فقال عمر: أفلا نتخذه مصلى؟ فقال:
(لم أؤمر بذلك). فلم تغب الشمس حتى نزلت {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ
إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى}.

{مِنْ} دخلت «من» لبيان المتخذ الموهوب، وتميزه في ذلك
المعنى {مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ} أي مكان قيامه، وهو الحجر الذي ارتفع
عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناوله
إياها في بناء البيت، وغرقت قدماه فيه، قاله ابن عباس وجابر
وقتادة وغيرهم، وخرجه البخاري، وهو الآن موضع ذلك الحجر
والمسمى «مقام إبراهيم».

وعن عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه سأل المطلب بن أبي رفاعه:
هل تدري أين كان موضعه الأول؟ قال نعم، فأراه موضعه اليوم.

قال أنس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "رَأَيْتُ فِي الْمَقَامِ أَثَرَ أَصَابِعِهِ وَعَقْبِهِ وَأَخْمَصِ قَدَمَيْهِ، غَيْرَ أَنَّهُ أَذْهَبَهُ مَسْحُ النَّاسِ بِأَيْدِيهِمْ". حَكَاهُ الْقَشِيرِيُّ.

{مُصَلِّيٌ} موضع صلاة. فمن السنة لِمَنْ فرغ من الطواف بالبيت صلاة ركعتين خلف المقام.

وفيه أن الله سبحانه وتعالى يثيب العامل بأكثر من عمله؛ فإبراهيم -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لما أتم الكلمات جعله الله تعالى إماماً للناس، وأمر الناس أن يتخذوا من مقامه مصلياً؛ وهذا بعض من إمامته.

{وَعَهْدُنَا} وصينا وصية بما هو هام؛ وليست مجرد الوصية؛ بل لا تكون عهداً إلا إذا كان الأمر هاماً؛ ومنه عهد أبي بكر بالخلافة إلى عمر؛ ومعلوم أن أهم ما يكون من أمور المسلمين العامة الخلافة.

{إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ} ابن إبراهيم وأبو العرب والذبيح عليه السلام **{أَنْ طَهَّرَا}** المراد من تطهير البيت ما يدل عليه لفظ التطهير من محسوس بأن يحفظ من القاذورات والأوساخ ليكون المتعبد فيه مقبلاً على العبادة دون تكدير، ومن تطهير معنوي وهو

أن يبعد عنه ما لا يليق بالقصد من بنائه من الأصنام والأفعال
المنافية للحق كالعدوان والفسوق، والمنافية للمروءة كالطواف عريا
دون ثياب للرجال والنساء.

وفي هذا تعريض بأن المشركين ليسوا أهلا لعمارة المسجد
الحرام لأنهم لم يطهروه مما يجب تطهيره منه قال تعالى: **{وَمَا
كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ}** [الأنفال: ٣٤] وقال: **{يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}** [التوبة: ٢٨].

{بَيِّنِي} هذه إضافة تشريف، لا أن مكاناً محل لله تعالى، ولكن
لما أمر ببنائه وتطهيره وإيفاد الناس من كل فج إليه، صار له بذلك
اختصاص، فحسنت إضافته إلى الله بذلك، وصار نظير قوله: **{نَاقَةُ
اللَّهِ}** **{وَرُوحُ اللَّهِ}** من حيث أن في كل منهما خصوصية لا توجد في
غيره، فناسب الإضافة إليه تعالى.

{لِلطَّائِفِينَ} بدأ بهم لأن عبادتهم خاصة بهذا المسجد
{وَالْعَاكِفِينَ} الذين يقيمون فيه للعبادة **{وَالرَّكَّعِ السُّجُودِ}** جمع بين
أحوال من دخل البيت للتعبد، لأنه لا يخلو إذ ذاك من طواف أو
اعتكاف أو صلاة، فيكون حمله على ذلك أجمع لما هيء البيت
له.

وخص الركوع والسجود بالذكر من جميع أحوال المصلي،
لأنهما أقرب أحواله إلى الله، وقدم الركوع على السجود لتقدمه عليه
في الزمان والترتيب. ولم يعطف السجود على الركع لأن الوصفيتين
متلازمان ولو عطف لتوهم أنهما وصفان مفترقان.

{وَإِذْ} اذكر إذ **{قَالَ إِبْرَاهِيمُ}** منقبة أخرى لإبراهيم عليه
السلام **{رَبِّ}** ناداه بلفظ الرب مضافاً إليه، لما في ذلك من تطف
السؤال، والنداء بالوصف الدال على قبول السائل وإجابة ضراسته.
{اجْعَلْ هَذَا} المكان، والمقصود به مكة، وأصل أسماء
الإشارة أن يستغني بها عن زيادة تبين المشار إليه تبيناً لفظياً لأن
الإشارة بيان. وقد عدل هنا عن بيان المشار إليه اكتفاء عنه بما هو
واقع عند الدعاء، فإن إبراهيم دعا دعوته وهو في الموضع الذي
بنى فيه الكعبة لأن الغرض ليس تفصيل حالة الدعاء إنما هو بيان
استجابة دعائه وفضيلة محل الدعوة وجعل مكة بلداً آمناً وورزق
أهله من الثمرات، وتلك عادة القرآن في الإعراض عما لا تعلق به
بالمقصود.

{بَلَدًا} «البلد» اسم لكل مكان مسكون سواء كان ذلك مدينة
كبيرة، أو مدينة صغيرة؛ كله يسمى بلداً؛ وقد سمي الله سبحانه

وتعالى مكة بلداً، كما في قوله تعالى: {وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ} [التين: ٣]؛ وسماها الله تعالى قرية، كما في قوله تعالى: {وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ} [محمد: ١٣]، وقوله {لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [الشورى: ٧].

{آمناً} وهو عند الإطلاق: عدم الخوف من عدو ومن قتال، وذلك ما ميز الله مكة به من بين سائر بلاد العرب.

ولقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوءة، فإن أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة ويقتضي العدل والعزة والرخاء إذ لا أمن بدونها، وهو يستتبع التعمير والإقبال على ما ينفع والثروة فلا يختل الأمن إلا إذا اختلت الثلاثة الأول وإذا اختل اختلت الثلاثة الأخيرة، وإنما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه على سكانه لتوطيد وسائل ما أراد له لذلك البلد من كونه منبع الإسلام.

{وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّمَرَاتِ} والتعريف في الثمرات تعريف الاستغراق وهو استغراق عرفي، أي: من جميع الثمرات المعروفة

للناس، ودليل كونه تعريف الاستغراق مجيء من التي للتبعيض، وفي هذا دعاء لهم بالرفاهية حتى لا تطمح نفوسهم للارتحال عنه.

{مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ} وخص إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصاً على شيوع الإيمان لساكنيه لأنهم إذا علموا أن دعوة إبراهيم خصت المؤمنين تجنبوا ما يحيد بهم عن الإيمان، فجعل تيسير الرزق لهم على شرط إيمانهم باعثاً لهم على الإيمان، أو أراد التأدب مع الله تعالى فسأله سؤالاً أقرب إلى الإجابة ولعله استشعر من رد الله عليه عموم دعائه السابق إذ قال: **{وَمَنْ ذُرِّيَّتِي}** فقال: **{لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}** أن غير المؤمنين ليسوا أهلاً لإجراء رزق الله عليهم، وقد أعقب الله دعوته بقوله: **{وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا}**.

{وَالْيَوْمَ الْآخِرُ} في الإيمان بالله إيماناً بالصانع الواجب الوجود، وبما يليق به تعالى من الصفات، وفي الإيمان باليوم الآخر إيمان بالثواب والعقاب المرتبين على الطاعة والمعصية اللذين هما مناط التكليف المستدعي مخبراً صادقاً به، وهم الأنبياء. فتضمن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالأنبياء، وبما جاؤا به. فلما كان الإيمان بالله واليوم الآخر يتضمن الإيمان بجميع ما يجب أن يؤمن به، اقتصر على ذلك، لأن غيره في ضمنه.

{قَالَ} الله تعالى {وَمَنْ كَفَرَ} إخبار من الله تعالى بما يكون مآل الكافر إليه من التمتع القليل والصيرورة إلى النار {فَأُتِّعَهُ} المتعة: ما يتبلغ به من الزاد، والمقصود التمتع في الدنيا.

{قَلِيلًا} القلة هنا تتناول الزمان، وتتناول عين الممتع به؛ فالزمن قصير: مهما طال بالإنسان العمر فهو قليل؛ قال الله عز وجل: {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ} [الأحقاف: ٣٥]؛ كذلك عين الممتع به قليل؛ كل ما يحصل للإنسان من هذه الدنيا من اللذة والمتاع قليل بالنسبة للآخرة، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال: (لَمَْوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا) [أحمد]؛ ومع قلته فهو مشوب بكدر سابق ولاحق.

{ثُمَّ أَضْطَرُّهُ} ألجئه {إِلَى عَذَابِ النَّارِ} احتراس من أن يغتر الكافر بأن تخويله النعم في الدنيا يؤذن برضى الله فلذلك ذكر العذاب هنا، ونظير هذه الآية قوله تعالى: {نُتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ} [لقمان: ٢٤]

{وَبُئْسَ الْمَصِيرُ} فالموت في الحرم لا يغني عن الكافر شيئاً.

فآل المعنى هنا إلى أن الله تعالى أظهر فضله على إبراهيم بأنه يرزق ذريته مؤمنهم وكافرهم، أو أظهر سعة رحمته برزق سكان مكة كلهم مؤمنهم وكافرهم.

{وَإِذْ} أذكر وقت **{يَرْفَعُ}** أتى بالمضارع لاستحضار الحال، حكايتها كأنها مشاهدة لأن المضارع دال على زمن الحال فاستعماله هنا استعارة تبعية، شبه الماضي بالحال لشهرته ولتكرر الحديث عنه بينهم فإنهم لحبهم إبراهيم وإجلالهم إياه لا يزالون يذكرون مناقبه وأعظمها بناء الكعبة فشبه الماضي لذلك بالحال.

{إِبْرَاهِيمُ} منقبة أخرى لإبراهيم عليه السلام، وتذكير بشرف الكعبة، ووسيلة ثالثة إلى التعريض بالمشركين، بعد قوله: **{رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً}** [البقرة: ١٢٨] الخ، وتمهيد للرد على اليهود إنكارهم استقبال الكعبة الذي يجيء عند قوله تعالى: **{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ}** [البقرة: ١٤٢]

{الْقَوَاعِدُ} وهل هي الأساس أو الجدر؟ فإن كانت الأساس، فرفعها بأن يبني عليها، فتنقل من هيئة الانخفاض إلى هيئة الارتفاع، وتتناول بعد التقاصر.

قال الزمخشري: ويجوز أن يكون المراد بها ساقات البناء، ويجوز أن يكون المعنى ما قعد من البيت، أي استوطىء، يعني جعل هيئة القاعدة المستوطأة مرتفعة عالية بالبناء.

وقال ابن عاشور: ورفع القواعد إبرازها من الأرض والاعتلاء بها لتصير جداراً لأن البناء يتصل ببعضه ببعض ويصير كالشيء الواحد، فالجدار إذا اتصل بالأساس صار الأساس مرتفعاً، ويجوز جعل القواعد بمعنى جدران البيت كما سموها بالأركان ورفعها إطالتها، وفد جعل ارتفاع جدران البيت تسعة أذرع.

{مِنَ الْبَيْتِ} ولم تضاف القواعد إلى البيت، فيكون الكلام «قواعد البيت»، لما في عدم الإضافة من الإيضاح بعد الإبهام وتفخيم شأن المبين.

{وإِسْمَاعِيلُ} كان إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة، وهو الابن البكر لإبراهيم عليه السلام وهو ولده من جاريته هاجر القبطية، ولد في أرض الكنعانيين، وكان إسماعيل مقيماً بمكة حول الكعبة، وتوفي بها.

{رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا} «رب» منادى حذف منه «يا» النداء؛ وأصله: يا ربنا؛ حذف «يا» النداء للبداءة بالمدعو المنادى - وهو الله -

ودعوا الله سبحانه وتعالى باسم «الرب»؛ لأن إجابة الدعاء من شأن الربوبية؛ لأنها خلق وإيجاد.

قالوا: ولم يكن المقصود إعطاء الثواب، لأن كون الفعل واقعاً موقع القبول من المخدم، ألد عند الخادم العاقل من إعطاء الثواب عليه، وسؤالهما التقبل بذلك.

{إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} تعليل لطلب التقبل منهما، ووسيلة توسل بها إبراهيم وولده لقبول دعائهما. وهذه الجملة مؤكدة بمؤكدتين؛ أحدهما: «إِنَّ»؛ والثاني: {أَنْتَ}.

وفيه أن المؤمن البصير في دينه يفعل الخير وهو خائف أن لا يقبل منه فيسأل الله تعالى ويتوسل إليه بأسمائه وصفاته أن يتقبله منه.

وهاتان الصفتان مناسبتان هنا غاية التناسب، إذ صدر منهما عمل وتضرع سؤال، فهو السميع لضراعتهما وتسألهما التقبل، وهو العليم بنياتهما في إخلاص عملهما.

وتقدّمت صفة السمع، وإن كان سؤال التقبل متأخراً عن العمل للمجاورة نحو قوله: **{يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ**

اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ وتأخرت صفة العليم لكونها فاصلة ولعمومها، إذ يشمل علم المسموعات وغير المسموعات.

وفي الآية إثبات السمع لله عزّ وجلّ؛ وينقسم السمع إلى قسمين: سمع بمعنى سماع الأصوات؛ وسمع بمعنى الإجابة؛ فمثال الأول قوله تبارك وتعالى: **{أَمْ يَحْسُبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}** [الزخرف: ٨٠]، وقوله تعالى: **{قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}** [المجادلة: ١]؛ ومثال الثاني قوله تعالى: **{إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}** [إبراهيم: ٣٩] أي مستجيب الدعاء؛ وكذلك قول المصلي: «سمع الله لمن حمده» - يعني استجاب لمن حمده -؛ والسمع الذي هو بمعنى سماع الأصوات من صفاته الذاتية؛ والسمع بمعنى الاستجابة من صفاته الفعلية؛ لأن الاستجابة تتعلق بمشيئته: إن شاء استجاب لمن حمده؛ وإن شاء لم يستجب؛ وأما سماع الأصوات فإنه ملازم لذاته - لم يزل، ولا يزال سميعاً -؛ إذ إن خلاف السمع الصمم؛ والصمم نقص؛ والله سبحانه وتعالى منزّه عن كل نقص؛ وكلا المعنيين يناسب الدعاء: فهو سبحانه وتعالى يسمع صوت الداعي، ويستجيب دعاءه.

والسمع - أعني سماع الأصوات - تارة يفيد تهديداً؛ وتارة يفيد إقراراً وإحاطة؛ وتارة يفيد تأييداً. يفيد تهديداً كما في قوله تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [آل عمران: ١٨١]، وقوله تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى} [الزخرف: ٨٠] ويفيد إقراراً وإحاطة، كما في قوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} [المجادلة: ١]؛ ويفيد تأييداً، كما في قوله تعالى لموسى وهارون: {قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦]

{رَبَّنَا} تكرير، إظهاراً للضراعة إلى الله تعالى **{وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ}** **{لَكَ}** منقادين إذ الإسلام الانقياد، أو مخلصين أوجهنا لك، من قوله: من أسلم وجهه، أي أخلص عمله، والمعنى: آدم لنا ذلك وثبتنا عليه، لأنهما كانا مسلمين من قبل كما دل عليه قوله: **{إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ}** [البقرة: ١٣١]، و «لك» تفيد جهة الإسلام، أي لك لا لغيرك.

أَلْهَمَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ اسْمَ الْإِسْلَامِ ثُمَّ ادْخَرَهُ بَعْدَهُ لِلدِّينِ الْمَحْمُودِيِّ،
فَنَسِيَ هَذَا الْاسْمَ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ وَلَمْ يَلْقَبْ بِهِ دِينَ آخَرَ لِأَنَّ اللَّهَ أَرَادَ
أَنْ يَكُونَ الدِّينُ الْمَحْمُودِيُّ إِتِمَامًا لِلْحَنِيفِيَّةِ دِينِ إِبْرَاهِيمَ.

{وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا} دَعَاءٌ بَقَاءَ دِينِهِمَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا، وَ «مِنْ»
لِلتَّبَعِيضِ، وَإِنَّمَا سَأَلَ ذَلِكَ لِبَعْضِ الذَّرِيَّةِ جَمْعًا بَيْنَ الْحَرَصِ عَلَى
حَصُولِ الْفَضِيلَةِ لِلذَّرِيَّةِ وَبَيْنَ الْأَدَبِ فِي الدَّعَاءِ لِأَنَّ نُبُوَّةَ إِبْرَاهِيمَ
تَقْتَضِي عِلْمَهُ بِأَنَّهُ سَتَكُونُ ذُرِّيَّتُهُ أَمَّا كَثِيرَةٌ وَأَنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ فِي هَذَا
الْعَالَمِ جَرَتْ عَلَى أَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ اِشْتِمَالِهِ عَلَى الْأَخْيَارِ وَالْأَشْرَارِ
فَدَعَا اللَّهَ بِالْمُمْكِنِ عَادَةً وَهَذَا مِنْ أَدَبِ الدَّعَاءِ.

وَقِيلَ: لَمَّا تَقَدَّمَ الْجَوَابُ لَهُ بِقَوْلِهِ: **{لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ}**،
عَلِمَ أَنَّ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا الظَّالِمَ وَغَيْرِ الظَّالِمِ، فَدَعَا هُنَا بِالتَّبَعِيضِ لَا
بِالتَّعْمِيمِ فَقَالَ: **{وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا}**، وَخَصَّ ذُرِّيَّتَهُ بِالدَّعَاءِ لِلشَّفَقَةِ وَالْحَنَوِّ
عَلَيْهِمْ، وَلِأَنَّ فِي صَلَاحِ نَسْلِ الصَّالِحِينَ نَفْعًا كَثِيرًا لِمَتَّبِعِهِمْ، إِذْ
يَكُونُونَ سَبَبًا لَصَلَاحِ مَنْ وَرَاءَهُمْ.

وَالذَّرِيَّةُ هُنَا، قِيلَ: أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، بِدَلِيلِ
قَوْلِهِ: **{وَابْعَثْ فِيهِمْ}**. وَقِيلَ: هُمُ الْعَرَبُ، لِأَنَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا.

قال القفال: لم يزل في ذريتهما من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً، ولم تزل الرسل عليهم الصلاة والسلام من ذريتهما.

{أُمَّةٌ} الجماعة العظيمة التي يجمعها جامع له بال من نسب أو دين أو زمان.

{مُسْلِمَةٌ لَكَ} هذه الأمة هي أمة محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ لأنه لا يصدق على أحد أنه من ذرية إبراهيم وإسماعيل إلا أمة محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ لأن اليهود، والنصارى ليسوا من بني إسماعيل؛ بل من بني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

وقد استجيب دعوة إبراهيم وإسماعيل في المسلمين من العرب الذين تلاحقوا بالإسلام قبل الهجرة وبعدها حتى أسلم كل العرب إلا قبائل قليلة لا تنخرم بهم جامعة الأمة.

{وَأَرَنَا مَنَاسِكَنَا} أعمال الحج والمواقف، وروي عن علي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أن إبراهيم لما فرغ من بناء البيت ودعا بهذه الدعوة، بعث الله إليه جبريل عليه السلام، فحج به.

{وَتُبَّ عَلَيْنَا} أي وفقنا للتوبة فنتوب؛ والتوبة من العبد: هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة؛ ومن الله عز وجل: هي توفيق العبد للتوبة، ثم قبولها منه.

قال ابن عطية: "وأجمعت الأمة على عصمة الأنبياء في معنى التبليغ، ومن الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة، واختلف في غير ذلك من الصغائر". كما أن المرء لا يخلو من تقصير.

{إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ} صيغة مبالغة لكثرة من يتوب الله عليهم، وكثرة توبته على العبد نفسه **{الرَّحِيمُ}** وهاتان الصفتان مناسبتان لأنهما دعوا بأن يجعلهما مسلمين ومن ذريتهما أمة مسلمة، وبأن يريهما مناسكهما، وبأن يتوب عليهما.

وناسب تقديم ذكر التوبة على الرحمة، لمجاورة الدعاء الأخير في قوله: **{وتب علينا}**.

وتأخرت صفة الرحمة لعمومها، لأن من الرحمة التوبة، ولكنها فاصلة. والتواب لا يناسب أن تكون فاصلة هنا، لأن قبلها **{إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}**، وبعدها: **{إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}**.

{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ} لما دعا ربه بالأمن لمكة، وبالرزق لأهلها، وبأن يجعل من ذريته أمة مسلمة، ختم الدعاء لهم بما فيه سعادتهم دنيا وآخرة، وهو بعثة محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فيهم، فشمّل دعاؤه لهم الأمن والخصب والهداية والتشريف.

ولم يقل «لهم» لتكون الدعوة بمجيء رسول برسالة عامة فلا يكون ذلك الرسول رسولا إليهم فقط. كما أن كون الرسول {منهم} أقرب إلى قبول دعوته لأنهم يعرفونه، كما قال تعالى: {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى} [النجم: ٥٣]، حيث أضافه إليهم؛ يعني: صاحبكم - الذي تعرفونه، وتعرفون رجاحة عقله، وتعرفون أمانته - ما ضل، وما غوى.

ولا خلاف أنه رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وضح عنه أنه قال: (أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ). ولم يبعث الله تعالى إلى مكة وما حولها إلا هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فمظهر هذه الدعوة هو محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فإنه الرسول الذي هو من ذرية إبراهيم وإسماعيل كليهما، وأما غيره من رسل غير العرب فليسوا من ذرية إسماعيل، وشعيب من ذرية إبراهيم وليس من ذرية إسماعيل، وهود وصالح هما من العرب العاربة فليسا من ذرية إبراهيم ولا من ذرية إسماعيل.

{يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ} وفي هذا إيماء إلى أنه يأتيهم بكتاب فيه شرع، وجيء بالمضارع في قوله: {يتلوا} للإشارة إلى أن هذا الكتاب تتكرر تلاوته.

والمعنى: يفصح لهم عن ألفاظه ويوقفهم بقراءته على كيفية تلاوته، كما قال -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأبي بِنِ كَعْبٍ -رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ-: (إِنَّ اللّهُ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) [البخاري]، وذلك لأن يتعلم أبي منه -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كيفية أداء القرآن ومقاطعته ومواصلة.

{وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ} القرآن، أي يبين لهم وجوه أحكامه: حلاله وحرامه، ومفروضة، ومسنونه، ومواظظه، وأمثاله، وترغيه، وترهيبه، والحشر، والنشر، والعقاب، والثواب، والجنة والنار.

{وَالْحِكْمَةَ} هي العلم بالله ودقائق شرائعه، وهي معاني الكتاب وتفصيل مقاصده، وعن مالك: الحكمة معرفة الفقه والدين والاتباع لذلك، وعن الشافعي: الحكمة سنة رسول الله صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالسنة تبين ما في الكتاب من المجمل، وتوضح ما أنبهم من المشكل، وتفصح عن مقادير وعن إعداد مما لم يتعرض الكتاب إليه، ويثبت أحكاماً لم يتضمنها الكتاب.

جاء ذكر الحكمة في القرآن الكريم في عدة مواضع، ولكل موضع تفسير، فمن معاني الحكمة في القرآن:

١ . الحكمة بمعنى السنة: فقد فسر كثير من المفسرين الحكمة الواردة في قوله تعالى: **{وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}**، بالسنة النبوية، ذكر ذلك ابن جرير وابن كثير والبيضاوي والشوكاني والبعثي وغيرهم، ومما يؤيد هذا التفسير ذكر الكتاب مقروناً بها في الآية، والمراد به القرآن، وهناك أقوال أخرى في الحكمة ذكرها ابن جرير بعد تصديره بتفسير الحكمة بالسنة، فقال: وقال بعضهم: الحكمة، هي المعرفة بالدين والفقه فيه، وقيل: الحكمة شيء يجعله الله في القلب ينور له به.

قال أبو جعفر: والصواب من القول عندنا في الحكمة أنها العلم بأحكام الله التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، والمعرفة بها، وما دل عليه ذلك من نظائره، وهو عندي مأخوذ من الحكم الذي بمعنى الفصل بين الحق والباطل، بمنزلة الجلسة والقعدة من الجلوس والقعود، يقال منه: إن فلاناً لحكيم بين الحكمة، يعني به: إنه لبين الإصابة في القول والفعل.

٢ . الحكمة بمعنى إصابة الحق بالعلم والعقل، أو هي وضع الشيء في موضعه، فهي في الرأي سداد، وفي القول صواب، وفي الفعل استقامة، والشخص الذي عنده هذه المعاني يكون موفقاً

وسعيداً في دنياه وأخراه، كما قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} [البقرة: ٢١٩]. ومنهم الأنبياء ومن على شاكلتهم، كقوله سبحانه في لقمان: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ} [لقمان: ١٢]. وهي المطلوبة في قوله تعالى: {اذْغُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥].

{وَيُزَكِّيهِمْ} يطهر أرواحهم ويكمل عقولهم ويهذب أخلاقهم بما يعلمهم من الكتاب والحكمة، وما بينه لهم من ضروب الطاعات.

باطناً من أرجاس الشرك وأنجاس الشك، وظاهراً بالتكاليف التي تمحص الآثام وتوصل الإنعام.

وقد جاء ترتيب هذه الجمل في الذكر على حسب ترتيب وجودها لأن أول تبليغ الرسالة تلاوة القرآن ثم يكون تعليم معانيه، قال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} [القيامة: ١٨/١٩]، ثم العلم تحصل به التزكية وهي في العمل بإرشاد القرآن.

{إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ} القاهر الغالب، فالله تعالى الغالب الذي لا يغلب، أو المنيع الذي لا يرام، أو الذي لا يعجزه شيء، أو الذي لا مثل له، أو المنتقم، أو القوي، ومنه **{فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ}** [يس: ١٤]، أو المعز ومنه: **{وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ}**.

{الْحَكِيمُ} في صنعه وتديره بوضع كل شيء في موضعه .. تذييل لتقريب الإجابة أي لأنك لا يغلبك أمر عظيم ولا يعزب عن علمك وحكمتك شيء.

وهاتان الصفتان متناسبتان لما قبلهما، لأن إرسال رسول متصف بالأوصاف التي سألها إبراهيم لا تصدر إلا عن اتصف بالعزة، وهي الغلبة أو القوة، أو عدم النظر، وبالحكمة التي هي إصابة مواقع الفعل، فيضع الرسالة في أشرف خلقه وأكرمهم عليه، والله أعلم حيث يجعل رسالاته.

وتقدّمت صفة العزيز على الحكيم لأنها من صفات الذات، والحكيم من صفات الأفعال، ولكون الحكيم فاصلة كالفواصل قبلها.

وفي هذه الآيات الثلاث توسل إبراهيم وإسماعيل بالجميل
التالية: {إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}. {إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}.
{إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ
اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ
(١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ
(١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ
اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢)
أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا
تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَالَّهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)
تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا
تُسْأَلُونَ عَنْهَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤)

{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ} «رغب عنه»: تركه واجتنبه، و«رغب فيه»:
طلبه {مِلَّةٍ} دين {إِبْرَاهِيمَ} ودين إبراهيم عليه السلام أنه كان

حنيفاً مسلماً لله، ولم يكن من المشركين، وهو النبي المجمع على محبته من سائر الطوائف، فهو أبو العرب والإسرائيليين، وأبو الأنبياء، وهو الخليل -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وأشرفهم بعد رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وجعله الله إماماً، كما قال الله تعالى: **{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** [النحل: ١٢٠]، وجعل ملته هي الملة الحنيفية؛ فإذا كان كذلك فلا أحد يرغب عن الملة الحنيفية القويمة.

{إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} امتهناها واستخف بها، وأصل السفه: الخفة ضد الرشد، ومنه السفاهة في الفعل وهو ارتكاب أفعال لا يرضى بها أهل المروءة، والسفه في المال وهو إضاعته وقلة المبالاة به وسوء تنميته. وسفهه بمعنى استخفه وأهانته لأن الاستخفاف ينشأ عنه الإهانة، وسفه صار سفيهاً.

والمعنى: لا أحد يرغب عن دين إبراهيم إلا من خف عقله، فمعناه النفي العام. فالمخالفين للرسول سفهاء؛ كما قال تعالى في المنافقين: **{أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ}** [البقرة: ١٣]، وقوله تعالى: **{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا}** [البقرة: ١٤٢]؛ فإنهم - وإن كانوا أذكىاء، وعندهم

علم بالصناعة، والسياسة - هم في الحقيقة سفهاء؛ لأن العاقل هو الذي يتبع ما جاءت به الرسل فقط.

قال ابن عاشور: موقع هاته الآيات من سوابقها موقع النتيجة بعد الدليل، فإنه تعالى لما بين فضائل إبراهيم من قوله: **{وَإِذِ ابْتَلَىٰ}** إلى هنا، علم أن صاحب هاته الفضائل لا يعدل عن دينه والاقتداء به إلا سفيه العقل أفن الرأي، فمقتضى الظاهر أن تعطف على سوابقها بالفاء وإنما عدل من الفاء إلى الواو ليكون مدلول هذه الجملة مستقلاً بنفسه في تكميل التنويه بشأن إبراهيم، وفي أن هذا الحكم حقيق بملة إبراهيم من كل جهة لا من خصوص ما حكى عنه في الآيات السالفة، وفي التعريض بالذين حادوا عن الدين الذي جاء متضمناً لملة إبراهيم، والدلالة عن التفريع لا تفوت لأن وقوع الجملة بعد سوابقها متضمنة هذا المعنى دليل على أنها نتيجة لما تقدم، كما تقول: "أحسن فلان تدبير المهم، وهو رجل حكيم" ولا تحتاج إلى أن تقول: فهو رجل حكيم.

{وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ} اخترناه، وجعلناه صفيّاً من الخلق.. معطوفة على الجمل التي قبلها الدالة على رفعة درجة إبراهيم عند الله تعالى **{فِي الدُّنْيَا}** واصطفأؤه كان بالرسالة والخلة والكلمات التي وفي

ووصى بها، وبناء البيت، والإمامة، واتخاذ مقامه مصلى، وتطهير البيت، والنجاة من نار نمرود، والنظر في النجوم، وأذانه بالحج، وإراءته مناسكه، إلى غير ذلك مما ذكر الله في كتابه، من خصائصه ووجوه اصطفائه.

{وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمَنِ الصَّالِحِينَ} ذكر تعالى كرامة إبراهيم في الدارين، بأن كان في الدنيا من صفوته، وفي الآخرة من المشهود له بالاستقامة في الخير، ومن كان بهذه الصفة فيجب على كل أحد أن لا يعدل عن ملته.

قال في البحر المحيط: وهاتان الجملتان مؤكدتان، أما الأولى فباللام، وأما الثانية فبأن وباللام. ولما كان إخباراً عن حالة مغيبة في الآخرة، احتاجت إلى مزيد تأكيد، بخلاف حال الدنيا، فإن أرباب المآل قد علموا اصطفاء الله له في الدنيا بما شاهدوه منه ونقلوه جيلاً بعد جيل. وأما كونه في الآخرة من الصالحين، فأمر مغيب عنهم يحتاج فيه إلى إخبار من الله تعالى، فأخبر الله به مبالغاً في التوكيد.

ولما كانت الدنيا دار شهوات وابتلاء؛ فلا يصبر عن هذه الشهوات، ولا على هذا الابتلاء إلا واحد دون الآخر؛ فإذا أخلص

الإنسان نفسه لله صار صفوة من عباد الله؛ والآخرة ليست هكذا؛ ففي الآخرة حتى الكفار يؤمنون؛ ولكن الفرق بين من يكون من الصالحين، وغير الصالحين؛ لأنهم إذا عرضوا على النار قيل لهم: {أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا} [الأنعام: ٣٠]، وقيل لهم: {أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى} [غافر: ٥٠]؛ وقالوا: {قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} [يس: ٥٢] ... وهكذا ما يدل على أنهم مؤمنون؛ لكنهم ليسوا من الصالحين.

{إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ} هذا من الالتفات، إذ لو جرى على الكلام السابق، لكان: إذ قلنا له أسلم {أَسْلِمَ} انقذ لأمرنا ونهينا فاعبُدنا وحدنا ولا تلتفت إلى غيرنا، ومن معان جماعها: التوحيد، والبراءة من الحول والقوة، وإخلاص الطاعة. وهذا من الشناء على إبراهيم عليه السلام.

والأكثرون على أنه قيل له ذلك قبل النبوة، وقبل البلوغ، وذلك عند استدلاله بالكوكب والقمر والشمس، وإطلاعه على أمارات الحدوث فيها، وإحاطته بافتقارها إلى مدبر يخالفها في الجسمية، وأمارات الحدوث، فلما عرف ربه، قال تعالى له أسلم.

{قَالَ أَسْلَمْتُ} مشعر بأنه بادر بالفور دون تريث كما اقتضاه وقوعه جواباً، وأنه لما أوحى الله إليه بالإيمان صادف ذلك عقلاً راشداً **{لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** فيه الإشارة إلى أن الخلق من آيات الله؛ لأنهم سُمّوا «عالمين»، حيث إنهم عَلم على خالقهم، والرب هو الذي يستحق أن يُسَلَمَ له لأنه الخالق؛ ولهذا أنكر الله سبحانه وتعالى عبادة الأصنام، وبَيَّن علة ذلك بأنهم لا يخلقون؛ قال تعالى: **{وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}** [النحل: ٢٠/٢١]؛ فتبين بهذا مناسبة ذكر الإسلام مقروناً بالربوبية.

وفي العموم من الفخامة ما لا يكون في الخصوص، لذلك عدل عن أن يقول: "أسلمت لربي"، ومن كان رباً للعالمين ينبغي أن يكون جميعهم مسلمين له منقادين.

{وَوَصَّى} الوصية: العهد، وصى بنيه: أي عهد إليهم وتقدم إليهم بما يعمل به مقترباً بوعظ. ووصى وأوصى لغتان، إلا أنهم قالوا: إن وصى المشدد يدل على المبالغة والتكثير.

قال ابن عاشور: والإيصاء أمر أو نهى يتعلق بصلاح المخاطب خصوصاً أو عموماً، وفي فوته ضرر، فالوصية أبلغ من مطلق أمر

ونهي فلا تطلق إلا في حيث يخاف الفوات إما بالنسبة للموصي،
ولذلك كثر الإيصاء عند توقع الموت.

{بَهَا} ملة الإسلام القائمة على التوحيد **{إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ}** وبنو
إبراهيم ثمانية: إسماعيل وهو أكبر بنيه وأمه هاجر، وإسحاق وأمه
سارة وهو ثاني بنيه، والباقي أمهم قطورة التي تزوجها إبراهيم بعد
موت سارة **{وَيَعْقُوبُ}** ابن إسحاق من زوجه رفقة الأرامية تزوجها
سنة ست وثلاثين وثمانمائة وألف قبل المسيح في حياة جده
إبراهيم، فكان في زمن إبراهيم رجلاً، ولقب بإسرائيل، وهو جد
جميع بني إسرائيل، ومات يعقوب بأرض مصر سنة تسع وثمانين
وتسعمائة وألف قبل المسيح ودفن بمغارة المكفلية بأرض كنعان
بلد الخليل حيث دفن جده وأبوه عليهم السلام.

وعطف يعقوب على إبراهيم هنا إدماج مقصود به تذكير بني
إسرائيل "الذي هو يعقوب" بوصية جدهم، فكما عرض بالمشركون
في إعراضهم عن دين أوصى به أبوهم، عرض باليهود كذلك لأنهم
لما انتسبوا إلى إسرائيل وهو يعقوب الذي هو جامع نسبهم بعد
إبراهيم لتقام الحجة عليهم بحق اتباعهم الإسلام.

{يَا بَنِيَّ} ناداهم بوصف النبوة ترفقاً معهم ليكون أدعى إلى القبول **{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى}** اختار **{لَكُمْ الدِّينَ}** الكامل، وفيه إشارة إلى أنه اختاره لهم من بين الأديان، وأنه فضلهم به لأن اصطفي لك يدل على أنه ادخره لأجله، وأراد به دين الحنيفية الإسلام، فلذلك قال **{فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}** نهى عن مفارقة الإسلام -ملة إبراهيم- في جميع أوقات حياتهم، وذلك كناية عن ملازمته مدة الحياة لأن الحي لا يدري متى يأتيه الموت، فنهى أحد عن أن يموت غير مسلم وأمر بالاتصاف بالإسلام في جميع أوقات الحياة، والمراد من مثل هذا النهي شدة الحرص على ترك المنهي.

ولما كان من شأن أهل الحق والحكمة أن يكونوا حريصين على صلاح أنفسهم وصلاح أمتهم كان من مكملات ذلك أن يحرصوا على دوام الحق في الناس متبعا مشهورا فكان من سننهم التوصية لمن يظنونهم خلفا عنهم في الناس بأن لا يحيدوا عن طريق الحق ولا يفرطوا فيما حصل لهم منه، فإن حصوله بمجاهدة نفوس ومرور أزمان فكان لذلك أمرا نفيسا يجدر أن يحتفظ به.

{أَمْ كُنْتُمْ} استفهام استنكاري المخاطب به اليهود الذين ادعوا أن يعقوب مات على اليهودية وأوصى بها فلزمت ذريته، فكان موقع

الإنكار على اليهود واضحاً وهو أنهم ادعوا ما لا قبل لهم بعلمه إذ لم يشهدوا.

{شُهَدَاء} جمع شهيد بمعنى الشاهد أي الحاضر للأمر والشأن، ووجه دلالة نفي المشاهدة على نفي ما نسبوه إلى يعقوب هو أن تنبيههم إلى أنهم لم يشهدوا ذلك يثير في نفوسهم الشك في معتقدهم.

{إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ} إسرائيل بن إسحاق بن إبراهيم {الْمَوْتُ} وهو وقت التعجيل بالحرص على إبلاغ النصيحة في آخر ما يبقى من كلام الموصي فيكون له رسوخ في نفوس الموصين، أخرج أبو داود والترمذي عن العرياض بن سارية قال وعظنا رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا الحديث.

{إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ} هم الأسباط [وهو ابن الابن أي الحفيد] أي أسباط إسحاق، ومنهم تشعبت قبائل بني إسرائيل، وهم اثنا عشر ابناً، وقد أخبر القرآن بأن جميعهم صاروا أنبياء وأن يوسف كان رسولا **{مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي}** جاء يعقوب في وصيته بأسلوب الاستفهام لينظر مقدار ثباتهم على الدين حتى يطلع على خالص

طويتهم ليلقي إليهم ما سيوصيهم به من التذكير، وجيء في السؤال بما الاستفهامية دون «من» لأن ما هي الأصل عند قصد العموم لأنه سألهم عما يمكن أن يعبدوا العابدون.

{قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ} معرّفاً بالإضافة دون الاسم العلم بأن يقول نعبد الله لأن إضافة إله إلى ضمير يعقوب وإلى آباءه تفيد جميع الصفات التي كان يعقوب وآباؤه يصفون الله بها فيما لقنه منذ نشأتهم، ولأنهم كانوا سكنوا أرض كنعان وفلسطين مختلطين ومصاهرين لأمم تعبد الأصنام من كنعانيين وفلسطينيين وحثيين وآراميين ثم كان موت يعقوب في أرض الفراعنة وكانوا يعبدون آلهة أخرى. وأيضاً فمن فوائد تعريف الذي يعبدونه بطريق الإضافة إلى ضمير أبيهم وإلى لفظ آباءه أن فيها إيماء إلى أنهم مقتدون بسلفهم.

{وَالِلَّهِ آبَائُكَ} إعادة المضاف مع المعطوف على المضاف إليه أفصح في الكلام. وفيه أن النفوس مجبولة على اتباع الآباء؛ لكن إن كان على حق فهو حق؛ وإن كان على باطل فهو باطل؛ لقولهم: **{وَالِلَّهِ آبَائُكَ}**؛ ولهذا الذين حضروا وفاة أبي طالب قالوا له: أترغب عن ملة عبد المطلب.

{إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ} وهو عم ليعقوب فهو إطلاق من باب التغليب، ولأن العم بمنزلة الأب.

قال ابن عثيمين: الإشكال في عدّهم إسماعيل من آبائه مع أنه عمهم؛ فيقال كما قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لعمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: (أَمَّا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنُّ أَبِيهِ) [مسلم]؛ و«الصنو» الغصنان أصلهما واحد؛ فذكر مع الآباء؛ لأن العم صنو الأب؛ وكما قال الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (الْخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ) [البخاري]؛ كذلك نقول: العم بمنزلة الأب؛ وقيل: إن هذا من باب التغليب، وأن الأب لا يطلق حقيقة على العم إلا مقروناً بالأب الحقيقي؛ وعلى هذا فلا يكون فيها إشكال إطلاقاً؛ لأن التغليب سائغ في اللغة العربية، فيقال: «القمران»؛ والمراد بهما الشمس والقمر؛ ويقال: «العُمران»؛ وهما أبو بكر، وعمر.

{وَإِسْحَاقَ} في الإتيان بعطف البيان ضرب من محسن الاطراد تنويهاً بأسماء هؤلاء الأسلاف **{إِلَهاً}** أعيد لفظ إلها ولم يقتصر على وصف واحد لزيادة الإيضاح لأن المقام مقام إطناب ففي الإعادة تنويه بالمعاد وتوكيد لما قبله **{وَاحِداً}** توضيح لصفة الإله الذي يعبدونه **{وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}**

والآية تفصيل لوصية يعقوب بأنه أمر أبناءه أن يكونوا على ملة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وهي نظير ما وصى به إبراهيم بنيه، فأجمل هنا اعتمادا على ما صرح به في قوله سابقا: **{يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}** [البقرة: ١٣٢] وهذا تنويه بالحنيفية التي هي أساس الإسلام، وتمهيد لإبطال قولهم: **{كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا}** [البقرة: ١٣٥] وإبطال لزعمهم أن يعقوب كان على اليهودية، وأنه أوصى بها بنيه فلزمت ذريته فلا يحولون عنها.

{تِلْكَ} إشارة إلى إبراهيم ويعقوب وأبنائهما، باعتبار أنهم جماعة وباعتبار الإخبار عنهم باسم مؤنث لفظه وهو «أمة» **{أُمَّةٌ}** «الأمة» هنا بمعنى طائفة؛ وتطلق في القرآن على عدة معانٍ؛ المعنى الأول: «الطائفة»، كما هنا؛ المعنى الثاني: «الحقبة من الزمن»، مثل قوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ}** [يوسف: ٤٥] يعني: بعد حقبة من الزمن؛ والمعنى الثالث: «الإمام»، مثل قوله تعالى: **{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً}** [النحل: ١٢٠]؛ والمعنى الرابع: «الطريق، والملة»، مثل قوله تعالى: **{إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ}** [الزخرف: ٢٢]

{قَدْ خَلَتْ} مضت وماتت وانقضت وصارت إلى الفراغ والخلاء، وهو الأرض الذي لا أنيس به، والخبر هنا كناية عن عدم انتفاع غيرهم بأعمالهم الصالحة وإلا فإن كونها خلت مما لا يحتاج إلى الإخبار به.

والمخاطب هم اليهود والنصارى الذين ادّعوا لإبراهيم وبنيه اليهودية والنصرانية، وفيه: أن الاعتماد على أعمال الآباء لا يجدي شيئاً **{لَهَا مَا كَسَبَتْ}** من الخير **{وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ}** فالتمسح بأعتاب الماضين والتشبث بالنصب الفارغة إلى الأولين غير مجد لهم ولا نافع، فليقبلوا على إنقاذ أنفسهم من الجهل والكفر بالإيمان والإسلام والإحسان، أما من مضوا فهم أمة قد أفضوا إلى ما كسبوا وسيجزون به، وأنتم لكم ما كسبتم وستجزون به، ولا تجزون بعمل غيركم ولا تسألون عنه. فإنهم لغرورهم يزعمون أن ما كان لأسلافهم من الفضائل يزيل ما ارتكبوه هم من المعاصي أو يحمله عنهم أسلافهم.

وفي الآية دلالة على بطلان قول من يقول بجواز تعذيب أولاد المشركين بذنوب آبائهم. وفي الآية قبلها دلالة على أن الأبناء يثابون على طاعة الآباء.

{وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} جملة توكيدية لما قبلها، لأنه

قد أخبر بأن كل أحد مختص بكسبه من خير، وإذا كان كذلك، فلا يسأل أحد عن عمل أحد. فكما أنه لا ينفعكم حسناتهم، فكذلك لا تسألون ولا تؤاخذون بسيئات من اكتسبها.

وفيه أن الآخر لا يسأل عن عمل الأول؛ ولكن الأول قد يسأل عن عمل الآخر، كما قال تعالى: **{وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ}** [القصص: ٤١]؛ فقد يكون الأول صاحب بدعة، ويُتَّبَع على بدعته؛ فيكون دالاً على ضلالة؛ فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ لكن الآخر لا يسأل عن عمل الأول؛ ولهذا جاء في الحديث الذي رواه البخاري عن عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَفْضَوْا إِلَى مَا قَدَّمُوا).

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ

النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا
وَأِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ
صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٦)

{وَقَالُوا} رؤساء اليهود والنصارى **{كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى}**
«أو» هنا للتفصيل، والمعنى: وقالت اليهود كونوا هوداً، وقالت
النصارى: كونوا نصارى، فالمجموع قالوا للمجموع، لا أن كل فرد
أمر باتباع أي الملتين. إذ معلوم أن اليهودي لا يأمر بالنصرانية، ولا
النصراني يأمر باليهودية **{تَهْتَدُوا}** تصيبوا طريق الحق وتكونوا
مهتدين.

فبعد أن ذمهم الله تعالى بالعدول عن تلقي الإسلام الذي شمل
خصال الحنيفية، بين كيفية إعراضهم ومقدار غرورهم بأنهم حصروا
الهدى في اليهودية والنصرانية أي كل فريق منهم حصر الهدى في
دينه.

وفيه: أن أهل الباطل يدعون إلى ضلالهم، ويدعون فيه الخير،
وهكذا أيضاً قد ورث هؤلاء اليهود والنصارى من ضل من هذه

الأمة، كأهل البدع في العقيدة، والقدر، والإيمان - الذين ادعوا أنهم على حق، وأن من سلك طريقهم فقد اهتدى؛ لما رواه الإمام أحمد عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِثْلًا بِمِثْلِ)

فكل داع إلى ضلال ففيه شبه من اليهود والنصارى؛ دعاة السفور الآن يقولون: اتركوا المرأة تتحرر؛ اتركوها تبتهج في الحياة؛ لا تقيدوها بالغطاء، وترك التبرج، ونحو ذلك؛ أعطوها الحرية؛ وهكذا كل داع إلى ضلالة سوف يطلي هذه الضلالة بما يغر البليد فهو شبيه باليهود والنصارى.

{قُلْ بَلْ مِلَّةٌ} دين {إِبْرَاهِيمَ} وإنما خص إبراهيم دون غيره من الأنبياء، وإن كانوا كلهم مائلين إلى الحق، مستقيمي الطريقة حنفاء، لأن الله اختص إبراهيم بالإمامة، لما سنه من مناسك الحج والختان، وغير ذلك من شرائع الإسلام، مما يقتدى به إلى قيام الساعة.

{حَنِيفًا} الحنف بالتحريك وهو الميل في الرجل، والمراد الميل في المذهب، لأن الذي به حنف يميل في مشيه عن الطريق

المعتاد. وإنما كان هذا مدحا للملة لأن الناس يوم ظهور ملة إبراهيم كانوا في ضلالة عمياء فجاء دين إبراهيم مائلا عنهم فلقب بالحنيف ثم صار الحنيف لقب مدح بالغلبة.

وصارت الحنيفية علماً مميزاً بين المؤمن والكافر. وسمي بالحنيف: من اتبعه واستقام على هديه، وسمي المنكث على ملته بسائر أسماء الملل، ف قيل: يهودي ونصراني ومجوسي، وغير ذلك من ضروب النحل.

{وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} وكانت العرب ممن تدين بأشياء من دين إبراهيم، ثم كانت تشرك، فنفي الله عن إبراهيم أن يكون من المشركين.

قال ابن عاشور: وهو احتباس لئلا يغتر المشركون بقوله: **{بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ}** أي لا نكون هودا ولا نصارى فيتوهم المشركون أنه لم يبق من الأديان إلا ما هم عليه لأنهم يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، وإلا فليس ذلك من المدح له بعد ما تقدم من فضائله. وقيل: في الآية تعريض بأهل الكتاب وغيرهم، لأن كلاً منهم يدعي اتباع إبراهيم، وهو على الشرك، قاله الزمخشري.

فإشراك اليهود بقولهم: عزيز ابن الله، وإشراك النصارى بقولهم: المسيح ابن الله، وإشراك غيرهما بعبادة الأوثان وغيرها.

وقال ابن عثيمين: اليهودية والنصرانية نوع من الشرك؛ لأن قوله تعالى: {وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} في مقابل دعوتهم إلى اليهودية والنصرانية يدل على أنهما نوع من الشرك؛ كل من كفر بالله ففيه نوع من الشرك؛ لكن إن اتخذ إلهاً فهو شرك حقيقة وواقعاً؛ وإلا فإنه شرك باعتبار اتباع الهوى.

{قُولُوا} الخطاب للرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وأُمته جميعاً، والمقصود من الأمر بهذا القول الإعلان به والدعوة إليه لما يشتمل عليه من الفضيلة الظاهرة بحصول فضيلة سائر الأديان لأهل هاته الملة، ولما فيه من الإنصاف وسلامة الطوية، ليرغب في ذلك الراغبون ويكمد عند سماعه المعاندون.

{آمَنَّا بِاللَّهِ} وقدم الإيمان بالله لأنه أصل الشرائع فلا يختلف باختلاف الشرائع الحق، ثم عطف عليه الإيمان بما أنزل من الشرائع.

روى البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَأُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ
الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْكُمْ) الْآيَةَ

قال الحافظ ابن حجر في "فتح الباري":

"(لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ) أَيُّ: إِذَا كَانَ مَا
يُخْبِرُونَكُمْ بِهِ مُحْتَمَلًا؛ لِئَلَّا يَكُونَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ صِدْقًا فَتُكَذِّبُوهُ،
أَوْ كَذِبًا فَتُصَدِّقُوهُ، فَتَقَعُوا فِي الْحَرَجِ.

وَلَمْ يَرِدِ النَّهْيُ عَنْ تَكْذِيبِهِمْ، فِيمَا وَرَدَ [أَيُّ: شَرَعْنَا] بِخِلَافِهِ،
وَلَا عَنْ تَصَدِيقِهِمْ فِيمَا وَرَدَ شَرَعْنَا بِوَفَائِهِ. نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ الشَّافِعِيُّ
رَحِمَهُ اللَّهُ.

وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ التَّوَقُّفُ عَنِ الْخَوْضِ فِي الْمَشْكَلَاتِ،
وَالْجَزْمُ فِيهَا بِمَا يَقَعُ فِي الظَّنِّ، وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ مَا جَاءَ عَنِ
السَّلَفِ مِنْ ذَلِكَ " انتهى.

وقال علي القاري في "مرقاة المفاتيح": (لَا تُصَدِّقُوا): أَيُّ فِيمَا
لَمْ يَتَبَيَّنْ لَكُمْ صِدْقُهُ لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ كَذِبًا، وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنْ
أَحْوَالِهِمْ (أَهْلَ الْكِتَابِ)، أَيُّ: الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، لِأَنَّهُمْ حَرَّفُوا
كِتَابَهُمْ، (وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ): أَيُّ فِيمَا حَدَّثُوا مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَلَمْ

يَتَبَيَّنْ لَكُمْ كَذِبُهُ، لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ صِدْقًا، وَإِنْ كَانَ نَادِرًا؛ لِأَنَّ
الْكُذُوبَ قَدْ يَصْدُقُ.

وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى التَّوَقُّفِ فِيمَا أُشْكِلُ مِنَ الْأُمُورِ وَالْعُلُومِ، فَلَا
يُقْضَى بِجَوَازٍ وَلَا بِطُلَانٍ، وَعَلَيْهِ السَّلَفُ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: لَا أَدْرِي
فِيمَا يُسْأَلُونَ عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ. وَمِنْ ثَمَّ قَالُوا: مَنْ أَخْطَأَ لَا أَدْرِي أُصِيبَتْ
مَقَاتِلُهُ.

{وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا} وآمنا بما أنزل إلينا، وفيه الإشارة إلى البداءة
بالأهم - وإن كان متأخراً.

والمنزل إليهم هو القرآن، ويشمل السنة أيضاً؛ لقوله تعالى:
{وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [النساء: ١١٣]، وصح
نسبة إنزالهما إليهم، لأنهم هم المخاطبون بتكاليهما من الأمر
والنهي وغير ذلك، وتعدية أنزل بـ «إلى»، دليل على انتهاء المنزل
إليهم، وأن بعضها نسخ بعضاً، وأن ما أنزل إلينا نسخ جميعها فيما
خالفها فيه.

أيضاً قدم **{مَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا}** وإن كان متأخراً في الإنزال عن ما
بعده، لأنه أولى بالذكر، لأن الناس، بعد بعثة محمد - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مدعوون إلى الإيمان بما أنزل إليه جملة وتفصيلاً.

{وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} أنزل على إبراهيم عشر صحائف
{وإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ} جمع سِبْط أي الحفيد،
أي حفدة يعقوب؛ والمقصود الأنبياء الذين بعثوا في أسباط بني
إسرائيل الذين لم يذكروا بأسمائهم.

ولم ينزل إلى إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وعطفوا
على إبراهيم، لأنهم كلفوا العمل به والدعاء إليه، فأضيف الإنزال
إليهم، كما أضيف في قوله: **{وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا}**.

****** وردت كلمة «أسباط» في القرآن الكريم خمس مرّات: أربعة
منها في سياق تعداد أسماء بعض الأنبياء، ونصّت هذه الآيات على
وجوب الإيمان بمن سمّتهم الأسباط وهم أنبياء كرام من بني
إسرائيل، حيث قال تعالى:

١ / **{قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا
أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}**
[البقرة: ١٣٦]

٢ / **{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ**

مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ {

[البقرة: ١٤٠]

٣ / { قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [آل

عمران: ٨٤]

٤ / { إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا {

[النساء: ١٦٣]

فالأسباط المذكورون في هذه الآيات الأربعة كلها في إطار ذكر الأنبياء: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، وهذا الذكر جعل الكثيرين يعتبرون الأسباط هم أبناء يعقوب الاثني عشر، لكن الذين يعتبرون إخوة يوسف أنبياء يجعلون معنى الأسباط الأبناء، فهم أسباط ليعقوب؛ لأنهم أبناء من صلبه، وهذا محل نظر.

أما المرة الخامسة ففي قوله تعالى: {وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ

الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ {
[الأعراف: ١٦٠]

** اختلاف العلماء في المراد بالأسباط، بعد اتفاقهم على أنهم أبناء يعقوب عليه السلام:

١ / فذهب بعضهم إلى أن المراد بالأسباط: أبناء يعقوب عليه السلام لصلبه، أي: المباشرين.

حيث رأى بعض المفسرين أن المراد بالأسباط في الآيات الأربع الأولى هم إخوة يوسف الأحد عشر، فبعد أن تابوا عن ذنوبهم واعتذروا إلى أخيه يوسف عن فعلتهم الشنيعة به وقال لهم: { لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ } [يوسف: ٩٢]، وبعد أن استغفر لهم أبوهم يعقوب عليه السلام، أنعم عليهم بالنبوة جميعاً، ونالوا هذه الدرجة العالية، لذا فهم المعنيون بكلمة "الأسباط"، وهذا الرأي يفتقر إلى الأدلة القوية الصحيحة التي تؤيده وتقرره.

٢ / وذهب الجمهور إلى أنهم حفدة يعقوب، ذراري أبنائه الاثني عشر، قبائل بني إسرائيل، وأنهم كالقبائل في العرب من بني إسماعيل، والشعوب من العجم.

فسبط الرجل: حفيده، ومنه قيل للحسن والحسين -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا-: سبطا رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان في الأَسباط أنبياء.

قال الإمام الراغب في معنى السَّبَط: "أصلُ السبط: انبساط في سهولة، والسَّبَط: ولد، كأنه امتداد الفروع، وقوله تعالى: **{ويعقوب والأَسباط}** أي: قبائل، كل قبيلة من نسل رجل".

وقال السمين الحلبي: الأَسباط جمع سبط، وهم في بني إسرائيل كالقبائل في العرب، وأحسن منه ما قاله الأزهري: الأَسباط في ولد إسحاق، والقبائل في ولد إسماعيل، فعلوا ذلك تفرقة بين أولاد الآخرين، أعني إسحاق وإسماعيل، واشتقاق السبط من الامتداد والتفريع، لأن السبط ولد الولد، فكأن النسب امتد وانبسط وتفرّع.

وقيل: اشتقاق الأَسباط من السَّبَط، وهو الشجرة التي أصلها واحد وأعضاؤها كثيرة، واستدلوا بقوله تعالى: **{أَسْبَاطًا أُمَمًا}** فترجم الأَسباط بالأمم، فكل سبط أمة.

وقال أبو سعيد الضرير: أصل السَّبَط: "شجرة ملتفة كثيرة الأغصان".

وقال ابن تيمية: فسُمُّوا الأَسْبَاطَ لكثرتهم، فكما أن الأغصان من شجرة واحدة، كذلك الأَسْبَاط كانوا من يعقوب. ومثل السبط الحافد، وكان الحسن والحسين سِبْطَي رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، والأَسْبَاط حفدة يعقوب ذُراري أبنائه الاثني عشر.

وقال المبرد: سألت ابن الأعرابي عن الأَسْبَاط فقال: هم خاصة الولد. أي: هم أولاد الولد.

وقال القرطبي: وسموا الأَسْبَاط؛ من السَّبَط، وهو التابع، فهم جماعة متتابعون.

وقال أيضا: والسبط: الجماعة والقبيلة، الراجعون إلى أصل واحد .. وقيل: أصله من السَّبَط، بالتحريك، وهو الشجر، أي: هم في الكثرة بمنزلة الشجر، الواحدة سَبْطَة.

وقوله تعالى {أُمَمًا} في الآية منصوبة، لأنها بدل من {أَسْبَاطًا} أي: قطعنا بني إسرائيل اثنتي عشرة أمة، ولهذا فجر الله لهم الحجر اثنتي عشرة عينا على عدد قبائلهم وأَسْبَاطهم، وإذا كانت "الأَسْبَاط" بمعنى قبائل بني إسرائيل فإن الأَسْبَاط ليسوا أنبياء، وإنما ذكرهم الله ضمن مجموعة من الأنبياء على تقدير حذف مضاف، والتقدير: «وأنبياء أسباط بني إسرائيل»، أي: آمنا بما أنزل

على الأنبياء: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، لأن الله أخبرنا بأسمائهم أنهم أنبياء وآمنّا بالأنبياء الآخرين الذين بعثهم الله إلى أسباط وقبائل بني إسرائيل، ولم يخبرنا الله عن أسمائهم.

قال ابن تيمية: "ومن قال: الأسباط أولاد يعقوب، لم يُرد أنهم أولادُه لصلبه، بل أرادَ ذريته، كما يقال: بنو إسرائيل وبنو آدم. فتخصيصُ الآية ببنيه لصلبه غلط، لا يدلُّ عليه اللفظُ ولا المعنى، ومن ادّعاه فقط أخطأ خطأً بيناً".

** وأنزل الله تعالى من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ} [المائدة: ٢٠]

قال ابن تيمية: "الذي يدلُّ عليه القرآن واللغة والاعتبار: أن إخوة يوسف ليسوا بأنبياء، وليس في القرآن ولا عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بل ولا عن أصحابه خبرٌ بأن الله تعالى نبأهم. وإنما احتجَّ من قال إنهم نبُّوا بقوله في آيتي البقرة والنساء {وَالْأَسْبَاطُ}، وفسر الأسباط بأنهم أولاد يعقوب. والصواب أنه ليس المراد بهم أولادُه لصلبه، بل ذريته، كما يقال فيهم أيضا «بنو

إسرائيل»، وكان في ذريته الأنبياء، فالأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل.

وقال أيضًا: "فإن الله يذكر عن الأنبياء من المحامد والثناء ما يناسب النبوة، وإن كان قبل النبوة، كما قال عن موسى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ} الآية، وقال في يوسف كذلك، وفي الحديث: (أكرم الناس يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، نبي من نبي من نبي)؛ فلو كانت إخوته أنبياء، كانوا قد شاركوه في هذا الكرم، وهو تعالى لما قصَّ قصَّةَ يوسف، وما فعلوا معه؛ ذكر اعترافهم بالخطيئة وطلبهم الاستغفار من أبيهم، ولم يذكر من فضلهم ما يناسب النبوة، ولا شيئاً من خصائص الأنبياء، بل ولا ذكر عنهم توبةً باهرةً...، بل إنما حكى عنهم الاعتراف وطلب الاستغفار. ولا ذكر سبحانه عن أحدٍ من الأنبياء -لا قبل النبوة ولا بعدها- أنه فعلَ مثلَ هذه الأمور العظيمة، من عقوق الوالد، وقطيعة الرحم، وإرقاق المسلم وبيعه إلى بلاد الكفر، والكذب البين، وغير ذلك مما حكاه عنهم، ولم يحك شيئاً يناسب الاصطفاء والاختصاص الموجب لنبوتهم، بل الذي حكاه يخالف ذلك، بخلاف ما حكاه عن يوسف.

ثم إن القرآن يدلُّ على أنه لم يأتِ أهلَ مصرَ نبيٌّ قبلَ موسى، سوى يوسف، لآية غافر: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ} [غافر: ٣٤]، ولو كان من إخوة يوسف نبيٌّ لكان قد دعا أهل مصر، وظهرت أخبار نبوته، فلما لم يكن ذلك، علِمَ أنه لم يكن منهم نبيٌّ. فهذه وجوهٌ متعددة يُقوِّي بعضها بعضًا.

وقد ذكر أهل السير أن إخوة يوسف كلهم ماتوا بمصر، وهو أيضًا، وأوصى بنقله إلى الشام، فنقله موسى.

والحاصل: أن الغلط في دعوى نبوتهم حصلَ من ظنِّ أنهم هم الأسباط، وليس كذلك، إنما الأسباط ذريّتهم، الذين قُطِّعُوا أسباطًا من عهد موسى، كل سبطٍ أمة عظيمة.

ولو كان المراد بالأسباط أبناء يعقوب لقال: "ويعقوب وبنيه"، فإنه أوجز وأبين.

واختير لفظ "الأسباط" على لفظ "بني إسرائيل": للإشارة إلى أن النبوة إنما حصلت فيهم من حين تقطيعهم أسباطًا من عهد موسى. [انتهى كلام ابن تيمية]

****** وإنما نفى الله عنهم اليهودية والنصرانية المحرفة، وأثبت لهم الإسلام الذي هو دين الأنبياء جميعًا، والخطاب لأهل الكتاب المبدلين لشرائعهم.

****** والحاصل أن الراجح عدم نبوة إخوة يوسف عليه السلام للعديد من الشواهد:

١ / إن كلمة "أسباط" لا تطلق على "الولد"، بل على ولد الولد فما دون.

٢ / لم يرد في القرآن الكريم ولا السنة الصحيحة أن إخوة يوسف قد نبّوا، ولو ورد ذلك لما وسعنا إلا التسليم بنبوتهم.

٣ / لم يذكر مؤمن آل فرعون من الأنبياء الذين دعوا المصريين إلى التوحيد غير يوسف عليه السلام، فقد قال للمصريين: **{وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ}** [غافر: ٣٤]، ولم يقل: ولقد جاءكم يوسف وإخوته.

٤ / إن إخوة يوسف قد همّوا بقتله وطرحوه في غيابة الجُبِّ، وهذا عمل لا يفعله من يُعد لمرتبة النبوة.

٥ / إن يوسف عليه السلام قال لهم، وبعد سنين طويلة من فعلتهم به: **{أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا}** [يوسف: ٧٠]

٦ / إن كلمة "أسباط" لم تُطلق على ذرية "يعقوب/إسرائيل" إلا في سيناء بعد الخروج، ولم تطلق عليهم أبداً في مصر طيلة ما يزيد على مائتي سنة، ممّا يفيد أن معنى كلمة "الأسباط" هو "القبائل" التي تكوّنت من أبناء وذرية كل ولد من أولاد يعقوب، لا أسماء آبائهم.

٧ / كل ما نقوله عن إخوة يوسف عليه السلام، أنهم كانوا في أفعالهم الخاطئة التي سجلتها لهم آيات سورة يوسف عصاة مخطئين، ارتكبوا تلك الذنوب والآثام وبعد ذلك شعروا بتأنيب الضمير، فتابوا إلى الله وأنابوا له، واستغفروا من ذنوبهم، بل طلبوا من أخيهم يوسف أن يستغفر الله لهم، كما طلبوا هذا من أبيهم وبعد ذلك تابوا وأنابوا، واستقاموا وأصلحوا، فأقصى ما وصلوا إليه أن يكونوا مؤمنين صالحين، وعابدين محسنين وبهذا ختموا حياتهم.

{وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى} وما أعطوا من الآيات الشرعية، والكونية؛ الشرعية كالتوراة لموسى، والإنجيل لعيسى؛ والكونية كاليد والعصا لموسى؛ وكإخراج الموتى من قبورهم بإذن الله، وإبراء

الأكمه والأبرص بإذن الله لعيسى؛ ونص على موسى وعيسى؛
لأنهما أفضل أنبياء بني إسرائيل.

قال ابن عثيمين: لَمْ عبر الله تعالى بقوله: {وَمَا أُنْزِلَ إِلَى
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ} الآية، وفي موسى وعيسى قال تعالى: {وَمَا
أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى}؛ فهل هناك حكمة في اختلاف التعبير؟
فالجواب: أن نقول بحسب ما يظهر لنا -والعلم عند الله-: إن
هناك حكمة لفظية، وحكمة معنوية.

الحكمة اللفظية: لئلا تتكرر المعاني بلفظ واحد؛ لو قال: «ما
أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وما أنزل إلى موسى... وما أنزل إلى
النبيين» تكررت أربع مرات؛ ومعلوم أن من أساليب البلاغة
الاختصار في تكرار الألفاظ بقدر الإمكان.

أما الحكمة المعنوية: فلأن موسى وعيسى دينهما باقٍ إلى زمن
الوحي، وكان أتباعهما يفتخرون بما أوتوا من الآيات؛ فالنصارى
يقولون: عيسى بن مريم يُحيي الموتى، ويفعل كذا، ويفعل كذا؛
وهؤلاء يقولون: إن موسى فلق الله له البحر، وأنجاه، وأغرق عدوه،
وما أشبه ذلك؛ فبين الله سبحانه وتعالى في هذا أن هذه الأمة تؤمن
بما أوتوا من وحي وآيات.

{وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ} تعميم بعد تخصيص، وعطف العام على الخاص، وإضافة الربوبية إليهم على وجه الخصوص؛ وإلا فالله سبحانه وتعالى رب كل شيء؛ لكن هذه ربوبية خاصة.

{لَا نُفَرِّقُ} أي في الإيمان؛ وليس في الاتباع **{بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ}** حال أو استئناف كأنه قيل كيف تؤمنون بجمعهم فإن الإيمان بحق بواحد منهم؟ وهذا السؤال المقدر ناشئ عن ضلالة وتعصب حيث يعتقدون أن الإيمان برسول لا يتم إلا مع الكفر بغيره، وأن تزكية أحد لا تتم إلا بالطعن في غيره، وهذه زلة في الأديان والمذاهب والنحل والأحزاب والأخلاق كانت شائعة في الأمم والتلامذة فاقتلعتها الإسلام.

فنؤمن بالجميع، ولا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، كما فعلت اليهود والنصارى. فإن اليهود آمنوا بالأنبياء كلهم، وكفروا بمحمد وعيسى، صلوات الله على الجميع. والنصارى آمنوا بالأنبياء، وكفروا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيه أن الكفر برسول كفر بكل الرسل، فقد كفر اليهود بعيسى، وكفر النصارى بمحمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فأصبحوا بذلك كافرين، وآمن المسلمون بكل الرسل فأصبحوا بذلك مؤمنين.

{وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} هذا كله مندرج تحت قوله: **{قولوا}**.

ولما ذكر أولاً الإيمان، وهو التصديق، وهو متعلق بالقلب، ختم بذكر الإسلام، وهو الانقياد الناشئ عن الإيمان الظاهر عن الجوارح. فجمع بين الإيمان والإسلام، ليجتمع الأصل والناشئ عن الأصل.

{فَإِنْ} جاء الشرط هنا بـ «إن» المفيدة للشك في حصول شرطها إيذاناً بأن إيمانهم غير مرجو **{آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ}** الباء للملابسة وليست للتعدية أي إيمانا مماثلاً لإيمانكم.. وهذا من باب التبكيث، لأن دين الحق واحد، لا مثل له، وهو دين الإسلام.

{فَقَدْ اهْتَدَوْا} وفيه أن دينهم الذي هم عليه، وكل دين سواه مغاير له غير مماثل، لأنه حق وهدى، وما سواه باطل وضلال، ونحو هذا قولك للرجل الذي تشير عليه: "هذا هو الرأي الصواب، فإن كان عندك رأي أصوب منه، فاعمل به"، وقد علمت أن لا أصوب من رأيك، ولكنك تريد تبكيث صاحبك وتوقيفه على أن ما رأيت لا رأي وراءه.

{وَإِنْ تَوَلَّوْا} أعرضوا عن الدخول في الإيمان **{فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ}** «إنما» دالة على الحصر؛ أي فما حالهم إلا الشقاق؛ و

«في» للظرفية - كأن الشقاق محيط بهم من كل جانب منغمسون فيه.

فجاء بـ «في» للدلالة على تمكن الشقاق منهم حتى كأنه محيط بهم، فالشقاق مستول عليهم من جميع جوانبهم، ومحيط بهم إحاطة البيت بمن فيه. وهذه مبالغة في الشقاق الحاصل لهم بالتولي، وهذا كقوله: {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [الأعراف: ٦٠] {إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ} [الأعراف: ٦٦] هو أبلغ من قولك: زيد مشاق لعمر، وزيد ضال، وبكر سفيه.

والحاصل أنه لا حجة لمن تولى عن شريعة النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلا الشقاق، والمجادلة بالباطل.

و «الشقاق» الخلاف؛ وهو في كل معانيه يدور على هذا، أي: في خلاف وفراق وعداء لك وحرب عليك، إما من المشقة التي هي شدة المخالفة، مشتق من الشق وهو الفلق وتفريق الجسم، وإما أن يصير في شق وصاحبه في شق، أي يقع بينهم خلاف.

قال القاضي: "ولا يكاد يقال في العداوة على وجه الحق شقاق، لأن الشقاق في مخالفة عظيمة توقع صاحبها في عداوة الله وغضبه، وهذا وعيد لهم".

{فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ} تثبيتاً للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأن إعلامه بأن هؤلاء في شقاق مع ما هو معروف من كثرتهم وقوة أنصارهم مما قد يتحرج له السامع فوعده الله بأنه يكفيه شرهم الحاصل من توليهم.

وهذا الإخبار ضمان من الله تعالى لرسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، كفايته ومنعه منهم، ويضمن ذلك إظهاره على أعدائه، وغلبته إياهم، لأن من كان مشاقاً لك غاية الشقاق هو مجتهد في أذاك، إذا لم يتوصل إلى ذلك، فإنما ذلك لظهورك عليه وقوة منعتك منه، وهذا نظير قوله تعالى: **{وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}** [المائدة: ٦٧] وقد كفاه الله أمرهم بالسبي والقتل في قريظة وبني قينقاع، والنفي في بني النضير، والجزية في نصارى نجران. والسين هنا لتحقيق وعد الله رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأنه يكفيه سوء شقاقهم.

وفيه الإشارة إلى التوكل على الله - تبارك وتعالى - في الدعوة إليه، وفي سائر الأمور؛ لأنه إذا كان وحده سبحانه وتعالى هو الكافي فيجب أن يكون التوكل والاعتماد عليه وحده.

{وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} أي السميع لأذاهم بالقول، العليم بضمايرهم ومكائدهم .. والمعنى: اطمئن بأن الله كافيك ما تتوجس من شرهم وأذاهم.

ولما كان تدبير الكيد للرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من هؤلاء قد يكون بالأقوال، وقد يكون بالأفعال؛ والتدبير أمر خفي ليس هو حرباً يعلن حتى نقول: ينبغي أن يقابل بقوة، وعزة؛ قال تعالى: **{وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}** أي حتى الأمور التي لا يُدرى عنها، ولا يبرزونها، ولا يظهرون الحراية للرسول فإن الله سميع عليم بها. وقيل: كلاً من الإيمان وضده مشتمل على أقوال وأفعال، وعلى عقائد ينشأ عنها تلك الأقوال والأفعال، فناسب أن يختتم ذلك بهما، أي وهو السميع لأقوالكم، العليم بنياتكم واعتقادكم. وتضمنت هاتان الصفتان الوعيد، لأن المعنى، وهو السميع العليم، فيجازيكم بما يصدر منكم.

{صِبْغَةً} أصلها صبغ بدون علامة تأنيث، وهو الشيء الذي يصبغ به «اللون»، واتصاله بعلامة التأنيث لإرادة الوحدة مثل تأنيث قشرة وكسرة وفلقة **{اللَّهِ}** والمعنى: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى الأنبياء من قبل إيماننا صبغة الله، أي: دينه الذي طهرنا به ظاهراً

وباطناً، فظهرت آثاره علينا كما يظهر أثر الصبغ على الثوب المصبوغ، ولأنه يلزمه ولا يفارقه.

قال ابن عاشور: والصبغة هنا اسم للماء الذي يغتسل به اليهود عنواناً على التوبة لمغفرة الذنوب، والأصل فيها عندهم الاغتسال الذي جاء فرضه في التوراة على الكاهن إذا أراد تقديم قربان كفارة عن الخطيئة عن نفسه أو عن أهل بيته، والاعتراس الذي يغتسله الكاهن أيضاً في عيد الكفارة عن خطايا بني إسرائيل في كل عام، وعند النصارى الصبغة أصلها التطهر في نهر الأردن، وهو اعتراس سنه النبي يحيى بن زكريا لمن يتوب من الذنوب، فكان يحيى يعظ بهم الناس بالتوبة فإذا تابوا أتوه فيأمرهم بأن يغتسلوا في نهر الأردن رمزا للتطهر الروحاني، وكانوا يسمون ذلك معموديت، ويقولون أيضاً معموديتا وهي كلمة من اللغة الآرامية معناها الطهارة، وقد عربها العرب فقالوا معمودية.

وكان عيسى بن مريم حين تعمد بماء المعمودية أنزل الله عليه الوحي بالرسالة، ودعا اليهود إلى ما أوحى الله به إليه، وحدث كفر اليهود بما جاء به عيسى وقد آمن به يحيى، فنشأ الشقاق بين اليهود وبين يحيى وعيسى فرفض اليهود التعميد، وكان عيسى قد

عمد الحواريين الذين آمنوا به، فتقرر في سنة النصارى تعميد من يدخل في دين النصرانية كبيرا، وقد تعمد قسطنطين قيصر الروم حين دخل في دين النصرانية، أما من يولد للنصارى فيعمدونه في اليوم السابع من ولادته.

وإطلاق الصبغة على ماء المعمودية أو على الاغتسال به استعارة مبنية على تشبيه وجهه تخيلي إذ تخيلوا أن التعميد يكسب المعمد به صفة النصرانية ويلونه بلونها كما يلون الصبغ ثوبا مصبوغا، وقريب منه إطلاق الصبغ على عادة القوم وخلقهم.

وقد جعل النصارى في كنائسهم أحواضا صغيرة فيها ماء يزعمون أنه مخلوط ببقايا الماء الذي أهرق على عيسى حين عمده يحيى، وأن ما تقاطر منه جمع وصب في ماء كثير ومن ذلك الماء تؤخذ مقادير تعتبر مباركة لأنها لا تخلو عن جزء من الماء الذي تقاطر من اغتسال عيسى حين تعميده كما قال في أوائل الأناجيل الأربعة

فقلوه: {صِبْغَةُ اللَّهِ} رد على اليهود والنصارى معا أما اليهود فلأن الصبغة نشأت فيهم وأما النصارى فلأنها سنة مستمرة فيهم،

ولما كانت المعمودية مشروعة لهم لغلبة تأثير المحسوسات على عقائدهم رد عليهم بأن صبغة الإسلام الاعتقاد والعمل.

{وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً} استفهام للنفي، أي ولا أحد أحسن من الله صبغة.

ومجيء الاستفهام بمعنى النفي أبلغ من النفي المجرد؛ لأنه يتضمن التحدي؛ فإن القائل إذا قال: «ليس مثل زيد بشر» ليس كقوله: «مَنْ مثل زيد من البشر؟!»؛ الثاني أبلغ: كأنه يتحدى المخاطب أن يأتي بأحد مثله.

وأحسن هنا لا يراد بها حقيقة التفضيل، إذ صبغة غير الله منتف عنها الحسن.

فالواجب على من دخل في الإسلام أن يغتسل غسلًا كغسل الجنابة إذ هذا من صبغة الله تعالى، لا المعمودية النصرانية التي هي غمس المولود يوم السابع من ولادته في ماء يقال له المعمودي، وإدعاء أنه طهر بذلك ولا يحتاج إلى الختان.

{وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ} تقديم المعمول على عامله هنا له فائدتان؛ أولهما: لفظية؛ وهي مراعاة فواصل الآيات؛ والثانية: معنوية؛ وهي

الحصر، والاختصاص؛ فهو كقوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} [الفاتحة:

[٥

وقيل: هو قصر إضافي على النصارى الذين اصطبغوا بالمعمودية لكنهم عبدوا المسيح.

قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)

{قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا} خطاب لأهل الكتاب، و«المحاجة» هي أن يدلي كل خصم بحجته لينقض حجة الخصم الآخر {فِي اللَّهِ} أتجادلوننا في دينه والإيمان به وبرسوله، والاستفهام للإنكار والتعجب والتوبيخ.

وقيل: أمر تعالى رسوله أن ينكر على أهل الكتاب جدالهم في الله تعالى إذ ادعوا أنهم أولى بالله من الرسول والمؤمنين، وقالوا: "نحن أبناء الله وأحباؤه".

قال الحسن: كانت المحاجة أن قالوا: نحن أولى بالله منكم، لأننا أبناء الله وأحباؤه. وقيل: لتقدم آبائنا وكتبنا، ولأننا لم نعبد الأوثان.

{وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ} مالكم كلهم سبحانه، فهم مشتركون في العبودية، فله أن يخصص من شاء بما شاء من الكرامة.

أي بلغت بكم الوقاحة إلى أن تحاجونا في إبطال دعوة الإسلام بلا دليل سوى زعمكم أن الله اختصكم بالفضيلة مع أن الله ربنا كما هو ربكم فلماذا لا يمن علينا بما من به عليكم.

{وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ} لا نسأل عنكم، ولا تُسألون عنا؛ كل له عمله؛ وسيجازيه الله به يوم القيامة.

ارتقاء في إبطال مجادلته بعد بيان أن المربوبية تؤهل للإنعام كما أهلتهم، ارتقى فجعل مرجع رضا الله تعالى على عبادة أعمالهم، فإذا كان قد أكرمكم لأجل الأعمال الصالحة فلعله

أكرمنا لأجل صالحات أعمالنا فتعالوا فانظروا أعمالكم وانظروا أعمالنا تجدوا حالنا أقرب إلى الصلاح منكم.

{وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ} ارتقاء ثالث لإظهار أن المسلمين أحق بإفاضة الخير فإنهم وإن اشتركوا مع الآخرين في المربوبية وفي الصلاحية لصدور الأعمال الصالحة، فالمسلمون قد أخلصوا دينهم لله ومخالفوهم قد خلطوا عبادة الله بعبادة غيره، أي فلماذا لا نكون نحن أقرب إلى رضا الله منكم إليه، وهذه الجملة من باب التعريض بالذم والتوبيخ.

قال في البحر المحيط: ولما بين القدر المشترك من الربوبية والجزاء، ذكر ما يميز به المؤمنون من الإخلاص لله تعالى في العمل والاعتقاد، وعدم الإشراك الذي هو موجود في النصارى وفي اليهود، لأن من عبد موصوفاً بصفات الحدوث والنقص، فقد أشرك مع الله إلهاً آخر.

وفيه فضيلة الإخلاص الذي هو: عدم الالتفات إلى غير الله تعالى عند القيام بالعبادات، وقيل هو: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين، والآية منبهة على أن من أخلص لله تعالى، كان حقيقاً أن يكون منهم الأنبياء وأهل الكرامة.

وقد كثرت أقوال أرباب المعاني في الإخلاص:

قال رويم: هو ارتفاع عملك عن الرؤية.

وقال أبو يعقوب المكفوف: أن يكتم العبد حسناته، كما يكتم

سيئاته.

وقال أبو سليمان الداراني: للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا

كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أثنى

عليه.

{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ} أكبر أولاد إبراهيم

{وإِسْحَاقَ} أخو إسماعيل؛ وهو الولد الثاني لإبراهيم {وَيَعْقُوبَ}

هو ابن إسحاق؛ وهو الذي ينتمي إليه بنو إسرائيل {وَالْأَسْبَاطَ} كانوا

هُوداً أَوْ نَصَارَى} استفهام للتوبيخ والإنكار، وذلك لمبلغهم من

الجهل بتاريخ شرائعهم زعموا أن إبراهيم وأبناءه كانوا على اليهودية

أو على النصرانية.

قال تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا

مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران: ٦٧] وقال: {يَا أَهْلَ

الكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ

بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [آل عمران: ٦٥] فرماهم بفقد العقل.

والأمة إذا انغمست في الجهالة وصارت عقائدها غرورا ومن دون تدبر اعتقدت ما لا ينتظم مع الدليل واجتمعت في عقائدها المتناقضات، وقد وجد النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يوم الفتح في الكعبة صورة إبراهيم يستقسم بالأزلام في الكعبة، كما روى البخاري عن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَمَّا قَدِمَ أَبِي أَنْ يَدْخُلَ الْبَيْتَ وَفِيهِ الْإِلَهَةُ، فَأَمَرَ بِهَا فَأُخْرِجَتْ، فَأَخْرَجُوا صُورَةَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ فِي أَيْدِيهِمَا الْأَزْلَامُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِهَا قَطُّ) فَدَخَلَ الْبَيْتَ فَكَبَّرَ فِي نَوَاحِيهِ وَلَمْ يُصَلِّ فِيهِ.

{قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ} ومن المعلوم أنه لا أحد أعلم من الله عز وجل؛ ولكن الله سبحانه وتعالى قال ذلك إلزاماً للخصم حتى يتبين بطلان ما ادعاه؛ وهو كقوله تعالى: **{أَلَلَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ}** [النمل: ٥٩]؛ ومن المعلوم أن الله خير مما يشركون؛ لكن من أجل إفحام الخصم، وإلزامه بما هو ظاهر لا إشكال فيه.

فإن قالوا: "نحن أعلم" كفروا، وإن قالوا: "الله أعلم" انقطعوا لأن الله تعالى أخبر أنهم ما كانوا أبداً يهوداً ولا نصارى، ولكن كانوا مسلمين.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ} وهذا يدل على أنهم كانوا عالمين بأن إبراهيم ومن معه كانوا مباينين لليهودية والنصرانية، لكنهم كتموا ذلك.

يشير إلى خاصة الأحرار والرهبان الذين تركوا عامة أمتهم مسترسلين على عقائد الخطأ والغرور والضلالة، وهم ساكتون لا يغيرون عليهم إرضاء لهم واستجلاباً لمحبتهم، وذلك أمر إذا طال على الأمة تعودته وظنت جهالتها علما فلم ينجع فيها إصلاح بعد ذلك لأنها ترى المصلحين قد أتوا بما لم يأت به الأولون فقالوا **{إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ}** [الزخرف: ٢٣]

وقيل: المراد بهذه الشهادة ما أخذ عليهم في كتابهم من الإيمان بالنبي محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عند ظهوره أي لا أحد أظلم في كتمان الشهادة ممن كتم شهادة عنده من الله؛ وهؤلاء اليهود والنصارى كتموا الشهادة عندهم من الله؛ لأن

الله -تبارك وتعالى- أخبر عن نبيه محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-،
وذكر أوصافه في التوراة، والإنجيل، كما قال الله - تبارك وتعالى -
في سورة الأعراف: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي
يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ}
[الأعراف: ١٥٧]

وفيه عظم كتم العلم؛ فإن العالم بشريعة الله عنده شهادة من
الله بهذه الشريعة، كما قال الله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}
[آل عمران: ١٨]؛ فكل إنسان يكتم علماً فقد كتم شهادة عنده
من الله؛ ثم إن في هذا عظم إثمه.

{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} الغافل: من لا يتفطن للأمور
لعدم مبالاته بها أو إهمالا منه. مأخوذ من الأرض الغفل وهي التي
لا علم بها ولا أثر عمارة. وناقة غفل: لا سمة بها. ورجل غفل: لم
يجرب الأمور.

وهو وعيد تهديد لأن القادر إذا لم يكن غافلاً لم يكن له مانع من العمل بمقتضى علمه.

ولا تأتي إلا عقب ارتكاب معصية، فتجيء متضمنة وعيداً، ومعلمة أن الله لا يترك أمرهم سدى، بل هو محصي لأعمالهم، مجاز عليها.

وفيه ثبوت الصفات المنفية؛ وهي ما نفاه الله سبحانه وتعالى عن نفسه؛ لقوله تعالى: **{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}**؛ فإن هذه صفة منفية، وليست ثبوتية؛ والصفات المنفية متضمنة لإثبات كمال ضدها؛ فلكمال مراقبته وعلمه - سبحانه وتعالى - ليس بغافل عما نعمل.

{تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أعاد لهم ما أدبهم به في الآيات السابقة مبالغة في تأديبهم وإصلاحهم لو كانوا أهلاً لذلك، فقد افتخروا بأسلافهم، فأخبروا أن أحداً لا ينفع أحداً، متقدماً كان أو متأخراً. كما قال تعالى: **{وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى}** [الأنعام: ١٦٤] **{أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى}** [النجم: ٣٨-٣٩] فكل شاة برجلها تناط.

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي
كَانُوا عَلَيْهَا قُلٌ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا
جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ
مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ
هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ
لَرَوُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣)

{سَيَقُولُ} إذا دخلت السين على المضارع أخلصته للمستقبل؛
أما المضارع إذا دخلت عليه «لم» أخلصته للماضي؛ وإذا كان
مجرداً فهو صالح للحاضر والمستقبل.

{السُّفَهَاءُ} السفه أصله الخفة، يوصف به الجماد. قالوا: ثوب
سفيه، أي خفيف النسيج والهلهلة، ورمح سفيه: أي خفيف سريع
النفوذ.

والسفيه هو الذي لا يحسن التصرف لنفسه؛ وكل من خالف
الحكمة في تصرفه فهو سفيه؛ فهؤلاء السفهاء سفهاء في دينهم؛
وقد يكونون في المال جيدين؛ وسفه الدين بينه الله سبحانه وتعالى
بقوله تعالى: {وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ}
[البقرة: ١٣٠]

{مِنَ النَّاسِ} وفائدة وصفهم بأنهم من الناس مع كونه معلوما
هو التنبيه على بلوغهم الحد الأقصى من السفاهة بحيث لا يوجد
في الناس سفهاء غير هؤلاء، فإذا قسم نوع الإنسان أصنافا كان
هؤلاء صنف السفهاء فيفهم أنه لا سفيه غيرهم على وجه المبالغة.
وحكمة الإخبار به قبل وقوعه تخفيف أثره على نفوس المؤمنين
إذ يفقد نقدهم الميرير عنصر المفاجأة فيه فلا تضطرب له نفوس
المؤمنين.

قال ابن عاشور: والذي استقر عليه فهم أن مناسبة وقوع هذه
الآية هنا مناسبة بديعة، وهي أن الآيات التي قبلها تكرر فيها التنويه
بإبراهيم وملته والكعبة وأن من يرغب عنها قد سفه نفسه، فكانت
مثارا لأن يقول المشركون، ما ولي محمدا وأتباعه عن قبلتهم التي
كانوا عليها بمكة أي استقبال الكعبة مع أنه يقول أنه على ملة

إبراهيم ويأبى عن اتباع اليهودية والنصرانية، فكيف ترك قبلة إبراهيم واستقبل بيت المقدس، وقد علم الله ذلك منهم فأنبأ رسوله بقولهم وآتى فيه بهذا الموقع العجيب وهو أن جعله بعد الآيات المشيرة له وقبل الآيات التي أنزلت إليه في نسخ استقبال بيت المقدس والأمر بالتوجه في الصلاة إلى جهة الكعبة، لئلا يكون القرآن الذي فيه الأمر باستقبال الكعبة نازلاً بعد مقالة المشركين ويشمخ بأنوفهم، يقولون: "غير محمد قبلته من أجل اعتراضنا عليه" فكان لموضع هذه الآية هنا أفضل تمكن وأوثق ربط، وبهذا يظهر وجه نزولها قبل آية النسخ وهي قوله: **{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ}** [البقرة: ١٤٤] الآيات لأن مقالة المشركين أو توقعها حاصل قبل نسخ استقبال بيت المقدس وناشئ عن التنويه بملة إبراهيم والكعبة.

{مَا وَلَاهُمْ} ما صرفهم، أي المسلمون، والاستفهام مستعمل في التعريض بالتخطفة واضطراب العقل **{عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا}** التحول من استقبال بيت المقدس إلى استقبال الكعبة بمكة، لأن النسخ عند اليهود باطل، فقالوا: الانتقال عن قبلتنا باطل وسفه، فرد الله تعالى ذلك عليهم بقوله **{قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ**

وَالْمَغْرِبُ } وفيها عموم ملك الله عز وجل؛ لقوله تعالى: **{لِلَّهِ**
الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}؛ فهو المالك سبحانه وتعالى للجهات يُصَرِّفُ
إليها العباد كيف يشاء؛ ونحن ليس علينا إلا السمع والطاعة؛ أينما
وجهنا توجهنا؛ هذا المهم؛ لا أن تتجه إلى كذا، أو إلى كذا؛
فالسجود لغير الله شرك؛ وكان بالنسبة للملائكة حين أمرهم الله
بالسجود لآدم طاعة، وعبادة؛ وقتل النفس بغير حق - ولا سيما قتل
الولد - من أكبر الكبائر؛ وحين أمر الله تعالى إبراهيم أن يذبح ابنه
كان قرينة وعبادة؛ فالاعتبار بطاعة الله سبحانه وتعالى.

{يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ} الطريق الواسع الذي يسهل
سلوكه؛ والمراد به هنا شريعة الله التي شرعها لعباده **{مُسْتَقِيمٌ}**
ففرق وبين ما كان هداية، وما كان سفهاً.

وفيه الشاء على هذ الأمة بأنها على الصراط المستقيم.
وفيه أيضا فضيلة هذه الأمة حيث هداها الله إلى استقبال بيته
الذي هو أول بيت وضع للناس؛ وروى الإمام أحمد في مسنده عن
النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّهُمْ لَا يَحْسُدُونَا عَلَى شَيْءٍ كَمَا
يَحْسُدُونَا عَلَى يَوْمِ الْجُمُعَةِ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى

الْقِبْلَةَ الَّتِي هَدَانَا اللَّهُ لَهَا وَضَلُّوا عَنْهَا، وَعَلَى قَوْلِنَا خَلْفَ الْإِمَامِ
آمِينَ)

واعلم أن اليهود يستقبلون بيت المقدس وليس هذا الاستقبال من أصل دينهم لأن بيت المقدس إنما بني بعد موسى -عليه السلام- بناه سليمان -عليه السلام-، فلا تجد في أسفار التوراة الخمسة ذكرا لاستقبال جهة معينة في عبادة الله تعالى والصلاة والدعاء، ولكن سليمان -عليه السلام- هو الذي سن استقبال بيت المقدس، وأن الله تجلى لسليمان وقال له: قد سمعت صلاتك وتضرعك الذي تضرعت به أمامي، وهذا يدل على أن استقبال بيت المقدس شرط في الصلاة في دين اليهود وقصاراه الدلالة على أن التوجه نحو بيت المقدس بالصلاة والدعاء هيئة فاضلة، فلعل بني إسرائيل التزموه لا سيما بعد خروجهم من بيت المقدس أو أن أنبياءهم الموجودين بعد خروجهم أمروهم بذلك بوحي من الله.

وأما النصارى فإنهم لم يقع في إنجيلهم تغيير لما كان عليه اليهود في أمر الاستقبال في الصلاة ولا تعيين جهة معينة ولكنهم لما وجدوا الروم يجعلون أبواب هياكلهم مستقبلة لمشرق الشمس بحيث تدخل أشعة الشمس عند طلوعها من باب الهيكل على

الصنم صاحب الهيكل الموضوع في منتهى الهيكل عكسوا ذلك فجعلوا أبواب الكنائس إلى الغرب وبذلك يكون المذبح إلى الغرب والمصلون مستقبلين الشرق، وذكر الخفاجي أن بولس الذي أمرهم بذلك، فهذه حالة النصارى في وقت نزول الآية ثم إن النصارى من العصور الوسطى إلى الآن توسعوا فتركوا استقبال جهة معينة فلذلك تكون كنائسهم مختلفة الاتجاه وكذلك المذابح المتعددة في الكنيسة الواحدة.

{وَكَذَلِكَ} كما جعلنا قبلتكم أفضل قبلة، جعلناكم أفضل الأمم **{جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}** أي جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم، ووسط كل شيء خياره وأعدله، فمن أجل ذلك صار معنى النفاسة والعزة والخيار من لوازم معنى الوسط عرفا فأطلقوه على الخيار النفيس، كما قال تعالى: **{قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ}** [القلم: ٢٨] أي أعدلهم وخيرهم.

والآية ثناء على المسلمين لأن الله قد ادخر لهم الفضل وجعلهم وسطا بما هيا لهم من أسبابه في بيان الشريعة بيانا جعل أذهان أتباعها سالمة من أن تروج عليهم الظلالات التي راجت على الأمم السالفة، قال فخر الدين: يجوز أن يكونوا وسطا بمعنى أنه

متوسطون في الدين بين المفرط والمفرط والغالي والمقصر لأنهم لم يغلوا كما غلت النصارى فجعلوا المسيح ابن الله، ولم يقصروا كما قصرت اليهود فبدلوا الكتب واستخفوا بالرسل.

يقول الأستاذ «عادل الماجد»: إن الحديث عن الوسطية وثقافة الوسط هو حديث عن موضوع لا عدوّ له.. ومن هنا تأتي صعوبة وامتناع هذا المصطلح، وقد حاولت كثيراً أن أقرأ لمن يرفض الوسطية لأطلع على رأيه، فلم أجد لها عدوّاً، وكل من تكلم عن الوسطية بالغ في الثناء عليها، فهذا الذي يكفر جميع حكام المسلمين والوزراء في كتابه يدعو للوسطية وعدم التطرف بتكفير المجتمع كله، ويحذر من التطرف، وآخر يرى أن الإسلام والمعاصرة لا يجتمعان، وأن الإسلام جاء لحل مشكلات محددة لزمان ومكان، ولا ينسى هو الآخر أن يحذر من التطرف ويدعو للوسطية.

ومن التطرف ما يدعو له بعض المثقفين في المهجر من وجوب إغلاق دور العبادة «المساجد»، ومنع الزواج غير القانوني، وأنا أدعو للوسطية في حرية إتباع أي دين، ولو أقام الزواج بطقوس معينة.

إن من أسباب ارتباك مفهوم الوسطية هذا التداخل الواضح بين مفهوم الوسطية ومفاهيم أخرى، فخذ على سبيل المثال: مفهوم الوسط والمنتصف، فهل الوسط هو المنتصف لأن النصف مفهوم رياضي هندسي يعني حيزاً يتساوى ما قبله بما بعده، وعلى هذا تكون الوسطية في الأخلاق هي حال في المنتصف بأحسن الخلق ولا رديئة، وكذا هي الوسطية في الاقتصاد، إذا إنها حال تجعل المشروعات الاقتصادية لا رابحاً ولا خاسراً لذلك ينكر د. محمد ربيع الوسطية في غير الدين والمجتمع كما يقول: إن من الخطأ أن يكون الإنسان وسطياً فيما يتعلق في الاقتصاد مثلاً.

ويذكر آخر أنه لا يمكن أن ندعو إلى الوسطية في الصدق، فتكون صادقاً حيناً وكاذباً حيناً آخر.

وسبب التباس الفهم في تفسير الوسطية بالمنتصف، أن كثيراً من خصال الخير هي بين خصلتين من الشر، كالكرم بين البخل والإسراف والشجاعة بين الجبن والتهور، وحتى الخصال الخلقية، فالطويل جداً والقصير جداً وبينهما الوسط.

إن مفهوم الوسطية هي الخيرية وهي محاسن الأمور، {وكذلك جعلناكم أمة وسطاً} يعني أمة الخيرية، وقوله تعالى: {قال

أوسطهم} يعني خيرهم وأعقلهم، والرسول من أوسط أقوامهم نسباً: أي خيرهم وأفضلهم نسباً. [عادل الماجد نائب رئيس قناة المجد الفضائية: الإعلام في حاجة إلى فكر قوي وصريح يناقش المتغيرات بشكل شفاف/ مجلة الوعي الإسلامي الكويتية، عدد ٤٨٠]

{لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} فأهلناكم بذلك للشهادة على الأمم يوم القيامة إذا أنكروا أن رسلكم قد بلغت رسالات ربهم. وفيه عدالة هذه الأمة لأن الشاهد قوله مقبول؛ والمراد بـ «الأمة» هنا أمة الإجابة؛ ومن هنا نعرف حذق أهل الفقه، حيث قالوا: إن «العدل» من استقام على دين الله؛ يعني: هذه الأمة أمة وسط إذا كانت على دين الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فتكون شهيداً، وتقبل شهادتها إذا استقامت على دين الله، وكانت أمة حقيقية؛ فعليه يؤخذ من هذا حدّ «العدل»: أن العدل من استقام على دين الله.

{وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً} وأنتم لذلك لا تشهد عليكم الأمم، ولكن يشهد عليكم رسولكم بأنه بلغ البلاغ المبين، وفي هذا من التكريم والإنعام ما الله به عليم.

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (يُجَاءُ بَنُو حِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ
لَهُ هَلْ بَلَغْتَ فَيَقُولُ نَعَمْ يَا رَبِّ فَتُسْأَلُ أُمَّتُهُ هَلْ بَلَغَكُمْ فَيَقُولُونَ مَا
جَاءَنَا مِنْ نَذِيرٍ فَيَقُولُ مَنْ شُهِدُكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ فَيُجَاءُ بِكُمْ
فَتَشْهَدُونَ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - : {وَكَذَلِكَ
جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} قَالَ: عَدَلًا {لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ
الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}. وزاد أحمد: (قَالَ: فَيُدْعَوْنَ فَيَشْهَدُونَ لَهُ
بِالْبَلَاغِ، قَالَ: ثُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْكُمْ).

وروى الإمام أحمد وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله
عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَجِيءُ النَّبِيُّ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَمَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَيُدْعَى
قَوْمُهُ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَغَكُمْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: لَا فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ
بَلَغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ:
مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ؛ فَيُدْعَى مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ؛ فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ بَلَغَ هَذَا
قَوْمَهُ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ؛ فَيُقَالُ: وَمَا عِلْمُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جَاءَنَا نَبِيُّنَا
فَأَخْبَرَنَا أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَغُوا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً

وَسَطًا { قَالَ: يَقُولُ: عَدْلًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) صححه الألباني في "السلسلة الصحيحة"

كما في قوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: ٤١] فالنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شهيد علينا؛ يشهد بأننا بُلِّغْنَا، وأقيمت علينا الحجة، وما بقي لنا عذر بأي وجه من الوجوه؛ ولهذا لا عذر لأحد بعد أن يتبين له الهدى أن يشاق الله ورسوله، كما قال تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ١١٥]

قال ابن عاشور: وقد دلت هذه الآية على التنويه بالشهادة وتشريفها حتى أظهر العليم بكل شيء أنه لا يقضى إلا بعد حصولها، ويؤخذ من الآية أن الشاهد شهيد بما حصل له من العلم وإن لم يشهده المشهود عليه، وأنه يشهد على العلم بالسمع والأدلة القاطعة، وإن لم ير بعينه أو يسمع بأذنيه، وأن التزكية أصل عظيم في الشهادة، وأن المُرَكِّي يجب أن يكون أفضل وأعدل من المُرَكِّي، وأن المُرَكِّي لا يحتاج التزكية، وأن الأمة لا تشهد على النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولهذا كان -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

يقول في حجة الوداع: (ألا هل بلغت؟) فيقولون: نعم فيقول: (اللهم اشهد) فجعل الله هو الشاهد على تبليغه وهذا من أدق النكت.

{وَمَا جَعَلْنَا} بمعنى «شرعنا»؛ و«الجعل» يأتي بمعنى الشرع في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: **{مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ}** [المائدة: ١٠٣] أي ما شرع؛ يعني: ما شرعنا القبلة التي كنت عليها -وهي اتجاهك إلى بيت المقدس- إلا لنعلم من يتبع الرسول إذا صرفناك عنها ممن ينقلب على عقبيه. **{الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ}** المراد بالعلم هنا علم حصول ذلك وهو تعلق علمه بوقوع الشيء الذي علم في الأزل أنه سيقع.

فالمراد علم ظهور، أو علم يترتب عليه الجزاء؛ لأن علم الله الكائن في الأزل لا يترتب عليه الجزاء حتى يُمتحن العبد ويُنظر؛ أو علم ظهور - أي علم بأن الشيء حصل، فيعلمه أنه حاصل؛ وأما العلم به قبل وقوعه فهو علم بأنه سيحصل؛ وفرق بين العلم بالشيء أنه سيحصل، والعلم بأنه قد حصل.

{مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ} فثبت على إيمانه وطاعته وانقياده لله ولرسوله. والرسول هو محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ وأظهر وصفه في موضع الإضمار تنويهاً بصدقه، وحثاً على اتباعه؛ إذ مقتضى السياق - لولا ذلك - أن يقال: إلا لنعلم من يتبعه.

{مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ} ممن يؤثر فيه نقد السفهاء فتضطرب نفسه ويجاري السفهاء فيهلك بالردة معهم، وهذا وصف أشد مما لو قال: ممن لم يتبع الرسول؛ لأن الانقلاب على العقب أشد نفوراً، واستنكاراً ممن وقف.

وفيه: أن الله سبحانه وتعالى قد يمتحن العباد بالأحكام الشرعية إيجاباً، أو تحريماً، أو نسخاً. فمن امتحانه -مثلاً- أن الله حرم الصيد على المحرم، ثم أرسله على الصحابة وهم محرمون حتى تناله أيديهم، ورماحهم.

وفيه أن التقدم حقيقة إنما يكون بالإسلام، وأن الرجعية حقيقة إنما تكون بمخالفة الإسلام؛ لقوله تعالى: **{مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ}**؛ فإن هذا حقيقة الرجوع على غير هدى؛ لأن الذي ينقلب على عقبيه لا يبصر ما وراءه؛ فمن قال للمتمسكين بكتاب الله وسنة رسوله رجعيون، قلنا له: بل أنت الرجعي حقيقة؛ لأن الله تعالى

سمى مخالفة الرسول -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- انقلاباً على العقب؛
ولا أبلغ من هذا الرجوع أن الإنسان يرجع على عقبيه رجوعاً أعمى
- والعياذ بالله - لا يدري ما وراءه.

{وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً} شاقة شديدة على النفس صعبة لا تطاق
إلا بجهد كبير، كقوله تعالى: **{وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ}**
[الأنعام: ٣٥] وقول النبي -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في صاحبي
القبر: (إِنَّهُمَا لِيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ) [البخاري] أي في أمر
شاق عليهما.

{إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّٰهُ} إلا على الذين هداهم الله إلى
معرفته ومعرفة محابه ومكارهه، فهم لذلك لا يجدون أي صعوبة في
الانتقال من طاعة إلى طاعة ومن قلة إلى قلة، مادام ربهم قد
أحب ذلك وأمر به.

فالهداية هنا هداية العلم، وهداية التوفيق.. هداية العلم؛ لأنهم
إذا علموا خشوا الله سبحانه وتعالى، ولم يكرهوا شريعته، ولم يكبر
ذلك عليهم، ولم يشق؛ كذلك هداية التوفيق - وهي المهمة: إذا
وفق العبد للانقياد لله سبحانه وتعالى سهل عليه دينه، وصار أيسر
عليه من كل شيء.

وهذا يقع كثيراً للإنسان: تشق عليه بعض الأوامر الشرعية، واجتناب بعض النواهي الشرعية؛ لكن بتمام الإيمان تزول هذه المشقة، وتكون سهلة؛ والعلماء اختلفوا: أيهما أفضل رجل يفعل العبادة بمشقة، ويترك المعصية بمشقة؛ وآخر يفعل العبادة بيسر، ويترك المعصية بيسر؛ قال بعض العلماء: الأول أفضل؛ لأنه مجاهد يجاهد نفسه، فيتعب؛ وقال آخرون: بل الثاني أفضل؛ لأن العبادة كأنها امتزجت بدمه ولحمه، حتى صارت سجية له، ويسيرة عليه لا ينشرح صدره إلا بها؛ والصحيح أن يقال: أما الذي يفعلها بسهولة ويسر وانقياد فهذا أكمل حالاً بلا شك؛ لأنه مطمئن بالإيمان فرح بالطاعة؛ أما الثاني فحاله أدنى؛ ولكنه يؤجر على مجاهدة نفسه على الطاعة؛ وعلى ترك المعصية؛ على أن هذا الثاني الذي قلنا: إنه مفضل، وله أجر المشقة ربما يمن الله عزّ وجلّ عليه - وهو أكرم الأكرمين - حتى تكون العبادة في نفسه سهلة، ويفعلها بارتياح؛ وهذا هو معنى قول بعض أهل العلم: "طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله"؛ فالإنسان قد يفعل العبادة في البداية بمشقة، ويكون عنده نوع من التعب في تنفيذها؛ لكن إذا علم الله من نيته صدق القصد والطلب، يسر الله له الطاعة حتى كانت سجية له.

{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ} يتركه سدًى بدون مجازاة عليه
{إِيمَانُكُمْ} صلاتكم التي صليتموها إلى بيت المقدس قبل التحول
إلى الكعبة، وهي صلاة قرابة سبعة عشر شهراً، وكفى عن الصلاة
بالإيمان لما كانت صادرة عنه، وهي من شعبه العظيمة، وكان ذكر
الإيمان أولى من ذكر الصلاة، لئلا يتوهم اندراج صلاة المنافقين
إلى بيت المقدس.

روى البخاري عن البراء أَنَّهُ مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ
رِجَالٌ وَقُتِلُوا فَلَمْ نَذِرْ مَا نَقُولُ فِيهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: **{وَمَا كَانَ اللَّهُ**
لِيُضِيعَ إِيمَانُكُمْ}.

وفي سنن الترمذي عن ابن عباس، قَالَ: "لَمَّا وُجِّهَ النَّبِيُّ -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَى الْكَعْبَةِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَأْخُذَانَا
الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: **{وَمَا**
كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانُكُمْ}"

{إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ} تنبيه على عنايته بهم إيقاظاً لهم ليشكروه
{لَرُؤُوفٌ} الرأفة أشد الرحمة **{رَحِيمٌ}** والآية جارية مجرى التعليل
لما قبلها، أي للطف رأفته وسعة رحمته، نقلكم من شرع إلى شرع

أصلح لكم وأنفع في الدين، أو لم يجعل لها مشقة على الذين هداهم، أو لا يضيع إيمان من آمن، وهذا الأخير أظهر. أو تأكيد لعدم إضاعة إيمانهم، ومنة، وتعليم بأن الحكم المنسوخ إنما يلغي العمل في المستقبل لا في ماضي.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤)

{قَدْ} للتحقيق {نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} تردده بالنظر إليها مرة بعد أخرى انتظاراً لنزول الوحي، يؤمر فيه باستقبال الكعبة بدل بيت المقدس، لرغبته -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في مخالفة اليهود، ولحبه لقبلة أبيه إبراهيم وهي أول قبلة وأفضلها، وأدعى للعرب إلى الإيمان، لأنها مفخرهم ومزارهم ومطافهم.

{فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا} فنوجهنك أو فنحولنك إلى القبلة التي تحبها وتطمئن إليها وهي الكعبة، ولما كان الرضي مشعرا

بالمحبة الناشئة عن تعقل اختيار في هذا المقام دون تحبها أو تهواها.

وما توجه المسلمون الأوائل نحو بيت المقدس إلا للخروج من شرك الوثنية في الجزيرة العربية، ويريد أن يكسبهم الوراثة الحقيقية لبيت المقدس بدلا عن اليهود والنصارى، كما يكسبهم بالعودة إلى البيت الحرام الوراثة الحقيقية بدلا من مشركي العرب وعباد الأصنام. وبذلك يكون المسلم الموحد هو الوارث الحقيقي لرسالات التوحيد، وبالتالي سيجد كل من يسلم لله وجهه ويتعبد الله بالإسلام أنه الوارث الحقيقي لإبراهيم الخليل عليه السلام.

{قَوْلٌ وَجْهَكَ} والمراد بـ «الوجه» جميع البدن؛ لأن البدن بهيئته وطبيعته إذا استقبل الوجه جهة صار جميع البدن مستقبلاً لها **{شَطْرَ}** جهة **{الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}** صفة مشبهة من الحرم؛ وهو المنع؛ وسمي «حراماً»؛ لأنه يُمنع فيه من أشياء لا تمنع في غيره، ولأنه محترم معظم؛ والمراد به الكعبة، وما حولها من البناء المعروف.

والمعنى: حَوْلَ وجهك جهة المسجد الحرام بمكة كناية عن الكعبة.. فوصف الكعبة بالبيت الحرام، وحرم مكة بالحرم، أوصاف

قديمة شائعة عند العرب، فأما اسم المسجد الحرام فهو من الألقاب القرآنية جعل علما على حريم الكعبة المحيط بها، وهو محل الطواف والاعتكاف ولم يكن يعرف بالمسجد في زمن الجاهلية إذ لم تكن لهم صلاة ذات سجود.

والمسجد مكان السجود فاسم المسجد الحرام علم بالغلبة على المساحة المحصورة المحيطة بالكعبة ولها أبواب منها باب الصفا وباب بني شيبه، ولما أطلق هذا العلم على ما أحاط بالكعبة لم يتردد الناس من المسلمين وغيرهم في المراد منه، فالمسجد الحرام من الأسماء الإسلامية قبل الهجرة، وقد ورد ذكره في سورة الإسراء وهي مكية.

والجمهور على أن المراد بالمسجد الحرام هنا الكعبة لاستفاضة الأخبار الصحيحة بأن القبلة صرفت إلى الكعبة وأن رسول الله أمر أن يستقبل الكعبة وأنه صلى إلى الكعبة يوم الفتح وقال: (هذه القبلة)، قال ابن العربي: وذكر المسجد الحرام والمراد به البيت لأن العرب تعبر عن البيت بما يجاوره أو بما يشتمل عليه، وعن ابن عباس: البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل المشرق والمغرب.

وبهذا الأمر الإلهي تحولت القبلة. ورؤي أنه كان يصلي الظهر في مسجد بني سلمة المعروف الآن بمسجد القبلتين فصلى الرسول والمؤمنون وراءه ركعتين إلى بيت المقدس وركعتين إلى الكعبة.

والأحاديث الصحيحة في هذا ثلاث:

١ / روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر قال: بينا الناس يُقْبَاءُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةُ فُرْآنٌ وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبَلُوهَا وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ. وفيه أن نزول آية تحويل القبلة كان قبل صلاة الصبح وأنه لم يكن في أثناء الصلاة وأنه صلى الصبح للكعبة.

٢ / روى مسلم عن أنسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يُصَلِّي نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَنَزَلَتْ {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ وَهُمْ رُكُوعٌ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ وَقَدْ صَلَّوْا رُكْعَةً فَنَادَى أَلَا إِنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ حُوِّلَتْ فَمَالُوا كَمَا هُمْ نَحْوَ الْقِبْلَةِ.

٣ / روى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب - رضي الله عنهما - قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحب أن يوجه إلى الكعبة فأنزل الله {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} فتوجه نحو الكعبة وقال السفهاء من الناس وهم اليهود {مَا وَلَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} فصلى مع النبي - صلى الله عليه وسلم - رجل ثم خرج بعد ما صلى فمر على قوم من الأنصار في صلاة العصر نحو بيت المقدس فقال هو يشهد أنه صلى مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنه توجه نحو الكعبة فتحرف القوم حتى توجهوا نحو الكعبة.

وحمل ذكر صلاة الصبح في رواية ابن عمر وأنس بن مالك وذكر صلاة العصر في رواية البراء كل على أهل مكان مخصوص. ولما فرضت عليه الصلاة بمكة كان - صلى الله عليه وسلم - يستقبل بيت المقدس وهو في مكان يجعل الكعبة أمامه من جهة الشرق فيكون مستقبلا الكعبة وبيت المقدس معا، فلما قدم المدينة

استقبل بيت المقدس فقط لاستحالة ذلك لأنه إذا كان مستقبلاً
لبيت المقدس تكون الكعبة خلفه تماماً.

استدل المالكية على أنه ينبغي للمصلي أن ينظر تلقاء وجهه؛
لقوله تعالى: **{فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}**؛ فإذا ولى
الإنسان وجهه شطر المسجد الحرام فسيكون نظره تلقاء وجهه
غالباً؛ وهذه المسألة اختلف فيها أهل العلم: ماذا ينظر إليه
المصلي حال القيام؟

فالمشهور عن المالكية أن المصلي ينظر تلقاء وجهه؛ وعند
الإمام أحمد أنه ينظر إلى موضع سجوده - وهو مذهب الشافعي،
وأبي حنيفة؛ واستدلوا لذلك بأثر مرسل عن محمد بن سيرين أن
النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان يطأطئ رأسه، وينظر إلى موضع
سجوده؛ ولأنه أظهر في الخشوع

وقال بعض العلماء: إن الإمام والمنفرد ينظران إلى موضع
السجود؛ وأما المأموم فينظر إلى إمامه؛ واستدلوا لذلك بأحاديث
في البخاري؛ وهي أن الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حينما صلى
صلاة الكسوف، وأخبر أصحابه بأنه عُرِضَتْ عليه الجنة والنار قال
لهم: (وذلك حين رأيتموني تقدمت وتأخرت)؛ وهذا دليل على أنهم

ينظرون إليه؛ ومنها أنه لما صنع له المنبر قام يصلي عليه، فكان يقوم، ويركع؛ فإذا أراد السجود نزل، وسجد على الأرض؛ وقال: (إنما فعلت هذا لتأتموا بي، ولتعلموا صلاتي)؛ وهذا دليل على أنهم ينظرون إليه؛ ومنها أيضاً أنهم لما أخبروا أن الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يقرأ في صلاة السر؛ قيل لهم: بم تعرفون ذلك؟ قالوا: «باضطراب لحيته»؛ وهذه كلها في الصحيح؛ فهذا دليل على أن المأموم ينظر إلى إمامه؛ ولأنه أبلغ في الائتمام به؛ لأن الإمام قد يقوم، وقد يجلس ساهياً مثلاً؛ فإذا كان المأموم ينظر إلى الإمام كان ذلك أبلغ في الاقتداء به؛ أما الإمام، والمنفرد فإنهما ينظران إلى موضع السجود؛ وهذا القول أقرب؛ ولا سيما إذا كان المأموم محتاجاً إلى ذلك، كما لو كان لا يسمع، فيريد أن ينظر إلى الإمام ليقتدي به، أو نحو ذلك.

لكن يستثنى من ذلك إذا كان جالساً؛ فإنه ينظر إلى موضع إشارته؛ لقول عبد الله بن الزبير: «كان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لا يجاوز بصره إشارته»؛ ومما يستثنى من ذلك عند بعضهم: إذا كنت في المسجد الحرام ويمكنك مشاهدة الكعبة؛ فإنك تنظر إلى الكعبة؛ ومنها إذا كنت في خوف وحولك العدو؛

فإنك تنظر إلى جهة العدو؛ فهذه المسائل الثلاث تستثنى؛
والراجع في مسألة الكعبة أن المصلي لا ينظر إليها حال صلاته؛
لعدم الدليل على ذلك؛ ولأنه ربما ينشغل به عن صلاته، لا سيما
إذا كان الناس يطوفون حولها؛ وأما استثناء الصلاة حال الخوف
فصحيح؛ لدخوله في عموم قوله تعالى: **{وَاخْذُوا حِذْرَكُمْ}**؛ وقد ورد
عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه بعث طليعة؛ فكان يصلي
وهو يلتفت إلى الشعب هل جاء الطليعة أم لا.

{وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ} في نواحي البلاد وأقطار الأرض، لئلا يتوهم
أن هذه القبلة مختصة بالنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أو بأهل
المدينة، لأن الأصل في التشريعات الإسلامية أن تعم الرسول وأُمَّته
إلا إذا دل دليل على تخصيص أحدهما، ولما خيف إيهام أن يكون
هذا الحكم خاصاً به أو أن تجزي فيه المرة أو بعض الجهات
كالمدينة ومكة أريد التعميم في المكلفين وفي جميع البلاد **{فَوَلُّوا
وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}** أي شطر المسجد الحرام.

{وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ} أي
تحول القبلة جاء منصوباً عليه في الكتب السابقة، وفي إضافة
الرب إليهم تنبيه على أنه يجب اتباع الحق الذي هو مستقر ممن

هو معتن بإصلاحك، كما قال تعالى: {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ
مِنَ الْمُتَمَتِّينَ} [البقرة: ١٤٧]

{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} فما أحدثوه من التشويش
والتشويه إزاء تحول القبلة فقد علمه وسيجزئهم به إذ لم يكن تعالى
بغافل عما يعملونه.

وفي خطابهم -أيضا- بأن الله لا يغفل عن أعمالهم، تحريكا
لهم بأن يعملوا بما علموا من الحق، لأن المواجهة بالشيء تقتضي
شدة الإنكار وعظم الشيء الذي ينكر.

قال ابن عاشور: وهذا الخبر كناية عن الوعيد بجزائهم عن سوء
صنعهم لأن قول القادر: "ما أنا بغافل عن المجرم" تحقيق لعقابه إذ
لا يحول بين القادر وبين الجزاء إلا عدم العلم فلذلك كان وعيدا
لهم ووعيدهم يستلزم في المقام الخطابي وعدا للمسلمين لدلالته
على عظيم منزلتهم فإن الوعيد إنما ترتب على مخالفتهم للمؤمنين
فلا جرم أن سيلزم جزاء للمؤمنين على امتثال تغيير القبلة، ولأن
الذي لا يغفل عن عمل أولئك لا يغفل عن عمل هؤلاء فيجازى كلا
بما يستحق.

وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا
أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَيْنَ
اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ
الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا
يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ
(١٤٧)

{وَلَيْنَ أَتَيْتَ} جئت {الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ} حجة
وبرهان **{مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ}** هذه تسلية للرسول عن عدم متابعة أهل
الكتاب له، فمن نازع عناداً فلا يرجى منه انتزاع، وأضاف تعالى
القبلة إليه، لأنه المتعبد بها لكونها قبلة شرعه، ولأنه سألها بلسان
الحال، والمقتدى به في التوجه إليها.
والمعنى أن إنكارهم أحقية الكعبة بالاستقبال ليس عن شبهة
حتى تزيله الحجة، ولكنه مكابرة وعناد فلا جدوى في إطناب
الاحتجاج عليهم.

وقد احتج أبو مسلم بهذه الآية، على أن علم الله في عباده وفيما يفعلونه، ليس بحجة لهم فيما يرتكبون، وأنهم مستطيعون لأن يفعلوا الخير الذي أمروا به، ويتركوا ضده الذي نهوا عنه.

{وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتَهُمْ} وأفرد القبله، وإن كانت مشاة، إذ لليهود قبله، وللنصارى قبله مغايرة لتلك القبله، لأنهما اشتركتا في كونهما باطلتين، فصار الاثنان واحداً من جهة البطلان، وحسن ذلك المقابلة في لفظ **{مَا تَبِعُوا قِبَلَتَكَ}**

{وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ} فالنصارى لم يكونوا ليصلوا إلى بيت المقدس قبله اليهود، ولا اليهود ليصلوا إلى مطلع الشمس قبله النصارى، وذلك إشارة إلى أن اليهود لا تنتصر، وإلى أن النصارى لا تنهض، في أغلب أحوالهم، وذلك لما بينهما من إفراط العداوة والتباغض، وأن كلاهما يسفه حلم الآخر ويكفره، إذ تباينت طريقتهما.

{وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ} والأهواء جمع هوى، وهو الميل؛ ومنه يقال للنجم هوى إذا مال وسقط؛ ويطلق «الهوى» في الغالب على الميل عن الحق، ويقابله «الهدى»؛ فيقال: اتبع الهوى بعد الهدى.

وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ) فهو دليل على أن الهوى يكون في الخير كما يكون في الشر.

وقيل الهوى: هو الحب البليغ بحيث يقتضي طلب حصول الشيء المحبوب ولو بحصول ضرر لمحصلة، فلذلك غلب إطلاق الهوى على حب لا يقتضيه الرشد ولا العقل ومن ثم أطلق على العشق، وشاع إطلاق الهوى في القرآن على عقيدة الضلال ومن ثم سمي علماء الإسلام أهل العقائد المنحرفة بأهل الأهواء.

وفي الآية تعليق وقوع الشيء على شرط لا يقتضي إمكان ذلك الشرط، وهذا كقوله تعالى في الملائكة: {وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَلَذِلَّكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ} [الأنبياء: ٢٩] وقوله: {وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الزمر: ٦٥] وقوله: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [الزخرف: ٨١] وفهم من ذلك الاستحالة، لأن المعلق على المستحيل مستحيل.

وقالوا: ما خوطب به من هو معصوم مما لا يمكن وقوعه منه، فهو محمول على إرادة أمته، ومن يمكن وقوع ذلك منه، وإنما جاء الخطاب له على سبيل التعظيم لذلك الأمر، والتفخيم لشأنه، حتى يحصل التباعد منه. ونظير ذلك قولهم: "إياك أعني واسمعي يا جارة".

{مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ} أي من الدلائل والآيات التي تفيد لك العلم وتحصله، فأطلق اسم الأثر على المؤثر. سمى تلك الدلائل علماً، مبالغة وتعظيماً وتنبيهاً على أن العلم من أعظم المقامات شرفاً ومرتبة. ودلت الآية على أن توجه الوعيد على العلماء أشد من توجهه على غيرهم.

{إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ} والمراد بالظالمين الظالمون أنفسهم، وللظلم مراتب دخلت كلها تحت هذا الوصف، وفيه التلطف في الخطاب للرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ لأنك لو قلت لرجل: «أنت رجل ظالم» لكان أشد وقعاً من قولك له: أنت من الظالمين؛ ونظيره قوله تعالى: **{عَبَسَ وَتَوَلَّى}** [عبس: ١] عندما تقرأها تظن أن العابس والمتولي غير الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ تظن أنه رجل آخر؛ ولكن المراد به الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ} أعطيناهم {الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ} أي يعرفون أن
محمد نبي الله ورسوله لما في كتبهم من صفاته الواضحة القطعية،
وهو استطرد بأن طعنهم في القبلية الإسلامية ما هو إلا من مجموع
طعنهم في الإسلام وفي النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- **{كَمَا**
يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} تشبيهه في جلاء المعرفة وتحقيقها، فإن معرفة المرء
بعلائقه معرفة لا تقبل اللبس، وخص الأبناء لشدة تعلق الآباء بهم
فيكون التملّي من رؤيتهم كثيرا فتمكن معرفتهم فمعرفة هذا الحق
ثابتة لجميع علمائهم.

وعدل عن أن يقال يعلمونه إلى يعرفونه لأن المعرفة تتعلق غالبا
بالذوات والأمر المحسوسة قال تعالى: **{تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ**
النَّعِيمِ} [المطففين: ٢٤] ولهذا يوصف الله تعالى بصفة العلم فيقال
العليم، ولا يوصف بصفة المعرفة فلا يقال الله يعرف كذا.

{وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} تخصيص لبعض
الذين أوتوا الكتاب بالعناد في أمر القبلية وفي غيره مما جاء به النبي
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وذم لهم بأنهم يكتُمون الحق وهم يعلمونه
وهؤلاء معظم الذين أوتوا الكتاب.

فكتمان الحق لم يكن من جميعهم؛ بل من فريق منهم؛ وطائفة أخرى لا تكتُم الحق؛ فإن من النصارى من آمن كالنجاشي؛ ومن اليهود من آمن، ولم يكتُم الحق كعبد الله بن سلام.

{الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} الشاكين. وهذا النهي يراد به التشييت؛ إذ لا يمكن وقوع الامتراء من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيه عناية الله سبحانه وتعالى بالرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالتشييت؛ لأن قوله تعالى له: **{الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ}** يقتضي ثباته عليه؛ وقوله تعالى: **{فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}** يقتضي استمراره على هذا الثبات؛ ولا شك أن في هذا من تأييد الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وتشبيته ما هو ظاهر.

وفيه أيضا تحذير الأمة، وهذه عادة القرآن في كل تحذير مهم ليكون خطاب النبي بمثل ذلك وهو أقرب الخلق إلى الله تعالى وأولاهم بكرامته دليلا على أن من وقع في مثل ذلك من الأمة قد حقت عليه كلمة العذاب، وليس له من النجاة باب.

وَلِكُلِّ وِجْهَةً هُوَ مُوَلِّيُّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨)
وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيْكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (١٥٢)

{وَلِكُلِّ} أهل ملة كالإسلام واليهودية والنصرانية **{وِجْهَةً هُوَ مُوَلِّيُّهَا}** متجه إليها .. أي: قبله يستقبلون ويولون وجوههم لها في صلاتهم، الله تعالى موليا إياهم وشارعها ومكلفهم بها، اتبعها من اتبعها وتركها من تركها، فقبله الأنبياء قبلك بيت المقدس، وقبلتك

الكعبة، وفي ذلك تنبيه على شكر الله، إذ وفق المسلمين إلى اتباع ما أمر به من التوجه واختارهم لذلك.

وليس المراد بهذه الجملة إقرار أهل الكفر على كفرهم؛ وإنما المراد -والله أعلم- تسلية المؤمنين، وتثبيتهم على ما هم عليه من الحق؛ لأن لكل أحد وجهة ولّاه الله إياها حسب ما تقتضيه حكمته.

وقيل: لكل قوم من المسلمين من أهل سائر الآفاق جهة وجانب من الكعبة يستقبلها ويوليها وجهه، كأنه أفاد أنه ليس جهة من جهاتها بأولى أن تكون قبله من غيرها.

وقال ابن عاشور: بعد أن بين الله تعالى للمسلمين فضيلة قبلتهم، وأنهم على الحق، وأياسهم من ترقب اعتراف اليهود بصحة استقبال الكعبة، ذيل ذلك بهذا التذييل الجامع لمعان سامية، طيا لبساط المجادلة مع اليهود في أمر القبلة.. والمعنى أن لكل فريق اتجاها من الفهم والخشية عند طلب الوصول إلى الحق. وهذا الكلام موجه إلى المسلمين أي اتركوا مجادلة أهل الكتاب في أمر القبلة ولا يهمنكم خلافهم فإن خلاف المخالف لا يناكد حق المحق.

وفيه صرف للمسلمين بأن يهتموا بالمقاصد ويعتنوا بإصلاح مجتمعهم، وفي معناه قوله تعالى: **{لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}** [البقرة: ١٧٧] الآية، ولذلك أعقبه بقوله: **{فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ}**

{فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ} وناسب هذا أن من جعل الله تعالى له شريعة، أو قبة، أو صلاة، فينبغي الاهتمام بالمسارعة إليها. قال قتادة: "الاستباق في أمر الكعبة رغماً لليهود بالمخالفة". والآية تدل على أن المنافسة تكون في مصادفة الحق، وأن تعجيل الطاعات عامة أفضل من تأخيرها.

{أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً} جملة في معنى العلة للأمر باستباق الخيرات، وتتضمن أيضاً وعظاً وتحذيراً وإظهاراً لقدرته **{يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً}** يبعثكم ويحشركم للثواب والعقاب، فأنتم لا تعجزونه، وافقتم أم خالفتم، ولذلك قال ابن عباس: "يعني يوم القيامة". وهو تحريض على المبادرة بالعمل الصالح، أي: فأنتم صائرون إلى الله من كل مكان فبادروا بالطاعة قبل الفوت بالموت.

{إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} أي لا يستبعد إتيان الله تعالى بالأشياء المتمزقة في الجهات المتعددة المتفرقة، فإن قدرة الله تتعلق بالممكنات، وهذا منها.

وهذه الجملة المصدرة بأن تجيء دوما كالعلة لما قبلها، فكان المعنى: إتيان الله بكم جميعاً لقدرته على ذلك.

{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ} وفي أي مكان حللت في سفر **{فَقَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ}** جهة **{الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}** الذي فيه الكعبة، وصِف بالحرام لاحترامه وتعظيمه. حتى ما حوله صار محترماً معظماً؛ فالبلد كله آمن حتى الأشجار التي لا إحساس لها آمنة في هذا المكان.

وذكر خروج السفر لأنه مظنة المشقة في الاهتداء لجهة الكعبة فربما يتوهم متوهم سقوط الاستقبال عنه، فهو إعلام بأن استقبال الكعبة في الصلاة المفروضة لا تهاون في القيام به ولو في حالة العذر كالسفر.

{وَأِنَّهُ} توليك شطر المسجد الحرام **{لَلْحَقِّ}** هو الشيء الثابت؛ لأنه محقق - أي مثبت؛ ومنه قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ}** [يونس: ٩٦] **{حقَّت}** بمعنى

ثبتت ووجبت **{مِنْ رَبِّكَ}** زيادة اهتمام بأمر القبلة، فاستقبال هذه القبلة ليس لمجرد أن نرضيك، بل هو الحق الثابت الذي لا يعرض له نسخ ولا تبديل.

{وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} في امثال هذا التكليف العظيم الذي هو التحويل من جهة إلى جهة، وذلك هو محض التعبد. وفيه زيادة تحذير من التساهل في أمر القبلة.

فالجهاات كلها بالنسبة إلى الباريء تعالى مستوية، فكونه خص باستقبال هذه زماناً، ونسخ ذلك باستقبال جهة أخرى متأبدة، لا يظهر في ذلك في بادي الرأي إلا أنه تعبد محض.

فلم يبق في ذلك إلا امثال ما أمر الله به، فأخبر تعالى أنه لا يغفل عن أعمالكم، بل هو المطلع عليها، المجازي بالثواب من امثال أمره، وبالعقاب من خالفه.

ولما انتهى إلى ذكر الوعيد، ذكر لفظ {الله} المقتضي للعبادة التي من أخل بها استحق أليم العذاب.

ثم كرّر الحق تعالى الأمر بالتوجه إلى الكعبة **{وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}** لأن قوله: **{فَلَنُؤَلِّقَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}** [البقرة: ١٤٤]

ظاهره أنه أمر له باستقبال الكعبة وهو مقيم بالمدينة. فبين بهذا الأمر الثاني تساوي الحالين إقامة وسفراً في أنه مأمور باستقبال البيت الحرام، ثم عطف عليه بقوله: **{وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ}** وحيثما حللتهم سفراً **{فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ}** ليعين مساواتهم له في ذلك، أي في حالة السفر، والأولى في حالة الإقامة.

وظاهر هذه الجملة أنها كررت تأكيداً لما قبلها في الآية التي تليها فقط، لا أن ذلك تأكيد للآية الأولى، لأننا قد بينا أن الأولى في الإقامة، والثانية في السفر، وأما الثالثة فهي في السفر، فهي تأكيد للثانية.

وحكمة هذا التأكيد تثبت هذا الحكم، وتقدير نسخ استقبال بيت المقدس، لأن النسخ هو من مظان الفتنة والشبهة وتزيين الشيطان للطعن في تبديل قبة بقبلة، إذ كان ذلك صعباً عليهم، فأكد بذلك أمر النسخ وثبت. ولهذا المعنى رفع التكرير في القصص.

وقيل: لما كانت هذه الواقعة أول الوقائع التي ظهر النسخ فيها في شرعنا، كررت للتأكيد والتقريب وإزالة الشبهة.

وقد تكرر الأمر باستقبال النبي الكعبة ثلاث مرات، وتكرر الأمر باستقبال المسلمين الكعبة مرتين. وتكرر أنه الحق ثلاث مرات، وتكرر تعميم الجهات ثلاث مرات، والقصد من ذلك كله التنويه بشأن استقبال الكعبة والتحذير من تطرق التساهل في ذلك تقريراً للحق في نفوس المسلمين، وزيادة في الرد على المنكرين التأكيد.

{لئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ} أي احتجاج، والحجة هي: الدليل القوي الذي يظهر به صاحبه على من يخاصمه، فالحجة لا تطلق حقيقة إلا على البرهان والدليل الناهض المبكت للمخالف.

{إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ} إلا من ظلم منهم، باحتجاجه فيما قد وضع له، والمعنى: لكن الذين ظلموا منهم لن تنجوا من محاجتهم ومخاصمتهم.

وإنما أطلق عليه حجة لمشابهته للحجة في سياقهم إياه مساق البرهان، كما تقول: ما لك عليّ حجة إلا أن تظلمني، أي ما لك حجة ألبتة، ولكنك تظلمني.

ولا يلزم من الاحتجاج قبوله، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ} [الشورى: ١٦] أي باطلة.

وقد احتج على المسلمين بتحولهم في القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة: اليهود، والمشركون، والمنافقون؛ فالحجة التي احتج بها اليهود لها جهتان:

الأولى: أنهم قالوا: إن الرجل ترك ملتنا إلى ملة آباءه. والجهة الثانية: أنه لو بقي على استقبال بيت المقدس لقالوا: ليس هذا هو النبي الذي جاء وصفه في التوراة.

وأما حجة المشركين فقالوا: إنه متبع هواه؛ فقد داهن اليهود أول أمره، ثم عاد، واستقبل الكعبة؛ وقالوا: "هذا الرجل خالفنا في عقيدتنا وخالفنا في ملتنا حين هاجر إلى المدينة، ثم رجع إلى قبلتنا؛ فسيرجع إلى ديننا".

وأما حجة المنافقين فقالوا: إن هذا الرجل لا يثبت على دينه؛ ولو كان نبياً حقاً لثبت على دينه.

وهذه عادة أهل الباطل يموّهون، ويقلبون الحق باطلاً؛ لأنهم يريدون غرضاً سيئاً؛ بل إن تحوله إلى استقبال الكعبة مع هذه

الاعتراضات، والمضايقات دليل على أنه رسول الله حقاً فاعل ما يؤمر به.

{فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي} هذا فيه تحقير لشأنهم، وأمر باطراحهم، ومراعاة لأمره تعالى. ونهى عن خشيتهم فيما يزخرفونه من الكلام الباطل، فإنهم لا يقدرّون على نفع ولا ضرر. وأمر بخشيته هو في ترك ما أمرهم به من التوجه إلى المسجد الحرام.

و«الخشية»، و«الخوف» متقاربان؛ إلا أن أهل العلم يقولون: إن الفرق أن «الخشية» لا تكون إلا عن علم؛ لقوله تعالى: **{إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}** [فاطر: ٢٨] بخلاف «الخوف»: فقد يخاف الإنسان من المخوف وهو لا يعلم عن حاله.

والفرق الثاني: أن «الخشية» تكون لعظم المخشي؛ و«الخوف» لضعف الخائف - وإن كان المخوف ليس بعظيم، كما تقول مثلاً: الجبان يخاف من الجبان - يخاف أن يكون شجاعاً.

{وَلَا تُتَمِّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ} «النعمة» هي ما ينعم به الإنسان؛ ويقال: «نِعْمَة» بكسر النون؛ ويقال: «نِعْمَة» بالفتح؛ لكن الغالب في نِعْمَة الخير أن تكون بالكسر؛ و«النَّعْمَة» بالفتح: التمتع من غير شكر، كما قال تعالى: **{وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ}** [الدخان: ٢٧]،

وقال تعالى: **{وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا}**
[المزمل: ١١]

وإتمام النعمة بما هداهم إليه من القبلة، أو بما أعدّه لهم من ثواب الطاعة، أو بما حصل للعرب من الشرف بتحويل القبلة إلى الكعبة، أو بإبطال حجج المحتجين عليهم، أو بإدخالهم الجنة، أو بالموت على الإسلام، أو النعمة سنة الإسلام، والقرآن، ومحمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، والستر، والعافية، والغنى عن الناس؛ أو بشرائع الملة الحنيفية، أقوال ثمانية صدرت مصدر المثال، لا مصدر التعيين، وكل فيها نعمة.

والمراد بالإتمام هنا إعطاء الشيء وافرا من أول الأمر لا إتمامه بعد أن كان ناقصا، فهو قريب من قوله تعالى: **{وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}** [البقرة: ١٢٤] أي امتثلهن امتثالا تاما، وليس المراد أنه فعل بعضها ثم فعل بعضا آخر، فمعنى الآية: ولتكون نعمتي نعمة وافرة في كل حال **{وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}** رجاء الهداية مطلقاً.

{كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ} ولأتم نعمتي عليكم إتماماً مثل إتمام إرسال الرسول فيكم، فالإتمام الأول بالثواب في الآخرة،

والإتمام الثاني بإرسال الرسول إلينا في الدنيا، وهي نعمة امتن الله بها، قال تعالى: **{لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ}** [آل عمران: ١٦٤]

{يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ} يطهركم من الذنوب والأخلاق السيئة والملكات الرديئة، وينمي أخلاقكم، ودينكم.

وأصل التزكية تطهير النفس، مشتقة من الزكاة وهي النماء، وذلك لأن في أصل خلقه النفوس كمالات وطهارات تعترضها أرجاس ناشئة عن ضلال أو تضليل، فتهديب النفوس وتقويمها يزيدنها من ذلك الخير المودع فيها، وفي الإرشاد إلى الصلاح والكمال نماء لما أودع الله في النفوس من الخير في الفطرة.

{وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ} يعلمكم الشريعة، فالكتاب هنا هو القرآن باعتبار كونه كتاب تشريع لا باعتبار كونه معجزا **{وَالْحِكْمَةَ}** ويعلمكم أصول الفضائل، فالحكمة هي التعاليم المانعة من الوقوع في الخطأ والفساد.

وقدم هنا التزكية على التعليم، باعتبار القصد؛ لأنها القصد من الإرسال، وهي التطهير، وآخره في دعوة إبراهيم **{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ}**

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [البقرة: ١٢٩] باعتبار الفعل، لأن الإرسال والتعليم مقدم على التطهير.

{وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ} وهو ذكر عام بعد خاص، لأنهم لم يكونوا يعلمون الكتاب ولا الحكمة.

وقيل: تعميم لكل ما كان غير شريعة ولا حكمة من معرفة أحوال الأمم من قصص من سلف، وقصص ما يأتي من الغيوب، وأحوال سياسة الدول وأحوال الآخرة وغير ذلك.

والمعنى: أنكم كنتم على حالة لا تقرأون كتاباً، ولا تعرفون رسولاً، ومحمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رجل منكم، أتاكم بأعجب الآيات الدالة على صدقه.

وتشعر الآية بالامتنان بأنه لم يسبق أن يرسل ولا يبعث في العرب رسول غير نبينا محمد - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، ولذلك أفردته فقال: {رسولاً منهم} ووصفه بأوصاف كلها معجز لهم، وهي كونه منهم، وتالياً عليهم آيات الله، ومزكياً لهم، ومعلماً لهم الكتاب والحكمة وما لم يكونوا يعلمون.

وقدم كونه منهم، أي يعرفونه شخصاً ونسباً ومولداً ومنشأً، لأن معرفة ذات الشخص متقدمة على معرفة ما يصدر من أفعاله.

وأتى ثانياً بصفة تلاوة الآيات إليه تعالى، لأنها هي المعجزة الدالة على صدقه، الباقية إلى الأبد.

وأتى ثالثاً بصفة التزكية، وهي التطهير من أنجاس الضلال، لأن ذلك ناشئ عن إظهار المعجز لمن أراد الله تعالى توفيقه وقبوله للحق.

وأتى رابعاً بصفة تعليم الكتاب والحكمة، لأن ذلك ناشئ عن تطهير الإنسان، باتباع النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فيعلمه إذ ذاك ويفهمه ما انطوى عليه كتاب الله تعالى، وما اقتضته الحكمة الإلهية.

وأتى بهذه الصفات فعلاً مضارعاً ليدل بذلك على التجدد، لأن التلاوة والتزكية والتعليم تتجدد دائماً. وأما الصفة الأولى، وهي كونه منهم، فليست بمتجددة، بل هو وصف ثابت له.

وكما أوليتكم هذه النعمة وجعلتها لكم دليلاً **{فَاذْكُرُونِي}**
{أَذْكُرْكُمْ} فاذكروني بالشكر، أذكركم برحمتي، كما قال تعالى:
{وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ} [البقرة: ١٩٨]

وكون الله يذكرك أعظم من كونك تذكره؛ ولهذا قال الله تعالى في الحديث القدسي: (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي؛ ومن

ذكرني في ملاً ذكرته في ملاً خير منه)؛ وذكر الله يكون بالقلب، وباللسان، وبالجوارح .. فالمدار على ذكر القلب؛ لقوله تعالى: **{وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}** [الكهف: ٢٨]؛ وذكر الله باللسان، أو بالجوارح بدون ذكر القلب قاصر جداً، كجسد بلا روح؛ وصفة الذكر بالقلب التفكير في آيات الله، ومحبه، وتعظيمه، والإنابة إليه، والخوف منه، والتوكل عليه، وما إلى ذلك من أعمال القلوب.

وأما ذكر الله باللسان فهو النطق بكل قول يقرب إلى الله؛ وأعلاه قول: «لا إله إلا الله»

وأما ذكر الله بالجوارح فبكل فعل يقرب إلى الله: كالقيام في الصلاة، والركوع، والسجود، والجهد، والزكاة، كلها ذكر لله؛ لأنك عندما تفعلها تكون طائعاً لله؛ وحينئذ تكون ذاكراً لله بهذا الفعل؛ ولهذا قال الله تعالى: **{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ}** [العنكبوت: ٤٥] أي أكبر من غيره من الطاعات.

قال ذو النون المصري رحمه الله: من ذكر الله تعالى ذكرا على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضا من كل شيء.

{وَاشْكُرُوا لِي} الشكر: إظهار النعمة بصرفها فيما من أجله وهبها الله تعالى لعباده.

{وَلَا تَكْفُرُونَ} وهو من كفر النعمة، على حذف مضاف، أي ولا تكفروا نعمتي. ولو كان من الكفر ضد الإيمان، لكان: "ولا تكفروا"، أو "ولا تكفروا بي".

وهو نهى عن الكفران للنعمة، والكفران مراتب أعلاها جحد النعمة وإنكارها ثم قصد إخفائها، ثم السكوت عن شكرها غفلة وهذا أضعف المراتب وقد يعرض عن غير سوء قصد لكنه تقصير.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (١٥٤) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ

مُصِيبَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ
عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ
(١٥٧)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} هزهم بهذا النداء المتضمن هذا الوصف
الشريف، وهو الإيمان مجعولاً فعلاً ماضياً في صلة {الذين}، دالاً
على الثبوت والالتباس به في تقدّم زمانهم، ليكونوا أدعى لقبول ما
يرد عليهم من الأمر والتكليف الشاق.

{اسْتَعِينُوا} الاستعانة: طلب المعونة والقدرة على القول أو

العمل

{بِالصَّبْرِ} اجعلوا الصبر عوناً لكم، والصبر: حمل النفس
وتوطئتها على احتمال المكاره والتكاليف الشاقة، والصبر أمر
قلبي، وهو من خواص الإنسان.

وروي عن علي -كرم الله وجهه- أنه قال: الصبر من الإيمان
بمنزلة الرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس له.

والصبر شاق على النفوس؛ لكن يجب على الإنسان أن يصبر؛
ولهذا من لم يوفق للصبر فاته خير كثير؛ والذي يصبر أيضاً غالباً
ينتظر الفرج لا سيما إذا صبر بإخلاص، وحسن نية؛ وانتظار الفرج

عبادة، وباب للفرج؛ لقول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكَرَّهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) [أحمد]؛ لأنه إذا كان منتظرًا للفرج هان عليه الصبر؛ لأنه يؤمل أن الأمور ستزول، وأن دوام الحال من المحال؛ فإذا كان يؤمل الأجر في الآخرة، ويؤمل الفرج في الدنيا هان عليه الصبر كثيرًا؛ وهذه لا شك من الخصال الحميدة التي جاء بها الإسلام، ودليل على أن الأمور تسهل بالصبر؛ مهما بلغت الأمور أصبر، فتهون؛ ولهذا جعل الله الصبر عونًا.

{وَالصَّلَاةُ} فاندرج المصلون تحت الصابرين اندراج الفرع تحت الأصل، فمن الآثار الحميدة للصلاة أنها تعين العبد في أموره .. روى أبو داود عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى.

{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} يمدهم بالعون والقوة والتأييد. وقوله تعالى: **{مع الصابرين}** ولم يقل: "مع المصلين" لوجوه ثلاثة:
الوجه الأول: أن الصلاة من الصبر؛ لأنها صبر على طاعة الله.

الوجه الثاني: أن الاستعانة بالصبر أشق من الصلاة؛ لأن الصبر مُرّ يكابده الإنسان، ويعاني ويصابر، ويتغير دمه حتى من يراه يقول: هذا مريض.

الوجه الثالث: أنه إذا كان مع الصابرين فهو مع المصلين من باب أولى بدليل أنه ثبت عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن الإنسان المصلي يناجي ربه (فَإِنَّ اللَّهَ قَبْلَ وَجْهِهِ إِذَا صَلَّى) [البخاري]

قال ابن عاشور: وهو اعتراض مطنب ابتدئ به إعداد المسلمين لما هم أهلُه من نصر دين الله شكرا له على ما خولهم من النعم المعدودة في الآيات السالفة من جعلهم أمة وسطا وشهداء على الناس، وتفضيلهم بالتوجه إلى استقبال أفضل بقعة، وتأييدهم بأنهم على الحق في ذلك، وأمرهم بالاستخفاف بالظالمين وأن لا يخشوهم، وتبشيرهم بأنه أتم نعمته عليهم وهداهم، وامتن عليهم بأنه أرسل فيهم رسولا منهم، وهداهم إلى الامتثال للأحكام العظيمة كالشكر والذكر، فإن الشكر والذكر بهما تهيئة النفوس إلى عظيم الأعمال، من أجل ذلك كله أمرهم هنا بالصبر والصلاة، ونبههم إلى أنهما عون للنفس على عظيم الأعمال، فناسب تعقيبها

بها، وأيضا فإن ما ذكر من قوله: **{لَيْلًا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ}** مشعر بان أناسا متصدون لشغبتهم وتشكيكهم والكيد لهم، فأمرُوا بالاستعانة عليهم بالصبر والصلاة.

{وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} وهو الذي قاتل لتكون كلمة الله هي العليا **{أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ}** بل هم أحياء حياة برزخية لا نعلم كيفيتها؛ ولا تحتاج إلى أكل، وشرب، وهواء، وما يقوم به الجسد؛ ولهذا قال تعالى: **{وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ}** حياتهم لا شعور لكم بها لأنها حياة برزخية غيبية؛ ولولا أن الله عز وجل أخبرنا بها ما كنا نعلم بها، وأكثر أهل العلم على أنهم أحياء في الوقت. ومعنى هذه الحياة: بقاء أرواحهم دون أجسادهم، إذ أجسادهم نشاهد فسادها وفناءها.

ومذهب أهل السنة: أن الأرواح لا تفسد، وأنها باقية بعد خروجها من البدن. فأرواح أهل السعادة منعمة إلى يوم الدين، وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين.

والفرق بين الشهيد وغيره من المؤمنين إنما هو الرزق، فضلهم الله بذلك .. روى مسلم عن مسروق قال سألنا عبد الله عن هذه الآية **{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ**

رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ { قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ اطَّلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا. فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نَقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرْكُوا.

وروى الإمام أحمد بإسناد حسن عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (الشُّهَدَاءُ عَلَى بَارِقٍ -نَهْرٍ بِبَابِ الْجَنَّةِ- فِي قُبَّةٍ خَضِرَاءَ، يَخْرُجُ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ بُكْرَةً وَعَشِيًّا)

ودلالة الأحاديث أنها أحوال لطوائف من الشهداء، أو في أوقات مختلفة. فلذا لا يقال لمن قتل في سبيل الله مات، ولكن استشهد وهو شهيد وحي عند ربه حياة لا نحسها ولا نشعر بها لمفارقتها للحياة في هذه الدار.

{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ} لنختبرنكم.. وأخبرهم بذلك قبل وقوعه تطميناً لقلوبهم، لأنه إذا تقدم العلم بالواقع، كان قد استعد له، بخلاف

الأشياء التي تفاجيء، فإنها أصعب على النفس، وزيادة ثواب وأجر على ما يحصل لهم من انتظار المصيبة، وإخباراً بمغيب يقع وفق ما أخبر، وتمييزاً لمن أسلم مريداً وجه الله ممن نافق، وازدياد إخلاص في حال البلاء على إخلاصه في حال العافية، وحملاً لمن لم يسلم على النظر في دلائل الإسلام، إذ رأى هؤلاء المبتلين صابرين على دينهم ثابتي الجأش فيه، مع ما ابتلوا به.

{بَشْيءٍ} الباء فيه للإلصاق، وأفردته ليدل على التقليل **{مِّنَ}** **{الْخَوْفِ وَالْجُوعِ}** القحط **{وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ}** بالقتل أو الموت **{وَالثَّمَرَاتِ}** قيل: قلة النبات، وانقطاع البركات.

وقال الشافعي: موت الأولاد، لأن ولد الرجل ثمرة قلبه. وروى الترمذي عن أبي موسى الأشعري -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمْدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ، وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ).

وكل هذه المحن من الله تعالى، ووعد به المؤمنين يدل على أنها ليست عقوبات، بل إذا قارنها الصبر أفادت درجة عالية في الدين.

فكل هذه الابتلاءات لإظهار من يصبر على إيمانه وطاعة ربه بامثال أمره واجتناب نهيه ومن لا يصبر فيحرم ولاية الله وأجره، ولذلك قال تعالى:

{وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} أي بالشواب على الصبر. والصبر أصله الحبس، وثوابه غير مقدر، لكن لا يكون ذلك إلا بالصبر عند الصدمة الأولى، كما روى البخاري عن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: مرَّ النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- بامرأةٍ تبكي عند قبرٍ فقال: (اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي) قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ. فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ -صلى الله عليه وسلم-، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ -صلى الله عليه وسلم- فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَائِينَ فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ. فَقَالَ: (إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى)

أي إنما الصبر الشاق على النفس الذي يعظم الثواب عليه إنما هو عند هجوم المصيبة وحرارتها، فإنه يدل على قوة القلب وثبته في مقام الصبر، وأما إذا بردت حرارة المصيبة فكل أحد يصبر إذ

ذاك، ولذلك قيل: "يجب على كل عاقل أن يلتزم عند المصيبة ما لا بد للأحمق منه بعد ثلاث".

وقال سهل بن عبد الله التستري: لما قال تعالى: **{وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}** صار الصبر عيشاً.

ومن صبر أورثه الله الرضا بقضائه، وعلامة الرضا سكون القلب بما ورد على النفس من المكروهات والمحوبات.

وقال رويم: الصبر ترك الشكوى.

وقال ذو النون المصري: الصبر هو الاستعانة بالله تعالى.

وقال الأستاذ أبو علي: الصبر حدة ألا تعترض على التقدير، فأما إظهار البلوى على غير وجه الشكوى فلا ينافي الصبر، قال الله تعالى في قصة أيوب: **{إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ}** [ص: ٤٤] مع أخبر عنه أنه قال: **{مَسَّنِيَ الضُّرُّ}** [الأنبياء: ٨٣]

{الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ} ما يصيب العبد من ضرر في نفسه أو أهله أو ماله. وهي من التجنيس المغاير، وهو أن يكون إحدى الكلمتين إسماً والأخرى فعلاً، ومنه: **{أزفت الآزفة}** **{إذا وقعت الواقعة}**.

{قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ} فله أن يصيبنا بما شاء لأننا ملكه وعبده **{وَأِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}** وإنا إليه راجعون بالموت فلا جزع إذا ولكن تسليم لحكمه ورضاً بقضائه وقدره.

وفيها إقرار بالبعث وتنبيه على مصيبة الموت التي هي أعظم المصائب، وتذكير أن ما أصاب الإنسان دونها فهو قريب ينبغي أن يصير له.

وجعل الله تعالى هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب، وعصمة للممتحنين: لما جمعت من المعاني المباركة، فإن قوله: **{إِنَّا لِلَّهِ}** توحيد وإقرار بالعبودية والملك. وقوله: **{وَأِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}** إقرار بالهلك على أنفسنا والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له.

قال سعيد بن جبير -رحمه الله تعالى-: لم تعط هذه الكلمات نبيا قبل نبينا، ولو عرفها يعقوب لما قال: **{يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ}**. وفي رواية: ما أعطي أحد في المصيبة ما أعطيت هذه الأمة، ولو أعطيتها أحد قبلها لأعطيتها يعقوب. ألا ترى كيف قال حين فقد يوسف **{يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ}**

وروى مسلم عن أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (مَا مِنْ
عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} اللَّهُمَّ أَجْرُنِي
فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَجَرَهُ اللَّهُ فِي مُصِيبَتِهِ وَأَخْلَفَ
لَهُ خَيْرًا مِنْهَا).

{أُولَئِكَ} اسم الإشارة الموضوع للبعد للدلالة على علو
مرتبتهم، ومنزلتهم، ومقامهم **{عَلَيْهِمْ}** على، إشارة إلى أنهم
منغمسون في ذلك، قد غشيتهم وتجلت لهم، وهو أبلغ من قوله
"لهم".

{صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ} صلوات: جمع صلاة وهي من الله تعالى
هنا المغفرة لعطف الرحمة عليها **{وَرَحْمَةٌ}** هي: الإِنعام من جلب ما
يسر ودفع ما يضر، وأعظم ذلك دخول الجنة بعد النجاة من النار.
وقيل: أراد بالرحمة كشف الكربة وقضاء الحاجة.

قال القاسمي: هذه نعم من الله عز وجل على الصابرين
المسترجعين. وصلاة الله على عبده: عفوهِ ورحمته وبركته وتشريفه
إياه في الدنيا والآخرة. وقال الزجاج: الصلاة من الله عز وجل
الغفران والثناء الحسن. ومن هذا الصلاة على الميت إنما هو الشاء

عليه والدعاء له، وكرر الرحمة لما اختلف اللفظ تأكيداً وإشباعاً للمعنى، كما قال: **{مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى}** [البقرة: ١٥٩]، وقوله **{أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ}** [الزخرف: ٨٠].

وجمع **{صَلَوَات}**، ليدل على أن ذلك ليس مطلق صلاة، بل صلاة بعد صلاة، ونكرت لأنه لا يراد العموم.

قال الراغب: وإنما قال: **{صَلَوَات}** على الجمع، تنبيهاً على كثرتها منه وأنها حاصلة في الدنيا توفيقاً وإرشاداً، وفي الآخرة ثواباً ومغفرة.

وقوله: **{مَنْ رَبَّهُمْ}** أي تنشأ تلك الصلوات وتبتدىء من الله تعالى. وأتى بلفظ الرب، لما فيه من دلالة التربية والنظر للعبد فيما يصلحه ويربه به.

{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} إلى طريق السعادة والكمال بإيمانهم وابتلاء الله تعالى لهم وصبرهم على ذلك.

وقيل: المهتدون إلى الوفاء بحق الربوبية والعبودية، فلا بد أن يوفي الله عليهم صلواته ورحمته.

وبدئ بجملة **{أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ}** لأنها أهم في حصول الثواب المترتب على الوصف الذي قبله، وأخرت

{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} لأنها تنزلت مما قبلها منزلة العلة، لأن ذلك القول المترتب عليه ذلك الجزاء الجزيل لا يصدر إلا عمن سبقت هدايته.

وفي البخاري: قال عمر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: نعم العدلان ونعم العلاوة: **{الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}** أراد بالعدلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الاهتداء. قيل: الاهتداء إلى استحقاق الثواب وإجزال الأجر، وقيل: الاهتداء إلى تسهيل المصائب وتخفيف الحزن.

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (١٥٨)

{إِنَّ الصَّفَا} جبل مقابل الكعبة في الجهة الشرقية الجنوبية، ويسمى «جبل أبي قبيس» **{وَالْمَرْوَةَ}** جبل مقابل الصفا من الجهة الشمالية، ويسمى «قُيعَقَان» والمسافة بينهما قرابة (٧٦٠) ذراعاً.

وَسُمِّيَ الصِّفَا لِأَنَّ حِجَارَتَهُ مِنَ الصِّفَا وَهُوَ الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ
الصُّلْبُ، وَسُمِّيَتِ الْمَرْوَةُ لِأَنَّ حِجَارَتَهَا مِنَ الْمَرْوِ وَهِيَ الْحِجَارَةُ
الْبَيْضَاءُ اللَّيِّنَةُ الَّتِي تُورِي النَّارَ وَيُذْبَحُ بِهَا لِأَنَّ شَذْرَهَا يُخْرِجُ قِطْعًا
مُحَدَّدَةً الْأَطْرَافِ وَهِيَ تُضْرَبُ بِحِجَارَةٍ مِنَ الصِّفَا فَتَتَشَقَّقُ.

وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى لَطِيفٌ بِأَهْلِ بِمَكَّةَ فَجَعَلَ لَهُمْ جَبَلًا مِنَ الْمَرْوَةِ
لِلْإِنْتِفَاعِ بِهِ فِي اقْتِدَاحِهِمْ وَفِي ذَبَائِحِهِمْ، وَجَعَلَ قُبَاتَهُ الصِّفَا لِلْإِنْتِفَاعِ
بِهِ فِي بِنَائِهِمْ.

{ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ } جمع شعيرة، وهي التي تكون علمًا في الدين؛
يعني: من معالم الدين الظاهرة؛ لأن العبادات منها خفية: بَيْنَ
الإنسان وربه؛ ومنها أشياء عَلِمَ ظاهر بَيْنَ - وهي الشعائر. وليس
المراد أن نفس الجبل من الشعائر؛ بل المراد الطواف بهما من
الشعائر.

والشعيرة مشتقة لغة من «شعر» إذا علم وفطن، ومنه قولهم
«أشعر البعير» إذا جعل له سمة في سنامه يعرف منها بأنه معد
للهدى.

يخبر تعالى مقررًا فرضية السعي بين الصفا والمروة، ودافعًا ما
توهمه بعض المؤمنين من وجود إثم في السعي بينهما نظرًا إلى أنه

كان في الجاهلية على الصفا صنم يقال له إساف، وآخر على المروة يقال له نائلة، يتمسح بهما من يسعى بين الصفا والمروة.

فقد كان السعي بين الصفا والمروة من أعمال الحج من زمن إبراهيم عليه السلام تذكيرا بنعمة الله على هاجر وابنها إسماعيل إذ أنقذه الله من العطش كما في حديث البخاري في كتاب بدء الخلق. وقد كان حوالي الكعبة في الجاهلية حجران كانا من جملة الأصنام التي جاء بها عمرو بن لحي إلى مكة، فعبدها العرب، إحداهما يسمى إسافا والآخر يسمى نائلة، كان أحدهما موضوعا قرب جدار الكعبة والآخر موضوعا قرب زمزم، ثم نقلوا الذي قرب الكعبة إلى جهة زمزم، وكان العرب يذبحون لهما، فلما جدد عبد المطلب احتفار زمزم بعد أن دثرتها جُرهم حين خروجهم من مكة، وبني سقاية زمزم، نقل ذَيْنَكَ الصنمين فوضع إسافا على الصفا ونائلة على المروة، وجعل المشركون بعد ذلك أصناما صغيرة وتمثيل بين الجبلين في طريق المسعى، فتوهم العرب الذين جاءوا من بعد ذلك أن السعي بين الصفا والمروة طواف بالصنمين.

وكانت الأوس والخزرج وغسان يعبدون مناة وهو صنم بِالْمُشَلَّلِ قُرْبَ قُدَيْدٍ بمكة فكانوا لا يسعون بين الصفا والمروة تخرجوا من أن

يطوفوا بغير صنمهم، في البخاري فيما علقه عن مَعْمَرٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ
عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ: "كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مِمَّنْ كَانَ يُهْلُ لِمَنَاةَ
وَمَنَاةَ صَنَمٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ قَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ كُنَّا لَا نَطُوفُ بَيْنَ
الصِّفَا وَالْمَرْوَةِ تَعْظِيمًا لِمَنَاةَ".

فلما فتحت مكة وأزيلت الأصنام وأبيح الطواف بالبيت وحج
المسلمون مع أبي بكر وسعت قريش بين الصفا والمروة تخرج
الأنصار من السعي بين الصفا والمروة وسأل جمع منهم النبي -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هل علينا من حرج أن نطوف بين الصفا
والمروة فأنزل الله هذه الآية.

وقد روى البخاري عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ قُلْتُ
لِعَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- زَوْجَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَنَا
يَوْمَئِذٍ حَدِيثُ السَّنِّ: أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى {إِنَّ الصِّفَا
وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ
يَطُوفَ بِهِمَا} فَلَا أُرَى عَلَى أَحَدٍ شَيْئًا أَنْ لَا يَطُوفَ بِهِمَا فَقَالَتْ
عَائِشَةُ كَلَّا لَوْ كَانَتْ كَمَا تَقُولُ كَانَتْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَطُوفَ
بِهِمَا إِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْأَنْصَارِ كَانُوا يُهْلُونَ لِمَنَاةَ وَكَانَتْ مَنَاةَ
حَذَوْ قَدِيدٍ وَكَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَطُوفُوا بَيْنَ الصِّفَا وَالْمَرْوَةِ فَلَمَّا جَاءَ

الإِسْلَامُ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ
تَعَالَى {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا}

زَادَ سُفْيَانُ وَأَبُو مُعَاوِيَةَ عَنْ هِشَامٍ: مَا أَتَمَّ اللَّهُ حَجَّ امْرِئٍ وَلَا
عُمْرَتَهُ لَمْ يَطُفْ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ

ومن الفوائد في الآية:

– أن الشيء المقدس لا يزيل تقديسه ما يحف به من سئ
العوارض.

– أن لا حرج في الصلاة في كنيسةٍ حولت مسجداً، ولا يضر
كونها كانت معبداً للكفار.

– فهم الآية على الوجه الصحيح، فقوله تعالى: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ
مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ
بِهِمَا} أي يسعى بينهما، فإن ظاهر قوله: {فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ} أن غاية
أمر السعي بينهما أن يكون من قسم المباح، وفي صحيح البخاري
عَنْ عَاصِمِ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ: سَأَلْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-
عَنِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ؟ فَقَالَ كُنَّا نَرَى أَنَّهُمَا مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ فَلَمَّا كَانَ
الإِسْلَامُ أَمْسَكْنَا عَنْهُمَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ

شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا {

وبهذا عرف أن نفي الجناح ليس المراد به بيان أصل حكم السعي، وإنما المراد نفي تخرجهم بإمساكهم عنه، حيث كانوا يرون أنهما من أمر الجاهلية، أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله: {مَنْ شَعَائِرِ اللَّهِ}.

ولما كان الطواف بينهما ليس عبادة مستقلة، إنما يكون عبادة إذا كان بعض حج أو عمرة، بين تعالى ذلك بقوله: {فَمَنْ} من شرطية {حَجَّ الْبَيْتَ} الحج: اسم في اللغة للقصد، وفي العرف: قصد البيت الحرام الذي بمكة في وقت معين لعبادة الله تعالى بالإحرام والطواف والسعي والوقوف بعرفة ... وهذه العبادات تسمى «نسكا» {أَوْ اعْتَمَرَ} زيارة بيت الله تعالى للطواف به والسعي بين الصفا والمروة والتحلل بحلق شعر الرأس أو تقصيره.

{فَلَا جُنَاحَ} الاثم مشتق من «جناح» إذا مال، لأن الإثم يميل به المرء عن طريق الخير، فاعتبروا فيه الميل عن الخير، عكس اعتبارهم في «حنف» أنه ميل عن الشر إلى الخير.

{عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا} والآية تدل على وجوب السعي بين الصفا والمروة بالإخبار عنهما بأنهما من شعائر، ومنهم ذهب إلى أن الطواف «ركن» كالشافعي وأحمد ومالك - في مشهور مذهبه - أو واجب يجبر بالدم.

والمسألة فيها تفصيل، فهل السعي ركن، أو واجب، أو سنة؟ ..
اختلف في ذلك أهل العلم على أقوال ثلاثة؛ فقال بعضهم: إنه ركن من أركان الحج لا يتم الحج إلا به؛ وقال بعضهم: إنه واجب من واجبات الحج يجبر بدم، ويصح الحج بدونه؛ وقال آخرون: إنه سنة، وليس بواجب.

والقول بأنه سنة ضعيف جداً؛ لأن قوله تعالى: **{مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ}** يدل على أنه أمر مهم؛ لأن الشعيرة ليست هي السنة فقط؛ الشعيرة هي طاعة عظيمة لها شأن كبير في الدين.

بقي أن يكون متردداً بين الركن، والواجب؛ والأظهر أنه ركن؛ لما رواه الإمام أحمد وغيره عن صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ عَنْ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي تَجْرَةَ قَالَتْ: دَخَلْنَا دَارَ أَبِي حُسَيْنٍ فِي نِسْوَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَالنَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَطُوفُ بَيْنَ الصَّفا وَالْمَرْوَةِ، قَالَتْ: وَهُوَ يَسْعَى يَدُورُ بِهِ إِزَارُهُ مِنْ شِدَّةِ السَّعْيِ، وَهُوَ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: (اسْعَوْا،

فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ [حسن بطرقه وشاهده]؛ وقول عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "والله! ما أتم الله حج امرئ ولا عمرته لم يطف بين الصفا والمروة".

فالأقرب أنه ركن؛ وليس بواجب؛ وإن كان الموفق - رحمه الله - وهو من مشائخ مذهب الإمام أحمد - اختار أنه واجب يجبر بدم. **{وَمَنْ تَطَوَّعَ}** ما تترغب به من ذات نفسك مما لا يجب عليك **{خَيْرًا}** اسم لكل ما يجلب المسرة، ويدفع المضرة، والمراد به هنا العمل الصالح.. فيكون المراد التبرع بأي فعل طاعة كان، وهو قول الحسن. والمقصد من هذا التذييل الإتيان بحكم كلى في أفعال الخيرات كلها من فرائض ونوافل.

فليس المقصود من **{خَيْرًا}** خصوص السعي لأن خيرا نكرة في سياق الشرط فهي عامة. بخلاف قوله تعالى في آية الصيام في قوله: **{وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ}** [البقرة: ١٨٤] لأنه أريد هنالك بيان أن الصوم مع وجود الرخصة في الفطر أفضل من تركه، أو أن الزيادة على إطعام مسكين أفضل من الاقتصار عليه.

{فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} جواب الشرط، وشكر الله العبد بأحد

معنيين: إما بالثواب أي لا يضيع أجر محسن، وإما بالثناء.

وهو سبحانه وتعالى شاكر، وشكور؛ وشكره تعالى أنه يثيب العامل أكثر من عمله؛ فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وعلمه هنا هو: العلم بنيته وإخلاصه في العمل، أو أنه لا يخفى عنه إحسانه، أو علمه بقدر الجزاء الذي للعبد على فعل الطاعة. وقرن العلم بالشكر لاطمئنان العبد إلى أن عمله لن يضيع فإنه معلوم عند الله، ولا يمكن أن يضيع منه شيء؛ يعني: إذا علم العامل أن الله تعالى شاكر، وأنه عليم، فإنه سيطمئن غاية الطمأنينة إلى أن الله سبحانه وتعالى سيجزيه على عمله بما وعده به، ويعطيه أكثر من عمله.

وقيل: ذكر الوصفين لأن ترك الثواب عن الإحسان لا يكون إلا عن جحود للفضيلة أو جهل بها فلذلك نُفيا بقوله: **{شَاكِرٌ عَلِيمٌ}**.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ

الْلَاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (١٦٢)

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ} عبر بالفعل المضارع للدلالة على أنهم في الحال كاتمون للبينات والهدى، ولو وقع بلفظ الماضي لتوهم السامع أن المعنى به قوم مضوا مع أن المقصود إقامة الحجة على الحاضرين. ويعلم حكم الماضين والآتين بدلالة لحن الخطاب لمساواتهم في ذلك.

والكتمان يكون بإلغاء الحفظ والتدريس والتعليم، ويكون بإزالته من الكتاب أصلاً وهو ظاهره قال تعالى: **{وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [الأنعام: ٩١]، ويكون بالتأويلات البعيدة عن مراد الشارع لأن إخفاء المعنى كتمان له.

{مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ} جمع بينة، وهي الحجج التي يثبت بها شيء المراد إثباته، والمراد بها هنا ما يثبت نبوة محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من نعوت وصفات جاءت في كتب أهل الكتاب

{وَالْهُدَى} ما يدل على المطلب الصحيح ويساعد على الوصول إليه، والمراد به هنا ما جاء به رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من الدين الصحيح المفضي بالآخذ به إلى الكمال والسعادة في الدنيا والآخرة .. فما أنزل الله من الوحي فهو بين لا غموض فيه؛ وهدى لا ضلالة فيه.

{مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ} لزيادة التفضيع لحال الكتمان، وذلك أنهم كتموا البينات والهدى مع انتفاء العذر في ذلك لأنهم لو كتموا ما لم يبين لهم لكان لهم بعض العذر أن يقولوا كتمناه لعدم اتضاح معناه، فكيف وهو قد بين ووضح؟! **{لِلنَّاسِ}** أهل الكتاب **{فِي الْكِتَابِ}** التوراة والإنجيل. وقيل: الناس أمة محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، والكتاب: القرآن.

والأولى والأظهر: عموم الآية في الكاتمين، وفي الناس، وفي الكتب؛ وإن نزلت على سبب خاص، فهي تتناول كل من كتم علماً من دين الله يحتاج إلى بثه ونشره، وذلك مفسر في قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الحديث الذي رواه الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ سِئَلَ

عَنْ عِلْمٍ عَلَيْهِ ثُمَّ كَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ [الترمذي]،
وذلك إذا كان لا يخاف على نفسه في بثه.

وقد فهم الصحابة من هذه الآية العموم، وهم العرب الفصح
المرجوع إليهم في فهم القرآن. كما روي عن عثمان وأبي هريرة
وغيرهما: "لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم".

وقد امتنع أبو هريرة من تحديثه ببعض ما يخاف منه فقال: "لو
بثته لقطع هذا البلعوم".

{أُولَئِكَ} اسم إشارة للبعيد **{يَلْعَنُهُمْ}** هو الطرد والبعد من كل
خير ورحمة **{اللَّهُ}** وأبرز اسم الجلالة بلفظ الله على سبيل
الالتفات، إذ لو جرى على نسق الكلام السابق، لكان "أولئك
يلعنهم"، لكن في إظهار هذا الاسم من الفخامة ما لا يكون في
الضمير **{وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ}** من يتأتى ويصدر عنهم اللعن
كالملائكة والمؤمنين. أو البهائم والحشرات -قاله مجاهد
وعكرمة- وذلك لما يصيبهم من الجذب بذنوب علماء السوء
الكاتمين.

وقيل: أي يلعنهم كل لاعن، والمراد باللاعنين المتدينون الذين
ينكرون المنكر وأصحابه ويغضبون لله تعالى ويطلعون على كتمان

هؤلاء فهم يلعنونهم بالتعيين، وإن لم يطلعوا على تعيينهم فهم يلعنونهم بالعنوان العام، أي: حين يلعنون كل من كتم آيات الكتاب حين يتلون الكتاب.

وفي قوله: {ويلعنهم اللاعنون}، ضرب من البديع، وهو التجنيس المغاير، وهو أن يكون إحدى الكلمتين إسماً والأخرى فعلاً.

وظاهر الآية استحقاق اللعنة على من كتم ما أنزل الله، وإن لم يسأل عنه، بل يجب التعليم والتبيين، وإن لم يسألوا، لقوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ} [آل عمران: ١٨٧]

وقال الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن حزم القرطبي، فيما سمع منه أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي الحافظ: الحظ لمن أثر العلم وعرف فضله أن يستعمله جهده ويقرئه بقدر طاقته ويحققه ما أمكنه، بل لو أمكنه أن يهتف به على قوارع طرق المارة ويدعو إليه في شوارع السابلة وينادي عليه في مجامع السيارة، بل لو تيسر له أن يهب المال لطلابه ويجري الأجور لمقتبسيه ويعظم الأفعال للباحثين عنه ويسني مراتب أهله صابراً في ذلك على

المشقة والأذى، لكان ذلك حظاً جزيلاً وعملاً جيداً وسعداً كريماً وأحياء للعلم، وإلا فقد درس وطمس ولم يبق منه إلا آثار لطيفة وأعلام دائرة. انتهى كلامه.

{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا} أصلحوا ما أفسدوه من عقائد الناس وأمور دينهم بإظهار ما كتموه والإيمان بما كذبوا به وأنكروه **{فَأُولَئِكَ}** إشارة إلى من جمع هذه الأوصاف من التوبة والإصلاح والتبيين **{أَتُوبُ عَلَيْهِمْ}** ومن تاب الله عليه لا تلحقه لعنة **{وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}** وختم بهما ترغيباً في التوبة وإشعاراً بأن هاتين الصفتين هما له، فمن رجع إليه عطف عليه ورحمه.

وذكروا في هذه الآية من الأحكام جملة:

– منها أن كتمان العلم حرام، يعنون علم الشريعة لقوله: **{مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ}**، وبشرط أن يكون المعلم لا يخشى على نفسه، وأن يكون متعيناً لذلك.

فإن لم يكن من أمور الشرائع، فلا تخرج في كتمها. روي مسلم عبد الله بن مسعود قال: مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ.

وروي البخاري: وَقَالَ عَلِيٌّ: "حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ".

ولذلك وجب على العالم إذا جلس إليه الناس للتعلم أن يلقي إليهم من العلم ما لهم مقدرة على تلقيه وإدراكه.

قالوا: والمنصوص عليه من الشرائع والمستنبط منه في الحكم سواء، وإن خشي على نفسه فلا يخرج عليه فيتعين عليه.

- ومنها: أن الكافر لا يجوز تعليمه القرآن حتى يسلم، ولا تعليم الخصم حجة على خصمه ليقطع بها ماله، ولا السلطان تأويلاً يتطرف به إلى مكاره الرعية، ولا تعليم الرخص إذا علم أنها تجعل طريقاً إلى ارتكاب المحظورات وترك الواجبات.

وفي صحيح البخاري أن الحجاج قال لأنس بن مالك حدثني بأشد عقوبة عاقبها النبي فذكر له أنس حديث العرنيين الذين قتلوا الراعي واستاقوا الذود فقطع النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم وتركهم في الحرة يستقون فلا يسقون حتى ماتوا، فلما بلغ ذلك الحسن البصري قال: وَدِدْتُ أَنَّهُ لَمْ يُحَدِّثْهُ بِهَذَا، أو يتلقفون من ظاهره ما يوافق هواهم فيجعلونه معذرة لهم فيما يعاملون به الناس من الظلم.

قال ابن عرفة في "التفسير": لا يحل للعالم أن يذكر للظالم تأويلا أو رخصة يتمادى منها إلى المفسدة كمن يذكر للظالم ما قال الغزالي في "الإحياء" من أن بيت المال إذا ضعف واضطر السلطان إلى ما يجهز به جيوش المسلمين لدفع الضرر عنهم فلا بأس أن يوظف على الناس العشر أو غيره لإقامة الجيش وسد الخلة، قال ابن عرفة وذكر هذه المظلمة مما يحدث ضررا فادحا في الناس.

وقد سأل سلطان قرطبة عبد الرحمن بن معاوية الداخل يحيى بن يحيى الليثي عن يوم أفطره في رمضان عامدا غلبته الشهوة على قربان بعض جواريه فيه فأفتاه بأنه يصوم ستين يوما والفقهاء حاضرون ما اجترأوا على مخالفة يحيى فلما خرجوا سألوه لم خصصته بأحد المخيرات فقال لو فتحنا له هذا الباب لو طئ كل يوم وأعتق أو أطعم فحملته على الأصعب لئلا يعود... فهو في كتبه عنه الكفارتين المخير فيهما قد أعمل دليل دفع مفسدة الجراحة على حرمة فريضة الصوم.

- ومنها: وجوب قبول خبر الواحد، لأنه لا يجب عليه البيان إلا وقد وجب عليهم قبول قوله، لأن قوله {من البينات والهدى} يعم المنصوص والمستنبط.

- ومنها: جواز لعن من مات كافراً، وقال بعض السلف: لا فائدة في لعن من مات أو جنّ من الكفار، وجمهور العلماء على جواز لعن الكفار جملة من غير تعيين.
وذكر ابن العربي الاتفاق على أنه لا يجوز لعن العاصي والمتجاهر بالكبائر من المسلمين.

- ومنها: أن التوبة المعتبرة شرعاً أن يظهر التائب خلاف ما كان عليه في الأول، فإن كان مرتداً، فبالرجوع إلى الإسلام وإظهار شرائعه، أو عاصياً، فبالرجوع إلى العمل الصالح ومجانبة أهل الفساد. وأما التوبة باللسان فقط، أو عن ذنب واحد، فليس ذلك بتوبة.

{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ} وبالغ في اللعنة، بأن جعلها مستعلية عليه، وقد تجللتها وغشيتها، فهو تحتها، وهي عامة في كل من كان كذلك **{اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ}** فحتى الكافر يلعنه الكافر؛ وقد أخبر الله تعالى عن أهل النار أنه **{كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا}** [الأعراف: ٣٨]؛ فالكافر - والعياذ بالله - ملعون حتى ممن شاركه في كفره.

{خَالِدِينَ فِيهَا} تصريح بلازم اللعنة الدائمة **{لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ}**
{الْعَذَابُ} ولو ليوم واحد، لقوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ}** [غافر: ٤٩]
{وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ} من الإنظار وهو الإمهال؛ فهم لا يمهلون ولا ساعة واحدة؛ ولهذا قال تعالى: **{وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتِحَتْ أَبْوَابُهَا}** [الزمر: ٧١]؛ فمن يوم يجيئونها تفتح؛ أما أهل الجنة فإذا جاءوها لم تفتح فور مجيئهم، كما قال تعالى: **{وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا}** [الزمر: ٧١]؛ لأنهم لا يدخلونها إلا بالشفاعة، وبعد أن يقتص من بعضهم لبعض؛ فإذا جاءوها هذبوا، ونقوا، ثم شفع النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في دخول الجنة؛ وحينئذ تفتح أبوابها.

وقيل: **{وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ}** لا يمهلوا ليعتذروا، كقوله تعالى: **{وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ}** [المرسلات: ٣٦]

وَالَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ

الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا
مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤)

{وَالْهَكْمُ إِلَهٌ} إله بمعنى مألوه؛ و«المألوه» معناه المعبود حبا،
وتعظيماً.

والإخبار عن إلهكم ياله تكرير ليجري عليه الوصف بواحد،
والمقصود "والهكم واحد" لكنه وسط لفظ **{إِلَهٌ}** لتقرير معنى
الألوهية، كما تقول: "عالم المدينة عالم فائق". وهذا استعمال متبع
في فصيح الكلام أن يعاد الاسم أو الفعل بعد ذكره ليبنى عليه
وصف أو متعلق كقوله: **{وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}**
[الفرقان: ٧٢]

{وَاحِدٌ} في ذاته وصفاته، وفي ربوبيته: فلا خالق ولا رازق ولا
مدبر للكون والحياة إلا هو، وفي ألوهيته: أي في عبادته فلا معبود
بحق سواه.

والإله في كلام العرب هو المعبود حبا وتعظيماً ولذلك تعددت
الآلهة عندهم، وأطلق لفظ الإله على كل صنم عبده، وهو إطلاق

ناشئ عن الضلال في حقيقة الإله لأن عبادة من لا يغنى عن نفسه ولا عن عابده شيئاً عبث وغلط، فوصف «الإله» هنا بالواحد لأنه في نفس الأمر هو المعبود ولكن بحق.

وما ورد في القرآن من إطلاق جمع الآلهة على أصنامهم فهو في مقام التغليب لزعمهم نحو: {فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأحقاف: ٢٨]، والقريضة هي الجمع، ولذلك لم يطلق في القرآن الإله بالافراد على المعبود بغير حق.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} توكيد لمعنى الوحدانية ونفي الإلهية عن غيره، واختصاص وحصر وتنصيب عليها لرفع احتمال أن يكون المراد الكمال، كقولهم في المبالغة: "هو نسيج وحده"، أو أن يكون المراد إله المسلمين خاصة كما يتوهمه المشركون ألا ترى إلى قول أبي سفيان: "لنا العزى ولا عزى لكم".

فدلت الآية الأولى على نسبة الواحدية إليه تعالى، ودلت الثانية على حصر الإلهية فيه، وإن كانت الآية الأولى تستلزم ذلك، لأن من ثبت له الواحدية ثبت له الإلهية.

{الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} اسمان من أسماء الله؛ {الرحمن} يدل على سعة رحمته؛ و {الرحيم} يدل على إيصال الرحمة. فالوحيته مبنية على الرحمة؛ وهذه الآية تشبه قوله تعالى: **{الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم}** [الفاتحة: ٢-٣]؛ فإن ذكر هذين الاسمين بعد الربوبية يدل على أن ربوبيته مبنية على الرحمة.

وذكر هاتين الصفتين منبهاً بهما على استحقاق العبادة له، لأن من ابتدأك بالرحمة إنشاء بشراً سوياً عاقلاً، وتربية في دار الدنيا، وموعوداً الوعد الصدق بحسن العاقبة في الآخرة، جدير بعبادتك له والوقوف عند أمره ونهيه، وأطمعك بهاتين الصفتين في سعة رحمته. وفي الجمع بين وصفي **{الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}** إغاية للمشركين فإنهم أبوا وصف الله بالرحمن كما حكى الله عنهم بقوله: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا}** [الفرقان: ٦٠]

فإن قال قائل: إن هؤلاء المشركين قد يفتنون بهذه الآلهة، فيدعونها، ثم يأتيهم ما دعوا به؛ فما هو الجواب؟

فالجواب عن هذا: أن هذه الأصنام لم توجد ما دعوا به قطعاً؛
لقوله تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا
لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ} [الأحقاف: ٥-٦]، ولقوله
تعالى: {إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ
وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [فاطر: ١٤]؛
فيكون حصول ما دعوا به من باب الفتنة التي يضل بها كثير من
الناس؛ والذي أوجدها هو الله عز وجل؛ لكن قد يُمتحن الإنسان
بتيسير أسباب المعصية ابتلاءً من الله عز وجل؛ فيكون هذا الشيء
حصل عند دعاء هذه الأصنام لا به.

ثم أقام -جل شأنه- البرهان على أنه هو الإله الواحد بقوله
بعده -وهذا موقع الحجة من الدعوى-: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} اختلافهما بإقبال هذا وإدبار هذا،
أو اختلافهما بالأوصاف في النور والظلمة، والطول والقصر، أو
تساويهما وذلك بحسب أزمنة الفصول لمنافع العباد، وقدم الليل
على النهار لسبقه في الخلق، قال تعالى: {وَأَيُّ لَّهِمُ اللَّيْلِ نَسْلَخُ

مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ} [يس: ٣٧] فتكون ليلة اليوم هي التي قبله، وهو قول الجمهور.

وقد أضيف الاختلاف لكل من الليل والنهار لأن كل واحد منهما يخلف الآخر فتحصل منه فوائد تعاكس فوائد الآخر بحيث لو دام أحدهما لا نقلب النفع ضرا {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ} [القصص: ٧١-٧٢].

{وَالْفُلْكِ} هي السفينة؛ وتطلق على المفرد، كما في هذه الآية؛ وعلى الجمع، كما في قوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ} [يونس: ٢٢]

وآية السفن سيرها في البحر وهو ماء من شأنه أن يتعذر المشي عليه، فجري السفن آية من آيات إلهام الله تعالى الإنسان للتفطن لهذا التسخير العجيب الذي استطاع به أن يسلك البحر كما يمشي في الأرض... وأول من عمل السفن نوح، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام {الَّتِي تَجْرِي} تسير {فِي الْبَحْرِ} ووصفها بهذه

الصفة من الجريان، لأنها آيتها العظمى **{بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ}** وأما كونها نعمة فلأن في التسخير نفعا للتجارة والزيارة والغزو وغير ذلك، ولذلك قال بما ينفع الناس لقصد التعميم مع الاختصار.. واقتصر على ذكر النفع، وإن كانت تجري بما يضر، لأنه ذكرها هنا في معرض الامتنان.

{وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ} من جهة السماء **{مِنْ مَّاءٍ}** ووجه العبرة أن شأن الماء الذي يسقي الأرض أن ينبع منها فجعل الماء نازلا عليها من ضدها وهو السماء عبرة عجيبة، إذ أن أنهار الدنيا مهما كثرت لا تستطيع استيعاب كل جزء في الأرض بالري، فلا غنى عن ماء المطر.

{فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} الفاء لسرعة حياة الأرض إثر نزول الماء، وكلا الأمرين الفعل والفاء **{فَأَحْيَا}** موضع عبرة وموضع منه **{وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ}** نشر فيها من سائر أنواع الدواب، فالتنكير في دابة للتنويع أي أكثر من كل الأنواع لا يختص ذلك بنوع دون آخر.

{وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ} أي تنويعها في اتجاهها، وشدتها، ومنافعها.. باختلاف مهابها مرة صبا ومرة دبور ومرة شمالية ومرة غربية أو مرة ملقحة ومرة عقيم

{وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ} أي وتصريف السحاب فلا يستطيع أحد أن يفرقه إلا الله؛ ولا يستطيع أحد أن يوجهه إلى أي جهة إلا الله.. ولولا الرياح تسخره من موضع إلى موضع لكان المطر لا ينزل إلا في البحار.

وموضع المنة هنا دلالة على القدرة: في تكوينه حتى يحمل الماء، وفي تسخيرهِ لينتقل، وفي تكوينه بين السماء والأرض فهو مسخر بين السماء والأرض حتى يتكامل ما في الجو من الماء فيثقل السحاب فينزل ماء إذا لم تبق في الهواء مقدرة على حمله، كما قال تعالى: **{وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ}** [الرعد: ١٢]

وأما دلالة على الحكمة: فلأنه يأتي من فوق الرؤوس حتى يكون شاملاً لما ارتفع من الأرض، وما انهبط منها؛ ويأتي قطرات حتى لا ينهدم البنيان، ولا تشقق الأرض.

وأما دلالة على الرحمة: فلما يحصل من آثاره من نبات الأرض المختلف الذي يعيش عليه الإنسان والبهائم.

{لَايَاتِ} علامات دالة على كمال علم الله، وقدرته، ورحمته،
وحكمته، وسلطانه، وغير ذلك من مقتضى ربوبيته
{لَّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} دون أن يقال "للذين يعقلون" أو "للعاقلين" لأن
إجراء الوصف على لفظ قوم، يومئ إلى أن ذلك الوصف سجية
فيهم، ومن مكملات قوميتهم، فإن القبائل والأمم خصائص تميزها
وتشتهر بها كما قال تعالى: **{وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ}**
[التوبة: ٥٦] وقد تكرر هذا في مواضع كثيرة من القرآن ومن كلام
العرب، فالمعنى أن في ذلك آيات للذين سجيتهم العقل، وهو
تعريض بأن الذين لم ينتفعوا بآيات ذلك ليست عقولهم براسخة ولا
هي ملكات لهم.

ولم يقل: "لآيات لقوم يبصرون"، تغليباً لحكم العقل، إذ مآل ما
يشاهد بالبصر راجع بالعقل نسبته إلى الله تعالى.

فهذه ستّ آيات كونية كل آية برهان ساطع ودليل قاطع على
وجود الله وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته وهي كلها موجبه لعبادته
وحده دون من سواه، فإن كل من كان أكثر توغلا في بحار
المخلوقات كان أكثر علما بجلال الله تعالى وعظمته.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّنَا كَرَّرَ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)

{وَمِنَ النَّاسِ} تقديم الخبر {مِنَ النَّاسِ} مؤذن بأنه تعجب من شأنهم {مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ} معناه «مع الله» لأن "دون" تؤذن بالحيلولة، بمعنى وراء، فإذا قالوا: "أَتخذ دون الله" فالمعنى أنه أفرد وأعرض عن الله، وإذا قالوا: "من دون الله" فالمعنى أنه جعله بعض حائل عن الله أي أشركه مع الله لأن الإشراك يستلزم الإعراض عن الله أوقات الشغل بعبادة ذلك الشريك.

{أَنْدَادًا} جمع ندّ؛ وهو الشبيه النظير، والمراد بالأنداد الأمثال في الألوهية والعبادة.. ولفظ الناس عام، والأحسن حمله على الطائفتين من أهل الكتاب وعبداء الأوثان.

فالأنداد، باعتبار أهل الكتاب هم رؤسائهم وأحبارهم، اتبعوا ما رتبوه لهم من أمر ونهي، وإن خالف أمر الله ونهيه. قال تعالى: **{اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ}** [التوبة: ٣١] والأنداد، باعتبار عبادة الأوثان هي الأصنام، اتخذوها آلهة وعبدوها من دون الله.

{يُحِبُّونَهُمْ} يعظمونهم ويخضعون لهم، وأصل الحب في اللغة: اللزوم، لأن المحب يلزم حبيبه ما أمكن **{كَحُبِّ اللَّهِ}** أي كحبهم لله، مفيد لمساواة الحب، وهذا كقوله تعالى: **{تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ، إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** [الشعراء: ٩٧، ٩٨]

ووجه هذا التعميم أن أحوال المشركين مختلفة، فمنهم من يعبد الأنداد من الأصنام أو الجن أو الكواكب ويعترف بوجود الله ويسوي بين الأنداد وبينه، ويسميهم شركاء أو أبناء الله تعالى، ومنهم من يجعل لله تعالى الإلهية الكبرى ويجعل الأنداد شفعاء إليه، ومنهم من يقتصر على عبادة الأنداد وينسى الله تعالى.

قال ابن عاشور: واعلم أن المراد إنكار محبتهم الأنداد من أصلها لا إنكار تسويتها بحب الله تعالى وإنما قيدت بمماثلة محبة الله لتشويهها وللنداء على انحطاط عقول أصحابها، وفيه إيحاء لعيون معظم المشركين وهم الذين زعموا أن الأصنام شفعاء لهم كما كثرت حكاية ذلك عنهم في القرآن، فنبهوا إلى أنهم سووا بين محبة التابع ومحبة المتبوع ومحبة الخالق ومحبة المخلوق لعلهم يستفيقون، فإذا ذهبوا يبحثون عما تستحقه الأصنام من المحبة وتطلبوا أسباب المحبة وجدوها مفقودة كما قال إبراهيم عليه السلام: {يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا} [مريم: ٤٢] مع ما في هذا الحال من زيادة موجب الإنكار.

{وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} أي أشد حبا لله من محبة أصحاب الأنداد أندادهم، على ما بلغوا من التصلب فيها، ومن محبة بعضهم لله ممن يعترف بالله مع الأنداد، لأن محبة جميع هؤلاء المحبين – وإن بلغوا ما بلغوا من التصلب في محبوبيهم – لما كانت محبة مجردة عن الحجة لا تبلغ مبلغ أصحاب الاعتقاد الصميم المعضود بالبرهان، ولأن إيمانهم بهم لأغراض عاجلة كقضاء الحاجات ودفع الملمات بخلاف حب المؤمنين لله فإنه حب لذاته وكونه أهلا

للحب ثم يتبع ذلك أغراض أعظمها الأغراض الآجلة لرفع الدرجات وتزكية النفس.

قال صاحب البحر المحيط: ومقتضى التمييز بالأشدية، أفراد المؤمنين له بالمحبة، أو لمعرفتهم بموجب الحب، أو لمحبتهم إياه بالغيب، أو لشهادته تعالى لهم بالمحبة، إذ قال تعالى: **{يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ}**، أو لإقبال المؤمن على ربه في السراء والضراء والشدة والرخاء، أو لعدم انتقاله عن مولاه ولا يختار عليه سواه، أو لعلمه بأن الله خالق الصنم وهو الضارّ النافع، أو لكون حبه بالعقل والدليل، أو لامتناله أمره حتى في القيامة حين يأمر الله تعالى من عبده لا يشرك به شيئاً أن يقتحم النار، فيبادرون إليه، فتبرد عليهم النار، فينادي مناد تحت العرش: **{وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ}**، ويأمر من عبد الأصنام أن يدخل معهم النار فيجزعون، قاله ابن جبير.

تسعة أقوال ثبتت نقائضها ومقابلاتها لمتخذ الأنداد. وهذه كلها خصائص ميز الله بها المؤمنين في حبه على الكافرين، فذكر كل واحد من المفسرين خصيصه.

والمجموع هو المقتضى لتمييز الحب، فلا تباين بين الأقوال على هذا، لأن كل قول منها ليس على جهة الحصر فيه، إنما هو مثال من أمثلة مقتضى التمييز.

والمقصود تنقيص المشركين حتى في إيمانهم بآلهتهم فكثيرا ما كانوا يعرضون عنها إذا لم يجدوا منها ما أملوه.

وروي أن امرأ القيس لما أراد قتال بني أسد حين قتلوا أباه حُجْرًا مَلِكَهُمْ مر على ذِي الْخُلَصَةِ الصنم الذي كان بِتَبَالَةٍ بين مكة واليمن فاستقسم بالأزلام التي كانت عند الصنم فخرج له القدح الناهي ثلاث مرات، فكسر تلك القداح ورمى بها وجه الصنم وشتمه وأنشد:

لَوْ كُنْتُ يَا ذَا الْخُلَصِ الْمُؤْتُورَا ... مِثْلِي وَكَانَ شَيْخُكَ الْمُقْبُورَا
لَمْ تَنْهَ عَنْ قَتْلِ الْعُدَاةِ زُورَا

ثم قصد بني أسد فظفر بهم.

وذو الْخُلَصَةِ صنم كان لختعم وزبيد ودوس وهوازن، وهو صخرة قد نقشت فيها صورة الْخُلَصَةِ وهي زهرة معروفة، وكان عند ذِي الْخُلَصَةِ أزلام ثلاثة يستقسمون بها وهي الناهي والآمر

والمرتضى. وذو الخلصة هدمه جرير بن عبد الله البجلي بإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم

وروى أن رجلا من بني مَلْكَانَ جاء إلى «سعد» الصنم بساحل جدة، وكان معه إبل فنفرت إبله لما رأت الصنم [كَانَ هَذَا الصَّنَمَ حجرا طويلا ضخما] فغضب الْمَلْكَانِيُّ على الصنم ورماه بحجر وقال:

أَتَيْنَا إِلَى سَعْدٍ لِيَجْمَعَ شَمْلَنَا ... فَشَتَّتَنَا سَعْدٌ فَمَا نَحْنُ مِنْ سَعْدٍ
وَهَلْ سَعْدٌ إِلَّا صَخْرَةٌ بَتَنُوفَةٍ ... مِنَ الْأَرْضِ لَا تَدْعُو لِعِغْيٍّ وَلَا رُشْدٍ
ومن فوائد الآية: أن محبة الله من العبادة؛ لأن الله جعل من سوى غيره فيها مشركاً متخذاً لله نداً؛ فالمحبة من العبادة؛ بل هي أساس العبادة؛ لأن أساس العبادة مبني على الحب والتعظيم؛ فبالحب يفعل المأمور؛ وبالتعظيم يجتنب المحذور؛ هذا إذا اجتمعا؛ وإن انفرد أحدهما استلزم الآخر.

وأنه كلما ازداد إيمان العبد ازدادت محبته لله؛ وجه ذلك أن الله سبحانه وتعالى رتب شدة المحبة على الإيمان؛ وقد عُلم أن الحكم إذا عُلِّقَ على وصف فإنه يقوى بقوة ذلك الوصف، وينقص بنقصه؛ فكلما ازداد الإنسان إيماناً بالله عز وجل ازداد حباً له.

{وَلَوْ يَرَى} محذوف لقصد التفخيم وتهويل الأمر لتذهب النفس في تصويره كل مذهب ممكن، ونظيره قوله تعالى: **{وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ}** [الأنعام: ٩٣] **{وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ}** [الأنعام: ٢٧]

{الَّذِينَ ظَلَمُوا} هم الذين اتخذوا من دون الله أندادا فهو من الإظهار في مقام الإضمار ليكون شاملا لهؤلاء المشركين وغيرهم، وجعل اتخاذهم الأنداد ظلما لأنه اعتداء على عدة حقوق: فقد اعتدوا على حق الله تعالى من وجوب توحيده، واعتدوا على من جعلوهم أندادا لله على العقلاء منهم مثل الملائكة وعيسى، ومثل ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فقد ورد في "الصحيح" عن ابن عباس أنهم كانوا رجالا صالحين من قوم نوح فلما ماتوا اتخذ قومهم لهم تماثيل ثم عبدوها، ومثل اللات يزعم العرب أنه رجل كان يلت السوق للحجيج، وأن أصله اللات بتشديد التاء، فبذلك ظلموهم إذ كانوا سببا لهول يحصل لهم من السؤال يوم القيامة كما قال الله تعالى: **{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ}** [المائدة: ١١٦] وقال: **{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ}** [سبا: ٤٠]

وقال: {وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ} [الفرقان: ١٧]، وظلموا أنفسهم في ذلك بتعريضها للسخرية في الدنيا وللعذاب في الآخرة، وظلموا أعقابهم وقومهم الذين يتبعونهم في هذا الضلال فتمضي عليه العصور والأجيال، ولذلك حذف مفعول {ظَلَمُوا} لقصد التعميم، ولك أن تجعل {ظَلَمُوا} بمعنى أشركوا كما هو الشائع في القرآن قال تعالى عن لقمان: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣] وعليه فلفعل منزل منزلة اللازم لأنه صار كاللقب.

{إِذْ} حين {يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} فلا يشذ منها شيء؛ فكل القوة لله سبحانه وتعالى.. أي لرأيت ما هو هائل لأنه عذاب الله، والله القوة جميعا، فجميع أنواع القوى ثابتة مستقرة له تعالى، وهو مبالغة لعدم الاعتداد بقوة غيره **{وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ}** وتأخر وصفه تعالى بأنه شديد العذاب عن وصف القوة، لأن شدة العذاب هي من آثار القوة.

قال عطاء: ولو يرى الذين ظلموا يوم القيامة، إذ يرون العذاب حين تخرج إليهم جهنم من مسيرة خمسمائة عام تلتقطهم كما يلتقط الحمام الحبة، لعلموا أن القوة والقدرة لله جميعاً.

فإن قيل: كيف يكون الله عز وجل شديد العذاب مع أنه أرحم من الوالدة بولدها؟

فالجواب: أن هذا من كمال عزه، وسلطانه، وعدله، وحكمته؛ لأنه أنذر مستحق العذاب، وأعذر منهم بإرسال الرسل؛ فلم يبق لهم حجة توجب تخفيف العذاب عنهم؛ فلو رحم هؤلاء الكافرين به لكان لا فرق بينهم والمؤمنين به.

وشدة عذاب الله لهؤلاء مذكور في القرآن، والسنة: قال الله تعالى: **{وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا} أي أهل النار {يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ} [الكهف: ٢٩]؛** فما بالك لو وصلت إلى الأمعاء؟!؛ ولهذا قال تعالى في آية أخرى: **{وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ} [محمد: ١٥]؛** ومع ذلك تتقطع، وتلتئم بسرعة كما قال تعالى في جلودهم: **{كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا} [النساء: ٥٦]؛** و **{كلما} تفيد التكرار؛** وجوابها يفيد الفورية؛ والحكمة: **{لِيَذُقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء: ٥٦]؛** وقال تعالى: **{إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ} [الدخان:**

٤٣ - ٤٨]؛ ويقال له أيضاً: تبكيتاً، وتوبيخاً، وتنديماً، وتلويماً
{ذُقْ}؛ ويذكر أيضاً بحاله في الدنيا فيقال له: {إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْكَرِيمُ}؛ فحينئذ يتقطع ألماً، وحسرة؛ ولا شك أن المؤمنين يسرون
بعذاب أعداء الله؛ فعذابهم رحمة للمؤمنين، كما قال تعالى: {فَالْيَوْمَ
الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ}
[المطففين: ٣٤-٣٥].

{إِذْ تَبَرَّأَ} التبرؤ: التنصل من الشيء والتباعد والتخلي عنه
لكرهه {الَّذِينَ اتَّبَعُوا} المعبودون والرؤساء المضلون، ومعنى براءتهم
منهم تنصلهم من مواعيد نفعهم في الآخرة الذي وعدوهم في الدنيا
والشفاعة فيهم، وصرفهم عن الالتحاق بهم حين هرعوا إليهم.
{مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا} المشركون والمقلدون لرؤسائهم في
الضلال.

ولا يشمل قوله تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا}
من اتبع أئمة الهدى؛ فالمتبعون للرسول لا يتبرأ منهم الرسول؛
والمتبعون لأئمة الهدى لا يتبرأ منهم أئمة الهدى؛ لقوله تعالى:
{الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [الزخرف: ٦٧]؛
فالأخلاء والأحبة يوم القيامة يتبرأ بعضهم من بعض إلا المتقين.

{وَرَأَوْا} لتحقيق وقوعه عبر عنه بالماضي؛ وهذا كثير في القرآن، ومثله **{تَبَرَأَ}** **{الْعَذَابُ}** أي تبرءوا في حال رؤيتهم العذاب، ومعنى رؤيتهم إياه أنهم رأوا أسبابه وعلموا أنه أعد لمن أضل الناس فجعلوا يتباعدون من أتباعهم لئلا يحق عليهم عذاب المضللين. ويمكن أن يكون ضمير **{رَأَوْا}** ضمير مبهم عائد إلى فريقين الذين اتبعوا والذين اتبعوا.

{وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ} جمع سبب، وهي لغة: "الحبل" ثم استعمل في كل ما يربط بين شيئين، وفي كل ما يتوصل به إلى مقصد وغرض خاص.. كناية عن أن لا منجى لهم من العذاب، ولا مخلص، ولا منقذ، ولا تعلق بشيء ينجيهم من عذاب الله، وهو عام في كل ما يمكن أن يتعلق به.

وللمفسرين في الأسباب أقوال: الوصلات، الأرحام، الأعمال المتلزمة، العهود، وصلات الكفر، منازلهم من الدنيا في الجاه، أسباب النجاة، المودّات التي كانت بينهم في الدنيا... والظاهر دخول الجميع في الأسباب، لأنه لفظ عام.

فالمتبوعين بالباطل لا ينفعون أتباعهم؛ بل إن الأمر لا يقتصر على عدم النفع؛ بل يتعداه إلى البراءة منهم، والتباعد عنهم؛ وهذا يكون أشد حسرة على الأتباع مما لو كان موقفهم سلبياً.

وأن الله سبحانه وتعالى يجمع يوم القيامة بين الأتباع والمتبوعين توبيخاً، وتنديماً لهم؛ ويتبرأ بعضهم من بعض؛ لأن هذا - لا شك - أعظم حسرة إذا صار متبوعه الذي كان يعظمه في الدنيا يتبرأ منه وجهاً لوجه.

{وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا} تنبيهها على إغاية المتبوعين وإثارة حسرتهم وذلك عذاب نفساني يضاعف العذاب الجثامي **{لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً}** رجعة وعودة إلى الحياة الدنيا **{فَنَتَبَّرَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّوْا مِنَّا}** تمنوا أن يعودوا إلى الدنيا بعدما علموا الحقيقة وانكشف لهم سوء صنيعهم فيدعوهم الرؤساء إلى دينهم فلا يجيئونهم ليشفوا غيظهم من رؤسائهم الذين خذلوهم ولتحصل للرؤساء خيبة وانكسار كما خيبتهم في الآخرة.

{كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ} يريهم عواقب أعمالهم إراء مثل هذا الإراء إذ لا يكون إراء لأعمالهم أوقع منه، كأنه يرام أن يريهم أعمالهم في كيفية شنيعة فلم يوجد أشنع من هذه الحالة.

{أَعْمَالُهُمْ} والظاهر أنها الأعمال التي اتبعوا فيها رؤساءهم وقادتهم، وهي الكفر والمعاصي. وكانت حسرة عليهم، لأنهم رأوها مسطورة في صحائفهم، وتيقنوا الجزاء عليها، وكان يمكنهم تركها والعدول عنها.

{حَسَرَاتٍ} جمع حسرة وهي الندم الشديد الذي يكاد يحسر صاحبه فيقعده به عن الحركة والعمل، وقيل: الحسرة حزن في ندامة وتلهف، واشتقاقها من الحسر وهو الكشف لأن الكشف عن الواقع هو سبب الندامة على ما فات من عدم الحيلة له.

{عَلَيْهِمْ} قال السدي: "ترفع لهم الجنة فينظرون إلى بيوتهم فيها، لو أطاعوا الله تعالى، فيقال لهم: تلك مساكنكم لو أطعتم الله تعالى، ثم تقسم بين المؤمنين فيرثونها، فذلك حين يندمون". وهذا كقوله تعالى: **{وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}** [الفرقان: ٢٣]

{وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} لأنهم إذا كانوا لا يخرجون من النار تعين أن تمنى الرجوع إلى الدنيا وحدث الخيبة لهم من صنع رؤسائهم لا فائدة فيه إلا إدخال ألم الحسرات عليهم، وإلا فهم يلقون في النار على كل حال.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ
بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
(١٦٩)

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ} هذا ثاني نداء وقع في سورة البقرة بقوله: {يَا
أَيُّهَا النَّاسُ}، والأول في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ
الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [البقرة: ٢١]

وقد ذكر كثير من المؤلفين في أصول التفسير أن الغالب في
السر المدنية أن يكون الخطاب فيها بـ {يا أيها الذين آمنوا}؛ لأن
الرسول -صلى الله عليه وسلم- لما هاجر إلى المدينة صارت
المدينة بلاد إسلام؛ وهي أول بلد إسلامي يحكمه المسلمون في
هذه الرسالة؛ فصار التوجه إليها بالخطاب بـ {يا أيها الذين آمنوا}؛
لكنها ليست قاعدة؛ ولكنها ضابط يخرج منه بعض المسائل؛ لأن
من السر المدنية فيها {يا أيها الناس}، كسورة النساء، وسورة
الحجرات.

{كُلُوا} أمر إباحة وتسويغ **{مِمَّا فِي الْأَرْضِ}** «من» يحتمل أن تكون لبيان الجنس؛ ويحتمل أن تكون للتبعية؛ لكن كونها لبيان الجنس أولى؛ ويرجح قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا}** [البقرة: ٢٩]؛ أي كلوا من هذا ما شئتم؛ ويشمل كل ما في الأرض من أشجار وزروع وبقول.. وغيرها؛ ومن حيوان أيضاً؛ لأنه في الأرض.

{حَلَالًا} ما انحلت عقدة الحظر عنه، وهو ما أذن الله تعالى فيه **{طَيِّبًا}** ما كان طاهراً غير نجس، ومستلذ لا مستقذر تعافه النفوس.

وطيباً: إما مؤكدة لأن معناه ومعنى حلالاً واحداً، وهو قول مالك وغيره، وإما مخصصة لأن معناه مغاير لمعنى الحلال وهو المستلذ، وهو قول الشافعي وغيره. ولذلك يمنع أكل الحيوان القذر وكل ما هو خبيث. وهذا أولى؛ لأن حمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على التوكيد.

وقوله: **{حَلَالًا}** لبيان الحكم الشرعي، و**{طَيِّبًا}** لبيان علته لأن الطيب من شأنه أن تقصده النفوس للانتفاع به فإذا ثبت الطيب

ثبتت الحلية لأن الله رفيق بعباده لم يمنعهم مما فيه نفعهم الخالص أو الراجح.

وفيه تعريض بتحقيقهم فيما أَعْنَتُوا به أنفسهم فحرموها من نعم طيبة افتراء على الله، وفيه إيماء إلى علة إباحته في الإسلام وتعليم للمسلمين بأوصاف الأفعال التي هي مناط الحل والتحريم.

والمقصود إبطال ما اختلقوه من منع أكل البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي، وما حكى الله عنهم في سورة الأنعام من قوله: **{وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرَ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بَزَعْمِهِمْ}**

[الأنعام: ١٣٨]

{وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ} مسالك الشيطان وطريقة المفضية بالعبء إلى تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم .. كأنهم يقتفون آثاره، ويطئون عقبه، فكلما خطا خطوة، وضعوا أقدامهم عليها، وذلك مبالغة في اتباعه، وإرسال النفس على العمل بما يوسوسه لها من الخواطر البشوية.

{إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ} من سره مساءة شخص؛ أو غمه فرحه فهو عدو؛ فالعدو من يحزن لفرحك، ويُسرّ لحزنك **{مُبِينٌ}** ظاهر العداوة .. تعليل لسبب هذا التحذير من اتباع الشيطان، لأن من

ظهرت عداوته واستبانت فهو جدير بأن لا يتبع في شيء وأن يفرّ منه، فإنه ليس له فكر إلا في إرداء عدوه.

ومن فوائد الآية: أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة؛ لقوله تعالى: **{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ }**؛ وهم داخلون في هذا الخطاب؛ ومخاطبتهم بفروع الشريعة هو القول الصحيح؛ ولكن ليس معنى خطابهم بها أنهم ملزمون بها في حال الكفر؛ لأننا ندعوهم أولاً إلى الإسلام، ثم نلزمهم بأحكامه؛ وليس معنى كونهم مخاطبين بها أنهم يؤمرون بقضائها؛ والدليل على الأول قوله تعالى: **{ وَمَا مَنَعُهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ }** [التوبة: ٥٤]؛ فكيف نلزمهم بأمر لا ينفعهم؛ هذا عبث وظلم؛ وأما الدليل على الثاني فقوله تعالى: **{ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ }** [الأنفال: ٣٨]؛ ولهذا لم يأمر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أحداً ممن أسلم بقضاء ما فاتته من الواجبات حال كفره؛ والفائدة من قولنا: إنهم مخاطبون بها - كما قال أهل العلم - زيادة عقوبتهم في الآخرة؛ وهذا يدل عليه قوله تعالى: { إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ } * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَمْ

نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ
الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ { [المدثر:
٣٩ - ٤٧] .

ولما أخبر أنه عدوّ، أخذ ييسط علة العداوة وما نشأ عنها
{إِنَّمَا} «إنما» أداة حصر؛ و«الحصر» إثبات الحكم في المذكور،
ونفيه عما سواه، كما لو قلت: «إنما القائم زيد»؛ أثبت القيام لزيد،
ونفيته عن سواه؛ والمعنى: ما يأمركم إلا بالسوء والفحشاء
{يَأْمُرُكُمْ} وفي تلقيهم ما يوسوس لهم بحال الأمر والمأمور كأنهم لا
إرادة لهم ولا يملكون أمر أنفسهم، وفي هذا زيادة شنيع لحالهم
وإثارة للعداوة بين الشيطان وبينهم **{بِالسُّوءِ}** كل ما يسوء ويضر
النفس، ويصيبها بالحزن والغم، ويدخل فيها سائر الذنوب، وقيل
المعاصي الصغيرة **{وَالْفَحْشَاءِ}** كل خصلة قبيحة تجاوزت حدود
الأدب وعظم إنكارها، كالزنا واللواط وأكل السحت وسائر
المعاصي الكبيرة ذات القبح الشديد. وقال ابن عباس: كل ما بلغ
حداً من الحدود لأنه يتفاحش حينئذ.

ومع أن المعاصي الصغار تقع مكفرة بالأعمال الصالحة إذا اجتنبت الكبائر؛ لكنه يأمر بها؛ لأنه إذا فعلها الإنسان مرة بعد أخرى فإنه يفسق، ويقسو قلبه؛ ثم لا ندري أتقوى هذه الأعمال الصالحة على تكفير السيئات، أم يكون فيها خلل، ونقص يمنع من تكفيرها السيئات.

{وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} معطوف على {السوء والفحشاء} من باب عطف الخاص على العام؛ فإنه داخل إما في السوء، أو الفحشاء؛ وهو أيضاً إلى الفحشاء أقرب.

يشير إلى ما اختلقه المشركون وأهل الضلال من رسوم العبادات ونسبة أشياء لدين الله ما أمر الله بها. وخصه بالعطف مع أنه بعض السوء والفحشاء لاشتماله على أكبر الكبائر وهو الشرك والافتراء على الله.

ولذلك قال الأصوليون: يجوز للمجتهد أن يقول فيما أداه إليه اجتهاده بطريق القياس: إنه دين الله ولا يجوز أن يقول قاله الله، لأن المجتهد قد حصلت له مقدمة قطعية مستقراة من الشريعة انعقد الإجماع عليها، وهي: وجوب عمله بما أداه إليه اجتهاده بأن يعمل به في الفتوى والقضاء وخاصة نفسه، فهو إذا أفتى به وأخبر فقد

قال على الله ما يعلم أنه يرضى الله تعالى بحسب ما كلف به من الظن.

قال ابن عثيمين: إذا قال قائل: أستم تبيحون الفتوى بالظن عند تعذر اليقين؟

فالجواب: بلى؛ بشرط أن يكون لهذا الظن أساس شرعي - من اجتهاد، أو تقليد لمن هو أهل لذلك - يبنى عليه؛ فإذا أفتينا بالظن لتعذر اليقين فقد أفتينا بما أذن الله لنا فيه؛ لقوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦]، وقوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: ٢٨٦]؛ ومعلوم أن القول بغلبة الظن خير من التوقف؛ وكثير من مسائل الفقه التي تكلم فيها الفقهاء، واختلفوا فيها من هذا الباب؛ لأنها لو كانت يقينية لم يحصل فيها اختلاف؛ ثم إن الشيء قد يكون يقيناً عند شخص لإيمانه، وكثرة علمه، وقوة فهمه؛ ومظنوناً عند آخر لنقصه في ذلك.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ

(١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ

إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٧١)

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ} الكفار {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ} زيادة تفضيع لحال

أهل الشرك، فبعد أن أثبت لهم اتباعهم خطوات الشيطان فيما حرموا على أنفسهم من الطيبات، أعقب ذلك بذكر إعراضهم عن يدعواهم إلى اتباع ما أنزل الله، وتشبثوا بعدم مخالفتهم ما ألفوا عليه آباءهم، وأعرضوا عن الدعوة إلى غير ذلك دون تأمل ولا تدبر.

فهذا إعلام بتعظيم ما أمروهم باتباعه أن نسب إنزاله إلى الله الذي هو المشرع للشرائع، فكان ينبغي أن يتلقى بالقبول ولا يعارض باتباع آبائهم رؤوس الضلالة.

{قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا} وجدنا، كما قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ

لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا}

[لقمان: ٢١] {عَلَيْهِ آبَاءُنَا} من الشرك {أُولَئِكَ} الهمزة للاستفهام

المصحوب بالتوبيخ والإنكار والتعجب من حالهم.. ومثل هذا

التركيب من بديع التراكيب العربية وأعلاها إيجازا {كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا

يَعْقِلُونَ شَيْئًا} المراد بالعقل هنا عقل الرشد؛ لا عقل الإدراك؛

فآباؤهم أذكياء، ويدركون ما ينفعهم، وما يضرهم؛ لكن ليس عندهم

عقل رشد، وهو حسن تصرف **{وَلَا يَهْتَدُونَ}** أي لا يعملون عمل العالم المهتدي؛ وبهذا انتفى عنهم الرشد في العلم والعمل.. وهذا مبالغة في إلزامهم بالخطأ في اتباع آبائهم عن غير تبصر ولا تأمل. وفي الآية: ذم التعصب بغير هدى، وأن من تعصب لمذهب مع مخالفة الدليل ففيه شبه من هؤلاء.

{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا} في جمودهم وتقليد آبائهم في الشرك والضلال، ولم يتدبروا ما يقال لهم، وصموا عن سماع الحق، وخرسوا عن النطق به، وعموا عن إِبصار النور الساطع النبوي **{كَمَثَلِ الرَّاغِيِ {الَّذِي يَنْعِقُ} يصيح، فالنعق نداء الغنم {بِمَا لَا يَسْمَعُ} أي الغنم {إِلَّا دُعَاءَ} طلب القريب {وَنِدَاءَ} طلب البعيد. {صُمٌّ} الذي لا سمع {بُكْمٌ} الذي لا ينطق {عُمِّيٌّ} .. أي فهم صم عن سماع الحق؛ ولكن سماع غيره لا فائدة منه؛ فهو كالعدم؛ وهم بُكْمٌ لا ينطقون بالحق؛ ونطقهم بغير الحق كالعدم؛ لعدم نفعه؛ وهم كذلك عُمِّيٌّ لا يبصرون الحق؛ وإبصارهم غير الحق لا ينتفعون به.. وهذا تشبيه بليغ**

{فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} تفرّيع كمجىء النتيجة بعد البرهان .. أي لا يدركون معنى الكلام ولا يميزون بين الأشياء لتعطل آلة الإدراك عندهم وهي عقل الرشد، وإن كان عندهم عقل إدراك.

وهي صورة عجيبة ومثل غريب للذين يعطلون قواهم العقلية ويكتفون بالتبعية في كل شيء حتى أصبحوا كالشياه من الغنم يسوقها راعيها حيث شاء، فإذا نعق بها دعياً لها أجابته ولو كان دعاؤه إياها لذبحها، وكذا إذا ناداها بأن كانت بعيدة أجابته وهي لا تدري لم نوديت إذ هي لا تسمع ولا تفهم إلا مجرد الصوت الذي ألفته بالتقليد الطويل والاتباع بدون دليل.

وقوله: **{وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا}** أي ومثل داعي الذين كفروا فلا يكون من تشبيه الكافر بالناعق، وإنما يكون من باب تشبيه داعي الكافر في دعائه إياه بالناعق بالبهايم، في كون الكافر لا يفهم مما يخاطبه به داعيه إلا دويّ الصوت دون إلقاء ذهن ولا فكر، فهو شبيه بالناعق بالبهيمة التي لا تسمع من الناعق بها إلا دعاءه ونداءه، ولا تفهم شيئاً آخر.

وقيل: وقع التشبيه بالراعي للضأن، لأنها من أبله الحيوانات، فهي تحمق راعيها. وفي المثل السائر: "أحمق من راعي ضأن ثمانين".

وقال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ لمالك بن عوف، يوم هَوَازِنَ: راعي ضأن والله، لأنه لما جاء إلى قتال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، أمر هوازِنَ ومن كان معهم أن يحملوا معهم المال والنساء، فلما لقيه دريد قال: أراك سقت المال والنساء؟ فقال: يقاتلون عن أموالهم وحریمهم. فقال له دريد: أمنت أن تكون عليك "راعي ضأن والله".

ومن فوائد الآيات: تسليّة الدعاة إلى الله تعالى عندما يواجهون المقلدة من أهل الشرك والضلال. وحرمة التقليد لأهل الأهواء والبدع. ووجوب طلب العلم والمعرفة حتى لا يفعل المؤمن ولا يترك إلا على علم بما فعل وبما ترك. ولا يتابع إلا أهل العلم والبصيرة في الدين، لأن اتباع الجاهل يعتبر تقليداً مذموماً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا
لِلَّهِ إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ
وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَن اضْطُرَّ
غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
(١٧٣)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} هذا الخطاب مؤكداً لقوله: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ}**، ولما كان لفظ الناس يعم المؤمن والكافر، ميز الله المؤمنين بهذا النداء، تشریفاً لهم وتنبيهاً على خصوصيتهم.

{كُلُوا} الأمر بالأكل المعهود. وقيل: المراد الانتفاع به، ونبه بالأكل على وجوه الانتفاع، إذ كان الأكل أعظمها، إذ به تقوم البنية. وهذا أقرب إلى المعنى، لأنه تعالى ما خص الحل والحرمة بالمأكولات، بل بسائر ما ينتفع به من أكل وشرب ولبس وغير ذلك.

{مِنْ طَيِّبَاتِ} أمر بذلك وأباحه تعالى دفعاً لمن يتوهم أن التنوع في المطاعم والتفنن في إطبائها ممنوع منه، فكان تخصيص المستلذ بالذكر لهذا المعنى.

{مَا رَزَقْنَاكُمْ} فيه إسناد الرزق إلى ضمير المتكلم بنون العظمة، لما في الرزق من الامتنان والإحسان.

{وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ} هذا من الالتفات، إذ خرج من ضمير المتكلم إلى اسم الغائب، وحكمة ذلك ظاهرة، لأن هذا الاسم الظاهر متضمن لجميع الأوصاف التي منها وصف الأنعام والزرق والشكر،

وليس على هذا الإذن الخاص، بل يشكر على سائر الإنعامات والامتنانات التي منها هذا الامتنان الخاص.

{إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} اشكروا الله إن كنتم تريدون عبادته، لأن الشكر رأس العبادات. مثل قوله: **{إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ}** [يوسف: ٤٣] أي إن كان هذا العلم من صفاتكم، والمعنى: إن كنتم لا تشركون معه في العبادة غيره فاشكروه وحده. فالمراد بالعبادة هنا الاعتقاد بالإلهية والخضوع والاعتراف، وليس المراد بها الطاعات الشرعية.

وفي الآية: الرد على الجبرية من قوله تعالى: **{كلوا}**، و**{اشكروا}**، و**{تعبدون}**؛ كل هذه أضيفت إلى فعل العبد؛ فدل على أن للعبد فعلاً يوجه إليه الخطاب بإيجاده؛ ولو كان ليس للعبد فعل لكان توجيه الخطاب إليه بإيجاده من تكليف ما لا يطاق.

{إِنَّمَا حَرَّمَ} حظر ومنع .. ولما أمر تعالى بأكل الطيبات في الآية السابقة، كان الإذن بأكل الطيبات يشير سؤال من يسأل ما هي الطيبات فجاء هذا الاستئناف مبيناً المحرمات وهي أضداد الطيبات، لتعرف الطيبات بطريق المضادة المستفاد من صيغة الحصر، وإنما سلك طريق بيان ضد الطيبات للاختصار؛ فإن

المحرمات قليلة، ولأن في هذا الحصر تعريضا بالمشركين الذين حرموا على أنفسهم كثيرا من الطيبات وأحلوا الميتة والدم. **{عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ}** ما مات من الحيوان حتف أنفه بدون تذكية مما له نفس سائلة، باستثناء السمك والجراد، أما الذي يعيش في البر والبحر يعطى حكم البر تغليباً لجانب الحظر **{وَالدَّمَ}** المسفوح السائل، لا المختلط باللحم **{وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ}** حيوان خبيث معروف بأكل العذرة ولا يغار على أنثاه، وقيل أن أكله يقطع الغيرة ويذهب بالأنفة، فيتساهل الناس في هتك المحرم وإباحة الزنا، وذكر اللحم هنا لأنه المقصود للأكل فلا دلالة في ذكره على إباحة شيء آخر منه.

قال ابن عاشور: ومن عجيب ما يتعرض له المفسرون والفقهاء البحث في حرمة خنزير الماء وهي مسألة فارغة إذ أسماء أنواع الحوت روعيت فيها المشابهة كما سموا بعض الحوت فرس البحر وبعضه حمام البحر وكلب البحر، فكيف يقول أحد بتأثير الأسماء والألقاب في الأحكام الشرعية.

{وَمَا أَهْلَ بِهِ} نودي عليه بغير اسم الله تعالى .. سمي ذلك إهلالاً، لأنهم يرفعون أصواتهم باسم المذبوح له عند الذبيحة، ثم

توسع فيه وكثر حتى صار اسماً لكل ذبيحة جهر عليها أو لم يجهر
{لَغَيْرِ اللَّهِ} والذي يظهر من الآية تحريم ما ذبح لغير الله، فيندرج
في لفظ غير الله: الصنم والمسيح والفخر والتباهي واللعب.
وروي عن علي أنه قال: إذا سمعتم اليهود والنصارى يهلون
لغير الله فلا تأكلوا.

وهل يكون ذبح الذبيحة للضيف إهلاً بها لغير الله؟
الجواب: إن قصد بها إكرام الضيف فلا يدخل بلا شك، كما
لو ذبح الذبيحة لأولاده ليأكلوها، وإن قصد بذلك التقرب إليه،
وتعظيمه تعظيم عبادة فإنه شرك، كالمذبح على النصب تماماً، فلا
يحل أكلها؛ وقد كان بعض الناس - والعياذ بالله - إذا قدم رئيسهم
أو كبيرهم يذبحون بين يديه القرابين تعظيماً له - لا ليأكلها، ثم
تترك للناس -؛ وهذا يكون قد ذبح على النصب؛ فلا يحل أكله -
ولو ذكر اسم الله عليه -.

وروي أن علياً قال في الإبل التي نحرها غالب أبو الفرزدق:
إنها مما أهل بها لغير الله، فتركها الناس.. فقد راعى علي -رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ- النية في ذلك.

فلما بين ما حرم، بقي ما سوى ذلك على التحليل حتى يرد منع آخر. وهذا مثل قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لما سئل عما يلبس المحرم فقال: (لا يلبس القميص ولا السراويل)، فعدل عن ذكر المباح إلى ذكر المحذور، لكثرة المباح وقلة المحذور، وهذا من الإيجاز البليغ.

لكن حصر المحرمات في هذه الأشياء الأربعة: الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهل به لغير الله؛ لقوله تعالى: **{إِنَّمَا}**؛ لأنها أداة حصر؛ لكن هذا الحصر قد بُين أنه غير مقصود؛ لأن الله حرم في آية أخرى غير هذه الأشياء: فحرم ما ذبح على النصب - وليس من هذه الأشياء -؛ وحرم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير - وليس داخلاً في هذه الأشياء -؛ وحرم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الحمر الأهلية - وليس داخلاً في هذه الأشياء -؛ فيكون هذا الحصر غير مقصود بدلالة القرآن والسنة.

ومن فوائد الآية: أن الشرك قد يؤثر الخبث في الأعيان - وإن كانت نجاسته معنوية -؛ فهذه البهيمة التي أهل لغير الله بها نجسة خبيثة محرمة؛ والتي ذكر اسم الله عليها طيبة حلال؛ تأمل خطر

الشرك، وأنه يتعدى من المعاني إلى المحسوسات؛ وهو جدير بأن يكون كذلك؛ لهذا قال الله عز وجل: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا}** [التوبة: ٢٨] مع أن بدن المشرك ليس بنجس؛ لكن لقوة خبثه المعنوي، وفساد عقيدته وطويته صار مؤثراً حتى في الأمور المحسوسة.

{فَمَنْ اضْطُرَّ} من ألجأته الضرورة -التي يكون الضرر منها- إلى أكل شيء من هذه المحرمات **{غَيْرَ بَاغٍ}** الطالب لأكل الميتة من غير ضرورة، وقيل: مجاوز القدر الذي يحل له، متزيد على إمساك رmqه وإبقاء قوّته، فيجىء أكله شهوة **{وَلَا عَادٍ}** المتجاوز لقدر الضرورة، وقيل: المتزود **{فَلَا إِثْمٌ}** جناح **{عَلَيْهِ}** نفي كل فرد من الإثم عنه إذا أكل، لا وجوب الأكل.

قال ابن عاشور: إيماء إلى حد الضرورة وهي الحاجة التي يشعر عندها من لم يكن دأبه البغي والغعدوان بأنه سيبغي ويعتدي وهذا تحديد منضبط، فإن الناس متفاوتون في تحمل الجوع وتفاوت الأمزجة في مقاومته، ومن الفقهاء من يحدد الضرورة بخشية الهلاك ومرادهم الإفضاء إلى الموت والمرض وإلا فإن حالة

الإشراف على الموت لا ينفع عندها الأكل، فعلم أن نفي الإثم عن المضطر فيما يتناوله من هذه المحرمات منوط بحالة الاضطرار، فإذا تناول ما أزال به الضرورة فقد عاد التحريم كما كان، فالجائع يأكل من هاته المحرمات إن لم يجد غيرها أكلا يغنيه عن الجوع، وإذا خاف أن تستمر به الحاجة - كمن توسط فلاة في سفر - أن يتزود من بعض هاته الأشياء حتى إن استغنى عنها طرحها، لأنه لا يدري هل يتفق له وجدانها مرة أخرى أم لا.

وقال الطبري: ليس الأكل عند الضرورة رخصة، بل ذلك عزيمة واجبة، ولو امتنع من الأكل كان عاصياً.

وقال مسروق: بلغني أنه من اضطر إلى الميتة فلم يأكل حتى مات، دخل النار، كأنه أشار إلى أنه قاتل نفسه بتركه ما أباح الله له. **{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** تذييل قصد به التعليل أو الامتنان، والمعنى: أن رفع الإثم عن المضطر حكم يناسب من اتصف بالمغفرة والرحمة.

فلما ذكر سبحانه أشياء محرمة اقتضى المنع منها، ثم ذكر إباحتها للمضطر في تلك الحال المقيدة له، أتبع ذلك بالإخبار عن نفسه بأنه تعالى غفور رحيم، لأن المخاطب بصدد أن يخالف،

فيقع في شيء من أكل هذه المحرمات، فأخبر بأنه غفور رحيم بهم.

و «الغفور» مأخوذ من الغفر؛ وهو الستر مع الوقاية؛ وليس الستر فقط؛ ومنه سمي «المَغْفَر» الذي يغطي به الرأس عند الحرب؛ لأنه يتضمن الستر والوقاية؛ ويدل لذلك قوله تعالى إذا خلا بعبده المؤمن يوم القيامة، وحاسبه: (قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم)

والرحمة صفة من صفات الله سبحانه وتعالى الذاتية الفعلية؛ فهي باعتبار أصل ثبوتها لله صفة ذاتية؛ وباعتبار تجدد من يرحمه الله صفة فعلية؛ ولهذا علقها الله سبحانه وتعالى بالمشيئة في قوله تعالى: {يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحِمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ} [العنكبوت: ٢١] فهي صفة حقيقية ثابتة لله عز وجل وأهل التأويل - والأصح أن نسميهم أهل التحريف - يقولون: إن الرحمة غير حقيقية؛ وأن المراد برحمة الله إحسانه؛ أو إرادة الإحسان؛ فيفسرونها إما بالإرادة؛ وإما بالفعل؛ وهذا لا شك أنه خطأ؛ وحجتهم: أنهم يقولون: إن الرحمة رقة ولين؛ والرقة واللين لا تناسبان عظمة الخالق سبحانه وتعالى؛ فنقول لهم: إن هذه الرحمة

رحمة المخلوق؛ أما رحمة الخالق فإنها تليق به سبحانه وتعالى؛ ولا تتضمن نقصاً؛ فهو ذو رحمة بالغة، وسلطان تام؛ فلا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (١٧٦)

{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ} يجحدون ويخفون {مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا} بالنسبة لما في الآخرة.

نزلت في أحبار أهل الكتاب تندد بصنيعهم وتريهم جزاء كتمانهم الحق وبيعهم العلم -الذي أخذ عليهم أن يبينوه- ببعض خسيس من الدنيا، يجحدون أمر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

ودينه إرضاء للعوام حتى لا تقطع هداياهم وهباتهم المالية من سحت الدنيا، وحتى يبقى لهم السلطان الروحي عليهم.

وقد وصف الله تعالى نبيه محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الكتابين، ونعته فيهما وسماه، فقال تعالى: **{الرَّسُولَ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ}** [الأعراف: ١٥٧] وقال: **{وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}** [الصف: ٦] والطائفتان أنكروا صفة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكنتم ما أنزل الله من الكتاب، وهو أمر رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وإنكار نبوته وتبديل صفته ليست أسبابه منحصرة في الاشتراء، بل الاشتراء بعض أسبابه.

فكان أيضا لأمر أخرى منها البغي: **{بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}** [البقرة: ٩٠] ومنها الحسد، لكونه من العرب لا منهم. ومنها طلب الرياسة، وأن يستتبعوا أهل ملتهم. ومنها تحصيل أموالهم ورشاء ملوكهم وعوامهم.

وفيه تحذيرا للمسلمين مما أحدثه اليهود في دينهم من تحريم بعض ما أحل الله لهم، وتحليل بعض ما حرم الله عليهم؛ لأنهم كانوا

إذا أرادوا التوسيع والتضييق تركوا أن يقرؤوا من كتابهم ما غيروا
العمل بأحكامه كما قال تعالى: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ
كَثِيرًا}** [الأنعام: ٩١]

قال ابن عثيمين -رحمه الله-: وهذا الوعيد على من جمع بين
الأمرين: {يَكْتُمُونَ}، و{يَشْتَرُونَ}؛ فأما من كتم بدون اشتراء؛ أو
اشترى بدون كتم فإن الحكم فيه يختلف؛ إذا كتم بدون اشتراء فقد
قال الله سبحانه وتعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ
وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ
وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ}** [البقرة: ١٥٩]؛ وهذا يدل على أن كتمان ما
أنزل الله من كبائر الذنوب؛ ولكن لا يستحق ما ذكر في الآية التي
نحن بصدد تفسيرها؛ وأما الذين يشترون بما أنزل الله من الكتاب
ثمناً قليلاً بدون كتمان فقد قال الله تعالى: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ}***
**أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا
وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [هود: ١٥-١٦]

{أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ} يجازون على ما
اقترفوه من كتم ما أنزل الله، والاشتراء به الثمن القليل، بالنار. وأن

ما اكتسبوه بهذه الأوصاف الذميمة مآله إلى النار. وعبر بالأكل لأنه أعظم منافع ما تصرف فيه الأموال. وذكر {فِي بُطُونِهِمْ} إما على سبيل التوكيد، إذ معلوم أن الأكل لا يكون إلا في البطن، فصار نظير قوله: {وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [الأنعام: ٣٨] أو كناية عن ملء البطن. أو لرفع توهم المجاز، إذ يقال: «أكل فلان ماله»، إذا جحده، وإن لم يأكله.

وجعل المأكول النار، تسمية له بما يؤول إليه، لأنه سبب النار، وذلك كما يقولون: «أكل فلان الدم»، يريدون الدية.

وتسمية الشيء بما يؤول إليه كثير، ومن ذلك: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا} [النساء: ١٠] ومن ذلك الذي يشرب في آنية الذهب والفضة، إنما يجرجر في بطنه نار جهنم، كما رواه مسلم عن أمِّ سلمة قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ شَرِبَ فِي إِنَاءٍ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ فَإِنَّمَا يُجْرَجُ فِي بَطْنِهِ نَارًا مِنْ جَهَنَّمَ) وذكر في بطونهم تنبيهاً على شرهم وتقبيحاً لتضييع أعظم النعم لأجل المطعوم الذي هو أحسن تناول، قاله الراغب.

{وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} لسخطه عليهم ولعنه لهم، ويكون في نفي كلامه تعالى إياهم دلالة على الغضب عليهم، ألا ترى أن من غضب على شخص صرمه وقطع كلامه لأن في التكلم -ولو كان بشر- تأنيساً ما والتفاتاً إلى المكلم.

وقيل جاء في القرآن ما ظاهره أنه يكلمهم، كقوله تعالى: **{فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}** [الحجر: ٩٢] والسؤال لا يكون إلا بالتكليم، وقال: **{قَالَ اخْسَوْوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ}** [المؤمنون: ١٠٨]. فالمعنى: لا يكلمهم كلام خير وإقبال وتحية، وإنما يكلمهم كلاماً يشق عليهم.

{وَلَا يُزَكِّيهِمْ} لا يطهرهم من دنس ذنوبهم لعدم رضاه عنهم، وذلك إشعار لهم بأنهم صائرون إلى العذاب.

وفيه: أن يوم القيامة يُزكى فيه الإنسان؛ وذلك بالثناء القولي، والفعلي؛ فإن الله يقول لعبده المؤمن حين يقرره بذنوبه: (سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم)؛ وأما الفعلي فإن علامة الثناء أنه يعطى كتابه بيمينه، ويشهد الناس كلهم على أنه من المؤمنين؛ وهذه تزكية بلا شك.

{وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} فترتب على الكتمان واشتراء الثمن القليل
هذه الأخبار الأربعة، وانعطفت بالواو الجامعة لها.
{أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى} كتمان العلم؛ فإنه
ضلال؛ وأما {الهدى} فهو بيان العلم ونشره، وهذا في الدنيا
{وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ} النار بالجنة، وهذا في الآخرة.
وعموماً من ملكته نفسه، وأسرته الهوى، فقد اشترى الضلالة
بالهدى.

وفي لفظ {اشْتَرُوا} إشعار بإيثارهم الضلالة والعذاب، لأن
الإنسان لا يشتري إلا ما كان له فيه رغبة ومودة واختيار، وذلك
يدل على نهاية الخسارة، وعدم النظر في العواقب.
{فَمَا} ما التعجبية، كقوله تعالى: {قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ}
[عبس: ١٧] **{أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ}**

قال ابن عثيمين: والسؤال: أهو تعجب من الله أم تعجب منه؛
بمعنى: يرشدنا إلى أن نتعجب، وليس هو موصوفاً بالتعجب:
فقد اختلف فيه المفسرون؛ فمنهم من رأى أنه تعجب من الله
عز وجل؛ لأنه المتكلم به هو الله؛ والكلام ينسب إلى من تكلم به؛
ولا مانع من ذلك لا عقلاً، ولا سمعاً - أي لا مانع يمنع من أن الله

سبحانه وتعالى يعجب؛ وقد ثبت لله العجب بالكتاب، والسنة؛ فقال الله تعالى في القرآن: {بل عجبٌ ويسخرون} [الصافات: ١٢] بضم التاء؛ وهذه القراءة سبعة ثابتة عن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ والتاء فاعل يعود على الله سبحانه وتعالى المتكلم؛ وعلى هذا فالعجب لله ثابت؛ فلا مانع من أن الله يعجب من صبرهم؛ فإذا قال قائل: العجب يدل على أن المتعجب مباغت بما تعجب منه؛ وهذا يستلزم أن لا يكون عالماً بالأمر من قبل، وهو محال على الله؟

فالجواب: أن سبب العجب لا يختص بما ذكر؛ بل ربما يكون سببه الإنكار على الفاعل، حيث خرج عن نظائره، كما تقول: «عجبت من قوم جحدوا بآيات الله مع بيانها، وظهورها»؛ وهو بهذا المعنى قريب من معنى التوبيخ، واللوم.

ومن المفسرين من قال: إن المراد بالعجب: التعجب؛ كأنه قال: أعجب أيها المخاطب من صبرهم على النار؛ وهذا وإن كان له وجه لكنه خلاف ظاهر الآية.

وقال ابن عاشور: تعجب من شدة صبرهم على عذاب النار، ولما كان شأن التعجب أن يكون ناشئاً عن مشاهدة صبرهم على

العذاب وهذا الصبر غير حاصل في وقت نزول هاته الآية بنى التعجب على تنزيل غير الواقع منزلة الواقع لشدة استحضار السامع إياه بما وصف به من الصفات الماضية، وهذا من طرق جعل المحقق الحصول في المستقبل بمنزلة الحاصل، ومنه التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وتنزيل المتخيل منزلة الشاهد.

وقيل: ظاهر التعجب، أنه من صبرهم في الحال، لا أنهم سيصبرون، وبأن أهل النار قد يقع منهم الجزع. كمال قال تعالى: **{وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رُبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ}**

[الزخرف: ٧٧]

وقيل: الصبر مجاز عن البقاء في النار، أي ما أبقاهم في النار. وقيل: ما استفهامية لا تعجبية، وهو استفهام توبيخي، والمعنى: أي شيء صبرهم على النار حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل؟ وقيل: ما نافية، والمعنى: أن الله ما أصبرهم على النار، أي ما يجعلهم يصبرون على العذاب.

وفي الآيات بيان أن كتمان العلم أو بيانه لغرض من الدنيا من الضلال؛ وذلك لأنه جاهل بما يجب على العالم في علمه من النشر والتبليغ، ولأنه جهل على نفسه، حيث منعها هذا الخير

العظيم في نشر العلم؛ لأن من أفضل الأعمال نشر العلم؛ فإن العلم ليس كالمال؛ المال يفنى؛ والعلم يبقى؛ رأيت الآن في الصحابة -رضي الله عنهم- أناس أغنياء أكثر غنى من أبي هريرة -رضي الله عنه- وذكر أبي هريرة بين الخاص والعام الآن أكثر، والثواب الذي يأتيه مما روى عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من أحاديث أكثر وأعظم؛ ثم رأيت منزلة الإمام أحمد بن حنبل، ونحوه من الأئمة مع من في عهدهم من الخلفاء والوزراء والأغنياء، هل بقي ذكرهم، كما بقي ذكر هؤلاء الأئمة؟! فكتمان العلم لا شك أنه ضلالة في الإنسان وجهالة.

وفيهما أيضاً: أن نشر العلم وإظهاره وبيانه من أسباب المغفرة؛ لأنه جعل لهم العذاب في مقابلة الكتمان، واختيارهم العذاب على المغفرة، والضلالة على الهدى؛ فدل ذلك على أن نشر العلم من أسباب مغفرة الذنوب؛ كما أن الذنوب أيضاً تحول بين الإنسان، والعلم، فكَذلك كتم العلم يحول بين الإنسان والمغفرة.

وقد استدل بعض العلماء بأن الذنوب تحول بين الإنسان والعلم بقوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً} * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ

اللَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً { [النساء: ١٠٥-١٠٦] ؛ فقال تعالى:
{لتحكم}، ثم قال تعالى: {واستغفر الله}؛ فدل هذا على أن
الاستغفار من أسباب فتح العلم - وهو ظاهر -؛ وبقوله تعالى:
{فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ
عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} [المائدة: ١٣]؛ لأن الذنوب
- والعياذ بالله - رين على القلوب، كما قال تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ
عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: ١٤]؛ فإذا كانت ريناً
عليها فإن الاستغفار يمحو هذا الرين، وتبقى القلوب نيرة مدركة
واعية.

وكل هذا الذي توعد الله تعالى به هؤلاء الفسقة، لأن الله -جل
شأنه- نزل الكتاب بالحق مبيناً فيه سبيل الهداية، فقال: {ذَلِكَ}
العذاب الذي استحقوه {بِأَنَّ} بسبب أن {اللَّهُ نَزَلَ الْكِتَابَ}
القرآن، والتوراة، والإنجيل، وغيرها من الكتب التي أنزلها الله
{بِالْحَقِّ} ما نزل به حق، وأنه نازل من عند الله حقاً .. فكتمانهم
شيئاً من الكتاب كتمان للحق، وذلك فساد وتغيير لمراد الله؛ لأن

ما يكتّم من الحق يخلفه الباطل، فحق عليهم العذاب لكتمانهم، لأنه مخالف مراد الله من تنزيهه

{وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ} التوراة والإنجيل .. تكملة وصف الذين اشتروا الضلالة بالهدى ووعيدهم.

وهذا الاختلاف يشمل الاختلاف في أصله: فمنهم من آمن؛ ومنهم من كفر، والاختلاف فيما بينهم أي فيما بين أحد الطرفين: فمنهم من استقام في تأويله؛ ومنهم من حرف في تأويله على غير مراد الله سبحانه وتعالى.

وهذا الاختلاف -أيضا- هو سبب اعتقاد كل طائفة أن كتابها هو الحق، وأن غيره افتراء، وقد كذبوا في ذلك، فكتب الله يشبه بعضها بعضاً، ويصدق بعضها بعضاً.

{لَفِي شِقَاقٍ} تنازع وعداء حتى يكون صاحبه في شق، ومنازعه في آخر **{بَعِيدٍ}** يصعب إنهاؤه والوفاق بعده.

وصدق الله فما زال اليهود والنصارى مختلفين متعادين إلى اليوم، ثمرة اختلافهم في الحق الذي أنزله الله وأمرهم بالأخذ به فتركوه وأخذوا بالباطل فآثم لهم الشقاق البعيد.

وفيه التحذير من الاختلاف في القرآن الكريم لما يفضي إليه من العداة والشقاق البعيد بين المسلمين.

لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)

{لَيْسَ الْبِرُّ} اسمٌ جامع لكل خير، وطاعة لله ورسوله، وأصل والبر: سعة الإحسان وشدة المرضاة والخير الكامل الشامل، ولذلك توصف به الأفعال القوية الإحسان فيقال: «بر الوالدين» و «بر الحج»، وقال تعالى: **{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}** [آل عمران: ٩٢] والمراد به هنا بر العبد ربه بحسن المعاملة في تلقي شرائعه وأوامره.

وقيل: البر في الأصل الخير الكثير؛ ومنه سمي «البر» لسعته واتساعه؛ ومنه «البر» اسم من أسماء الله، كما قال تعالى: {إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ} [الطور: ٢٨]

{أَنْ تَوَلَّوْا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} قال قتادة: "قبلة النصارى مشرق بيت المقدس لأنه ميلاد عيسى على نبينا وعليه السلام، لقوله تعالى: {مَكَانًا شَرْقِيًّا} [مريم: ١٦] واليهود مغربه"، ويزعم كل فريق أن البر ذلك.

وقيل: سبب نزولها إنكار الكفار على المؤمنين تحويل قبلتهم عن بيت المقدس إلى الكعبة.

ومن فوائد الآية: الإشارة إلى أن العناية بتزكية النفوس أجدر من العناية باستقبال الجهات. فنفى البر عن استقبال الجهات مع أن منها ما هو مشروع كاستقبال الكعبة: إما لأنه من الوسائل لا من المقاصد فلا ينبغي أن يكون الاشتغال به قصارى همة المؤمنين، ولذلك أسقطه الله عن الناس في حال العجز والنسيان وصلوات النوافل على الدابة في السفر، ولذلك قال: {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ}.. {فَإِنْ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ أَهَمِّ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ، وفيه جماع صلاح النفس والجماعة، ونظير هذا قوله تعالى: {أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ

وَعِمَارَةُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [التوبة: ١٩] فيكون النفي على معنى نفي الكمال، وإما لأن المنفى عنه البر هو استقبال قبليتي اليهود والنصارى، فذلك الاستقبال غير مشروع في أصل دينهم ولكنه شيء استحسنته رهبانهم ولذلك نفى البر عن تولية المشرق والمغرب تنبيها على ذلك.

{وَلَكِنَّ الْبِرَّ} البر الحق لا يحصل باستقبال المشرق والمغرب بل بمجموع أمور **{مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ}** ويتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده؛ والإيمان بربوبيته؛ والإيمان بألوهيته؛ والإيمان بأسمائه وصفاته، مما أثبتته الله سبحانه وتعالى لنفسه، أو أثبتته له رسله من الأسماء والصفات إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل على حد قوله تعالى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}** [الشورى: ١١]

{وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} ويشمل كل ما أخبر به النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مما يكون بعد الموت، كفتنة القبر، ونعيمه، وعذابه، وقيام الساعة، والبعث، والحساب، والصراط، والميزان، وتناول الكتب باليمين أو الشمال، والجنة، وما ذكر من نعيمها، والنار، وما ذكر

من عذابها، وغير ذلك مما جاء في الكتاب والسنة عن هذه الأمور مفصلاً أحياناً، ومجماً أحياناً.

والإيمان باليوم الآخر يستلزم الاستعداد له بالعمل الصالح، ولهذا يقرن الله سبحانه وتعالى الإيمان أن يقوم العبد بطاعته سبحانه وتعالى؛ فالذي يقول: إنه مؤمن باليوم الآخر، ولكن لا يستعد له فدعواه ناقصة؛ ومقدار نقصها بمقدار ما خالف في الاستعداد.

{وَالْمَلَائِكَةُ} ويشمل الإيمان بذواتهم، وصفاتهم، وأعمالهم إجمالاً فيما علمناه إجمالاً، وتفصيلاً فيما علمناه تفصيلاً.

ونؤمن على سبيل الإطلاق بأنهم عباد مكرمون، وممثلون لأمر الله عز وجل، لهم نصيب من تدبير الخلق بإذن الله؛ منهم الموكل بالقطر، والنبات؛ والموكل بالنفخ في الصور؛ وفيهم ملائكة موكلة بالأجنة؛ وملائكة موكلة بكتابة أعمال بني آدم؛ وملائكة موكلة بحفظ بني آدم؛ كما قال تعالى: **{لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ}** [الرعد: ١١]؛ لكن كل هذا بأمر الله عز وجل وبإذنه؛ وليس لهم منازعة لله عز وجل، ولا معاونه في أي شيء من الكون؛ قال الله تعالى: **{قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ**

فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ {سبأ: ٢٢ ، ٢٣} فنفي جميع ما يتعلق به المشركون:
{ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ } انفراداً {وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ}
مشاركة {وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ} معاونة {وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} فنفي الشفاعة والوساطة إلا بإذنه، ثم قال تعالى:
{حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} [سبأ: ٢٣] وهم الملائكة إذا سمعوا الوحي صعقوا؛
فليس لهم أي شيء في التصرف في الكون؛ لكنهم يمثلون أمر الله عز وجل.

{وَالكِتَابُ} تعريف الجنس المفيد للاستغراق، أي: آمن بكتب الله تعالى المنزلة على رسله، ووجه التعبير بصيغة المفرد أنها أخف مع عدم التباس التعريف بأن يكون للعهد؛ لأن عطف النبيين على "الكتاب" قرينة على أن اللام في "الكتاب" للاستغراق فأوثر صيغة المفرد طلباً لخفة اللفظ.

فنؤمن بأن كل كتاب أنزله الله على أحد من رسله فهو حق: صدق في الأخبار، وعدل في الأحكام؛ ولكننا لا نكلف بالعمل بما فيها فيما جاءت شريعتنا بخلافه.

والكتب المعروفة لدينا هي: التوراة، والإنجيل، والزبور،
وصحف إبراهيم، وصحف موسى، والقرآن الكريم؛ وصحف موسى
اختلف العلماء أهي التوراة أو غيرها؛ وأما ما لم نعلم به فنؤمن به
إجمالاً؛ فتقول بقلبك، ولسانك: آمنت بكل كتاب أنزله الله على
كل رسول.

{وَالْتَّبِئِينَ} فنؤمن بكل نبي أوحى الله إليه؛ فمن علمنا منهم
نؤمن به بعينه؛ والباقي إجمالاً؛ وقد ورد في حديث صححه ابن
حبان أن عدة الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً؛ وأن عدة الأنبياء
مائة وأربعة وعشرون ألفاً؛ فإن صح الحديث فهو خبر معصوم يجب
علينا الإيمان به؛ وإن لم يصح فإن الله تعالى يقول: **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ
عَلَيْكَ}** [غافر: ٧٨]؛ ونحن لا نكلف الإيمان إلا بما بلغنا؛ فالذين
علمناهم من الرسل يجب علينا أن نؤمن بهم بأعيانهم؛ والذين لم
نعلمهم نؤمن بهم إجمالاً، كما قال تعالى: **{كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ}** [البقرة: ٢٨٥]؛ وقد ذكر
في القرآن أربعة وعشرون رسولاً؛ قال تعالى: **{وَوَهَبْنَا لَهُ أَيُّ
إِبْرَاهِيمَ {إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن**

ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ *
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ {
[الأنعام: ٨٤ - ٨٦]؛ فهؤلاء ثمانية عشر؛ ويبقى شعيب، وصالح،
وهود، وإدريس، وذو الكفل، ومحمد صلى الله عليه وسلم.

** ولم يصرح في الآية بالإيمان بالقدر، لأن الإيمان بالكتاب
يتضمنه.

** وقدم الملائكة والكتب على الرسل، وإن كان الإيمان
بوجود الملائكة وصدق الكتب لا يحصل إلا بواسطة الرسل، لأن
ذلك اعتبر فيه الترتيب الوجودي، لأن الملك يوجد أولاً ثم يحصل
بوساطة تبليغه نزول الكتب، ثم يصل ذلك الكتاب إلى الرسول،
فروعي الترتيب الوجودي الخارجي، لا الترتيب الذهني.

** وقدم الإيمان على أفعال الجوارح، وهو: إيتاء المال
والصلاة والزكاة لأن أعمال القلوب أشرف من أعمال الجوارح،
ولأن أعمال الجوارح النافعة عند الله تعالى إنما تنشأ عن الإيمان.

{وَأَتَى الْمَالَ} أعطى المال .. قال الشعبي: إن في المال حقاً سوى الزكاة وتلا هذه الآية **{عَلَى حُبِّهِ}** مع شدة حبه له وتعلق النفس به، وهذا وصف عظيم، أن تكون نفس الإنسان متعلقة بشي تعلق المحب بمحبوبه، ثم يؤثر به غيره ابتغاء وجه الله تعالى، كما جاء في الحديث الشريف الذي رواه البخاري عن هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْراً؟ قَالَ: (أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى وَلَا تُمَهِّلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ الْخُلُقُومَ قُلْتَ لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ)

وذكر أصنافاً ممن يؤتون المال لأن إتيانهم المال ينجم عنه خيرات ومصالح:

{ذَوِي الْقُرْبَى} من تقرب إليك بولادة، أي أصحاب القربات بالنسب، الأقرب فالأقرب.. أمر المرء بالإحسان إليهم لأن مواساتهم تكسبهم محبتهم إياه والتسامح وهذا التأم القبائل الذي أراده الله بقوله: **{لِتَعَارَفُوا}** [الحجرات: ١٣] فليس مقيداً بوصف فقرهم - كما فسر به بعض المفسرين - بل ذلك شامل للهدية

لأغنيائهم وشامل للتوسعة على المتضائقين وترفيه عيشتهم، إذ المقصود هو التحاب.

قال بعض أهل العلم أن إعطاء ذوي القربى أولى من إعطاء اليتامى، والمساكين؛ لأن الله بدأ بهم، اللهم إلا إن يكون هناك ضرورة في اليتامى ترجح إعطاءهم.

{وَالْيَتَامَى} من مات والده وهو لم يبلغ الحنث، فأما من ماتت أمه فليس يتيماً؛ ومن بلغ فليس يتيماً؛ وسمي يتيماً من اليتيم؛ وهو الانفراد؛ ولهذا إذا صارت القصيدة جميلة، أو قوية يقولون: هذه الدرة اليتيمة - يعني أنها منفردة ليس لها نظير.

واليتامى مظنة الضعف لظهور أن المراد اليتيم المحتاج حاجة دون الفقر، وإنما هو فاقده ما كان ينيله أبوه من رفاهية عيش، فإيتاؤهم المال يجبر صدع حياتهم.

{وَالْمَسَاكِينَ} الفقير المعدم الذي أسكنته وأذلته الحاجة فلم يقدر على التصرف.

{وَابْنِ السَّبِيلِ} المسافر البعيد الدار المنقطع عن أهله وماله، ولو كان غنياً في بلده، فليس معه ما يوصله إلى بلده، سمي بذلك لملازمته السبيل، وهو الطريق.

{وَالسَّائِلِينَ} الفقير المحتاج الذي أذن له في سؤال الناس لدفع غائلة الحاجة عن نفسه، لأن شأن المرء أن تمنعه نفسه من أن يسأل الناس لغير حاجة غالبا. فالسؤال علامة الحاجة غالبا، ولو أدخل الشك في العلامات الاعتيادية لارتفعت الأحكام، فلو تحقق غنى السائل لما شرع إعطاؤه لمجرد سؤاله.

{وَفِي الرِّقَابِ} عتق العبيد، والمكاتب، وفكك الأسرى. والترتيب جاء للأولى فالأولى ... وثنى بإيتاء المال بعد ذكر الإيمان، لأن المال من آثار الأشياء عند العرب، ومن مناقبها الجليلة، ولهم في ذلك أخبار وأشعار كثيرة، يفتخرون بذلك حتى هم يحسنون للقرابة وإن كانوا مسيئين لهم، ويحتملون منهم ما لا يحتملون من غير القرابة.

فلما كان ذلك من شيمهم الكريمة جعل ذلك من البر الذي ينطوي عليه المؤمن، وجعل ذلك مقدمة لإيتاء الزكاة، يحرص عليها بذلك، إذ من كان سبيله إنفاق ماله على القرابة واليتامى والمساكين، وإيتاء ابن السبيل على سبيل المكرمة، فلأن ينفق عليه ما أوجب الله عليه إنفاقه من الزكاة التي هي طهرته ويرجو بذلك الثواب الجزيل عنده أؤكد وأحب إليه.

{وَأَقَامَ الصَّلَاةَ} إقامتها الإتيان بها مستقيمة؛ لأن أقام الشيء يعني جعله قائماً مستقيماً؛ وليس المراد بإقامة الصلاة الإعلام بالقيام إليها؛ واعلم أن «الصلاة» من الكلمات التي نقلها الشارع عن معناها اللغوي إلى معنى شرعي؛ فمعناها في اللغة: الدعاء، كما قال تعالى: **{وَصَلِّ عَلَيْهِم}** [التوبة: ١٠٣] أي ادْعُ لهم بالصلاة، فقل: صلى الله عليكم؛ ولكنها في الشرع: عبادة ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتوحة بالتكبير، ومختتمة بالتسليم.

وهذا النفي السابق للبر، والاستدراك لا يحمل على ظاهرهما، لأنه نفي أن يكون التوجه إلى القبلة براً، ثم حكم بأن البر أمورٌ. أحدها: الصلاة، ولا بدَّ فيها من استقبال القبلة، فيحمل النفي للبر على نفي مجموع البرّ، لا على نفي أصله، أي: ليس البر كله هو التوجه للقبلة.

{وَأَتَى الزَّكَاةَ} أيضاً من الكلمات التي نقلها الشرع عن معناها اللغوي إلى معنى شرعي؛ فالزكاة في اللغة من زكا يزكو - أي نما، وزاد؛ وبمعنى الصلاح؛ ومنه قوله تعالى: **{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}** [الشمس: ٩] أي أصلحها، وقومها؛ لكن في الشرع «الزكاة» هي التعبد ببذل مال واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة؛

وسميت زكاة؛ لأنها تنمي الخلق وتنمي المال، وتنمي الثواب؛ تنمي
الخلق بأن يكون الإنسان بها كريماً من أهل البذل، والجود،
والإحسان؛ وهذا لا شك من أفضل الأخلاق شرعاً، وعادة؛ وتنمي
المال بالبركة، والحماية، والحفظ؛ ولهذا قال النبي -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (ما نقصت صدقة من مال)؛ وتنمي الثواب، كما قال
تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ
سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٦١]؛ وفي البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ
طَيِّبٍ -وَلَا يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا الطَّيِّبُ- فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ
يُرَبِّيَهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ).

****** وقدمت الصلاة على الزكاة، لأنها أفضل العبادات البدنية،

وتكرر في كل يوم وليلة، وتجب على كل عاقل بالشروط المذكورة.
{وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا} لا يتأخرون عن الإيفاء بالعهد
عن وقت المعاهدة، وذكر الوفاء بالعهد لما فيه من الثقة بالمعاهد،
ومن كرم النفس، وكون الجد والحق لها دربة وسجية، وإنما قيد
بالظرف وهو {إِذَا عَاهَدُوا} أي وقت حصول العهد فلا يتأخر

وفأوهم طرفة عين، وفيه تنبيه على وجوب الاحتياط عند بذل العهد بحيث لا يعاهد حتى يتحقق أنه يستطيع الوفاء، كأنه يقول: فإن علموا ألا يفوا فلا يعاهدوا.. فالوفاء بالعهد فيه فضيلة فردية وهي عنوان كمال النفس، وفضيلة اجتماعية وهي ثقة الناس بعضهم ببعض.

{وَالصَّابِرِينَ} الصبر: حبس النفس على طاعة الله، أو عن معصيته، أو على أقداره المؤلمة .. فهم صابرون في أمور لهم فيها طاقة، وأمور لا طاقة لهم بها.

وأعلى هذه الأنواع: الصبر على طاعة الله؛ لأن فيه تحملاً، ونوعاً من التعب بفعل الطاعة؛ ثم الصبر عن المعصية؛ لأن فيه تحملاً، وكفاً عن المعصية؛ والكف أهون من الفعل؛ ثم الصبر على أقدار الله المؤلمة، لأنه على شيء لا اختيار للعبد فيه، ولهذا قيل: «إِذَا أَنْ تَصْبِرْ صَبَرَ الْكَرَامِ، وَإِذَا أَنْ تَسْلَوْ سَلَوَ الْبِهَائِمِ».

{فِي الْبَأْسَاءِ} مشتقة من البؤس، وهو سوء الحالة من فقر ونحوه من المكروه، قال الراغب: وقد غلب في الفقر، ومنه البئس الفقير، فالبأساء الشدة في المال **{وَالضَّرَّاءِ}** شدة الحال على الإنسان كالمرض وما يضر أحوالهم، مشتقة من الضر، ويقابلها

السراء: وهي ما يسر الإنسان من أحواله **{وَحِينَ الْبَأْسِ}** عند القتال واشتداده في سبيل الله تعالى، وهذا من باب الترقى في الصبر من الشديد إلى أشد، وفيه استيعاب لأنواع الصبر.

فلله هذا الاستقراء البديع الذي يعجز عنه كل خطيب وحكيم غير العلام الحكيم وقد جمعت هذه الخصال جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشئة عنها صلاح أفراد المجتمع من أصول العقيدة وصالحات الأعمال.

{أُولَئِكَ} الذين جمعوا تلك الأوصاف الجليلة، من الصدق مع الله بحسن الإيمان والعمل، والصدق مع الناس بحسن العهد.

{الَّذِينَ صَدَقُوا} أي في دعواهم الإيمان والبر، وهو الصدق في الأحوال، وهو مقابل الرياء. أي: أخلصوا أعمالهم لله تعالى دون رياء ولا سمعة، بل قصدوا وجه الله تعالى، وكانوا عند الظن بهم.

{وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} فحصر فيهم الصدق والتقوى حصراً ادّعائياً للمبالغة. ودلت على أن المسلمين قد تحقق فيهم معنى البر، وفيه تعريض بأن أهل الكتاب لم يتحقق فيهم، لأنهم لم يؤمنوا ببعض الملائكة وبعض النبيين، ولأنهم حرّموا كثيراً من الناس حقوقهم، ولم يفوا بالعهد، ولم يصبروا. وفيها أيضاً تعريض

بالمشركين إذ لم يؤمنوا باليوم الآخر، والنبیین، والكتاب وسلبوا
الیتامی أموالهم، ولم یقیموا الصلاة، ولم یؤتوا الزكاة.
وقد اشتملت هذه الآیة الکریمة على الدین كله بأقسامه
الثلاثة: الإسلام من صلاة وزكاة إلخ... والإیمان بالله وملائکته
إلخ... ومن إحسان فی وفاء وصدق وصبر وتقوی الله تعالى إذ هی
مراقبة الله سرا وعلنا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ
بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ
أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ
تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ
أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧٩)

هذه الآیة نزلت فی حیین من العرب كان أحدهما یرى أنه
أشرف من الآخر فلذا یقتل الحر بالعبد، والرجل بالمرأة تطاولا
وكبرياء، فحدث بین الحیین قتل وهم فی الإسلام فشكوا ذلك إلى
رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فنزلت هذه الآیة تبطل ذحل

الجاهلية [الحقد والعدواة. يقال: طلب بذحله، أي بثأره]، وتقرر مبدأ العدل والمساواة في الإسلام.

قال ابن عاشور: تلك أحكام متتابعة من إصلاح أحوال الأفراد وأحوال المجتمع، وابتدئ بأحكام القصاص، لأن أعظم شيء من اختلال الأحوال اختلال حفظ نفوس الأمة، وقد أفرط العرب في إضاعة هذا الأصل، يعلم ذلك من له إلمام بتاريخهم وآدابهم وأحوالهم، فقد بلغ بهم تطرفهم في ذلك إلى وشك الفناء لو طال ذلك فلم يتداركهم الله فيه بنعمة الإسلام، فكانوا يغير بعضهم على بعض لغنيمة أنعامه وعبيده ونسائه فيدافع المَغَارُ عَلَيْهِ وتتلف نفوس بين الفريقين ثم ينشأ عن ذلك طلب الثارات فيسعى كل من قتل له قتيلا في قتل قاتل وليه وإن أعوزه ذلك قتل به غيره من واحد كفاء له، أو عدد يراهم لا يوازونه ويسمون ذلك بِالتَّكَايُلِ في الدم أي كأن دم الشريف يكال بدماء كثيرة، فربما قدروه باثنين أو بعشرة أو بمائة، وهكذا يدور الأمر ويتزايد تزايدا فاحشا حتى يصير تفانيا وينتقل الأمر من قبيلة إلى قبيلة بالولاء والنسب والحلف والنصرة، حتى صارت الإحن فاشية فتخاذلوا بينهم واستنصر بعض القبائل

على بعض فوجد الفرس والروم مدخلا إلى التفرقة بينهم فحكموهم وأرهبوهم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} آخر تفصيل حكم القصاص بعد آيات البر، لأن من كان مؤمناً يندر منه وقوع القتل، فهو بالنسبة لمن اتصف بالأوصاف السابقة بعيد منه وقوع ذلك، وكان ذكر تقديم ما تعم به البلوى أعم، فإن عرض مثل هذا الأمر الفظيع -القتل- لمن اتصف بالبر، فليس ذلك مخرجاً له عن البر، ولا عن الإيمان، ولذلك ناداهم بوصف الإيمان.

{كُتِبَ} أصل الكتابة: الخط الذي يقرأ، وعبر به هنا عن معنى الإلزام والإثبات، أي: فرض وأثبت، لأن ما كتب جدير بشوته وبقائه **{عَلَيْكُمْ الْقصاصُ}** ماهية القصاص تتضمن ماهية التعويض والتماثل.

والقصاص يكون إذا لم يرض ولي الدم بالدية أو لم يعف، وفي البخاري عن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (وَمَنْ قُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فَهُوَ بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ إِمَّا يُودَى وَإِمَّا يُقَادُ) وهو صريح في عدم الجمع بينهما.

{فِي الْقَتْلَى} الفاء سببية، أي: بسبب القتل، مثل حديث: (دخلت امرأة النار في هرة) أي في شأن القتل؛ وليس في القتل أنفسهم؛ لأن القتل مقتول؛ فلا قصاص؛ لكن في شأنهم؛ والذي يُقتص منه هو القاتل.

والمعنى: أنكم أيها المؤمنون وجب عليكم استيفاء القصاص من القاتل بسبب قتل القتل بغير موجب، ويكون الوجوب متعلق الإمام أو من يجري مجراه في استيفاء الحقوق إذا أراد ولي الدم استيفاءه، أو يكون ذلك خطاباً مع القاتل، والتقدير، يا أيها القاتلون، كتب عليكم تسليم أنفسكم عند مطالبة الولي بالقصاص، وذلك أنه يجب على القاتل، إذا أراد الولي قتله، أن يستسلم لأمر الله وينقاد لقصاصه المشروع، وليس له أن يمتنع بخلاف الزاني والسارق، فإن لهما الهرب من الحدّ، ولهما أن يستترا بستر الله، ولهما أن لا يعترفا.

واعلم أن آيات القصاص في النفس فيها إجمال بينته السنة **{الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ}** الرقيق المملوك **{بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى}** مما يقتضي المساواة والمماثلة.

يعني أن الآية لم يقصد منها إلا إبطال ما كان عليه أمر الجاهلية من ترك القصاص لشرف أو لقلة اكتراث، فقصدت التسوية بقوله: {الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ} أي لا فضل لحر شريف على حر ضعيف ولا لعبيد السادة على عبيد العامة، وقصدت من ذكر الأنثى إبطال ما كان عليه الجاهلية من عدم الاعتداد بجناية الأنثى واعتبارها غير مؤاخذة بجنایاتها.

ولما كان العبد مقوماً بالمال فإنه لا يقتل به الحر بل يدفع إلى سيده مال. وبهذا حكم الصحابة والتابعون وعليه الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد.

وقال آخرون: إن الحر يقتل بالعبد؛ لعموم قوله تعالى: {وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ} [المائدة: ٤٥]، وقول النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الشيب الزاني، والنفس بالنفس...)؛ وهذا القول هو الراجح والجمهور على قتل الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل، ولا يرون الرجوع بشيء، خلافاً لمن قال: إذا قتلت امرأة رجلاً قتلت به وأخذ من مالها نصف الدية.

فروى البخاري عن أنس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ يَهُودِيًّا قَتَلَ جَارِيَةً عَلَى أَوْضَاحٍ لَهَا [حلي] فَقَتَلَهَا بِحَجَرٍ فَجِيءَ بِهَا إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَبِهَا رَمَقُ فَقَالَ أَقْتَلَكَ فُلَانٌ فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَنْ لَا تُمْ قَالَ الثَّانِيَةَ فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَنْ لَا تُمْ ثُمَّ سَأَلَهَا الثَّالِثَةَ فَأَشَارَتْ بِرَأْسِهَا أَنْ نَعَمْ فَقَتَلَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِحَجَرَيْنِ.

وفي رواية: "فأمر رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- برض رأسه بين حجرين" اعْتِمَادًا لِلْمُمَاثَلَةِ وَحُكْمًا بِهَا.

وجمهور العلماء على أن الصحيح السليم الأعضاء إذا قتل أعور أو أشل، أو نحو ذلك عمداً وجب عليه القصاص، ولا يجب لأوليائه شيء في مقابلة ما زاد به من الأعضاء السليمة على المقتول.

وقال عامة أهل العلم: لا يقتل الوالد بولده، وعليه الدية. والظاهر أيضاً قتل الجماعة بالواحد، وصح ذلك عن عمر وعلي، وهو قول أكثر أهل العلم.

{فَمَنْ عَفِيَ لَهُ} عن جنايته **{مِنْ أَخِيهِ}** تذكيراً بأخوة الإسلام وترقيقاً لنفس ولي المقتول **{شَيْءٌ}** أي: فمن تنازل له ولي الدم عن القود إلى الدية أو العفو.

وإطلاق وصف الأخ على المماثل في دين الإسلام تأسيس أصل جاء به القرآن جعل به التوافق في العقيدة كالتوافق في نسب الإخوة، وحقا فإن التوافق في الدين آصرة نفسانية، والتوافق في النسب آصرة جسدية، والروح أشرف من الجسد.

واحتج ابن عباس بهذه الآية على الخوارج في أن المعصية لا تنزيل الإيمان، لأن الله تعالى سمى القاتل أخا لولي الدم، وتلك أخوة الإسلام مع كون القاتل عاصيا.

والمقصود بيان أن أخذ الولي بالقصاص المستفاد من صور {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ} ليس واجبا عليه، ولكنه حق له فقط لئلا يتوهم من قوله: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ} أن الأخذ به واجب على ولي القتل، والتصدي لتفريع ذكر هذا بعد ذكر حق القصاص للإيماء إلى أن الأولى بالناس قبول الصلح استبقاء لأواصر أخوة الإسلام.

روى البخاري عن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: كان في بني إسرائيل القصاص، ولم يكن فيهم الدية.

وقال قتادة: لم تحل الدية لأحد غير هذه الأمة، وروي أيضاً عن قتادة: أن الحكم عند أهل التوراة كان القصاص أو العفو، ولا

أرش بينهم، وعند أهل الإنجيل الدية أو العفو لا أرش بينهم، فخير الله هذه الأمة بين الخصال الثلاث.

ومقصد الآية الترغيب في الرضا بأخذ العوض عن دم القتل بدلا من القصاص لتغيير ما كان أهل الجاهلية الذين كانوا يتعيرون به من أخذ الصلح في قتل العمد ويعدونه بيعا لدم مولاهم. وأما قتل الخطأ فإن شأنه الدية على عاقلة القاتل.

{فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ} المعروف هو الذي تألفه النفوس وتستحسنه، فهو مما تسر به النفوس ولا تشمئز منه ولا تنكره. أي تكون مطالبة الدية بالرفق واللين، ولا يستعجله إلى ثلاث سنين يجعل انتهاء الاستيفاء، وعند قبض الدية، لا يتبع عفوهُ منّا، ولا أذى.

{وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ} أداء الدية بإحسان خالياً من المماطلة، ووافية غير منقوصة، ودون غضب ولا كلام كريه أو جفاء معاملة. وهل له أن يعفو مجانا؟ الجواب: نعم؛ له ذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى ندب إلى العفو فقال: **{وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}** [البقرة: ٢٣٧]، وقال تعالى: **{وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}** [التغابن: ١٤]، وقال في وصف أهل الجنة: **{الَّذِينَ**

يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ { [آل عمران: ١٣٤] ؛ لكن العفو المندوب
إليه ما كان فيه إصلاح؛ لقوله تعالى: { فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى
اللَّهِ } [الشورى: ٤٠] ؛ فإذا كان في العفو إصلاح، مثل أن يكون
القاتل معروفاً بالصلاح؛ ولكن بدرت منه هذه البادرة النادرة؛
ونعلم، أو يغلب على ظننا أنا إذا عفونا عنه استقام، وصلحت حاله،
فالعفو أفضل لاسيما إن كان له ذرية ضعفاء، ونحو ذلك؛ وإذا
علمنا أن القاتل معروف بالشر، والفساد، وإن عفونا عنه لا يزيده إلا
فساداً وإفساداً فترك العفو عنه أولى؛ بل قد يجب ترك العفو عنه.
ومن فوائد الآية: أنه إذا عفا بعض الأولياء عن القصاص سقط
القصاص في حق الجميع؛ لقوله تعالى: { فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ
شَيْءٌ }؛ وهي نكرة تعم القليل والكثير؛ لأنها في سياق الشرط؛
وعلى هذا فلو كان لأحد ورثة المقتول جزء من ألف جزء من
التركة، ثم عفا عن القصاص انسحب العفو على الجميع؛ لأن
الجزء الذي عفا عنه لا قصاص فيه؛ والقصاص لا يتبعص؛ إذ لا
يمكن قتل القاتل إلا جزءاً من ألف جزء منه.

{ذَلِكَ} الحكم العادل الرحيم، وهو جواز أخذ الدية بدلاً من

القصاص أو العفو

{تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ} فهذه الأمة خيرت بين القصاص وبين

العفو وبين الدية، وكان العفو والدية تخفيفاً من الله إذ فيه انتفاع الولي بالدية، وحصول الأجر بالعفو استبقاء مهجة القاتل، وبذل ما سوى النفس هين في استبقائها، وأضاف هذا التخفيف إلى الرب لأنه المصلح لأحوال عبيده، الناظر لهم في تحصيل ما فيه سعادتهم الدنية والدنيوية.

{وَرَحْمَةً} أي بالجميع: بالقاتل - حيث سقط عنه القتل،

وبأولياء المقتول - حيث أبيح لهم أن يأخذوا العوض؛ لأن من الجائز أن يكون الواجب إما القصاص؛ أو العفو مجاناً؛ لكن من رحمة الله أنه أباح هذا، وهذا؛ فهو رحمة بالجميع.

ولأن من استبقى مهجتك بعد استحقاق إتلافها فقد رحمك، وأي رحمة أعظم من ذلك؟ ولعل القاتل المعفو عنه يستقل من الأعمال الصالحة في المدة التي عاشها بعد استحقاق قتله ما يمحو به هذه الفعلة الشنعاء، فمن الرحمة إمهاله لعله يصلح أعماله... فالأخذ بالقصاص عدل، والأخذ بالعفو رحمة.

{فَمَنْ اَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ} أخذ الدية أو عفا عن القاتل ثم تراجع وقتل بعد سقوط الدم **{فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** واختلف في هذا العذاب الأليم هل هو عذاب الدنيا بالقتل، أو هو عذاب الآخرة، ومن هنا قال مالك والشافعي: حكم هذا المعتدي كحكم القاتل ابتداءً إن عفي عنه قبل، وإن طُلب بالقود أو الدية أعطى، وقال آخرون ترد منه الدية ويترك الأمر لله، وقال عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -: يرد أمره إلى الإمام يحكم فيه بما يحقق المصلحة العامة.

{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ} المساواة في القتل والجراحات وفي آلة القتل أيضاً **{حَيَاةً}** إبقاء شامل عميم، إذ من يريد أن يقتل يذكر أنه سيقتل فيترك القتل فيحيا، ويحيا من أراد قتله، ويحيا بحياتهما خلق كثير، وعدد كبير.

والقصاص فيه ارتداع الناس عن قتل النفوس، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس؛ لأن أشد ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت، فلو علم القاتل أنه يسلم من الموت لأقدم على القتل مستخفاً بالعقوبات.

والتنكير في {حَيَاةٍ} للتعظيم بقرينة المقام، يعني حياة عظيمة شاملة للمجتمع كله، وقوله {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} من جوامع الكلم، وكانت العرب تقول: «القتل أنفى للقتل» وذكر العلماء تفاوت ما بين الكلامين من البلاغة من وجوه:

أحدها: أن ظاهر قول العرب يقتضي كون وجود الشيء سبباً لانتفاء نفسه، وهو محال.

الثاني: تكرير لفظ القتل في جملة واحدة.

الثالث: الاقتصار على أن القتل هو أنفى للقتل.

الرابع: أن القتل ظلماً هو قتل، ولا يكون نافياً للقتل.

الخامس: لفظ القصاص قد دل على إبطال التكايل بالدماء وعلى إبطال قتل واحد من قبيلة القاتل إذا لم يظفروا بالقاتل وهذا لا تفيده كلمتهم الجامعة.

{يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} أصحاب العقول الراجحة، وذوو الأبواب هم الذين يعرفون العواقب ويعلمون جهات الخوف، إذ من لا عقل له لا يحصل له الخوف، فلهذا خص به ذوي الأبواب.

{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} أي: القصاص، فتكفون عن القتل وتتقون القتل حذراً من القصاص أو الانهماك في القتل، أو تتقون الله

باجتناب معاصيه، أو تعملون عمل أهل التقوى في المحافظة على
القصاص والحكم به.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ
لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠)
فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ
اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٨١) فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ
إِثْمًا فَاصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
(١٨٢)

{كُتِبَ} فرض، وهو ظاهر في الوجوب {عَلَيْكُمْ} بيان حكم
المال بعد موت صاحبه، فإنه لم يسبق له تشريع، ولم يفتح بـ {يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} لأن الوصية كانت معروفة قبل الإسلام فلم يكن
شرعها إحداث شيء غير معروف، لذلك لا يحتاج فيها إلى مزيد
تنبيه لتلقي الحكم، ومناسبة ذكره أنه تغيير لما كانوا عليه في أول
الإسلام من بقايا عوائد الجاهلية في أموال الأموات، فإنهم كانوا
كثيرا ما يمنعون القريب من الإرث بتوهم أنه يتمنى موت قريبه
ليرثه، وربما فضلوا بعض الأقارب على بعض، ولما كان هذا مما

يفضي بهم إلى الإحن، وبها تختل الحالة الاجتماعية بإلقاء العداوة بين الأقارب كان تغييرها إلى حال العدل فيها من أهم مقاصد الإسلام.

{إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ} حضور أسبابه وعلاماته الدالة على أن الموت المتخيل للناس قد حضر عند المريض ونحوه ليصيره ميتا.

{إِنْ تَرَكْ} عبر بفعل {ترك} وهو ماض عن معنى المستقبل، أي: إن يترك، للتنبيه على اقتراب المستقبل من المضي إذا أوشك أن يصير ماضيا، والمعنى: إن أوشك أن يترك خيرا.

{خَيْرًا} مالا كثيرا، فأما من ترك مالا قليلا فالأفضل أن لا يوصي إذا كان له ورثة؛ لقول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لسعد بن أبي وقاص -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: (إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ) [البخاري]

وفي تسميته هنا وجعله {خيرا} إشارة لطيفة إلى أنه مال طيب لا خبيث، فإن الخبيث يجب رده إلى أربابه، ويأثم بالوصية فيه.

{الْوَصِيَّةُ} هي العهد إلى غيره بشيء هام، ويشترط فيها أن يكون الموصي حاضر العقل غير فاقد الوعي.

{لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} كانت عادة العرب في الجاهلية أن الميت إذا كان له ولد أو أولاد ذكور استأثروا بماله كله، وإن لم يكن له ولد ذكر استأثر بماله أقرب الذكور له من أب أو عم أو ابن عم الأدين فالأدين، وكان صاحب المال ربما أوصى ببعض ماله أو بجميعه لبعض أولاده أو قرابته أو أصدقائه، فلما استقر المسلمون بدار الهجرة واختصوا بجماعتهم شرع الله لهم تشريك بعض القرابة في أموالهم ممن كانوا قد يهملون توريثه من البنات والأخوات والوالدين في حال وجود البنين، ولذلك لم يذكر الأبناء في هذه الآية.

وفي الآية بيان لأهمية صلة الرحم، حيث أوجب الله الوصية للوالدين والأقربين بعد الموت؛ لأن صلة الرحم من أفضل الأعمال المقربة إلى الله؛ فروى البخاري عن كُرَيْبٍ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ مَيْمُونَةَ بِنْتَ الْحَارِثِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا أَعْتَقَتْ وَلِيدَةً [جارية] وَلَمْ تَسْتَأْذِنْ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَلَمَّا كَانَ يَوْمُهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَيْهَا فِيهِ قَالَتْ: أَشَعَرْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنِّي أَعْتَقْتُ وَلِيدَتِي. قَالَ: (أَوْ فَعَلْتِ؟!) قَالَتْ نَعَمْ قَالَ: (أَمَّا إِنَّكَ لَوْ

أَعْطَيْتَهَا أَخْوَالَكَ كَانَ أَعْظَمَ لِأَجْرِكَ) فجعل النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صلة الرحم أعظم أجراً من العتق.

{بِالْمَعْرُوفِ} بالعدل الذي لا شطط فيه ولا تقصير، كقوله تعالى: **{وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}** [البقرة: ٢٣٣] **{وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}** [النساء: ١٩]

وقيل: ما تعارف عليه الناس كثيراً أو قليلاً بحيث لا يزيد عل الثلث.

وأصل المعروف الفعل الذي تألفه العقول، ولا تنكره النفوس، فهو الشيء المحبوب المرضي، سمي معروفاً لأنه لكثرة تداوله والتأنس به صار معروفاً بين الناس، وضده يسمى المنكر.

فالمعروف هنا العدل الذي لا مضارة فيه، ولا يحدث منه تحاسد بين الأقارب، بأن ينظر الموصي في ترجيح من هو الأولى بأن يوصي إليه لقوة قرابة أو شدة حاجة، فإنه إن توخى ذلك استحسن فعله الناس ولم يلوموه، ومن المعروف في الوصية إلا تكون للإضرار بوارث أو زوج أو قريب.

{حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ} وخص هذا الحق بالمتقين ترغيباً في الرضا به؛ لأن ما كان من شأن المتقي فهو أمر نفيس، فليس في الآية

دليل على أن هذا الوجوب على المتقين دون غيرهم من العصاة، بل معناه أن هذا الحكم هو من التقوى، وإن غيره معصية، وقال ابن عطية: خص المتقون بالذكر تشريفاً للرتبة ليتبارى الناس إليها. وخص الوالدين والأقربين لأنهم مظنة النسيان من الموصى، لأنهم كانوا يورثون الأولاد أو يوصون لسادة القبيلة.

قيل: كانت هذه الآية في بدء الإسلام، فنسخت بآية المواريث، وبقوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الحديث الذي رواه الترمذي عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ: (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدْ أَعْطَى لِكُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَلَا وَصِيَّةَ لَوَارِثٍ)

وقال قوم: بل الآية محكمة وليست بمنسوخة، لإمكان التخصيص؛ فيقال: إن قوله تعالى: في آية المواريث {للوالدين والأقربين} مخصوص بما إذا كانوا وارثين؛ بمعنى أنهم إذا كانوا وارثين فلا وصية لهم اكتفاءً لما فرضه الله لهم من المواريث؛ وتبقى الآية على عمومها فيمن سوى الوارث من سائر الأقرباء، وأن تكون الوصية ثلثاً فأقل، فإن زادت وأجازها الورثة جازت..

ودليل استحباب الوصية حديث سعد في الصحيح حيث أذن له الرسول في الوصية بالثلث، وقد تكون الوصية واجبة على المسلم وذلك إن ترك ديوناً لازمة، وحقوقاً واجبة في ذمته فيجب أن يوصي بقضائها واقتضاءها بعد موته لحديث البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (مَا حَقُّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَهُ شَيْءٌ يُوصِي فِيهِ يَبِيتُ لَيْلَتَيْنِ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِنْدَهُ)

{فَمَنْ بَدَّلَهُ} هو الذي بيده تنفيذ الوصية، والتبديل يكون بالإبطال أو النقص أو الزيادة أو غيرها من أمور التحايل **{بَعْدَ مَا سَمِعَهُ}** تعليل للوعيد أي لأنه بدل ما سمعه وتحققه وعلمه جيداً، وإلا فإن التبديل لا يتصور إلا في معلوم مسموع؛ إذ لا تتوجه النفوس إلى المجهول.

{فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ} لنفي الإثم عن الموصي صاحب المال، وأيضاً إثمه يكون على الذي يأخذ ما لم يجعله له الموصي مع علمه إذا حابه منفذ الوصية.

والمقصود من هذا القصر إبطال تعلل بعض الناس بترك الوصية بعلّة خيفة ألا ينفذها الموكول إليهم تنفيذها، أي فعليكم بالإيصاء ووجوب التنفيذ متعين على ناظر الوصية فإن بدله فعليه إثم. وفيه أن من فعل الخير، ثم غيّر بعده كُتب له ما أراد من الثواب. وأن من بدل الوصية جهلاً فلا إثم عليه.

{إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} وعيد للمبدل، لأن الله لا يخفى عليه شيء وإن تحيل الناس لإبطال الحقوق بوجوه الحيل وجاروا بأنواع الجور فالله سميع وصية الموصي ويعلم فعل المبدل، وإذا كان سميعاً عليماً وهو قادر فلا حائل بينه وبين مجازاة المبدل. والتأكيد بأنه ناظر إلى حالة المبدل الحكمية في قوله: **{فَمَنْ بَدَّلَهُ}** لأنه في إقدامه على التبديل يكون كمن ينكر أن الله عالم فلذلك أكد له الحكم تنزيلاً له منزلة المنكر.

{فَمَنْ خَافَ} معنى خاف هنا الظن والتوقع **{مِنْ مُّوصٍ جَنَفًا}** الميل والجور والحيث عن الحق والعدل للخطأ دون تعمد الجور وعن غير قصد **{أَوْ إِثْمًا}** معصية، أي تعمد وقصد الجور عن الحق والعدل **{فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ}** بين الموصي والموصى لهم، وهذا يشمل ما إذا كان قبل موت الموصي، أو بعده.

مثاله قبل موت الموصي: أن يستشهد الموصي، أو يستكتب شخصاً لوصيته، فيجد فيها جوراً، أو معصية، فيصلح ذلك؛ ومثاله بعد موته: أن يُطَّلَعَ على وصية له تتضمن ما ذُكر فتُصلَح؛ مثال ذلك أن يوصي لوارث، فيُطَّلَعَ على ذلك بعد موته، فتُصلَح الوصية إما باستحلال الوارث الرشيد؛ وإما بالغائها إذا لم يمكن.

{فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ} لا يلحقه حرج من تغيير الوصية؛ لأنه تغيير إلى ما فيه خير، والمعنى: أن من وجد في وصية الموصي إضراراً ببعض أقربائه، بأن حرمه من وصيته أو قدم عليه من هو أبعد نسباً، أو أوصى إلى غني من أقربائه وترك فقيرهم فسعى في إصلاح ذلك وطلب من الموصي تبديل وصيته، فلا إثم عليه في ذلك؛ لأنه سعى في إصلاح بينهم، أو حدث شقاق بين الأقربين بعد موت الموصي لأنه آثر بعضهم، ولذلك عقبه بقوله:

{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} وفيه تنويه بالمحافظة على تنفيذ وصايا الموصين حتى جعل تغيير جورهم محتاجاً للإذن من الله تعالى والتنصيص على أنه مغفور.

وهذه الآية تفريع على الحكم الذي تقدمه، وهو تحريم التبديل، فكما تفرع عن الأمر بالعدل في الوصية وعيد المبدل لها،

وتفرع عن وعيد المبدل الإذن في التبديل بالمعروف وهو تبديل الوصية التي فيها جور وحيف بطريقة الإصلاح بين الموصى لهم وبين من ناله الحيف من تلك الوصية، بأن كان جديرا بالإيضاء إليه فتركه الموصى أو كان جديرا بمقدار فأجحف به الموصى؛ لأن آية الوصية حصرت قسمة تركة الميت في اتباع وصيته وجعلت ذلك موكولا إلى أمانته بالمعروف، فإذا حاف حيفا واضحا وجحف عن المعروف أمر ولاية الأمور بالصلح.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ
كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى
الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ
خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤)
شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ
مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ
كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ

الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} صدر الأمر الصوم بهذا النداء الذي هو من مقتضيات الإيمان؛ لأنه وجه الخطاب إلى المؤمنين؛ وأن تركه محل بالإيمان **{كُتِبَ}** فرض.. وكان فرض الصيام في السنة الثانية للهجرة، فابتداء نزول سورة البقرة كان في أول الهجرة، فكان صوم عاشوراء ثم فرض رمضان في العام الذي يليه، وفي "الصحيح" أن

النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - صام تسع رمضان، فلا شك أنه صام أول رمضان في العام الثاني من الهجرة، ويكون صوم عاشوراء قد فرض عاما فقط.

وبناء {كُتِبَ} للمفعول في هذه المكتوبات الثلاثة (القصاص والوصية والصيام)، وحذف الفاعل للعلم به، إذ هو: «الله تعالى»، لأنها مشاق صعبة على المكلف، فناسب أن لا تنسب إلى الله تعالى، وإن كان الله تعالى هو الذي كتبها حقيقة، وحين يكون المكتوب للمكلف فيه راحة واستبشار يبني الفعل للفاعل، كما قال تعالى: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: ٥٤] {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [المجادلة: ٢١] وهذا من لطيف علم البيان.

أما بناء الفعل للفاعل في قوله: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ..} [المائدة: ٤٥] فناسب لاستعصاء اليهود وكثرة مخالقاتهم لأنبيائهم بخلاف هذه الأمة المحمدية، ففرق بين الخطابين لافتراق المخاطبين.

{عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ} لغة الإمساك، وشرعا الامتناع عن الأكل والشرب وغشيان النساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

{ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ } فالصوم عبادة قديمة أصلية ما أخلى الله أمة من افتراضها عليهم، فلم يفترضها عليكم خاصة، وقيل بل هم اليهود والنصارى، وحكمة التشبيه أن الصوم عبادة شاقة، فإذا ذكر أنه كان مفروضاً على من تقدّم من الأمم سهلت هذه العبادة.

قال ابن عاشور: تشبيه في أصل فرض ماهية الصوم في الكيفيات، والتشبيه يكتفي فيه ببعض وجود المشابهة، وهو وجه الشبه المراد في القصد، وليس المقصود من هذا التشبيه الحوالة في صفة الصوم على ما كان عليه عند الأمم السابقة، ولكن فيه أغراضاً ثلاثة تضمنها التشبيه:

أحدهما: الاهتمام بهذه العبادة، والتنويه بها لأنها شرعها الله قبل الإسلام لمن كانوا قبل المسلمين، وشرعها للمسلمين، وذلك يقتضي اطراد صلاحها ووفرة ثوابها. وإنهاض هم المسلمين لتلق هذه العبادة كي لا يتميز بها من كان قبلهم.

خاصة وإن المسلمين كانوا يتنافسون في العبادات، ويحبون التفضيل على أهل الكتاب، وقطع تفاخر أهل الكتاب عليهم بأنهم أهل شريعة، قال تعالى: **{ اَنْ تَقُولُوا اِنَّمَا اُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ**

مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا
الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ {
[الأنعام: ١٥٧] فلا شك أنهم يغتبطون أمر الصوم وقد كان
صومهم الذي صاموه -وهو يوم عاشوراء- إنما اقتدوا فيه ليهود،
فهم في ترقب إلى تخصيصهم من الله بصوم أنف، فهذه فائدة
التشبيه لأهل الهمم من المسلمين إذ ألحقهم الله بصالح الأمم في
الشرائع العائدة بخير الدنيا والآخرة قال تعالى: {وَفِي ذَلِكَ
فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ} [المطففين: ٢٦].

والغرض الثاني: أن في التشبيه بالسابقين تهوينا على المكلفين
بهذه العبادة أن يستثقلوا هذا الصوم؛ فإن في الاقتداء بالغير أسوة
في المصاعب، فهذه فائدة لمن قد يستعظم الصوم من المشركين
فيمنعه وجوده في الإسلام من الإيمان، ولمن يستثقله من قريبي
العهد بالإسلام، وقد أكد هذا المعنى الضمني قوله بعده: {أَيَّامًا
مَعْدُودَاتٍ}

والغرض الثالث: إثارة الغرائم للقيام بهذه الفريضة حتى لا
يكونوا مقصرين في قبول هذا الفرض بل ليأخذوه بقوة تفوق ما
أدى به الأمم السابقة.

وقال ابن عاشور أيضا: وكان لليهود صوم فرضه الله عليهم وهو صوم اليوم العاشر من الشهر السابع من سنتهم وهو الشهر المسمى عندهم (تِسْرِي) يبتدئ الصوم من غروب اليوم التاسع إلى غروب اليوم العاشر، وهو يوم كفارة الخطايا ويسمونه (كَبُورَ) ثم إن أحبارهم شرعوا صوم أربعة أيام أخرى، وهي الأيام الأول من الأشهر الرابع والخامس والسابع والعاشر من سنتهم تذكارا لوقائع بيت المقدس، وصوم يوم (بُورِيم) تذكارا لنجاتهم من غَضَبِ ملك الأعاجم (أَحْشُؤِيرُوشَ) فِي وَاقِعَةٍ (اسْتِيرَ)، وعندهم صوم التطوع، وفي الحديث: (أحب الصيام إلى الله صيام داود كان يصوم يوما ويفطر يوما)

أما النصارى فليس في شريعتهم نص على تشريع صوم زائد على ما في التوراة، فكانوا يتبعون صوم اليهود وفي "صحيح مسلم" عن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: "قالوا يا رسول الله إن يوم عاشوراء تعظمه اليهود والنصارى" ثم إن رهبانهم شرعوا صوم أربعين يوما اقتداء بالمسيح، إذ صام أربعين يوما قبل بعثته، ويشرع عندهم نذر الصوم عند التوبة وغيرها، إلا أنهم يتوسعون في صفة الصوم،

فهو عندهم ترك الأقوات القوية والمشروبات، أو هو تناول طعام واحد في اليوم يجوز أن تلحقه أكلة خفيفة.

{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} التقوى الشرعية هي اتقاء المعاصي، وإنما كان الصيام موجبا لاتقاء المعاصي، لأن المعاصي قسمان، قسم ينجع في تركه التفكير كالخمر والميسر والسرقه والغصب فتركه يحصل بالوعد على تركه والوعيد على فعله والموعظة بأحوال الغير، وقسم ينشأ من دواع طبيعية كالأمور الناشئة عن الغضب وعن الشهوة الطبيعية التي قد يصعب تركها بمجرد التفكير، فجعل الصيام وسيلة لاتقائها، لأنه يعدل القوى الطبيعية التي هي داعية تلك المعاصي، ليرتقي المسلم به عن حضيض الانغماس في المادة إلى أوج العالم الروحاني، فهو وسيلة للارتياض بالصفات الملكية، والانتفاض من غبار الكدرات الحيوانية.

وفي الحديث الصحيح: (الصوم جُنة) أي وقاية، ولما ترك ذكر متعلق (جُنة) تعين حمله على ما يصلح له من أصناف الوقاية المرغوبة، ففي الصوم وقاية من الوقوع في المآثم ووقاية من الوقوع في عذاب الآخرة، ووقاية من العلل والأدواء الناشئة عن الإفراط في تناول اللذات.

قال الراغب: للصوم فائدتان: رياضة الإنسان نفسه عن ما تدعوه إليه من الشهوات، والاقتداء بالمأ الأعلى على قدر الوسع. وقال ابن عاشور: والغالب على أحوال الأمم في جاهليتها - وبخاصة العرب - هو الاستكثار من تناول اللذات من المآكل والخمور ولهو النساء والدعة، وكل ذلك يوفر القوى الجسمانية والدموية في الأجساد، فتقوى الطباع الحيوانية التي في الإنسان من القوة الشهوية والقوة الغضبية. وتطغيان على القوة العاقلة، فجاءت الشرائع بشرع الصيام، لأنه يفي بتهذيب تلك القوى، إذ هو يمسك الإنسان عن الاستكثار من مشيرات إفراطها، فتكون نتيجته تعديلها في أوقات معينة هي مظنة الاكتفاء بها إلى أوقات أخرى.

وقال أيضا: وإذا قد كان من المتعذر على الهيكل البشري بما هو مستودع حياة حيوانية أن يتجرد عن حيوانيته، فمن المتعذر عليه الانقطاع البات عن إمداد حيوانيته بمطلوباتها فكان من اللازم لتطلب ارتقاء نفسه أن يتدرج به في الدرجات الممكنة من تهذيب حيوانيته وتخليصه من التوغل فيها بقدر الإمكان، لذلك كان الصوم من أهم مقدمات هذا الغرض، لأن فيه خصلتين عظيمتين؛ هما

الاقتصاد في إمداد القوى الحيوانية، وتعود الصبر بردها عن دواعيها، وإذ قد كان البلوغ إلى الحد الأتم من ذلك متعذراً كما علمت، حاول أساطين الحكمة النفسانية الإقلال منه، فمنهم من عالج الإقلال بنقص الكميات وهذا صوم الحكماء، ومنهم من حاوله من جانب نقص أوقات التمتع بها وهذا صوم الأديان وهو أبلغ إلى القصد وأظهر في ملكة الصبر، وبذلك يحصل للإنسان دربة على ترك شهواته، فيتأهل للتخلق بالكمال فإن الحائل بينه وبين الكمالات والفضائل هو ضعف التحمل للانصراف عن هواه وشهواته.

{أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ} تسعة وعشرون أو ثلاثون يوماً بحسب شهر رمضان، وإنما عبر عن شهر الصوم بأيام وهي جمع قلة ووصف بمعدودات وهي جمع قلة أيضاً؛ تهوينا لأمره على المكلفين، والمعدودات كناية عن القلة؛ لأن الشيء القليل يعد عداً؛ ولذلك يقولون: الكثير لا يعد .. كل هذا ليهوّن به عليهم كلفة الصوم ومشقته، إذ لم يجعله شهوراً ولا أعواماً، تسهياً على المكلف بأن هذه الأيام يحصرها العد وليست بالكثيرة التي تفوّت العد، ولهذا وقع الاستعمال بالمعدود كناية على القلائل، كقوله: **{وَاذْكُرُوا اللَّهَ**

فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ { [البقرة: ٢٠٣] وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا
مَّعْدُودَةً { [البقرة: ٨٠] وَشَرُّهُ بِثَمَنِ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَّعْدُودَةٍ وَكَانُوا
فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ { [يوسف: ٢٠]

وذكر المفسرون أنه كان في ابتداء الإسلام صوم ثلاثة أيام من كل شهر واجباً، وصوم يوم عاشوراء، فصاموا كذلك في سبعة عشر شهراً، ثم نسخ بصوم رمضان.

قال ابن عباس: أول ما نسخ بعد الهجرة أمر القبلة، والصوم، ويقال: نزل صوم شهر رمضان قبل بدر بشهر وأيام.

{فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ} تعقيب لحكم العزيمة بحكم الرخصة، وتقديمه هنا قبل ذكر بقية تقدير الصوم تعجيل بتطمين نفوس السامعين لئلا يظنوا وجوب الصوم لمن كان **{مَرِيضًا}** هو الذي يؤلم، ويؤذي، ويخاف تماديه، وتزيده، ودليل التخصيص بمرض يشق به الصوم ما يفهم من العلة، ويكشف ضابط ذلك قول القرافي في الفرق الرابع عشر من كتابه «الفروق»، إذ قال:

"إن المشاق قسمان: قسم ضعيف لا تنفك عنه تلك العبادة كالوضوء والغسل في زمن البرد والصوم، وكالمخاطرة بالنفس في الجهاد، وقسم هو ما تنفك عنه العبادة وهذا أنواع: نوع لا تأثير له

في العبادة كوجع إصبع، فإن الصوم لا يزيد وجع الإصبع وهذا الالتفات إليه، ونوع له تأثير شديد مع العبادة كالخوف على النفس والأعضاء والمنافع وهذا يوجب سقوط تلك العبادة، ونوع يقرب من هذا فيوجب ما يوجبه".

{أَوْ عَلَى سَفَرٍ} ظاهر اللفظ اعتبار مطلق السفر زماناً وقصداً، وهذا في سفر الطاعة كطلب العلم وبر الأقارب، والمباح كالتجارة، أما سفر المعصية كشهادة الزور فالقول بالمنع أرجح.

وقوله {أَوْ عَلَى سَفَرٍ} مسافر، إشعاراً بالاستيلاء على السفر لما فيه من الاختيار للمسافر، بخلاف المريض، فإنه يأخذ الإنسان من غير اختيار، فهو قهري، بخلاف السفر؛ فكان السفر مركوب الإنسان يستعلي عليه، ولذلك يقال: فلان على طريق، وراكب طريق إشعاراً بالاختيار، وأن الإنسان مستولٍ على السفر مختارٌ لركوب الطريق فيه.

وفي البخاري ومسلم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ عُسْفَانَ ثُمَّ دَعَا بِمَاءٍ فَرَفَعَهُ إِلَى يَدَيْهِ لِيُرِيَهُ النَّاسَ فَأَفْطَرَ حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ وَذَلِكَ فِي رَمَضَانَ فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ قَدْ

صَامَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَفْطَرَ، فَمَنْ شَاءَ صَامَ وَمَنْ شَاءَ أَفْطَرَ.

وفي مسلم عن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: لَا تَعْبَ عَلَى مَنْ صَامَ وَلَا عَلَى مَنْ أَفْطَرَ، قَدْ صَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السَّفَرِ وَأَفْطَرَ.

وللمسافر باعتبار صومه في سفره حالات ثلاث:

**** الأولى:** أن لا يكون فيه مشقة إطلاقاً؛ يعني: ليس فيه مشقة تزيد على صوم الحضر؛ ففي هذه الحال الصوم أفضل؛ وإن أفطر فلا حرج؛ ودليله أن الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يصوم في السفر، كما في البخاري من حديث أبي الدرداء -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: "خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فِي يَوْمٍ حَارٍّ حَتَّى يَضَعَ الرَّجُلُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ وَمَا فِيْنَا صَائِمٌ إِلَّا مَا كَانَ مِنَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَابْنِ رَوَاحَةَ"؛ ولأن الصوم في السفر أسرع في إبراء ذمته؛ ولأنه أسهل عليه غالباً لكون الناس مشاركين له، وثقل القضاء غالباً؛ ولأنه يصادف شهر الصوم - وهو رمضان.

**** الحال الثانية:** أن يشق عليه الصوم مشقة غير شديدة؛ فهنا الأفضل الفطر؛ لما رواه مسلم عن عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي سَفَرٍ، فَرَأَى رَجُلًا قَدْ اجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ، وَقَدْ ظَلَّلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: (مَا لَهُ؟) قَالُوا: رَجُلٌ صَائِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تَصُومُوا فِي السَّفَرِ)، وفي رواية أبي داود: (لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّيَامُ فِي السَّفَرِ)؛ فنفي النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- البر عن الصوم في السفر.

فإن قيل: إن من المقرر في أصول الفقه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ وهذا يقتضي نفي البر عن الصوم في السفر مطلقاً؟.

فالجواب: أن معنى قولنا: «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» يعني أن الحكم لا يختص بعين الذي ورد من أجله؛ وإنما يعم من كان مثل حاله.

**** الحال الثالثة:** أن يشق الصوم على المسافر مشقة شديدة؛ فهنا يتعين الفطر؛ لما رواه الترمذي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ عَامَ

الْفَتْحِ، فَصَامَ حَتَّى بَلَغَ كُرَاعَ الْغَمِيمِ، وَصَامَ النَّاسُ مَعَهُ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ شَقَّ عَلَيْهِمُ الصِّيَامُ، وَإِنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ فِيمَا فَعَلْتَ، فَدَعَا بِقَدَحٍ مِنْ مَاءٍ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَشَرِبَ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَأَفْطَرَ بَعْضُهُمْ، وَصَامَ بَعْضُهُمْ، فَبَلَغَهُ أَنَّ نَاسًا صَامُوا، فَقَالَ: (أُولَئِكَ الْعُصَاةُ)؛ والمعصية لا تكون إلا في فعل محرم؛ أو ترك واجب.

{فَعِدَّةٌ} ولم يقل: فعدتها، أي: فعدة الأيام التي أفطرت اجتزاءً، إذ المعلوم أنه لا يجب عليه عدة غير ما أفطر فيه مما صامه، والعدة هي المعدود، فكان التكرير أخصر.

وقال ابن عاشور: ولم يقل: فصيام أيام آخر، تنصيحا على وجوب صوم أيام بعدد أيام الفطر في المرض والسفر.

{مَنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} ولم يقيد بالتتابع كما قال في كفارة الظهار وفي كفارة قتل الخطأ، مراد به الأمر بالقضاء، وأصل الأمر لا يقتضي الفور، ومضت السنة على أن قضاء رمضان لا يجب فيه الفور بل هو موسع إلى شهر شعبان من السنة الموالية للشهر الذي أفطر فيه، وفي صحيح مسلم عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- تَقُولُ: كَانَ يَكُونُ عَلَيَّ الصَّوْمُ مِنْ رَمَضَانَ فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقْضِيَهُ إِلَّا فِي شَعْبَانَ الشُّغْلُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَوْ رَسُولِ اللَّهِ -

صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- . [أي يمنعني الشغل برسول الله -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-] وهذا واضح الدلالة على عدم وجوب الفور، وبذلك قال جمهور العلماء.

وأما من أفطر متعمدا في يوم من أيام قضاء رمضان، فالجمهور على أنه لا كفارة عليه؛ لأن الكفارة شرعت حفظا لحرمة شهر رمضان وليس لأيام القضاء حرمة.

{وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ} يتحملونه بمشقة لكبر سن أو مرض لا يرجى برؤه **{فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ}** قال بعض أهل العلم: الفقير أشد حاجة من المسكين؛ الفقير هو الذي لا يجد نصف كفاية سنة؛ وأما المسكين فيجد النصف فأكثر دون الكفاية لمدة سنة.

والإطعام هو ما يشبع عادة من الطعام المتغذي به في البلد، وقدره بعض الفقهاء بمُدَيْن (حفتين) -أي نصف صاع- من الطعام، وقد أطعم أنس بن مالك خبزا ولحما عن كل يوم أفطره حين شاخ، ولا قضاء عليه، والراجح أنه يرجع في الإطعام في كفايته ونوعه إلى العرف؛ لأن الله تعالى أطلق ذلك؛ والحكم المطلق إذا لم يكن له حقيقة شرعية يرجع فيه إلى العرف.

{فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا} زاد على مقدار الفدية في الطعام [المُدين]
أو أطعم أكثر من مسكين **{فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ}** فالزيادة على الواجب -
إذا كان يقبل الزيادة- خير من الاقتصار عليه، وظاهر هذه الآية
العموم في كل تطوع بخير، وإن كانت وردت في أمر الفدية في
الصوم، وظاهر التطوع: التخيير في أمر الجواز بين الفعل والترك،
وأن الفعل أفضل.

{وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ} الصيام على من يطيقه ولو بمشقة
خير من الإفطار مع الطعام **{إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}** أي تعلمون فوائد
الصوم دنيا وثوابه أخرى، وفيه فضيلة العلم.

ولقد كان الصيام على المقيمين القادرين مخيراً فيه، فمن شاء
صام ومن شاء أفطر وأطعم، فغير المريض والمسافر إذا كان يطيق
الصيام بمشقة وكلفة شديدة له أن يفطر ويطعم على كل يوم
مسكيناً، وأعلمهم أن الصيام في هذه الحال خير. ثم نسخ هذا
الحكم الأخير بقوله في الآية الآتية: **{فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ
فَلْيَصُمْهُ}** فزالت الرخصة إلا لمن عجز منهم.

وذكر أهل الناسخ والمنسوخ أن ذلك فرض في أول الإسلام
لما شق عليهم الصوم ثم نسخ بقوله تعالى: **{فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ}**

الشَّهْرُ فَلْيَصُمْهُ [البقرة: ١٨٥] ونقل ذلك عن ابن عباس وفي البخاري عن ابن عمر وسلمة بن الأكوع نسختها آية **{شَهْرُ رَمَضَانَ}** [البقرة: ١٨٥] ورويت في ذلك آثار كثيرة عن التابعين وهو الأقرب من عادة الشارع في تدرج تشريع التكاليف التي فيها مشقة على الناس من تغيير معتادهم كما تدرج في تشريع منع الخمر.

{شَهْرُ رَمَضَانَ} الشهر التاسع من شهور السنة القمرية، المفتحة بالمحرم؛ فقد كان العرب يفتتحون أشهر العام بالمحرم؛ لأن نهاية العام عندهم هي انقضاء الحج ومدة الرجوع إلى آفاقهم. ورمضان مشتق من الرمضاء وهي شدة الحرارة. لأنه أول ما سميت الشهور بأسمائها صادف أنه في وقت الحر والرمضاء.

{الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} هذه آية فضله على غيره من سائر الشهور، حيث أنزل فيه القرآن في ليلة القدر جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا ثم نزل منجماً على الحبيب محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وكان ابتداء نزوله على رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في رمضان أيضاً.

قال ابن عثيمين: روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في رمضان، وصار جبريل يأخذه من هذا البيت، فينزل به على رسول الله -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ لكن هذا الأثر ضعيف؛ ولهذا الصحيح أن «أل» هنا للجنس؛ وليست للعموم؛ وأن معنى: {أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ} أي ابتدئ فيه إنزاله، كقوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ} [الدخان: ٣]، وقوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر: ١] أي ابتدأنا إنزاله.

{هُدًى لِلنَّاسِ} أي القرآن هادياً للناس إلى ما فيه كمالهم وسعادتهم في الدارين، والناس المراد بهم البشر؛ لأن بعضهم يأنس ببعض، أي كل الناس يهتدون به -المؤمن، والكافر- الهداية العلمية؛ أما الهداية العملية فإنه هدى للمتقين فقط، كما في أول السورة؛ فهو للمتقين هداية علمية، وعملية؛ وللناس عموماً فهو هداية علمية.

{وَبَيِّنَاتٍ} آيات بينات، كما قال تعالى: {بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ} [العنكبوت: ٤٩]؛ والمعنى: أن القرآن اشتمل على الآيات البينات أي الواضحات؛ فهو جامع بين

الهداية، والبراهين الدالة على صدق ما جاء فيه من الأخبار، وعلى عدل ما جاء فيه من الأحكام.

{مَنْ الْهُدَى} صفة لبينات، والهدى الإرشاد، يعني أنها بينات

من الدلالة والإرشاد

{وَالْفُرْقَانِ} يفرق بين الحق والباطل؛ وبين الخير والشر؛ وبين

النافع والضار؛ وبين حزب الله وحرب الله؛ فرقان في كل شيء؛ ولهذا من وفق لهداية القرآن يجد الفرق العظيم في الأمور

المشتبهة؛ وأما من في قلبه زيغ فتشبه عليه الأمور؛ فلا يفرق بين

الأشياء المفترقة الواضحة.

قال ابن عاشور: والمراد بالهدى الأول: ما في القرآن من

الإرشاد إلى المصالح العامة والخاصة التي لا تنافي العادة،

وبالبيانات من الهدى: ما في القرآن من الاستدلال على الهدى

الخفي الذي ينكره كثير من الناس مثل أدلة التوحيد وصدق الرسول

وغير ذلك من الحجج القرآنية. والفرقان -مصدر فرق- وقد شاع

في الفرق بين الحق والباطل أي إعلان التفرقة بين الحق الذي

جاءهم من الله وبين الباطل الذي كانوا عليه قبل الإسلام، فالمراد

بالهدى الأول: ضرب من الهدى غير المراد من الهدى الثاني، فلا تكرر.

قال أهل العلم: والذنوب في هذا الشهر مضاعفة، والسبب: أن الاصطفاء والاختصاص موجب لمضاعفة الحسنات، ومضاعفة السيئات، سواء كان الاختصاص في: الأشخاص، أو الأمكنة، أو الأزمنة:

فإن الله تعالى اصطفى واجتبي نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم وكان هذا الاختصاص سببا في مضاعفة حسناته، ونيله أجور من عمل بهديه، لا ينقص من أجورهم شيئا، حتى صار أعلى الناس درجة، كذلك أخبره الله تعالى أن ما يكون منه من خطأ فعقوبته مضاعفة، وحاشاه ذلك، لكن هذا بيان شرعي لأحكام أهل الاجتباء والاختصاص، قال تعالى: {وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا*} إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا، أي ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات.

ومثل هذا ما جاء من خطاب في حق أمهات المؤمنين زوجات النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال تعالى: {يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا} * ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما}.

فهن قد اصطفاهن الله تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-، فلهن من الحظ والنعمة ما ليس لغيرهن، في الإيمان والدرجة والعيش في بيت النبوة، فلا يليق بهن العصيان، كما ثواب طاعتهن مضاعف.

والحكم نفسه ينطبق على الأمكنة المختصة بالشرف والحرمة مثل مكة، فالأعمال فيها أعظم من غيرها، فالصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة فيما سواه، وكذا الذنب هو فيها مضاعف، قال تعالى: {إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم}.

والحكم نفسه يعمل به في الأزمنة المشرفة المحرمة، كشهر رمضان، ودليل حرمة النصوص الدالة على عظمتها، وبيان عظم

الثواب فيه، ورحمة الله عباده فيه، وفتح أبواب الجنة، وغلق أبواب النيران، وتصفيد الشياطين، واختصاصه بليلة هي خير ألف شهر، فالحسنات فيه إذن مضاعفة، وإذا ثبتت مضاعفة الحسنات، فذلك دليل على مضاعفة السيئات أو تعظيمها، لما سبق من أن التضعيف في حال الاختصاص والاجتباء يكون في الحسنات، ويكون في السيئات.

ثم إنه مع ذلك: قد نص الدليل على عظم الذنب في رمضان، فإن النبي صلى الله عليه وسلم رأى قوما معلقين بعراقيهم، مشقة أشداقهم، تسيل دماؤهم، فسأل عنهم؟ ف قيل له: (الذين يفطرون قبل تحلة صومهم) [ابن خزيمة، صحيح الترغيب ٤٢٠/١]

وقد أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- الرجل الذي وقع على امرأته نهار رمضان بأعظم الكفارات، وهي كفارة القتل والظهار: عتق رقبة، فإن لم يجد، فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا، وغلظ الكفارة من غلظ الذنب، وقد استوجبها لما واقع حليلته (زوجته) في نهار رمضان، في الوقت المحرم، فدل هذا على أن الذنب في رمضان ليس كغيره، وإذا كان

هذا التشديد والوعيد والعقوبة في حق من انتهك الشهر مع حليلته، فكيف بمن انتهكه مع حليلة جاره أو مع أجنبية لا تحل له؟.

{فَمَنْ شَهِدَ} حضر، وليس شهد بمعنى رأى؛ لا يقال: {شَهِدَ} بمعنى رأى، وإنما يقال شاهد **{مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}** فمن كان حاضراً غير مسافر لما أعلن عن رؤية هلال رمضان، فليصمه على سبيل الوجوب إن كان مكلفاً.

{وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ} قالوا في وجه إعادته مع تقدم نظيره أنه لما كان صوم رمضان واجبا على التخيير بينه وبين الفدية بالإطعام بالآية الأولى وهي: **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ}** [البقرة: ١٨٣] إلخ وقد سقط الوجوب عن المريض والمسافر بنصها، فلما نسخ حكم تلك الآية بقوله: **{فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}** وصار الصوم واجبا على التعيين، خيف أن يظن الناس أن جميع ما كان في الآية الأولى من الرخصة قد نسخ فوجب الصوم أيضا حتى على المريض والمسافر فأعيد ذلك في هذه الآية الناسخة تصريحاً ببقاء تلك الرخصة، ونسخت رخصة الإطعام مع القدرة والحصر والصحة لا غير.

فليست هذه الجملة من الآية تكراراً محضاً؛ بل تكرر لفائدة؛
لأنه تعالى لو قال: **{فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ}** ولم يقل:
{ومن كان.... } الآية، لكان ناسخاً عاماً.

{مَنْ أَيَّامٍ أُخَرَ} فعليه القضاء بعدد الأيام التي أفطرها مريضاً أو
مسافراً، ثم علل تعالى للقضاء بقوله **{يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ}** ثم
أكدها بقوله **{وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}** بين به حكمة الرخصة، أي
شرع لكم القضاء لأنه يريد بكم اليسر عند المشقة
{وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ} وجب القضاء من أجل إكمال عدة الشهر
ثلاثين أو تسعة وعشرين يوماً، فإن في تلك العدة حكمة تجب
المحافظة عليها.

{وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ} وذلك عند إتمام صيام رمضان
ابتداء من رؤية هلال شوال إلى العودة من صلاة العيد، والتكبير
مشروع وفيه أجر كبير، وصفته المشهورة: «الله أكبر الله أكبر الله أكبر، ولا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، والله الحمد».
فأما لفظ التكبير فظاهر الآية أنه كل قول فيه لفظ الله أكبر،
والمشهور في السنة أنه يكرر «الله أكبر» ثلاثاً، وبهذا أخذ مالك
وأبو حنيفة والشافعي، وقال مالك والشافعي: إذا شاء المرء زاد

على التكبير تهليلاً وتحميداً فهو حسن ولا يترك الله أكبر، فإذا أراد الزيادة على التكبير كبر مرتين ثم قال: لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر والله الحمد وهو قول ابن عمر وابن عباس، وقال أحمد: هو واسع، وقال أبو حنيفة: لا يجزئ غير ثلاث تكبيرات.

وفي لفظ التكبير عند انتهاء الصيام خصوصية جليلة وهي أن المشركين كانوا يتزلفون إلى آلهتهم بالأكل والتلطيح بالدماء، فكان لقول المسلم: «الله أكبر» إشارة إلى أن الله يعبد بالصوم وأنه متنزه عن ضراوة الأصنام.

{وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} على أمور أربعة؛ إرادة الله بنا اليسر؛ عدم إرادته العسر؛ إكمال العدة؛ التكبير على ما هدانا؛ هذه الأمور كلها نَعَم تحتاج منا أن نشكر الله عز وجل عليها

وورد أن جماعة من الصحابة سألوا النبي قائلين: أقرب ربنا فنناجيه [بخفض الصوت] أم بعيد فنناديه [برفع الصوت]؟ فأنزل الله تعالى قوله: **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي}** فالتفت إلى خطاب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وحده لأنه في مقام تبليغ **{فَإِنِّي قَرِيبٌ}** وفيه كراهية رفع الصوت بالعبادات إلا ما كان في التلبية والأذان

والإقامة {أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ} يجيب دعوة عبده بقبول طلبه وإعطائه مطلوبه {إِذَا دَعَانِ} أصلها دعاني - بالياء، فحذفت الياء تخفيفاً.

قال سفيان بن عيينة: لا يمنع أحد من الدعاء ما يعلم من نفسه، فإن الله تعالى قد أجاب دعاء شر الخلق إبليس: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الحجر: ٣٦]

وقد ذكر في هذه الآية أنه جل وعلا قريب يجيب دعوة الداعي، وبين في آية أخرى تعليق ذلك على مشيئته - جل وعلا - وهي قوله: {فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ} الآية [الأنعام: ٤١]. وقال بعضهم التعليق بالمشيئة في دعاء الكفار كما هو ظاهر سياق الآية، والوعد المطلق في دعاء المؤمنين. وعليه فدعائهم لا يرد، إما أن يعطوا ما سألوا أو يدخر لهم خير منه أو يدفع عنهم من السوء بقدره.

وقال ابن عاشور: والآية دلت على أن إجابة دعاء الداعي تفضل من الله على عبادة، غير أن ذلك لا يقتضي التزام إجابة الدعوة من كل أحد وفي كل زمان، لأن الخبر لا يقتضي العموم، ولا يقال: إنه وقع في حيز الشرط فيفيد التلازم، لأن الشرط هنا

ربط الجواب بالسؤال وليس ربطا للدعاء بالإجابة، لأنه لم يقل: إن دعوني أجبتهم.

وفي هذه الآية إيماء إلى أن الصائم مرجو الإجابة، وإلى أن شهر رمضان مَرْجُوَّةُ دَعَوَاتِهِ، وإلى مشروعية الدعاء عند انتهاء كل يوم من رمضان.

{فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي} يجيبوا ندائي إذا دعوتهم لطاعتي وطاعة رسولي بفعل المأمور وترك المنهي، والتقرب إليّ بفعل القرب، وترك ما يوجب السخط.

وأصل أجاب واستجاب أنه الإقبال على المنادى بالقدوم، ثم أطلق مجازا مشهورا على تحقيق ما يطلبه الطالب، لأنه لما كان بتحقيقه يقطع مسألته فكأنه أجاب ندائه.

{وَلْيُؤْمِنُوا بِي} وحمله على الأمر بإنشاء الإيمان فيه بُعد لأن صدر الآية يقتضى أنهم مؤمنون، فلذلك يؤول على الديمومة أو على إخلاص الدين والدعوة والعمل.

قال ابن عاشور: والمقصود من الأمر الأول الفعل، ومن الأمر الثاني الدوام، ويجوز أن يراد بالاستجابة ما يشمل استجابة دعوة الإيمان، فذكر **{وَلْيُؤْمِنُوا}** عطف خاص على عام للاهتمام به.

{لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} والرشد إصابة الحق، والمعنى: أنهم إذا استجابوا لله وآمنوا به كانوا على رجاء من حصول الرشد لهم وهو الاهتداء لمصالح دينهم ودنياهم

وقيل: حازوا كمال القوتين العلمية والعملية إذ الرشد هو العلم بمحاب الله ومساخطه، وفعل المحاب وترك المساخط، ومن لا علم له ولا عمل فهو السفیه الغاوي والضال الهالك.

وختم الآية برجاء الرشد من أحسن الأشياء لأنه تعالى لما أمرهم بالاستجابة له وبالإيمان به على أن هذا التكليف ليس القصد منه إلا وصولك بامثاله إلى رشادك في نفسك لا يصل إليه تعالى منه شيء من منفعه وإنما ذلك مختص بك

وكان في بداية فرض الصيام أن من نام بالليل لم يأكل ولم يشرب ولم يقرب امرأته حتى الليلة الآتية. كأن الصيام يبتدئ من النوم لا من طلوع الفجر، ثم إن ناساً أتوا نساءهم وأخبروا بذلك رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة تبيح لهم الأكل والشرب والجماع طوال الليل إلى طلوع الفجر.

روى أبو داود عن معاذ بن جبل -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: كان المسلمون إذا نام أحدهم إذا صلى العشاء وسهر بعدها لم يأكل ولم يباشر أهله بعد ذلك، فجاء عمر يريد امرأته فقالت: إني قد نمت فظن أنها تعتل فباشرها.

وروى البخاري عن البراء ابن عازب أن قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ جاء إلى منزله بعد الغروب يريد طعامه فقالت له امرأته: حتى نسخن لك شيئا فنام فجاءت امرأته فوجدته نائما فقالت: خيبة لك. فبقي كذلك فلما انتصف النهار أغمى عليه من الجوع.

وفي كتاب التفسير من "صحيح البخاري" من حديث البراء بن عازب قال: لما نزل صوم رمضان، كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يَخُونُونَ أَنْفُسَهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: **{عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ}** الآية، ووقع لكعب بن مالك مثل ما وقع لعمر، فنزلت هذه الآية بسبب تلك الأحداث.

{أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ} جميع ليالي رمضان **{الرَّفَثُ}** الجماع **{إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ}** اللباس أصله في الثوب ثم يستعمل في المرأة للدلالة على شدة الاتصال، أي: هن سكن لكم، يسكن بعضكم إلى بعض، فالزوجة ستر للزوج؛ وهو

ستر لها؛ وأن بينهما من القرب كما بين الثياب ولا بسيها، وهذا كقوله تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا}** [الفرقان: ٤٧]

وقدّم **{هَنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ}** على قوله **{وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ}** لظهور احتياج الرجل إلى المرأة وقلة صبره عنها، والرجل هو البادئ بطلب ذلك الفعل ولا تكاد المرأة تطلب ذلك الفعل ابتداءً لغلبة الحياء عليهن.

{عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ} من الخيانة، أي تخادعونها بإتيانهن، بحيث لا تصبرون **{أَنْفُسَكُمْ}** فعلم منهم ما فعلوه من إتيان نسائهم ليلاً بعد النوم قبل أن ينزل حكم الله فيه بالإباحة، فكان ذلك منهم خيانة لأنفسهم بتعريضها للعقاب، ونقصان حظها من الثواب.

{فَتَابَ عَلَيْكُمْ} خفف عنكم بالرخصة والإباحة، بنسخ الحكم الأول الذي فيه مشقة؛ والنسخ إلى الأسهل توبة كما في قوله تعالى **{إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَّنْ تَحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ}** [المزمل: ٢٠] فيعبر الله عز

وجل عن النسخ بالتوبة إشارة إلى أنه لولا النسخ لكان الإنسان آثماً
إما بفعل محرم؛ أو بترك واجب.

{وَعَفَا عَنْكُمْ} تجاوز عما وقع منكم من مخالفة، وعاقب بينهما
للمبالغة **{فَالآنَ}** اتضح الحكم **{بِأَشْرُوهُنَّ}** ولا تختانون أنفسكم
.. وهذا أمر يراد به الإباحة لكونه ورد بعد النهي، ولأن الإجماع
انعقد عليه، والمباشرة في قول الجمهور: الجماع **{وَابْتَغُوا}** أي
اطلبوا **{مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ}** جملة تأكيدية لما قبلها، أي ابتغوا
وافعلوا ما أذن الله لكم في فعله من غشيان النساء في جميع ليالي
الصيام.

{وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ} تحديد لنهاية وقت الإفطار
بصريح المنطوق؛ وقد علم منه لا محالة أنه ابتداء زمن الصوم، إذ
ليس في زمان رمضان إلا صوم وفطر، وانتهاء أحدهما مبدأ الآخر
فكان قوله: **{ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ}** بيانا لنهاية وقت الصيام،
ولذلك قال تعالى: **{ثُمَّ أَتَمُّوا}** ولم يقل ثم صوموا لأنهم صائمون
من قبل.

{الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ} بياض النهار **{مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ}** سواد
الليل **{مِنَ الْفَجْرِ}** أي الشعاع الناشئ عن الفجر.

روي عن سهل بن سعد -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- في نزول هذه الآية أنه كان بين نزول {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ} وبين نزول {مِنَ الْفَجْرِ} سنة من رمضان إلى رمضان.

وروى مسلم عن عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: {حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ} [البقرة: ١٨٧] مِنَ الْفَجْرِ قَالَ لَهُ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَجْعَلُ تَحْتَ وِسَادَتِي عِقَالَيْنِ: عِقَالًا أَبْيَضَ وَعِقَالًا أَسْوَدَ، أَعْرِفُ اللَّيْلَ مِنَ النَّهَارِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّ وِسَادَتَكَ لَعَرِيضٌ، إِنَّمَا هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ) وفي رواية البخاري قَالَ: (إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا، إِنْ أَبْصَرْتَ الْخَيْطَيْنِ)، ثُمَّ قَالَ: (لَا بَلْ هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ، وَبَيَاضُ النَّهَارِ)

فيظهر من حديث سهل بن سعد أن مثل ما عمله عدي ابن حاتم قد كان عمله غيره من قبله بمدة طويلة، فإن عدي أسلم سنة تسع أو سنة عشر، وصيام رمضان فرض سنة اثنتين ولا يعقل أن يبقى المسلمون سبع أو ثماني سنين في مثل هذا الخطأ، فمحل حديث سهل بن سعد على أن يكون ما فيه وقع في أول مدة شرع

الصيام، ومحمل حديث عدي بن حاتم أن عديا وقع في مثل الخطأ الذي وقع فيه من تقدموه.

قال القاضي عياض -رحمه الله تعالى-: إنما أخذ العقالين وجعلهما تحت رأسه وتأول الآية به لكونه سبق إلى فهمه أن المراد بها هذا، وكذا وقع لغيره ممن فعل فعله، حتى نزل قوله تعالى {من الفجر} فعلموا أن المراد به بياض النهار وسواد الليل.

قال القاضي: معناه: أن جعلت تحت وسادك الخيطين اللذين أرادهما الله تعالى وهما الليل والنهار فوسادك يعلوهما ويغطيها وحينئذ يكون عريضا، وهو معنى الرواية الأخرى في صحيح البخاري (إنك لعريض القفا) والوسادة هي المخدة وهي ما يجعل تحت الرأس عند النوم، والوساد أعم فإنه يطلق على كل ما يتوسد به.

قال في البحر المحيط: وقوله {من الفجر} يدل على أنه أريد بالخيطة الأبيض الصبح الصادق وهو البياض المستطير في الأفق لا الصبح الكاذب وهو البياض المستطيل لأن الفجر هو انفجار النور وهو بالثاني لا بالأول وشبه بالخيطة وذلك بأول حاله لأنه يبدو دقيقاً ثم يرتفع مستطيراً، فبطول أوله في الأفق يجب الإمساك هذا

مذهب الجمهور وبه أخذ الناس ومضت عليه الأعصار والأمصار
وهو مقتضى حديث ابن مسعود وسمرة بن جندب.

ومن فوائد الآية:

١/ جواز أن يصبح الصائم جنباً، لأن الله أباح الجماع حتى
يتبين الفجر، ولازم هذا أنه إذا أصر الجماع لم يغتسل إلا بعد طلوع
الفجر؛ وقد ثبت عن الرسول -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه كان
يصبح جنباً من جماع أهله، ثم يصوم.

٢/ أنه لو أكل الإنسان يظن أن الفجر لم يطلع، ثم تبين أنه
طلع فصيامه صحيح؛ لأنه قد أذن له بذلك حتى يتبين له الفجر؛
وما كان مأذوناً فيه فإنه لا يرتب عليه إثم، ولا ضمان، ولا شيء؛
ومن القواعد الفقهية المعروفة: «ما ترتب على المأذون فهو غير
مضمون»

ويؤيده فعل عدي بن حاتم -رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ- حيث كان يضع
عقالين تحت وسادته أحدهما أبيض والآخر أسود؛ فيأكل وهو
يتسحر حتى يتبين له العقال الأبيض من العقال الأسود، ثم يمسك؛
فأخبر النبي -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وبين له -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
المراد في الآية، ولم يأمره بالقضاء.

٣ / الاعتبار بالفجر الصادق الذي يكون كالخييط ممتداً في الأفق؛ وذكر أهل العلم أن بين الفجر الصادق والفجر الكاذب ثلاثة فروق:

– الفرق الأول: أن الصادق مستطير معترض من الجنوب إلى الشمال؛ والكاذب مستطيل ممتد من الشرق إلى الغرب.

– والفرق الثاني: أن الصادق متصل بالأفق؛ وذاك بينه، وبين الأفق ظلمة.

– والفرق الثالث: أن الصادق يمتد نوره، ويزداد؛ والكاذب يزول نوره ويظلم.

{ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ} أكملوا الصيام على وجه التمام {إِلَى اللَّيْلِ}

أي إلى دخول الليل؛ وذلك بغروب الشمس؛ لما رواه البخاري عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِذَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ مِنْ هَا هُنَا وَأَدْبَرَ النَّهَارُ مِنْ هَا هُنَا وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ)؛ وبمجرد غروب الشمس -أي غروب قرصها- يكون الإفطار؛ وليس بشرط أن تزول الحمرة، كما يظن بعض العوام؛ إذا الصوم محدود: من، وإلى؛ فلا يزداد فيه، ولا ينقص.

وروى البخاري أيضا عن عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي سَفَرٍ وَهُوَ صَائِمٌ فَلَمَّا غَرَبَتِ الشَّمْسُ قَالَ لِبَعْضِ الْقَوْمِ يَا فُلَانُ قُمْ فَاجْدَحْ لَنَا [جَدَحَ فُلَانٌ السَّوِيقَ وَغَيْرَهُ بِالماءِ أَوْ اللَّبَنِ وَنحوهما - جَدَحًا: حَرَّكَهُ بِالمَجْدَحِ حَتَّى يَخْتَلِطَ] فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أُمْسَيْتَ قَالَ انْزِلْ فَاجْدَحْ لَنَا قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَوْ أُمْسَيْتَ قَالَ انْزِلْ فَاجْدَحْ لَنَا قَالَ إِنَّ عَلَيْكَ نَهَارًا قَالَ انْزِلْ فَاجْدَحْ لَنَا فَانْزَلَ فَجَدَحَ لَهُمْ فَشَرِبَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثُمَّ قَالَ: (إِذَا رَأَيْتُمُ اللَّيْلَ قَدْ أَقْبَلَ مِنْ هَاهُنَا فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ)

{وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ} لقصد أن يكون الْمُعْتَكِفُ صالحا **{وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ}** وإن فعل المباشرة أثم وفسد اعتكافه ووجب عليه قضاؤه. وأجمعوا على أن الاعتكاف لا يكون إلا في المسجد لهاته الآية، واختلفوا في صفة المسجد فقليل لا بد من المسجد الجامع، وقيل مطلق مسجد، وهو التحقيق وهو مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي رحمهم الله.

{تِلْكَ} والمشار إليه ما ذكر من أحكام الأكل، والشرب، والجماع في ليالي رمضان **{حُدُودُ اللَّهِ}** تذييل بالتحذير من مخالفة

ما شرع إليه من أحكام الصيام **{فَلَا تَقْرُبُوهَا}** وإنما نهى عن قربانها كي لا نقع في المحرم، والنهي يشمل وسائل المحرم؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد؛ وكم من إنسان حام حول الحمى فوقع فيه، كما قال تعالى: **{وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [الأنعام: ١٥٢]

واعلم أن حدود الله نوعان:

١ - حدود تمنع من كان خارجها من الدخول فيها؛ وهذه هي المحرمات؛ ويقال فيها: **{فلا تقربوها}**.

٢ - وحدود تمنع من كان فيها من الخروج منها؛ وهذه هي الواجبات؛ ويقال فيها: **{فلا تعتدوها}**.

{كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ} والمقصد أن هذا شأن الله في إيضاح أحكامه لئلا يلتبس شيء منها على الناس **{لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}** فامتّن تعالى على المسلمين بهذه النعمة وهي بيان الشرائع والأحكام والحدود بما يوحيه إلى رسوله من الكتاب والسنة ليعد بذلك المؤمنين للتقوى، إذ لا يمكن أن تكون تقوى ما لم تكن شرائع تتبع وحدود تحترم.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ
لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
(١٨٨) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ
وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ
اتَّقَى وَاتُّوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
(١٨٩)

مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، وذلك أن من يعبد الله تعالى
بالصيام فحبس نفسه عما تعودته من الأكل والشرب والمباشرة
بالنهار ثم حبس نفسه بالتقييد في مكان تعبد الله تعالى صائماً له
ممنوعاً من اللذة الكبرى بالليل والنهار، جدير أن لا يكون مطعمه
ومشربه إلا من الحلال الخالص الذي ينور القلب ويزيده بصيرة
ويفضي به إلى الاجتهاد في العبادة، فلذلك نهى عن أكل الحرام
المفضي به إلى عدم قبول عبادته من صيامه واعتكافه.

قال ابن عاشور: عطف على جملة، والمناسبة أن قوله: {تِلْكَ
حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا} [البقرة: ١٨٧] تحذير من الجرأة على
مخالفة الصيام بالإفطار غير المأذون فيه وهو ضرب الأكل الحرام
فعطف عليه أكل آخر محرم وهو أكل المال بالباطل، والمشاكلة

زادت المناسبة قوة، هذا من جملة عداد الأحكام المشروعة لإصلاح ما اختل من أحوالهم في الجاهلية، ولذلك عُطِفَ على نظائره وهو مع ذلك أصل تشريع عظيم للأموال في الإسلام.

كان أكل المال بالباطل شَنِئَةً معروفة لأهل الجاهلية، بل كان أكثر أحوالهم المالية، فإن اكتسابهم كان من الإغارة ومن الميسر، ومن غصب القوي مال الضعيف، ومن أكل الأولياء أموال اليتامى، ومن الغرر والمُقَامَرَة، ومن المُرَابَاة ونحو ذلك. وكل ذلك من الباطل الذي ليس عن طيب نفس.

{وَلَا تَأْكُلُوا} المراد بالأكل ما هو أعم منه، فيشمل الانتفاع بغير الأكل من الملبوسات، والمفروشات، والمسكنات، والمركوبات؛ لكنه خَصَّ الأكل؛ لأنه أقوى وجوه الانتفاع؛ فالإنسان ينتفع بالمال ببناء مسكن له، وهو منفصل عنه؛ ويفترش الفراش فينتفع به، وهو منفصل عنه إلا أنه ألصق به من البيت؛ ويلبس ثوباً فينتفع به، وهو منفصل عنه؛ إلا أنه ألصق به من الفراش؛ والإنسان يأكل الأكل فينتفع، وهو متصل ممازج لعروقه؛ فكان أخص أنواع الانتفاع، وألصقها بالمنتفع؛ ولهذا ذكر بعض أهل العلم -رحمهم الله- أن الإنسان إذا كان عنده مال مشتبه ينبغي أن يصرفه في

الوقود؛ لا يصرفه في الأكل والشرب يتغذى بهما البدن، وهما
أخص انتفاع بالمال.

{أَمْوَالُكُمْ} فهناك آكل، ومأكل منه؛ فإذا كنت أنت أيها
الآكل لا ترضى أن يؤكل مالك، فكيف ترضى أن تأكل مال غيرك؛
فاعتبر مال غيرك بمنزلة مالك في أنك لا ترضى أن يأكله أحد؛
وبهذا تتبين الحكمة في إضافة الأموال المأكولة للغير إلى آكلها.

والمعنى: أموال بعضكم بعضاً، فمال الكافر غير المحارب
كمال المسلم في الحرمة إلا أن مال المسلم أشد حرمة، فإضافة
الأموال إلى المخاطبين من باب التأليف، كقوله تعالى: **{وَلَا تَقْتُلُوا
أَنْفُسَكُمْ}** [النساء: ٢٩] أي لا يقتل بعضكم بعضاً.

{بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ} بغير حق شرعي؛ إما بغير حق أصلاً كالغضب
والسرقة والخيانة والخدع والتطيف والغش وغير ذلك. أو بحق
باطل كما يؤخذ في السحر والكهانة والفأل والقمار والجاه، وهديّة
القرض والضمان، والرشوة، والربا.. وغير ذلك مما نهى الشارعُ
عنه. ولا يدخل في ذلك التمايم والعزائم إذا كان بالقرآن أو السنّة
وغلب الشفاء، وكذلك لا يدخل أيضاً الغبن، إذا كان البائع عالماً
بالمبيع.

{وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ} تتوسلوا بدفعها رشوة، وأصل الإدلاء: إرسال الدلو في الماء ليتوصل به إلى أخذ الماء من البئر، ثم أطلق في كل ما يتوصل به إلى شيء، يقال: أدلى بماله إلى الحكام، أي: دفعه رشوة، ليتوصل بذلك إلى أخذ أكثر منه.. فنهوا عن أمرين أحدهما: أخذ المال بالباطل، والثاني: صرفه للحكام لأخذه بالباطل.

وخص هذه الصورة بالنهي بعد ذكر ما يشملها وهو أكل الأموال بالباطل؛ لأن هذه شديدة الشناعة جامعة لمحرمات كثيرة، وللدلالة على أن معطي الرشوة آثم.

وفيه دلالة على أن حكم الحاكم لا يغير بواطن الأحكام، وعلى أن قضاء القاضي لا يغير صفة أكل المال بالباطل، ولأن الحاكم يحكم بالظاهر وهو مصيب في عمله، لا أنه مصيب ما عند الله تعالى حقيقة.

{لَتَأْكُلُوا} قد يقول قائل: إن فيها إشكالاً؛ لأنه تعالى قال: **{وَلَا تَأْكُلُوا}**، ثم قال تعالى: **{لَتَأْكُلُوا}** كيف يعلل الحكم بنفس الحكم؟ فنقول: إن اللام هنا ليست للتعليل؛ اللام هنا للعاقبة - يعني أنكم إذا فعلتم ذلك وقعتم في الأكل - أكل فريق من أموال

الناس -؛ وتأتي اللام للعاقبة، كما في قوله تعالى: **{فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا}** [القصص: ٨]: قال فرعون لم يلتقطوه لهذا الغرض؛ ولكن كانت هذه العاقبة.

{فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ} طائفة وقطعة من أموال الناس، فالفريق بمعنى الطائفة؛ وسمي فريقاً؛ لأنه يُفَرَّقُ عن غيره؛ فهذا فريق من الناس - يعني طائفة منهم افترقت، وانفصلت -؛ لو قال قائل: قد يأكل كل مال المدعى عليه لا فريقاً منه؟ فالجواب من وجهين:

الأول: أنه لو أكل جميع مال المدعى عليه لم يأكل جميع أموال الناس؛ لأن مال المدعى عليه فريق من أموال الناس.
الثاني: أنه إذا كان النهي عن أكل فريق من أموال المدعى عليه فهو تنبيه بالأدنى على الأعلى.

{بِالْإِثْمِ} الباء للمصاحبة؛ يعني أكلاً مصحوباً بالإثم - وهو الذنب - كالرشوة وشهادة الزور، واليمين الفاجرة أي الحلف بالكذب ليقضي القاضي له بالباطل في صورة حق.

{وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} الجملة حالية؛ وهي قيد للحكم على أعلى أنواع بشاعته؛ لأن من أكل أموال الناس بالباطل عالماً أبشع مما لو أكله جاهلاً.

والمعنى: وأنتم تعلمون حرمة ذلك .. وهذا تشنيع وتفظيع في الإقدام على المعصية مع العلم بها، وخصوصاً حقوق العباد، فإنَّ حُكْمَ الحاكم لا يُحِلُّ حراماً. وفي الحديث الصحيح الذي رواه ابن حبان عن أُمِّ سَلَمَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قَالَ: (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ، أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِشَيْءٍ، مِنْ حَقِّ أَخِيهِ، فَلَا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئاً، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ) وهذا في الأموال باتفاق.

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ} أي الحكمة من أحوالها، والذي سألَه معاذُ بن جبل وثعلبةُ بن غنمة، فقالا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو رقيقاً كالخيوط، ثم لا يزال يزيد حتى يستوي، ثم لا يزال ينقص حتى يرجع كالخيوط؟

والأهلة جمع هلال وهو القمر في بداية ظهوره في الثلاثة الأيام الأولى من الشهر، وإنما سمي هلالاً لظهوره في ذلك بعد خفائه، ولأن الناس إذا رأوه رفعوا أصواتهم بالإخبار عنه ينادي بعضهم بعضاً، فالإهلال هو رفع الصوت، كما في حديث خلاد بن السائب عن أبيه أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (أتاني جبريل

فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالإِهلال) يعني بالتلبية في الحج؛ ومنه قولهم: «استهل المولود» إذا صرخ بعد وضعه. وفي قوله تعالى: {وَمَا أَهْلٌ بِهِ لغيرِ اللَّهِ} [البقرة: ١٧٣]، ويقولون تهلل وجهه إذا ظهر فيه البشر والسرور.

{قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ} جمع ميقات، وهي الوقت المحدد المعلوم للناس كالشهر، والشهر مشتق من الشهرة، لأن الذي يرى هلال الشهر يشهره لدى الناس، وسمى العرب الوقت المعين ميقاتا كأنه مبالغة وإلا فهو الوقت عينه.

وعلة بدءها صغيرة ثم تتكامل ثم تنقص حتى المحاق هي أن يعرف الناس بها مواقيتهم التي يؤقتونها لأعمالهم بالأشهر التي تحسب بها، مثل: عدة الوفاة أربعة أشهر وعشر، وعدة المطلقة بعد الدخول إذا كانت لا تحيض ثلاثة أشهر، وآجال ديونهم، وإجاراتهم، وغير ذلك.

{وَالْحَجِّ} يعني مواقيت للحج؛ لأن الحج أشهر معلومات تبدئ بدخول شوال، وتنتهي بانتهاء ذي الحجة؛ ثلاثة أشهر؛ وكذلك هي مواقيت للصيام، كما قال تعالى: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة: ١٨٥]

واحتياج الحج للتوقيت ضروري؛ إذ لو لم يوقت لجاء الناس للحج متخالفين فلم يحصل المقصود من اجتماعهم، ولم يجدوا ما يحتاجون إليه في أسفارهم، وحلولهم بمكة وأسواقها. والاقتصار على الحج دون العمرة لأن العمرة لا وقت لها فلا تكون للأهلة فائدة في فعلها.

قال ابن عاشور: صرفهم عن بيان مسئولهم إلى بيان فائدة أخرى، لاسيما والرسول لم يجيء مبينا لعل اختلاف أحوال الأجرام السماوية، والسائلون ليس لهم من أصول معرفة الهيئة ما يهيئهم إلى فهم ما أرادوا علمه بمجرد البيان اللفظي بل ذلك يستدعي تعليمهم مقدمات لذلك العلم، على أنه لو تعرض صاحب الشريعة لبيانه لبين أشياء من حقائق العلم لم تكن معروفة عندهم ولا تقبلها عقولهم يومئذ، ولكان ذلك ذريعة إلى طعن المشركين والمنافقين بتكذيبه، فإنهم قد أسرعوا إلى التكذيب فيما لم يطلعوا على ظواهره كقولهم: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمْرَقٍ إِنَّا لَنُفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ} [سبأ: ٨-٧] وقولهم: {مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِن هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ} [ص: ٧] وعليه فيكون هذا الجواب

بقوله: {هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} تخريجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

{وَلَيْسَ الْبِرُّ} هو الخير الكثير؛ وسمي الخير براً لما فيه من السعة؛ ومنه في الاشتقاق «البر» الذي هو الخلاء: وهو ما سوى البنيان لسعته.

{بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا} من الخلف، فقد كانت الأنصار إذا حَجُّوا أو اعتمروا، يقولون: لا يَحُولُ بيننا وبين السماء سَقْفٌ، حين يدخلوا بيوتهم، فإذا رجعوا تسَوَّروا الجُدْرانَ، أو نَقَبُوا في ظهور بيوتهم، فجاء رجل منهم فدخل من الباب، فَعَيَّرَ بذلك، فأنزل الحقّ جلّ جلاله هذه الآية.

ففي صحيح البخاري عن البراء بن عازب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا، كَانَتْ الْأَنْصَارُ إِذَا حَجُّوا فَجَاءُوا لَمْ يَدْخُلُوا مِنْ قِبَلِ أَبْوَابِ بُيُوتِهِمْ، وَلَكِنْ مِنْ ظُهُورِهَا، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَدَخَلَ مِنْ قِبَلِ بَابِهِ فَكَأَنَّهُ عَيَّرَ بِذَلِكَ فَنَزَلَتْ {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَاتُّوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا}

فقد جعلوا من أحكام الإجماع ألا يدخل المحرم بيته من بابه أو لا يدخل تحت سقف يحول بينه وبين السماء، وكان المحرمون إذا أرادوا أخذ شيء من بيوتهم تسنموا على ظهور البيوت أو اتخذوا نقبا في ظهور البيوت إن كانوا من أهل المدر، وإن كانوا من أهل الخيام دخلوا خلف الخيمة، وكان الأنصار يدينون بذلك، وأما الحُمس فلم كانوا يفعلون هذا، والحُمس هم المتشددون بأمر الدين، وهم: قريش. وكنانة. وخزاعة. وثقيف. .. وجلهم من سكان مكة.

فنفي البر عن هذا نفى أن يكون مشروعا أو من الحنيفية، وإنما لم يكن مشروعا لأنه غلو في أفعال الحج، فإن الحج وإن اشتمل على أفعال راجعة إلى ترك الترفه عن البدن كترك المخيط وترك تغطية الرأس إلا أنه لم يكن المقصد من تشريعه إعانات الناس بل إظهار التجرد وترك الترفه، ولهذا لم يكن الحُمس يفعلون ذلك لأنهم أقرب إلى دين إبراهيم عليه السلام.

{وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى} المحارم وخالف الشهوات {وَأَتُوا
الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} أي تظفرون بمطلبكم من البر: فإن البر في اتباع الشرع فلا تفعلوا شيئا إلا إذا

كان فيه مرضاة الله ولا تتبعوا خطوات المبتدعين الذين زادوا في الحج ما ليس من شرع إبراهيم عليه السلام.

ومن فوائد الآية: أن العادات لا تجعل غير المشروع مشروعاً؛ لقوله تعالى: {وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَاتُّوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا} مع أنهم اعتادوه، واعتقدوه من البر؛ فمن اعتاد شيئاً يعتقده براً عُرِضَ على شريعة الله ابتداءً.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرِجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انتهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَاقْتُلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انتهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ

اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)

{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} في سبيل دينه، وشرعه، ولأجله؛
فسبيل الله سبحانه وتعالى يتناول الدين، وأن يكون القتال في حدود
الدين، وعلى الوجه المشروع، والله وحده؛ فهو يتضمن الإخلاص،
والمتابعة؛ لأنه ليس بالأمر الهين؛ فإن المقاتل يعرض رقبته لسيوف
الأعداء؛ فإذا لم يكن مخلصاً لله خسر الدنيا والآخرة، ولم تحصل
له الشهادة؛ فنبه بتقديم المراد **{فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** ليكون قتاله مبنياً
على الإخلاص.

{الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكَ} ليصدوكم عن دينكم؛ وهذا القيد للإغراء؛
لأن الإنسان إذا قيل له: «قاتل من يقاتلك» اشتدت عزمته،
وقويت شكيمة؛ وعلى هذا فلا مفهوم لهذا القيد.

ولا خلاف بين العلماء في أن القتال كان محظوراً قبل الهجرة
بقوله: **{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** إلى قوله: **{ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}**، وقوله:
{فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ}، وقوله: **{وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}**، **{وَلَا
تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ}**، الآية، وقوله **{وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا
سَلَامًا}**.

واختلف السلف في أول آية نزلت في القتال، فروي عن الربيع بن أنس وغيره أن قوله تعالى: **{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ}** أول آية نزلت في القتال.

وروي عن أبي بكر الصديق -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قال: أول آية نزلت في القتال قوله تعالى: **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا}** [الحج: ٣٩]

وقال آخرون: قوله تعالى: **{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** أول آية نزلت في إباحة قتال من قاتلهم، والثانية نزلت في الإذن بالقتال عامة لمن قاتلهم، ومن لم يقاتلهم من المشركين.

فقال الربيع بن أنس: أول آية نزلت في الإذن بالقتال في المدينة قوله تعالى: **{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ}**، فكان النبي عليه السلام بعد ذلك يقاتل من قاتله من المشركين، ويكف عمن كف عنه إلى أن أمر بقتال الجميع، وهو مثل قوله تعالى: **{فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}** [البقرة: ١٩٤]

{وَلَا تَعْتَدُوا} لا تجاوزوا الحد فقتلوا النساء والأطفال ومن اعتزال القتال، أو تمثلوا بالقتلى، ولهذا قال الرسول -صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لمن يبعثهم، كالسرايا والجيوش: (اغزُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ اغزُوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَغْلُوا وَلَا تُمَثِّلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا) [أبو داود]؛ لأن هذا من العدوان {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} تعليل لحكم النهي عن الاعتداء.

قالت جماعة من أهل العلم: إن الله تبارك وتعالى لعظم حكمته في التشريع، إذا أراد أن يشرع أمراً شاقاً على النفوس كان تشريعه على سبيل التدرج، لأن إلزامه بغتة في وقت واحد من غير تدرج فيه مشقة عظيمة، على الذين كلفوا به، قالوا: فمن ذلك الجهاد، فإنه أمر شاق على النفوس لما فيه من تعريضها لأسباب الموت، لأن القتال مع العدو الكافر القوي من أعظم أسباب الموت عادة، وإن كان الأجل محدوداً عند الله تعالى كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً} [المائدة: ١٤٥] وقد بين تعالى مشقة إيجاب الجهاد عليهم، بقوله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ} [النساء: ٧٧]

ومع تعريض النفوس فيه لأعظم أسباب الموت، فإنه ينفق فيه المال أيضاً كما قال تعالى: **{وَتَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ}** [الصف: ١١] قالوا: ولما كان الجهاد فيه هذا من المشقة، وأراد الله تشريعه شرعه تدريجاً، فأذن فيه أولاً من غير إيجاب بقوله: **{أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِنَاهِهِمْ ظُلُمُوا}** [الحج: ٣٩].

ثم لما استأنست به نفوسهم بسبب الإذن فيه، أوجب عليهم فقال: من قاتلهم دون من لم يقاتلهم بقوله: **{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا}** [البقرة: ١٩٠]. وهذا تدريج من الإذن إلى نوع خاص من الإيجاب، ثم لما استأنست نفوسهم بإيجابه في الجملة أوجه عليهم إيجاباً عاماً جازماً في آيات من كتابه كقوله تعالى: **{فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ}** [التوبة: ٥] وقوله تعالى: **{وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً}** [التوبة: ٣٦] وقوله: **{تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ}** [الفتح: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات.

{وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ} وجدتموهم وظفرتهم بهم وتمكنتم من قتالهم **{وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ}** الشرك الذي

هم فيه **{أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ}** فشركهم بالله عز وجل، أعظم من قتلهم إياهم في الحرم، والذي كان منهم من تعذيب من أسلم وظفروا به، ليفتنوهم عن الدين، أعظم من قتالكم إياهم في الشهر الحرام، وهذه فتنة أشد من القتل لتكرر إضرارها بخلاف ألم القتل. وهو حجة للمسلمين ونفي للتبعة عنهم في القتال بمكة إن اضطروا إليه.

قال ابن عثيمين: «الفتنة» هي صدّ الناس عن دينهم، كما قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}** [البروج: ١٠]؛ فصد الناس عن دينهم فتنة أشد من قتلهم؛ لأن قتلهم غاية ما فيه أن يقطعهم من ملذات الدنيا؛ لكن الفتنة تقطعهم من الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: **{وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبْ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}** [الحج: ١١]

ومن فوائد الآية: أن الفتنة بالكفر، والصد عن سبيل الله أعظم من القتل. فيتفرع على هذه فائدة أن استعمار الأفكار أعظم من استعمار الديار؛ لأن استعمار الأفكار فتنة؛ واستعمار الديار أقصى ما فيها إما القتل، أو سلب الخيرات، أو الاقتصاد، أو ما أشبه

ذلك؛ فالفتنة أشد؛ لأنها هي القتل الحقيقي الذي به خسارة الدين والدنيا والآخرة.

{وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ} ابتداء **{عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}** مكة والحرم من حولها **{حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ}** فلا تكونوا البادئين **{فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ}** القتل والإخراج الواقع منكم لهم **{جَزَاءَ الْكَافِرِينَ}** يُفعل بهم ما فعلوا بغيرهم.

قال ابن عاشور: الجملة معطوفة على جملة: **{وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ}** التي أفادت الأمر بتتبع المقاتلين بالقتيل حيثما حلوا سواء كانوا مشتبكين بقتال المسلمين أم كانوا في حالة تنقل أو تطلع أو نحو ذلك لأن أحوال المحارب لا تنضبط وليست في الوقت سعة للنظر في نواياه والتوسم في أغراضه، إذ قد يبادر إلى اغتيال عدوه في حال تردده وتفكره، فخص المكان الذي عند المسجد الحرام من عموم الأمكنة التي شملها قوله: **{حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ}** أي إن ثقفتموهم عند المسجد الحرام غير مشتبكين في قتال معكم فلا تقتلوه، والمقصد من هذا حفظ حرمة المسجد الحرام التي جعلها الله له بقوله: **{مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا}** [آل عمران: ٩٧]، فاقتضت الآية منع المسلمين من قتال

المشركين عند المسجد الحرام، وتدل على منعهم من أن يقتلوا أحدا من المشركين دون قتال عند المسجد الحرام. وجعلت غاية النهي بقوله: **{حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ}** أي فإن قاتلوكم عند المسجد فاقتلوهم عند المسجد الحرام، لأنهم خرقوا حرمة المسجد الحرام فلو تركت معاملتهم بالمثل لكان ذلك ذريعة إلى هزيمة المسلمين. فإن قاتلوا المسلمين عند المسجد الحرام عاد أمر المسلمين بمقاتلتهم إلى ما كان قبل هذا النهي فوجب على المسلمين قتالهم عند المسجد الحرام وقتل من ثقفوا منهم كذلك.

وقد أذن الله للمسلمين بالقتال والقتل لِلْمُقَاتِلِ عند المسجد الحرام ولم يعبأ بما جعله لهذا المسجد من الحرمة؛ لأن حرمة حُرْمَتُهُ حُرْمَةٌ نِسْبَتِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فلما كان قتال الكفار عنده قتالا لمنع الناس منه وَمُنَاوَاةً لدينه فقد صاروا غير مُحْتَرَمِينَ له ولذلك أمرنا بقتالهم هنالك تأييدا لحرمة المسجد الحرام.

ففي الآية جواز القتال عند المسجد الحرام إذا بدأنا بذلك أهله؛ لقوله تعالى: **{حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ}**؛ ولا يعارض هذا قول رسول

الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (فإن أحد ترخص بقتال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم) فروى البخاري عن أبي شريح أنه قال لعمر بن سعيد وهو يبعث البعث إلى مكة ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الغد من يوم الفتح سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيني حين تكلم به حمد الله وأثنى عليه ثم قال: (إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لأمري يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا ولا يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيها فقولوا: إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب) ف قيل لأبي شريح ما قال عمرو قال أنا أعلم منك يا أبا شريح لا يعيد عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة [بلية].

فالممنوع هو ابتداء القتال لدخول مكة؛ فهذا حرام، ولا يجوز مهما كان الأمر؛ وأما إذا قاتلونا في مكة فإننا نقاتلهم من باب المدافعة.

{فَإِنْ انْتَهَوْا} عن الشرك والكفر وأسلموا **{فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ}** لهم
{رَحِيمٌ} بهم

والقتال فرض كفاية؛ ويتعين في مواضع؛ وهذا الفرض كغيره من المفروضات من شرطه القدرة؛ أما مع العجز فلا يجب؛ لكن يجب أن يكون العزم معقوداً على أنه إذا حصلت القوة جاهدنا في سبيل الله؛ لما رواه مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ)

{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ} أي صد عن سبيل الله بأن يكفوا عن المسلمين، ويدخلوا في الإسلام، أو يبذلوا الجزية **{وَيَكُونَ الدِّينُ خَالِصًا لِلَّهِ}**

فالأمر بقتالهم مقيد بغايتين؛ غاية عدمية: {حتى لا تكون فتنة} أي حتى لا توجد فتنة؛ و «الفتنة» هي الشرك، والصد عن سبيل الله؛ والغاية الثانية إيجابية: {ويكون الدين لله} بمعنى: أن يكون الدين غالباً ظاهراً لا يعلو إلا الإسلام فقط؛ وما دونه فهو دين معلو عليه يؤخذ على أصحابه الجزية عن يد وهم صاغرون.

ولذلك لم يقبل الإسلام الجزية من وثنيي العرب على قول فريق من العلماء، حيث اختلف العلماء فيمن سوى أهل الكتاب من الكفار: هل يعاملون معاملتهم؛ أو يقاتلون إلى أن يسلموا؛ والقول الراجح أنهم يعاملون معاملتهم، كما يدل عليه حديث بريدة الثابت في صحيح مسلم:

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ: (اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغْلُوا وَلَا تَغْدِرُوا وَلَا تَمْثُلُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ فَأَيُّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنََّّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنََّّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلُّهُمْ الْجَزِيَّةَ، فَإِنْ هُمْ

أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ
وَقَاتِلْهُمْ)

وقد ثبت أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أخذ الجزية من
مجوس هجر، كما في البخاري: وَلَمْ يَكُنْ عُمَرُ أَخَذَ الْجِزْيَةَ مِنْ
الْمَجُوسِ حَتَّى شَهِدَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَخَذَهَا مِنْ مَجُوسِ هَجَرَ

وهو يدل على أن أخذ الجزية ليس خاصاً بأهل الكتاب.

وفي آية الأنفال: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ
كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انتهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الأنفال: ٣٩]

والفرق بين قوله تعالى: {وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} [البقرة]، وقوله عز
وجل: {وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} [الأنفال] أن آية البقرة سياقها
يتحدث عن كفار قريش، والأمر بقتال المعتدين منهم، ومقابلة
اعتدائهم بالصد والدفاع، فقد انتهكوا الحرمات، واعتدوا وظلموا،
والله لا يجب المعتدين.

وأما سورة الأنفال فهي من السور التي تفصل أحكام الجهاد
والقتال ضد عموم الكفار، وليس كفار قريش خصوصاً، وتشعر

الحكم الذي يعم الأحوال والأزمان والأشخاص، فكان سياقها عاما يراد به جميع الكفار.

يقول الله تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ. وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرُ} [الأنفال / ٣٨-٤٠].

فإذا تبين اختلاف السياقين عرفنا أن السياق الذي يتحدث عن عموم الكفار، سواء كانوا مشركين أم أصحاب ديانات أخرى: يناسبه أن يقال فيه {وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ} فالإسلام يعلو ولا يعلى عليه، وعلو الإسلام يقضي أن يكون هو الدين الظاهر على جميع الديانات، إما بعدد المسلمين، أو بالحكم بالشرعية، أو بفسح المجال لتبليغ الدعوة.

وأما السياق الذي يتحدث عن مشركي أهل مكة، وليس فيهم أي دين آخر، فيناسبه قوله عز وجل فيه: {وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ}، فلا حاجة لكلمة {كله} لأنه دين واحد في مكة، وهو دين عبادة الأصنام.

وقد أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر أثرا جيدا قال: جاء رجلان إلى ابن عمر أيام فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر وصاحب النبي صلى الله عليه وسلم فما يمنعك أن تخرج؟ فقال: يمنعني أن الله حرم دم أخي، فقالا: ألم يقل الله تعالى: **{وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ}** فقال ابن عمر: قاتلنا مع رسول الله حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله، قال ابن عمر: كان الإسلام قليلا فكان الرجل يفتن في دينه إما قتلوه وإما عذبه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة.

{فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} فإن انتهوا عن نقض الصلح أو فإن انتهوا عن الشرك بأن آمنوا فلا عدوان عليهم، وهذا تصريح بمفهوم قوله: **{الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُم}** [البقرة: ١٩٠] واحتيج إليه لبعد الصفة بطول الكلام ولاقتضاء المقام التصريح بأهم الغائتين من القتال؛ لئلا يتوهم أن آخر الكلام نسخ أوله وأوجب قتال المشركين في كل حال.

{الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ} هتكه بهتكه، تهتكون حرمة عليهم كما هتكوا حرمة عليكم **{وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ}** جمع حُرْم؛

والمراد بـ «الحرم» كل ما يحترم من زمان، أو مكان، أو منافع، أو أعيان؛ لأن «حُرْم» جمع حرام؛ و«حرّمات» جمع حُرْم؛ فالمعنى: أن المحترم يقتص منه بمحترم آخر؛ وأن من انتهك حرمة شيء فإنه تنتهك حرمة: فمن انتهك حرمة الشهر انتهك حرمة في هذا الشهر؛ ومن انتهك عرض مؤمن انتهك عرض مثله؛ ومن انتهك نفس مؤمن فقتله انتهك حرمة نفسه بقتله؛ وهكذا.

ومعنى كونها قصاصا أي مماثلة في المجازاة والانتصاف، فمن انتهكها بجناية يعاقب فيها جزاء جنايته، وذلك أن الله جعل الحرمة للأشهر الحرم لقصد الأمن فإذا أراد أحد أن يتخذ ذلك ذريعة إلى غدر الأمن أو الإضرار به فعلى الآخر الدفاع عن نفسه، لأن حرمة الناس مقدمة على حرمة الأزمنة، ويشمل ذلك حرمة المكان كما تقدم في قوله تعالى: **{وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ}** [البقرة: ١٩١]

والأشهر الحرم أربعة: ثلاثة متتابعة، هي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، وحرمتها لوقوع الحج فيها ذهابا ورجوعا وأداء، وشهر واحد مفرد هو رجب وكان في الجاهلية شهر العمرة، وقد حرّمته

مضر كلها، ولذلك يقال له: رجب مضر، وقد أشير إليها في قوله تعالى: **{ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ }** [التوبة: ٣٦].

وكل هذا التأكيد من الله عز وجل في هذه الآيات من أجل تسلية المؤمنين؛ لأن المؤمنين لا شك أنهم يحترمون الأشهر الحرم والقتال فيها؛ ولكن الله تعالى سلاهم بذلك بأن «الحرمات قصاص»؛ فكما أنهم انتهكوا ما يجب احترامه بالنسبة لكم، فإن لكم أن تنتهكوا ما يجب احترامه بالنسبة إليهم؛ ولهذا قال تعالى مفرعاً على ذلك:

{فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ} ليس أخذنا بالقصاص اعتداء؛ ولكنه سمي اعتداءً من باب المشاكلة اللفظية **{بِمِثْلِ}** اعتدوا عليه بمثله؛ فالباء للبدل؛ بحيث يكون المثل مطابقاً لما اعتدى عليكم به في هيئته، وفي كلفيته، وفي زمنه، وفي مكانه **{مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ}** هذا مؤكد لما قبله من قوله **{وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ}** تشجع المؤمنين المعتدى عليها على قتال أعدائهم، وتعلمهم أن من قاتلهم في الشهر الحرام فليقاتلوه في الشهر الحرام، ومن قاتلهم في الحرم فليقاتلوه في الحرم، ومن قاتلهم وهم محرمون فليقاتلوه وهو محرم، وهكذا الحرمات قصاص بينهم ومساواة

{وَاتَّقُوا اللَّهَ} أمر بتقوى الله فيدخل فيه اتقاؤه بأن لا يتعدى الإنسان في القصاص إلى ما لا يحل له **{وَاعْلَمُوا}** أمر بالعلم بأن الله مع المتقين؛ وهو أوكد من مجرد الخبر؛ والمراد به العلم مع الاعتقاد **{أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}** بالنصرة والتمكين والتأييد، وجاء بلفظ: {مع}، الدالة على الصحبة والملازمة حضاً على الناس بالتقوى دائماً إذ من كان الله معه فهو الغالب المنتصر.

واعلم أن ما أثبتته الله لنفسه من المعية لا ينافي ما ذكر عن نفسه من العلو لأنه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء، ولا يقاس بخلقه؛ فمعيته ثابتة مع علوه تبارك وتعالى؛ وإذا كان العلو، والمعية لا يتناقضان في حق المخلوق - فإنهم يقولون: «ما زلنا نسير والقمر معنا»، ولا يعدون ذلك تناقضاً مع أن القمر في السماء - فثبت ذلك في حق الخالق من باب أولى -؛ وبهذا يبطل قول من زعم أن معية الله تستلزم أن يكون في الأرض مختلطاً بالخلق؛ فإن هذا قول باطل باتفاق السلف المستند على الكتاب، والسنة في إثبات علو الله فوق خلقه؛ وتفصيل القول في هذا مدوّن في كتب العقائد.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ
وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥) وَأَتِمُّوا الْحَجَّ
وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا
تَخْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ
مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ
نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ
مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ
وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ
حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ (١٩٦)

{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} طريقه، والطريق إذا أضيف إلى شيء
فإنما يضاف إلى ما يوصل إليه، ولما علم أن الله لا يصل إليه الناس
تعين أن يكون المراد من الطريق العمل الموصل إلى مرضاة الله
وثوابه، فهو مجاز في اللفظ ومجاز في الإسناد، وقد غلب {سَبِيلِ

اللَّهِ { في اصطلاح الشرع في الجهاد. أي القتال للذب عن دينه وإعلاء كلمته.

{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ} بأنفسكم، وألقى بيده في كذا، أو إلى كذا، إذا استسلم، لأن المستسلم في القتال يلقي سلاحه بيديه **{إِلَى التَّهْلُكَةِ}** عطف على الأمر بالإنفاق للإشارة إلى علة مشروعية الإنفاق وإلى سبب الأمر به، فإن ترك الإنفاق في سبيل الله والخروج بدون عدة إلقاء باليد للهلاك، فلذلك وجب الإنفاق، ولأن اعتقاد كفاية الإيمان بالله ونصر دينه في هزيمة الأعداء اعتقاد غير صحيح، لأنه كالذي يلقي بنفسه للهلاك ويقول سينجيني الله تعالى، فهذا النهي قد أفاد المعنيين جميعاً وهذا من أبداع الإيجاز.

{وَأَحْسِنُوا} الإحسان فعل النافع الملائم **{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}** هذا تحريض على الإحسان لأن فيه إعلاماً بأن الله يحب من الإحسان صفة له، ومن أحبه الله لهذا الوصف فينبغي أن يقوم وصف الإحسان به دائماً بحيث لا يخلو منه محبة الله دائماً. والإحسان الذي به تمام الواجب فالأمر فيه للوجوب؛ وأما الإحسان الذي به كمال العمل فالأمر فيه للاستحباب.

روى يزيد بن حبيب عن أسلم بن أبي عمران أنه قال: غزونا القسطنطينية، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، والروم ملصقوا ظهورهم بحائط المدينة، فحمل رجل على العدو، فقال الناس: مه مه، لا إله إلا الله، يلقي بيديه إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: سبحان الله، أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار، لما نصر الله تعالى نبيه، وأظهر دينه. قلنا هلم نقيم في أموالنا ونصلحها، فأنزل الله تعالى: **{وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}**، والإلقاء بالأيدي إلى التهلكة، أن نقيم في أموالنا فنصلحها وندع الجهاد.. قال الراوي: فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية.

وقد فهم من فهم من قوله تعالى: **{وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}** انغماس الرجل في العدو. حتى بين له أبو أيوب الأنصاري أن هذا ليس من الإلقاء بيده إلى التهلكة، بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضاة الله، وأن الإلقاء بيده إلى التهلكة هو ترك الجهاد والإقبال على الدنيا وعمارتها.

وقال محمد بن الحسن في السير الكبير: لو حمل رجل واحد على ألف من المشركين وهو وحده، لم يكن به بأس إذا كان يطمع

في نجاة أو نكاية في العدو، فإن لم يكن كذلك فهو مكروه، لأنه عرض نفسه للتلف من غير منفعة للمسلمين. فإن كان قصده تجرئة المسلمين عليهم حتى يصنعوا مثل ما صنعه، فلا يبعد جوازه، لأن فيه منفعة للمسلمين على بعض الوجوه. وإن كان قصده إرهاب العدو، ليعلم العدو صلابة المسلمين في الدين، فلا يبعد جوازه، وإذا كان فيه نفع للمسلمين، فيتلف نفسه لإعزاز الدين وتوهم الكفر، فهو المقام الشريف الذي مدح الله به المؤمنين في قوله: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١١١]... إلى غيرها من آيات مدح الله بها من يذل نفسه لله عز وجل.

قال ابن عاشور: ووجه الحاجة إلى هذا الأمر - مع أن الاستعداد للحرب مركز في الطباع تنبيه المسلمين، فإنهم قد يقصرون في الإتيان على منتهى الاستعداد لعدو قوي، لأنهم قد ملئت قلوبهم إيماناً بالله وثقة به، وملئت أسماعهم بوعد الله إياهم النصر وأخيراً بقوله: {وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [البقرة: ١٩٤]

نبهوا على أن تعهد الله لهم بالتأييد والنصر لا يسقط عنهم أخذ
العدة المعروفة فلا يحسبوا أنهم غير مأمورين ببذل الوسع لوسائل
النصر التي هي أسباب ناط الله تعالى بها مسبباتها على حسب
الحكمة التي اقتضاها النظام الذي سنه الله في الأسباب ومسبباتها،
فتطلب المسببات دون أسبابها غلط وسوء أدب مع خالق الأسباب
ومسبباتها كي لا يكونوا كالذين قالوا لموسى: **{فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ
فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}** [المائدة: ٢٤] فالمسلمون إذا بذلوا
وسعهم، ولم يفرطوا في شيء ثم ارتبكوا في أمر بعد ذلك فالله
ناصرهم، ومؤيدهم فيما لا قبل لهم بتحصيله، ولقد نصرهم الله ببدر
وهم أذلة، إذ هم يومئذ جملة المسلمين وإذ لم يقصروا في شيء،
فأما أقوام يتلفون أموال المسلمين في شهواتهم، وَيُفْسِدُونَ الْقُرْصَ
وقت الأمن فلا يستعدون لشيء ثم يطلبون بعد ذلك من الله النصر
والظفر فأولئك قوم مغرورون، ولذلك يسلط الله عليهم أعداءهم
بتفريطهم. ولعله يتداركهم في خلال ذلك بلطفه فيما يرجع إلى
استبقاء الدين.

لا خلاف في أن الآية التالية نزلت في الحديبية سنة ست حين
صد المشركون المسلمين عن البيت، وقد كانوا ناوين العمرة وذلك

قبل أن يفرض الحج إذ كان الحج بيد المشركين فالمقصود من الكلام هو العمرة؛ وإنما ذكر الحج على وجه الإدماج تبشيرا بأنهم سيتمكنون من الحج فيما بعد، وهذا من معجزات القرآن.

{وَأَتِمُّوا الْحَجَّ} أصل الحج في اللغة: تكرر القصد إلى الشيء أو كثرة قاصديه، والحج من أشهر العبادات عند العرب وهو مما ورثوه عن شريعة إبراهيم عليه السلام كما حكى الله ذلك. بقوله: **{وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ}** [الحج: ٢٧] الآية حتى قيل: إن العرب هم أقدم أمة عرفت عندها عادة الحج، وهم يعتقدون أن زيارة الكعبة سعى لله تعالى، وكانوا يتجردون عند الإحرام من مخيط الثياب ولا يمسون الطيب ولا يقربون النساء ولا يصطادون، وكان الحج طوافا بالبيت وسعيا بين الصفا والمروة ووقوفا بعرفة ونحرا بمنى. وربما كان بعض العرب لا يأكل مدة الحج أقطا ولا سمنا أي لأنه أكل المترفهيين ولا يستظل بسقف، ومنهم من يحج متجردا من الثياب، ومنهم من لا يستظل من الشمس، ومنهم من يحج صامتا لا يتكلم، ولا يشربون الخمر في أشهر الحج.

{وَالْعُمْرَةَ} مشتقة من التعمير وهو شغل المكان ضد الإخلاء ولكنها بهذا الوزن لا تطلق إلا على زيارة الكعبة في غير أشهر

الحج، وهي معروفة عند العرب وكانوا يجعلون ميقاتها ما عدا أشهر ذي الحجة والمحرم وصفر، فكانوا يقولون "إذا برئ الدبر، وعفا الأثر، وخرج صفر، حلت العمرة لمن اعتمر". ولعلمهم جعلوا ذلك لتكون العمرة بعد الرجوع من الحج وإراحة الرواحل.

واصطلح المضربون على جعل رجب هو شهر العمرة ولذلك حرّمته مضر فلقب بـرجب مضر، وتبعهم بقية العرب، ليكون المسافر للعمرة آمناً من عدوه؛ ولذلك لقبوا رجباً «منصل الأسنة» ويرون العمرة في أشهر الحج فجوراً.

{لِلَّهِ} أي لأجل الله وعبادته، والعرب من عهد الجاهلية لا ينوون الحج إلا لله ولا العمرة إلا له، لأن الكعبة بيت الله وحرمه، فالتقييد هنا بقوله: {لِلَّهِ} تلويح إلى أن الحج والعمرة ليسا لأجل المشركين وإن كان لهم فيهما منفعة وكانوا هم سدنة الحرم، وهم الذين منعوا المسلمين منه، كي لا يسأم المسلمون من الحج الذي لا قوا فيه أذى المشركين فقليل: لهم إن ذلك لا يصد عن الرغبة في الحج والعمرة، لأنكم إنما تحجون لله لا لأجل المشركين، ولأن الشيء الصالح المرغوب فيه إذا حَفَّ به ما يكره لا ينبغي أن يكون

ذلك صارفا عنه، بل يجب إزالة ذلك العارض عنه، ومن طرق إزالته القتال المشار إليه بالآيات السابقة.

ويجوز أن يكون التقييد بقوله: {لله} لتجريد النية مما كان يخامر نوايا الناس في الجاهلية من التقرب إلى الأصنام، فإن المشركين لما وضعوا هبلا على الكعبة ووضعوا إسافا ونائلة على الصفا والمروة قد أشركوا بطوافهم وسعيهم الأصنام مع الله تعالى. وقد يكون القصد من هذا التقييد كلتا الفائدتين.

وقد يكون المعنى: أي أكملوه إن شرعتم فيه، فإتمامهما أن يحرم بهما من الميقات وأن يأتي بأركانهما وواجباتهما على الوجه المطلوب من الشارع، وأن يخلص فيهما لله تعالى.

{فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ} أحصر الرجل رد عن وجه يريده، والحصير معروف: وهو سقيف من بردى سمي بذلك لانضمام بعضه إلى بعض، كحبس الشيء مع غيره. قال تعالى: **{لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** [البقرة: ٢٧٣] أي منعهم الفقر من السفر للجهاد. والمعنى إن عجز الحاج أو المعتمر عن إتمام حجه أو عمرته إما بعدوا يصدّه عن دخول مكة أو مرض شديد لا يقدر معه على مواصلة السير إلى مكة

{فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ} الهدى ما يهدى إلى بيت الله تعالى تقرباً إليه، بمنزلة الهدية يهديها الإنسان إلى غيره، والمعنى ما تيسر له من الهدى شاة أو بقرة أو بعير، والمقصود من هذا تحصيل بعض مصالح الحج بقدر الإمكان، فإذا فاتت المناسك لا يفوت ما ينفع فقراء مكة ومن حولها.

ومن فوائد الآية: أن الحج، والعمرة يخالفان غيرهما في وجوب إتمام نفلهما؛ لقوله تعالى: {وَأَتَمُوا}؛ والأمر للوجوب؛ ويدل على أنه للوجوب قوله تعالى: **{فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}**، حيث أوجب الهدى عند الإحصار؛ أما غيرهما من العبادات فإن النفل لا يجب إتمامه؛ فروى مسلم عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - قالت: دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ: (هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟) فَقُلْنَا: لَا. قَالَ: (فَإِنِّي إِذْنٌ صَائِمٌ) ثُمَّ أَتَانَا يَوْمًا آخَرَ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَهْدِي لَنَا حَيْسٌ [التمر مع السمن والأقط وهو اللبن المجفف] فَقَالَ: (أَرَيْنِيهِ فَلَقَدْ أَصْبَحْتُ صَائِمًا) فَأَكَلَ؛ لكن يكره قطع النفل إلا لغرض صحيح - كحاجة إلى قطعه، أو انتقال لما هو أفضل منه.

فإن قال قائل: هل يؤكل من هذا الهدى أم لا؟

فالجواب: يؤكل؛ كل شيء فيه: {فما استيسر} فهو يؤكل؛ وأما ما في: «فعليه» فإنه لا يؤكل؛ فجزاء الصيد لا يؤكل منه؛ وفدية الأذى لا يؤكل منها؛ لأن الله جعلها كفارة؛ أما ما استيسر من الهدى هنا، وفي التمتع فإنه يؤكل منه.

{وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ} لا يتحلل المحصر من إحرامه حتى يذبح ما تيسر له من الهدى، فإن ذبح تحلل بحلق رأسه، فإن لم يجد هديا يقوم الهدى بالدراهم، ويشتري بها طعام.

ثم يستحب له القضاء من قابل إن تيسر ذلك، لأن الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قضى هو وأصحابه العمرة التي صدوا فيها عن المسجد الحرام عام الحديبية.

قال ابن عثيمين: المحصر لا يجب عليه القضاء؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يذكره؛ ولو كان القضاء واجباً لذكره الله عز وجل؛ وهذا يشمل من حصر في فريضة؛ ومن حصر في نافلة؛ لكن الفريضة إذا حصر عن إتمامها يلزمه فعلها بالخطاب الأول؛ لا على أنه بدل عن هذه التي أحصر عنها؛ فمثلاً رجلاً شرع في حج الفريضة، ثم أحصر عن إتمامها، فذبح الهدى، وتحلل؛ فيجب

الحج عليه بعد ذلك؛ لكن ليس على أنه قضاء؛ لكن على أنه مخاطب به في الأصل؛ وتسمية العمرة التي وقعت بعد صلح الحديبية «عمرة القضاء» ليست لأنها قضاء عما فات؛ ولكنها من «المقاضاة» - وهي المصالحة -؛ ولذلك لم يأت بها كل من تحلل من عمرة الحديبية.

{فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ}
ثلاثة أيام **{أَوْ}** للتخير **{صَدَقَةٌ}** ما أعطي من مال بلا عوض تقريباً إلى الله تعالى **{أَوْ نُسْكَ}** أصل النسك: سبائك الفضة الخالصة، كل سبيكة منها نسكة، ثم قيل للمتعبد: ناسك لأنه خلص نفسه من دنس الآثام وصفهاها، كالنسيكة المخلصة من الدنس، ثم قيل للذبيحة الذبيحة المتقرب بها لله: نسك، لأنها من أشرف العبادات التي تتقرب بها إلى الله تعالى.

والمعنى: فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه واضطر إلى حلق شعر رأسه أو لبس ثوب أو تغطية رأس فالواجب بعد أن يفعل ذلك فدية وهي واحد من ثلاثة على التخير: صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام، أو ذبح شاة.

عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- زَمَنَ الْحُدَيْبِيَّةِ وَنَحْنُ مُحْرَمُونَ وَقَدْ حَالَ الْمُشْرِكُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْبَيْتِ وَلِي وَفَرَةً فَجَعَلَ الْقَمْلُ يَتَنَاثَرُ عَلَيَّ، أَوْ قَالَ: عَلَى وَجْهِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (يُؤْذِيكَ هَوَامُّكَ؟) قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: (فَاخْلِقْ رَأْسَكَ وَصُمْ ثَلَاثَةَ

أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، أَوْ انْسُكْ نُسْكًَا) [مسند الطيالسي]
وفي البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْقِلٍ قَالَ جَلَسْتُ إِلَى كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فَسَأَلْتُهُ عَنِ الْفِدْيَةِ فَقَالَ نَزَلَتْ فِيَّ خَاصَّةً وَهِيَ لَكُمْ عَامَّةٌ حُمِلْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَالْقَمْلُ يَتَنَاثَرُ عَلَى وَجْهِي فَقَالَ: (مَا كُنْتُ أَرَى الْوَجَعَ بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى أَوْ مَا كُنْتُ أَرَى الْجَهْدَ [المشقة] بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى، تَجِدُ شَاءَةً؟) فَقُلْتُ لَا. فَقَالَ: (فَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ لِكُلِّ مَسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ).

ومن لطائف القرآن ترك التصريح بما هو مردول من الألفاظ لقوله: {أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ}.

ومن فوائد الآية: أن محظورات الإحرام لا تفسده؛ لأن الله لم يوجب في حلق الرأس - مع أنه من محظورات الإحرام - إلا الفدية؛

ومقتضى ذلك أن النسك صحيح؛ وهذا مما يخالف الحج والعمرة فيه غيرهما من العبادات؛ فإن المحظورات في العبادات تبطلها؛ وألحق العلماء بفدية حلق الرأس فدية جميع محظورات الإحرام ما عدا شيئين؛ وهما الجماع في الحج قبل التحلل الأول، وجزاء الصيد؛ فالجماع في الحج قبل التحلل الأول يجب فيه بدنة؛ وجزاء الصيد يجب فيه مثله؛ أو إطعام مساكين؛ أو عدل ذلك صياماً؛ وما عدا ذلك من المحظورات ففديتها كفدية حلق الرأس عند الفقهاء، أو كثير منهم.

{فَإِذَا أَمِنْتُمْ} من الإحصار بعدو أو مرض **{فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ}** أي إلى ابتداء زمن الحج؛ وهو اليوم الثامن من ذي الحجة **{فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ}** أي فمن أحرم بعمرة في أشهر الحج وتحلل وبقي في مكة ينتظر الحج وحج فعلاً فالواجب ما استيسر من الهدي، وهذا رخصة من الله تعالى، إذ أباح العمرة في مدة الحج بعد أن كان ذلك محظور في عهد الجاهلية إذ كانوا يرون العمرة في أشهر الحج من أعظم الفجور.

{فَمَنْ لَمْ يَجِدْ} الهدي أو ثمنه **{فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ}** أي فمن تمتع بالعمرة ولم يجد هدياً لعجزه عنه،

فالواجب صيام عشرة أيام، ثلاثة في مكة -من أول شهر الحجة إلى يوم التاسع منه- وسبعة أيام إذا رجع إلى بلاده {تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ} للتأكيد على أن هذه الأيام العشرة وإن كانت مفرقة فهي في حكم المتابعة {ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ} سكنه، أي الذين يسكن إليهم من زوجة، وأب، وأم، وأولاد {حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} ذي الحرمة، والمراد بهم أهل الحرم المكي .. فالتمتع بالعمرة إلى الحج خاص بأهل الآفاق، أما أهل مكة فلا شيء عليهم إذا تمتعوا.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ} وصاية بالتقوى بعد بيان الأحكام التي لا تخلوا من مشقة للتحذير من التهاون بها، فالأمر بالتقوى عام، وكون الحج من جملة ذلك هو من جملة العموم وهو أجدر أفراد العموم، ولأن الكلام فيه.

{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} أي شديد المؤاخذة، وسميت المؤاخذة عقاباً؛ لأنها تأتي عقب الذنب.

وافتح بقوله: {وَاعْلَمُوا} اهتماماً بالخبر فلم يقتصر بأن يُقال: {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: ٢] فإنه لو اقتصر عليه لَحَصَلَ العلم المطلوب، لأن العلم يحصل من الخبر، ولكن

لما أريد تحقيق الخبر افتح بالأمر بالعلم، لأنه في معنى تحقيق الخبر، كأنه يقول: لا تشكوا في ذلك، فأفاد مفاد «إِنَّ»

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ
وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ
اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ
(١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا
أَفْضَيْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ
(١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا
اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا
آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ
مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً
وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا
وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ

مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ
فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ (٢٠٣)

{الحج} ذو **{أشهر}** جمع قلة، والمراد شهران وكسر. هي
شوال وذو القعدة وعشر ليال من الحجة، تغليباً لأكثر الزمان على
أقله. وقيل: بل كل شهر ذي الحجة.

قال ابن عاشور: يحتمل أن يكون تمهيدا لقوله: **{فلا رَفَثٌ وَلَا
فُسُوقٌ}** تهوينا لمدة ترك الرفث والفسوق والجدال، لصعوبة ترك
ذلك على الناس، ولذلك قللت بجمع القلة، فهو نظير ما روى
مالك في "الموطأ": أن عائشة قالت لعروة بن الزبير: "يا ابن أختي
إنما هي عشر ليال فإن تخلج في نفسك شيء فدعه". تعنى أكل
لحم الصيد.

{مَعْلُومَاتٌ} معروفات عند الناس، وأن مشروعية الحج فيها
إنما جاءت على ما عرفوه وكان مقرراً عندهم من شريعة إبراهيم
عليه السلام .. وهذه هي المدة التي يحرم فيها بالحج، عكس
العمرة فلا وقت لها معلوم.

{فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ} نوى الحج وأحرم به، والفرض هنا هو «الإحرام»، وقد أجمع العلماء على أن الضمير في {فِيهِنَّ} يرجع إلى بعضهن؛ لأنه لا يمكن أن يفرض الحج بعد طلوع الفجر يوم النحر؛ ويفرض الحج من أول ليلة من شوال إلى ما قبل طلوع الفجر يوم النحر بزمن يتمكن فيه من الوقوف بعرفة

{فَلَا رَفَثَ} الجماع ودواعيه **{وَلَا فُسُوقَ}** المعاصي، لاسيما ما يختص بالنسك، كمحظورات الإحرام. وأصل الفسق الخروج من طاعة الله بترك واجب أو فعل حرام، والفسق حرام مطلقاً إلا أنه تتأكد حرمة في حق المحرم أكثر من غيره **{وَلَا جِدَالَ}** المخاصمة والمنازعة الشديدة للتغالب وحظ النفس حتى يغضب خصمه، مشتق من «الجدالة» وهي الأرض. كأن كل واحد من الخصمين يقاوم صاحبه حتى يغلبه سقوطاً إلى الأرض **{فِي الْحَجِّ}** قال أهل المعاني: ظاهر الآية نفي، ومعناها نهي. مبالغة في النهي عنها وإبعادها عن الحاج.. أي: فلا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا، كقوله تعالى: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ}** [البقرة: ٢] أي: لا ترتابوا فيه.

وإن كان منهيّاً عنها في غير الحج، فإنما خص بالذكر في الحج تعظيماً لحرمة الحج، ولأن التلبس بالمعاصي في مثل هذه

الحال من التشهير، لفعل هذه العبادة، أفحش وأعظم منه في غيرها، ألا ترى إلى قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في حق الصائم: (فلا يرفث ولا يجهل، فَإِنْ جَهِلَ عَلَيْهِ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ؟) وإلى قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وقد صرف وجه الفضل بن العباس عن ملاحظة النساء في الحج: (يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ هَذَا يَوْمٌ مَنْ مَلَكَ فِيهِ سَمِعَهُ وَبَصَرَهُ وَلِسَانَهُ غُفِرَ لَهُ) [أبو داود] ومعلوم خطر ذلك في غير ذلك اليوم، ولكنه خصه بالذكر تعظيماً لحرمته.

ومن فوائد الآية: تعظيم شأن الحج، حيث جعل الله له أشهراً مع أنه أيام - ستة أيام -؛ وقد جعل الله له أشهراً ثلاثة حتى يأمن الناس، ويتأهبوا لهذا الحج؛ ولهذا ما بعد الحج أقصر مما قبله؛ الذي قبله: شهران وسبعة أيام؛ والذي بعده: سبعة عشر يوماً فقط؛ لأنه إذا حج انتهى غرضه؛ فطلب منه العودة؛ بخلاف ما إذا كان قبله.

قال ابن عثيمين: ومن فوائد الآية أيضاً: أن أشهر الحج ثلاثة؛ لقوله تعالى: {أشهر}؛ وهي جمع قلة؛ والأصل في الجمع أن يكون ثلاثة فأكثر؛ هذا المعروف في اللغة العربية؛ ولا يطلق الجمع على اثنين، أو اثنين وبعض الثالث إلا بقريئة؛ وهنا لا قريئة تدل على

ذلك؛ لأنهم إن جعلوا أعمال الحج في الشهرين وعشرة الأيام يرد عليه أن الحج لا يبدأ فعلاً إلا في اليوم الثامن من ذي الحجة؛ وينتهي في الثالث عشر؛ وليس العاشر؛ فلذلك كان القول الراجح أنه ثلاثة أشهر كاملة؛ وهو مذهب مالك؛ وهو الصحيح؛ لأنه موافق للجمع؛ وفائدته أنه لا يجوز تأخير أعمال الحج إلى ما بعد شهر ذي الحجة إلا لعذر؛ لو أخرت طواف الإفاضة مثلاً إلى شهر المحرم قلنا: هذا لا يجوز؛ لأنه ليس في أشهر الحج والله تعالى يقول: {الحج أشهر}؛ فلا بد أن يقع في أشهر الحج؛ ولو أخرت الحلق إلى المحرم فهذا لا يجوز؛ لأنه تعدى أشهر الحج.

{وَمَا تَفْعَلُوا} التفات، بالخروج من غيبة إلى خطاب **{مِنْ خَيْرٍ}** **يَعْلَمُهُ اللَّهُ** عقب به بعد النهي عن المنهيات لقصد الاتصاف بأضداد تلك المنهيات فكأنه قال: لا تفعلوا ما نهيتكم عنه وافعلوا الخير فما تفعلوا يعلمه الله، وأطلق علم الله وأريد لازمه وهو المجازاة على المعلوم. أي فيجازيكم به، وفيه استحباب فعل الخيرات للحاج أثناء حجه ليعظم أجره ويبر حجه.

وخص الخير، وإن كان تعالى عالماً بالخير والشر، حثاً على فعل الخير، ولأن ما سبق من ذكر فرض الحج، وهو خير، ولأن

نستبدل بتلك المنهيات أصدادها، فنستبدل بالرفث الكلام الحسن والفعل الجميل، وبالفسوق الطاعة، والجدال الوفاق، ولأن يكثر رجاء وجه الله تعالى، ولأن يكون وعداً بالثواب.

{وَتَزَوَّدُوا} التزود مستعار للاستكثار من فعل الخير استعداداً ليوم الجزاء، شبه بإعداد المسافر الزاد لسفره بناءً على إطلاق اسم السفر والرحيل على الموت **{فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}** أمر بالتزود لسفر العبادة والمعاش، وزاده الطعام والشراب والمركب والمال، وبالتزود لسفر المعاد، وزاده تقوى الله تعالى؛ وهذا الزاد خير من الزاد الأول لقوله: **{فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى}** وذكر التزود من الأعمال الصالحة في الحج، لأنه أحق شيء بالاستكثار من أعمال البر فيه لمضاعفة الثواب عليه.

قال ابن عاشور: ويجوز أن يستعمل التزود مع ذلك في معناه الحقيقي على وجه استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه فيكون أمراً بإعداد الزاد لسفر الحج تعريضاً بقوم من أهل اليمن كانوا يجيئون إلى الحج دون أي زاد ويقولون نحن متوكلون على الله فيكونون كلاً على الناس بالإلحاف.

وكانوا يقولون: كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا؟! وكانوا يقدمون مكة بشيائهم التي قطعوا بها سفرهم بين اليمن ومكة فيطوفون بها، وكان بقية العرب يسمونهم الطلس، لأنهم يأتون طلساً من الغبار.

{وَاتَّقُونَ} هذا أمر بخوف الله تعالى، والتحذير من ارتكاب ما تحل به عقوبته، وهو بمنزلة التأكيد لقوله: **{فَإِنَّ خَيْرَ الْزَّادِ التَّقْوَى}**

{يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} جمع لب وهو العقل، واللب من كل شيء: الخالص منه. تحريكاً لامثال الأمر بالتقوى، لأنه لا يحذر العواقب، إلا مَنْ كان ذا لبٍّ، فهو الذي تقوم عليه حجة الله، وهو القابل للأمر والنهي، وإذا كان ذو اللب لا يتقي الله، فكأنه لا لب له.

ومن فوائد الآية: أنه كلما نقص الإنسان من تقوى الله كان ذلك دليلاً على نقص عقله - عقل الرشد؛ بخلاف قول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (ما رأيت من ناقصات عقل ودين)؛ فإن المراد بنقص العقل هنا عقل الإدراك؛ فإن مناط التكليف عقل الإدراك؛ ومناط المدح عقل الرشد؛ ولهذا نقول: إن هؤلاء الكفار الأذكياء الذين هم في التصرف من أحسن ما يكون؟ نقول: هم عقلاء عقول

إدراك؛ لكنهم ليسوا عقلاء عقول رشد؛ ولهذا دائماً ينعى الله عليهم
عدم عقلهم؛ والمراد عقل الرشد الذي به يرشدون

{لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ} إثم {أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً} مال الربح من
التجارة **{مَنْ رَبَّكُمْ}** أي تطلبوا ربحاً من التجارة في الحج، وعنى
بالفضل هنا الأرباح التي تكون بسبب التجارة، وكذلك ما تحصل
عن الأجر بالكراء في الحج، وهذا لدفع توهم أن من يشتغل
بالعبادة لا يناسبه أن لا يشغل نفسه بالأكساب الدنيوية.

وعن ابن عباس: كَانَتْ عُكَاظُ وَمَجَنَّةٌ وَذُو الْمَجَازِ أسواقاً في
الجاهلية، فَتَأْتَمُّوا أَنْ يَتَجَرُّوا في المواسم فنزلت: **{لَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ}** في مواسم الحج أهـ. أي قراها
ابن عباس بزيادة في مواسم الحج.

وقد كانت سوق عُكَاظَ تَفْتَحُ مُسْتَهْلَ ذِي الْقَعْدَةِ وتدوم عشرين
يوماً وفيها تباع نفائس السلع وتتفاخر القبائل ويتبارى الشعراء، فهي
أعظم أسواق العرب وَكَانَ مَوْقِعُهَا بَيْنَ نَخْلَةٍ وَالطَّائِفِ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ
مِنْ عُكَاظَ إِلَى مَجَنَّةَ ثُمَّ إِلَى ذِي الْمَجَازِ، وَالْمَظْنُونُ، أَنَّهُمْ يَقْضُونَ
بَيْنَ هَاتَيْنِ السُّوقَيْنِ بَقِيَّةَ شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ.

{فَإِذَا أَفْضُتُمْ} الانخراط والاندفاع والخروج من المكان بكثرة، فالإفاضة: الخروج بسرعة وأصلها من فاض الماء إذا كثر على ما يحويه فبرز منه وسال.

وسموا الخروج من عرفة إفاضة لأنهم يخرجون في وقت واحد وهم عدد كثير فتكون لخروجهم شدة، وكانوا يجعلون في دفعهم ضوضاء وجلبة وسرعة سير فنهاهم النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن ذلك في حجة الوداع وقال: (لَيْسَ الْبِرُّ بِالْإِيضَاعِ [السير السريع] فَإِذَا أَفْضُتُمْ فَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ) [أحمد بن حنبل].

{مَنْ عَرَفَاتٍ} اسم واد خارج الحرم فهو (مشعر حلال)، وفي وسط وادي عرفة جُبَيْلٌ يقف عليه ناس ممن يقفون بعرفة ويخطب عليه الخطيب بالناس يوم تاسع ذي الحجة عند الظهر، ووقف عليه النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- راكبا يوم عرفة، وَبُنِيَ فِي أَعْلَى ذَلِكَ الْجَبِيلِ عِلْمٌ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي وَقَفَ فِيهِ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فيقف الأئمة يوم عرفة عنده.

والإفاضة تكون بعد غروب الشمس من يوم التاسع من شهر الحجة، ووقت الوقوف بعرفة من زوال شمس يوم عرفة إلى طلوع الفجر من يوم النحر بلا خلاف، وأجمعوا على أن من وقف بالليل

فحجه تام، ولو أفاض قبل الغروب، وكان وقف بعد الزوال، فأجمعوا على أن حجة تام، إلا مالكا فقال: يبطل حجه.

قال ابن عاشور: والتَّصْرِيحُ بِاسْمِ (عَرَفَاتٍ) فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلرَّدِّ عَلَى قُرَيْشٍ إِذْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَقْفُونَ فِي (جَمْعٍ) وَهُوَ الْمُزْدَلِفَةُ لِأَنَّهُمْ حُمُسٌ، فَيَرَوْنَ أَنَّ الْوُقُوفَ لَا يَكُونُ خَارِجَ الْحَرَمِ، وَلَمَّا كَانَتْ مُزْدَلِفَةُ مِنَ الْحَرَمِ كَانُوا يَقْفُونَ بِهَا وَلَا يَرْضَوْنَ بِالْوُقُوفِ بِعَرَفَةَ، لِأَنَّ عَرَفَةَ مِنَ الْحِلِّ.

وقال أيضا: وَقَدْ كَانَتِ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا يُفِيضُونَ مِنْ عَرَفَةَ إِلَى الْمُزْدَلِفَةِ حَتَّى يُجِيزَهُمْ أَحَدُ (بَنِي صُوفَةَ) وَهُمْ بَنُو الْغَوْثِ بْنِ مُرَّ بْنِ أَدَّ بْنِ طَابِخَةَ بْنِ إِيَّاسَ بْنِ مُضَرٍّ وَكَانَتْ أُمُّهُ جُرْهُمِيَّةً، لُقِّبَ الْغَوْثُ بِصُوفَةَ لِأَنَّ أُمَّهُ كَانَتْ لَا تَلِدُ فَتَذَرَتْ إِنْ هِيَ وَلَدَتْ ذَكَرًا أَنْ تَجْعَلَهُ لِحَدَمَةِ الْكَعْبَةِ فَوَلَدَتْ الْغَوْثَ وَكَانُوا يَجْعَلُونَ صُوفَةَ يَرْبُطُونَ بِهَا شَعْرَ رَأْسِ الصَّبِيِّ الَّذِي يَنْذُرُونَهُ لِحَدَمَةِ الْكَعْبَةِ وَتُسَمَّى الرِّبِيطُ، فَكَانَ الْغَوْثُ يَلِي أَمْرَ الْكَعْبَةِ مَعَ أَخْوَالِهِ مِنْ جُرْهُمٍ فَلَمَّا غَلَبَ قُصَيُّ بْنُ كِلَابٍ عَلَى الْكَعْبَةِ جَعَلَ الْإِجَازَةَ لِلْغَوْثِ ثُمَّ بَقِيَتْ فِي بَنِيهِ حَتَّى انْقَرَضُوا، وَقِيلَ إِنَّ الَّذِي جَعَلَ أَبْنَاءَ الْغَوْثِ لِإِجَازَةِ الْحَاجِّ هُمْ مُلُوكُ كِنْدَةَ، فَكَانَ الَّذِي يُجِيزُ بِهِمْ مِنْ عَرَفَةَ يَقُولُ:

لَا هُمْ إِنِّي تَابِعُ تِبَاعَهُ ... إِنْ كَانَ إِثْمٌ فَعَلَى قُضَاعِهِ
لِأَنَّ قُضَاعَةً كَانَتْ تُحِلُّ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ، وَلَمَّا انْقَرَضَ أَبْنَاءُ صُوفَةٍ
صَارَتْ الْإِجَازَةُ لِبَنِي سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاءَةَ بْنِ تَمِيمٍ وَرِثُوهَا بِالْقُعْدِ
فَكَانَتْ فِي آلِ صَفْوَانَ مِنْهُمْ وَجَاءَ الْإِسْلَامُ وَهِيَ بَيْدِ كَرِبِ بْنِ
صَفْوَانَ.

{فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ} "المشعر" اسم مشتق من
الشُّعُورِ أَيِ الْعِلْمِ، أَوْ مِنَ الشَّعَارِ أَيِ الْعَلَامَةِ، لِأَنَّهُ أُقِيمَتْ فِيهِ عَلَامَةٌ
كَالْمَنَارِ مِنْ عَهْدِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَعَلَّهُمْ فَعَلُوا ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَدْفَعُونَ مِنْ
عَرَفَاتِ آخِرِ الْمَسَاءِ فَيُذَكِّرُهُمْ غُبُسُ مَا بَعْدَ الْغُرُوبِ وَهُمْ جَمَاعَاتُ
كَثِيرَةٍ فَخَشُوا أَنْ يَضِلُّوا الطَّرِيقَ فَيَضِيقَ عَلَيْهِمُ الْوَقْتُ.
ووصف المشعر بوصف "الحرام" لأنه من أرض الحرم بخلاف
عرفات فهي مشعر حلال.

والمشعر الحرام هو "المزدلفة"، سميت مزدلفة لأنها ازدلفت
من منى أي اقتربت؛ فيبيتون بها قاصدين التصبيح في منى. ويقال
للمزدلفة أيضا "جمع" لأن جميع الحجاج يجتمعون في الوقوف
بها، الْحُمْسُ وغيرهم من عهد الجاهلية.

وتسمى المزدلفة أيضا "قُزَحَ"، باسم قَرْنِ جبل بين جبال من طرف مزدلفة ويقال له: المِيقَدَةُ لأن العرب في الجاهلية كانوا يوقدون عليه النيران، وهو موقف قريش في الجاهلية.

وموقف الإمام في المزدلفة على قُزَحَ. روى أبو داود والترمذي أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لما أصبح بجمع أتى قُزَحَ فوقف عليه وقال: (هَذَا قُزَحُ وَهُوَ الْمَوْقِفُ وَجَمَعَ كُلُّهَا مَوْقِفٌ)

وحديث جابر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، لما صلى الفجر -يعني بالمزدلفة-، بغلس ركب ناقته حتى أتى المشعر الحرام، فدعا وكبر وهلل، ولم يزل واقفاً حتى أسفر.

ولم تتعرض الآية لكيفية الذكر بالمزدلفة، لا على أنه الدعاء ولا الصلاة بها، وإنما هذا أمر بالذكر عند جبل قُزَحَ الذي ركب إليه رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فدعا عنده وكبر وهلل، ووقف بعد صلاته الصبح بالمزدلفة بغلس حتى أسفر، ويكون ثم جملة محذوفة التقدير: فإذا أفضتم من عرفات، ونتمتم بالمزدلفة، فاذكروا الله عند المشعر الحرام... ومطلق الأمر بالذكر لا يدل على ذكر مخصوص.

{وَاذْكُرُوهُ} هذا الأمر الثاني هو الأول، وكرر على سبيل التوكيد والمبالغة في الأمر بالذكر، لأن الذكر من أفضل العبادات **{كَمَا هَدَاكُمْ}** الكاف هنا للتعليل كما في التشهد (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم...) (..)

وإن جعلناها للتشبيه فالمعنى: اذكروه على الوجه الذي هداكم له؛ فيستفاد منها أن الإنسان يجب أن يكون ذكره لله على حسب ما ورد عن الله عز وجلّ.

والمعنى: أوجدوا الذكر على أحسن أحواله من مماثلته لهداية الله لكم، إذ هدايته إياكم أحسن ما أسدي إليكم من النعم، فليكن الذكر من الحضور والديمومة في الغاية حتى تماثل إحسان الهداية، ولهذا المعنى قال الزمخشري: "أذكروه ذكراً حسناً كما هداكم هداية حسنة".

{وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ} المراد ضلالهم في الجاهلية بعبادة الأصنام وتغيير المناسك وغير ذلك.

{ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} روت عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - أن قريشا ومن والاهما من كنانة وجديلة وقيس، كانوا يقفون بالمزدلفة ترفعا عن الوقوف مع الناس في عرفات،

وكانوا يسمون بالحُمس [أي الشديدي التصلب في الدين] أما سائر العرب فتقف في عرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه الكريم أن يأتي عرفات ثم يقف بها مع الناس، ثم يفيض منها.

وروى الطبري عن ابن أبي نَجِيحٍ قال: كانت قريش -لا أدري قبل الفيل أم بعده- ابتدعت أمر الحُمس رأيا قالوا: نحن ولاة البيت وقاطنوا مكة فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلنا، فلا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم، يعني لأن عرفة من الحل فإنكم إن فعلتم ذلك استخفت العرب بحرمكم وقالوا: قد عظموا من الحل مثل ما عظموا من الحرم، فلذلك تركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها، وكانت كِنَانَةٌ وَخَزَاعَةٌ قد دخلوا معهم في ذلك اهـ. يعني فكانوا لا يفيضون إلا إفاضة واحدة بأن ينتظروا الحجيج حتى يردوا من عرفة إلى مزدلفة فيجتمع الناس كلهم في مزدلفة ولعل هذا وجه تسمية مزدلفة بجمع، لأنها يجمع بها الحُمس وغيرهم في الإفاضة فتكون الآية قد ردت على قريش الاقتصار على الوقوف بمزدلفة.

{وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ} أمرهم بالاستغفار في مواطن مظنة القبول، وأماكن الرحمة، وهو طلب الغفران من الله باللسان مع التوبة بالقلب، إذ الاستغفار باللسان دون التوبة بالقلب غير نافع وفي الأمر بالاستغفار عقب الإفاضة، أو معها، دليل على أن ذلك الوقت، وذلك المكان المفاض منه، والمذهوب إليه من أزمان الإجابة وأماكنها، والرحمة والمغفرة.

وقد روي أنه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خطب عشية عرفة فقال: (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ تَطَاوَلَ عَلَيْكُمْ فِي مَقَامِكُمْ هَذَا فَقَبِلَ مِنْ مُحْسِنِكُمْ وَأَعْطَى مُحْسِنَكُمْ مَا سَأَلَ، وَوَهَبَ مُسِيئَكُمْ لِمُحْسِنِكُمْ إِلَّا التَّيَبَاتِ فِيمَا بَيْنَكُمْ أَفِيضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ فَلَمَّا كَانَ غَدَاةَ جَمْعٍ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ تَطَاوَلَ عَلَيْكُمْ فِي مَقَامِكُمْ هَذَا فَقَبِلَ مِنْ مُحْسِنِكُمْ وَأَعْطَى مُحْسِنَكُمْ مَا سَأَلَ وَوَهَبَ مُسِيئَكُمْ لِمُحْسِنِكُمْ، وَالتَّيَبَاتِ فِيمَا بَيْنَكُمْ ضَمِنَ عَوْضًا مِنْ عِنْدِهِ أَفِيضُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَضْتَ بِنَا بِالْأَمْسِ كَثِيرًا حَزِينًا، وَأَفَضْتَ بِنَا الْيَوْمَ فَرِحًا مَسْرُورًا قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي شَيْئًا بِالْأَمْسِ لَمْ يَجِدْ لِي بِهِ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الثَّانِي أَتَانِي جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ،

فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَقَرَّ عَيْنَكَ بِالتَّبَعَاتِ). [حديث غريب:
حلية الأولياء]

ومن الفوائد: أنه يشرع أن يستغفر الله عز وجل في آخر
العبادات؛ لقوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ}.

{إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} هذا كالسبب في الأمر بالاستغفار، وهو
أنه تعالى كثير الغفران، كثير الرحمة، وهاتان الصفتان للمبالغة.

{فَإِذَا قُضِيَّتُمْ} أدبتم وفرغتم {مَنَاسِكُكُمْ} «النسك» بمعنى
العبادة؛ وهو كل ما يتعبد به الإنسان لله؛ ولكن كثر استعماله في
الحج؛ وفي الذبح؛ ومنه قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي
وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام: ١٦٢].

والمقصود هنا شعائر الحج، بأن رموا جمرة العقبة ونحروا
وطافوا طواف الإفاضة واستقروا بمنى للراحة والاستجمام.

{فَاذْكُرُوا اللَّهَ} فالإنسان ينبغي له إذا قضى من العبادة أن لا
يغفل بعدها عن ذكر الله، كقوله تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ
فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ} [الجمعة: ١٠]

{كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا} يشمل الشدة في الهيئة،

وحضور القلب، والإخلاص؛ والشدة في الكثرة أيضاً؛ فيذكر الله ذكراً كثيراً، ويذكره ذكراً قوياً مع حضور القلب.

فيكثروا من ذكر الله تعالى عند رمي الجمرات بالتكبير، وعند الخروج من الصلوات ذكراً مبالغاً في الكثرة منه على النحو الذي كانوا في الجاهلية يذكرون فيه مفاخر آبائهم وأحساب أجدادهم.

قال ابن عباس: إن العرب في الجاهلية كانوا يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الديات . . . إلخ ليس لهم هم غير ذكر فعال آبائهم.

وقال السدي: كانوا إذا قضوا المناسك وأقاموا بمنى يقوم الرجل ويسأل الله فيقول: اللهم إن أبي كان عظيم الجفنة، كثير المال فأعطني بمثل ذلك! ليس يذكر الله، إنما يذكر أباه ويسأل الله أن يعطيه في دنياه.

{فَمِنْ النَّاسِ} «من» للتبويض؛ والمعنى: بعض الناس؛ بدليل

أنها قوبلت بقوله تعالى: {ومنهم}؛ فيكون المعنى: بعضهم كذا؛ وبعضهم كذا؛ وهذا من باب التقسيم؛ يعني: ينقسم الناس في أداء العبادة **{مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا}** فلا يسأل إلا ما يكون في

ترف دنياه فقط، بلسان المقال كطلب مال أو جاه أو غيره، وربما يقوله بلسان الحال لا بلسان المقال؛ لأنه إذا دعا في أمور الدنيا أحضر قلبه، وأظهر فقره؛ وإذا دعا بأمور الآخرة لم يكن على هذه الحال **{وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ}** نصيب وحظ.

{وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً} كل ما يسر ولا يضر، والإنسان لا يذم إذا طلب حسنة الدنيا مع حسنة الآخرة **{وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ}** النجاة من النار ودخول الجنان **{وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}** لأن حصول الحسنة في الآخرة قد يكون بعد عذاب ما فأريد التصريح في الدعاء بطلب الوقاية من النار.

فهي جامعة للخيرين معاً، فكان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا طاف بالبيت يختم بها كل شوط، يقولها فيما بين الركن اليماني والحجر الأسود.

وهذا تقسيم للمأمورين بالذكر بعد الفراغ من المناسك، وأنهم ينقسمون في السؤال إلى من يغلب عليه حب الدنيا، فلا يدعو إلاّ بها، ومنهم من يدعو بصلاح حاله في الدنيا والآخرة، وإن هذا من الالتفات. ولو جاء على الخطاب لكان: فمنكم من يقول: ومنكم.

{أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ} حظ **{مِّمَّا كَسَبُوا}** كسبوا بمعنى طلبوا،
لأن كسب بمعنى طلب ما يرغب فيه.

{وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} لكونه لا يحتاج إلى فكر، ولا رؤية
كالعاجز. أو: لما علم ما للمحاسب وما عليه قبل حسابه. وفيه
التبشير بسرعة حصول مطلوبهم بطريق العموم.

وهذا وعد من الله تعالى بإجابة دعاء المسلمين الداعين في
تلك المواقف المباركة إلا أنه وعد بإجابة شيء مما دعوا به بحسب
ما تقتضيه أحوالهم وحكمة الله تعالى، وبألا يجر إلى فساد عام لا
يرضاه الله تعالى فلذلك نكر {نصيب} ليصدق بالقليل والكثير،
وأما إجابة الجميع إذا حصلت فهي أقوى وأحسن.

{وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ} أيام منى، وهي ثلاثة أيام بعد
يوم النحر [١١-١٢-١٣ ذي الحجة]، يقيم الناس فيها بمنى
وتسمى أيام التشريق، لأن الناس يقددون فيها اللحم، والتقدير
تشريق، والذكر هو عند رمي الجمرات بالتكبير، وأما المطلق وعقب
الصلوات يقولون: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله
أكبر والله الحمد (ثلاث مرات) إلى عصر اليوم الثالث من أيام
التشريق

قال ابن عثيمين: والذكر هنا يشمل كل ما يتقرب به إلى الله عز وجل من قول أو فعل في هذه الأيام؛ فيشمل التكبير في تلك الأيام مطلقاً، ومقيداً؛ والنحر من الضحايا، والهدايا؛ ورمي الجمار؛ والطواف، والسعي إذا وقعا في هذه الأيام؛ بل والصلاة المفروضة، والتطوع؛ وقد قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوْفُ بِالْبَيْتِ وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَرَمِي الْجِمَارِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) [أحمد عن عائشة]، وقال: (أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ) [أحمد].

وإنما أمروا بالذكر في هذه الأيام، لأن أهل الجاهلية كانوا يشغلونها بالتفاخر ومغازلة النساء، لأنهم كانوا يرون أن الحج قد انتهى بانتهاء العاشر، بعد أن أمسكوا عن ملاذهم مدة طويلة فكانوا يعودون إليها.

والآية تدل على أن الإقامة في منى في الأيام المعدودات واجبة فليس للحاج أن يبيت في تلك الليالي إلا في منى، ومن لم يبيت في منى فقد أخل بواجب فعليه هدي، ولا يرخص في المبيت في غير منى إلا لأهل الأعمال التي تقتضي المغيب عن منى، فقد رخص النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- للعباس المبيت بمكة لأجل

أنه على سقاية زمزم، ورخص لرعاء الإبل من أجل حاجتهم إلى رعي الإبل في المراعي البعيدة عن منى، وذلك كله بعد أن يرموا جمرة العقبة يوم النحر ويرجعوا من الغد فيرمون، ورخص للرعاء الرمي بليل، ورخص الله في هذه الآية لمن تعجل إلى وطنه أن يترك الإقامة بمنى.

{فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ} نفر من منى بعد رمى يوم الأول والثاني [أي ترك ثالث أيام العيد يوم ١٣ ذي الحجة] قبل غروب الشمس في اليوم الثاني، على قول الأئمة الثلاثة، وقبل فجر اليوم الثالث من أيام التشريق على قول الإمام أبي حنيفة، وبذلك يسقط عنه، رمي الجمار في اليوم الأخير من أيام العيد، ولا إثم عليه في ذلك **{فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ}** رمى الأيام الثلاثة كلها **{فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنْ اتَّقَى}** الظاهر أنها قيد للأمرين جميعاً للتعجل والتأخر، بحيث يحمل الإنسان تقوى الله عزّ وجلّ على التعجل أو التأخر وليس التهاون وعدم المبالاة.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ} ما أكثر ما يأمر الله سبحانه وتعالى بالتقوى في كتابه العزيز؛ لأن التقوى اتخاذ وقاية من عذاب الله عزّ وجلّ بفعل أوامره، واجتناب نواهيه على علم وبصيرة **{وَاعْلَمُوا}** تنبيه على أنه

لا بد من الإيمان بهذا الحشر، والاستعداد له **{أَنْتُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}** الحشر: جمع القوم من كل ناحية، والمحشر مجتمعهم، وحشرات الأرض دوابها الصغار، وقال الراغب: الحشر: ضم المفترق وسوقه. ومن فوائد الآية: قرن المواعظ بالتخويف؛ لقوله تعالى: **{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}**؛ لأن الإنسان إذا علم أنه سيحشر إلى الله عز وجل، وأنه سيجازيه فإنه سوف يتقي الله، ويقوم بما أوجب الله، ويترك ما نهى الله عنه؛ وبهذا عرفنا الحكمة من كون الله عز وجل يقرن الإيمان باليوم الآخر في كثير من الآيات بالإيمان بالله دون بقية الأركان التي يؤمن بها؛ وذلك؛ لأن الإيمان باليوم الآخر يستلزم العمل لذلك اليوم؛ وهو القيام بطاعة الله ورسوله.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ

مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ
(٢٠٧)

{وَمِنَ النَّاسِ} "من" للتبويض، بمعنى «بعض الناس» كما في قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ} [البقرة: ٨] {مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ} يروق لك وتستحسنه {فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} القول الذي يعجب حتى في الدين؛ لكن لا ينتفع به في الآخرة؛ إنما ينتفع به في الدنيا فقط.

والمراد من «القول» هنا ما فيه من دلالة على حاله في الإيمان والنصح للمسلمين، لأن ذلك هو الذي يهم الرسول ويعجبه، وليس المراد صفة قوله في فصاحة وبلاغة؛ إذ لا غرض في ذلك هنا لأن المقصود ما يضاد قوله: وهو ألد الخصام إلى آخره.

وهذه الآية وردت في شأن المنافقين؛ ودليل ذلك قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ} [المنافقون: ٤] من حسنه، وفصاحته؛ ولكنهم أهل غرور، وخداع، وكذب؛ فإن آية المنافق ثلاث؛ منها: إذا حدث كذب.

{وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ} يقرن حسن قوله وظاهر تودده بإشهاد الله تعالى على أن ما في قلبه مطابق لما في لفظه، ومعنى

إشهاد الله حلفه بأن الله يعلم أنه لصادق، كأن يقول: يعلم الله أنني مؤمن وأني أحب الله ورسوله، ويشهد الله أنني كذا **{وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ}** أشد المخاصمين لذلاقة لسانه. وفي الآية الإشارة إلى ذم الجدل والخصام؛ لقوله تعالى: **{وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ}**؛ لأن الخصومات في الغالب لا يكون فيها بركة؛ وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث عائشة -رضي الله عنها- أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم) أي الإنسان المخاصم المجادل بالباطل ليدحض به الحق؛ وما من إنسان في الغالب أعطي الجدل إلا حرم بركة العلم؛ لأن غالب من أوتي الجدل يريد بذلك نصرة قوله فقط؛ وبذلك يحرم بركة العلم؛ أما من أراد الحق فإن الحق سهل قريب لا يحتاج إلى مجادلات كبيرة؛ لأنه واضح؛ ولذلك تجد أهل البدع الذين يخاصمون في بدعهم علومهم ناقصة البركة لا خير فيها؛ وتجد أنهم يخاصمون ويجادلون، وينتهون إلى لا شيء؛ لا ينتهون إلى الحق؛ لأنهم لم يقصدوا إلا أن ينصروا ما هم عليه؛ فكل إنسان جادل من أجل أن ينتصر قوله فإن الغالب أنه لا يوفق، ولا يجد بركة العلم؛ وأما من جادل ليصل إلى العلم، ولإثبات الحق، وإبطال الباطل فإن هذا

مأمور به؛ لقوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: ١٢٥] .

{وَإِذَا تَوَلَّى} حقيقة التولي الانصراف بالبدن، والمعنى: رجع وانصرف، أو كانت له ولاية {سَعَى فِي الْأَرْضِ} تأكيد لمداول {سَعَى} لرفع توهم المجاز من أن يراد بالسعي العمل والاكتساب فأريد التنصيب على أن هذا السعي هو السير في الأرض للفساد وهو الغارة والتلصص لغير إعلاء كلمة الله، ولذلك قال بعده: {لِيُفْسِدَ فِيهَا} فاللام للتعليل، لأن الإفساد مقصود لهذا الساعي.

{وَيُهْلِكَ} يتلف {الْحَرْثُ} الزرع {وَالنَّسْلُ} الحيوان، والإفساد شامل يدخل تحته إهلاك الحرث والنسل، ولكنه خصهما بالذكر لأنهما أعظم ما يحتاج إليه في عمارة الدنيا، فكان إفسادهما غاية الإفساد {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ}.

{وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ} إي وإذا وعظه واعظ بما يقتضي تذكيره بتقوى الله تعالى {أَخَذَتْهُ} احتوت عليه وأحاطت به، وصار كالمأخوذ لها كما يأخذ الشيء باليد {الْعِزَّةُ} القوة والحمية والمنعة، والعزة صفة: يرى صاحبها أنه لا يقدر عليه غيره، ولا يعارض في كلامه لأجل مكانته في قومه واعترازه بقوتهم.

ف «أل» في "العزة" للعهد أي العزة المعروفة لأهل الجاهلية التي تمنع صاحبها من قبول اللوم أو التغير عليه، لأن العزة تقتضي معنى المنعة فأخذ العزة له كناية عن عدم إصغائه لنصح الناصحين.

{بِالْإِثْمِ} يحتمل الباء أن تكون للمصاحبة، أي: أخذته العزة الملابس للإثم، فمنعته من قبول الموعظة وأبقته حليف الإثم الذي اعتاده.

ويحتمل أن تكون الباء سببية، والمعنى: أن إثمه السابق كان سبباً لأخذ العزة له، حتى لا يقبل ممن يأمره بتقوى الله تعالى

{فَحَسْبُهُ} كافيه جزاءً وإذلالاً **{جَهَنَّمَ}** مشتقة من الجهم وهو الكراهية، وفيه استعظام لما حل به من العذاب **{وَلِبَئْسَ الْمِهَادُ}** الفراش، وجعل ما أعد لهم مهاداً على سبيل الهزء بهم، إذ المهاد: هو ما يستريح به الإنسان ويوطأ له للنوم.

وحذف هنا المخصوص بالذم للعلم به إذ هو متقدم، والتقدير: ولبئس المهاد جهنم.

وفي قوله: **{أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ}** نوع من البديع يسمى التميم، وهو إرداف الكلام بكلمة يرفع عنه اللبس، وتقربه للفهم، كقوله تعالى: **{وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ}** [الأنعام: ٣٨] وذلك أن العزة

محمودة ومذمومة، فالمحمودة طاعة الله، كما قال تعالى: {أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة: ٥٤] {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: ٨] {فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} [النساء: ١٣٩] فلما قال: بالإثم، اتضح المعنى وتم، وتبين أنها العزة المذمومة المؤثم صاحبها.

قيل أن المنافق الذي تضمنت الآيات الحديث عنه هو الأخنس بن شريق، واسمه: «أبي»، وكان حلو اللسان والمنظر، يجالس رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ويظهر حبه، والإسلام، ويحلف على ذلك، فكان -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يدينه ولا يعلم ما أضمر، وكان مولى لبني زهرة من قريش وهم أخوال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وكان يظهر المودة للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولم ينضم إلى المشركين في واقعة بدر بل خنس -أي تأخر- عن الخروج معهم إلى بدر، وكان له ثلاثمائة من بني زهرة أحلافه فصدّهم على الانضمام إلى المشركين ف قيل: إنه كان يظهر الإسلام وهو منافق، وقال ابن عطية: لم يثبت أنه أسلم قط، ولكن كان يظهر الود للرسول فلما انقضت وقعة بدر قيل: إنه حرق زراعا للمسلمين وقتل حميرا لهم فنزلت فيه هذه الآية.

وقيل: بل كانت بينه وبين قومه ثقيف عداوة فبیتهم ليلا فأحرق
زرعهم وقتل مواشيهم فنزلت فيه الآية وعلى هذا فتقريعه لأنه
غدرهم وأفسد. ففعله ينم عن خبث طوية لا تتطابق مع ما يظهره
من الخير ولين القول؛ إذ من شأن أخلاق المرء أن تتماثل وتتظاهر
فالله لا يرضى بإضرار عبده ولو كفارا ضرا لا يجر إلى نفعهم؛
لأنهم لم يغزهم حملا لهم على الإيمان بل إفسادا وإتلافا ولذلك
قال تعالى: **{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ}**

قال ابن مسعود: لا ينبغي للرجل أن يغضب إذا قيل له اتق الله،
أو يقول: أو لمثلي يقال هذا؟ وقيل لعمر: اتق الله، فوضع خده
على الأرض تواضعا، وقيل: سجد، وقال: هذا مقدرتي.

وتردّد يهودي إلى باب هارون الرشيد سنة فلم يقض له حاجة،
فتحيل حتى وقف بين يديه، فقال: اتق الله يا أمير المؤمنين، فنزل
هارون عن دابته، وخرّ ساجداً، وقضى حاجته، فقيل له في ذلك،
فقال: تذكرت قوله تعالى: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ
بِالْإِثْمِ}**

ولما ذكر الله حال المنافقين الذين يعجبك قولهم في الحياة
الدنيا وهم ألد الخصام؛ والذين إذا تولوا سعوا في الأرض فساداً

ليهلكوا الحرث والنسل -والله لا يحب الفساد- ذكر حال قوم على ضدّهم؛ وهكذا القرآن مثاني تثنّى فيه الأمور؛ فيؤتى بذكر الجنة مع النار؛ وبذكر المتقين مع الفجار... لأجل أن يبقى الإنسان في روضة متنوعة؛ ثم ليبقى الإنسان بين الخوف والرجاء، لا يغلب عليه الخوف فيقنط من رحمة الله؛ ولا الرجاء فيأمن مكر الله؛ فإذا سمع ذكر النار، ووعيدها، وعقوبتها أوجب له ذلك الخوف؛ وإذا سمع ذكر الجنة، ونعيمها، وثوابها أوجب له ذلك الرجاء؛ فترتيب القرآن من لدن حكيم خبير سبحانه وتعالى؛ وهو الموافق لإصلاح القلوب؛ ولهذا نرى من الخطأ الفادح أن يؤلف أحد القرآن مرتباً على الأبواب والمسائل كما صنعه بعض الناس؛ فإن هذا مخالف لنظم القرآن والبلاغة وعمل السلف؛ فالقرآن ليس كتاب فقه؛ ولكنه كتاب تربية، وتهذيب للأخلاق؛ فلا ترتيب أحسن من ترتيب الله؛ ولهذا كان ترتيب الآيات توقيفياً لا مجال للاجتهاد فيه؛ وكان النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إذا نزلت الآية قال: (ضعوا هذه الآية في مكان كذا من سورة كذا)

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ} أي يبيعها، فكلمة يشري في اللغة تعني يبيع، قال تعالى: **{وَشَرَّوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ}** [يوسف: ٢٠]،

بخلاف كلمة يشتري، كما أن يبتاع يعني يشتري بخلاف كلمة يبيع، وهذا على الأغلب، ومثله قوله تعالى: **{فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}** [النساء: ٧٤] أي يبيعون.

واستعمل يَشْرِي هنا في البذل مجازا، والمعنى ومن الناس من يبذل نفسه للهلاك ابتغاء مرضاة الله، أي هلاكا في نصر الدين، وهذا أعلى درجات الإيمان، لأن النفس أغلى ما عند الإنسان.

{اِبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ} إشارة إلى الإخلاص، وإشارة أيضا إلى حصول أفضل ما عند الله للشهداء، وهو رضاه تعالى، لأن الجزاء من جنس العمل .. وفي الحديث الصحيح، في مجاورة أهل الجنة ربهم تعالى، حين يسألهم: هل رضيتم؟ فيقولون: يا ربنا كيف لا نرضى وقد أدخلتنا جنتك وباعدتنا من نارك؟ فيقول: ولكم عندي أفضل من ذلك، فيقولون: يا ربنا، وما أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضائي فلا أسخط عليكم بعده.

وقيل إن الرجل المؤمن الذي تضمنت الحديث عنه الآية هو صهيب بن سنان الرومي -أبو يحيى- فعن سعيد بن المسيب، قال: أَقْبَلَ صُهَيْبٌ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- مُهَاجِرًا إِلَى مَدِينَةِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى

الله عليه وسلم - فَاتَّبَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فَنَزَلَ عَنْ رَاحِلَتِهِ وَانْتَشَلَ مَا فِي كِنَانَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَرْمَاقِكُمْ رَجُلًا وَائِيَمُ اللَّهِ لَا تُصَلُّونَ حَتَّى أَرْمِيَ بِكُلِّ سَهْمٍ مَعِيَ فِي كِنَانَتِي ثُمَّ أَضْرِبُ بِسَيْفِي مَا بَقِيَ فِي يَدِي مِنْهُ شَيْءٌ، ثُمَّ افْعَلُوا مَا شِئْتُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ دَلَلْتُكُمْ عَلَى مَالِي وَقَيْنَتِي بِمَكَّةَ وَخَلَيْتُمْ سَبِيلِي، قَالُوا: نَعَمْ، فَفَعَلَ، [وفي رواية: فقالوا: لا نتركك تخرج من عندنا غنيا وقد جئنا صعلوكا، ولكن دلنا على مالك ونخلي عنك وعاهدوه على ذلك فدلهم على ماله] فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْمَدِينَةَ، قَالَ: (رَبِّحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيَى، رَبِّحَ الْبَيْعُ أَبَا يَحْيَى)، قَالَ: وَنَزَلَتْ: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ}.

والآيات وإن نزلت في شأن الأخنس وصهيب فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالأخنس مثل سوء لكل من يتصف بصفاته، وصهيب مثل الخير والكمال لكل من يتصف بصفاته. {وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ} رحيم بهم، والرأفة أبلغ من الرحمة، فالرأفة هي أرق الرحمة، وألطفها، وهي كناية عن لازمها وهو إيتاء الخيرات كالرحمة، حيث كلفهم بالجهد فعرضهم لثواب الشهداء.

والعباد إن كان عاماً، فرأفته بالكافرين إِمهالهم إلى انقضاء
آجالهم، وتيسير أرزاقهم لهم، ورأفته بالمؤمنين تهيئته إياهم لطاعته،
ورفع درجاتهم في الجنة.

وإن كان خاصاً -وهو الأظهر- لأنه لما ختم الآية بالوعيد من
قوله: {فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ} وكان ذلك خاصاً بأولئك الكفار، ختم هذه
بالوعد المبشر لهم بحسن الثواب، وجزيل المآب، ودل على ذلك
بالرأفة التي هي سبب لذلك، فصار ذلك كناية عن إحسان الله
إليهم، لأن رأفته بهم تستدعي جميع أنواع الإحسان، ولو ذكر أي
نوع من الإحسان لم يفد ما أفاده لفظ الرأفة، ولذلك كانت الكناية
أبلغ، ويكون إذ ذاك في لفظ: {العباد} التفاتاً، إذ هو خروج من
ضمير غائب مفرد إلى اسم ظاهر، فلو جرى على نظم الكلام
السابق لكان: "والله رؤوف به أو بهم"، وحسن الالتفات هنا بهذا
الاسم الظاهر شيئاً:

أحدهما: أن لفظ: العباد، له في استعمال القرآن تشریف
واختصاص، كقوله: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}
[الحجر: ٤٢] {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا} [الإسراء: ١] {ثُمَّ

أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا { [فاطر: ٣٢] } بَلْ عِبَادٌ
مُكْرَمُونَ { [الأنبياء: ٢٦] }

والثاني: مجيء اللفظة فاصلة، لأن قبله: {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الْفَسَادَ}، {فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ} فناسب: {وَاللَّهُ رَؤُوفٌ
بِالْعِبَادِ}.

قال ابن عاشور: وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مَعَانٍ مِنْ مَعَانِي أَدَبِ النُّفُوسِ
وَمَرَاتِبِهَا وَأَخْلَاقِهَا تُعَلَّمُ الْمُؤْمِنِينَ وَاجِبَ التَّوَسُّمِ فِي الْحَقَائِقِ
وَدَوَاحِلِ الْأُمُورِ وَعَدَمِ الْإِغْتِرَارِ بِالظُّوَاهِرِ إِلَّا بَعْدَ التَّجَرِبَةِ وَالِامْتِحَانِ،
فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُغَرُّ بِحُسْنِ ظَاهِرِهِ وَهُوَ مُنْطَوٍ عَلَى بَاطِنٍ سَوْءٍ
وَيُعْطِي مِنْ لِسَانِهِ حَلَاوَةً تَغْيِيرٍ وَهُوَ يُضْمِرُ الشَّرَّ وَالْكِدَّ قَالَ
الْمُعَرِّي:

وَقَدْ يُخْلِفُ الْإِنْسَانُ ظَنَّنَ عَشِيرَةٍ ... وَإِنْ رَاقَ مِنْهُ مَنْظَرٌ وَرُؤَاءُ
وَقَدْ شَمِلَ هَذَا الْحَالُ قَوْلَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إِنَّ
مِنَ الْبَيَانِ لِسِحْرًا) وَهُوَ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِمِ وَتَبْلُغُ هَلْهَلَةً دِينِهِ إِلَى حَدٍّ
أَنْ يُشْهَدَ اللَّهُ عَلَى أَنَّ مَا يَقُولُهُ صِدْقٌ وَهُوَ بَعْكَسُ ذَلِكَ يُبَيِّتُ فِي
نَفْسِهِ الْخِصَامَ وَالْكَرَاهِيَّةَ.

وَعَلَامَةُ الْبَاطِنِ تَكُونُ فِي تَصَرُّفَاتِ الْمَرْءِ فَالَّذِي يُحِبُّ الْفَسَادَ وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَلَا يَكُونُ صَاحِبَ ضَمِيرٍ طَيِّبٍ، وَأَنَّ الَّذِي لَا يُصْغِي إِلَى دَعْوَةِ الْحَقِّ إِذَا دَعَوْتُهُ إِلَيْهِ وَيُظْهِرُ عَلَيْهِ الْإِعْتِرَازَ بِالظُّلْمِ لَا يَرْعَوِي عَنْ غِيِّهِ وَلَا يَتْرُكُ أَخْلَاقَهُ الدِّمِيمَةَ، وَالَّذِي لَا يَشْحُ بِنَفْسِهِ فِي نُصْرَةِ الْحَقِّ يُنْبِئُ خُلُقَهُ عَنْ إِثَارِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ عَلَى الْبَاطِلِ وَالْفَسَادِ وَمَنْ لَا يَرَأْفُ فَاللَّهُ لَا يَرَأْفُ بِهِ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا
خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ
مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ
(٢٠٩) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ
الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
(٢١٠) سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ
يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ
(٢١١)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} الخطاب بـ **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}** خطاب للمسلمين على عادة القرآن في إطلاق هذا العنوان **{ادْخُلُوا}** حقيقته نفوذ الجسم في جسم أو مكان محوط كالبيت والمسجد، وهو هنا مستعار للاتباع والالتزام وشدة التلبس بالفعل.

{فِي السَّلَامِ} هو الإسلام، لأن الإسلام: قد يسمى: سِلماً بكسر السين، وقد يروى فيه الفتح، كما روي في السَّلَم الذي هو الصلح الفتح والكسر، إلا أن الفتح في السلم الذي هو الإسلام قليل **{كَافَّةً}** اسم يفيد الإحاطة بأجزاء ما وصف به.. والمعنى ادخلوا في الإسلام جميعاً، وهي حال تؤكد معنى العموم، فتفيد معنى: «كل» أي في شرائع الإسلام كلها، فأمرُوا بأن لا يدخلوا في طاعة دون طاعة.

ينادي الحق تبارك وتعالى عباده المؤمنين آمراً إِيَّاهم بالدخول في الإسلام دخولاً شمولياً بحيث لا يتخيرون بين شرائعه وأحكامه ما وافق مصالحهم وأهواءهم قبلوه وعملوا به، وما لم يوافق ردوه أو تركوه وأهملوه، وإنما عليهم أن يقبلوا شرائع الإسلام وأحكامه كافة.

{وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} نهى بعد أمر، وتحذير مما يصدّهم عن الدخول في الإسلام، وخطوات الشيطان مسالكه في الدعوة إلى الباطل وتزيين الشر والقبيح.

{إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ} جملة تعليلية مؤكدة بـ «إن»؛ فتفيد شدة عداوة الشيطان لبني آدم؛ والعدو من يتبغي لك السوء؛ وهو ضد الولي **{مُبِينٌ}** بين العداوة، ولذلك ينبغي لمن أتى بالأحكام أن يقرنها بالعلل التي تطمئن إليها النفس؛ فإن كانت ذات دليل من الشرع قرنها بدليل من الشرع؛ وإن كانت ذات دليل من العقل والقياس قرنها بدليل من العقل والقياس؛ وفائدة ذكر العلة أنه يبين سمو الشريعة وكمالها؛ وأنه تزيد به الطمأنينة إلى الحكم؛ وأنه يمكن إلحاق ما وافق الحكم في تلك العلة.

نهاهم عن اتباع خطوات الشيطان في تحسين القبيح وتزيين المنكر، إذ هو الذي زين لبعض مؤمني أهل الكتاب تعظيم السبت وتحريم أكل لحم الإبل بحجة أن هذا من دين الله الذي كان عليه صلحاء بني إسرائيل.

وفي الآية: أن الإنسان يؤمر بالشيء الذي هو متلبس به باعتبار استمراره عليه، وعدم الإخلال بشيء منه، كقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا**

الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ
وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ} [النساء: ١٣٦] يعني: استمروا على
ذلك.

{فَإِنْ زَلَلْتُمْ} أي: عصيتم، أو أخطأتم، أو ضللتهم، وأصل الزلل
للقدم، يقال: زلت قدمه، ثم يستعمل في الرأي والاعتقاد، وهو
الزلق **{مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْكُمْ}** إعدارا لهم **{الْبَيِّنَاتُ}** حجج الله
ودلائله، أو القرآن، أو محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، كما قال:
{لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ} [زائلين
عما هم عليه] حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا
مُّطَهَّرَةً} [البينة: ١-٢] وجمع تعظيماً له، لأنه وإن كان واحداً
بالشخص، فهو كثير بالمعنى.

{فَاعْلَمُوا} علم اعتراف، وإقرار، وقبول، وإذعان؛ فمجرد العلم
لا يكفي؛ ولهذا فإن أبا طالب كان يعلم أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- على حق، وأنه رسول الله؛ لكنه لم يقبل، ولم يدعن؛ فلهذا
لم ينفعه إقراره؛ فالإيمان ليس مجرد اعتراف بدون قبول وإذعان.
{أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ} ذكر أهل العلم أن «العزیز» له ثلاثة معانٍ: عزة
قَدْر؛ وعزة قهر؛ وعزة امتناع؛ فعزة القدر -أي أنه عز وجل عظيم

القدر-؛ لقوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر: ٦٧]؛ أما عزة القهر فمعناها الغلبة -أي أنه سبحانه وتعالى غالب لا يغلبه شيء-؛ وهذا أظهر معانيها؛ وأما عزة الامتناع فمعناها أنه يمتنع أن يناله السوء - مأخوذ من قولهم: «أرض عزاز» أي قوية صلبة لا تؤثر فيها الأقدام.

فكان العلم بأنه تعالى عزيز مستلزما تحققهم أنه معاقبهم لا يفلتهم، لأن العزيز لا ينجو من يناؤه.

{حَكِيمٌ} الذي ضع الأمور في مواضعها، والمتقن للأمور فلا يفلت مستحق العقوبة. فالمعنى: أنه سينزل بكم ما تتبين به عزته؛ لأن هذا هو مقتضى حكمته.

وفي وصفه هنا بالعزة التي هي تتضمن الغلبة والقدرة اللتين يحصل بهما الانتقام، وعيد شديد لمن خالفه وزل عن منهج الحق، وفي وصفه بالحكمة دلالة على إتقان أفعاله وأن ما يرتبه من الزواجر لمن خالف هو من مقتضى الحكمة.

وروي أن قارئاً قرأ {غفور رحيم} فسمعه أعرابي فأنكره، ولم يكن يقرأ القرآن، وقال: إن كان هذا كلام الله فلا يقول كذا الحكيم، لا يذكر الغفران عند الزل، لأنه إغراء عليه.

{هَلْ يَنْظُرُونَ} «هل»: هنا للنفي، والمعنى: ما ينتظرون ويتربصون، ولذلك دخلت «إلا»، وكونها بمعنى النفي إذ جاء بعدها: «إلا»، كثير الاستعمال في القرآن، وفي كلام العرب، قال تعالى: {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ} [سبأ: ١٧] {فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ} [الأحقاف: ٣٥]

{إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ} أي ما ينتظرون إلا إتيان الله، وحقيقة الإتيان الانتقال من حيز إلى حيز، فهو إتيان على ما يليق بالله تعالى بلا تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل، ونقل عن ابن جرير أنه قال: يأتيهم بمحاسبتهم على الغمام على عرشه تحمله ثمانية من الملائكة.

والذي نسب فعل «الإتيان» إليه هو الله عز وجل؛ وهو أعلم بنفسه؛ وهو يريد أن يبين لعباده، كما قال تعالى: {يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا} [النساء: ١٧٦]؛ وإذا كان يريد أن يبين، وهو أعلم بنفسه، وليس في كلامه عي، وعجز عن التعبير بما أراد؛ وليس في كلامه نقص في البلاغة؛ إذاً فكلامه في غاية ما يكون من العلم؛

وغاية ما يكون من إرادة الهدى؛ وغاية ما يكون من الفصاحة،
والبلاغة؛ وغاية ما يكون من الصدق؛ فهل بعد ذلك يمكن أن
نقول: إنه لا يراد به ظاهره؟!

ولا يعارض ذلك أن الله قد يضيف الإتيان إلى أمره، مثل قوله
تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللَّهِ} [النحل: ١]، ومثل قوله تعالى: {أَوْ يَأْتِي أَمْرُ
رَبِّكَ} [النحل: ٣٣]؛ لأننا نقول: إن هذا من أمور الغيب؛
والصفات توقيفية؛ فنتوقف فيها على ما ورد؛ فالإتيان الذي أضافه
الله إلى نفسه يكون المراد به إتيانه بنفسه؛ والإتيان الذي أضافه الله
إلى أمره يكون المراد به إتيان أمره؛ لأنه ليس لنا أن نقول على الله
ما لا نعلم؛ بل علينا أن نتوقف فيما ورد على حسب ما ورد.

{في} «مع»، يعني يأتي مصاحباً لهذه الظلل؛ وإنما أخرجناها
عن الأصل الذي هو الظرفية؛ لأننا لو أخذناها على أنها للظرفية
صارت هذه الظلل محيطة بالله عز وجل؛ والله أعظم، وأجلّ من أن
يحيط به شيء من مخلوقاته، وهذا الغمام يأتي مقدمة بين يدي
مجيء الله عز وجلّ، كما قال تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ
وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا} [الفرقان: ٢٥]

{ظُلِّلَ} جمع ظلة، وهي السحابات العظيمة التي تشبه كل سحابة منها ظله القصر **{مَنْ الغَمَامِ}** السحاب الأبيض الرقيق؛ لكن ليس كسحاب الدنيا؛ فالاسم هو الاسم؛ ولكن الحقيقة غير الحقيقة؛ لأن المسميات في الآخرة - وإن شاركت المسميات في الدنيا في الاسم - إلا أنها تختلف، مثلما تختلف الدنيا عن الآخرة. **{وَالْمَلَائِكَةُ}** وتأتيهم الملائكة أيضاً محيطة بهم، كما قال الله تعالى: **{كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}** [الفجر: ٢١-٢٢]؛ وفي حديث الصور الطويل الذي ساقه ابن جرير، وغيره أن السماء تشقق؛ فتشقق السماء الدنيا بالغمام، وتنزل الملائكة، فيحيطون بأهل الأرض، ثم السماء الثانية، والثالثة، والرابعة...؛ كل من وراء الآخر؛ ولهذا قال تعالى: **{صَفًّا صَفًّا}** يعني صفّاً بعد صف؛ ثم يأتي الرب عزّ وجلّ للقضاء بين عباده؛ ذلك الإتيان الذي يليق بعظمته وجلاله؛ ولا أحد يحيط علماً بكيفيته؛ لقوله تعالى: **{وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}** [طه: ١١٠]

{وَقُضِيَ الْأَمْرُ} أي ما يترقبون إلا مجيء الله مع ظلل من الغمام، وإتيان الملائكة، وانقضاء الأمر؛ ومنهم من قال: إنها جملة مستأنفة؛ أي: وقد انتهى الأمر، ولا عذر لهم بعد ذلك، ولا حجة

لهم ... والقضاء: الفراغ والإتمام. والأمر: المعهود للناس كلهم وهو الجزاء

{وَقُضِيَ الْأَمْرُ} معطوف على قوله: **{يَأْتِيهِمْ}**، فهو من وضع الماضي موضع المستقبل، وعبر بالماضي عن المستقبل لأنه كالمفروغ منه الذي وقع.

وفيها بلاغة الإيجاز فإن في هاتين الكلمتين يندرج في ضمنها جميع أحوال العباد منذ خلقوا إلى يوم التناد، ومن هذا اليوم إلى الفصل بين العباد.

وفي الآية: إثبات صفة المجيء للرب تعالى لفصل القضاء يوم القيامة، وحرمة التسويف والمماطلة في التوبة.

{وَالِىَ اللَّهِ} فاختص بذلك اليوم لانفراده فيه بالتصرف والحكم والملك **{تُرْجَعُ الْأُمُورُ}** والرجوع في الأصل: المآب إلى الموضع الذي خرج منه الراجع، ويستعمل مجازاً في نهاية الشيء وغايته وظهور أثره.

وصرح باسم {الله} لأنه أفخم وأعظم وأوضح، وإن كان قد جرى ذكره في قوله: **{إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ}** ولأنه في جملة مستأنفة ليست داخلية في المنتظر، وإنما هي إعلام بأن الله إليه تصير الأمور

كلها لا إلى غيره، إذ هو المنفرد بالمجازاة، ولرفع إبهام ما كان عليه ملوك الدنيا من دفع أمور الناس إليهم، فأعلم أن هذا لا يكون لهم في الآخرة منها شيء، بل ذلك إلى الله وحده، أو لإعلام أنها رجعت إليه في الآخرة بعد أن كان ملكهم بعضها في الدنيا، فصارت إليه كلها في الآخرة.

{سَلْ} إسأل: سقطت منه الهمزتان للتخفيف {بني إسرائيل}

ذرية يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وإسرائيل لقب يعقوب. وهذا السؤال ليس سؤالاً عما لا يعلم، إذ هو عالم أن بني إسرائيل آتاهم الله آيات بينات، وإنما هو سؤال عن معلوم، فهو تقرير وتوبيخ، وتقرير لهم على ما آتاهم الله من الآيات البينات، وأنها ما أجدت عندهم **{كَمْ}** استفهامية ومعناها التقرير لا حقيقة الاستفهام **{آتَيْنَاهُمْ مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ}** ما تضمنته التوراة والإنجيل من صفة النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وتحقيق نبوته، وتصديق ما جاء به، أو معجزات موسى صلى الله على نبينا وعليه: كالعصا، واليد البيضاء، وفلق البحر، أو: القرآن قصّ الله قصص الأمم الخالية حسبما وقعت على لسان من لم يدارس الكتب ولا العلماء، ولا كتب ولا ارتجل، أو معجزات رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ-: كتسبيح الحصى، وتفجير الماء من بين أصابعه، وانشقاق القمر، وتسليم الحجر.. أربعة أقوال

يأمر الله تعالى رسوله أن يسأل بني إسرائيل عن الآيات الكثيرة التي آتاهم الله، وكيف كفروا بها فلم تنفعهم شيئاً، والمراد تسليته - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من الألم الذي يحصل له من عدم إيمان أهل الكتاب والمشركين به وبما جاء به من الهدى وضمن ذلك تقريع اليهود وتأنيبهم على كفرهم بآيات الله وإصرارهم على عدم الدخول في الإسلام.

{وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ} تقديره فبدلوها ولم يعملوا بها، حذف ما بدل به النعمة ليشمل جميع أحوال التبديل من: كتم بعضها والإعراض عن بعض وسوء التأويل.

{مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ} تأكيد، والمجيء فيه كناية عن الوضوح والمشاهدة والتمكن، لأنها من لوازم المجيء عرفاً. وإنما جعل العقاب مترتباً على التبديل بعد هذا التمكن للدلالة على أنه تبديل عن بصيرة لا عن جهل أو غلط كقوله تعالى: **{ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: ٧٥]**

{فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} خبر يتضمن الوعيد بالعقاب على من

بدل نعمة الله، فكون الله شديد العقاب أمر محقق معلوم فذكره لم يقصد منه الفائدة، لأنها معلومة: بل التهديد

ومفاد الكلام: كم آتيناهم من آية بينة هي نعمة عليهم فلم يقدروها حق قدرها، فبدلوا نعمة الله بضدها بعد ظهورها فاستحقوا العقاب؛ لأن من يبدل نعمة الله فالله معاقبه، ولأنه يفيد بهذا العموم حكما يشمل المقصودين وغيرهم ممن يشبههم، ولذلك يكون ذكر مثل هذا الكلام الجامع بعد حكم جزئي تقدمه في الأصل تعريضا يشبه التصريح، ونظيره أن يحدثك أحد بحديث فتقول فعل الله بالكاذبين كذا وكذا، تريد أنه قد كذب فيما حدثك وإلا لما كان لذلك الدعاء عند سماع ذلك الحديث موقع.

وإظهار اسم الجلالة هنا مع أن مقتضى الظاهر أن يقال: «فإنه شديد العقاب»، لإدخال الروح في ضمير السامع وتربية المهابة، ولتكون هذه الجملة كالكلام الجامع مستقلا بنفسه، والعقاب هو: الجزاء المؤلم عن جناية وجرم، سمي عقابا لأنه يعقب الجناية.

زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ
بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢) كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ
النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا
الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى
اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ
يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ
تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمْ
الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)

ومناسبة هذه الآية لما قبلها في قوله تعالى: {سَلِّ بْنِ إِسْرَائِيلَ
كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ
اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} أنه لما ذكر أن بني إسرائيل أتتهم آيات
واضحة من الله تعالى، وأنهم بدلوا، أخبر أن سبب ذلك التبديل هو
الركون إلى الدنيا، والاستبشار بها، وتزيينها لهم، فلبني إسرائيل من

هذه الآية أكبر حظ لأنهم كانوا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، ويكذبون على كتاب الله، فيكتبون ما شاءوا لينالوا حظاً خسيساً من حظوظ الدنيا، ويقولون: "هذا من عند الله".

{زَيْنٌ} جَعَلَ الشَّيْءَ زَيْنًا، والزين شدة الحسن، ومعنى تزيين الحياة لهم، إما أن ما خلق زينا في الدنيا قد تمكن من نفوسهم واشتد توغلهم في استحسانه، لأن الأشياء الزينة هي حسنة في أعين جميع الناس فلا يختص الذين كفروا بجعلها لهم زينة كما هو مقتضى قوله: {لِلَّذِينَ كَفَرُوا}؛ فإن اللام تشعر بالاختصاص، وإما ترويج تزيينها في نفوسهم بدعوة شيطانية تحسن ما ليس بالحسن.

والمزين على المعنى الأول هو الله تعالى إلا أنهم أفرطوا في الإقبال على الزينة، والمزين على المعنى الثاني هو الشيطان ودعائه. قال ابن عثيمين: والمزِين إما أن يكون الله، كما في قوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ}** [النمل: ٤]؛ وإما أن يكون الشيطان؛ لقوله تعالى: **{وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ}** [النمل: ٢٤]؛ ولا منافاة بين الأمرين؛ فإن الله زين لهم سوء أعمالهم؛ لأنهم أساءوا، كما يفيد

قوله تعالى: **{ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ }** [الصف: ٥]؛ والتزيين من الله باعتبار التقدير؛ أما الذي باشر التزيين، ووسوس لهم بذلك فهو الشيطان.

{ لِلَّذِينَ كَفَرُوا } ذمهم وحذر من خلقهم، ولهذا لزم حمل التزيين على تزيين يعد ذما، فلزم أن يكون المراد منه تزيينا مشوبا بما يجعل تلك الزينة مذمة، وإلا فإن أصل تزيين الحياة الدنيا المقتضي للرجوة فيما هو زين أمر ليس بمذموم إذا روعي فيه ما أوصى الله برعيه، قال تعالى: **{ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ }** [الأعراف: ٣٢].

قال ابن عاشور رحمه الله: وقد استقرت مواقع التزيين المذموم فحصرتها في ثلاثة أنواع:

**** الأول:** ما ليس بزین أصلا لا ذاتا ولا صفة، لأن جمعية ذم وأذى، ولكنه زين للناس بأوهام وخواطر شيطانية وتخيلات شعرية كالخمر.

**** الثاني** ما هو زين حقيقة لكن له عواقب تجعله ضرا وأذى كالزنا.

**** الثالث ما هو زين لكنه يحف به ما يصيره ذميما كنجدة الظالم.**

وفي الآية انخداع الكافرين بالحياة الدنيا؛ وأنهم عاشقون لها، وأنها هي همهم، وغرضهم؛ لأن ما زين للشخص فلا بد أن يكون الشخص مهتماً به طالباً له.

وأن المؤمنين ليست الدنيا في أعينهم شيئاً؛ ولهذا كان الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إذا رأى ما يعجبه في الدنيا يقول: (لَبَّيْكَ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشَ الْآخِرَةِ) [البیهقي] لتوجيه النفس إلى إجابة الله؛ لا إلى إجابة رغبتها، ثم يقنع النفس أيضاً: أني ما صددتك وأجبت الرب عز وجل إلا لخير؛ لأن العيش عيش الآخرة؛ والعجيب أن من طلب عيش الآخرة طاب له عيش الدنيا؛ ومن طلب عيش الدنيا ضاعت عليه الدنيا والآخرة؛ قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الزمر: ١٥]؛ هذه هي الخسارة: خسروا أنفسهم؛ لأن مآلهم النار -والعياذ بالله-؛ وأهلوهم أيضاً الذين في النار لا يهتم بعضهم ببعض؛ كل -والعياذ بالله- شقي فيما هو فيه؛ والحاصل أنا

نقول: ينبغي لكل إنسان حين يرى في الدنيا ما يعجبه أن يقول كما قال الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

{الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} مأخوذة من الدنو الذي هو ضد العلو؛ ووصفت هذه الحياة بالدنيا لوجهين: الأول: دنوّ مرتبتها ... الثاني: سبقها على الآخرة

فهي أدنى منها لقربها، ودنوّ منزلتها؛ أما قربها وهو سبقها على الآخرة فظاهر معلوم لكل أحد؛ وأما دنوّ مرتبتها فلقول الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها) [أحمد]؛ وموضع السوط مقدار متر تقريباً.

وتزيينه تعالى إياها لهم بما وضع في طباعهم من المحبة لها، فيصير في نفوسهم ميل ورغبة فيها، أو بالشهوات التي خلقها فيهم، وإليه أشار بقوله: **{زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ}** الآية، وبما أحكمه من مصنوعاته وأتقنه وحسنه، فأعجبهم بهجتها، واستمالت قلوبهم فمالوا إليها كلية، وأعطوها من الرغبة فوق ما تستحقه.

قال أبو بكر الصديق -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- حين قدم عليه بالمال، قال: "اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا".

وفي الآية: حقارة الدنيا؛ لوصفها بالدنيا؛ وهي من الدنوّ زمنًا، ورتبة؛ زمنًا؛ لأنها قبل الآخرة؛ ورتبة؛ لأنها قليل بالنسبة للآخرة؛ ولهذا لا تجد في الدنيا حال سرور إلا مشوباً بتنغيص قبله، وبعده؛ لكن هذا التنغيص بالنسبة للمؤمن خير؛ لأن له فيه أجراً، كما أخبر الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في قوله: (عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ -وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ- إِنَّ أَصَابَتُهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتُهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ) [مسلم]؛ والمؤمن إذا ابتلي بالبلاء الجسمي، أو النفسي يقول: هذه نعمة من الله يكفر الله بها عني سيئاتي؛ فإذا أحس هذا الإحساس صار هذا الألم نعمة؛ لأن الإنسان خطاء دائماً؛ وهذه الأشياء لا شك أنها -والحمد لله- تكفير للسيئات؛ فإن صبر واحتسب صارت رفعة للدرجات؛ فالآلام، والبلايا، والهم، والغم، تكفير بكل حال؛ ولكن مع الصبر والاحتساب يكون عملاً صالحاً يثاب عليه، ويؤجر عليه.

{وَيَسْخَرُونَ} يستهزئون {مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا} وذلك لفقرهم، أو لضعفهم وقلة عددهم، أو لاتباعهم لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ-، أو لاتهامهم إياهم أنهم مصدّقون للرسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وهذه حالة أعجب من التي قبلها وهي حالة التناهي في الغرور؛ إذ لم يقتصروا على افتتانهم بزهرة الحياة الدنيا حتى سخرُوا بمن لم ينسج على منوالهم من المؤمنين الذين تركوا كثيرا من زهرة الحياة الدنيا لما هداهم الدين إلى وجوب ترك ذلك في أحوال وأنواع تنطوي على خبائث.

ووجه سخريتهم بالمؤمنين أنهم احتقروا رأيهم في إعراضهم عن اللذات لامتنال أمر الرسول وَأَفْنَوْهُمْ فِي ذَلِكَ وَرَأَوْهُمْ قَدْ أَضَاعُوا حُظُوظَهُمْ وَرَاءَ أَوْهَامٍ بَاطِلَةٍ، لأن الكفار اعتقدوا أن ما مضى من حياتهم في غير نعمة قد ضاع عليهم إذ لا خلود في الدنيا ولا حياة بعدها، فالسخرية ناشئة عن تزيين الحياة عندهم.

ولم يبين هنا كيفية سخرية هؤلاء الكفار من هؤلاء المؤمنين، ولكنه بين في موضع آخر أن منها: الضحك منهم والتغامز، في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ، وَإِذَا

مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ} [المطففين: ٢٩-٣٠]

وصدرت الأولى بالفعل الماضي {زَيْنَ} لأنه أمر مفروغ منه، وهو تركيب طباعهم على محبة الدنيا، فليس أمراً متجدداً، فالماضي يدل على التحقق.

وصدرت الثانية بالمضارع {وَيَسْخَرُونَ}، لأنها حالة تتجدد كل عصر ووقت، فالمضارع يفيد التجدد. والشيء الراسخ في النفس لا تفتقر عن تكريره.

{وَالَّذِينَ اتَّقَوْا} المؤمنون الذين سخر منهم الذين كفروا؛ لأن أولئك المؤمنين كانوا متقين، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: "وهم فوقهم" لكن عدل عن الإضمار إلى اسم ظاهر لدفع إيهام أن يغتر الكافرون بأن الضمير عائد إليهم ويضموا إليه كذبا وتلفيقا.

وقوله {وَالَّذِينَ اتَّقَوْا} ليظهر أن السعادة الكبرى لا تحصل إلا للمؤمن المتقي، ولتبعث المؤمن على التقوى، وليزول قلق التكرار لو قال: "والذين آمنوا"، لأن قبله: الذين آمنوا.

أيضا قوله {وَالَّذِينَ اتَّقَوْا} لقصد التنبيه على مزية التقوى وكونها سببا عظيما في هذه الفوقية، على عادة القرآن في انتهاز فرص الهدى والإرشاد ليفيد فضل المؤمنين على الذين كفروا، وينبه المؤمنين على وجوب التقوى لتكون سبب تفوقهم على الذين كفروا

يوم القيامة، وأما المؤمنون غير المتقين فليس من غرض القرآن أن يعبأ بذكر حالهم ليكونوا دوماً بين شدة الخوف وقليل الرجاء، وهذه عادة القرآن في مثل هذا المقام.

والآية تعريض بأن غير المتقين لا تظهر مزيته يوم القيامة وإنما تظهر بعد ذلك، لأن يوم القيامة هو مبدأ أيام الجزاء، فغير المتقين لا يظهر لهم التفوق يومئذ، ولا يدركه الكفار بالحس قال تعالى: **{فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}** [البقرة: ٢٤] نعم تظهر مزيته بعد انقضاء ما قدر لهم من العذاب على الذنوب.

{فَوْقَهُمْ} فوقية تشريف **{يَوْمَ الْقِيَامَةِ}** قيدت بيوم القيامة تنصيصاً على دوامها، لأن ذلك اليوم هو مبدأ الحياة الأبدية. ولم يبين هنا طبيعة فوقية هؤلاء المؤمنين على هؤلاء الكفرة، ولكنه بين ذلك في مواضع أخر كقوله تعالى: **{فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ، عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ}** [المطففين: ٣٤-٣٥]. وقوله: **{أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ}** [الأعراف: ٤٩] فالقيامة

قال الله تعالى فيها: **{خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ}** [الواقعة: ٣] لأن المؤمنين في عليين، والكفار في سجين.

{وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} أي بغير نهاية، لأن ما لا يتناهى خارج عن الحساب، أو يكون المعنى: أن بعضها ثواب وبعضها تفضيل محض، فهو بغير حساب.

وقد شاعت هذه الكناية في كلام العرب كما شاع عندهم أن يقولوا: "يعدون بالأصابع ويحيط بها العد" كناية عن القلة، ومنه قولهم: "شيء لا يحصى" ولذلك صح أن ينفى الحساب هنا عن أمر لا يعقل حسابه وهو الفوقية.

وهو تذييل قصد منه تعظيم تشريف المؤمنين يوم القيامة، لأن التذييل لا بد أن يكون مرتبطا بما قبله، فالسامع يعلم من هذا التذييل معنى محذوفا تقديره: والذين اتقوا فوقهم فوقية عظيمة لا يحيط بها الوصف، لأنها فوقية منحوها من فضل الله، وفضل الله لا نهاية له، ولأن سخرية الذين كفروا بالذين آمنوا أنهم سخرؤا بفقرء المؤمنين لإقلالهم.

وبين أن ما يفعله من ذلك ويرزقه إياه إنما هو راجع لمشيئته السابقة، وأنه لا يحاسبه أحد، ولا يحاسب نفسه على ما يعطي، لأن ذلك لا يكون إلا لمن يخاف نفاذ ما عنده.

وفي الصحيح عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا [لا ينقصها] نَفَقَةً، سَحَاءً [سح المطر: سال وتدفق] اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْقَبْضُ، يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ).

وفي الآية إثبات المشيئة لله؛ وكل ما في الكون واقع بمشيئة الله؛ والمشيئة تختلف عن الإرادة بأنها لا تنقسم إلى كونية، وشرعية؛ بل هي كونية محضة؛ فما شاء الله كان؛ وما لم يشأ لم يكن سواء كان مما يحبه، أو مما لا يحبه؛ قوله تعالى: {مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلَّهُ} [الأنعام: ٣٩]؛ فهذا لا يحبه؛ وقوله تعالى: {وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام: ٣٩] فهذا يحبه

وكل فعل علقه الله بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة؛ ودليل ذلك سمعي، وعقلي؛ فمن السمع: {وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} [الإنسان: ٣]؛ فدل هذا على أن مشيئته

مقرونة بالحكمة؛ وأما العقل فلأن الله سبحانه وتعالى سمي نفسه بأنه «حكيم»؛ والحكيم لا يصدر منه شيء إلا وهو موافق للحكمة.

{كَانَ النَّاسُ} مناسبة هذه الآية لما قبلها هو أن سبب إصرار هؤلاء على كفرهم هو حب الدنيا، وأن ذلك ليس مختصاً بهذا الزمان الذي بعث فيه يا محمد، بل هذا أمر كان في الأزمنة المتقدمة، إذ كانوا على حق ثم اختلفوا بغياً وحسداً وتنازعاً في طلب الدنيا.

{كَانَ النَّاسُ} أي فيما مضى من قبل أن تبث الرسل إليهم.. كانوا طائفة واحدة على دين واحد؛ وهذا الدين الواحد هو دين الفطرة الإسلام؛ لأن آدم نبي موحى إليه بشريعة يتعبد بها؛ فصار يتعبد بها، واتبعه أبناؤه على ذلك؛ ثم بعد مدة من الزمن كثر الناس، واختلفت الأهواء، فاختلفوا؛ فحينئذ صاروا بحاجة إلى بعث الرسل؛ فبعث الله الرسل مبشرين، ومنذرين.. إلخ.

{أُمَّةٌ} بضم الهمزة: اسم للجماعة الذين أمرهم واحد، مشتقة من الأم -بفتح الهمزة- وهو القصد أي يؤمون غاية واحدة، وإنما

تكون الجماعة أمة إذا اتفقوا في الموطن أو الدين أو اللغة أو في جميعها.

{وَاحِدَةٌ} وصف {واحدة} في الآية لتأكيد الإفراد في قوله "أمة" لدفع توهم أن يكون المراد من الأمة القبيلة، فيظن أن المراد كان الناس أهل نسب واحد، لأن الأمة قد تطلق على من يجمعهم نسب متحد.... والوحدة هنا: مراد بها الاتحاد والتماثل في الدين والمعنى: **{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً}** فاختلفوا، لأن البعثة ترتبت على الاختلاف لا على الكون أمة واحدة، وهذا كقوله تعالى: **{وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا}** [يونس: ١٩]

{فَبَعَثَ اللَّهُ} البعث: الإرسال والإنهاض للمشي، ومنه بعث البعير إذا أنهضته بعد أن برك، والبعث والإرسال بالشرائع متوغل في القدم، وقبله ظهور الشرط وهو أصل ظهور الفواحش لأن الاعتقاد الفاسد أصل ذميم الفعال.

{النَّبِيِّينَ} جمع نبي، مشتق من النبأ وهو الخبر المهم، لأن الله أخبره بالوحي وعلم ما فيه صلاح نفسه وصلاح من ينتسب إليه، فإن أمره بتبليغ شريعة الأمة فهو رسول، فكل رسول نبي، والقرآن يذكر في الغالب النبي مراداً به الرسول.

{مُبَشِّرِينَ} بثواب من أطاع **{وَمُنْذِرِينَ}** بعقاب من عصى، قال تعالى: **{فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا}** [مريم: ٩٧]، وقال **{لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا}** [الكف: ٢]

فالرسل هم الذين جاءوا بالوعد والوعيد، وأما الأنبياء غير الرسل فإن وظيفتهم هي ظهور صلاحهم بين قومهم حتى يكونوا قدوة لهم، وإرشاد أهلهم وذويهم ومريديهم للاستقامة من دون دعوة حتى يَكُونُ بين قومهم رجال صالحون، وإرشاد من يسترشدهم من قومهم، وتعليم من يروونه أهلاً لعلم الخير من الأمة. ثم هم قد يجيئون مؤيدين لشرعية مضت كمجيء إسحاق ويعقوب والأسباط لتأييد شرعية إبراهيم عليه السلام، ومجيء أنبياء بني إسرائيل بعد موسى لتأييد التوراة، وقد لا يكون لهم تعلق بشرع من قبلهم.

{وَأَنْزَلَ مَعَهُمْ} وأضاف "مع" إلى ضمير النبيين إضافة مجملة، واختير لفظ "مع" دون "عليهم" ليصلح لمن أنزل عليه كتاب منهم، مثل: إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، ولمن جاء مؤيذاً لمن قبله، مثل: أنبياء بني إسرائيل بين موسى وعيسى.

{الْكِتَابُ} التعريف في "الكتاب" للاستغراق: أي وأنزل مع النبيين الكتب التي نزلت كلها، وإنما أفرد الكتاب ولم يقل "الكتب"، لأن المفرد والجمع في مقام الاستغراق سواء، فظاهر الآية أن مع كل رسول كتاباً؛ وهذا هو مقتضى الحال حتى يكون هذا الكتاب الذي معه يبلغه إلى الناس.

{بِالْحَقِّ} مصحوباً بالحق، وتكون حالاً مؤكدة لأن كتب الله المنزلة يصحبها الحق ولا يفارقها.

قال القاضي: وظاهر الآية يدل على أنه لا نبي إلاّ ومعه كتاب منزل فيه بيان الحق، طال ذلك الكتاب أو قصر، دوّن أو لم يدوّن، كان معجزاً أو لم يكن، لأن كون الكتاب منزلاً معهم لا يقضي شيئاً من ذلك.

قال ابن عاشور: والمقصود من الآية على هذا الوجه التنبيه على أن التوحيد والهدى والصلاح هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها حين خلقهم كما دلت عليه آية **{أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ}** [الأعراف: ١٧٢]، وأنها ما غشاها إلا تلقين الضلال وترويج الباطل، وأن الله بعث النبيين لإصلاح الظلم والكذب، وأن بعثة كل النبيين كانت بعد أن كان الناس أمة واحدة، والشرائع إنما تلقيت من الأنبياء، فتعين أن

كون الناس أمة واحدة شيء سابق على شرائع الأنبياء ولا يكون إلا مستفادا من العقل، وهما يعنيان أن الله فطر الإنسان في أول نشأته على سلامة الفطرة من الخطأ والضلال، قال تعالى: **{لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}** [التين: ٤] والأظهر أنه من زمن وجود آدم إلى أن أشرك قوم نوح. حيث كثرت العائلة البشرية وتكونت منها القبيلة فتكاثرت ونشأ فيها مع الزمان قليلا قليلا خواطر مختلفة ودبت فيها أسباب الاختلاف في الأحوال.. وبذلك حدثت أمزجة جديدة وطرأت عليها حينئذ أسباب الانحطاط، وصارت ملازمة لطوائف من البشر بحكم التناسل والتلقي، هنالك جاءت الحاجة إلى هُدي البشر ببعثة الرسل، والتاريخ الديني دلنا على أن نوحا أول الرسل الذين دعوا إلى الله تعالى قال تعالى: **{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا}** [الشورى: ١٣] الآية، ولما ذكر الرسل في آيات القرآن ابتدأهم في جميع تلك الآيات بنوح ولم يذكر آدم، وفي حديث الشفاعة في الصحيح تصريح بذلك أن آدم يقول للذين يستشفعون به: " إِنِّي لَسْتُ هُنَاكُمْ"، ويذكر خطيئته ايتوا نوحا أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، وبهذا يتعين أن خطيئة قابيل

ليست مخالفة شرع مشروع، وأن آدم لم يكن رسولا وأنه نبي صالح أوحى إليه بما يهذب أبنائه وَيُعَلِّمُهُم بِالْجَزَاءِ.

{لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ} والذين أوتوه أرباب العلم به والدراسة له، وخصهم بالذكر تنبيهاً منه على شناعة فعلهم، وقبيح ما فعلوه من الاختلاف، ولأن غيرهم تبع لهم في الاختلاف فهم أصل الشر، وأتى بلفظ: {من} الدالة على ابتداء الغاية منبهاً على أن اختلافهم متصل بأول زمان مجيء البينات، لم يقع منهم اتفاق على شيء بعد المجيء، بل بنفس ما جاءتهم البينات اختلفوا، لم يتخلل بينهما فترة.

والمعنى **{وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}** فاختلف فيه كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ}** [هود: ١١٠] والاختلاف في الكتاب ذهاب كل فريق في تحريف المراد منه مذهبا يخالف مذهب الآخر في أصول الشرع لا في الفروع، فإن الاختلاف في أصوله يعطل المقصود منه.

والبينات: هي ما أوضحته الكتب المنزلة على أنبياء الأمم الموجبة للاتفاق وعدم الاختلاف، فجعلوا مجيء الآيات البينات

سبباً لاختلافهم، وذلك أشنع عليهم، حيث رتبوا على الشيء خلاف مقتضاه.

وفي ذلك دلالة على أن الدلائل العقلية المركبة في الطباع السليمة، والدلائل السمعية التي جاءت في الكتاب قد حصلا، ولا عذر في العدول والإعراض عن الحق لكن عارض هذا الدليل القطعي ما ركب فيهم من البغي والحسد والحرص على الاستيثار بالدنيا.

والمقصود من هذا بيان عجب حال البشر في تسرعهم إلى الضلال، وهي حقيقة تاريخية من تاريخ الشرائع، وتحذير المسلمين من الوقوع في مثل ذلك.

والتعريض بأهل الكتاب وهم أشهر أهل الشرائع يومئذ فيما صنعوا بكتبهم من الاختلاف فيها، وهذا من بدیع استطراد القرآن في توبيخ أهل الكتاب وخاصة اليهود وهي طريقة عربية بليغة، كمال قال تعالى: **{وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ** **الْبَيِّنَةُ} [البينة: ٤]**

{بَغْيًا بَيْنَهُمْ} فذلك الاختلاف الذي كان لا ينبغي أن يكون ليس لموجب ولا داع إلا مجرد البغي والظلم والتعدي

إذ المقصود أن الخلاف لم يكن بين أهل الدين ومعانديه، ولا كان بين أهل الدين قبل ظهور الدلائل الصارفة عن الخلاف، ولا كان ذلك الخلاف عن مقصد حسن بل كان بين أهل الدين الواحد، مع قيام الدلائل وبدافع البغي والحسد.

والآية تقتضي تحذير المسلمين من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف في الدين أي في أصول الإسلام، فالخلاف الحاصل بين علماء الإسلام ليس اختلافا في أصول الشريعة، فإنها إجماعية، وقد أجمعوا على أنهم يريدون تحقيقها، ولذلك اتفقت أصولهم في البحث عن مراد الله تعالى وعن سنة رسوله للاستدلال عن مقصد الشارع وتصرفاته، واتفقوا في أكثر الفروع، وإنما اختلفوا في تعيين كيفية الوصول إلى مقصد الشارع، وقد استبرءوا للدين فأعلنوا جميعا: أن الله تعالى حكما في كل مسألة، وأنه حكم واحد، وأنه كلف المجتهدين بإصابته، وأن المصيب واحد، وأن مخطئه أقل ثوابا من مصيبيه، وأن التقصير في طلبه إثم. فالاختلاف الحاصل بين علمائنا اختلاف جليل المقدار موسع للأنظار.

أما لو جاء أتباعهم فانتصروا لآرائهم مع تحقق ضعف المدرك أو خطئه لقصد ترويج المذهب وإسقاط رأي الغير فذلك يشبه الاختلاف الذي شنع الله تعالى وحذرنا منه فكونوا من مثله على حذر.

{فَهَدَى اللَّهُ} قال ابن عرفة: عطف بالفاء إشارة إلى سرعة هدايته المؤمنين بعقب الاختلاف **{الَّذِينَ آمَنُوا}** المراد بالهداية هنا: هداية التوفيق المسبوقة بهداية العلم والإرشاد؛ لأن الجميع قد جاءتهم الرسل بالكتب، وبينت لهم؛ لكن لم يوفق منهم إلا من هداهم الله؛ و «الإيمان» في اللغة: التصديق؛ ولكنه في الشرع التصديق المستلزم للقبول والإذعان؛ وليس مجرد التصديق إيماناً؛ إذ لو كان مجرد التصديق إيماناً لكان أبو طالب مؤمناً لأنه كان يقر بأن محمداً -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صادق.

وفي الآية أنه كلما قوي إيمان العبد كان أقرب إلى إصابة الحق؛ لقوله تعالى: **{فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ..}** لأن الله علق الهداية على وصف الإيمان؛ وما علق على وصف فإنه يقوى بقوته، ويضعف بضعفه؛ ولهذا كان الصحابة أقرب إلى الحق ممن بعدهم لا في التفسير، ولا في أحكام أفعال المكلفين فحسب، بل في

العقائد أيضاً؛ لأن الهداية للحق علقت بالإيمان؛ ولا شك أن الصحابة أقوى الناس إيماناً؛ قال الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)، ولهذا ذهب الإمام أحمد -رحمه الله- إلى أن قول الصحابي حجة ما لم يخالف النص؛ فإن خالف نصاً فليس بحجة؛ أو يخالفه صحابي آخر؛ فإن خالفه صحابي آخر نظر في الترجيح أيهما أقرب إلى الصواب.

{لَمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ} أي للذي اختلفوا فيه؛ والضمير في قوله تعالى: **{اخْتَلَفُوا}** يعود إلى الذين أوتوا الكتاب **{بِإِذْنِهِ}** أي بمشيئته، وإرادته؛ ولكنه سبحانه وتعالى لا يشاء شيئاً إلا لحكمة. وفي هذا إيماء إلى أن الله بعث بالإسلام لإرجاع الناس إلى الحق وإلى التوحيد الذي كانوا عليه، أو لإرجاعهم إلى الحق الذي جاءت الرسل لتحصيله، فاختلف أتباعهم فيه بدلاً من أن يحققوا بفهامهم مقاصد ما جاءت به رسالهم، فحصل بما في الإسلام من بيان القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وضوح الحق والإرشاد إلى كيفية أخذه، فحصل بمجيء الإسلام إتمام مراد مما أنزل من الشرائع السالفة.

وفي الآية أنه يجب على المرء الذي هداه الله ألا يعجب بنفسه، وألا يظن أن ذلك من حوله وقوته؛ لقوله تعالى: **{فَهْدَى اللَّهُ}**، ثم قال تعالى: **{يَاذْنِهِ}** أي أمره الكوني القدري؛ ولولا ذلك لكانوا مثل هؤلاء الذين ردوا الحق بغياً وعدواناً.

{وَاللَّهُ يَهْدِي} للهداية هنا بمعنى الدلالة، والتوفيق؛ فهي شاملة للنوعين **{مَنْ يَشَاءُ}** يعني ممن يستحق الهداية؛ لأن كل شيء علق بمشيئة الله فإنه تابع لحكمته؛ فهو سبحانه وتعالى يهدي من يشاء إذا كان أهلاً للهداية؛ كما أنه سبحانه وتعالى يجعل الرسالة في أهلها فإنه يجعل الهداية في أهلها، كما قال تعالى: **{اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}** [الأنعام: ١٢٤]، كذلك هو أعلم حيث يجعل هدايته.

{إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} تذييل لبيان أن فضل الله يعطيه من يشاء، وهذا إجمال، وتفصيله أن حكمة الله اقتضت أن يتأخر تمام الهدى إلى وقت مجيء شريعة الإسلام لما تهيأ البشر بمجيء الشرائع السابقة لقبول هذه الشريعة الجامعة، فكانت الشرائع السابقة تمهيدا وتهيئة لقبول دين الإسلام.

ولذا قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} [آل عمران: ١٩]

وفي البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (مَثَلُ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ عَلَى أَجْرِ مَعْلُومٍ فَعَمِلُوا لَهُ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالُوا لَا حَاجَةَ لَنَا إِلَى أَجْرِكَ الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا وَمَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ فَقَالَ لَهُمْ لَا تَفْعَلُوا أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا فَأَبَوْا وَتَرَكُوا وَاسْتَأْجَرَ أَجِيرَيْنِ بَعْدَهُمْ فَقَالَ لَهُمَا أَكْمِلَا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمَا هَذَا وَلَكُمَا الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمَا مِنْ الْأَجْرِ فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينَ صَلَاةِ الْعَصْرِ قَالَا لَكَ مَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ وَلَكَ الْأَجْرُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ فَقَالَ لَهُمَا أَكْمِلَا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمَا مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ فَأَبَيَا وَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الْفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ وَمَثَلُ مَا قَبِلُوا مِنْ هَذَا النُّورِ

وفي رواية: (فقال اليهود والنصارى ما لنا أكثر عملا وأقل عطاء، قال هل ظلمتكم من حقكم شيئا؟ قلوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيته من أشياء).

ولما كان هذا الختام منقبة للمسلمين أوقفوا أن لا يزهوا بهذا الشئ فيحسبوا أنهم قضوا حق شكر النعمة فعقب بأن عليهم أن يصبروا لما عسى أن يعترضهم في طريق إيمانهم من البأساء والضراء اقتداء بصالحى الأمم السالفة، فكما حذرهم الله من الوقوع فيما وقع فيه الضالون من أولئك الأمم، حرضهم هنا على الاقتداء بهدى المهتدين منهم على عادة القرآن في تعقيب البشارة بالندارة وعكس ذلك، فقال تعالى:

{أَمْ حَسِبْتُمْ} بل ظننتم {أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ} دون بلوى، وهو حسابان باطل لا ينبغي اعتقاده.

ودخول الجنة هنا دخولها بدون سبق عناء وبلوى، وهو دخول الذين استوفوا كل ما وجب عليهم ولم يقصروا في شيء منه، وإلا فإن دخول الجنة محسوب لكل مؤمن ولو لم تأت البأساء والضراء، أو أتته ولم يصبر عليها، بمعنى أن الصبر على ذلك وعدم الضجر منه موجب لغفران الذنوب، أو المراد من ذلك أن نالهم البأساء

فيصبروا ولا يرتدوا عن الدين، لذلك فيكون دخول الجنة متوقفا على الصبر على البأساء والضراء بهذا المعنى، وتطرق هاته الحالة سنة من سنن الله تعالى في أتباع الرسل في أول ظهور الدين وذلك من أسباب مزيد فضائل أتباع الرسل، فلذلك هيئ المسلمون لتلقيه من قبل وقوعه لطفاً بهم ليكون حصوله أهون عليهم.

وقد لقي المسلمون في صدر الإسلام من أذى المشركين البأساء والضراء وأخرجوا من ديارهم وتحملوا مضض الغربة، فلما وردوا المدينة لقوا من أذى اليهود في أنفسهم وأذى المشركين في قرابتهم وأموالهم بمكة ما كدر عليهم صفو حفاوة الأنصار بهم، كما أن الأنصار لقوا من ذلك شدة المضايقة في ديارهم بل وفي أموالهم، فقد كان الأنصار يعرضون على المهاجرين أن يتنازلوا لهم عن حظ من أموالهم.

{وَلَمَّا} حرف نفي، وجزم؛ والفرق بينها وبين «لم»: أن «لما» للنفي مع توقع وقوع المنفي؛ و «لم» للنفي دون ترقب وقوعه؛ مثاله: إذا قلت: «لم يقم زيد» فقد نفيت قيامه من غير ترقب لوقوعه، ولو قلت: «لما يقم زيد» فقد نفيت قيامه مع ترقب

وقوعه؛ ومنه قوله تعالى: {أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ} [ص:٨]

{يَأْتِكُمْ} الإتيان مجاز في الحصول، لأن الشيء الحاصل بعد العدم يجعل كأنه أتى من مكان بعيد {مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا} هم الأمم الذين مضوا وانقرضوا، وأصل خلوا: خلا منهم المكان، فبولغ في إسناد الفعل فأسند إليهم ما هو من صفات مكانهم.

{مِنْ قَبْلِكُمْ} فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى {مِنْ قَبْلِكُمْ} إذا كانت {خلوا} بمعنى مضوا؟ نقول: هذا من باب التوكيد؛ والتوكيد قد يأتي بالمعنى مع اختلاف اللفظ، كما في قوله تعالى: {وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} [البقرة: ٢٠]؛ فإن الإفساد هو العتو؛ فهو مؤكد لعامله.

{مَسَّتْهُمْ الْبُسَاءُ وَالضَّرَاءُ} حلت بهم البأساء والضراء {وَزُلْزِلُوا} أي أزعجوا أو اضطربوا، وإنما الذي اضطرب نظام معيشتهم قال تعالى: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا} [الأحزاب: ١١]

هذه ثلاثة أشياء؛ {البأساء} قالوا: إنها شدة الفقر مأخوذة من البؤس؛ وهو الفقر الشديد؛ و{الضراء} قالوا: إنها المرض،

والمصائب البدنية؛ و{زلزلوا}: «الزلزلة» هنا ليست زلزلة الأرض؛ لكنها زلزلة القلوب بالمخاوف، والقلق، والفتن العظيمة، والشبهات، والشهوات؛ فتكون الإصابات هنا في ثلاثة مواضع: في المال؛ والبدن؛ والنفس.

{حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ} استفهام مستعمل في استبطاء زمان النصر، وهو هنا للاستعجال -أي استعجال النصر-؛ وليس للشك فيه.

{أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ} بشارة من الله تعالى للمسلمين بقرب النصر بعد أن حصل لهم من قوارع صدر الآية ما ملأ القلوب رعباً، والقصد منه إكرام هذه الأمة بأنها لا يبلغ ما يمسه مبلغ ما مس من قبلها. وإكرام للرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بألا يحتاج إلى قول ما قالته الرسل قبله من استبطاء نصر الله بأن يجيء نصر الله لهاته الأمة قبل استبطائه.

وفي الآية:

****** عناية الله عزّ وجلّ بهذه الأمة، حيث يسليها بما وقع بغيرها؛ لقوله تعالى: **{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ...}** إلخ؛ وهكذا كما جاء في القرآن جاء في

السنة؛ فروى البخاري عن خَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ
شَكُونَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ
فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ قُلْنَا لَهُ أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ:
(كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُخْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ
بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ
وَيُمَشِّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ وَمَا
يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ) تثبيتاً للمؤمنين.

** أن الإيمان ليس بالتمني، ولا بالتحلي؛ بل لا بد من نية
صالحة، وصبر على ما يناله المؤمن من أذى في الله عز وجل.

** حكمة الله عز وجل، حيث يتلي المؤمنين بمثل هذه
المصائب العظيمة امتحاناً حتى يتبين الصادق من غيره، كما قال
تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ
أَخْبَارَكُمْ} [محمد: ٣١]؛ فلا يُعرف زيف الذهب إلا إذا أذنباه
بالنار؛ ولا يُعرف طيب العود إلا إذا أحرقناه بالنار؛ أيضاً لا يعرف
المؤمن إلا بالابتلاء والامتحان؛ فعليك يا أخي بالصبر.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ
خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ
لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا
شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦)

{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ} سؤال عن المقدار والمصرف، أي ما
ينفق وأين ينفق، فإن الإنفاق حقيقة معروفة في البشر، وقد عرفها
السائلون في الجاهلية. فكانوا في الجاهلية ينفقون على الأهل
وعلى الندامى وينفقون في الميسر، يقولون فلان يتمم أيساره أي
يدفع عن أيساره أقساطهم من مال المقامرة، ويتفاخرون بإتلاف
المال. فسألوا في الإسلام عن المعتد به من ذلك دون غيره.

وفي الآية حرص الصحابة رضي الله عنهم على السؤال عن
العلم؛ وقد وقع سؤالهم لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في
القرآن أكثر من اثنتي عشرة مرة.

{قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ} بيان ما ينفقون، ويتناول القليل
والكثير، ويدل على طيب المنفق، وكونه حلالاً، لأن الخبيث منهي
عنه بقوله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا**

أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ
بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ {
[البقرة: ٢٦٧] وما ورد من أن الله طيب لا يقبل إلا الطيب، ولأن
الحرام لا يقال فيه خير.

وفي الآية: أنه ينبغي للإنسان ألا يحقر من المعروف شيئاً؛
لقوله تعالى: {وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ} [البقرة: ١٩٧]؛
ويقول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (اتقوا النار ولو بشق تمرة)
{فَلِللَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ} القرابة لهم حق؛ لأنهم من الأرحام؛
لكن الأقرب أولى من الأبعد.. بدأ في المصرف بالأقرب فالأقرب،
ثم بالأحوج فالأحوج.

{وَالْيَتَامَى} جمع يتيم؛ وهو مشتق من اليتيم، وهو الانفراد؛
والمراد به من مات أبوه ولم يبلغ، فإذا بلغ استقل بنفسه، فلم يكن
يتيماً.

وفي الآية أن لليتامى حقاً في الإنفاق -ولو كانوا أغنياء-؛ لأنه
خصهم بالذكر، ثم ذكر بعدهم المساكين.

{وَالْمَسَاكِينِ} جمع مسكين؛ وهو المعدم الذي ليس عنده
مال؛ سمي كذلك؛ لأن الفقر قد أسكنه، وأذله؛ والمسكين هنا

يدخل فيه الفقير؛ لأنه إذا ذكر المسكين وحده دخل فيه الفقير؛
وإذا ذكر الفقير وحده دخل فيه المسكين؛ وإذا اجتمعا صار الفقير
أشد حاجة من المسكين؛ فيفترقان.

{وَابْنِ السَّبِيلِ} هو المسافر الذي انقطع به السفر؛ والسبيل
هو الطريق؛ وسمي ابناً للسبيل؛ لأنه ملازم له -أي للسبيل-؛ وكل
ما لازم شيئاً فهو ابن له، كما يقال: «ابن الماء» لطير الماء؛ لأنه
ملازم له؛ وإنما ذكر الله ابن السبيل؛ لأنه غريب في مكانه، قد
يحتاج ولا يُعلم عن حاجته.

وجائز بإجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك.
والآية دالة على الأمر بالإنفاق على هؤلاء والترغيب فيه، وهي
في النفقة التي ليست من حق المال أعني «الزكاة» ولا هي من حق
الذات من حيث إنها ذات كالزوجة، بل هذه النفقة التي هي من
حق المسلمين بعضهم على بعض لكفاية الحاجة وللتوسعة، وأولى
المسلمين بأن يقوم بها أشدهم قرابة بالمعوزين منهم، فمنها واجبة
كنفقة الأبوين الفقيرين والأولاد الصغار الذين لا مال لهم إلى أن
يقدروا على التكسب أو ينتقل حق الإنفاق إلى غير الأبوين، وذلك
كله بحسب عادة أمثالهم، وفي تحديد القرى الموجبة للإنفاق

خلاف بين الفقهاء. فليست هذه الآية بمنسوخة بآية الزكاة، إذ لا تعارض بينهما حتى نحتاج للنسخ، وليس في لفظ هذه الآية ما يدل على الوجوب حتى يظن أنها نزلت في صدقة واجبة قبل فرض الزكاة.

وفي الآية: أن من حسن الإجابة أن يزيد المسئول على ما يقتضيه السؤال إذا دعت الحاجة إليه؛ فإنهم سألوا عما ينفقون، وكان الجواب عما ينفقون، وفيما ينفقون؛ ونظير ذلك أن النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سئل عن الوضوء بماء البحر؟ فقال: (هو الطهور ماؤه الحل ميتته).

ولما كان أولاً السؤال عن خاص، أجيبوا بخاص، ثم أتى بعد ذلك الخاص التعميم في أفعال الخير، وذكر المجازاة على فعلها **{وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}** دلالة على المجازاة، لأنه إذا كان عالماً به جازى عليه، فهي جملة خبرية، وتتضمن الوعد بالمجازاة.

{كُتِبَ} فرض **{عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ}** يعود على القتال؛ وليس يعود على الكتابة؛ فإن المسلمين لا يكرهون ما فرضه الله عليهم؛ وإنما يكرهون القتال بمقتضى الطبيعة البشرية؛ وفرق بين أن يقال:

إننا نكره ما فرض الله من القتال؛ وبين أن يقال: إننا نكره القتال؛ فكراهة القتال أمر طبيعي؛ فإن الإنسان يكره أن يقاتل أحداً من الناس فيقتله؛ فيصبح مقتولاً؛ لكن إذا كان هذا القتال مفروضاً علينا صار محبوباً إلينا من وجه، ومكروهاً لنا من وجه آخر؛ فباعتبار أن الله فرضه علينا يكون محبوباً إلينا؛ ولهذا كان الصحابة -رضي الله عنهم- يأتون إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- يصرون أن يقاتلوا؛ وباعتبار أن النفس تنفر منه يكون مكروهاً إلينا.

{كُرْهٌ} مكروه {لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ}

فالقتال مكروه بالطبع لما فيه من التعرض للقتل والأسر، وإفناء الأبدان وألم الجراح، وإتلاف الأموال. فضلاً عن ذلهم، وضعف أمرهم، واستئصال شأفتهم، وسبى ذراريهم، ونهب أموالهم، وملك بلادهم.

والخير الذي فيه هو الظفر، والغنيمة، وأعظمه الشهادة وهي الحالة التي تمنّاها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مراراً. ومعلوم أن كراهية الطبع لا تنافي تلقي التكليف به برضا لأن أكثر التكليف لا يخلو عن مشقة.

وهذا الكلام تُلطف من الله تعالى لرسوله والمؤمنين، وإن كان سبحانه غنيا عن البيان والتعليل، لأنه يأمر فيطاع. ولكن في بيان الحكمة تخفيفا من مشقة التكليف، وفيه تعويد المسلمين بتلقي الشريعة معللة مدللة، فأشار إلى أن حكمة التكليف تعتمد المصالح ودرء المفاسد، ولا تعتمد ملائمة الطبع ومنافرته، إذ قد يكره الطبع شيئا وفيه نفعه، وقد يحب شيئا وفيه هلاكه، وذلك باعتبار العواقب والغايات، فإن الشيء قد يكون لذيذا ملائما ولكن ارتكابه يفضي إلى الهلاك، وقد يكون كريها منافرا وفي ارتكابه صلاح. وشأن جمهور الناس الغفلة عن العاقبة والغاية أو جهلها، فكانت الشرائع وحملتها من العلماء والحكماء تحرض الناس على الأفعال والتروك باعتبار الغايات والعواقب.

{وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ} في هذه الآية نتلمس أسرار الأقدار العجيبة، تلك الأقدار التي قد تخفي في طيات نعمتها العاجلة نعمة آجلة، وتدخر للراضين الشاكرين الصابرين من كنوز الأجر ما لا تتوقعه نفس.

تلك الأقدار التي رفعت من شأن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، وبلال العبد الحبشي الأسود، وعبد الله بن مسعود الراعي الضعيف

—رضي الله عنهم أجمعين— وفي نفس الوقت حطت من قدر عبد الله بن أبي ابن سلول سيد يثرب ومليكما المتوج.

بل تلك الأقدار التي رفعت من شأن العرب الأمة الأمية البدوية، ووضعت من شأن الفرس والروم أمم التحضر والتمدن والعزة والمنعة.

قال المفسرون: «عسى» الأولى للإشفاق لا للترجي، ومجيئها للإشفاق قليل، و«عسى» الثانية للترجي، ومجيئها له هو الكثير في لسان العرب.

{وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} ما يعلمه الله تعالى، لأن عواقب الأمور مغيبة عن عملكم، وفي هذا الكلام تنبيه على الرضا بما جرت به المقادير، قال الحسن: "لا تكرهوا الملمات الواقعة، فلرب أمر تكرهه فيه أربك، ولرب أمر تحبه فيه عطبك".
وقال أبو سعيد الضريير:

رب أمر تتقيه.. جر أمراً ترتضيه
خفى المحبوب من.. هو بدا المكروه فيه
وقال الواححي:
ربما خير الفتى.. وهو للخير كاره

وقال ابن السرحان:

كم فرحة مطوية لك .. بين أثناء المصائب

ومسرة قد أقبلت من .. حيث تنتظر النوائب

وعن عبد الرحمن بن أبي حاتم عن أبيه قال: بعث المتوكل إلى

محمد بن الليث رسولاً، وقد كان بقي مدة في منزله، فلما أتاه

الرسول (امتثل) فركب بلا روح خوفاً، فمرّ به رجل وهو يقول:

كم مرّة حفت بك المكاره .. خار لك الله وأنت كاره

فلما دخل على المتوكل، ولّاه مصر، وأمر له بمائة ألف وجميع

ما يحتاج إليه من الآلات والدواب والغلمان.

وفي أضواء البيان: قوله تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ

خَيْرٌ لَكُمْ}، لم يصف هذا الخير هنا بالكثرة وقد وصفه بها في

قوله: {فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا

كثيراً} [النساء: ١٩].

وكذلك جميع المنهيات؛ فإن النفس تحبها بالطبع، وتشره

إليها، وهي تُفضي بها إلى ذلها وهوانها، وعبر الحق سبحانه بعسى؛

لأن النفس إذا ارتاضت انعكس الأمر عليها، فيخف عليها أمر

الطاعة، ويصعب عليها أمر المخالفة، **{وَاللَّهُ يَعْلَمُ}** ما فيه مصلحتكم، **{وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}**؛ لجهلكم بعواقب أموركم.

فإن قلت: ما الحكمة في جعل أشياء كثيرة نافعة مكروهة، وأشياء كثيرة ضارة محبوبة، وهلا جعل الله تعالى النافع كله محبوباً، والضار كله مكروهاً، فتنساق النفوس للنافع باختيارها وتجتنب الضار كذلك فنكفى كلفة مسألة الصلاح والأصلح التي تناظر فيها الأشعري مع شيخه الجبائي وفارق الأشعري من أجلها نحلة الاعتزال؟.

قلت: إن حكمة الله تعالى بنت نظام العالم على وجود النافع والضار والطيب والخبيث من الذوات والصفات والأحداث، وأوكل للإنسان سلطة هذا العالم بحكم خلقه الإنسان صالحاً للأميرين وأراه طريقي الخير والشر، وقد اقتضت الحكمة أن يكون النافع أكثر من الضار، ولعل وجود الأشياء الضارة كونه الله لتكون آلة لحمل ناس على اتباع النافع، كما قال تعالى: **{وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ}** [الحديد: ٢٥]، وقد أقام نظام هذا العالم على وجود المتضادات، وجعل الكمال الإنساني حاصلًا عند حصول جميع الصفات النافعة فيه، بحيث إذا اختلت بعض

الصفات النافعة منه انتقصت ببقية الصفات النافعة منه أو اضمحلت، وجعل الله الكمال أقل من النقص لتظهر مراتب النفوس في هذا العالم ومبالغ العقول البشرية فيه، فاكسب الناس وضيعوا وضروا ونفعوا فكثر الضار وقل النافع بما كسب الناس وفعلوا، قال تعالى: **{قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ}**.

وكما صارت الذوات الكاملة الفاضلة أقل من ضدها، صارت صفات الكمال عزيزة المنال، وأُحيطت عزتها ونفاستها بصعوبة منالها على البشر وبما يحف بها من الخطر والمتاعب، لأنها لو كانت مما تنساق لها النفوس بسهولة لاستوى فيها الناس فلم تظهر مراتب الكمال ولم يقع التنافس بين الناس في تحصيل الفضائل واقتحام المصاعب لتحصيلها.

فهذا سبب صعوبة الكمالات على النفوس... **{وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}** أي والله يعلم الخير والشر وأنتم لا تعلمونهما، لأن الله يعلم الأشياء على ما هي عليه، والناس يشته عليهم العلم فيظنون الملائم نافعاً والمنافر ضاراً.

والمقصود من هذا تعليم المسلمين تلقي أمر الله تعالى باعتقاد أنه الصلاح والخير، وأن ما لم تتبين لنا صفته من الأفعال المكلف بها نوقن بأن فيه صفة مناسبة لحكم الشرع فيه فتطلبها بقدر الإمكان عسى أن ندركها، لنفرع عليها ونقيس ويدخل تحت هذا مسائل مسالك العلة، لأن الله تعالى لا يجري أمره ونهيه إلا على وفق علمه.

وهناك قصة من التراث الإنساني تحكي قضية رجل من الصين، وكان الرجل يملك مكانا متسعا وفيه خيل كثيرة، وكان من ضمن الخيل حصان يحبه. وحدث أن هام ذلك الحصان في المراعي ولم يعد، فحزن عليه، فجاء الناس ليعزوه في فقدده الحصان، فابتسم وقال لهم: ومن أدراكم أن ذلك شر لتعزوني فيه؟

وبعد مدة فوجئ الرجل بالجواد ومعه قطع من الجياد يجره خلفه، فلما رأى الناس ذلك جاءوا ليهنئوه، فقال لهم: وما أدراكم أن ذلك خير، فسكت الناس عن التهئة. وبعد ذلك جاء ابنه ليركب الجواد فانطلق به، وسقط الولد من فوق الحصان فانكسرت ساقه، فجاء الناس مرة أخرى ليواسوا الرجل فقال لهم: ومن أدراكم أن ذلك شر؟

وبعد ذلك قامت حرب فجمعت الحكومة كل شباب البلدة ليقاتلوا العدو، وتركوا هذا الابن؛ لأن ساقه مكسورة، فجاءوا يهنئونه، فقال لهم: ومن أدراكم أن ذلك خير؟ فعلينا ألا نأخذ كل قضية بظاهرها، إن كانت خيراً أو شراً، لكن علينا أن نأخذ كل قضية من قضايا الحياة في ضوء قول الحق: {لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} [الحديد: ٢٣] .. [تفسير الشعراوي: ٥٧٤/١]

هكذا يواجه الإسلام الفطرة، لا منكراً عليها ما يطوف من المشاعر الطبيعية، ولا مريداً لها على الأمر الصعب بمجرد التكليف. ولكن مربياً لها على الطاعة، ومفسحاً لها في الرجاء. لتبذل الذي هو أدنى في سبيل الذي هو خير؛ ولترتفع على ذاتها متطوعة لا مجبرة، ولتحس بالعطف الإلهي الذي يعرف مواضع ضعفها، ويعترف بمشقة ما كتب عليها، ويعذرهما ويقدرهما؛ ويحدو لها بالتسامي والتطلع والرجاء.

وهكذا يربي الإسلام الفطرة، فلا تمل التكليف، ولا تجزع عند الصدمة الأولى، ولا تخور عند المشقة البادية، ولا تخجل وتتهاوى عند انكشاف ضعفها أمام الشدة. ولكن تثبت وهي تعلم أن الله

يعذرهما ويمدها بعونه ويقويها. وتصمم على المضي في وجه المحنة، فقد يكمن فيها الخير بعد الضر، واليسر بعد العسر، والراحة الكبرى بعد الضنى والعناء. ولا تنهالك على ما تحب وتلتذ. فقد تكون الحسرة كامنة وراء المتعة! وقد يكون المكروه مختبئاً خلف المحبوب. وقد يكون الهلاك متربصاً وراء المطعم البراق.

إنه منهج في التربية عجيب. منهج عميق بسيط. منهج يعرف طريقه إلى مسارب النفس الإنسانية وحناياها ودروبها الكثيرة. بالحق وبالصدق. لا بالإيحاء الكاذب، والتمويه الخادع.. فهو حق أن تكره النفس الإنسانية القاصرة الضعيفة أمراً ويكون فيه الخير كل الخير. وهو حق كذلك أن تحب النفس أمراً وتنهالك عليه. وفيه الشر كل الشر. وهو الحق كل الحق أن الله يعلم والناس لا يعلمون! وماذا يعلم الناس من أمر العواقب؟ وماذا يعلم الناس مما وراء الستر المسدل؟ وماذا يعلم الناس من الحقائق التي لا تخضع للهوى والجهل والقصور؟!!

وكل إنسان -في تجاربه الخاصة- يستطيع حين يتأمل أن يجد في حياته مكروهات كثيرة كان من ورائها الخير العظيم. ولذات كثيرة كان من ورائها الشر العظيم. وكم من مطلوب كاد الإنسان

يذهب نفسه حسرات على فوته؛ ثم تبين له بعد فترة أنه كان إنقاذاً من الله أن فوت عليه هذا المطلوب في حينه. وكم من محنة تجرّعها الإنسان لاهثاً يكاد يتقطع لفظاعتها. ثم ينظر بعد فترة فإذا هي تنشئ له في حياته من الخير ما لم ينشئه الرخاء الطويل. إن الإنسان لا يعلم. والله وحده يعلم. فماذا على الإنسان لو يستسلم؟

إن هذا هو المنهج التربوي الذي يأخذ القرآن به النفس البشرية. لتؤمن وتسلم وتستسلم في أمر الغيب المخبوء، بعد أن تعمل ما تستطيع في محيط السعي المكشوف. [في ظلال القرآن: ١/٢٠٣-٢٠٤]

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ
وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ
أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ
يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتِطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ
مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

(٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨)

لما أخبر تعالى أنه كتب على المؤمنين القتال أرسل النبي -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سرية بقيادة عبد الله بن جحش في ثمانية
معه -وكانت أول سرية في الإسلام- يترصدون عير قريش بطن
نخلة. فشاء الله تعالى أن يلقي عبد الله ورجاله عيراً لقريش قافلة من
الطائف فقاتلوهم، فقتلوا منهم رجلاً يدعى عمرو بن الحضرمي
وكان أول قتيل من المشركين، وأسروا اثنين وكانا أول أسيرين في
الإسلام، وأخذوا العير وقفلوا راجعين، وكان ذلك في آخر يوم من
جمادى الثانية على ظنهم، وهو أول يوم من رجب.

فثارت ثائرة قريش وقالت: "محمد يحل الشهر الحرام بالقتال
فيه"، وردد صوتها اليهود والمنافقون بالمدينة حتى أن رسول الله -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وقف العير والأسيرين، ولم يقض فيهما
بشيء، وتعرض عبد الله بن جحش ورفاقه لنقد ولوم عظيمين من
أكثر الناس، وما زال الأمر كذلك حتى أنزل الله تعالى هاتين
الآيتين، فخمس العير رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فكان
أول خمس في الإسلام.

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ} أي المحرم، وكان شهر رجب
{قِتَالٍ فِيهِ} أي عن القتال فيه {قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ} ذنبٌ عظيم،
ووزر كبير، بيد أن الصد عن دين الله والكفر به تعالى وكذا الصد
عن المسجد الحرام، وإخراج الرسول منه والمؤمنين، وهم أهله
وولاته بحق، أعظم وزراً في حكم الله تعالى {وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}
صرف عن دين الله الإسلام {وَكُفْرٌ بِهِ} كفر بالله تعالى {وَالْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ} مكة والمسجد الحرام فيها {وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ} النبي -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والمهاجرون {أَكْبَرُ} أعظم وزراً {عِنْدَ اللَّهِ}
كما أن شرك المشركين في الحرم، وفتنة المؤمنين فيه لإرجاعهم
عن دينهم الحق إلى الكفر بشتى أنواع التعذيب أعظم من القتل في
الشهر الحرام {وَالْفِتْنَةُ} الشرك واضطهاد المؤمنين ليكفروا {أَكْبَرُ
مِنَ الْقَتْلِ} مضافاً إلى كل هذا عزمهم على قتال المؤمنين إلى أن
يردوهم عن دينهم إن استطاعوا {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ
عَن دِينِكُمْ} خوطب به المؤمنون، وانتقل عن خطاب رسول الله -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى خطاب المؤمنين، وهذا إخبار من الله
للمؤمنين بفرط عداوة الكفار، ومباينتهم لهم، ودوام تلك العداوة،

وأن قتالهم إياكم معلق بإمكان ذلك منهم لكم، وقدرتهم على ذلك
{إِنْ اسْتَطَاعُوا} استبعاد لاستطاعتهم.

{وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ} وهذان شرطان
أحدهما معطوف على الآخر بالفاء المشعرة بتعقيب الموت على
الكفر بعد الردة واتصاله بها، ورتب عليه حبوط العمل في الدنيا
والآخرة.

وظاهر هذا الشرط والجزاء ترتب حبوط العمل على الموافقة
على الكفر، لا على مجرد الارتداد، وهذا مذهب جماعة من
العلماء، منهم: الشافعي، وقد جاء ترتب حبوط العمل على مجرد
الكفر في قوله: **{وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي
الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [المائدة: ٥] **{وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [الأنعام: ٨٨] **{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ
حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** [الأعراف: ١٤٧]
**{وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ
عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}** [الزمر: ٦٥] والخطاب في المعنى
لأئمة، وإلى هذا ذهب مالك، وأبو حنيفة، وغيرهما، يعني: أنه
يحبط علمه بنفس الردة دون الموافقة عليها، وإن راجع الإسلام،

وثمره الخلاف تظهر في المسلم إذا حج، ثم ارتد، ثم أسلم، فقال مالك: يلزمه الحج، وقال الشافعي: لا يلزمه الحج.

{فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ} بطل أجرها فلا يثابون عليها لردتهم، وميراثه في بيت المال لا يرثه ورثته **{فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}**

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا} تركوا ديارهم خوف الفتنة والاضطهاد في ذات الله **{وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ}** لأنه ما دام المرء في قيد الحياة لا يقطع أنه صائر إلى الجنة، ولو أطاع أقصى الطاعة، إذ لا يعلم بما يختم له، ولا يتكل على عمله، لأنه لا يعلم أقبل أم لا؟ وأيضاً فلأن المذكورة في الآية ثلاثة أوصاف، ولا بدّ مع ذلك من سائر الأعمال، وهو يرجو أن يوفقه الله لها كما وفقه لهذه الثلاثة.

{وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} لما ذكر أنهم طامعون في رحمة الله، أخبر تعالى أنه متصف بالرحمة، وزاد وصفاً آخر وهو أنه تعالى متصف بالغفران، فكأنه قيل: الله تعالى، عندما ظنوا وطمعوا في ثوابه، فالرحمة متحققة، لأنها من صفاته تعالى.

نزلت في عبد الله بن جحش وأصحابه، طمأنهم الله تعالى أنهم غير آثمين، وأنه تعالى غفور لذنوبهم رحيم بهم، وذلك لإيمانهم وهجرتهم وجهادهم في سبيل الله.

ولما أوجب الله تعالى الجهاد بقوله: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ} [البقرة: ٦١] ويُنَّ أن تركه سبب للوعيد، اتبع ذلك بذكر من يقوم به، ولا يكاد يوجد وعيد إلا ويتبعه وعد، وقد احتوت هذه الجملة على ثلاثة أوصاف، وجاءت مرتبة بحسب الوقائع والواقع، لأن الإيمان أولها، ثم المهاجرة، ثم الجهاد في سبيل الله. ولما كان الإيمان هو الأصل أفرد به موصول وحده، ولما كانت الهجرة والجهاد فرعين عنه أفردا بموصول واحد، لأنهما من حيث الفرعية كالشيء الواحد.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

الْمُفْسِدَ مِنَ الْمَصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)

كان العرب في الجاهلية يشربون الخمر ويقامرون، وجاء الإسلام فبدأ دعوتهم إلى التوحيد والإيمان بالبعث الآخر إذ هما الباعث القوي على الاستقامة في الحياة، ولما هاجر الرسول -صلى الله عليه وسلم- والعديد من أصحابه، وأصبحت المدينة تمثل مجتمعاً إسلامياً، وأخذت الأحكام تنزل شيئاً فشيئاً، فحدث يوماً أن صلى أحد الصحابة بجماعة وهو ثملان فخلط في القراءة فنزلت آية النساء {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى} [النساء: ٤٣] فكانوا لا يشربونها إلا في أوقات معينة، وهنا كثرت التساؤلات حول شرب الخمر فنزلت هذه الآية {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ} فأجابهم الله تعالى بقوله {قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا} فترك الكثير كلاً من شرب الخمر ولعب القمار لهذه الآية.

وبقي آخرون، فكان عمر يتطلع إلى منعها منعاً باتاً ويقول: "اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً" فاستجاب الله تعالى له، ونزلت آية المائدة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ

وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ {
[المائدة: ٩٠] إلى قوله {فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} [المائدة: ٩١] فقال
عمر: "انتهينا ربنا"

وبذلك حرمت الخمر وحرم الميسر تحريماً قطعياً كاملاً، ووضع
الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حدَّ الخمر وهو الجلد. وحذر من
شربها وسماها «أم الخبائث»، وروى ابن حبان من حديث ابن عمر
-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:
(ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُ لِوَالِدَيْهِ، وَمُدْمِنُ الْخَمْرِ،
وَالْمَنَّانُ بِمَا أُعْطِيَ)

وعن أنس بن مالك -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "حرمت الخمر ولم
يكن يومئذ للعرب عيش أعجب منها، وما حرم عليهم شيء أشد
عليهم من الخمر".

فلا جرم أن جاء الإسلام في تحريمها بطريقة التدرج، فأقر
حقبة إباحة شربها وحسبكم في هذا الامتنان بذلك في قوله تعالى:
{وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَنًا {
[النحل: ٦٧] وآية سورة النحل نزلت بمكة، واتفق أهل الأثر على
أن تحريم الخمر وقع في المدينة بعد غزوة الأحزاب بأيام

فقد امتن الله على الناس بأن اتخذوا سكرًا من الثمرات التي خلقها لهم، ثم إن الله لم يهمل رحمته بالناس حتى في حملهم على مصالحهم فجاءهم ذلك بالتدرج، ف قيل: إن آية سورة البقرة هذه هي أول آية آذنت بما في الخمر من علة التحريم، فيكون وصفها بما فيها من الإثم والمنفعة تنبيها لهم، إذ كانوا لا يذكرون إلا محاسنها فيكون تهيئة لهم إلى ما سيرد من التحريم،

{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ} هي كل ما خامر العقل وغطاه، فأصبح شاربها لا يميز ولا يعقل **{وَالْمَيْسِرِ}** القمار، وسمي ميسراً لأن صاحبه ينال المال بيسر وسهولة **{قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ}** هو كل ضار فاسد بالنفس أو العقل أو البدن أو المال أو العرض، وفسدوه بذهاب العقل، والسباب، والافتراء، والتعدي الذي يكون من شاربها **{كَبِيرٌ}** فهو كما قال تعالى في سورة المائدة **{إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ}** [المائدة: ٩١]

ويمكن وصف الإثم بالكثرة باعتبار كثرة الآثمين، فقد قال - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَعَنَ اللَّهُ الْخَمْرَ، وَلَعَنَ شَارِبَهَا وَسَاقِيَهَا

وَعَاصِرَهَا وَمُعْتَصِرَهَا وَبَائِعَهَا وَمُبْتَاعَهَا وَحَامِلَهَا وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ وَآكِلَ ثَمَنِهَا [أحمد]

{وَمَنَافِعُ} جمع منفعة، وهي ما يسرّ ولا يضر من سائر الأقوال والأفعال والموادّ **{لِلنَّاسِ}** منها الربح في تجارة الخمر وصنعها، وما تكسب شاربها من النشوة والفرح والسخاء والشجاعة، وأما المسير فمن منفعه الحصول على المال بلا كد ولا تعب وانتفاع بعض الفقراء به، إذا كانوا يقامرون على الجزور من الإبل ثم يذبح ويعطى للفقراء والمساكين **{وَأِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا}**

فإن قلت: ما الوجه في ذكر منافع الخمر والميسر مع أن سياق التحريم والتمهيد إليه يقتضي تناسي المنافع، قلت إن كانت الآية نازلة لتحريم الخمر والميسر فالفائدة في ذكر المنافع هي بيان حكمة التشريع ليعتاد المسلمون مراعاة علل الأشياء، لأن الله جعل هذا الدين دينا دائما وأودعه أمة أراد أن يكون منها مشرعون لمختلف ومتجدد الحوادث، فلذلك أشار لعلل الأحكام في غير موضع كقوله تعالى: **{أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا}** [الحجرات: ١٢] ونحو ذلك

وتخصيص التنصيص على العلل ببعض الأحكام في بعض الآيات إنما هو في مواضع خفاء العلل، فإن الخمر قد اشتهر بينهم نفعها، والميسر قد اتخذوه ذريعة لنفع الفقراء، فوجب بيان ما فيهما من المفاسد إنباء بحكمة التحريم.

وفائدة أخرى وهي تأنيس المكلفين عند فطامهم عن أكبر لذائذهم تذكيرا لهم بأن ربهم لا يريد إلا صلاحهم دون نكايتهم كقوله: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ} [البقرة: ٢١٦] وقوله: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} [البقرة: ١٨٣]

{وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ} سؤال نشأ عن استجابتهم لقول الله تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ١٩٥] فأرادوا أن يعرفوا الجزء الذي ينفقونه من أموالهم في سبيل الله، فأجابهم الله تبارك وتعالى بقوله: {قُلِ الْعَفْوَ} ما فضل وزاد عن حاجة الإنسان من المال، وهو هنا ما زاد على حاجة المرء من المال -أي فضل- بعد نفقته ونفقة عياله بمعتاد أمثاله.

وروى البخاري عن سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ -
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (خَيْرُ
الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ)

{كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} أي مثل هذا
البيان يبين الله لكم الشرائع الأحكام والحلال والحرام ليعدكم
بذلك إلى التفكير الواعي البصير في أمر الدنيا والآخرة، فتعملون
لدنياكم على حسب حاجتكم إليها، وتعملون لآخرتكم التي مردكم
إليها وبقاؤكم فيها على حسب ذلك **{فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ}**

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى} لما نزل قوله تعالى **{إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ
أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا}**
[النساء: ١٠] خاف المؤمنون والمؤمنات من هذا الوعيد الشديد،
وفصل من كان في بيته يتيم يكفله، فصل طعامه عن طعامه وشرابه
عن شرابه، وحصل بذلك عنت ومشقة كبيرة، وتساءلوا عن
المخرج، فنزلت هذه الآية، وبينت لهم أن المقصود هو إصلاح
مال اليتامى وليس هو فصله أو خلطه **{قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ}** مع
الخلط، خير من الفصل مع عدم الإصلاح، ودفع الحرج في
الخلط.

{وَإِنْ تَخَالَطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ} فتجعل نفقة اليتيم مع نفقة عياله بالتحري، إذ يشق عليه إفراده وحده بطعامه، فلا يجد بداً من خلطه بماله لعياله، فجاءت الآية بالرخصة في ذلك، أو المشاركة في الأموال والمتاجرة لهم فيها، فتناولون من الربح ما يختص بكم، وتتركون لهم ما يختص بهم.

والمراد بالأخوة أخوة الإسلام التي تقتضي المشاورة والرفق والنصح.

{وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} ثم زاد الله في منته عليهم يرفع الحرج في المخالطة، فقال تعالى: **{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ}** العنت المشقة الشديدة، أي أبقاكم في المشقة المترتبة على فصل أموالكم عن أموال اليتامى.

{إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} عزيز غالب يقدر على أن يعنت عباده ويخرجهم، لكنه حكيم لا يكلف إلا ما تتسع فيه طاقتهم.

وَلَا تَتَكِحُوا الْمُشْرَكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَئِمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَتَكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ

يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ
وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

روى الواحدى وغيره من المفسرين أن سبب نزول هذه الآية أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعث أبا مرثد الغنوي وكان حليفا لبني هاشم فبعثه إلى مكة سرا ليخرج رجلا من المسلمين، فسمعت بقدومه امرأة يقال لها عناق، وكانت خلية له في الجاهلية فأتته فقالت: ويحك يا مرثد ألا تخلو؟ فقال: إن الإسلام حرم ما كان في الجاهلية فقالت: فتزوجني قال: حتى أستاذن رسول الله فأتي النبي -صلى الله عليه وسلم- فاستأذنه فنهاه عن التزوج بها، لأنها مشركة فنزلت هذه الآية بسببه.

{وَلَا تَنْكِحُوا} لا تتزوجوا {الْمُشْرَكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ} أما الكتابيات فقد أباحهن الله تعالى بآية المائدة: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ} [المائدة: ٥]

وأجمع علماء الأمصار على جواز تزويج الكتابيات، غير أن مالكا وابن حنبل كرها ذلك مع وجود المسلمات والقدرة على نكاحهن.

ومن علماء الإسلام من كره تزويج الكتابية، وهو قول مالك في رواية ابن حبيب، وهو رواية عن عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه كتب إلى حذيفة بن اليمان وقد بلغه أنه تزوج يهودية أو نصرانية: أن خل سبيلها، فكتب إليه حذيفة: أترعم أنها حرام؟ فقال عمر: لا ولكنني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن.

وقال الطبري: وإنما كره عمر لهما تزوجهما حذرا من أن يقتدي بهما الناس فيزهدوا في المسلمات.

وذهبت طوائف من أهل العلم إلى الاستدلال بأن أهل الكتاب صاروا مشركين لقول اليهود عزيز ابن الله ولقول النصارى المسيح ابن الله، وأبوة الإله تقتضي ألوهية الابن، وإلى هذا المعنى جنح عبد الله بن عمر ففي "الموطأ" عنه: "لا أعلم شركا أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى" ولكن هذا مسلك ضعيف جدا، لأن إدخال أهل الكتاب في معنى المشركين بعيد عن الاصطلاح الشرعي، ونزلت هذه الآية وأمثالها وهو معلوم فاش، ولأنه إذا تم

في النصارى باطراد فهو لا يتم في اليهود، لأن الذين قالوا عزير ابن الله إنما هم طائفة قليلة من اليهود وهم أتباع "فنحاص" كما حكاه الفخر، فإذا كانت هذه الآية تمنع أن يتزوج المسلم امرأة يهودية أو نصرانية وأن يزوج أحد من اليهود والنصارى مسلمة فإن آية سورة العقود خصت عموم المنع بصريح قوله: **{وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ}** [المائدة: ٥]، وقد علم الله قولهم: **{الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ}** وقول الآخرين **{عَزِيرُ ابْنِ اللَّهِ}**

{وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ} فضلا عن حرة **{خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ}** حرة **{وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ}** أعجبكم حسننها وجمالها أو مالها أو نسبها ...

والمعنى: أن المشركة، وإن كانت فائقة في الجمال والمال والنسب، فالأمة المؤمنة خير منها، لأن ما فاقت به المشركة يتعلق بالدنيا، والإيمان يتعلق بالآخرة، والآخرة خير من الدنيا، فبالتوافق في الدين تكمل المحبة ومنافع الدنيا من الصحة والطاعة وحفظ الأموال والأولاد، وبالتباين في الدين لا تحصل المحبة ولا شيء من منافع الدنيا.

{وَلَا تُنكِحُوا} خاطب أولياء النساء المؤمنات، ولذا لا يصح
نكاح إلا بولي **{الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ**
وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ} لشرفه أو ماله أو سلطانه.

{أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ} بحالهم ومقالهم وأفعالهم،
فمخالطتهم مضرة ومفسدة لاسيما بالتزوج منهم، وفي الآية التنفير
من مخالطة المشركين عامة والترغيب في البعد عنهم.

قال في البحر المحيط: يحتمل أن يكون الدعاء بالقول،
كقول: **{وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا}** [البقرة: ١٣٥]
ويحتمل أن لا يكون القول، بل بسبب المحبة والمخالطة تسرق
إليه من طباع الكفار ما يحمله على الموافقة لهم في دينهم -
والعياذ بالله- فتكون من أهل النار.

وفي هذه الآية تنبيه على العلة المانعة من مناكحة الكفار، لما
هم عليه من الالتباس بالمحرّمات من: الخمر والخنزير، والانغماس
في القاذورات، وتربية النسل وسرقة الطباع من طباعهم، وغير ذلك
مما لا تعادل فيه شهوة النكاح في بعض ما هم عليه، وإذا نظر إلى
هذه العلل فهي موجودة في كل كافر وكافرة، فتقتضي المنع من
المناكحة مطلقاً.

{وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ} أحكام

دينه، أي: يظهرها ويكشفها بحيث لا يحصل فيها التباس **{لِلنَّاسِ**
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} لأن الآية متى كانت جلية واضحة، كانت بصدد
أن يحصل بها التذكر، فيحصل الامتثال لما دلت عليه تلك الآيات
من موافقة الأمر، ومخالفة النهي.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي
الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ
مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ
الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْى
شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣)

{وَيَسْأَلُونَكَ} وقبله {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى} وقبله {
وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ} بالواو العاطفة على **{يَسْأَلُونَكَ**
عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ} قيل: لأن السؤال عن الثلاثة في وقت واحد،
فجاء بحرف الجمع لذلك، كأنه قيل: جمعوا لك بين السؤال عن
الخمير والميسر، والسؤال عن كذا وكذا.

قال ابن عاشور: والباعث على السؤال أن أهل يثرب قد امتزجوا باليهود واستنوا بسنتهم في كثير من الأشياء، وكان اليهود يتباعدون عن الحائض أشد التباعد بحكم التوراة، ففي الإصحاح الخامس عشر من سفر اللاويين: "إذا كانت امرأة لها سيل دما في لحمها فسبعة أيام تكون في طمثها، وكل من مسها يكون نجسا إلى المساء، وكل ما تضطجع عليه يكون نجسا، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء، وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجسا سبعة أيام".

وَأَنَّ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ مَنْ كَانَتْ الْحَائِضُ عِنْدَهُمْ مَبْغُوضَةً فَقَدْ كَانَ بَنُو سُلَيْحٍ أَهْلُ بَلَدِ الْحَضَرِ، وَهُمْ مِنْ قُضَاعَةَ نَصَارَى إِنَّ حَاضَتِ الْمَرْأَةُ أَخْرَجُوهَا مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الرَّبْضِ حَتَّى تَطْهَرَ وَفَعَلُوا ذَلِكَ بِنَصْرَةَ ابْنَةِ الضَّيْنِ مَلِكِ الْحَضَرِ، فَكَانَتْ الْحَالُ مَظْنَةً حَيْرَةٍ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْأَمْرِ تَبَعْتُ عَلَى السُّؤَالِ عَنْهُ.

{عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى} الضر الذي ليس بفاحش؛ كما دل عليه الاستثناء في قوله تعالى: **{لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذَى}** [آل عمران: ١١١] إشارة إلى إبطال ما كان من التغليب في شأنه، وشأن المرأة الحائض في شريعة التوراة.

فقدم العلة على الحكم لتنفرد النفوس من الفعل قبل الحكم به؛
فيقع الحكم وقد تهيأت النفوس للاستعداد له، وقبوله.
ومن فوائد الآية: أنه لا ينبغي أن يستحيي الإنسان من سؤال
العلم.

ومنها أيضا: إثبات الحكمة فيما شرعه الله عز وجل؛ لكن من
الحكمة ما هو معلوم للخلق؛ ومنها ما ليس بمعلوم؛ لكننا نعلم أن
جميع أحكام الله الشرعية والقدرية مقرونة بالحكمة.

{فَاعْتَرِلُوا النِّسَاءَ} الحائضات {فِي الْمَحِيضِ} مكان الحيض
وهو الفرج **{وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ}** لا تقربوا جماعهن.

روى أحمد عن أنس بن مالك -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ الْيَهُودَ
كَانَتْ إِذَا حَاضَتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُمْ أَخْرَجُوهَا مِنَ الْبَيْتِ، فَلَمْ يُؤَاكِلُوهَا
وَلَمْ يُجَامِعُوهَا، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ
ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ **{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى**
فَاعْتَرِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ} حَتَّى فَرَغَ مِنَ الْآيَةِ، فَأَمَرَهُمْ رَسُولُ
اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنْ يَصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ،
قَالَتِ الْيَهُودُ: "مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِنَا إِلَّا خَالَفَنَا
فِيهِ" فَجَاءَ عَبَادُ بْنُ بَشْرٍ وَأُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ

الْيَهُودَ قَالَتْ كَذَا وَكَذَا، أَفَلَا نَنْكِحُهُنَّ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا، فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ وَاسْتَقْبَلَتْهُمَا هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنٍ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَبَعَثَ فِي آثَارِهِمَا فَسَقَاهُمَا، فَظَنَنَّا أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا.

واختلف في هذا الاعتزال، فذهب ابن عباس، وجماعة من أهل العلم إلى أنه يجب اعتزال ما اشتمل عليه الإزار، ويعضده ما صح أنها تشد عليها إزارها ثم شأنه بأعلاها. فروى الدارمي عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «يَأْمُرُ إِخْدَانًا إِذَا كَانَتْ حَائِضًا أَنْ تَشُدَّ عَلَيْهَا إِزَارَهَا، ثُمَّ يُبَاشِرُهَا»

وذهبت جماعة من أهل العلم إلى أنه لا يجب إلا الاعتزال الفرج فقط، وهو الصحيح من قول الشافعي.

ولم تتعرض الآية لما يجب على من وطئ في الحيض، واختلف في ذلك العلماء، فقال أبو حنيفة، ومالك، ويحيى بن سعيد، والشافعي، وداود: يستغفر الله ولا شيء عليه، وقال محمد: يتصدق بنصف دينار، وقال أحمد: يتصدق بدينار أو نصف دينار، واستحسنه الطبري، وهو قول الشافعي ببغداد.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي الَّذِي يَأْتِي امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ. قَالَ: يَتَصَدَّقُ بِدِينَارٍ أَوْ نِصْفِ دِينَارٍ [رَوَاهُ الْخَمْسَةُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَابْنُ الْقَطَّانِ، وَرَجَّحَ غَيْرُهُمَا وَقَفَّه]

{حَتَّى يَطْهُرَنَّ} أي يتطهرن من الحيض بالاغتسال، كقوله تعالى: **{وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا}** [المائدة: ٦] أي اغتسلوا.

وأما اشتراط طهارة الحدث فاختلف فقهاء الإسلام في مجمل الطهر الشرعي هنا، فقال قوم: هو غسل محل الأذى بالماء، فذلك يحل قربانها، وهذا الذي تدل عليه الآية، لأن الطهر الشرعي يطلق على إزالة النجاسة وعلى رفع الحدث، والحائض اتصفت بالأمرين. وقال الجمهور: لا بد لقرينة الأمر بالإتيان، وإن كان قربهن قبل الغسل مباحاً، لكن لا تقع صيغة الأمر من الله تعالى إلا على الوجه الأكمل. وأخذاً بأكمل أفراد هذا الاسم احتياطاً.

وإذا كان التطهر «الغسل بالماء»، فمذهب مالك والشافعي وجماعة، أنه كغسل الجنابة، وهو قول ابن عباس، وعكرمة، والحسن؛ وقال طاووس، ومجاهد: الوضوء كاف في إباحة الوطء،

وذهب الأوزاعي إلى أن المبيح للوطء: هو غسل محل الوطء بالماء، وبه قال ابن حزم.

وسبب الخلاف أن يحمل التطهر بالماء على التطهر الشرعي أو اللغوي، فمن حمله على اللغوي قال: تغسل مكان الأذى بالماء، ومن حمله على الشرعي حمله على أخف النوعين، وهو الوضوء، لمراعاة الخفة، أو على أكمل النوعين وهو أن تغسل كما تغتسل للجنابة إذ به يتحقق البراءة من العهدة.

والاغتسال بالماء مستلزم لحصول انقطاع الدم، لأنه لا يشرع إلا بعده.. وعلامة الطهر للمرأة القصة البيضاء بأن لا تتغير القطنة إذا احتشت بها؛ وهذا هو الغالب في النساء؛ لكن بعض النساء لا ترى ذلك وتعرف الطهر بانقطاع الدم فقط ولا ترى القصة البيضاء. ومن فوائد الآية: تحريم الوطء بعد الطهر قبل الغسل عند من يقول بوجوبه.

ومن أوجب الغسل فصفته كما روى مسلم من حديث عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ أَسْمَاءَ سَأَلَتِ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ غُسْلِ الْمَحِيضِ؟ فَقَالَ: (تَأْخُذُ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَسِدْرَتَهَا فَتَطَهَّرُ فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا فَتَدْلُكُهَا ذَلِكَ شَدِيدًا حَتَّى تَبْلُغَ شُؤُونَ

رَأْسِهَا ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْهَا الْمَاءَ ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَتَطَهِّرُ بِهَا)
فَقَالَتْ أَسْمَاءُ: وَكَيْفَ تَطَهِّرُ بِهَا؟ فَقَالَ: (سُبْحَانَ اللَّهِ تَطَهَّرِينَ بِهَا!!)
فَقَالَتْ عَائِشَةُ - كَأَنَّهَا تُخْفِي ذَلِكَ - : تَتَّبَعِينَ أَثَرَ الدَّمِ.

{فَإِذَا تَطَهَّرْنَ} اغتسلن **{فَأَتَوْهُنَّ}** الأمر هنا للإباحة كقوله:
{وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا} [المائدة: ٢] **{فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ}**
{فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ} [الجمعة: ١٠]، والمراد بالإتيان الجماع،
فكني بالإتيان عن المجامعة.

{مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ} حيث: ظرف مكان، فالمعنى من الجهة
التي أمر الله تعالى، وهو «القبل» لأنه هو المنهي عنه في حال
الحيض.

{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} تعليل لما سبق من
الأوامر؛ وهي اعتزال النساء في المحيض، وإتيانهن من حيث أمر
الله بعد التطهر، وجمع بينهما؛ لأن «التوبة» تطهير الباطن؛ و
«التطهر» تطهير الظاهر.

ومن فوائد الآية: إثبات محبة الله عز وجل؛ والمحبة صفة
حقيقية لله عز وجل على الوجه اللائق به؛ وهكذا جميع ما وصف

الله به نفسه من المحبة، والرضا، والكراهة، والغضب والسخط، وغيرها؛ كلها ثابتة لله على وجه الحقيقة من غير تكييف ولا تمثيل. ومنها: أن محبة الله من صفاته الفعلية - لا الذاتية -؛ لأنها علقت بالتوبة؛ والتوبة من فعل العبد تتجدد؛ فكذلك محبة الله عز وجل تتعلق بأسبابها؛ وكل صفة من صفات الله تتعلق بأسبابها فهي من الصفات الفعلية. ومنها: فضيلة التوبة والتطهر، وأنها من أسباب محبة الله للعبد.

{نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} قوله: **{حَرْثُكُمْ}** يبين أن الإتيان المأمور به إنما هو في «محل الحرث» يعني بذر الولد بالنطفة، وذلك هو «القبل» دون الدبر كما لا يخفى؛ لأن الدبر ليس محل بذر للأولاد، كما هو ضروري.

وهذا نظير قوله تعالى: **{فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ}** [البقرة: ١٨٧]؛ لأن المراد بما كتب الله لكم «الولد» على قول الجمهور، وهو اختيار ابن جرير، ومعلوم أن ابتغاء الولد إنما هو بالجماع في القبل. فالقبل إذن هو المأمور بالمباشرة فيه، بمعنى

الجماع فيكون معنى الآية: "فالآن باشروهن، ولتكن تلك المباشرة في محل ابتغاء الولد"، الذي هو القبل دون غيره.
وقوله {أَنْتِ شِئْتُمْ}: يعني أن يكون الإتيان في محل الحرث «القبل» على أي حالة شاء الرجل، سواء كانت المرأة مستلقية أو باركة أو على جنب أو من الخلف.

روى مسلم عن جابر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: كَانَتْ الْيَهُودُ تَقُولُ إِذَا أَتَى الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ مِنْ دُبْرِهَا فِي قُبْلِهَا كَانَ الْوَلَدُ أَحْوَلَ فَنَزَلَتْ: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتِ شِئْتُمْ}

وروى أحمد عن خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ الْعَبْسِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَا يَسْتَحِي اللَّهُ مِنَ الْحَقِّ، لَا تَأْتُوا النِّسَاءَ فِي أَعْجَازِهِنَّ).

وروى أحمد من حديث أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: لَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْمَدِينَةَ عَلَى الْأَنْصَارِ تَزَوَّجُوا مِنْ نِسَائِهِمْ وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ يُجَبُّونَ [الزوجة مكبوبة على وجهها] وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ لَا تُجَبِّي، فَأَرَادَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ امْرَأَتَهُ عَلَى ذَلِكَ فَأَبَتْ عَلَيْهِ حَتَّى تَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَتْ: فَأَتَيْتُهُ فَاسْتَحَيْتُ أَنْ تَسْأَلَهُ فَسَأَلْتُهُ أُمُّ سَلَمَةَ فَنَزَلَتْ {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتِ شِئْتُمْ} وَقَالَ:

(لَا إِلَّا فِي صِمَامٍ وَاحِدٍ) وفي رواية مسلم: (إِنْ شَاءَ مُجَبِّةٌ وَإِنْ شَاءَ
غَيْرَ مُجَبِّةٍ غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ فِي صِمَامٍ وَاحِدٍ)

وروى أبو داود من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال:
... كَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَهُمْ أَهْلُ وَثْنٍ، مَعَ هَذَا الْحَيِّ مِنْ
يَهُودَ، وَهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، وَكَانُوا يَرَوْنَ لَهُمْ فَضْلًا عَلَيْهِمْ فِي الْعِلْمِ،
فَكَانُوا يَقْتَدُونَ بِكَثِيرٍ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنْ لَا
يَأْتُوا النِّسَاءَ إِلَّا عَلَى حَرْفٍ، وَذَلِكَ أَسْتَرُ مَا تَكُونُ الْمَرْأَةُ، فَكَانَ هَذَا
الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ قَدْ أَخَذُوا بِذَلِكَ مِنْ فِعْلِهِمْ، وَكَانَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ
قُرَيْشٍ يَشْرَحُونَ النِّسَاءَ شَرْحًا [أَي يَطَاوْنَهُنَّ وَهْنٍ مُسْتَلْقِيَاتٍ عَنْ
أَقْفَيْتِهِنَّ] مُنْكَرًا، وَيَتَلَدِّدُونَ مِنْهُنَّ مُقْبَلَاتٍ وَمُدْبِرَاتٍ وَمُسْتَلْقِيَاتٍ،
فَلَمَّا قَدِمَ الْمُهَاجِرُونَ الْمَدِينَةَ تَزَوَّجَ رَجُلٌ مِنْهُمْ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ
فَذَهَبَ يَصْنَعُ بِهَا ذَلِكَ فَأَنْكَرَتْهُ عَلَيْهِ، وَقَالَتْ: إِنَّمَا كُنَّا نُؤْتَى عَلَى
حَرْفٍ، فَاصْنَعْ ذَلِكَ وَإِلَّا فَاجْتَنِبْنِي حَتَّى شَرِيَّ أَمْرُهُمَا [أَي تَفَاقِمِ
الِدَّجَاجَ] فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَنْزَلَ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ} أَيِ مُقْبَلَاتٍ
وَمُدْبِرَاتٍ وَمُسْتَلْقِيَاتٍ يَعْنِي بِذَلِكَ مَوْضِعَ الْوَلَدِ.

ومن فوائد الآية: أنه ينبغي للإنسان أن يحاول كثرة النسل؛
لقوله تعالى: {حَرِّثْ لَكُمْ}؛ وإذا كانت حرثاً فهل الإنسان عندما
يحرث أرضاً يقلل من الزرع، أو يكثر من الزرع؟

فالجواب: الإنسان عندما يحرث أرضاً يكثر من الزرع؛ وقد روى
الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: كَانَ
رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَأْمُرُ بِالْبَاءَةِ وَيَنْهَى عَنِ التَّبْتُلِ
نَهْيًا شَدِيدًا، وَيَقُولُ: (تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ إِنِّي مُكَاثِّرُ الْأَنْبِيَاءِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ)

وروى أبو داود عَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: إِنِّي أَصَبْتُ امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ وَجَمَالٍ،
وإِنَّهَا لَا تَلِدُ، أَفَأَتَزَوَّجُهَا؟ قَالَ: (لَا) ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَةَ فَنَهَاهُ ثُمَّ أَتَاهُ
الثَّالِثَةَ، فَقَالَ: (تَزَوَّجُوا الْوُدُودَ الْوُلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِّرُ بِكُمْ الْأُمَمَ)
[الألباني: حسن صحيح]

وأما القول بتحديد النسل فهذا لا شك أنه من دسائس أعداء
المسلمين يريدون من المسلمين ألا يكثرُوا؛ لأنهم إذا كثروا
أرعبوهم، واستغنوا بأنفسهم عنهم: حرثوا الأرض، وشغلوا التجارة،
وحصل بذلك ارتفاع للاقتصاد، وغير ذلك من المصالح؛ فإذا بقوا

مستحسرين قليلين صاروا أذلة، وصاروا محتاجين لغيرهم في كل شيء؛ ثم هل الأمر بيد الإنسان في بقاء النسل الذي حدده؟! فقد يموت هؤلاء المحدّدون؛ فلا يبقى للإنسان نسل.

{وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ} الأجر في تجنب ما نهيتهم وامتنال ما أمرتم

به.

لأنه تقدّم أمر ونهي، وهو الخير الذي ذكره في قوله: **{وَمَا تُقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ}** [البقرة: ١١٠] ولذلك جاء بعده **{وَاتَّقُوا اللَّهَ}** أي: اتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، وهو تحذير لهم من المخالفة، ولأن العظيم الذي تقدّم يحتاج إلى أن يقدم معك ما تقدّم به عليه مما لا تفتضح به عنده، وهو «العمل الصالح».

وقيل: قدموا فعل الطاعات، وإنما قال ذلك بعد ذكر إتيان النساء حتى لا نشغل بهؤلاء النساء عن تقديم ما ينفعنا يوم القيامة.

{وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّلاقوه} كما قال تعالى: **{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ**

كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} [الانشقاق: ٦]

وإنما أمرهم الله بعلم أنهم ملاقوه مع أن المسلمين يعلمون ذلك تنزيلا لعلمهم منزلة العدم في هذا الشأن، ليزاد من تعليمهم

اهتماما بهذا المعلوم وتنافسا فيه، كما أن في افتتاح الجملة بكلمة: **{اعْلَمُوا}** اهتماما بالخبر واستنصاتا له وهي نقطة عظيمة.

وقد رتب الجمل الثلاث الأول على عكس ترتيب حصول مضامينها في الخارج؛ فإن الظاهر أن يكون الإعلام بملاقاة الله هو الحاصل أولا **{وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ}** ثم يعقبه الأمر بالتقوى **{وَاتَّقُوا اللَّهَ}** ثم الأمر بأن يقدموا لأنفسهم **{وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ}**، فخولف الظاهر للمبادرة بالأمر بالاستعداد ليوم الجزاء **{وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ}**، وأعقب بالأمر بالتقوى إشعارا بأنها هي الاستعداد **{وَاتَّقُوا اللَّهَ}** ثم ذكروا بأنهم ملاقو الله **{وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ}** فجاء ذلك بمنزلة التعليل.

{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} بحسن العاقبة في الآخرة، وفيه تنبيه على الوصف الذي به يتقى الله ويقدم الخير، ويستحق التبشير، وهو «الإيمان».

وفي أمره لرسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالتبشير تأنيس عظيم ووعد كريم بالثواب الجزيل، ولم يأت بضمير الغيبة، بل أتى بالظاهر الدال على الوصف.

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا
بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ
بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥)

{وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً} حاجزا ومانعا، والمقصود اليمين
يحلفها المؤمن أن لا يفعل خيراً، وقيل: ولا تجعلوا الله قوة
لأيمانكم، وتوكيداً لها فيما تريدون الشدة فيه من ترك صلة الرحم
والبر والإصلاح {لَأَيْمَانِكُمْ} جمع يمين وهو الحلف سمي الحلف
يميناً أخذاً من اليمين التي هي إحدى اليدين، وهي اليد التي يفعل
بها الإنسان معظم شئونه، واشتقت من اليمن: وهو البركة، لأن اليد
اليمنى يتيسر بها الفعل أحسن من اليد الأخرى، وسمي الحلف
يميناً لأن العرب كان من عادتهم إذا تحالفوا أن يمسك المتحالفان
أحدهما باليد اليمنى من الآخر، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ
إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح: ١٠] فكانوا يقولون
أعطي يمينه، إذا أكد العهد ثم اختصروا فقالوا: صدرت منه يمين،
أو حلف يميناً.

كراهة **{أَنْ تَبْرُوا}** البر: فعل الخير، والتقدير «ألا تبروا»، نظير قوله تعالى: **{يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ أَنْ تَضِلُّوا}** [النساء: ١٧٦]، وهو نهي تحريم أو تنزيه بحسب حكم الشيء المحلوف على تركه **{وَتَتَّقُوا}** والله لا يرضى أن يكون اسمه حجاباً دون الخير. وقد كانت العرب في الجاهلية تغضب، فتقسم بالله، وبآلهتها، وبآبائها، على الامتناع من شيء، ليسدوا باليمين باب المراجعة أو الندامة.

{وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ} فيه فضيلة الإصلاح بين الناس؛ فنص عليه مع أنه من البر؛ والتنصيص على الشيء بعد التعميم يدل على العناية به، والاهتمام به؛ ولا ريب أن الإصلاح بين الناس من الأمور الهامة لما فيه من رأب الصدع، ولمّ الشعث، وجمع الشمل؛ وهذا خلاف من يفعلون ما يوجب القطيعة بين الناس، مثل النميمة - فهي توجب القطيعة بين الناس-؛ ولهذا قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ) [مسلم]

ويمكن **{أَنْ تَبْرُوا}** مفعولاً لأجله، وهو علة للنهي؛ أي إنما نهيتكم لتكونوا أبراراً، أتقياء، مصلحين، وفي قريب من هذا، قال مالك "بلغني أنه الحلف بالله في كل شيء" وعليه فتكون الآية نهياً عن الإسراع بالحلف، لأن كثرة الحلف تعرض الحالف للحنث.

وكانت كثرة الأيمان من عادات الجاهلية، في جملة العوائد الناشئة عن الغضب ونعر الحمق، فنهى الإسلام عن ذلك.

فالمعنى الأول: أي لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر، وصلة الرحم إذا حلفت على تركها، ونظير الآية قوله تعالى في حلف أبي بكر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- ألا ينفق على مسطح، لما قال في عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- ما قال: {وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: ٢٢].

قال ابن عباس: نزلت في عبد الله بن رواحة وختنه بشير بن النعمان، كان بينهما شيء، فحلف عبد الله أن لا يدخل عليه ولا يكلمه ولا يصلح بينه وبين زوجته، وجعل يقول: "حلفت بالله، فلا يحل لي إلاّ برّ يميني".

والمعنى الثاني: لا تجعلوا اسم الله معرضا لكثرة الحلف به، لأن ذلك ينفي تعظيم اسم الله تعالى، ولأن التصون عن كثرة الحلف باسم الله يؤدي إلى البر والتقوى، والقدرة على الإصلاح بين الناس، إذ يكون المتصون جليل القدر في أعين الناس فيقبل قوله.

وقد ذم الله من أكثر الحلف بقوله: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ} [القلم: ١٠] وقال: {وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ} [المائدة ٨٩]

قال أهل العلم: وتضمنت هذه الآيات الكريمة نهي الله عباده عن ابتذال اسمه تعالى، وجعله كثير الترداد، وعلى ألسنتهم في أقسامهم على بر وتقوى وإصلاح، فدل ذلك على أن مبالغة النهي عن ذلك في أقسامهم على ما ينافي البر والتقوى والصلاح بجهة الأخرى والأولى، لأن الإكثار من اليمين بالله تعالى فيه عدم مبالاة واكتراث المقسم به، إذ الأيمان معرضة لحنث الإنسان فيها كثيراً، وقل أن يرى كثير الحلف إلا كثير الحنث.

قال ابن عاشور: فالمناسبة أنه لما أمرهم باستحضار يوم لقائه بين لهم شيئاً من التقوى دقيق المسلك شديد الخفاء وهو التقوى باحترام الاسم المعظم؛ فإن التقوى من الأحداث التي إذا تعلق بالأسماء كان مفادها التعلق بمسمى الاسم لا بلفظه، لأن الأحكام اللفظية إنما تجري على المدلولات إلا إذا قام دليل على تعلقها بالأسماء مثل سميته محمداً، فجاء بهذه الآية لبيان ما يترتب على تعظيم اسم الله واتباعه في حرمة أسمائه عند الحنث مع بيان ما رخص فيه من الحنث، أو لبيان التحذير من تعريض اسمه تعالى

للاستخفاف بكثرة الحلف حتى لا يضطر إلى الحنث على الوجهين
الآتين.

وروى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-
قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (والله لأن يلج أحدكم
[من اللجاج، ومعناه أن يحلف على شيء ويرى أن غيره خير منه،
فيقيم على يمينه ولا يحنث] بيمينه في أهله آثم له عند الله من أن
يُعطي كفارته التي افترض الله عليه)

وروى الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله
عنه- قال -صلى الله عليه وسلم-: (وإنني والله إن شاء الله، لا
أخلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير،
وتحللتها)

وروى الشيخان من حديث عبد الرحمن بن سمره -رضي الله
عنه- قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (يا عبد الرحمن بن سمره
لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن
أوتيتها من غير مسألة أعنت عليك، وإذا حلفت على يمين فرأيت
غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير)

{وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} ختم هذه الآية بهاتين الصفتين لأنه تقدم ما يتعلق بهما، فالذي يتعلق بالسمع الحلف لأنه من المسموعات، والذي يتعلق بالعلم هو إرادة البر والتقوى والإصلاح إذ هو شيء محله القلب، فهو من المعلومات، فجاءت هاتان الصفتان منتظمتين للعلة والمعلول، وجاءتا على ترتيب ما سبق من تقديم السمع على العلم، كما قدم الحلف على الإرادة.

قال ابن عاشور: وقد دلت الآية على معنى عظيم: وهو أن تعظيم الله لا ينبغي أن يجعل وسيلة لتعطيل ما يحبه الله من الخير، فإن المحافظة على البر في اليمين ترجع إلى تعظيم اسم الله تعالى، وتصديق الشهادة به، وهذا وإن كان مقصدا جليلا يشكر عليه الحالف، الطالب للبر؛ لكن التوسل به لقطع الخيرات مما لا يرضي به الله تعالى، فقد تعارض أمران مرضيان لله تعالى إذا حصل أحدهما لم يحصل الآخر. والله يأمرنا أن نقدم أحد الأمرين المرضيين له، وهو ما فيه تعظيمه بطلب إرضائه، مع نفع خلقه بالبر والتقوى والإصلاح، دون الأمر الذي فيه إرضاءه بتعظيم اسمه فقط، فتعظيم اسمه قد حصل عند تخرج الحالف من الحنث، فبر اليمين أدب مع اسم الله تعالى، والإتيان بالأعمال الصالحة مرضاة لله؛ فأمر الله

بتقديم مرضاته على الأدب مع اسمه، كما قيل: «الامتثال مقدم على الأدب». وقد قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (إني لا أحلف على يمين، فأرى غيرها خيرا منها، إلا كفرت عن يميني، وفعلت الذي هو خير)، ولأجل ذلك لما أقسم أيوب أن يضرب امرأته مائة جلدة، أمره الله أن يأخذ ضغثا من مائة عصا فيضربها به، وقد علم الله أن هذا غير مقصد أيوب؛ ولكن لما لم يرض الله من أيوب أن يضرب امرأته، نهاه عن ذلك، وأمره بالتحلل محافظة على حرص أيوب على البر في يمينه، وكراهته أن يتخلف منه عناده في تعظيم اسم ربه، فهذا وجه من التحلة، أفتى الله به نبيه، ولعل الكفارة لم تكن مشروعة. فهي من يسر الإسلام وسماحته. فقد كفانا الله ذلك إذ شرع لنا تحلة اليمين بالكفارة؛ ولذلك صار لا يجزئ في الإسلام، أن يفعل الحالف مثل ما فعل أيوب.

{لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ} «يؤاخذ» لها معنيان؛ أحدهما: المؤاخذة بالعقوبة؛ والثاني: المؤاخذة بإلزام الكفارة **{بِاللَّغْوِ}** ما يسبق به اللسان من غير قصد **{فِي أَيْمَانِكُمْ}** جمع يمين، واليمين: القسم والحلف، وهو ذكر اسم الله تعالى، أو بعض صفاته، أو بعض شئونه العليا أو شعائره. فقد كانت العرب تحلف بالله، وبرب الكعبة،

وبالهدى، وبمناسك الحج. والقسم عندهم بحرف من حروف القسم الثلاثة: الواو والباء والتاء، وربما ذكروا لفظ حلفت أو أقسمت، وربما حلفوا بدماء البدن، وربما قالوا والدماء، وقد يدخلون لما على عمر الله، يقال: لعمر الله، ويقولون: عمرك الله. فهذا الحلف الذي يراد به التزام فعل، أو براءة من حق. وقد يحلفون بأشياء عزيزة عندهم لقصد تأكيد الخبر أو الالتزام، كقولهم وأبيك ولعمرك ولعمري، ويحلفون بآبائهم، ولما جاء الإسلام نهى عن الحلف بغير الله.

ومن عادة العرب في القسم أن بعض القسم يقسمون به على التزام فعل يفعل المقسم ليدجئ نفسه إلى عمله ولا يندم عنه، وهو من قبيل قسم النذر، فإذا أراد أحد أن يظهر عزمه على فعل لا محالة منه، ولا مطمع لأحد في صرفه عنه، أكده بالقسم.

وذهب الجمهور إلى أن اللغو هو اليمين التي تجري على اللسان، لم يقصد المتكلم بها الحلف، ولكنها جرت مجرى التأكيد. أو التنبيه، كقول العرب: لا والله، وبلى والله.

فهي أيمان لاغية لم يقصد بها الحلف وعقد اليمين، وإنما جرت على ألسنتهم عادة من غير عقد ولا تأكيد، فذلك لا إثم فيه ولا كفارة.

{وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ} أي ما تعمّد القلب وقصد اليمين لأجله، كما قال تعالى: **{لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَخْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}** [المائدة: ٨٩]

فاليمين التي لا قصد فيها، لا إثم ولا كفارة عليها، وغيرها تلزم فيه الكفارة للخروج من الإثم بدليل آية المائدة؛ إذ فسر المؤاخذة فيها بقوله: **{فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ}** [المائدة: ٨٩] فيكون في الغموس، وفي يمين التعليق الكفارة.

{وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} الصفوح عن الذنب مع القدرة على المؤاخذة به، جاءت هاتان الصفتان تدلان على توسعة الله على عباده حيث لم يؤاخذهم باللغو في الأيمان، وفي تعقيب الآية بهما

إشعار بالغفران، والحلم عن من أوعده تعالى بالمؤاخضة، وإطماع في سعة رحمته، لأن من وصف نفسه بكثرة الغفران والصفح مطموح في ما وصف به نفسه، فهذا الوعيد الذي ذكره تعالى مقيد بالمشيئة، كسائر وعيده تعالى.

فهو تذييل لحكم نفي المؤاخضة، ومناسبة اقتران وصف الغفور بالحلیم هنا، دون الرحيم، لأن هذه مغفرة لذنوب هو من قبيل التقصير في الأدب مع الله تعالى، فلذلك وصف الله نفسه بالحلیم، لأن الحلیم هو الذي لا يستفزه التقصير في جانبه، ولا يغضب للغفلة، ويقبل المعذرة.

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، لأنه تعالى لما نهى عن جعل الله معرضاً للأيمان، كان ذلك حتماً لترك الأيمان وهم يشق عليهم ذلك، لأن العادة جرت لهم بالأيمان، فذكر أن ما كان منها لغواً فهو لا يؤاخذ به، لأنه مما لا يقصد به حقيقة اليمين، وإنما هو شيء يجري على اللسان عند المحاورة من غير قصد، وهذا أحسن ما يفسر به اللغو، لأنه تعالى جعل مقابلة ما كسبه القلب وهو ماله فيه اعتماد وقصد.

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا
فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧)

{لِّلَّذِينَ} اللام يحتمل أن تكون للإباحة؛ ويحتمل أن تكون
للتوقيت؛ يعني: أنه يباح للمولين أن يتربصوا أربعة أشهر؛ أو أن لهم
وقتاً محدداً بأربعة أشهر.

{يُؤْلُونَ} يحلفون، من الألية وهي اليمين، والإيلاء: الحلف،
مضارع آلى يؤلى إذا حلف.. وأياما كان فالإيلاء بعد نزول هذه
الآية صار حقيقة شرعية في هذا الحلف على الوصف المخصوص
بعدم وطء الزوجة.

وكان من أشهر الأيمان الحائلة بين البر والتقوى والإصلاح،
أيمان الرجال على مهاجرة نسائهم، وقد كان الرجل في الجاهلية
يولي من امرأته السنة والسنتين، ولا تنحل يمينه إلا بعد مضي تلك
المدة، ولا كلام للمرأة في ذلك.

وعن سعيد بن المسيب: "كان الرجل في الجاهلية لا يريد
المرأة، ولا يحب أن يطلقها، لئلا يتزوجها غيره، فكان يحلف ألا
يقربها مضارة للمرأة" أي ويقسم على ذلك لكيلا يعود إليها إذا

حصل له شيء من الندم. قال: "ثم كان أهل الإسلام يفعلون ذلك، فأزال الله ذلك، وأمهل للزوج مدة حتى يتروى".
{مِنْ نَسَائِهِمْ تَرَبُّصٌ} انتظار، فهو انتظار حصول شيء لغير المنتظر.

{أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ} ابتداءً من إيلائهم، قيل: وحكمه ضرب أربعة أشهر، لأنه غالب ما تصبر المرأة فيها عن الزوج.
{فَإِنْ فَأُؤُوا} رجعوا إلى وطء نسائهم بعد الامتناع عنه باليمين.
{فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ} والمغفرة هي ستر الذنب مع التجاوز عنه، مأخوذة من «المغفر»؛ وهو ما يوضع على الرأس عند الحرب لاتقاء السهام؛ وفي المغفر تغطية ووقاية.
{رَّحِيمٌ} يغفر لهم ما ارتكبوه من الذنب في حق نسائهم ويرحمهم لتوبتهم.

قال ابن القيم: وختم حكم الفيء الذي هو الرجوع والعود إلى رضا الزوجة والإحسان إليها بأنه غفور رحيم يعود على عبده بمغفرته ورحمته إذا رجع إليه، والجزاء من جنس العمل، فكما رجع إلى التي هي أحسن رجع الله إليه بالمغفرة والرحمة.

وذهب الجمهور إلى إيجاب كفارة اليمين على المولي بجماع امرأته، فيكون الغفران هنا إشعاراً بإسقاط الإثم بفعل الكفارة.

والمعنى: أي فحنتهم في يمين الإيلاء، مغفور لهم؛ لأن الله غفور رحيم. وفيه إيذان بأن الإيلاء حرام، لأن شأن إيلائهم الوارد فيه القرآن قصد الإضرار بالمرأة.

وقد يكون الإيلاء مباحاً إذا لم يقصد به الإضرار، ولم تطل مدته: كالذي يكون لقصد التأديب، أو لقصد آخر معتبر شرعاً، غير قصد الإضرار المذموم شرعاً.

وقد آلى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من نسائه شهراً، قيل: لمرض كان برجله، وقيل: لأجل تأديبهن؛ لأنهن قد لقين من سعة حلمه ورفقه ما حدا ببعضهن إلى الإفراط في الإدلال، وحمل البقية على الاقتداء بالأخريات، أو على استحسان ذلك. والله ورسوله أعلم ببواطن الأمور.

وأما جواز الإيلاء للمصلحة: كالخوف على الولد من الغيلة [الجماع أثناء الرضاعة]، وكالحمية من بعض الأمراض في الرجل والمرأة، فإباحته حاصلة من أدلة المصلحة ونفي المضرة، وإنما

يحصل ذلك بالحلف عند بعض الناس، لما فيهم من ضعف العزم،
واتهام أنفسهم بالفلته في الأمر، إن لم يقيدوها بالحلف.

{وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ} وإن لم يفيء إلى وطئها وأصرّ على ذلك
فإن على القاضي أن يوقفه أمامه ويطلبه بالفيء فإن أبى طلقها
عليه، ومن الفوائد: أن الطلاق لا يقع بمجرد تمام مدة الإيلاء.
{فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}

والحاصل أن الإيلاء هو أن يحلف الرجل أن لا يطأ امرأته مدة،
فإن كانت أقل من أربعة أشهر فله أن لا يحنث نفسه ويستمر
ممتنعا عن الوطء، إلى أن تنتهي مدة الحلف، إلا أن الأفضل أن
يطأ ويكفر عن يمينه، وإن كانت أكثر من أربعة أشهر فإن عليه أن
يفيء إلى زوجته ويكفر عن يمينه أو تطلق عليه وإن كان ساخطا
غير راض.

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ
يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا

إِصْلَاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ
عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)

{وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ} يلبثن وينتظرن، مخصوص بالمدخول
بهن الحيض ذوات الأقراء، لأن حكم غير المدخول بها، والحامل،
والآيسة منصوص عليه مخالف لحكم هؤلاء. وقد بين حكمهن في
سورة الطلاق.

والآية عطف على الآية قبلها، لشدة المناسبة، وللاتحاد في
الحكم وهو «التربص»، إذ كلاهما انتظار لأجل المراجعة... والآية
خبرية مراد بها الأمر، قال البلاغيون: إذا جاء الأمر بصيغة الخبر
كان ذلك تأكيداً له؛ كأنه أمر واقع صح أن يخبر عنه.

{بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ} جمع قرء بفتح القاف؛ وهو الحيض
على أرجح القولين؛ وهو رأي الجمهور؛ لقول النبي -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في المستحاضة: (تجلس أيام أقرائها) أي حيضها.
قال أحمد: كنت أقول القرء الطهر، وأنا الآن أذهب إلى أنه
الحيض.

ومن قال: إن القراء الحيض يقول، إذا طلقت في طهر لم توطأ فيه استقبلت حيضة ثم حيضة ثم حيضة ثم تغتسل، فبالغسل تنقضي العدة.

ومن قال: إن القراء الأطهار، يعتد بالطهر الذي طلقت فيه.. فروي عن زيد، وابن عمر، وعائشة: إذا دخلت في الحيضة الثالثة فلا سبيل له عليها، ولا تحل للأزواج حتى تغتسل من الحيضة الثالثة، وذلك أن هؤلاء يقولون بأن القراء هو الطهر، فإذا طلقت في طهر لم تمس فيه، اعتدت بما بقي منه، ولو ساعة، ثم استقبلت طهراً ثانياً بعد حيضة، ثم ثالثاً بعد حيضة ثانية، فإذا رأت الدم من الحيضة الثالثة حلت للأزواج وخرجت من العدة بأول نقطة تراها.

قال ابن عاشور: ومرجع النظر عندي في هذا إلى الجمع بين مقصدي الشارع من العدة، وذلك أن العدة قصد منها تحقق براءة رحم المطلقة، من حمل المطلق، وانتظار الزوج لعله أن يرجع. فبراءة الرحم تحصل بحيضة أو طهر واحد، وما زاد عليه تمديد في المدة انتظاراً للرجعة.

لو طلقها في أثناء الحيض لم يحتسب بالحيضة التي وقع فيها الطلاق؛ وجهه: أن الحيض لا يتبعض؛ فتلغى بقية الحيضة التي وقع

فيها الطلاق؛ ولا بد لها من ثلاث حيض جديدة؛ وإلا يلزم على ذلك أن تكون عدتها ثلاثة قروء وبعض القراء؛ وهو خلاف النص. ومن فوائد الآية أن المطلقة البائن عدتها ثلاثة قروء؛ لعموم قوله تعالى: **{وَالْمُطَلَّقَاتُ}**؛ فيشمل حتى البوائن؛ وهو قول جمهور العلماء؛ حتى لو كانت بائناً بالثلاث؛ فإنها لا بد أن تعتد بثلاثة قروء.

والآية مخصصة بالحرائر دون الإماء، فأخرجت الإماء، بما ثبت في السنة: أن عدة الأمة حيضتان، رواه أبو داود والترمذي. **{وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ}** من أجنة بالحمل، أو الحيض، تقول لست حائضاً وهي حائض، أو حضت وما حاضت، لتطويل العدة أو لاستعجال الفرقه. ودلت الآية على أنهن مؤتمنات على ذلك، ولو أبيح الاستقصاء لم يمكن الكتم؛ وقال سليمان بن يسار: لم نؤمر أن نفتح النساء فننظر إلى فروجهن، ولكن وكل ذلك إليهن، إذ كن مؤتمنات.

وقال ابن عاشور: وليس في الآية دليل على تصديق النساء، في دعوى الحمل والحيض، كما يجري على السنة كثير من الفقهاء،

فلا بد من مراعاة أن يكون قولهن مشبهاً، ومتى ارتيب في صدقهن،
وجب المصير إلى ما هو المحقق، وإلى قول الأطباء والعارفين.
وقال ابن عثيمين: فإذا ادعت أن عدتها انقضت، وكان ذلك
في زمن ممكن فإنها تصدق؛ وهي مؤتمنة على ذلك؛ أما إذا ادعت
أن عدتها انقضت في زمن لا يمكن فإن قولها مردود؛ لأن من
شروط سماع الدعوى أن تكون ممكنة؛ ودعوى المستحيل غير
مسموعة أصلاً.

{إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} شرط أريد به التهديد دون
التقييد، والمراد بـ **{اليوم الآخر}** يوم القيامة؛ وإنما سمي اليوم
الآخر؛ لأنه لا يوم بعده؛ فالناس إذا بعثوا يوم القيامة فليس هناك
موت؛ بل إما خلود في الجنة؛ وإما خلود في النار؛ وذكر اليوم
الآخر؛ لأن الإيمان به يحمل الإنسان على فعل الطاعات، واجتناب
المنهيات؛ لأنه يعلم أن أمامه يوماً يجازى فيه الإنسان على عمله؛
فتجده يحرص على فعل المأمور، وترك المحذور.

{وَبُعُولَتُهُنَّ} أزواجهن، سمي بعلاً مع أنه مُطلق؛ لأن الأحكام
الزوجية في الرجعية باقية إلا ما استثنى.. والبعل اسم زوج المرأة.
وأصل البعل في كلامهم (السيد) وهي كلمة سامية قديمة، فقد

سمى الكنعانيون "الفينيقيون" معبودهم بعلا قال تعالى: **{أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ}** [الصافات: ١٢٥] وسمي به الزوج لأنه مَلَك أمر عصمة زوجه، ولأن الزوج كان يعتبر مالكا للمرأة، وسيدا لها، فكان حقيقا بهذا الاسم، ثم لما ارتقى نظام العائلة من عهد إبراهيم عليه السلام، فما بعده من الشرائع، أخذ معنى الملك في الزوجية يضعف، فأطلق العرب لفظ الزوج على كل من الرجل والمرأة، للذين بينهما عصمة نكاح، وهو إطلاق عادل؛ لأن الزوج هو الذي يشي الفرد، فصارا سواء في الاسم، وقد عبر القرآن بهذا الاسم في أغلب المواضع، غير التي حكى فيها أحوال الأمم الماضية كقوله: **{وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا}** [هود: ٧٢]، وغير المواضع التي أشار فيها إلى التذكير بما للزوج من سيادة، نحو قوله تعالى: **{وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا}** [النساء: ١٢٨] وهاته الآية كذلك، لأنه لما جعل حق الرجعة للرجل جبرا على المرأة، ذكر المرأة بأنه بعلا قديما.

{أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ} أي ذلك التبرص ما دامت في مدة عدتها، ولو بدون رضاها، والتفضيل بين صنفين حق مختلفين باختلاف المتعلق: هما حق الزوج إن رغب فيها، وحق المرأة في

الامتناع من المراجعة إن أبتها، فصار المعنى: وبعولتهن أحق برد المطلقات، من حق المطلقات بالامتناع، وقد نسج التركيب على طريقة الإيجاز.

حتى قيل الرجعية زوجة بدليل أنها لو مات يرثها زوجها ولو مات ترثه. وإنما وجبت لها النفقة لأنها محبوسة لانتظار مراجعته، ويشكل على قولهم أن عثمان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قضى لها بالميراث إذا مات مطلقها وهي في العدة؛ قضى بذلك في امرأة عبد الرحمن بن عوف، بموافقة علي، رواه في "الموطأ"، فيدفع الإشكال بأن انقضاء العدة شرط في إنفاذ الطلاق، وإنفاذ الطلاق مانع من الميراث، فما لم تنقض العدة، فالطلاق متردد بين الأعمال والإلغاء، فصار ذلك شكا في مانع الإرث، والشك في المانع يبطل إعماله.

وإنما جعل الله مدة العدة توسعة على المطلقين، عسى أن تحدث لهم ندامة ورغبة في مراجعة أزواجهم؛ لقوله تعالى: {لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} [الطلاق: ١]، أي أمر المراجعة، وذلك شبيه بما أجرته الشريعة في الإيلاء.

{إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا} شرط قصد به الحث على إرادة الإصلاح،

وليس هو للتقيد. بل على شرط أن لا يريد بإرجاعها المضارة.

{وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ} على الزوجة حقوق لزوجها، ولها

حقوق على زوجها، وقيل: المماثلة في تقوى الله فيهنّ، كما عليهنّ أن يتقين الله فيهم.

وهذا من بديع الكلام، إذ حذف شيئاً من الأول أثبت نظيره في

الآخر، وأثبت شيئاً في الأول حذف نظيره في الآخر، وأصل

التركيب «ولهنّ على أزواجهنّ مثل الذي لأزواجهنّ عليهنّ»،

فحذفت «على أزواجهنّ» لإثبات: عليهنّ، وحذف «لأزواجهنّ»

لإثبات لهنّ.

وكان الاعتناء بذكر ما للنساء من الحقوق على الرجال،

وتشبيهه بما للرجال على النساء؛ لأن حقوق الرجال على النساء

مشهورة، مسلمة من أقدم عصور البشر، فأما حقوق النساء فلم

تكن مما يلتفت إليه أو كانت متهاونا بها، وموكولة إلى مقدار حظوة

المرأة عند زوجها، حتى جاء الإسلام فأقامها. وأعظم ما أسست به

هو ما جمعته هذه الآية.

روى البخاري عن عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: وَكُنَّا
مَعَشَرَ قُرَيْشٍ نَغْلِبُ النِّسَاءَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى الْأَنْصَارِ إِذَا هُمْ قَوْمٌ
تَغْلِبُهُمْ نِسَاؤُهُمْ فَطَفِقَ، نِسَاؤُنَا يَأْخُذْنَ مِنْ أَدَبِ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ،
فَصِحْتُ عَلَى امْرَأَتِي فَرَاَجَعْتَنِي فَأَنْكَرْتُ أَنْ تُرَاجِعَنِي، فَقَالَتْ: وَلِمَ
تُنْكِرُ أَنْ أُرَاجِعَكَ فَوَاللَّهِ إِنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
لِيُرَاجِعْنَهُ، وَإِنَّ إِحْدَاهُنَّ لَتَهْجُرُهُ الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ، فَأَفْزَعَنِي فَقُلْتُ:
خَابَتْ مَنْ فَعَلَ مِنْهُنَّ بَعْظِيمٌ، ثُمَّ جَمَعْتُ عَلَيَّ ثِيَابِي فَدَخَلْتُ عَلَى
حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: أَيُّ حَفْصَةَ، أَتَغَاضِبُ إِحْدَاكُنَّ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الْيَوْمَ حَتَّى اللَّيْلِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ. فَقُلْتُ: خَابَتْ
وَحَسِرَتْ، أَفَتَأْمَنُ أَنْ يَغْضَبَ اللَّهُ لِعُضْبٍ -رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- فَتَهْلِكِينَ، لَا تَسْتَكْثِرِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- وَلَا تُرَاجِعِيهِ فِي شَيْءٍ، وَلَا تَهْجُرِيهِ، وَاسْأَلِينِي مَا بَدَا لَكَ،
وَلَا يَغُرَّتْكَ أَنْ كَانَتْ جَارَتُكَ هِيَ أَوْضَأَ مِنْكَ وَأَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ
-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُرِيدُ عَائِشَةَ.

وفيه أيضا عن ابن عباس عنه: كُنَّا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا نَعُدُّ النِّسَاءَ
شَيْئًا، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَذَكَرَهُنَّ اللَّهُ، رَأَيْنَا لَهُنَّ بِذَلِكَ عَلَيْنَا حَقًّا
مِنْ غَيْرِ أَنْ نُدْخِلَهُنَّ فِي شَيْءٍ مِنْ أُمُورِنَا.

{بِالْمَعْرُوفِ} بالوجه الذي لا ينكر في الشرع وعادات الناس، ولا يكلف أحدهما الآخر من الأشغال ما ليس معروفاً له، بل يقابل كل منهما صاحبه بما يليق به.

{وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ} القوامة، والدرجة ما يرتقي عليه في سلم أو نحوه، والقصد منها الارتفاع والعلو، ويسمون الدرجة إذا نزل منها النازل: دركة، لأنه يدرك بها المكان النازل إليه.

أشير إلى ذلك الاستحقاق في قوله تعالى: **{الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ}** [النساء: ٣٤]

فالرجل شرعا هو القيم على المرأة، أتى بالمظهر عوض المضمّر إذ كان لو أتى على المضمّر لقال: (ولهم عليهنّ درجة)، للتنبؤ به بذكر الرجولية التي بها ظهرت المزية للرجال على النساء، من زيادة القوة العقلية، والبدنية.

ففيها إثبات لتفضيل الأزواج في حقوق كثيرة على نسائهم لكيلا يظن أن المساواة المشروعة بقوله: **{وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}** مطردة، ولزيادة بيان المراد من قوله: **{بِالْمَعْرُوفِ}**، وهذا التفضيل ثابت على الإجمال لكل رجل.

وهذه الدرجة هي ما فضل به الأزواج على زوجاتهم: من الإذن بتعدد الزوجة للرجل، دون أن يؤذن بمثل ذلك للأنثى، وذلك اقتضاه التزايد في القوة الجسمية، ووفرة عدد الإناث في مواليد البشر، ومن جعل الطلاق بيد الرجل دون المرأة، والمراجعة في العدة كذلك، وذلك اقتضاه التزايد في القوة العقلية وصدق التأمل، وكذلك جعل المرجع في اختلاف الزوجين إلى رأي الزوج في شؤون المنزل، لأن كل اجتماع يتوقع حصول تعارض المصالح فيه، يتعين أن يجعل له قاعدة في الانفصال والصدور عن رأي واحد معين، من ذلك الجمع، ولما كانت الزوجية اجتماع ذاتين لزم جعل إحدهما مرجعا عند الخلاف، ورجح جانب الرجل لأن به تأسست العائلة، ولأنه مظنة الصواب غالبا، ولذلك إذا لم يمكن التراجع، واشتد بين الزوجين النزاع، لزم تدخل القضاء في شأنهما، وترتب على ذلك بعث الحكمين كما في آية {وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا} [النساء: ٣٥].

وقيل أن الدرجة هي ما تريده النساء من البر والإكرام والطواعية والتبجيل في حق الرجال، وذلك أنه لما قدّم أن على كل واحد من الزوجين للآخر عليه مثل ما للآخر عليه، اقتضى ذلك المماثلة،

فبين أنهما، وإن تماثلا في ما على كل واحد منهما للآخر، فعليهن مزيد إكرام وتعظيم لرجالهنّ، وأشار إلى العلة في ذلك: وهو كونه رجلاً يغالب الشدائد والأهوال، ويسعى دائماً في مصالح زوجته، ويكفيها تعب الاكتساب، فبإزاء ذلك صار عليهنّ درجة للرجل في مبالغة الطواعية، وفيما يفضي إلى الاستراحة عندها.

{وَاللَّهُ عَزِيزٌ} غالب، لأن العزة في كلام العرب القوة، كما قال تعالى: **{لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}** [المنافقون: ٨]

{حَكِيمٌ} المتقن الأمور في وضعها.

إشعاراً بوجوب تنفيذ هذه التعاليم لعزة الله تعالى وحكمته، فإن الغالب يجب أن يطاع، والحكيم يجب أن يسلم له في شرعه لأنه صالح نافع غير ضار.

ناسب وصفه تعالى بالعزة وهو القهر والغلبة، وهي تناسب التكليف، وناسب وصفه بالحكمة وهي إتقان الأشياء ووضعها على ما ينبغي، وهي تناسب التكليف أيضاً.

قال ابن عاشور: والكلام تذييل وإقناع للمخاطبين، وذلك أن الله تعالى لما شرع حقوق النساء كان هذا التشريع مظنة المتلقي بفرط التحرج من الرجال، الذين ما اعتادوا أن يسمعوا أن للنساء

معهم حظوظا، غير حظوظ الرضا، والفضل، والسخاء، فأصبحت
لهن حقوق يأخذنها من الرجال كرها، إن أبوا، فكان الرجال بحيث
يرون في هذا ثلما لعزتهم، كما أنبأ عنه حديث عمر بن الخطاب
المتقدم، فبين الله تعالى أن الله عزيز أي قوي لا يعجزه أحد، ولا
ينفي أحدا، وأنه حكيم يعلم صلاح الناس، وأن عزته تؤيد حكمته
فينفذ ما اقتضته الحكمة بالتشريع، والأمر الواجب امتثاله، ويحمل
الناس على ذلك وإن كرهوا.

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَاِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا
يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا
يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ
يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا
فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَتَّحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ
حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٢٣٠)

{الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ} الطلاق الرجعي مرتان، أي يملك الزوج الإرجاع في طلقتين، أما إن طلق الثالثة فلا يملك ذلك ولا ترجع حتى تنكح زوجا غيره، وفيه حرمة الطلاق الثلاث بلفظ واحد.

روى مالك في جامع الطلاق من "الموطأ": عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال: كان الرجل إذا طلق امرأته ثم ارتجعها قبل أن تنقضي عدتها كان له ذلك وإن طلقها ألف مرة، فعمد رجل إلى امرأته فطلقها حتى إذا شارفت انقضاء عدتها راجعها ثم طلقها ثم قال والله لا آويك ولا تحلين أبدا، فأنزل الله تعالى: **{الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}** فاستقبل الناس الطلاق جديدا من يومئذ من كان طلق منهم أو لم يطلق".

وروى أبو داود والنسائي عن ابن عباس قريبا منه. ورواه الحاكم في "مستدركه" إلى عروة بن الزبير عن عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، قالت: لم يكن للطلاق وقت يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها ما لم تنقض العدة، وكان بين رجل من الأنصار وبين أهله بعض ما يكون بين الناس فقال: والله لا تركتك لا أيما ولا ذات زوج، فجعل يطلقها حتى إذا كادت العدة أن تنقضي راجعها ففعل ذلك مرارا فأنزل الله تعالى: **{الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ}**

وفي الآية إشارة إلى أن الطلاق المكرر بلفظ واحد ليس بطلاق؛ بمعنى أنه لا يتكرر به الطلاق؛ لأن قوله تعالى: **{الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ}** وصف يجب أن يكون معتبراً؛ فإذا طلقت امرأتك؛ فقلت: أنت طالق؛ فقد طلقت؛ فإذا قلت ثانية: «أنت طالق» فكيف تورد طلاقاً على مطلقة؛ لأن الطلاق لا يرد إلا على من كانت غير مطلقة حتى يقال: طلقت؛ وهنا قال تعالى: **{الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ}**؛ ولهذا قال الفقهاء -رحمهم الله-: لو أن الرجل طلق امرأته، وحاضت مرتين، ثم طلقها بعد الحيضة الثانية لا تستأنف عدة جديدة للمطلقة الثانية؛ بل تبني على ما مضى؛ وإذا حاضت الثالثة، وطهرت انقضت عدتها؛ لأن الطلاق الثاني ليس له عدة؛ وهذا مما يؤيد اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية: أن الطلاق المكرر لا عبرة به إلا أن يصادف زوجة غير مطلقة؛ ولأن الله سبحانه وتعالى قال: **{فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ}**؛ والفقهاء الذين خالفوا في ذلك يقولون: إنه إذا كرر الطلاق في المرة الثانية لا تستأنف العدة؛ فإذاً هي مطلقة لغير عدة فلا يقع الطلاق؛ لأنه سيكون على خلاف ما أمر الله به؛ وقد ثبت عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه قال: (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) [البخاري]

والواقع أن من تأمل هذا الكلام لشيخ الإسلام تبين له أنه لا يسوغ القول بخلافه؛ لأنك إذا تأملت كلامه في أنه لا يقع طلاق على طلاق، وأنه لا يتكرر إلا على زوجة غير مطلقة فلا يمكن أن يتكرر الطلاق إلا إذا راجعها، أو عقد عليها عقداً جديداً؛ وهذا القول هو الراجح؛ وهو الذي عليه الفتوى؛ أنه لا طلاق على طلاق حتى لو قال ألف مرة: أنت طالق؛ فليس إلا مرة واحدة فقط؛ ويدل على هذا قول تعالى: **{الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ}** أي مرة بعد مرة؛ فلا بد أن يقع على زوجة غير مطلقة.

{فَأَمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ} والمعروف هنا هو ما عرفه الناس في معاملاتهم من الحقوق التي قررها الإسلام أو قررتها العادات التي لا تنافي أحكام الإسلام. وهو يناسب الإمساك، لأنه يشتمل على أحكام العصمة كلها من إحسان معاشرة، وغير ذلك، فهو أعم من الإحسان. وأما التسريح فهو فراق ومعروفه منحصر في الإحسان إلى المفارقة بالقول الحسن، والبذل بالمتعة، كما قال تعالى: **{فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً}** [الأحزاب: ٤٩]

فالمعروف أخف من الإحسان إذ المعروف حسن العشرة وإعطاء حقوق الزوجية، والإحسان ألا يظلمها من حقها فيقتضي

إعطاء، وبذل المال أشق على النفوس من حسن المعاشرة... وقدم الإمساك على التسريح إيماء إلى أنه الأهم، المرغب فيه في نظر الشرع

{وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ} حرم تعالى على الزوج أن يأخذ من مهر زوجته شيئاً بدون رضاها {شَيْئاً} من النكرات المتوغلة في الإبهام، تحذيراً من أخذ أقل قليل، إشارة إلى خطر الأخذ منهن، قليلاً كان أو كثيراً.

{إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ} من حسن العشرة، وأسند هذا الفعل لهما دون بقية الأمة لأنهما اللذان يعلمان شأنهما.

{فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ} فإن خافت المرأة أن لا تؤدي حقوق الزوجية جاز الفداء، وهو دفع مال للزوج ليخلي سبيلها تذهب حيث شاءت، ويسمى هذا «خلعاً».

فإن قيل: لماذا جاءت الآية بنفي الجناح عليهما؟ فالجواب أن طلب الفداء والطلاق حرام على الزوجة بدون سبب؛ وحرام على الزوج أيضاً أن يأخذ شيئاً مما آتاها بدون سبب.

أما مع استقامة الحال فلا يجوز طلب الخلع؛ فروى الإمام أحمد عن ثوبان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلْتَ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ مَا بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ).

وروى الترمذي عن ثوبان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (الْمُخْتَلِعَاتُ هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ) [صححه الألباني]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ الْمُخْتَلِعَاتِ وَالْمُنْتَزِعَاتِ [أي الجاذبات أنفسهن من أزواجهن بأن يردن قطع الوصلة بالفراق] هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ) [مصنف ابن أبي شيبة، وصححه الألباني]

ومن فارق الزوجة بغير طلاق فليس عليها أن تعتد بثلاث حيض، كالمختلعة؛ وعليه فيكفي أن تستبرئ بحيضة؛ وهذا هو القول الراجح.

روى البخاري وغيره عن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ امْرَأَةً ثَابِتٍ [اسمها جميلة بنت أبي بن سلول، أو حَبِيبَةُ بِنْتُ سَهْلٍ] بَنِ قَيْسٍ بَنِ شَمَّاسٍ [وفي رواية: وَكَانَ رَجُلًا دَمِيمًا] أَتَتْ النَّبِيَّ -

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ مَا
أَعْتَبُ عَلَيْهِ [لَا أَعِيبُهُ وَلَا أَلُومُهُ] فِي خُلُقٍ وَلَا دِينٍ، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ
الْكُفْرَ [وَفِي رَوَايَةٍ: لَا أُطِيقُهُ بُغْضًا، وَفِي رَوَايَةٍ: لَوْلَا مَخَافَةُ اللَّهِ إِذَا
دَخَلَ عَلَيَّ لَبَصَقْتُ فِي وَجْهِهِ] فِي الْإِسْلَامِ [أَيُّ أَنْ أَقَعَ فِي أَسْبَابِ
الْكُفْرِ مِنْ سُوءِ الْعَشْرَةِ مَعَ الزَّوْجِ وَنَقْصَانِهِ حَقَّهُ وَنَحْوِ ذَلِكَ] فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (أَتُرَدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ)
[بِسْتَانِهِ الَّذِي أَعْطَاهَا إِيَّاهُ مَهْرًا] قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: (اقْبَلِ الْحَدِيثَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً) [طَلَقَةً
وَاحِدَةً رَجْعِيَّةً] فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ خُلْعٍ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ. وَلَمْ يَجْعَلْ
لَهَا نَفَقَةً وَلَا سُكْنًى.

وَفِي رَوَايَةٍ: أَنَّ جَمِيلَةَ بِنْتَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي كَانَتْ تَحْتَ ثَابِتِ
بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ، وَكَانَتْ تَبْغُضُهُ وَهُوَ يَحِبُّهَا، فَشَكَتْهُ إِلَى أَبِيهَا
فَلَمْ يَشْكُهَا، ثُمَّ شَكَتْهُ إِلَيْهِ ثَانِيَةً وَثَالِثَةً وَبِهَا أَثَرُ ضَرْبٍ فَلَمْ يَشْكُهَا،
فَأَتَتْ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَشَكَتْهُ إِلَيْهِ وَأَرَتْهُ أَثَرَ الضَّرْبِ،
وَقَالَتْ: لَا أَنَا وَلَا ثَابِتٌ، لَا يَجْمَعُ رَأْسِي وَرَأْسُهُ شَيْءٌ، وَاللَّهُ لَا أَعْتَبُ
عَلَيْهِ فِي دِينٍ وَلَا خُلُقٍ، لَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ مَا أُطِيقُهُ
بُغْضًا، إِنِّي رَفَعْتُ جَانِبَ الْخِيَامِ فَرَأَيْتُهُ أَقْبَلَ فِي عِدَّةٍ وَهُوَ أَشَدَّهُمْ

سواداً، وأقصرهم قامّة، وأقبحهم وجهاً، فقال ثابت: ما لي أحب إلى منها بعدك يا رسول الله، وقد أعطيتها حديقة تردّها عليّ، وأنا أخلي سبيلها، ففعلت ذلك فخلي سبيلها، وكان أول خلع في الإسلام.

وفي الآية إشارة إلى أن للوسائل أحكام المقاصد؛ يؤخذ ذلك من جواز أخذ الإنسان من امرأته ما آتاها، أو بعضه إذا خيفت المفسدة في البقاء على الزوجية.

وفيها أيضاً اعتبار المفسد، وسلوك الأهون لدفع الأشد؛ لأنّ الأخذ من مال الزوجة محرم بلا شك - كما قال تعالى -؛ لكن إذا أريد به دفع ما هو أعظم من تضييع حدود الله - عزّ وجلّ - صار ذلك جائزاً؛ وهذه القاعدة لها أصل في الشريعة؛ منه قوله تعالى: **{وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ}** [الأنعام: ١٠٨]؛ فإنّ سبّ آلهة المشركين واجب؛ ولكن إذا كان يخشى من ذلك أن يسبوا الله عدواً بغير علم صار سبّ آلهتهم ممنوعاً.

وظاهر قوله: **{فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ}** تشريكهما في ترك إقامة الحدود، وأن جواز الأخذ منوط بوجود ذلك منهما معاً.

وأجمع عامة أهل العلم على تحريم أخذ مالها إلا أن يكون النشوز وفساد العشرة من قبلها.

أما إن انفرد الزوج بالفساد فلا أعلم أحداً يجيز له الفدية إلا ما روي عن أبي حنيفة أنه قال: إذا جاء الظلم والنشوز من قبله، فخالعته، فهو جائز ماض، وهو آثم لا يحل ما صنع، ولا يرد ما أخذ.

واختلفوا في جواز أخذ الزائد على ما أصدقها المفارق، فقال طاووس، وعطاء والأوزاعي وإسحاق، وأحمد: لا يجوز أخذ الزائد، لأن الله تعالى خصه هنا بقوله: **{مِمَّا آتَتْهُمُوهَنَّ}** وقال الجمهور: يجوز أخذ الزائد لعموم قوله تعالى: **{فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ}**.

فقوله: **{مِمَّا آتَتْهُمُوهَنَّ}** ظاهر في أن ذلك هو محل الرخصة، لكن الجمهور تأولوه بأنه هو الغالب فيما يحلف بالأزواج، وأنه لا يبطل عموم قوله: **{فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ}** وقد أشار مالك بقوله: ليس من مكارم الأخلاق، إلى أنه لا يراه موجبا للفساد والنهي.

ومن فوائد الآية: أن المخالعة ليست رجعية؛ بمعنى أن الفراق في الخلع فراق بائن فلا سبيل لإرجاعها إلا بعقد جديد؛ لقوله

تعالى: **{اِفْتَدَتْ بِهِ}**؛ فإذا كان فداءً فالفداء فيه عوض عن شيء؛ وإذا استلم الفداء لا يمكن أن يرجع المفدى عنه -وهو الزوجة- إلا بعقد جديد.

ولم يختلف علماء الأمة أن المراد بالآية أخذ العوض على الفراق، وإنما اختلفوا في هذا الفراق هل هو طلاق أو فسخ، فذهب الجمهور إلى أنه طلاق ولا يكون إلا بائناً؛ إذ لو لم يكن بائناً لما ظهرت الفائدة في بذل العوض.

وذهب فريق إلى أنه فسخ، وعليه ابن عباس، وطاووس، وعكرمة، وإسحاق، وأبو ثور، وأحمد بن حنبل.

واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أن الخلع فسخ بأي لفظ كان - ولو بلفظ الطلاق-، وقال: إن هذا هو ظاهر الآية؛ لأنه تعالى قال: **{فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ}**؛ ولم يذكر صيغة معينة؛ لأنه إنما يعتبر في العقود بمعانيها لا بألفاظها؛ فما دام هذا الطلاق الذي وقع من الزوج إنما وقع بفداء من المرأة افتدت نفسها به - فهذا لا يمكن أن نعه طلاقاً ولو وقع بلفظ الطلاق.

وتظهر فائدة هذا الخلاف في الخلع الواقع بينهما. بعد أن طلق الرجل طلقين، فعند الجمهور طلقة الخلع الثالثة فلا تحل

لمخالعها إلا بعد زوج، وعند ابن عباس، وأحمد بن حنبل،
وإسحاق، ومن وافقهم: لا تعد طلقة، ولهما أن يعقدا نكاحا
مستأنفا.

{تَلْكَ حُدُودُ اللَّهِ} شرائعه **{فَلَا تَعْتَدُوهَا}** فلا يحل تجاوز
الحلال إلى الحرام، ولا تجاوز الإحسان إلى الإساءة، ولا المعروف
إلى المنكر.

قال العلماء: إذا كانت الحدود مما يجب فعله قال تعالى:
{فلا تعتدوها}؛ وأما إذا كانت الحدود من المحرمات فإنه تعالى
يقول: **{فلا تقربوها}**.

وحُدود الله استعارة للأوامر والنواهي الشرعية، بقرينة الإشارة،
شبهت بالحدود التي هي الفواصل المجعلة بين أملاك الناس، لأن
الأحكام الشرعية، تفصل بين الحلال والحرام، والحق والباطل،
وتفصل بين ما كان عليه الناس قبل الإسلام، وما هم عليه بعده.

{وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} حصرا وهو
حصر حقيقي، إذ ما من ظالم إلا وهو متعد لحدود الله، فظهر
حصر حال المتعدي حدود الله في أنه ظالم.

{فَإِنْ طَلَّقَهَا} أي المرة الثالثة، قال ابن تيمية: إن طلاق الثلاث في كلمة واحدة [«أنت طالق ثلاثاً»، أو «أنت طالق طالق طالق»] يريد الثلاث؛ أو «أنت طالق، أنت طالق، أنت طالق»] لا يقع إلا طلقة واحدة، وهو الأرجح من جهة النظر والأثر.

{فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ} أي من بعد ثلاث تطليقات **{حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ}** تحذير للأزواج من الطلقة الثالثة، لأنه بذكر المغيرة يتذكر أن زوجته ستصير لغيره بنكاح صحيح ويبني بها الزوج، والنكاح يطلق على العقد وعلى الوطء، قال الحسن: لا يحل إلا الوطء والإنزال، وهو ذوق العسيلة، وقال باقي العلماء: تغيب الحشفة يحل.

روى البخاري عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- جَاءَتْ امْرَأَةً رِفَاعَةَ الْقُرْظِيِّ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَ رِفَاعَةَ فَطَلَّقَنِي فَأَبَتْ طَلَّاقِي فَتَزَوَّجْتُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ الزَّيْبِرِ إِنَّمَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الشَّوْبِ [وفي رواية: أَنَّهُ لَا يَأْتِيهَا] فَقَالَ: (أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ، لَا حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتِكَ).

وفي رواية للبخاري عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ رِفَاعَةَ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ [تَمِيمَةَ بِنْتَ وَهْبٍ] فَتَزَوَّجَهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الزَّيْبِرِ الْقُرْظِيُّ فَأَتَتْ عَائِشَةَ

وَعَلَيْهَا خِمَارٌ أَخْضَرُ فَشَكَتْ إِلَيْهَا وَأَرَتْهَا خُضْرَةَ بَجِلْدِهَا، فَلَمَّا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَالنِّسَاءُ يَنْصُرُ بَعْضُهُنَّ بَعْضًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ مَا يَلْقَى الْمُؤْمِنَاتُ لَجِلْدُهَا أَشَدُّ خُضْرَةً مِنْ ثَوْبِهَا. قَالَ وَسَمِعَ [أَي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ الزَّيْرِ الْقُرْظِيُّ] أَنَّهَا قَدْ أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَجَاءَ وَمَعَهُ ابْنَانِ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا. قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا لِي إِلَيْهِ مِنْ ذَنْبٍ إِلَّا أَنْ مَا مَعَهُ لَيْسَ بِأَغْنَى عَنِّي مِنْ هَذِهِ وَأَخَذَتْ هُدْبَةً مِنْ ثَوْبِهَا [نَهَايَةَ الثَّوْبِ الَّتِي تَتْرَكَ وَلَا تَنْسَجُ فَتَتْرَكَ سَدًى] فَقَالَ: كَذَبْتَ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَأَنْفُضُهَا نَفْضَ الْأَدِيمِ، وَلَكِنَّهَا نَاشِزٌ تُرِيدُ رِفَاعَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَمْ تَحِلِّي لَهُ أَوْ لَمْ تَصْلُحِي لَهُ حَتَّى يَذُوقَ مِنْ عُسَيْلَتِكَ) قَالَ: وَأَبْصَرَ مَعَهُ ابْنَيْنِ لَهُ. فَقَالَ: (بَنُوكَ هَؤُلَاءِ) قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: (هَذَا الَّذِي تَزْعُمِينَ مَا تَزْعُمِينَ فَوَاللَّهِ لَهُمْ أَشْبَهُ بِهِ مِنْ الْغُرَابِ بِالْغُرَابِ).

ولو تزوجت المطلقة ثلاثة بنية التمرد على الزوج حتى يطلقها لعود إلى الأول فلا يحلها هذا النكاح لأجل التحليل، لأن الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أبطله وقال: (لعن الله المحلل والمحلل له) [رواه أحمد] ويسمى بالتيس المستعار، ذاك الذي يتزوج

المطلقة ثلاثا بقصد أن يحلها للأول .. فروى ابن ماجة عن عُبَّة
بْنِ عَامِرٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أَلَا أُخْبِرُكُمْ
بِالتَّيْسِ الْمُسْتَعَارِ؟) قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ (هُوَ الْمُحَلَّلُ لَعَنَ
اللَّهُ الْمُحَلَّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ)

وحكمة هذا التشريع العظيم ردع الأزواج عن الاستخفاف
بحقوق أزواجهم، وجعلهن لعبا في بيوتهم، فجعل للزوج الطلقة
الأولى هفوة، والثانية تجربة، والثالثة فراقا.

واشترط الزوج بزواج ثان بعد ذلك لقصد تحذير الأزواج من
المسارعة بالطلقة الثالثة، إلا بعد التأمل والتريث، الذي لا يبقى
بعده رجاء في حسن المعاشرة، للعلم بحرمة العود إلا بعد زوج،
فهو عقاب للأزواج المستخفين بحقوق المرأة، إذا تكرر منهم ذلك
ثلاثا، بعقوبة ترجع إلى إيلام الوجدان، لما ارتكز في النفوس من
شدة النفرة من اقتران امرأته برجل آخر.

وقد علم السامعون أن اشترط نكاح زوج آخر هو تربية
المطلقين، فلم يخطر ببال أحد إلا أن يكون المراد من النكاح في
الآية حقيقته وهي العقد، إلا أن العقد لما كان وسيلة لما يقصد له

في غالب الأحوال من البناء وما بعده، كان العقد الذي لا يعقبه وطاء العاقد لزوجته غير معتد به فيما قصد منه.

{فَإِنْ طَلَّقَهَا} أتى بلفظ: {إِنْ}، دون (إِذَا) تنبيهاً على أن طلاقه يجب أن يكون على ما يخطر له دون الشرط. فإذا إنما تأتي للمتحقق، وإن تأتي للمبهم والمجوز وقوعه وعدم وقوعه، أو للمحقق المبهم زمان وقوعه، كقوله تعالى: **{أَفَإِنْ مَّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ}** [الأنبياء: ٣٤]

وموت الزوج الثاني كطلاقه تصح معه الرجعة إلى الزوج الأول بشرطه **{فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا}** إن غلب على ظن كل منهما أن العشرة بينهما تطيب وأن لا يتكرر ذلك الاعتداء الذي أدى إلى الطلاق ثلاث مرات.

ولا خلاف فيه بين أهل العلم على أن اللفظ يحتمل أن يعود على الزوج الثاني والمرأة، وتكون الآية قد أفادت حكمين: أحدهما: أن المبتوتة ثلاثاً تحل للأول بعد نكاح زوج غيره بالشروط التي تقدمت، وهذا مفهوم من صدر الآية.

والحكم الثاني: أنه يجوز للزوج الثاني الذي طلقها أن يراجعها، لأنه ينزل منزلة الأول، فيجوز لهما أن يتراجعا، ويكون ذلك دفعاً

لما يتبادر إليه الذهن من أنه إذا طلقها الثاني حلت للأول، فبكونها حلت له اختصت به، ولا يجوز للثاني أن يردها، فيكون قوله: **{فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا}** مبيناً أن حكم الثاني حكم الأول، وأنه لا يتحتم أن الأول يراجعها، بل بدليل إن انقضت عدتها من الثاني فهي مخيرة فيمن یرتد منها أن يتزوجه، فإن لم تنقض عدتها، وكان الطلاق رجعياً، فلزوجه الثاني أن يراجعها.

{إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ} أي: إن ظن كل واحد منهما أنه يحسن عشرة صاحبه، لأن الطلاق لا يكاد يكون في الغالب إلا عند التشاجر والتخاصم والتباغض، ومعنى الظن هنا تغليب أحد الجائزين، وقال البعض (أيقنا)، فجعل الظن هنا بمعنى اليقين، وضعف قولهم بأن اليقين لا يعلمه إلا الله، إذ هو مغيب عنهما.

لذلك قالوا من فوائد الآية: الاكتفاء بالظن في الأمور المستقبلية؛ لأن طلب اليقين في المستقبل من باب التكليف بما لا يطاق؛ لقوله تعالى: **{إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ}**؛ وقد قال الله – تبارك وتعالى –: **{وَلَا تُحْمَلُونَ مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ}** [البقرة: ٢٨٦]، فقال: «قد فعلت».

ويتفرع على هذه الفائدة فائدة مهمة: وهي إذا حلف الإنسان على المستقبل بناءً على غلبة الظن، فتبين بخلافه فلا كفارة فيه؛ لأنه يحلف على ما في نفسه، وعلى ظنه؛ وهذا القول هو الراجح؛ وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

أيضاً: إذا لزم من فعل المباح شيء محرم صار الشيء المباح حراماً؛ لأن رجوع الزوجة حلال في الأصل؛ فإذا لم يظن الإنسان أنه يقوم بالحدود صار حراماً؛ وهو في الأصل حلال.

{وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} أي لقوم ذوي استعداد، وقبول للعلم، وإقحام كلمة "لقوم" للإيدان بأن صفة العلم سجيتههم وملكة فيهم.

ولا يعرف هذه الحدود، ويتبينها إلا من كان من ذوي العلم؛ فكلما كان أعلم كانت الحدود في حقه أبين وأظهر؛ فطالب العلم يتعلم من اللفظ مسائل أخرى؛ فالعلم يغذي بعضه بعضاً؛ وطالب العلم رابح بكل حال؛ فهو ليس كطالب المال قد يشتري السلعة وهو يظن الربح، ثم يخسر؛ فطالب العلم أي مسألة يعلمها فإنها مفتاح له؛ ولهذا قال تعالى: **{يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}**.

ومن فوائد الآية: تعظيم شأن النكاح بأن الله ذكر له حدوداً في عقده، وفي حله؛ لأنه يترتب عليه مسائل كثيرة من المحرمية، والنسب، والميراث، وغير ذلك كحقوق الزوجية؛ ولهذا اشترط فيه أن يكون بولي؛ فالمرأة تستطيع أن تباع كل مالها؛ لكن لا تستطيع أن تزوج نفسها، كما اشترط فيه الإشهاد على رأي كثير من أهل العلم؛ وكل العقود لا يشترط فيها ذلك؛ وأيضاً اشترط فيه الإعلان على رأي بعض أهل العلم؛ والعقود الأخرى لا يشترط فيها ذلك؛ وأيضاً أنه لا يصلح العقد في بعض الأحوال والأزمان؛ وهذا يشاركه فيه بعض العقود؛ وكل ذلك من باب الأهمية في هذا العقد العظيم الذي تترتب عليه هذه الأمور الكبيرة.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

(٢٣١)

{وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ} عطف على الآية قبلها **{فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا}** [البقرة: ٢٣٠] عطف حكم على حكم، وتشريع على تشريع، لقصد زيادة الوصاة بحسن المعاملة في الاجتماع والفرقة، وما تبع ذلك من التحذير الذي سيأتي بيانه.

{فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ} قاربن انقضاء عدتهن، وأضاف الأجل إليهن لأنه أمس بهنّ، لأنهن اللاتي ينتظرن انقضاء الأجل، ليخرجن من حبس العدة **{فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ}** راجعوهن بمعروف من غير ضرر بالمراجعة **{أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ}** أتركوهن حتى تنقضي عدتهن ولا تضاروهن بالمرجة.

وهذه الآية لا تكرر فيها لحكم **{فَأَمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ}** [البقرة: ٢٢٩] لأن الآية هناك أفادت التخيير بين الإمساك والتسريح، في مدة العدة، وهذه الآية هنا أفادت ذلك التخيير في آخر أوقات العدة، تذكيرا بالإمساك وتحريضا على تحصيله، ويستتبع هذا التذكير الإشارة إلى الترغيب في الإمساك، من جهة إعادة التخيير بعد تقدم ذكره.

{وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا} مضارة، وفسر بتطويل العدة، والضرار مصدر ضار، مستعمل للمبالغة في الضرر، تشنيعا على من يقصده

بأنه مفحش فيه **{لَتَعْتَدُوا}** لتظلموهن، وقيل: لتلجئوهن إلى الافتداء بالخلع.. وهذا كالتوكيد لقوله تعالى: **{فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ}**.

نزلت في ثابت بن بشار، ويقال أسنان الأنصاري، طلق امرأته حتى إذا بقي من عدتها يومان أو ثلاثة، وكادت أن تبين راجعها، ثم طلقها ثم راجعها، ثم طلقها حتى مضت سبعة أشهر مضارة لها، ولم يكن الطلاق يومئذ محصوراً.

وهناك طريقة أخرى في الإضرار.. قال في أضواء البيان: صرح تعالى في هذه الآية الكريمة بالنهي عن إمساك المرأة مضارة لها؛ لأجل الاعتداء عليها بأخذه ما أعطاها؛ لأنها إذا طال عليها الإضرار افتدت منه؛ ابتغاء السلامة من ضرره. وصرح في موضع آخر بأنها إذا أتت بفاحشة مبينة جاز له عضلها، حتى تفتدي منه وذلك في قوله تعالى: **{وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ}** [النساء: ١٩]، واختلف العلماء في المراد بالفاحشة المبينة. فقال جماعة منهم هي: الزنا، وقال قوم هي: النشوز والعصيان وبذاء اللسان. والظاهر شمول الآية لكل كما اختاره ابن جرير.

وفي الآية: أن كل من عامل أخاه ضراراً فهو معتد؛ فلا يحل لأحد أن يعامل أخاه المسلم على وجه المضارة؛ وقد جاء في الحديث عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ ضَارَّ ضَارَّ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ شَاقَّ شَقَّ اللَّهُ عَلَيْهِ) [الترمذي: حسن]؛ وجاء في حديث آخر: (لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ) [ابن ماجه: حسن]؛ فالمضارة بين المسلمين محرمة؛ لذلك قال تعالى: {وَلَا تُمَسِّكُوهُمْ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا}.^١

وأيضاً عناية الله عز وجل بعباده في أن يتعاملوا بينهم بالمعروف سواء في حال الاتفاق، أو في حال الاختلاف؛ لأن ذلك هو الذي يقيم وحدة الأمة؛ فإن الأمة إذا لم تتعامل بالمعروف -بل بالمنكر والإساءة- تفرقت واختلفت؛ فالأمة الإسلامية أمة واحدة، كما قال الله تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا} [آل عمران: ١٠٣].

{وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} بتعريضها للعذاب، أو بأن فوت على نفسه منافع الدين من الثواب الحاصل على حسن العشرة، ومنافع الدنيا من عدم رغبة التزويج به لاشتهاره بهذا الفعل القبيح.

قال ابن عاشور: جعل ظلمهم نساءهم ظلماً لأنفسهم، لأنه يؤدي إلى اختلال المعاشرة، واضطراب حال البيت، وفوت المصالح بشغب الأذهان في المخاصمات. وظلم نفسه أيضاً بتعريضها لعقاب الله في الآخرة.

{وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا} لعباً واستخفافاً.

قال الزمخشري: "أي جدّوا في الأخذ بها، والعمل بما فيها، وارعوها حق رعايتها وإلاّ فقد اتخذتموها هزواً ولعباً، ويقال لمن لم يجدّ في الأمر إنما أنت لاعب وهازئ".

وقال في البحر المحيط: "وكان من عادة العرب عدم الاكتراث بأمر النساء والاغتفال بأمر شأنهن، وكنّ عندهم أقل من أن يكون لهنّ أمر أو حق على الزوج، فأنزل الله فيهنّ ما أنزل من الأحكام، وحدّ حدوداً لا تتعدى، وأخبرهم أن من خالف فهو ظالم متعدّ، فأكد ذلك بالنهي عن اتخاذ آيات الله -التي منها هذه الآيات النازلة في شأن النساء- هزواً، بل تؤخذ وتتقبل بجد واجتهاد، لأنها من أحكام الله، فلا فرق بينها وبين الآيات التي نزلت في سائر التكاليف التي بين العبد وربّه، وبين العبد والناس".

وقال ابن عاشور: "وهو تحذير للناس من التوصل بأحكام الشريعة إلى ما يخالف مراد الله، ومقاصد شرعه، ومن هذا التوصل المنهي عنه، ما يسمى بالحيل الشرعية بمعنى أنها جارية على صور صحيحة الظاهر، بمقتضى حكم الشرع، كمن يهب ماله لزوجته ليلة الحول ليتخلص من وجوب زكاته، ومن أبعد الأوصاف عنها الوصف بالشرعية.

فالمخاطبون بهذه الآيات مُحذَرُونَ أن يجعلوا حكم الله في العدة، الذي قصد منه انتظار الندامة وتذكر حسن المعاشرة، لعلهما يحملان المطلق على إمساك زوجته حرصاً على بقاء المودة والرحمة، فيغيروا ذلك ويجعلوه وسيلة إلى زيادة النكاي، وتفاقم الشر والعداوة.

وفي "الموطأ" أن رجلاً قال لابن عباس: إني طلق امرأتي مائة طلقة فقال له ابن عباس: "بانت منك بثلاث، وسبع وتسعون اتخذت بها آيات الله هزءاً" يريد أنه عمد إلى ما شرعه الله من عدد الطلاق، بحكمة توقع الندامة مرة أولى وثانية، فجعله سبب نكايه وتغليظ، حتى اعتقد أنه يضيق على نفسه المراجعة إذ جعله مائة.

وقال ابن عثيمين: تحريم اتخاذ آيات الله هزواً سواء اتخذ الكل أم البعض؛ فمثال اتخاذ آيات الله الشرعية هزواً أن يهزأ الإنسان ويسخر من شرع الله عز وجلّ، سواء سخر بالشرع كله، أو بجزء منه؛ لأن الاستهزاء ببعض الشريعة استهزاء بجميع الشريعة؛ وهناك فرق بين من يدع العمل مع تعظيمه لشرع الله عز وجلّ؛ وبين من يسخر بالشرع، ويستهزئ به، ويرى أنه عبث، وأنه باطل، وما أشبه ذلك؛ فالأول له حكم العصاة؛ فإن كانت معصيته كبيرة تبلغ به الكفر فهو كافر؛ وإلا فهو فاسق؛ وإلا فهو دون الفاسق - كما لو كانت من صغائر الذنوب، ولم يصر عليها-؛ وأما الثاني المستهزئ الذي يرى أن الشرع عبث، أو أنه لأناس انقروضوا، ومضوا، وأن هذا العصر لا يصلح للعمل بهذا الشرع؛ فهذا لا شك أنه كافر؛ وإذا استهزأ مستهزئ بحامل الشريعة، أو العامل بها من أجل حمله الشريعة، أو عمله بها فهو كافر؛ لأنه استهزأ بشريعة من شرائع الله؛ ولهذا قال عز وجلّ في أولئك النفر الذين قالوا: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء - يعنون الرسول، وأصحابه - أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء»؛ قال الله سبحانه وتعالى فيهم: {وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ

وآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ
إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ {
[التوبة: ٦٥-٦٦]؛ أما الذين يقولون عن حملة الشرع، والعاملين
به: «هؤلاء دراويش لا يعرفون المجتمع ولا الدنيا»، وما أشبه ذلك
من الكلمات؛ فهؤلاء أيضاً كفار؛ لأن الله تعالى يقول: { إِنَّ الَّذِينَ
أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ *
وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ
لَضَالُّونَ } [المطففين: ٢٩-٣٢]؛ وفي معنى ذلك قولهم: «هؤلاء
رجعيون»، وقد ذكر الله في آخر الآيات ما يدل على كفرهم في
قوله تعالى: { فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ }
[المطففين: ٣٤]؛ فدل هذا على أن أولئك الذين يسخرون
بالمؤمنين من أجل إيمانهم كفار.

ومثال اتخاذ الآيات الكونية هزواً: لو نزل المطر في أيام
الصيف - وهذا لم تجر به العادة - فقال: «ما هذا التبديل! يوم أن
يكون الناس محتاجين إلى المطر في الشتاء لا يجيء؛ والآن يأتي!»
وهذا يمكن أن يوجد من بعض الفجرة الذين يقولون مثل هذا
الكلام؛ أو مثلاً يُغلب قوميون من العرب - تغلبهم اليهود مثلاً،

فيقول المستهزئ بآيات الله الكونية-: «ما هذا؟ كيف يكون النصر لليهود على العرب - على بني كنعان، وعدنان، وقحطان؛ كيف هذا وهم بنو إسرائيل؟!» وما أشبه ذلك؛ لكن المؤمن يستسلم لأمر الله عز وجل الكوني كما يستسلم لأمره الشرعي؛ ويرى أنه في غاية الحكمة، وفي غاية الإِتقان، وأنه في مكانه، وأن ما حدث فهو واقع موقعه، وأن الحكمة تقتضي ذلك؛ لأن الله عز وجل حكيم؛ لا يصنع شيئاً إلا لحكمة؛ فالمهم أن الاستهزاء بالآية الكونية يمكن أن يكون؛ وقد نهى الله تعالى أن تتخذ آياته هزواً؛ وهو عام للكونية، والشرعية؛ لكن بما أن الآية في سياق الآية الشرعية تكون أخص بالآيات الشرعية منها بالآيات الكونية.

{وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ} مفرد مضاف؛ والمفرد المضاف يدل على العموم، كما في قوله تعالى: **{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا}** [النحل: ١٨] وأما المراد بها الأفراد فهي التي خلت من الإضافة كما في قوله تعالى: **{وَمَا بِكُمْ مِّنْ نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ}** [النحل: ٥٣]

والمعنى: اذكروا باللسان، وبالقلب، وبالجوارح، نعمة الله عليكم حتى تقوموا بشكرها؛ فإن الغفلة عن ذكر النعم سبب لعدم الشكر.

والمراد: النعم الظاهرة والباطنة، وأجلها ما أنعم به من الإسلام ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام.

{وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ} تنبيهاً للمأمورين وتشريفاً لهم، إذ في الحقيقة ما أنزل إلا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ولكنه لما كنا مخاطبين بأحكامه، ومكلفين باتباعه، صار كأنه نزل علينا.

وقوله تعالى: **{وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ}** معطوف على نعمة، وهو تخصيص بعد تعميم، إذ ما أنزل هو من النعمة، وخصه بالذكر مع كونه من النعم للعناية به، وهذا يسمى في علم البيان (التجريد)، كقوله: **{وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ}** بعد ذكر الملائكة في قوله تعالى: **{مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}** [البقرة: ٩٨]

ومنة الله علينا بإنزال الكتاب والحكمة أعظم من كل منة؛ يؤخذ ذلك من تخصيصها بعد التعميم؛ لأن التخصيص بعد التعميم يدل على أهميتها.

{مَنْ الْكِتَابِ} القرآن العظيم **{وَالْحِكْمَةِ}** السنة النبوية
{يَعْظُمُ بِهِ} والموعظة والوعظ: النصيح والتذكير ترغيبا وترهيبا بما
يلين القلوب، ويحذر الموعوظ.

وشريعة الله عز وجل كلها حكمة ولذلك لا حاجة إلى أن نتعب
أنفسنا في طلب الحكمة، أو أن نتمحل حكمة بعيدة قد تكون
مرادة لله، أو غير مرادة؛ لأننا نعلم أن كل ما شرعه الله فهو
لحكمة؛ ومن الحكمة امتحان العبد بالامتثال فيما لا يعلم حكمته؛
ولهذا روى الإمام أحمد عن مُعَاذَةَ قَالَتْ سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ مَا
بَالُ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ فَقَالَتْ أَحْرُورِيَّةٌ أَنْتِ؟
[وإنما قالت ذلك لأن مذهب الخوارج أن الحائض تقضي الصلاة]
قَالَتْ قُلْتُ لَسْتُ بِأَحْرُورِيَّةٍ وَلَكِنِّي أَسْأَلُ قَالَتْ قَدْ كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ
مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَنُؤْمَرُ وَلَا نُؤْمَرُ فَيَأْمُرُ
بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلَا يَأْمُرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ؛ فجعلت الحكمة أمر الله،
ورسوله؛ أما السؤال عن الحكمة من باب الاسترشاد فإن هذا لا
بأس به؛ ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون الرسول -صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن حكمة بعض الأشياء، كما في قوله تعالى:
{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ}

[البقرة: ١٨٩]؛ والسؤال على هذا الوجه من باب طلب العلم الذي يزداد به المؤمن إيماناً، وعلماً؛ وأما السؤال عن الحكمة بحيث لا يستسلم الإنسان للحكم، ولا ينقاد إلا بمعرفتها فهذا ضلال، واستكبار عن الحق، واتباع للهوى، وجعل الشريعة تابعة لا متبوعة.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ} لما كان تعالى قد ذكر أوامر ونواهي، وذلك بسبب النساء اللاتي هنّ مظنة الإهمال وعدم الرعاية، أمر الله تعالى بالتقوى، وهي التي بحصولها يحصل الفلاح في الدنيا والآخرة، وما أكثر ما يأمر الله عزّ وجلّ بالتقوى؛ لأنّ بالتقوى صلاح القلوب، والأعمال. ثم عطف عليها ما يؤكد طلبها وهي قوله:

{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} فالعليم لا يخفي عليه شيء، ويعلم نياتكم في المضارة والاعتداء، وهو إذا علم مخالفتهم لا يحول بين عقابه وبينهم شيء، لأنّ هذا العليم قدير، فلا تلبسوا على أنفسكم.

وكرر اسم «الله» عز وجل في قوله تعالى: **{وَاتَّقُوا اللَّهَ}** و**{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ}** لأن تكريره أفخم، وترديده في النفوس أعظم.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ
أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ
كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢٣٢)

{وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ} الزوجات {فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ} أي انتهت
عدتهن {فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ} تمنعهن، والخطاب للأولياء {أَنْ يَنْكِحْنَ
أَزْوَاجَهُنَّ} هم المطلَّون، سموا أزواجاً باعتبار ما كانوا عليه، وإن لم
يكونوا بعد انقضاء العدة أزواجاً حقيقة. وسمي الزوج زوجاً؛ لأنه
يجعل الفرد اثنين بالعقد.

عَنِ الْحَسَنِ: حَدَّثَنِي مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيهِ قَالَ: زَوَّجْتُ
أُخْتًا لِي [اسمها جميلة] مِنْ رَجُلٍ [هو البداح بن عاصم الأنصاري]
فَطَلَّقَهَا، ثُمَّ تَرَكَهَا، حَتَّى إِذَا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا خَطَبَهَا، فَقُلْتُ:
زَوَّجْتُكَ، وَفَرَشْتُكَ، وَأَكْرَمْتُكَ، فَطَلَّقْتُهَا، ثُمَّ جِئْتُ تَخْطُبُهَا فَلَا وَاللَّهِ
تَعُودُ إِلَيْكَ أَبَدًا قَالَ: وَكَانَ رَجُلًا لَا بَأْسَ بِهِ، وَكَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَرْجِعَ
إِلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ، فَقُلْتُ: الْآنَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ
اللَّهِ، فَزَوَّجْتُهَا إِيَّاهُ. وفي رواية: قال معقل فكفرت عن يميني
وأرجعتها إليه.

والمرأة إذا رأت الرغبة من الرجل الذي كانت تألفه وتعاشره لم تلبث أن تقرن رغبته برغبتها، فإن المرأة سريعة الانفعال قريبة القلب، فإذا جاء منع فإنما يجيء من قبل الأولياء ولذلك لم يذكر الله ترغيب النساء في الرضا بمراجعة أزواجهن ونهى الأولياء عن منعهن من ذلك.

وقد عُرف من شأن الأولياء في الجاهلية، وما قاربها، الأنفة من أصهارهم، عند حدوث الشقاق بينهم وبين ولايهم، وربما رأوا الطلاق استخفافاً بأولياء المرأة وقلة اكتراث بهم، فحملتهم الحمية على قصد الانتقام منهم عندما يرون منهم ندامة، ورغبة في المراجعة.

{إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ} وفي هذا الشرط إيماء إلى علة النهي.. أي: إذا رضي الزوج المطلق أن يردّها إليه ورضيت هي بذلك .. وفسر المعروف بأنه ما يحسن من الدين والمروءة في الشرائط، وقيل: مهر المثل، وقيل: المهر والإشهاد.

وبناء على هذا لو أن المرأة رضيت بالزوج على وجه غير معروف -بل على وجه منكر لا يقره الشرع- فإنها لا تمكن من

ذلك؛ لقوله تعالى: **{بِالْمَعْرُوفِ}**؛ فلو أن المرأة رضيت هذا الخاطب لفسقه، وانسلاخه من الدين فلوليها أن يمنعها.

وفي الآية إشارة إلى اعتبار الولاية للمرأة في النكاح، بناء على غالب الأحوال؛ لأن جانب المرأة جانب ضعيف، مطموع فيه، معصوم عن الامتهان، فلا يليق تركها تتولى مثل هذا الأمر بنفسها؛ لأنه ينافي نفاستها وضعفها، فقد يستخف بحقوقها الرجال، حرصا على منافعهم وهي تضعف عن المعارضة.

وجه الإشارة: أن الله أشار إلى حقين:

١/ حق الولي، بالنهي عن العضل؛ إذ لو لم يكن الأمر بيده، لما نهى عن منعه... أي لو كانت المرأة تملك العقد لنفسها ما كان للعضل تأثير.

٢/ وحق المرأة في الرضا ولأجله أسند الله النكاح إلى ضمير النساء، ولم يقل: (أن تنكحوهن أزواجهن)، وهذا مذهب مالك، والشافعي، وجمهور فقهاء الإسلام

ومن فوائد الآية: إطلاق الشيء على ما مضى، أو ما يستقبل مع أنه في الحال لا يتصف به؛ وذلك قوله تعالى: **{أَنْ يَنْكِحَنَّ أَزْوَاجَهُنَّ}**؛ لأنه إذا كان المراد من طلقت، ثم أراد زوجها أن يعود

إليها، فهم أزواجهن باعتبار ما مضى؛ وإن كان المراد الخطاب الذين يخطبونهن بعد انقضاء العدة فهم أزواجهن باعتبار المستقبل؛ وقد جاء التعبير عن الماضي، والمستقبل في القرآن، كقوله تعالى: **{وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ}** [النساء: ٢] مع أنهم حين إتيان المال قد بلغوا؛ فهذا تعبير عن الماضي؛ وقوله تعالى: **{إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا}** [يوسف: ٣٦] وهو لا يعصر الخمر؛ ولكن يعصر عنباً يكون خمرًا؛ فهذا تعبير عن المستقبل.

ومن فوائد الآية أن «الرضا» شرط لصحة النكاح سواء أكانت المرأة بكرًا، أم ثيبًا؛ وسواء أكان الولي أبها، أم غيره - على القول الراجح -؛ وأنه ليس للأب، ولا لغيره أن يجبر المرأة على النكاح؛ لعموم قول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لا تنكح الأيم حتى تستأمر؛ ولا تنكح البكر حتى تستأذن، قالوا: كيف إذن يا رسول الله؟ قال: أن تسكت)؛

وورد في صحيح مسلم: (البكر يستأذنها أبوها)؛ وهذا صريح في أنه لا يحل لأحد أن يزوج ابنته وهي كارهة؛ بل لا بد من رضاها؛ والمعنى يقتضيه أيضاً؛ لأنه إذا كان الأب لا يملك أن يبيع شيئاً من مالها إلا برضاها، فكيف يملك أن يزوجها بدون رضاها؟!

فلو أن رجلاً أكره ابنته أن تشتري هذا البيت فالعقد غير صحيح مع أنه بإمكانها إذا اشترت البيت وهي كارهة أن تبيعه بعد يوم، أو يومين؛ فكيف يملك أن يكرهها على أن تتزوج برجل لا تريده؟!

فالشريعة جاءت من لدن حكيم خبير؛ فالصواب بلا شك أنه لا يحل للإنسان أن يجبر ابنته على نكاح من لا تريد مهما كان؛ لكن إذا أرادت إنساناً ليس مرضياً في دينه وخلقه، فللولي أن يأبى -ولو بقيت لا تتزوج طوال عمرها-؛ فليس عليه شيء؛ لأنه مأمور بذلك؛ وما يترتب على المأمور فغير محذور

فإن قيل: يرد على ذلك تزويج أبي بكر عائشة من النبي صلى الله عليه وسلم ولها ست سنين؟

فالجواب: أن يقال: لن يرد مثل هذه الصورة؛ لأننا نعلم علم اليقين أن عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- سترضى برسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ولا تبغي به بديلاً؛ ولذلك لما أمره الله عز وجل أن يخير نساءه فبدأ بها رضي الله عنها، وقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : (لا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك)؛ قالت: يا رسول

الله، أفي هذا أستمّر أبوي؟! إنني أريد الله ورسوله والدار الآخرة؛ وعلى هذا لا يتم الاستدلال بها على تزويج المرأة بغير إذننها.

{ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ} إشارة إلى حكم النهي عن العضل، و {ذلك}، للبعد، ناب عن اسم الإشارة (الذي) للقرب، وهو وإن كان الحكم قريباً ذكره في الآية، وذلك يكون لعظمة المشير إلى الشيء، ومعنى: يوعظ به: أي يذكر به ويخوّف.

{مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} هو يوم القيامة؛ وصف بذلك؛ لأنه آخر مراحل الإنسان .. وذكر الإيمان بالله لأنه تعالى هو المكلف لعباده، الناهي لهم، والامر. و{اليوم الآخر}، لأنه هو الذي يحصل به التخويف، وتجنّى فيه ثمرة مخالفة النهي.

وخص المؤمنين لأنه لا ينتفع بالوعظ إلاّ المؤمن، إذ نور الإيمان يرشده إلى القبول **{إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ}** [الأنعام: ٣٦] وسلامة عقله تذهب عنه مداخلة الهوى **{إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ}**

{أُولُوا الْأَلْبَابِ} [الرعد: ١٩]

{ذَلِكَ أَرْزَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ} التمكن من النكاح أركى لمن هو بصدد العضل لما له في امتثال أمر الله من الثواب، وأطهر للزوجين

لما يخشى عليهما من الريبة إذا منعاً من النكاح، وذلك بسبب العلاقات التي بين النساء والرجال.

وقيل: أزكى وأطهر أنه أوفر للعرض، وأقرب للخير، فأزكى دال على النماء والوفر، وذلك أنهم كانوا يعضلونهن حمية وحفاظاً على المروءة من لحاق ما فيه شائبة الحطيطة، فأعلمهم الله أن عدم العضل أوفر للعرض؛ لأن فيه سعياً إلى استبقاء الود بين العائلات التي تقاربت بالصهر والنسب؛ فإذا كان العضل إباية للضميم، فالإذن لهن بالمراجعة حلم وعفو ورفاء للحال وذلك أنفع من إباية الضيم. ومن فوائد الآية: أن الاتعاض بأحكام الله تزكية للنفس؛ لقوله تعالى: **{ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ}**؛ فهو ينمي النفس، وينمي الإيمان، وينمي الأخلاق، وينمي الآداب؛ فكلما كان الإنسان أشد تطبيقاً لأحكام الله كان ذلك أزكى له.

وأما قوله: **{وَأَطْهَرُ}** فهو معنى أنزه، أي أنه أقطع لأسباب العداوات والإحـن والأحقاد بخلاف العضل الذي قصدتم منه قطع العود إلى الخصومة، وماذا تضر الخصومة في وقت قليل يعقبها رضا ما تضر الإحـن الباقية، والعداوات المتأصلة، والقلوب المحرقة.

ومن فوائد الآية: أن تطبيق الأحكام أظهر للإنسان؛ يعني أظهر للقلب؛ لأن الأعمال الصالحة تطهر القلب من أرجاس المعاصي؛ ولذلك تجد عند الإنسان المؤمن من الحيوية، والنشاط، والسرور، والفرح ما ليس عند غيره؛ ويعرف ذلك في وجهه؛ فالإنسان صاحب المعاصي مظلم الوجه كاسف البال؛ ولو فرح بما فرح من زهرة الدنيا فهو فرح خاسر؛ لكن المؤمن الذي شرح الله صدره للإسلام، وامتأل قلبه بنور الله وهدايته، ليس كذلك؛ وأسعد الناس في الدنيا أظهرهم قلباً.

{وَاللَّهُ يَعْلَمُ} ما فيه مصلحتكم، ونقاؤكم، وطهركم **{وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}** كمال العلم.. تذييل، وإزالة لاستغرابهم حين تلقى هذا الحُكم، لمخالفته لعاداتهم القديمة، وما اعتقدوا نفعا وصلاحا وإبقاء على أعراضهم، فعلمهم الله أن ما أمرهم به ونهاهم عنه هو الحق، لأن الله يعلم النافع، وهم لا يعلمون إلا ظاهراً، فمفعول **{يَعْلَمُ}** محذوف أي: والله يعلم ما فيه كمال زكاتكم وطهارتكم؛ وأنتم لا تعلمون ذلك.

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ
الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا
تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ
بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ
مَنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا
أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)

{وَالْوَالِدَاتُ} أي المطلقات اللاتي لهن أولاد في سن الرضاعة،
ودليل التخصيص أن الخلاف في مدة الإرضاع لا يقع بين الأب
والأم، إلا بعد الفراق، ولا يقع في حالة العصمة؛ إذ من العادة
المعروفة عند العرب ومعظم الأمم أن الأمهات يرضعن أولادهن في
مدة العصمة، وأنهن لا تمتنع منه من تمتنع إلا لسبب طلب الزوج
بزوج جديد، بعد فراق والد الرضيع؛ فإن المرأة المرضع لا يرغب
الأزواج فيها؛ لأنها تشتغل برضيعها عن زوجها في أحوال كثيرة.

{يُرْضِعْنَ} جملة خبرية بمعنى الأمر؛ وإتيان الأمر بصيغة الخبر
أبلغ من الأمر المحض؛ كأنه حين يأتي بصيغة الخبر أمر مستقر
يتحدث عنه.

وفيه أيضا إثبات حق الاستحقاق، وليس بمعنى الأمر للوالدات والإيجاب عليهن؛ لأنه قد ذكر بعد أحكام المطلقات، ولأنه عقب بقوله: **{وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا}** فإن الضمير شامل للآباء والأمهات، على وجه التغليب، فلا دلالة في الآية على إيجاب إرضاع الولد على أمه، ولكن تدل على أن ذلك حق لها، وقد صرح بذلك في سورة الطلاق بقوله: **{وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسْتَضِعْ لَهُ أُخْرَى}** [الطلاق: ٦] ولأنه عقب بقوله: **{وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}** وذلك أجر الرضاعة، والزوجة في العصمة ليس لها نفقة وكسوة لأجل الرضاعة، بل لأجل العصمة.

{أَوْلَادَهُنَّ} صرح بالمفعول، مع كونه معلوما، إيماء إلى أحقية الوالدات بذلك وإلى ترغيبهن فيه؛ لأن في قوله: **{أَوْلَادَهُنَّ}** تذكير لهن بداعي الحنان والشفقة، فعلى هذا التفسير، وهو الظاهر من الآية

والذي عليه جمهور السلف: الآية واردة إلا لبيان إرضاع المطلقات أولادهن، فإذا رامت المطلقة إرضاع ولدها، فهي أولى به، سواء كانت بغير أجر أم طلبت أجر مثلها، ولذلك كان المشهور

عن مالك: أن الأب إذا وجد من ترضع له غير الأم بدون أجر، وبأقل من أجر المثل، لم يُجَب إلى ذلك.

{حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ} الحول في كلام العرب: العام، وهو مشتق من تحول دورة القمر أو الشمس في فلكه من مبدأ مصطلح عليه، إلى أن يرجع إلى السميت الذي ابتداء منه، فتلك المدة التي ما بين المبدأ والمرجع تسمى حولاً. وحول العرب قمري وكذلك أقره الإسلام.

ووصف الحولين بكاملين، تأكيد لرفع توهم أن يكون المراد حولاً وبعض الثاني؛ لأن إطلاق التشية والجمع، في الأزمان والأسنان على بعض المدلول، إطلاق شائع عند العرب، فيقولون: هو ابن سنتين: ويريدون سنة وبعض الثانية.

{لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ} هذا يدل على أن الإرضاع في الحولين ليس بحد لا يتعدى، وإنما ذلك لمن أراد الإتمام، أما من لا يريده فله فطم الولد دون بلوغ ذلك إذا لم يكن فيه ضرر للولد.

{وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ} لم يأت بلفظ الوالد، ولا بلفظ الأب، لما في ذلك من إعلام الأب ما منح الله له وأعطاه، إذ اللام في: {له}،

معناها شبه التملك والمنحة، كقوله تعالى: **{وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً}** [النحل: ٧٢]

ولطيفة أخرى في قوله: **{وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ}** وهو أنه لما كلف بمؤن المرضعة لولده من الرزق والكسوة، ناسب أن يسلى بأن ذلك الولد هو وُلِدَ لك لا لأمه، وأنت الذي تنتفع به في التناصر وتكثير العشيرة، وأن لك عليه الطوعية كما كان عليك لأجله كلفة الرزق والكسوة لمرضعته.

{رَزَقُوهِنَّ} النفقة **{وَكِسَوْتُهُنَّ}** اللباس **{بِالْمَعْرُوفِ}** ما جرى به العرف من نفقة وكسوة لمثلها، بحيث لا يكون إكثار ولا إقلال. لأنهم كانوا يجعلون للمراضع كسوة ونفقة، وكذلك غالب إجاراتهم؛ إذ لم يكن أكثر قبائل العرب أهل ذهب وفضة، بل كانوا يتعاملون بالأشياء، وكان الأجراء لا يرغبون في الدرهم والدينار، وإنما يطلبون كفاية ضروراتهم، وهي الطعام والكسوة.

{لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا} تعليل لقوله: **{بِالْمَعْرُوفِ}** و **{تُكَلِّفُ...}** وهو اعتراض أول غير معطوف على سابقه وهو مبني للمفعول، والفاعل هو الله تعالى، وحذف للعلم به.

{ لَا تُضَارَّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا } لا يضار مولود له مطلقة بمنعها ما
وجب لها من رزق وكسوة، وأخذ ولدها مع إيثارها إرضاعه، وغير
ذلك من وجوه الضرر **{ وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ }** لا تضار والدته زوجها
بأن تطالبه بما لا يقدر عليه من رزق وكسوة وغير ذلك من وجوه
الضرر.

وهو موقع التعليل أيضا، وهو اعتراض ثان يفيد أصولا عظيمة
للتشريع ونظام الاجتماع.

{ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ } إذا مات المولود له وجب على وارثه
ما وجب عليه من رزق الوالدات وكسوتهن بالمعروف، وتجنب
الإضرار.

واتفق علماء الإسلام على أن ظاهر الآية غير مراد؛ إذ لا قائل
بوجوب نفقة المرضع على وارث الأب سواء كان إيجابها على
الوارث في المال بأن يكون مبدأة على الموارث للإجماع على أنه
لا يبدأ إلا بالتجهيز ثم الدين ثم الوصية، ولأن الرضيع له حظه في
المال الموروث وهو إذا صار ذا مال لم تجب نفقته على غيره.

فالنفقة واجبة على قرابة الرضيع -وهم بالضرورة قرابة أبيه-
إذا مات أبوه ولم يترك مالاً فتجب نفقة الرضيع على الأقارب. على
حسب قربهم في الإرث.

وفي الآية: وجوب إرضاع الأم ولدها الرضعة الأولى «اللّبا» إن
كانت مطلقة، وسائر الرضاع إن كانت غير مطلقة.

ثم ذكر تعالى رخصتين في الإرضاع فقال تعالى في الأولى:
{فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا} أي فطام الصبي عن الرضاعة قبل تمام الحولين
إذا ظهر استغناؤه عن اللبن، وليس كما توهم البعض أن الفصال هو
الطلاق، ولأنه يكره التشاور والتراضي عند الطلاق **{عَنْ تَرَاضٍ}**
مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ} فلا بد من تراضيهما، فلو رضي أحدهما وأبى الآخر
لم يجبر، وآخر التشاور لأنه به يظهر صلاح الأمور والآراء
وفسادها.

والمشورة مشتقة من الإشارة لأن كل واحد من المتشاورين
يشير بما يراه نافعا، فلذلك يقول المستشار لمن يستشير: بماذا
تشير علي؟ كأن أصله أنه يشير للأمر الذي فيه النفع، مشتق من
الإشارة باليد، لأن الناصح المدبر كالذي يشير إلى الصواب ويعينه
له من لم يهتد إليه.

{فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا} مباح لهما، وأن حق إرضاع الحولين مراعي فيه حق الأبوين وحق الرضيع، وأن ذلك يختلف باختلاف أمزجة الرضعاء.

والرخصة الثانية: **{وَإِنْ أَرَدْتُمْ}** الخطاب للآباء والأمهات وفيه التفات، إذ هو خروج من غيبة إلى خطاب، وتلوين في الضمير، لأن قبله **{فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا}** بضمير التثنية **{أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ}** طلب الرضاع من مرضعة غير أمه، فالسين والتاء في **{تسترضعوا}** للطلب، ولهما ذلك إن طابت به نفس الأم **{فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ}** للمراضع **{مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ}** والمعنى: جواز الاسترضاع للولد غير أمه إذا أرادوا ذلك واتفقوا عليه، وسلموا إلى المراضع أجورهن بالمعروف، فيكون ما سلمتم هو الأجرة على الاسترضاع، وليس التسليم شرطاً في جواز الاسترضاع والصحة، بل ذلك على سبيل الندب، لأن في إيتائها الأجرة معجلاً هنياً توطين لنفسها واستعطاف منها على الولد، فتشاور على إصلاح شأنه.

وفي هذه الآية دليل على أن للآباء أن يستأجروا لأولادهم مراضع إذا اتفقوا مع الأمهات على ذلك، وهذه كانت سنة العرب قديماً لاسيما أهل الشرف. وفي الحديث النبوي: (واسترضعت في

بني سعد)، فكانوا يتخذون المراضع لأولادهم ويفرغون الأمهات للاستمتاع بهن، والاستصلاح لأبدانهن، ولاستعجال الولد بحصول الحمل، فأقرهم الشرع على ذلك لما في ذلك من المصلحة ورفع المشقة عنهم بقطع ما ألفوه، وجعل الأجرة على الأب بقوله: **{إِذَا سَلَّمْتُمْ}**.

قال في أضواء البيان: ولم يبين هنا الوجه الموجب للاسترضاع، ولكنه بينه في سورة الطلاق بقوله تعالى: **{وَإِنْ تَعَاسَرْتُم فَاسْتَرْضِعْ لَهُ أُخْرَى}** [الطلاق: ٦]، والمراد بتعاسرهم: امتناع الرجل من دفع ما تطلبه المرأة، وامتناع المرأة من قبول الإرضاع بما يبذله الرجل ويرضى به.

ولو أن الأم طلبت أن ترضعه، وقال الأب: ترضعه غيرها أجبر الأب على موافقة الأم؛ لقوله تعالى: **{وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ}**؛ فبدأ بـ **{الوالدات}**؛ لأن الأم أشفق، ولبنها لطفلها أطيب؛ ولأن ذلك أدعى إلى التعاطف بين الأم، وولدها.

{وَاتَّقُوا اللَّهَ} تذييل للتخويف، والحث على مراقبة ما شرع الله، من غير محاولة ولا مكايدة **{وَاعْلَمُوا}** تذكير لهم بذلك، وإلا فقد علموه **{أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}** لما تقدّم أمر ونهي، خرج

على تقدير أمر بتقوى الله تعالى، ولما كان كثير من أحكام هذه الآية متعلقاً بأمر الأطفال الذين لا قدرة لهم ولا منعة مما يفعله بهم، حذر وهدّد بقوله: **{وَاعْلَمُوا}** وأتى بالصفة **{بَصِيرٌ}** مبالغة في الإحاطة بما يفعلونه معهم والاطلاع عليه.

والعلم بأن الله بما نعمل بصير من تقوى الله عزّ وجلّ؛ لكن لما كان من تمام التقوى أن تعلم أن الله بما تعمل بصير نص عليه؛ لأنك متى علمت ذلك خفت من هذا الذي هو بصير بعملك أن يجدك حيث نهاك، أو يفقدك حيث أمرك؛ لأنه بصير بذلك.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيَمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤)

{وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ} يوفيهم الله تعالى ما كتب لهم من العمر فيموتون. وقد أضاف الله التوفي إليه تارة، كما في قوله تعالى: **{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا}** [الزمر: ٤٢]؛ وإلى ملك الموت تارة، كما في قوله تعالى: **{قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ**

{بُكُمْ} [السجدة: ١١] وإلى رسله -وهم الملائكة- تارة، كما في قوله تعالى: **{حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ}** [الأنعام: ٦١] فإضافتها إلى الله تعالى؛ لأنها بأمره؛ وإلى ملك الموت؛ لأنه الذي يقبض الروح؛ وإلى الرسل؛ لأنهم يقبضونها من ملك الموت يصعدون بها إلى السماء؛ ولذلك بني الفعل في الآية لما لم يسم فاعله؛ ليشمل كل ذلك.

{وَيَذَرُونَ} يتركون **{أَزْوَاجًا}** زوجات لهم **{يَتَرَبَّصْنَ}** ينتظرن، وهو هنا الصبر عن النكاح ولزوم البيت والإحداذ **{بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا}** أي وعشر ليال بأيامها، فيدخل اليوم العاشر، قيل: وغلب حكم الليالي إذ الليالي أسبق من الأيام، والأيام في ضمنها **{وعشرا}** أخف في اللفظ، ولا تنقضي عدتها إلا بانقضاء اليوم العاشر، هذا قول الجمهور. وهذا للحرّة، أما عدة الأمة نصف المدة كما بينت السنة.

وروي عن سعيد بن المسيب، والشافعي أنهما قالوا: إذا قامت البينة فالعدة من يوم يموت، وإن لم تقم بينة فمن يوم يأتيها الخبر. ونسخت هذه الآية قوله تعالى: **{مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ}**، وفي ذلك الوقت الأول، كانت الوصية للأزواج واجبة،

وهي النفقة إلى الحول، ثم أبدلت الوصية بالميراث، إما ربعاً في حالة، أو ثمنياً في حالة.

قال في البحر المحيط: وأجمع الفقهاء على أن هذه الآية ناسخة لما بعدها من الاعتداد بالحول، وهذا من غرائب النسخ، فإن الحكم الثاني ينسخ الأول، وقيل: إن الحول لم ينسخ، وإنما هو ليس على وجه الوجوب، بل هو على الندب، فأربعة أشهر وعشراً، أقل ما تعتد به المتوفى عنها زوجها، والحول هو الأكمل والأفضل.

روى ابن ماجة والترمذي عن زَيْنَبِ بِنْتِ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ وَكَانَتْ تَحْتَ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ أُخْتَهُ الْفُرَيْعَةَ بِنْتَ مَالِكٍ قَالَتْ: خَرَجَ زَوْجِي فِي طَلَبِ أَعْلَاجٍ لَهُ فَأَدْرَكَهُمْ بِطَرْفِ الْقُدُومِ فَقَتَلُوهُ فَجَاءَ نَعْيُ زَوْجِي وَأَنَا فِي دَارٍ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ شَاسِعَةٍ عَنْ دَارِ أَهْلِي فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَاءَ نَعْيُ زَوْجِي وَأَنَا فِي دَارٍ شَاسِعَةٍ عَنْ دَارِ أَهْلِي وَدَارِ إِخْوَتِي وَلَمْ يَدَعْ مَالاً يُنْفَقُ عَلَيَّ وَلَا مَالاً وَرَثَتُهُ وَلَا دَاراً يَمْلِكُهَا فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَأْذَنَ لِي فَأَلْحَقَ بِدَارِ أَهْلِي وَدَارِ إِخْوَتِي فَإِنَّهُ أَحَبُّ إِلَيَّ وَأَجْمَعُ لِي فِي بَعْضِ أَمْرِي قَالَ فافْعَلِي إِنْ شِئْتَ قَالَتْ فَخَرَجْتُ قَرِيرَةً عَيْنِي لِمَا قَضَى اللَّهُ لِي

عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَتَّى إِذَا كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ أَوْ فِي بَعْضِ الْحُجَرَةِ دَعَانِي فَقَالَ كَيْفَ زَعَمْتَ قَالَتْ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ (امْكُثِي فِي بَيْتِكَ الَّذِي جَاءَ فِيهِ نَعْيُ زَوْجِكَ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ) قَالَتْ فَاعْتَدَدْتُ فِيهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا.

وروى البخاري عن زَيْنَبِ بِنْتِ أَبِي سَلَمَةَ قَالَتْ لَمَّا جَاءَ نَعْيُ أَبِي سُفْيَانَ مِنَ الشَّامِ دَعَتْ أُمَّ حَبِيبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بِصُفْرَةٍ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ فَمَسَحَتْ عَارِضِيهَا وَذِرَاعِيهَا وَقَالَتْ إِنِّي كُنْتُ عَنْ هَذَا لَغَنِيَّةً لَوْلَا أَنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: (لَا يَحِلُّ لَامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ تُحِدَّ عَلَى مَيِّتٍ فَوْقَ ثَلَاثٍ إِلَّا عَلَى زَوْجٍ فَإِنَّهَا تُحِدُّ عَلَيْهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا)

وفي الآية وجوب العدة على المتوفى عنها زوجها سواء دخل بها، أم لم يدخل؛ لقوله تعالى: {أَزْوَاجًا}؛ لأن الزوجة تكون زوجة بمجرد العقد بخلاف الطلاق؛ فإن الطلاق قبل الدخول والخلو لا عدة فيه؛ لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا} [الأحزاب: ٤٩]

وفيها الآية أيضا أن عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام سواء كانت تحيض، أو لا تحيض.

وأحدث المرأة إذا حزنت، ولبست ثياب الحزن، وتركت الزينة، ويقال حداد، والمراد به في الإسلام ترك المعتدة من الوفاة الزينة، والطيب، ومصبوغ الثياب، إلا الأبيض، وترك الحلي.

واتفق الكل على أن المرأة المعتدة تخرج للضرورة، وتخرج نهارا لحوائجها، من وقت انتشار الناس إلى وقت هدوئهم بعد العتمة، ولا تبث إلا في المنزل.

ولا خلاف أن هذه الآية خاصة في غير الحامل، فعدتها أن تضع حملها، قال تعالى: **{وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}** [الطلاق: ٤] وهذا عام في المطلقة والمتوفى عنها زوجها.

ويزيده إيضاحا ما ثبت في الحديث المتفق عليه من إذن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لسبيعة الأسلمية في الزواج بوضع حملها بعد وفاة زوجها بأيام، وكون عدة الحامل المتوفى عنها بوضع حملها هو الحق، كما ثبت عنه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خلافا

لمن قال: تعدد بأقصى الأجلين. ويروى عن علي وابن عباس،
والعلم عند الله تعالى.

فروى البخاري عن أبي سلمة قال جاء رجل إلى ابن عباس وأبو
هريرة جالس عنده فقال: "أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين
ليلة؟" فقال ابن عباس: "آخر الأجلين" قلت أنا {وأولات الأحمال
أجلهن أن يضعن حملهن} قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي يعني أبا
سلمة فأرسل ابن عباس غلامه كريباً إلى أم سلمة يسألها فقالت:
"قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى فوضعت بعد موته بأربعين
ليلة فخطبت فأنكحها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان
أبو السنابل فيمن خطبها"

وقال عمر - رضي الله عنه -: "لو وضعت حملها وزوجها على
سريره ولم يدفن لحلت للأزواج"

فلما كان وضع الحمل أدل شيء على براءة الرحم، كان مغنياً
عن غيره.

وقد جعل الله عدة الوفاة منوطة بالأمد الذي يتحرك في مثله
الجنين تحركاً بيناً، محافظة على أنساب الأموات.

قال في البحر المحيط: واختص هذا العدد في عدة المتوفى عنها زوجها استبراء للحمل فقد روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، قَالَ: (إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيَّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ)، .. أربعة أشهر، وزاد الله العشر لأنها مظنة لظهور حركة الجنين، أو مراعاة لنقص الشهور وكمالها، أو استظهاراً لسرعة ظهور الحركة أو بطئها في الجنين.. قال أبو العالية وغيره: إنما زيدت العشر لأن نفخ الروح يكون فيها، وظهور الحمل في الغالب.

وخصت العشرة لزيادة لكونها أكمل الأعداد وأشرفها لما تقدم

في قوله: {تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ} [البقرة: ١٩٦]

قال القشيري: لما كان حق الميت أعظم، لأن فراقه لم يكن بالاختيار، كانت مدة وفاته أطول. وفي ابتداء الإسلام كانت عدة الوفاة سنة، ثم ردت إلى أربعة أشهر وعشرة أيام لتخفيف براءة

الرحم عن ماء الزوج، ثم إذا انقضت العدة أبيح لها التزوج بزواج آخر، إذ الموت لا يستديم موافاة إلى آخر عمر أحد.

{فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ} أي إذا بلغن بتربصهن تلك المدة وانتهاء العدة **{فَلَا جُنَاحَ}** لا حرج، وهو الإثم المترتب على المعصية **{عَلَيْكُمْ}** الأولياء **{فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ}** مما أذن فيه الشرع من التنقل من مسكن لمسكن آخر، ومس الطيب والتجمل والتعرض للخطاب والنكاح الحلال.. ووعظهم في ختام الآية بقوله **{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}** أي عليم ببواطن الأمور، وهذا وعيد يتضمن التحذير .. وخبير للمبالغة، وهو العلم بما لطف والتقصي له. فالخبير أخص من العليم.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذَكَّرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥)

{وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ} التعريض: التلويح بالكلام إلى الشيء دون تصريح **{مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ}** سميت خطبة إما من الخُطْبُ بمعنى الشأن؛ لأن هذا شأنه عظيم؛ وإما من الخطابة؛ لأنها مقرونة بالقول - حتى إنه كان فيما سلف يأتي الخاطب إلى المرأة، وأهلها، ويخطب فيهم - يعني يتكلم بخطبة، ثم يبدي أنه يرغبها.

والتعريض نحو قوله: إنك لصالحة، وإن من عزمي أن أتزوج، أحب امرأة كذا وكذا يعد أوصافها، أو يصف لها نفسه، وفخره، وحسبه، ونسبه، كما فعل الباقر مع سكينه بنت حنظلة، أو يقول لوليها: لا تسبقني بها، أو: يهدي لها ويقوم بشغلها، والإجماع على أنه لا يجوز التصريح بالتزويج.

وقد روى أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال لفاطمة بنت قيس، وهي في عدتها من طلاق زوجها، عمرو بن حفص، آخر الثلاث: (كوني عند أم شريك ولا تسبقيني بنفسك) أي لا تستبدي بالتزوج قبل استئذاني. وفي رواية: (إذا حلت فآذنيني) وبعد انقضاء عدتها، خطبها لأسامة بن زيد، فهذا قول لا خطبة فيه وإرادة المشورة فيه واضحة.

{أَوْ أَكْنَنْتُمْ} أخفيتم **{فِي أَنْفُسِكُمْ}** لا إثم عليكم في التعريض دون التصريح بالزواج، كما لا إثم في إضمار الرغبة في النفس، وكان المعنى رفع الجناح عمن أظهر بالتعريض أو ستر ذلك في نفسه.

{عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ} مبدين رغبتكم في الزواج منهن فرخص لكم في التعريض دون التصريح، وهذا عذر في التعريض، لأن الميل متى حصل في القلب عسر دفعه، فأسقط الله الحرج في ذلك، فأباح لكم التعريض تيسيراً عليكم.

والتعريض يبقى حجاب الحياء مسدولاً بينهما وبرقع المروءة غير مرفوع وذلك من توقير شأن العدة، فلذلك رخص التعريض تيسيراً على الناس، ومنع التصريح إبقاءً على حرمان العدة. ومن فوائد الآية: لو قال شخص: «إنني أريد أن أتزوج امرأة فلان المتوفى عنها زوجها» يحدث غيره: فلا بأس به.

{وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا} وإذا نهي عن السر فالعلانية من باب أولى .. وهذا الاستدراك من الجملة التي قبله، وهو قوله: **{سَتَذْكُرُونَهُنَّ}** والذكر يقع على أنحاء وأوجه، فاستدرك منه وجه نهي فيه عن ذكر مخصوص، ولو لم يستدرك لكان مأذوناً فيه

لاندراجہ تحت مطلق الذكر الذي أخبر الله بوقوعه، وهو نظير قولك: زيد سيلقى خالداً ولكن لا يواجهه بشرّ، فاستدرك هذه الحالة مما يحتمله اللقاء، وإن من أحواله المواجهة بالشر.. والمعنى: لا توافقوهن المواعدة والتوثق وأخذ العهود في استسرار منكم وخفية.

وفيه تحريم خطبة المعتدة من وفاة أو من طلاق بائن، أما الطلاق الرجعي فلا يصح الخطبة فيه لا تعريضاً ولا تصريحاً لأنها في حكم الزوجة.

قال مالك في رواية ابن وهب عنه، فيمن واعد في العدة ثم تزوجها بعد العدة، قال: فراقها أحب إليّ دخل بها أو لم يدخل، وتكون تطليقة واحدة، فإذا حلت خطبها مع الخطاب.

وقال الشافعي: لو صرح بالخطبة وصرحت بالإجابة ولم يعقد عليها إلا بعد انقضاء العدة صح النكاح، والتصريح بهما مكروه.

{إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا} هو الإذن بالتعريض، وهذا الاستثناء منقطع لأنه لا يندرج تحت: سراً، لأن المواعدة سراً ليس من القول المعروف؛ إذ إن القول المعروف هو التعريض دون التصريح.

فالمستثنى إذا كان من جنس المستثنى منه فإن أهل العلم يسمونه متصلاً، وإذا كان من غير جنسه فإنه يسمى منقطعاً، كما إذا قيل: "قام القوم إلا زيداً"، فهذا استثناء متصل؛ لأن زيد المستثنى من جنس المستثنى منه وهو القوم، لكن إذا قيل: "ما رأيت أحداً إلاً ديكاً"، فهذا يسمونه استثناء منقطعاً؛ لأن الديك ليس من جنس القوم المستثنى منه.

والخلاصة أن خطبة المعتدة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: تباح تصريحاً وتعريضاً؛ وتحرم تصريحاً لا تعريضاً.

الأول (تحرم تصريحاً وتعريضاً): في الرجعية لغير زوجها؛ فيحرم على الإنسان أن يخطب الرجعية لا تصريحاً، ولا تعريضاً؛ والرجعية هي المعتدة التي يجوز لزوجها أن يراجعها بغير عقد؛ لأنها زوجة، كما قال تعالى: **{وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ}** إلى أن قال: **{وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ}** [البقرة: ٢٢٨]

الثاني (تحل تصريحاً وتعريضاً): وهي البائن من زوجها بغير الثلاث، كالمطلقة على عوض، والمختلعة، والفاسخة لنكاحها بسبب، وما أشبه ذلك؛ فيجوز لزوجها أن يخطبها تعريضاً، وتصريحاً، وأن يتزوجها.

الثالث (تباح تعريضاً لا تصريحاً): كل مبانة لغير زوجها؛ فيجوز لغير زوجها أن يعرض بخطبتها بدون تصريح، كالمتوفى عنها زوجها تجوز خطبتها تعريضاً لا تصريحاً.

{وَلَا تَعْزُمُوا} العزم على الشيء إرادة فعله بلا تردد **{عُقْدَةُ النِّكَاحِ}** أي عقد النكاح، وعقدة النكاح ما تتوقف عليه صحة النكاح، ولذلك قال ابن عطية: عزم العقدة عقدها بالإشهاد والولي، وإذا كان العزم منهياً عنه، فأحرى أن ينهى عن العقدة.

{حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ} أجل الشيء منتهاه وغايته، أي حتى تنتهي العدة، والكتاب هنا هو المكتوب أي المفروض من الله وهو العدة، ومن عقد على امرأة قبل انقضاء عدتها يفرق بينهما ولا تحل له بعد عقوبة لهما.

{وَاعْلَمُوا} ابتدئ الخطاب بـ (اعلموا) لما أريد قطع هواجس التساهل والتأول، في هذا الشأن، ليأتي الناس ما شرع الله لهم عن صفاء سريرة من كل دخل وحيلة **{أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ}** من هواهن **{فَاخْذَرُوهُ}** تهديد، والحذر من الشيء معناه أخذ الحذر— وهو الاحتياط، وعدم المخالفة.

{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} فكما يؤاخذكم على ما تضمرون من المخالفة، يغفر لكم ما وعد بالمغفرة عنه كالتعريض، لأنه حلیم بكم، وهذا دليل على أن إباحة التعريض رخصة، وأن الذريعة تقتضي تحريمه، لولا أن الله علم مشقة تحريمه على الناس، فلعل المراد من المغفرة هنا التجاوز، لا مغفرة الذنب؛ لأن التعريض ليس بإثم.

أو يراد به المعنى الأعم الشامل لمغفرة الذنب، والتجاوز عن المشاق، وشأن التذليل التعميم. والمعنى فإذا أضمرتم في أنفسكم ما لا يرضاه فإن لديكم باباً واسعاً- وهو المغفرة؛ فتعرضوا لمغفرة الله عزّ وجلّ بأن تستغفروه، وتتوبوا إليه.

و«الغفور» مأخوذ من: «الغفر» وهو الستر مع الوقاية؛ والمراد به ستر الذنب مع التجاوز عنه؛ و «الحليم» هو الذي يؤخر العقوبة عن مستحقها.

ومن فوائد الآية أن هذا القرآن العظيم مثاني - بمعنى تُشَنَّى فيه الأمور، والمواضيع؛ فإذا ذكر أهل الجنة ذكر أهل النار؛ وإذا ذكر الرجاء ذكر معه الخوف... وهكذا؛ وقد نص الله على ذلك فقال تعالى: **{اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي}**

[الزمر: ٢٣] وهو هذا القرآن؛ ومثاله في هذه الآية: أن الله سبحانه وتعالى لما حذر قال: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}.

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٦)

لما بين تعالى حكم المطلقات المدخول بهنّ، والمتوفى عنهنّ أزواجهنّ، بين حكم المطلقة غير المدخول بها، وغير المسمى لها، فقال تعالى: {لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ} لا إثم عليكم {إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ} فيها قراءة ثانية: «تَماسوهن»؛ وكلاهما بمعنى واحد؛ والمراد به الجماع؛ لكن جرت عادة العرب -والقرآن بلسان عربي مبين- أن يُكنوا عما يستحيا من ذكره صريحاً بما يدل عليه؛ ولكل من القراءتين وجه؛ فعلى قراءة: «تَماسوهن» يكون الميسس من الجانبين؛ فكل من الزوج، والزوجة يمس الآخر؛ ومثله قوله تعالى: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا} [المجادلة: ١]؛ وأما على قراءة حذف الألف -الذي يفيد وقوع الفعل من جانب واحد- فهو أيضاً واقع؛ لأن حقيقة الفاعل هو الرجل؛ فهو ماسّ؛ ومنها قوله تعالى في

مريم: {وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ} [آل عمران: ٤٧]؛ فجعل المسّ من جانب واحد -وهو الرجل-.

{أَوْ تَفَرِّضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً} تُقَدِّرُوا لَهُنَّ مَهْرًا {أَوْ} عاطفة على {تَمَسُّوهُنَّ} المنفي، و"أو" إذا وقعت في سياق النفي تفيد مفاد (واو العطف) فتدل على انتفاء المعطوف والمعطوف عليه معا، ولا تفيد المفاد الذي تفيد في الإثبات، وهو كون الحكم لأحد المتعاطفين، ولهذا كان المراد في قوله تعالى: {وَلَا تُطِيعُوا مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا} [الإنسان: ٢٤] النهي عن طاعة كليهما، لا عن طاعة أحدهما دون الآخر.

والمعنى فلا إثم عليكم أي تجمعوا بين الأمرين: بين ألا تفرضوا لهن فريضة، وبين ألا تمسوهن؛ فلا جناح عليكم إذا طلقتم المرأة بعد العقد بدون مسيس، وبدون تسمية مهر.

وقد أفادت الآية حكما بمنطوقها: وهو أن المطلقة قبل البناء إذا لم يسم لها مهر لا تستحق شيئا من المال، وهذا مجمع عليه فيما حكاه ابن العربي، وحكي القرطبي عن حماد بن سليمان أن لها نصف صداق أمثالها، والجمهور على خلافه وأن ليس لها إلا

المتعة، ثم اختلفوا في وجوبها، والراجح الوجوب لقوله تعالى: **{وَمَتَّعُوهُنَّ}**.

وظاهر الآية الكريمة أنه إذا خلا بها، ولم يمسه لم يكن عليه إلا المتعة؛ لكن الصحابة ألحقوا الخلوة بها بالمسيس في وجوب العدة؛ وقياس ذلك وجوب مهر المثل إذا خلا بها، ولم يسم لها صداقاً.

ودلت الآية على أنه يجوز للإنسان أن يتزوج المرأة بلا تسمية مهر؛ لقوله تعالى: **{أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً}** يعني: ما لم تفرضوا لهن فريضة؛ وقد اختلف العلماء فيما إذا تزوج المرأة، وشرط ألا مهر لها؛ فمنهم من يرى أن النكاح غير صحيح - وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية؛ وهو الراجح؛ لأن الله اشترط للحل المال؛ قال تعالى: **{وَأُحِلَّ لَكُمْ مَّا وَرَاءَ ذَلِكَ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ}** [النساء: ٢٤]؛ ولأن النكاح إذا شرط فيه عدم المهر صار بمعنى الهبة؛ والنكاح بالهبة خاص بالنبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ والحال لا تخلو من ثلاثة أمور:

إما أن يشترط المهر ويعين؛ وإما أن يسكت عنه؛ وإما أن يشترط عدمه؛ ففي الحال الأولى يكون النكاح صحيحاً، ولا نزاع

فيه؛ وفي الثانية النكاح صحيح، ولها مهر المثل؛ وفي الثالثة موضع خلاف بين أهل العلم؛ وسبق بيان الراجح.

فلما نهى عن التزوّج بمعنى الذوق وقضاء الشهوة، وأمر بالتزوّج طلباً للعصمة والثواب، ودوام الصحة، وقع في بعض نفوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء يكون قد أوقع جزءاً من هذا المكروه، فرفع الله الجناح في ذلك، إذا كان أصل النكاح على المقصد الحسن.. فهذه الآية تدل على جواز الطلاق قبل البناء.

وقوله تعالى: **{لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ}** أن الأولى عدم ذلك؛ لأن طلاقه إياها قبل أن يمسهَا وقد خطبها، فيه شيء على المرأة، وغضاضة، وإن كان الإنسان قد يتأمل في أمره، وتضطره الأمور إلى الطلاق فإنه لا ينبغي أن يكون متسرعاً متعجباً.

وعن حكمة الطلاق عموماً وسر رفع الجناح والإثم من هذا

النوع من الطلاق يقول ابن عاشور:

قد يعرض من تنافر الأخلاق، وتجافيها، ما لا يطمع معه في تكوين هذين السببين أو أحدهما، فاحتيج إلى وضع قانون للتخلص من هذه الصحبة، لئلا تنقلب سبب شقاق وعداوة فالتخلص قد يكون مرغوباً لكلا الزوجين، وهذا لا إشكال فيه، وقد يكون مرغوباً

لأحدهما ويمتنع منه الآخر، فلزم ترجيح أحد الجانبين: وهو جانب الزوج لأن رغبته في المرأة أشد، كيف وهو الذي سعى إليها، ورغب في الاقتران بها؛ ولأن العقل في نوعه أشد، والنظر منه في العواقب أسد، وأشد احتمالا لأذى، وصبرا على سوء خلق من المرأة، فجعل الشرع التخلص من هذه الورطة بيد الزوج، وهذا التخلص هو المسمى: بالطلاق، فقد يعمد إليه الرجل بعد لأي سبب، وقد تسأله المرأة من الرجل، وكان العرب في الجاهلية تسأل المرأة الرجل الطلاق فيطلقها، وجعل الشرع للحاكم، إذا أبى الزوج الفراق، ولحق الزوجة الضر من عشرته، بعد ثبوت موجباته، أن يطلقها عليه. فالطلاق فسخ لعقدة النكاح: بمنزلة الإقالة في البيع، إلا أنه فسخ لم يشترط فيه رضا كلا المتعاقدين بل اكتفى برضا واحد: وهو الزوج، تسهила للفراق عند الاضطرار إليه، ومقتضى هذا الحكم أن يكون الطلاق قبل البناء بالمرأة ممنوعا؛ إذ لم تقع تجربة الأخلاق، لكن لما كان الداعي إلى الطلاق قبل البناء لا يكون إلا لسبب عظيم لأن أفعال العقلاء تصان عن العبث، كيف يعمد راغب في امرأة، باذل لها ماله ونفسه إلى طلاقها قبل التعرف بها، لولا أن

قد علم من شأنها ما أزال رجاءه في معاشرتها، فكان التخلص وقتئذ قبل التعارف، أسهل منه بعد التعارف.

{وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ} الغني **{قَدْرُهُ}** ما يقدر عليه ويستطيعه **{وَعَلَى الْمُقْتَرِ}** الضيق العيش **{قَدْرُهُ}** أي على الغني ما يناسب حاله؛ وعلى الفقير ما يناسب حاله.. فالعبرة في المتعة حال الزوج **{مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ}** جبراً لخاطرهما أن يعطيها مالا على قدر غناه وفقره تتمتع به أياما عوضا عما فاتها من التمتع بالزواج. والمعروف هو المألوف شرعاً ومروءة، وهو ما لا حمل له فيه على المطلق ولا تكلف.

{حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ} هذا مما يؤكد الوجوب في المتعة، إذ أتى بعد الأمر الذي هو ظاهر في الوجوب بلفظة: {على}، التي تستعمل في الوجوب، كقوله: **{وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ}** [البقرة: ٢٣٣] **{فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ}** [النساء: ٢٥]

فالأمر في قوله: **{وَمَتَّعُوهُنَّ}** ظاهره الوجوب وهو الجمهور، وقاله أبو حنيفة والشافعي وأحمد؛ لأن أصل الصيغة للوجوب مع قرينة قوله تعالى: **{حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ}** وقوله، بعد ذلك، في

الآية الآتية: **{حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ}** لأن كلمة **{حَقًّا}** تؤكد الوجوب، وهؤلاء جعلوا المتعة للمطلقة غير المدخول بها وغير المسمى لها مهر واجبة، وهو الأرجح: لئلا يكون عقد نكاحها خاليا عن عوض المهر.

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)

{وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً} أي قدرتم لهن مهراً **{فَنِصْفُ}** ومنه: ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه، أي: نصفه **{مَا فَرَضْتُمْ}** وجوباً، وإن طلقت بعد المسيس؛ إن سُمي لها مهر فلها المهر كاملاً؛ وإن لم يسم لها مهر فلها مهر المثل.

{إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ} قيل: المراد به الزوج؛ وقيل: ولي المرأة؛ والصواب الأول، وعفو الزوج أن يعطيها المهر كله، وسمي ذلك عفواً إما على طريق المشاكلة، لأن قبله **{إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ}** فيجبرها بدفع جميع الصداق لها، إذ كان قد

فاتها منه صحبتة، فلا يفوتها منه نحلته، إذ لا شيء أصعب على النساء من الطلاق، فإذا بذل لها جميع المهر لم تأس من ردّها إليه، واستشعرت من نفسها أنها مرغوب فيها، فأنجبرت بذلك.

وقال مالك في "الموطأ": الذي بيده عقدة النكاح هو الأب في ابنته البكر، والسيد في أمتة. فتكون الآية ذكرت عفو الرشيدة، والولي عليها. لأن فعل المطلق حينئذ لا يسمه عفو بل تكميلاً وسماحة؛ لأن معناه أن يدفع الصداق كاملاً، كما أن دفع المطلق المهر كاملاً للمطلقة، إحسان لا يحتاج إلى تشريع مخصوص، بخلاف عفو المرأة أو وليها، فقد يظن أحد أن المهر لما كان ركناً من العقد لا يصح إسقاط شيء منه.

لكن الراجح أنه الزوج لأن الزوج هو الذي بيده عقدة النكاح إذا شاء أبقاها؛ وإذا شاء حلها بالطلاق؛ ولأن ولي المرأة قد لا يملك إسقاط شيء من مهرها، كابن العم مثلاً؛ ولأنه إذا قيل: هو الزوج صار العفو من جانبين؛ إما من الزوجة، كما يفيد قوله تعالى: **{إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ}**؛ أو من الزوج، كما يفيد قوله تعالى: **{أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ}**؛ وإذا قيل: إنه ولي المرأة صار العفو من جانب واحد؛ وهو الزوجة، أو وليها؛ ويؤيد الترجيح قوله تعالى:

{وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}؛ ولو كان المراد وليّ المرأة لقال تعالى: «وَأَنْ يَعْفُوا» بالياء، وفتح الواو.

والاقتصار على قوله: **{فَنَصِفُ مَا فَرَضْتُمْ}** يدل على أنها حينئذ لا متعة لها.

{وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} هذا خطاب للزوج والزوجة، وغلب المذكر، والعفو أقرب لالتقاء كل واحد منهما ظلم صاحبه. ومعنى كون العفو أقرب للتقوى: أن العفو أقرب إلى صفة التقوى من التمسك بالحق؛ لأن التمسك بالحق لا ينافي التقوى لكنه يؤذن بتصلب صاحبه وشدته، والعفو يؤذن بسماحة صاحبه ورحمته، والقلب المطبوع على السماحة والرحمة، أقرب إلى التقوى من القلب الصلب الشديد، لأن التقوى تقرب بمقدار قوة الوازع، والوازع شرعي وطبيعي، وفي القلب المفطور على الرأفة والسماحة لين يزعه عن المظالم والقساوة، فتكون التقوى أقرب إليه لكثرة أسبابها فيه.

{وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ} المودة والإحسان، وهو معطوف على التذليل الذي قبله، لزيادة الترغيب في العفو بما فيه من الفضل الدنيوي، وفي الطباع السليمة حب الفضل. ففي تعاوده

عون كبير على الإلف والتحاب، وذلك سبيل واضحة إلى الاتحاد
والمؤاخاة

{إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} تعليل للترغيب في عدم إهمال
الفضل وتعريض بأن في العفو مرضاة الله تعالى، فهو يرى ذلك منا
فيجازى عليه.

**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ
قَانِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ
فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩)**

مناسبة الأمر بالمحافظة على الصلوات عقيب الأوامر السابقة
أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فيكون ذلك عوناً لهم على
امتنالها، وصوناً لهم عن مخالفتها.

يقول ابن عاشور: الانتقال من غرض إلى غرض، في آي
القرآن، لا تلزم له قوة ارتباط، لأن القرآن ليس كتاب تدريس يرتب
بالتبويب وتفریع المسائل بعضها على بعض، ولكنه كتاب تذكير

وموعظة، فهو مجموع ما نزل من الوحي في هدي الأمة، وتشريعها وموعظتها، وتعليمها، فقد يجمع فيه الشيء للشيء، من غير لزوم ارتباط، وتفرع مناسبة، وربما كفى في ذلك نزول الغرض الثاني، عقب الغرض الأول، أو تكون الآية مأمورا بإلحاقها بموضع معين من إحدى سور القرآن.

ولا يخلو ذلك من مناسبة في المعاني، أو في انسجام نظم الكلام، فلعل آية **{حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ}** نزلت عقب آيات تشريع العدة والطلاق، لسبب اقتضى ذلك: من غفلة عن الصلاة الوسطى، أو استشعار مشقة في المحافظة عليها، فموقع هذه الآية موقع الجملة المعترضة بين أحكام الطلاق والعدد.

وإذا أبيت ألا تطلب الارتباط فالظاهر أنه لما طال تبيان أحكام كثيرة متوالية: ابتداء من قوله: **{يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ}** [البقرة: ٢١٥]، جاءت هذه الآية مرتبطة بالتذييل الذي ذيلت به الآية السابقة: وهو قوله: **{وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ}** [البقرة: ٢٣٧] فإن الله دعانا إلى خلق حميد، وهو العفو عن الحقوق، ولما كان ذلك الخلق قد يعسر على النفس، لما فيه من ترك ما تحبه من الملائم، من مال وغيره: كالانتقام من

الظالم، وكان في طباع الأنفس الشح، علمنا الله تعالى دواء هذا الداء بدواءين، أحدهما دنيوي عقلي، وهو قوله: **{وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ}**، المذكر بأن العفو يقرب إليك البعيد، ويصير العدو صديقاً، وإنك إن عفوت فيوشك أن تقترب ذنباً فيعفى عنك، إذا تعارف الناس الفضل بينهم، بخلاف ما إذا أصبحوا لا يتنازعون عن الحق.

الدواء الثاني أخروي روحاني: وهو الصلاة التي وصفها الله تعالى في آية أخرى بأنها تنهي عن الفحشاء والمنكر، فلما كانت معينة على التقوى، ومكارم الأخلاق، حث الله على المحافظة عليها.

ولك أن تقول: لما طال تعاقب الآيات المبينة تشريعات تغلب فيها الحظوظ الدنيوية للمكلفين، عقت تلك التشريعات بتشريع تغلب فيه الحظوظ الأخروية، لكي لا يشتغل الناس بدراسة أحد الصنفين من التشريع، عن دراسة الصنف الآخر، قال البيضاوي: "أمر بالمحافظة عليها في تضاعيف أحكام الأولاد والأزواج، لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها".

وقال بعضهم: "لما ذكر حقوق الناس دلهم على المحافظة على حقوق الله" وهو في الجملة. مع الإشارة إلى أن في العناية بالصلوات أداء حق الشكر لله تعالى على ما وجه إلينا من عنايته بأمورنا التي بها قوام نظامنا، وقد أوماً إلى ذلك قوله في آخر الآية: **{كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}** [البقرة: ٢٣٩] أي من قوانين المعاملات النظامية.

{حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ} والمحافظة عليها تشمل إتمام أركانها، وشروطها، وسننها، وفعلها في أوقاتها في الجماعات في المساجد، ولأجل أن ذلك من أسباب نيل الفردوس .. قال تعالى **{وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ}** [المعارج: ٣٤] وقال فيها أيضا **{إِلَّا الْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}** [المعارج: ٢٢-٢٣] واذم وتوعد من لم يحافظ عليها في قوله **{فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا}** [مريم: ٥٩] وقوله تعالى: **{فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}** [الماعون: ٤-٥]. وقال تعالى في ذم المنافقين **{وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاوُونَ النَّاسَ}** [النساء: ١٤٢]، وفي الصحيح عن ابن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-

أنه سأل رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أي العمل أحب إلى الله؟ قال (الصلاة على وقتها)

{وَالصَّلَاةُ الْوُسْطَى} وخصت الصلاة الوسطى بالذكر، وإن كانت قد اندرجت في عموم الصلوات قبلها، تنبيهاً على فضلها على غيرها من الصلوات، كما نبه على فضل جبريل وميكال في تجريدتهما بالذكر في قوله: **{مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}** [البقرة: ٩٨] وعلى فضل من ذكر وجرد من الأنبياء بعد قوله: **{وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا}** [الأحزاب: ٧]، وعلى فضل النخل والرمان في قوله: **{فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ}** [الرحمن: ٦٨]

والمقرر في الأصول أن ذكر بعض أفراد العام، بحكم العام لا يخصصه على مذهب الجمهور، خلافاً لأبي ثور. سواء كان العام، وبعض أفراد المذكور بحكمه في نص واحد أو نصين.

فمثال كونهما في نص واحد قوله تعالى: **{حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى}** فلا يخصص عموم الأمر بالمحافظة

على جميع الصلوات بالصلاة الوسطى بل المحافظة على جميعها واجبة.

ومثال كونهما في نصين: حديث ابن عباس العام في جلود الميتة: (أيما إهاب دبغ فقد طهر) مع حديثه الآخر أنه تصدق على مولاة لميمونة بشاة فماتت فمر بها رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقال: (هلا أخذتم إهابها فدبغتموه فانتفعتم به) الحديث، فذكر جلد الشاة في هذا الحديث الأخير لا يخصص عموم الجلود المذكورة (أيما إهاب دبغ) الحديث، فجواز الانتفاع عام في جلد الشاة، وفي غيرها من الأهاب إلا ما أخرجه دليل خاص، لأن ذكر بعض أفراد العام بحكم العام لا يخصصه.

وكثر اختلاف العلماء، من الصحابة والتابعين والفقهاء بعدهم، في المراد بالصلاة الوسطى، ولهذا قال سعيد بن المسيب: كان أصحاب رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الصلاة الوسطى هكذا، وشبك بين أصابعه.

فقول: أنها العصر: لما في صحيح مسلم عن عليّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَوْمَ الْأَحْزَابِ

(شَغَلُونَا عَنْ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ مَلَأَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا) ثُمَّ صَلَّاهَا بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ.

وقول: أنها الفجر: قال أبو العالية: صليت مع أصحاب رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الغداة [أي الفجر]، فقلت لهم: أيما الصلاة الوسطى؟ فقالوا: التي صليت قبل.

وقول: أنها إحدى الصلوات الخمس، لا يعينها. وبه قال: سعيد بن المسيب، وأبو بكر الوراق، وأخفاها ليحافظ على الصلوات كلها، كما أخفى ليلة القدر في ليالي شهر رمضان، واسم الله الأعظم في سائر الأسماء، وساعة الإجابة في يوم الجمعة.

قال أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط»: وقد صنف شيخنا الإمام المحدث، أوجد زمانه وحافظ أوانه، شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن الدميّاطي كتاباً في هذا المعنى سماه (كشف المغطى في تبين الصلاة الوسطى) قرأناه عليه، ورجح فيه أنها صلاة العصر، وأن ذلك مروي نصاً عن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، روى ذلك عنه: عليّ بن أبي طالب، واستفاض ذلك عنه، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس،

وسمرة بن جندب، وعبد الله بن عمر، وأبو هريرة، وأبو هاشم بن عتبة بن ربيعة.

وأفضل الصلاتين المفضلتين - العصر، والفجر؛ وقد بين النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فضلهما في أحاديث؛ منها قوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ) [البخاري]، وقوله: (إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلُبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ فَافْعَلُوا).

{وَقُومُوا} في الصلاة.. وهو دليل على مطلوبة القيام، وأجمعوا على أن القيام في صلاة الفرض واجب على كل صحيح قادر عليه، كان منفرداً أو إماماً **{لِلَّهِ}** واللام في قوله تعالى: **{لِلَّهِ}** للإخلاص **{قَانِتِينَ}** خاشعين ساكنين.

{فَإِنْ خِفْتُمْ} فكل أمر يخاف منه فهو مبيح **{فَرَجَالًا}** مشاة على أرجلكم، جمع راجل، كقائم وقياما، قال تعالى: **{وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}** [الحج: ٢٧] **{أَوْ رُكْبَانًا}** جمع راكب، أي على الدواب أو غيرها

مما يركب .. كل هذا إيماء، وأما صلاة الخوف بالإمام وانقسام الناس فليس حكمها في هذه الآية.

وهذا في معنى الاستثناء من قوله: **{وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ}** [البقرة: ٢٣٨] لأن هاته الحالة تخالف القنوت في حالة الترجل، وتخالفهما معا في حالة الركوب. والآية إشارة إلى أن صلاة الخوف لا يشترط فيها الخشوع، لأنها تكون مع الاشتغال بالقتال ولا يشترط فيها القيام.

وهذا الخوف يسقط ما ذكر من شروط الصلاة، وهو هنا صلاة الناس فرادي، وذلك عند مالك، إذا اشتد الخوف، وأظلم العدو، ولم يكن حصن بحيث تتعذر الصلاة جماعة مع الإمام، وليست هذه الآية لبيان صلاة الجيش في الحرب جماعة، المذكورة في سورة النساء، والظاهر أن الله شرع للناس في أول الأمر صلاة الخوف فرادي على الحال التي يتمكنون معها من مواجهة العدو، ثم شرع لهم صلاة الخوف جماعة في سورة النساء، وأيضا شملت هذه الآية كل خوف من سباع، أو قطاع طريق، أو من سيل الماء، قال مالك: وتستحب إعادة الصلاة.

وتدل هذه الآية على عظيم قدر الصلاة وتأکید طلبها إذا لم تسقط بالخوف، فلا تسقط بغيره من مرض وشغل ونحوه، حتى المريض إذا لم يمكنه فعلها لزمه الإشارة بالعين عند أكثر العلماء، وبهذا تميزت عن سائر العبادات لأنها كلها تسقط بالأعذار ويترخص فيها.

{فَإِذَا أَمِنْتُمْ} زال خوفكم الذي ألجأكم إلى كيفية هذه الصلاة **{فَاذْكُرُوا اللَّهَ}** أقيموا الصلاة تامة بجميع شروطها وأركانها **{كَمَا عَلَّمَكُم}** أي: أحسن إليكم بتعليمكم ما كنتم جاهليه من أمر الشرائع، وكيف تصلون في حال الخوف وحال الأمن **{مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}** وفيه الامتنان بالتعليم على العبد، وبيان نقص الإنسان لكون الأصل فيه الجهل؛ فالأصل في الإنسان الجهل حتى يُعَلِّمه الله عز وجل.

وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

(٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ

(٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٢)

يخبر تعالى أن الذين يتوفون من المؤمنين ويتركون أزواجاً فإن
لهن من الله تعالى وصية على ورثة الزوج المتوفى أن ينفذهن من
ماله، وهي أن يسمحن أزواجه المتوفى عنها أن تبقى معهم في
البيت تأكل وتشرب إلى نهاية السنة، بما فيها مدة العدة وهي أربعة
أشهر وعشر ليال، إلا إذا رغبت في الخروج بعد انقضاء العدة فلها
ذلك.

فقوله {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ} الخطاب لعموم الأمة؛ وليس
خاصاً بالصحابة رضي الله عنهم؛ لأن القرآن نزل للجميع إلى يوم
القيامة؛ فالخطاب الموجود فيه عام لكل الأمة؛ إلا إذا دل دليل
على الخصوصية، كما في قوله تعالى: {لا يستوي منكم من أنفق
من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد
وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى} [الحديد: ١٠].

{وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً} يتركون زوجات {وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ} قال ابن
عباس، والضحاك، وعطاء، والربيع: {وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِمْ} هي وصية
من الله تعالى للأزواج بلزوم البيوت حولا، وعلى هذا القول فهو

كقوله تعالى: **{يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ}** [النساء: ١١] فذلك لا يتوقف على إيصاء المتوفين ولا على قبول الزوجات، بل هو حكم من الله يجب تنفيذه.

{مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ} والمتاع هنا هو السكنى كما دل عليه تأكيداً قوله **{غَيْرِ إِخْرَاجٍ}** أي من الورثة الذين يرثون المال بعد الزوج؛ ومنه البيت الذي تسكن فيه الزوجة.

والجمهور في هذه الآية على أنها منسوخة، وهو نسخ للأثقل بأخف منه من الاعتداد بأربعة أشهر وعشر، المنصوص عليه في قوله: **{وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً}** [البقرة: ٢٣٤] وهذا في غير الحوامل، وأما الحوامل فعدتهن أن يضعن حملهن بآية الطلاق، والأمة على النصف من ذلك بالسنة.

وروى الطبري عن مجاهد: هي محكمة، والعدة كانت قد ثبتت أربعة أشهر وعشراً، ثم جعل الله لهنّ وصية منه: سكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة، فإن شاءت سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت. وقال السدي: كان ذلك [أي كان لها بعد وفاة زوجها السكنى والنفقة حولاً في ماله ما لم تخرج برأيها]، ثم نسخ بنزول الفرائض،

فأخذت ربعها أو ثمنها، ولم يكن لها سكنى ولا نفقة، وصارت الوصايا لمن لا يرث.

قال ابن عطية: وهذا كله قد زال حكمه بالنسخ المتفق عليه إلا ما قاله الطبري عن مجاهد وفي ذلك نظر على الطبري.

وروى البخاري: قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ قُلْتُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا} قَالَ قَدْ نَسَخْتُهَا الْآيَةُ الْأُخْرَى فَلِمَ تَكْتُبُهَا أَوْ تَدْعُهَا قَالَ يَا ابْنَ أَخِي لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْهُ مِنْ مَكَانِهِ.

وهذه الآية (البقرة: ٢٤٠) متقدمة في التلاوة متأخرة في التنزيل، والآية الناسخة بعكسها {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا} [البقرة: ٢٣٤]، ونظير ذلك قوله: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهَا} [البقرة: ١٤٢] على ظاهر ما نقل مع قوله: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} [البقرة: ١٤٤]

{فَإِنْ خَرَجْنَ} من بيت الزوج المتوفى قبل نهاية السنة، وفيه منع من له الولاية عليهن من إخراجهن {فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ} فليس للولي منعهن - إذا انقضت

عدتها- مما يفعلن في أنفسهنّ من: ترك إحداث، وتزين، وخروج،
وتعرض للخطّاب وتزويج، إذا كان ذلك بالمعروف شرعاً .. عدا
الخطبة والتزوج والتزين في العدة، فذلك ليس من المعروف.

{وَاللَّهُ عَزِيزٌ} إظهار للغلبة والقهر لمن منع من إنفاذ الوصية
بالتمتع المذكور، أو أخرجهن وهنّ لا يخترن الخروج، ومشعر
بالوعيد على ذلك **{حَكِيمٌ}** إظهار أن ما شرع من ذلك فهو جارٍ
على الحكمة والإتقان، ووضع الأشياء مواضعها.

{وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ} جعل استيفاء لأحكام المتعة
للمطلقات، بعد أن تقدم حكم متعة المطلقات قبل المسيس وقبل
الفرض، فعمم بهذه الآية طلب المتعة للمطلقات كلهن. فاللام في
قوله: **{وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ}** لام الاستحقاق.

والمعنى: **{وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ}** أي متعة لا مبالغة
فيها، ولا تقصير، فالمطلقة المبني بها على مطلقها أن يمتعها بشيء
من المال كثياب أو دواب أو خادمة، وعليه فالمطلقة قبل البناء
وقبل تسمية المهر لها المتعة واجبة لها إذ ليس لها سواها،
والمطلقة قبل البناء وقد سمي لها المهر فلها نصف المهر لا غير،

والمطلقة بعد البناء وهي هذه المقصودة في هذه الآية لها متعة
بالمعروف سواء قيل بالوجوب أو الاستحباب لأنها لها المهر كاملاً.
والمتاع مقيد بالمعروف -أي ما يعرفه الناس-؛ وهذا قد يكون
مفسراً بقوله تعالى: {وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمُسَاحَقَةِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ
مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ٢٣٦]، أي المتاع
على الموسر بقدر إيساره؛ وعلى المعسر بقدر إعساره.

وعلة مشروعية المتعة جبر خاطر المطلقة استبقاء للمودة،
ولذلك لم يستثن مالك من مشمولات هذه الآية إلا المختلعة؛ لأنها
هي التي دعت إلى الفرقة دون المطلقة.

{حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ} «الحق» هنا بمعنى الحتم الثابت.. أي
حقاً متعيناً على المطلقين الأتقياء، قال ابن زيد: نزلت هذه الآية
مؤكدّة لأمر المتعة، لأنه نزل قبل: {لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ
النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى
الْمُسَاحَقَةِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ مَتَاعاً بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى
الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: ٢٣٦] فقال رجل: فإن لم أرد أن أحسن لم
أمتع، فنزلت {حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ}.

وخص المتقين بالذكر تشريفاً لهم، أو لأنهم أكثر الناس وقوفاً وأسرعهم لامتثال أمر الله .. ولا يعني أنه لا يجب على غير المتقين؛ ولكن تقييده بالمتقين من باب الإغراء، والحث على لزومه؛ ويفيد أن التزامه من تقوى الله عز وجل؛ وأن من لم يلتزمه فقد نقصت تقواه.

{كَذَلِكَ} العدد والمتع {يُبَيِّنُ} يوضح {اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} ما يراد منكم من التزام الشرائع والوقوف عندها، لأن التبيين للأشياء مما يتضح للعقل بأول إدراك، بخلاف الأشياء المغيبات والمجملات، فإن العقل يرتبك فيها، ولا يكاد يحصل منها على طائل.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)

هؤلاء ماتوا موتا حقيقيا ثم أحياهم الله تعالى. قال وكيع بن الجراح: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ}** قال كانوا أربعة آلاف، خرجوا فرارا من الطاعون، قالوا: نأتي أرضا ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم: (موتوا) فماتوا، فمر عليهم نبي من الأنبياء [حزقيال]، فدعا ربهم أن يحييهم، فأحياهم.

وفي زاد المسير لابن الجوزي بتصرف: "وفي معنى حَذَرِهِمْ من الموت قولان:

أحدهما: أنهم فروا من الطاعون وكان قد نزل بهم قاله الحسن والسدي.

والثاني: أنهم أمروا بالجهاد ففروا منه قاله عكرمة والضحاك وعن ابن عباس كالقولين".

قال الفريق المرجح لأمر الجهاد: المقصود من هذه الآية الكريمة، تشجيع المؤمنين على القتال بإعلامهم بأن الفرار من الموت لا ينجي، فإذا علم الإنسان أن فراره من الموت أو القتل لا ينجيه، هانت عليه مبارزة الأقران؛ والتقدم في الميدان. وقد أشار

تعالى أن هذا هو مراده بالآية حيث أتبعها بقوله: **{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}**، وصرح بما أشار إليه هنا في قوله: **{قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا}** [الأحزاب: ١٦] وهذه أعظم آية في التشجيع على القتال؛ لأنها تبين أن الفرار من القتل لا ينجي منه، ولو فرض نجاته منه فهو ميت عن قريب.

قال ابن عاشور: المأمورون بالجهاد في قوله: **{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** لا يخلون من نفر تعريضهم هواجس تشبطهم عن القتال حبا للحياة، ومن نفر تعريضهم خواطر تهون عليهم الموت عند مشاهدة أكرار الحياة، ومصائب المذلة، فضرب الله لهذين الحالين مثلين: أحدهما ما تقدم في قوله: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ}** والثاني قوله: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ}** وقد قدم أحدهما وآخر الآخر: ليقع التحريض على القتال بينهما.

ومناسبة تقديم الأولى أنها تشنع حال الذين استسلموا واستضعفوا أنفسهم، فخرجوا من ديارهم مع كثرتهم، وهذه الحالة أنسب بأن تقدم بين يدي الأمر بالقتال والدفاع عن البيضة؛ لأن الأمر بذلك بعدها يقع موقع القبول من السامعين لا محالة.

ومناسبة تأخير الثانية أنها تمثيل حال الذين عرفوا فائدة القتال في سبيل الله لقولهم: **{وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ}** إلخ. فسألوه دون أن يفرض عليهم فلما عين لهم القتال نكصوا على أعقابهم، وموضع العبرة هو التحذير من الوقوع في مثل حالهم، بعد الشروع في القتال، أو بعد كتبه عليهم، فله بلاغة هذا الكلام، وبراعة هذا الأسلوب: تقديمًا وتأخيرًا.

وقال أيضا: هذه السورة نزلت [أي البقرة] في مدة صلح الحديبية، وأنها تمهيد لفتح مكة، فالقتال من أهم أغراضها، والمقصود من هذا الكلام هو قوله: **{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** الآية. فالكلام رجوع إلى قوله: **{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ}** [البقرة: ٢١٦]

وقال أيضا: وموقع **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ}** قبل قوله: **{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** موقع ذكر الدليل قبل المقصود، وهذا طريق من طرق الخطابة أن يقدم الدليل قبل المستدل عليه لمقاصد، كقول علي -رضي الله عنه- في بعض خطبه لما بلغه استيلاء جند الشام على أكثر البلاد، إذا افتتح الخطبة فقال: "ما هي إلا الكوفة أقبضها وأبسطها، أنبت بسرا [هو ابن أبي أرتاة من

قادة جنود الشام] قد اطلع اليمن، وإني والله لأظن أن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم"..
فقوله: "ما هي إلا الكوفة" موقعة موقع الدليل على قوله "لأظن هؤلاء القوم" إلخ

وقال عيسى بن طلحة لما دخل على عروة بن الزبير، حين قطعت رجله: "ما كنا نعدك للصراع، والحمد لله الذي أبقي لنا أكثر: أبقي لنا سمعك، وبصرك، ولسانك، وعقلك، وإحدى رجليك". فقدم قوله: "ما كنا نعدك للصراع"، والمقصود من مثل ذلك الاهتمام والعناية بالحجة، قبل ذكر الدعوى، أو حملا على التعجيل بالامتنال.

{أَلَمْ تَرَ} الرؤية هنا علمية لا بصرية، وكأنه قيل: ألم ينته علمك إلى كذا، ومعناه التنبيه والتعجب من حال هؤلاء **{إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ}** تنبيه على أن الكثرة والتعاقد، وإن كانا نافعين في دفع الأذيات الدنيوية، فليسا بمغنيين في الأمور الإلهية **{حَذَرَ الْمَوْتِ}** خوفا من الموت **{فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ}** ليعتبروا ويعلموا أن لا مفر من قضاء الله.

وفي تأديب تلك الجماعة بإماتتها ثم بإحيائها فضل من الله عليها عظيم .. إذ لا يمتنع أن يفر ناسٌ من الجهاد، وناس من الطاعون، وناس من الحمى، فيميتهم ثم يحييهم ليعتبروا بذلك، ويعتبر من يأتي بعدهم، وليعلموا جميعاً أن الإمامة والإحياء بيد الله، فلا ينبغي أن يخاف من شيء مقدّر، ولا يغتر فطن بحيلة أنها تنجيه مما شاء الله.

{إِنَّ اللَّهَ لَذُو} أكد هذه الجملة: يانّ، واللام، وأتى الخبر: لذو، الدالة على الشرف، بخلاف صاحب **{فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ}** فنعمة على الكافر والمؤمن، ولكن نعمة الله على الكافر ليست كنعمته على المؤمن؛ لأن نعمته على المؤمن نعمة متصلة بالدنيا والآخرة؛ وأما على الكافر فنعمته في الدنيا فقط **{وَلَكِنَّ النَّاسَ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ}** والتقدير: فيجب عليهم أن يشكروا الله على فضله، فاستدرك بأن أكثرهم لا يشكرون، ودل على أن الشاكر قليل، كقوله: **{وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ}** [سبأ: ١٣]

وهناك خمس آيات في سورة البقرة فيها إحياء الله تعالى

الموتى:

الأولى: {ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة: ٥٦]

والثانية: قصة صاحب البقرة

والثالثة: الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال الله لهم: {موتوا ثم أحياهم} [البقرة: ٢٤٣]

والرابعة: قصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فقال: {أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ} [البقرة: ٢٥٩]

والخامسة: قصة إبراهيم: {رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَٰئِكَ ثُبُورٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيُطَمِّنَ قَلْبِي} [البقرة: ٢٦٠]

والله تعالى على كل شيء قدير، ولا ينافي هذا ما ذكر الله في قوله تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ} * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ [المؤمنون: ١٥-١٦]؛ لأن هذه القصص الخمس، وغيرها كإخراج عيسى الموتى من قبورهم. تعتبر أمراً عارضاً يؤتى به لآية من آيات الله سبحانه وتعالى؛ أما البعث العام فإنه لا يكون إلا يوم القيامة.

وفتح الله تعالى جهاد النفس فقال: **{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ}** الطريق الموصف إلى مرضاته وهو طاعته بامتنال أمره واجتناب نهيه، ومن ذلك جهاد الكفار والظالمين حتى لا تكون فتنة، وهذا يشمل النية، والعمل؛ أما النية فأن يكون الإنسان قاصداً بقتاله أن تكون كلمة الله هي العليا، كما جاء في الحديث الصحيح أن الرسول -صلى الله عليه وسلم سئل- عن الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل ليرى مكانه؛ أي ذلك في سبيل الله؟ فقال -صلى الله عليه وسلم-: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)؛ وأما العمل فأن يكون جهاده على وفق الشرع.

{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} حث على القتال، وتحذير من تركه، بتذكيرهم بإحاطة علم الله تعالى بجميع المعلومات: ظاهرها وباطنها. وقدم وصف سميع، وهو أخص من عليم، اهتمام به هنا؛ لأن معظم أحوال القتال في سبيل الله من الأمور المسموعة، مثل جلبة الجيش، وقعقة السلاح، وصهيل الخيل. ثم ذكر وصف عليم لأنه يعم العلم بجميع المعلومات، وفيها ما هو من حديث النفس مثل خلق الخوف، وتسويل النفس القعود عن القتال، وفي هذا تعريض بالوعد والوعيد.

ثم فتح تعالى باب جهاد المال فقال: **{مَنْ ذَا الَّذِي}** جملة استفهامية متضمنة معنى الطلب **{يُقْرِضُ اللَّهَ}** القرض: القطع بالسن، ومنه سمي المقرض لأنه يقطع به، ويقال: انقرض القوم أي ماتوا، وانقطع خبرهم، ومنه: أقرضت فلاناً أي قطعت له؛ قطعة من المال

{قَرْضًا حَسَنًا} هذا على سبيل التأسيس والتقريب للناس بما يفهمونه، والله هو الغني الحميد، شبه تعالى عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض، كما شبه بذل النفوس والأموال في الجنة بالبيع والشراء، فقال جل ذكره: **{إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}** [التوبة: ١١١]

{فِيضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} ففضل الله وعطاءه واسع؛ وجزاءه للمحسن جزاء فضل .. وعلى هذا فيكون لله تعالى في توفيق العبد للعمل الصالح فضلان: فضل سابق على العمل الصالح؛ وفضل لاحق - وهو الثواب عليه أضْعَافاً مضاعفة -؛ وأما جزؤاه للعصاة

فهو دائر بين العدل والفضل؛ إن كانت المعصية كفراً فجزاؤها عدل؛ وإن كانت دون ذلك فجزاؤها دائر بين الفضل، والعدل؛ لقوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}** [النساء: ٤٨] .

قال الحسن والسدي: لا يعلم كنهه التضعيف إلا الله تعالى، وهو قول ابن عباس، وقد رويت مقادير من التضعيف، وجاء في القرآن: **{مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ}** ثم قال: **{وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}** [البقرة: ٢٦١]

{وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ} يقتر ويوسع، يقبض ابتلاءً، ويبسط امتحاناً، فمنعكم الإنفاق في سبيل الله لا يغير من تدبير الله شيئاً، وفيه تعريض بالوعد بالتوسعة على المنفق في سبيل الله، والتقتير على البخيل. وفي الحديث: (اللهم أعط منفقاً خلفاً وممسكاً تلفاً) **{وَالِيهِ تُرْجَعُونَ}** خبر مستعمل في التنبيه والتذكير بأن ما أعد لهم في الآخرة من الجزاء على الإنفاق في سبيل الله أعظم مما وعدوا به من الخير في الدنيا، وفيه تعريض بأن الممسك البخيل عن الإنفاق في سبيل الله محروم من خير كثير.

قال ابن المغربي: انقسم الخلق حين سمعوا هذه الآية إلى فرق

ثلاثة:

الأولى: اليهود، قالوا: إن رب محمد يحتاج إلينا ونحن أغنياء، وهذه جهالة عظيمة، ورد عليهم بقوله: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ} [آل عمران: ١٨١]

والثانية: آثرت الشح والبخل، وقدّمت الرغبة في المال.

الثالثة: بادرت إلى الامتثال، كفعل أبي الدّحداح وغيره... روى "أنه لما نزلت الآية جاء أبو الدّحداح إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: أو أن الله يريد منا القرض؟ قال: (نعم يا أبا الدحداح)، قال: "أرني يدك" فناوله يده فقال: "فإني أقرضت الله حائطا فيه ستمائة نخلة" فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (كم من عَذَقٍ رَدَا ح [ممتلى ثقيل] ودار فساح في الجنة لأبي الدّحداح).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ

عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا
نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا
كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ
طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ
بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ
عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن
يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ
مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا
تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ
بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ
بِمَنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ
فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ
يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَاقُوا اللَّهَ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً

بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ
وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا
عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ
دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ
وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ
اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا
عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)

مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة، وذلك أنه لما أمر المؤمنين
بالقتال في سبيل الله، وكان قد قدم قبل ذلك قصة الذين خرجوا من
ديارهم حذر الموت، إما بالقتال أو بالطاعون، على سبيل التشجيع
والتثيت للمؤمنين، والإعلام بأنه: لا ينجي حذر من قدر، أردف
ذلك بأن القتال كان مطلوباً مشروعاً في الأمم السابقة، فليس من
الأحكام التي خصصتم بها، لأن ما وقع فيه الاشتراك كانت النفس
أميل لقبوله من التكليف الذي يكون يقع به الأفراد.

{أَلَمْ تَرَ} ألم ينته إلى علمك بإخبارنا إياك، والاستفهام هنا
للتشويق لأنه في أمر غيبي، لأن التقرير إنما يكون في أمر كان
معلومًا للمخاطب؛ فيقرر به، كقوله تعالى: **{أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ}**

[الشرح: ١] والتشويق أيضا كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الصف: ١٠]، وقوله تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ} [الغاشية: ١]

{إِلَى الْمَلَأِ} أشرف القوم من أهل الحل والعقد بينهم الذين إذا نظر المرء إليهم ملئوا عينه رواءً وقلبه هيبة {مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى} أي وفاته، وكأنه إشارة إلى أنهم أضاعوا الانتفاع بالزمن الذي كان فيه رسولهم بين ظهرائهم، فكانوا يقولون: اذهب أنت وربك فقاتلا، وكان النصر لهم معه أرجى لهم ببركة رسولهم {إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ} وتنكير نبي لهم للإشارة إلى أن محل العبرة ليس هو شخص النبي فلا حاجة إلى تعيينه، وإنما المقصود حال القوم وهذا دأب القرآن في قصصه.

وهذا النبي هو صمويل وهو بالعربية شمويل ولذلك لم يقل: إذ قالوا لنبيهم، إذ لم يكن هذا النبي معهودا عند السامعين حتى يعرف لهم بالإضافة.

{إِنبَعَثْ لَنَا مَلَكًا} أقم لنا ملكا {نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ} عساكم أن تجبنوا إن فرض عليكم

{الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا} والمقصود من هذا الكلام التحريض: لأن ذا الهمة يأنف من نسبته إل التقصير، فإذا سجل ذلك عليه قبل وجود دواعيه كان على حذر من وقوعه في المستقبل، كما يقول من يوصي غيره: "افعل كذا وكذا وما أظنك تفعل".

{قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أيُّ مانع يمنعنا من القتال وقد وُجد داعيه؟ **{وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا}** وذلك أن العدو وهم البابليون غزوا فلسطين بعد أن فسق بنوا إسرائيل فتبرجت نساؤهم واستباحوا الزنا والربا وعطلوا الكتاب وأعرضوا عن هدى أنبيائهم فسلط الله عليهم هذا العدو الجبار فشردهم فأصبحوا لاجئين **{وَأَبْنَائِنَا}** لأن كثيراً منهم استولي العمالقة على بلادهم، وأسروا أبناءهم، رُوي أن جالوت سبي من أبناء ملوكهم أربعمئة وأربعين فارتحلوا إلى غير بلادهم [بيت المقدس] التي كان منشأهم بها، وهذا أصعب شيء على النفوس، أن يخرج من مسكن ألفه، ويفرق بينه وبين أبنائه، ولهذا دعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (اللهم حبب لنا المدينة كحبنا مكة أو أكثر)

كان قتيبة بن سعيد المحدث قد رزق من النصيب في الدنيا والجلالة، وحمل الناس العلم عنه، وكان ببغداد، فعبر مرة على

مكان مولده ومنشئه صغيراً ببغلان، قيل: وهي ضيعة من أصغر الضياع، فتمنى أن لو كان مقيماً بها، ويترك رئاسة بغداد، ودار الخلافة، وذلك نزوعاً إلى الوطن.

فكان نظم كلامهم على طريقة قوله تعالى حكاية عن الرسل: **{وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}** [آل عمران: ١٢٢] **{وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا}** [إبراهيم: ١٢].

{فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ} وهم من عبَرَ النهر مع طالوت .. قال القشيري: أظهروا التجلد والتصلب في القتال ذباً عن أموالهم ومنازلهم، فلذلك لم يتم قصدهم، لأنه لم يخلص لحق الله عزمهم، ولو أنهم قالوا: وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله، لأنه قد أمرنا، وأوجب علينا، لعلمهم وفقوا لإتمام ما قصدوا

{وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} فيه وعيد وتهديد لمن تقاعد عن القتال بعد أن فرض عليه بسؤاله ورغبته، وأن الإعراض عما أوجب الله على العبد ظلم، إذا الظلم وضع الشيء في غير موضعه.

{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ} فإنه أبلغ في الإقناع، والتسليم من قوله: إني بعثت لكم **{طَالُوتَ مَلِكًا}** قال المفسرون:

إنه سأل الله أن يبعث لهم ملكاً، فَأَتَى بِعَصَا وَقَرْنٍ فِيهِ دُهْنُ الْقُدْسِ [أراد القنينة التي يكون فيها الدهن والطيب، وكأنهم كانوا يتخذونها من قرون البقر وغيرها] وقيل: الذي يكون ملكاً طوله طول هذه العصا، وقيل للنبي: أنظر القرن فإذا دخل رجل فنشَّ الدهن [صوت الغليان] الذي هو فيه فهو ملك بني إسرائيل، فقاوسوا أنفسهم بالعصا فلم يكونوا مثلها، وكان طالوت سقاء على ماء، قاله السدي، أو دباغاً على ما قاله وهب، أو مكارياً، وضاع حمار له، أو حمراً لأهله، فاجتمع بالنبي ليسأله عن ما ضاع له ويدعو الله له، فبينما هو عنده نش ذلك القرن، وقاسه النبي بالعصا، فكان طولها، فقال له: قرب رأسك فقربه ودهنه بدهن القدس، وقال: أمرني الله أن أملكك على بني إسرائيل.

والملك هو "شاول" وطالوت لقبه، وهو وزن اسم مصدر: من الطول، على وزن فعلوت مثل جبروت وملكوت. وصف به للمبالغة في طول قامته.

{قَالُوا أَنَّى يَكُونُ} الاستفهام للإنكار **{لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا}** بحجة أنه فقير ومن أسرة غير شريفة، فليس من بيت الملك الذي هو سبط يهوذا، ومنه داود وسليمان. وليس من بيت النبوة الذي هو

سبط لاوي ومنه موسى وهارون {وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ} ليس بفقير؛ لكن ليس عنده مال واسع؛ وفرق بين الفقير المعدم، وبين من يجد، ولكن ليس ذا سعة - يعني ليس غنياً ننتفع بماله -، ويدبرنا بماله.

والملك يحتاج إلى أصالة فيه، إذ يكون أعظم في النفوس، لكنه فَقَدَ القوة الحسية، وأيضاً يحتاج الملك إلى غنى يستعبد به الرجال، ويعينه على مقاصد الملك، ولم يعتبروا السبب الأقوى، وهو: قضاء الله وقدره.

فكان ينبغي لهم إذ قال لهم النبي عن الله {إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا} أن يسلموا لأمر الله، ولا تنكره قلوبهم، ولا يتعجبوا من ذلك، ففي المقادير أسرار لا تدرك، وتقدير الله عز وجل فوق كل تصور، وما علموا أن عناية المقادير تجعل المفضل فاضلاً.

{قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ} فبدأ بذكر ما لا جدال فيه - وهو اصطفاء الله عليهم -؛ ثم ذكر بقية المؤهلات.

{وَزَادَهُ بَسْطَةً} سعة، كقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [البقرة: ٢٤٥]، وقوله تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} [الرعد: ٢٦]

{فِي الْعِلْمِ} وهو الوصف الذي لا شيء أشرف منه، هو علم تدبير الحرب وسياسة الأمة، فعنده الحنكة والرأي، وقيل: هو علم النبوة، ولا يصح ذلك لأن طالوت لم يكن معدودا من أنبيائهم.

{وَالْجِسْمِ} قال ابن عباس: "كان طالوت يومئذ أعلم رجل في بني إسرائيل، وأجمله وأتمه"، واستغنى بهذين الوصفين الذاتيين عن الوصفين الخارجين عن الذات، وهما الفخر بالعظم الرميم، والاستكثار بالمال الذي مرتعه وخيم.

فأعلمهم نبيهم أن الصفات المحتاج إليها في سياسة أمر الأمة ترجع إلى أصالة الرأي، وقوة البدن؛ لأنه بالرأي يهتدي لمصالح الأمة، لاسيما في وقت المضائق، وعند تعذر الاستشارة، أو عند خلاف أهل الشورى، وبالقوة يستطيع الثبات في مواقع القتال فيكون بشاته ثبات نفوس الجيش، وقدم النبي في كلامه العلم على القوة لأن وقعه أعظم.

ولم يجيبهم نبيهم عن قوله: **{وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ}** اكتفاء بدلالة اقتصاره على قوله: **{وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ}**؛ فإنه يبسطه العلم وبالنصر يتوافر له المال؛ لأن المال تجلبه الرعية كما قال أرسطو، ولأن الملك ولو كان ذا ثروة، فثروته لا تكفي لإقامة

أُمُور المملِكة ولهذا لم يكن من شرط ولاية الأُمُور من الخليفة فما
دونه أن يكون ذا سعة، وقد ولي على الأُمة أبو بكر وعمر وعلي
ولم يكونوا ذوي يسار. وغني الأُمة في بيت مالها ومنه تقوم
مصالِحها، وأرزاق ولاية أُمُورها.

{وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ} فكان في قولهم **{وَنَحْنُ أَحَقُّ**
بِالْمُلْكِ مِنْهُ} ادّعاء الأُحقية في الملك، حتى كأن الملك هو في
ملكهم، فأضاف الملك إليه عز وجل في قوله: **{مُلْكُهُ}**، فالملك
ملكه يتصرف فيه كما أراد، فلستم بأحق فيه، لأنه ملك الله يؤتيه
من يشاء.

{وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} أي ذو سعة في جميع صفاته؛ واسع في
علمه، وفضله، وكرمه، وقدرته، وقوته، وإحاطته بكل شيء، وجميع
صفاته، وأفعاله، فوسع فضله على الفقير، عليم بمن هو أحق
بالملك، فيضعه فيه ويختاره له.

وفي قصة طالوت دلالة على أن الإمامة ليست وراثية، لإنكار الله
عليهم ما أنكروه من التملك عليهم من ليس من أهل النبوة
والملك، وبين أن ذلك مستحق بالعلم والقوة لا بالنسب، ودل
أيضاً على أنه لا حظ للنسب مع العلم، وفضائل النفس، وأنها

مقدّمة عليه لاختيار الله طالوت عليهم، لعلمه وقدرته، وإن كانوا أشرف منه نسباً.

قال ابن عاشور: والسر في اختيار هذا الملك: أنه أراد أن تبقى لهم حالتهم الشورية بقدر الإمكان، فجعل ملكهم من عامتهم لا من ساداتهم، لتكون قدمه في الملك غير راسخة، فلا يخشى منه أن يشتد في استعباد أمته، لأن الملوك في ابتداء تأسيس الدول يكونون أقرب إلى الخير، لأنهم لم يعتادوا عظمة الملك ولم ينسوا مساواتهم لأمثالهم، وما يزالون يتوقعون الخلع، ولهذا كانت الخلافة سنة الإسلام. وكانت الوراثة مبدأ الملك في الإسلام: إذ عهد معاوية ابن أبي سفيان لابنه يزيد بالخلافة بعده، والظن به أنه لم يكن يسعه يومئذ إلا ذلك؛ لأن شيعة بني أمية راغبون فيه، ثم كانت قاعدة الوراثة للملك في دول الإسلام وهي من تقاليد الدول من أقدم عصور التاريخ. وهي سنة سيئة ولهذا تجد مؤسسي الدول أفضل ملوك عائلاتهم. وقواد بني إسرائيل لم يتفطنوا لهذه الحكمة لقصر أنظارهم، وإنما نظروا إلى قلة جدته، فتوهموا ذلك مانعا من تمليكه عليهم، ولم يعلموا أن الاعتبار بالخلال النفسانية، وأن

الغنى غنى النفس لا وفرة المال، وماذا تجدي وفرته إذا لم يكن ينفقه في المصالح؟.

{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ} علامة، كما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [الشعراء: ١٩٧] يعني علامة تدل على أنه حق **{مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ}** تابوت العهد، ونسبة الإتيان إلى التابوت مجاز لأن التابوت لا يأتي، إنما يؤتى به، والتابوت صندوق التوراة، كان موسى عليه السلام إذا قاتل قدمه فكانت تسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون.

{فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ} طمأنينة القلب وهدوء النفس، وهذا من آيات الله... أي فيه ما تسكن إليه قلوبكم وتثبت عند الحرب. وكانوا يُقدمونه أمامهم في الحروب فلا يفرون، ويُنصرون على عدوهم.

وتأمل كيف أضافه إلى ربوبيته إشارة إلى أن في ذلك عناية خاصة لهؤلاء القوم؛ والسكينة إذا نزلت في القلب اطمأن الإنسان، وارتاح، وانشرح صدره لأوامر الشريعة، وقبِلها قبولاً تاماً.

روى مسلم عن البراء قال كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ وَعِنْدَهُ فَرَسٌ مَرْبُوطٌ بِشَظْنَيْنِ فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ فَجَعَلَتْ تَدُورُ وَتَدْنُو وَجَعَلَ

فَرَسُهُ يَنْفِرُ مِنْهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-
فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: (تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنْزَلَتْ لِلْقُرْآنِ).

وفي حديث مسلم أيضا أَنَّ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ
فِي مَرْبَدِهِ إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ فَقَرَأَ ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى فَقَرَأَ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا
قَالَ أُسَيْدٌ فَخَشِيتُ أَنْ تَطَّأَ يَحْيَى فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ
رَأْسِي فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا قَالَ فَغَدَوْتُ
عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَيْنَمَا
أَنَا الْبَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مَرْبَدِي إِذْ جَالَتْ فَرَسِي فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- اقْرَأْ ابْنَ حُضَيْرٍ قَالَ فَقَرَأْتُ ثُمَّ
جَالَتْ أَيْضًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- اقْرَأْ ابْنَ
حُضَيْرٍ قَالَ فَقَرَأْتُ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- اقْرَأْ ابْنَ حُضَيْرٍ قَالَ فَانْصَرَفْتُ وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا
خَشِيتُ أَنْ تَطَّأَهُ فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي
الْجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-:
(تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ وَلَوْ قَرَأْتَ لِأَصْبَحْتَ يَرَاهَا النَّاسُ
مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ)

فأخبر -صلى الله عليه وسلم- عن نزول السكينة مرة، ومرة عن نزول الملائكة أصحاب السكينة، وجعلوا ذوي السكينة لأن إيمانهم في غاية الطمأنينة، وطواعيتهم دائمة لا يعصون الله ما أمرهم.

وقد جاء في الصحيح: (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده) فنزول السكينة عليهم كناية عن التباسهم بطمأنينة الإيمان، واستقرار ذلك في قلوبهم، لأن من تلا كتاب الله وتدارسه يحصل له بالتدبر في معانيه والتفكير في أساليبه، ما يطمئن إليه قلبه، وتستقر له نفسه، وكأنه كان قبل التلاوة له والدراسة خالياً من ذلك، فحين تلا نزل ذلك عليه.

ويقال: جعل تعالى سكينة بني إسرائيل في الثابت الذي فيه رضا الألواح، والعصا، وآثار أصحاب نبوتهم، وجعل تعالى سكينة هذه الأمة في قلوبهم، وفرق بين مقر تداولته الأيدي، قد فر مرة، وغلب عليه مرة، وبين مقر بين أصبعين من أصابع الرحمن.

{وَبَقِيَ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ} وهم الأنبياء تركوا العلم، والحكمة؛ لأن الأنبياء لم يورثوا درهماً، ولا ديناراً؛ وإنما ورثوا العلم .. كرضاض الألواح التي تكسرت حين ألقاها موسى عليه السلام، وعصاه ونعله وعمامة هارون وشيء من المن الذي كان ينزل عليهم في التيه.

والذي يظهر أن آل موسى وآل هارون هم الأنبياء الذين كانوا بعدهما، فإنهم كانوا يتوارثون ذلك إلى أن فقد.

{تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ} أما كيفية حمل الملائكة للتابوت فإن الأخبار تقول إن العمالقة تشاءموا بالتابوت عندهم إذا ابتلوا بمرض البواسير وبآفات زراعية وغيرها ففكروا في أن يردوا هذا التابوت لبني إسرائيل وساق الله أقداراً لأقدار، فجعلوه في عربة يجرها بقرتان أو فرسان ووجهوها إلى جهة منازل بني إسرائيل فمشت العربة فساقتها الملائكة حتى وصلت بها إلى منازل بني إسرائيل.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ} أي في إتيان التابوت على الوصف المذكور **{إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}** الإشارة **{ذَلِكَ}** إلى جميع الحالة أي في رجوع التابوت من يد أعدائكم إليكم، بدون قتال، وفيما يشتمل

عليه التابوت من آثار موسى عليه السلام، وفي مجيئه من غير سائق. ولا إلف سابق.

فكان هذا التابوت بمثابة الراية يقاتلون تحتها فإنهم إذا خرجوا لقتال حملوه معهم إلى داخل المعركة ولا يزالون يقاتلون ما بقي التابوت بأيدهم لم يغلبهم عليه عدوهم.

والآيات إنما ينتفع بها المؤمن وحده، وأن الإنسان إذا ازداد إيماناً ازداد فهماً لكتاب الله سبحانه وتعالى، وسنة رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-؛ لأن الشيء إذا علق على وصف فإنه يزداد بزيادة ذلك الوصف، وينقص بنقصانه؛ فكلما تم الإيمان كان انتفاع الإنسان بآيات الله أكثر، وفهمه لها أعظم.

وفي الآية: رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده، حيث يؤيد الأمور بالآيات لتقوم الحجة؛ لقوله تعالى: **{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ}**؛ ولو شاء الله عز وجل لفعل ما يفعل بدون آية، وانتقم من المكذبين، والمستكبرين؛ ولكن من رحمته عز وجل أنه يبعث بالآيات حتى تطمئن القلوب، وحتى تقوم الحجة؛ ولهذا ما من رسول أرسل إلا أوتي ما على مثله يؤمن البشر؛ وحصول الآيات حكمة ظاهرة؛ لأنه لو خرج رجل من بيننا، وقال: أنا رسول الله

إليكم: «افعلوا ما أمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه؛ وإلا فإن دماءكم وأموالكم حلال لي»؛ فإنه لا يطاع؛ ولكن من رحمة الله عز وجل، وحكمته أن جعل للرسول آيات حتى تقوم الحجة، ويستجيب الناس.

فجاءهم التابوت، وأقروا له بالملك، وتأهبوا للخروج **{فَلَمَّا}** فصل انفصل من الديار وخرج يريد العدو **{طَالُوتُ}** قال عكرمة: لما رأى بنو إسرائيل التابوت سارعوا إلى طاعته والخروج معه، فقال لهم طالوت: لا يخرج معي من بنى بناءً لم يفرغ منه، ولا من تزوج امرأة لم يدخل بها، ولا صاحب زرع لم يحصده، ولا صاحب تجارة لم يرحل بها، ولا من له أو عليه دين، ولا كبير، ولا عليل **{بِالْجُنُودِ}** واشتقاقه من الجند وهو: الغليظ من الأرض إذ بعضهم يعتصم ببعض.

{قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ} مختبركم، وتسمية هذا التكليف ابتلاء تقريب للمعنى إلى عقولهم: لأن المقصود إظهار الاعتناء بهذا الحكم، وأن فيه مرضاة الله تعالى على المتمثل، وغضبه على العاصي **{بِنَهْرٍ}** والنهر بتحريك الهاء، وبسكونها للتخفيف، ولعله هو نهر الأردن **{فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ}** كثيراً كَرَعاً بلا واسطة، وكانوا في

حرّ شديد وعطش شديد **{فَلَيْسَ مِنِّي}** ليس من أتباعي في هذه الحرب، ولا أشياعي، ولم يخرجهم بذلك عن الإيمان، نحو قوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (من غشنا فليس منا)، (ليس منا من شق الجيوب ولطم الحدود)، وهذا نظير قوله تعالى: **{وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ}** [آل عمران: ٢٨]

{وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ} لم يذقه، واختير هذا اللفظ لأنه أبلغ، لأن نفي الطعم يستلزم نفي الشرب، ونفي الشرب لا يستلزم نفي الطعم، لأن الطعم ينطلق على التذوق، والمنع من الطعم أشق في التكليف من المنع من الشرب، إذ يحصل بإلقائه في الفم، وإن لم يشربه، نوع راحة.

{فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ} أخذ الماء بيده لا بيديه، ووجه تقييده بقوله: **{بِيَدِهِ}** مع أن الغرف لا يكون إلا باليد لدفع توهم أن يكون المراد تقدير مقدار الماء المشروب، فيتناوله بعضهم كرها، فربما زاد على المقدار فجعلت الرخصة الأخذ باليد.

وفي الآية: أن الله عزّ وجلّ عند الابتلاء يرحم الخلق بما يكون فيه بقاء حياتهم؛ لقوله تعالى هنا: **{إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ}**

{ فَشَرِبُوا مِنْهُ } كَرَعُوا، وسقطوا على وجوههم { إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ }

قيل: ثلاثمائة وأربعة عشر، على عدد أهل بدر، وذلك لقلّة صبرهم، وأنهم ليسوا بأهل لمزاولة الحروب.

ومن الفوائد بالآية: أن أكثر عباد الله لا ينفذ أمر الله؛ لقوله تعالى: **{ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ }**؛ وهذا أمر يشهد به الحال. قال الله تعالى: **{ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ }** [سبأ: ١٣]؛ وقال تعالى: **{ وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ }** [الأنعام: ١١٦]؛ وثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن بعث النار من بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون من الألف؛ فالطائع قليل، والمعاند كثير.

{ فَلَمَّا جَاوَزَهُ } جاز المكان أي: قطعه { هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ }

{ قَالُوا } والمراد بعضهم بدليل قوله تعالى: **{ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مَلَاقُوا اللَّهَ... }** **{ لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ }** قائد قواد الفلسطينيين **{ وَجُنُودِهِ }** هؤلاء مخدّلون؛ وفي نفس الوقت أيضاً مرجفون. والفرق بين المخدّل، والمرجف، أن المخدّل هو الذي يخدّل الجيش، ويقول: ما أنتم بمنتصرين؛ والمرجف هو الذي يخوف من العدو، فيقول: العدو أكثر عدداً، وأقوى استعداداً... وما أشبه ذلك.

{قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ {يَتَيَقَّنُونَ {أَنَّهُمْ مُّلاقُوا اللَّهَ} أي يوم القيامة
فهم يؤمنون بالبعث الآخر، وهذا كقوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ**
إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ} [الانشقاق: ٦] {كَمْ مِّن فِئَةٍ
كم للتكثير، أي ما أكثر ما تغلب الفئة القليلة فئة كثيرة، والفئة:
الجماعة، يفىء -أي يرجع- بعضها إلى بعض **{قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ**
كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ} كما حدث في غزوة بدر.

{وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} هذه الآية ظاهرها تخصيص معية الله
بالصابرين مع أنه في آيات أخرى أثبت معيته لعموم الناس؛ فقال
تعالى: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ**
عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ
السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ} [الحديد: ٤]؛ هذا عام، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ
رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا
هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ} [المجادلة: ٧] ؛ فالجواب: أن هذه المعية خاصة
تقتضي الإثابة، والنصر، والتأييد؛ وتلك معية عامة تقتضي الإحاطة

بالخلق علماً، وسمعاً، وبصراً، وسلطاناً، وغير ذلك من معاني ربوبيته.

والمعية التي أضافها الله إلى نفسه منها ما يقتضي التهديد؛ ومنها ما يقتضي التأييد؛ ومنها ما هو لبيان الإحاطة، والشمول؛ فمثال الذي يقتضي التأييد قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: ١٢٨]، وقوله تعالى لموسى وهارون: {قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦]، وقوله تعالى عن نبيه محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: ٤٠]

ومثال الذي يقتضي التهديد قوله تعالى: {يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً} [النساء: ١٠٨]

ومثال ما يقتضي الإحاطة قوله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ} [الحديد: ٤].

فإن قلت: ما الجمع بين إثبات المعية لله عز وجل، وإثبات العلو له؟.

فالجواب: أنه لا تناقض بينهما؛ إذ لا يلزم من كونه معنا أن يكون حالاً في الأمكنة التي نحن فيها؛ بل هو معنا وهو في السماء، كما نقول: القمر معنا، والقطب معنا، والثريا معنا، وما أشبه ذلك مع أنها في السماء.

والصبر ثلاثة أنواع:

الأول: صبر على طاعة الله: بأن يحبس الإنسان نفسه على الطاعة، فيقوم بها من غير ملل، ولا ضجر.

الثاني: الصبر عن محارم الله: بأن يحبس نفسه عما حرم الله عليه من قول، أو عمل.

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة: بأن يحبس نفسه عن التسخط على ما يقدره الله من المصائب العامة، والخاصة. وأعلاها الأول، ثم الثاني، ثم الثالث.

{وَلَمَّا بَرَزُوا} ظهرُوا في ميدان المعركة، وامرأة برزة أخذ منها السن، فلم تستر وجهها، ومن ذلك البراز **{لِجَالُوتَ}** اسمه في كتب اليهود جليات كان طوله ستة أذرع وشبرا، وكان مسلحا مدرعا، وكان لا يستطيع أن يبارزه أحد من بني إسرائيل، فكان إذا خرج للصف عرض عليهم مبارزته وعيرهم بجبنهم

{وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا} أصعب الصبر في قلوبنا صَبًا حتى تمتلئ فلم يبق للخوف والجزع موضع **{وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا}** فاستعير الإفراغ هنا للكثرة مع التعميم والإحاطة وتثبيت الأقدام استعارة لعدم الفرار شبه الفرار والخوف بزلق القدم.

{وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} جاءوا بالوصف المقتضي لخذلان أعدائهم، وهو الكفر. لم يقولوا: على أعدائنا؛ كأنهم يقولون: انصرنا عليهم من أجل كفرهم؛ وهذا في غاية ما يكون من البعد عن العصبية، والحمية؛ يعني ما طلبنا أن تنصرنا عليهم إلا لأنهم كافرون.

وفي دعائهم ترتيب بليغ؛ سألوا أولاً إفراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القدم في مَدَاحِضِ الحرب المُسبِّبِ عنه، ثم النصرَ على العدو المرتب عليها غالباً.

{فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ} هو نبي الله ورسوله داود، وكان يومئذ غير نبي ولا رسول في جيش طالوت.

لما التقى الجيشان جيش الإيمان وجيش الكفر طالب جالوت بالمبارزة فخرج له داود من جيش طالوت فقتله، والتحم الجيشان فنصر الله جيش طالوت على عدد أفرادهِ ثلاثمائة وأربعة عشر

مقاتلا لا غير لقول الرسول -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأهل بدر،
(إنكم على عدة أصحاب طالوت).

وكان داود من قبل راعي غنم أبيه، وكان ذا شجاعة ونشاط
وحسن سمت، وله نبوغ في رمي المقلاع، فيوم التقى الفلسطينيين
مع جيش طالوت وخرج زعيمهم جالوت للمبارزة، لم يستطع أحد
مبارزته، فانبرى له داود ورماه بالمقلاع فأصاب بالحجر جبهته
وأسقطه إلى الأرض واعتلاه داود واخترب سيفه وقطع رأسه، وانهزم
الفلسطينيين، وزوج شاول ابنته المسماة ميكال من داود، وصار
داود بعد حين ملكا عوض شاول، ثم آتاه الله النبوة فصار ملكا
نبيا، وعلمه مما يشاء.

{وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ} فلما مات طالوت اجتمع لداود
الملك والنبوة **{وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء}** منها صنعه الدروع **{وَعَلَّمْنَاهُ
صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ}**
[الأنبياء: ٨٠]

{وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} بالجهاد والقتال
{لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ} وذلك بغلبة أهل الشرك على أهل التوحيد،
وأهل الكفر على أهل الإيمان، و«الفساد» ضد «الصلاح»؛ ومن

أنواعه ما ذكره الله تعالى بقوله: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ لَّهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ
كَثِيرًا} [الحج: ٤٠]

{وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ} صاحب فضل و«الفضل» هو العطاء
الزائد الواسع الكثير {عَلَى الْعَالَمِينَ} حتى الكفار؛ لكن فضل الله
على الكفار فضل في الدنيا فقط بإعطائهم ما به قوام أبدانهم؛ أما
في الآخرة فيعاملهم بعدله بعذابهم في النار أبد الآبدين؛ وأما
بالنسبة للمؤمنين فإن الله يعاملهم بالفضل في الدنيا والآخرة.

ذيلت هذه الآية العظيمة، كل الوقائع العجيبة، أشارت بها
الآيات السالفة: لتدفع عن السامع المتبصر ما يخامر من تطلب
الحكمة في حدثان هذه الوقائع وأمثالها في هذا العالم، ولكون
مضمون هذه الآية عبرة من عبر الأكوان، وحكمة من حكم التاريخ،
ونظم العمران التي لم يهتد إليها أحد قبل نزول هذه الآية، وقبل
إدراك ما في مطاويها.

ثم التفت إلى رسوله محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وقال له:
تقريراً لنبوته وعلو مكانته.

{تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ} الحق في الأخبار: هو الصدق؛ وفي الأحكام: هو العدل، والقرآن كله حق من الله، ونازل بالحق؛ لأن الباء في قوله تعالى: {بالحق} للمصاحبة، والملابسة أيضاً؛ فهو نازل من عند الله حقاً؛ وهو كذلك مشتمل على الحق؛ وليس فيه كذب في أخباره، ولا جور في أحكامه؛ بل أحكامه كلها عدل؛ وأخباره كلها صدق.

{وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} فهذه كلها آيات عظيمة خوارق، تلاها الله على نبيه بالحق أي مصحوبة، بالحق لا كذب فيها ولا انتحال، ولا بقول كهنة، بل مطابقاً لما في كتب بني إسرائيل.

حيث أخبرت بها من غير تعرف ولا استماع ولم يعهد منك تعلم ولا اطلاع، فلا يشك أنه من عند الخبير العليم، إلا من طبع الله على قلبه. نعوذ بالله من ذلك.

فهو خطاب للرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: تنويها بشأنه، وتشبيها لقلبه، وتعريضاً بالمنكرين رسالته.

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ

وَأَيَّدَنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ
بَعْدِهِمْ مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ
مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ
اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)

{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ} قال
الأخفش: أي كلمه الله، يعني موسى ومحمدا -صلى الله عليهما
وسلم- حين كان قاب قوسين أو أدنى {وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ}
منهم محمدا -صلى الله عليه وسلم- كقوله تعالى: {عَسَى أَنْ
يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا} [الإسراء: ٧٩] إذ فضله بعموم رسالته
وبختم النبوات بنبوته، وبتفضيل أمته، وبإدخاله الجنة في حياته قبل
مماته وبتكليمه مناجاته مع ما خصه من الشفاعة يوم القيامة.

ومنهم إبراهيم عليه السلام كقوله تعالى: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ
خَلِيلًا} [النساء: ١٢٥]، وقوله: {إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا}
[البقرة: ١٢٤]

وقال تعالى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ
زُبُورًا} [النساء: ١٦٣] روى البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
قَالَ بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَغْرِضُ سِلْعَتَهُ أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ فَقَالَ لَا

وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَامَ
فَلَطَمَ وَجْهَهُ وَقَالَ تَقُولُ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ وَالنَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهَرِنَا فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ لِي
ذِمَّةً وَعَهْدًا فَمَا بَالُ فُلَانٍ لَطَمَ وَجْهِي فَقَالَ لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ فَذَكَرَهُ
فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ: (لَا
تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيَصْعَقُ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى
فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالْعَرْشِ فَلَا أَدْرِي أَحْسِبُ
بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ أَمْ بُعِثَ قَبْلِي وَلَا أَقُولُ إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ
بَنِ مَتَّى)

فالمنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة
واحدة لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال
والخصوص والكرامات والألطف والمعجزات المتباينات.
وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما تتفاضل بأمر آخر زائدة
عليها، ولذلك منهم رسل وأولو عزم، ومنهم من اتخذ خليلاً، ومنهم
من كلم الله ورفع بعضهم درجات.

فإذا كان التفضيل قد أنبأ به رب الجميع، ومن إليه التفضيل، فليس من قدر الناس أن يتصدوا لوضع الرسل في مراتبهم، وحسبهم الوقوف عندما ينبئهم الله في كتابه أو على لسان رسوله، والنهي عن التفضيل التفصيلي، بخلاف التفضيل على سبيل الإجمال، كما نقول: الرسل أفضل من الأنبياء الذين ليسوا رسلا.

{وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ} المعجزات الدالة على صدق عيسى في نبوته ورسالته، كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص **{وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}** جبريل عليه السلام كان يقف دائماً إلى جانب عيسى يسدده ويقويه إلى أن رفعه الله تعالى إليه. فإن الروح هنا بمعنى الملك الخاص. والقدس: الخلوص والنزاهة.

وروح القدس هو جبريل .. قال تعالى: **{قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ}** [النحل: ١٠٢] وفي الحديث: (إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها) وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لحسان: (اهجمهم ومعك روح القدس).

وإنما وصف عيسى بن مريم بهذين مع أن سائر الرسل أيدوا بالبينات وبروح القدس، للرد على اليهود الذين أنكروا رسالته

ومعجزاته، وللدرد على النصارى الذين غلوا فيه فادعوا ألوهيته،
ولأجل هذا ذكر معه اسم أمه للتنبيه على أن ابن الإنسان لا يكون
إلا هالك، وعلى أن مريم أمة الله تعالى لا صاحبة، لأن العرب لا
تذكر أسماء نسائها وإنما تكنى، فيقولون ربة البيت، والأهل، ونحو
ذلك، ولا يذكرون أسماء النساء إلا في الغزل، أو أسماء الإماء.

ولما ذكر الحق تعالى أحوال الرسل، وتفاوتهم في العناية، ذكر
أحوال أممهم وتفاوتهم في الهداية، فقال:

**{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}**

فلما بعثت الرسل، وفضلت بعضهم على بعض، اختلفت أممهم
من بعدهم فاقتلوا، وكل ذلك بإرادتي ومشيتي، **{ولو شاء الله}**
هداية أممهم **{ما اقتل الذين من بعدهم}** أي من بعد الرسل **{مَّنْ
بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ}** المعجزات الواضحات في تحقيق
رسالتهم وصحة نبوتهم **{ولكن اختلفوا}** بغياً وحسداً؛ **{فمنهم من
آمن}** بتوفيقه لاتباع دين الأنبياء **{ومنهم من كفر}** بمخالفتهم،
فكان من الأشقياء، **{ولو شاء الله}** جمّعهم على الهدى **{ما**

اقتتلوا لكن حكمته اقتضت وجود الاختلاف؛ ليظهر سر اسمه المنتقم والقهار واسمه الكريم والحليم **{ولكن الله يفعل ما يريد}** فيوفق من يشاء عدلاً ويخذل من يشاء عدلاً، كما قال الله تعالى **{لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}** [الأنبياء: ٢٣] .

وفي الآية دليل على أن الحوادث كلها بيد الله خيرها وشرها، وأن أفعال العباد كلها بقدرته تعالى، لا تأثير لشيء من الكائنات فيها. والمعنى أن الله شاء اقتتالهم فاقتتلوا، وشاء اختلافهم فاختلفوا، والمشيئة هنا مشيئة تكوين وتقدير لا مشيئة الرضا لأن الكلام مسوق مساق التمني للجواب، والتحسير على امتناعه، وانتفائه المفاد بـ {لو}

والمقصود تحذير المسلمين من الوقوع في مثل ما وقع فيه أولئك وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك تحذيراً متواتراً بقوله: في خطبة حجة الوداع: (فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) يحذرهم ما يقع من حروب الردة وحروب الخوارج بدعوى التكفير، وهذه الوصية من دلائل النبوة العظيمة.

فالآية تنادي على التعجيب والتحذير من فعل الأمم في التقاتل للتخالف حيث لم يبلغوا في أصالة القول أو في سلامة الطوايا إلى

الوسائل التي يتفادون بها عن القتال، فهم ملومون من هذه الجهة، ومشيئة إلى أن الله تعالى لو شاء لخلقهم من قبل على صفة أكمل مما هم عليه حتى يستعدوا بها إلى الاهتداء إلى الحق وإلى التبصر في العواقب قبل ذلك الإبان، فانتفاء المشيئة راجع إلى حكمة الخلقة، واللوم والحسرة راجعان إلى التقصير في امتثال الشريعة، ولذلك قال: **{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}** فأعاد **{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا}** تأكيداً للأول وتمهيداً لقوله: **{وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}** ليعلم الواقف على كلام الله تعالى أن في هدى الله تعالى مقنعا لهم لو أرادوا الاهتداء، وأن في سعة قدرته تعالى عصمة لهم لو خلقهم على أكمل من هذا الخلق كما خلق الملائكة. فالله يخلق ما يشاء ولكنه يكمل كل الخلق بالإرشاد والهدى، وهم يفرطون في ذلك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ
يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ
الظَّالِمُونَ (٢٥٤)

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ } حث على الإنفاق واستحقاق فيه **{ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ }** لا يشتري أحد نفسه بمال يدفعه فداءً لنفسه من العذاب **{ وَلَا خُلَّةٌ }** المودة والصحبة والصدقة كأنها تتخلل الأعضاء، والمعنى ولا صداقة تنفع صاحبها، ونظيره قوله تعالى: **{ الْأَخْلَاءِ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ }** [الزخرف: ٦٧] **{ وَلَا شَفَاعَةٌ }** الوساطة في طلب النفع أو دفع ضرر، فلا شفاعاة تقبل إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى.

والشفاعة المنفية هنا المراد بها الشفاعاة التي لا يسع المشفوع إليه ردها، فالشفاعة - في العرف - تقتضي إدلال الشفيع عند المشفوع لديه، ولهذا نفاهما الله تعالى هنا بمعنى نفي الاستحقاق أحد من المخلوقات أن يكون شفيعا عند الله بإدلال، وأثبتها في آيات أخرى كقوله: **{ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ }** [البقرة: ٢٥٥] وقوله: **{ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى }** [الأنبياء: ٢٨] وثبت للرسول عليه السلام، وأشار إليها بقوله تعالى: **{ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا }** [الإسراء: ٧٩] وفسرت الآية بالحديث الصحيح (اشفع تشفع) فتلك كرامة أكرمها الله بها وأذن له فيها، ولذلك كان من أصول اعتقادنا إثبات الشفاعاة

والمعنى أنه لا يشفع عنده أحد بحق وإدلال لأن المخلوقات كلها ملكه، ولكن يشفع عنده من أراد هو أن يظهر كرامته عنده فيأذن له بأن يشفع فيمن أراد هو العفو عنه، كما يسند إلى الكبراء مناولة المكرمات إلى نبغاء التلامذة في مواكب الامتحان.

والسبب في عدم الخلطة والشفاعة أمور:

أحدها: أن كل واحد يكون مشغولاً بنفسه. قال تبارك وتعالى:

{لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: ٣٧]

الثاني: أن الخوف الشديد يغلب على كلٍّ أحدٍ، قال تعالى: {يَوْمَ

تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ} [الحج: ٢].

الثالث: أنه إذا نزل العذاب بسبب الكفر، أو الفسق صار مبغضاً

لهذين الأمرين وإذا صار مبغضاً لهما؛ صار مبغضاً لمن اتّصف بهما

{وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} أراد والطاركون الزكاة هم الظالمون،

فقال {والكافرون} للتغليظ، كما قال في آخر آية الحج {وَمَنْ

كَفَرَ} [النور: ٥٥] مكان: ومن لم يحج، ولأنه جعل ترك الزكاة من

صفات الكفار في قوله: {وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}

[فصلت: ٦]

وقال عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: {والكافرون هم
الظالمون} ولم يقل: الظالمون هم الكافرون.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ
إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ
بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)

أعظم آية في كتاب الله تعالى، اشتملت على ثمانية عشر اسماً
لله تعالى ما بين ظاهر ومضمّر، وكلماتها خمسون كلمة، وجملها
عشر جمل، كلها ناطقة بربوبيته تعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته
الدالة على كمال ذاته وعلمه وقدرته وعظيم سلطانه.

روى مسلم عن أَبِي بِنِ كَعْبٍ -رضي الله عنه- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (يَا أَبَا الْمُنْدَرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ
مَعَكَ أَعْظَمُ؟) قَالَ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: (يَا أَبَا الْمُنْدَرِ
أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟) قَالَ قُلْتُ: {اللَّهُ لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} قَالَ فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ: (وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ
الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْدِرِ)

وفي زيادة صحيحة: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ لَهَا لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ
تُقَدِّسُ الْمَلِكُ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ) [أحمد]

وورد أن من قرأها أول الليل لم يقربه شيطان، وعن أبي أمامة -
رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (مَنْ
قَرَأَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ دُخُولِ
الْجَنَّةِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ) [النسائي]

{اللَّهُ} افتتحت بأجل أسماء الله تعالى، وجيء باسم الذات هنا
لأنه طريق في الدلالة على المسمى المنفرد بهذا الاسم.

{لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} والمقصود من هذه الجملة إثبات الوحداية.
{الْحَيُّ} الدائم الحياة التي لم تسبق بموت ولم يطرأ عليها موت،
والمقصود إثبات الحياة وإبطال استحقاق آلهة المشركين وصف
الإلهية لانتفاء الحياة عنهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: **{يَا أَبَتِ
لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ}** [مريم: ٤٢]

{الْقِيَوْمُ} القائم بتدبير الملكوت كله علويه وسفليّه، لولا قِيَوْمِيّته على الخلائق ما استقام من أمر العوالم شيء. قال تعالى: **{أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ}** [الرعد: ٣٣]

{الْحَيُّ الْقَيُّومُ} ورد أنه اسم الله الأعظم، وقال عليه الصلاة والسلام لِفَاطِمَةَ: (مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكَ بِهِ، أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلَحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ) [رواه النسائي بسند صحيح]

{لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ} النعاس يسبق النوم **{وَلَا نَوْمٌ}** يبقى مع السنة بعض الذهن، والنوم هو المستثقل الذي يزول معه الذهن. وهذه الجملة برهان على الجملة قبلها، إذ من ينعس وينام لا يتأتى له القيومية على الخلائق ولا يسعها حفظاً ورزقاً وتدبيراً.

وقيل: نزه نفسه عن السنة والنوم لما فيها من الراحة، وهو تعالى لا يجوز عليه التعب والاستراحة.

وفائدة تكرار: لا، انتفاؤهما على كل حال، إذ لو أسقطت، لا: لا، احتمال انتفاؤهما بقيد الاجتماع، تقول: ما قام زيد وعمرو، بل أحدهما، ولا يقال: ما قام زيد ولا عمرو، بل أحدهما.

وفي صحيح مسلم عَنْ أَبِي مُوسَى -رضي الله عنه- قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ [الميزان، ميزان أعمال العباد المُرْتَفَعَة إليه، وأَرْزاقهم النازلة من عنده]، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ [يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار الذي بعده ..]، حِجَابُهُ الثُّورُ -وَفِي رِوَايَةٍ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ- لَوْ كَشَفَهُ لَأُخْرِقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)

{لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} تقرير لانفراده بالإلهية إذ جميع الموجودات مخلوقاته، وتعليل لاتصافه بالقيومية لأن من كانت جميع الموجودات ملكا له فهو حقيق بأن يكون قيومها وألا يهملها ولذلك فصلت الجملة عن التي قبلها.

ولما كان المراد إضافة كلِّ ما سواه إليه بالمخلوقيّة، وكان الغالب عليه ما لا يعقل، أجرى الغالب مجرى الكلِّ، فعبر عنه بلفظة « مَا » .«

{مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} وفي هذه الآية أعظم دليل على ملكوت الله، وعظم كبريائه، بحيث لا يمكن أن يقدم أحد على

الشفاعة عنده إلا بإذن منه تعالى، كما قال تعالى: **{ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن }** [النبا: ٣٨] ودلت الآية على وجود الشفاعة بإذنه تعالى.

فبطل وصف الإلهية عن غيره تعالى بالمطابقة، وبطل حق الإدلال عليه والشفاعة عنده - التي لا ترد - بالالتزام، لأن الإدلال من شأن المساوي والمقارب، والشفاعة إدلال. وهذا إبطال لمعتقد معظم مشركي العرب لأنهم لم يشبوا لآلهتهم وطواغيتهم ألوهية تامة، بل قالوا: **{ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ }** [يونس: ١٨] وقالوا: **{ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى }** [الزمر: ٣]

{ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ } والذي يظهر أن هذا كناية عن إحاطة علمه تعالى بسائر المخلوقات من جميع الجهات، وكنى بهاتين الجهتين عن سائر جهات من أحاط علمه به، كما تقول: ضرب زيد الظهر والبطن، وأنت تعني بذلك جميع جسده، واستعيرت الجهات لأحوال المعلومات، فالمعنى أنه تعالى عالم بسائر أحوال المخلوقات، لا يعزب عنه شيء، فلا يراد بما بين الأيدي ولا بما خلفهم شيء معين.

وقيل المراد بما بين أيديهم وما خلفهم: ما هو ملاحظ لهم من المعلومات وما خفي عنهم، أو ما هو واقع بعدهم وما وقع قبلهم، وقيل أمور الدنيا وأمور الآخرة، وهو فرع من الماضي والمستقبل، وقيل المحسوسات والمعقولات

{وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} يحيطون: يعلمون علما تاما، وهو مجاز حقيقته أن الإحاطة بالشئ تقتضي الاحتواء على جميع أطرافه بحيث لا يشذ منه شيء من أوله ولا آخره.

{إِلَّا بِمَا شَاءَ} تنبيه على أنه سبحانه قد يطلع بعض أصفياه على ما هو من خواص علمه كقوله: **{عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ}** [الجن: ٢٧]

{وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} الكرسي موضع القدمين وهو غير العرش، وهو أصغر منه.

{وَلَا يَؤُودُهُ} يثقله ويشق عليه **{حِفْظُهُمَا}** أي ولا يعجزه حفظ السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما بل هو سهل عليه يسير.

{وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} وهو الكبير المتعالي عن النقص، العظيم بجلاله وسلطانه، الذي كل شيء أمام عظمته صغير حقير.

ولهذه الآية فضل كبير لم اشتملت عليه من أصول معرفة صفات
الله تعالى

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ
بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنِ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا
انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)

{لَا إِكْرَاهَ} الإِرْغَامُ عَلَى الشَّيْءِ {فِي الدِّينِ} خبر بمعنى النهي،
أي: لا تُكْرَهُوا أحداً على الدخول في الدين. وهو خاص بأهل
الكتاب في أحد قولي أهل العلم.

عن الحسن وقتادة: "أنها خاصة في أهل الكتاب الذين يقرون
على الجزية، دون مشركي العرب، فإنهم لا يقرون على الجزية، ولا
يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف". وكذلك المرتد.

وقيل نزلت حين أراد بعض الأنصار إكراه من تهوّد أو تنصّر من
أولادهم على الدخول في دين الإسلام، فروى الطبري بإسناد
صحيح عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس -رضي الله عنهما-
قال: كانت المرأة تكون مقلّتا [لا يعيش لها ولد]، فتجعل على
نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده. فلما أجليت بنو النضير كان

فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا! فأنزل الله تعالى ذكره: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}.

ولذا فإن أهل الكتابين ومن شابههما تؤخذ منهم الجزية ويقرون على دينهم فلا يخرجون منه إلا باختيارهم وإرادتهم الحرة، أما الوثنيون والذين لا دين لهم سوى الشرك والكفر فيقاتلون حتى يدخلوا في الإسلام إنقاذاً لهم من الجهل والكفر وما لازمهم من الضلال والشقاء .

والسؤال هنا:

فما معنى إكراههم على الإسلام، وأن لا يقبل منهم الجزية؟ وكيف يتحقق إكراههم على الإسلام، وذلك لا ينفعهم عند الله تعالى؟.

وما معنى الحمل على ما لا ينفع؟.

ولأي معنى فرق بين المشرك والكتابي في هذا المعنى، والعناد الداعي إلى القتال كان في حق أهل الكتاب أشد، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم حرفوا وكتموا الحق من بعد علمه، والمشركون كانوا أبعد من ذلك؟

والجواب: أن الكفار أكرهوا على إظهار الإسلام، لا على الاعتقاد الذي لا يصح الإكراه عليه.

اختلاف أحوال أهل الشرك، وأهل الكتاب في ذلك، أن الكتابي إذا خالطنا، ورأى توافق ما بين الشرائع، وصدق الإعلام والآيات، كان ذلك أدعى إلى إيمانه، فإن كتب الله يصدق بعضها بعضاً، فهذا هو السبب في الفرق بين الكتابي والمشرک، لا جرم إذا قبل الجزية، فلا يجوز إكراهه على الإسلام، وإذا أكره عليه لم يصح إسلامه.

وقال آخرون من أهل العلم:

ليس هناك -بحمد الله- تعارض بين نفي الإكراه في الدين، والأمر بقتال المشركين؛ فليس الأمر بقتال المشركين لأجل إكراههم على الدخول في الدين، وإلا لكان أكره اليهود والنصارى وغيرهم على الدخول في دين الإسلام، حينما تغلب عليهم، وخضعوا لسلطانهم، ومن المعلوم لكل من عرف شيئاً عن تاريخ الإسلام أن هذا لم يحدث؛ فقد ظل اليهود والنصارى يعيشون تحت سلطان الدولة الإسلامية، ويتمتعون بحريتهم الدينية فيها. وإنما المراد بالقتال أمران:

(الأول): قتال من يريد مهاجمة المسلمين في بلدانهم، وبسط نفوذ الكفر وأهله على بلاد المسلمين، وهذا «جهاد الدفع» عن ديار الإسلام. وهذا موجود في كل دولة عرفها التاريخ، أيا كان ملتها، وإلا لما كانت دولة أصلاً، ولا سلطان.

(والثاني): قتال من صد الناس عن دين الله، ومنع المسلمين من الدعوة إلى دين ربهم، ونشر نوره ليراه من طلب الهداية من البشر، أو منع غير المسلمين من التعرف على هذا الدين، أو الدخول فيه إذا رغبوه. وهذا «جهاد الطلب»، وكلاهما جهاد مشروع.

قال ابن العربي المالكي - رحمه الله - : " قوله تعالى {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} عامٌّ في كل مشرك، لكنَّ السنَّةَ خصَّت منه من تقدم ذكره قبل هذا من امرأة، وصبي، وراهب، وحُشوة [وهم أرذال الناس، وتبعهم، ومن لا شأن له فيهم]، حسبما تقدم بيانه، وبقي تحت اللفظ: مَنْ كان محارباً أو مستعدّاً للحاربة والإذاية، وتبيَّن أن المراد بالآية: اقتلوا المشركين الذين يحاربونكم". انتهى

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : "وقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ) مراده: قتال

المحاربين الذين أذن الله في قتالهم، لم يُرد قتال المعاهدين الذين أمر الله بوفاء عهدهم". انتهى

وقال -رحمه الله - أيضاً: " القتال هو لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله، كما قال الله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [البقرة: ١٩٠]

ويدل لذلك أيضا ما ثبت عن بُرَيْدَةَ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا ثُمَّ قَالَ ... وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ فَأَيُّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ ... فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْلُهُمُ الْجَزِيَّةَ فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ) [رواه مسلم]

قال ابن القيم -رحمه الله- في فوائد حديث بريدة: "ومنها: أن الجزية تُؤخذ من كل كافر، هذا ظاهر هذا الحديث، ولم يستثن منه كافراً من كافر، ولا يقال هذا مخصوص بأهل الكتاب خاصة؛ فإن اللفظ يأبى اختصاصهم بأهل الكتاب، وأيضاً: فسرايا رسول الله

وجيوشه أكثر ما كانت تقاتل عبدة الأوثان من العرب، ولا يقال إن القرآن يدل على اختصاصها بأهل الكتاب؛ فإن الله سبحانه أمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية والنبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتال المشركين حتى يعطوا الجزية، فيؤخذ من أهل الكتاب بالقرآن، ومن عموم الكفار بالسنة، وقد أخذها رسول الله من المجوس وهم عبّاد النار لا فرق بينهم وبين عبدة الأوثان".

{قَدْ تَبَيَّنَ} أي تميّز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة **{الرُّشْدُ}** الحق، أو الإيمان **{مِنَ الْغَيِّ}** الباطل، أو الكفر، مصدر غَوَى، إذا ضلَّ مُعْتَقِدِهِ، وهذه الجملة كأنها كالعلة لانتفاء الإكراه في الدين.

{فَمَنْ يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ} فسرّه ابن القيم بأنه: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع؛ مشتق من «الطغيان»؛ وهو تجاوز الحد **{وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ}** وقدّم ذكر الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ليظهر الاهتمام بوجوب الكفر بالطاغوت.

وناسب ذلك أيضاً اتصاله بلفظ **{الغى}** قبله.

ولأن تقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان به تعالى لتوقفه عليه، فإن التخلية متقدّمة على التحلية.

ولم يكتف بالجملة الأولى لأنها لا تستلزم الجملة الثانية، إذ قد يرفض عبادتها ولا يؤمن بالله، لكن الإيمان يستلزم الكفر بالطاغوت.

{فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا} العروة: ما تستمسك به اليد عند خوف الزل كالجبل ونحوه، ووثوقها: متانتها، وانفصامها: انقطاعها وأن تنفك عن موضعها، فالفصم الكسرُ بغير صوت. والمعنى: فقد استمسك من الدين بأمتن عروة وأوثقها.

روى البخاري ومسلم عن قيس بن عباد قال كنت جالساً في مسجد المدينة فدخل رجل على وجهه أثر الخشوع فقالوا هذا رجل من أهل الجنة فصلّى ركعتين تجوّزَ فيهما ثم خرج وتبعته فقلت إنك حين دخلت المسجد قالوا هذا رجل من أهل الجنة قال والله ما ينبغي لأحد أن يقول ما لا يعلم وسأحدثك لم ذاك رأيت رؤيا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فقصصتها عليه ورأيت كأنني في روضة ذكر من سعتها وخضرتها وسطحها عمود من حديد أسفلهُ في الأرض وأعلاه في السماء في أعلاه عروة فقل لي ارق قُلْتُ لَا أَسْتَطِيعُ فَأَتَانِي مِنْصَفٌ [الخادم] فَرَفَعَ ثِيَابِي مِنْ خَلْفِي

فَرَقِيتُ حَتَّى كُنْتُ فِي أَعْلَاهَا فَأَخَذْتُ بِالْعُرْوَةِ فَقِيلَ لَهُ اسْتَمْسِكْ فَاسْتَيْقَظْتُ وَإِنَّهَا لَفِي يَدِي فَقَصَصْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تِلْكَ الرُّوضَةُ الْإِسْلَامُ وَذَلِكَ الْعُمُودُ عُمُودُ الْإِسْلَامِ وَتِلْكَ الْعُرْوَةُ عُرْوَةُ الْوَثْقَى فَأَنْتَ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى تَمُوتَ وَذَاكَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ.

{وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} والله سميع لأقوال عباده عليم بنياتهم وخفيات أعمالهم وسيجزي كلاً بكسبه، وأتى بهذين الوصفين لأن الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان ويعتقده بالجنان فناسب هذا ذكر هذين الوصفين.

**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى
الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)**
{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا} مُتَوَلِّيهُمْ بحفظه ونصره وتوقيفه .. فالولي:
هو المحب الذي يتولى أمور محبوبه، أو الناصر الذي ينصر
محبوبه، ولا يخذله بأن يكله إلى نفسه.

{يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ} ظلمات الجهل والكفر **{إِلَى النُّورِ}** نور الإيمان والعلم، وإفراد النور لتوحيد الحق كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال.

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ}

قال تعالى بعد أن أفرد الطاغوت **{يُخْرِجُونَهُمْ}** بالجمع، وذلك أن الطاغوت اسم للجمع والمفرد أيضا، وقد يجمع فيقال طواغيت، كقولهم: "رجل عدل، وقوم عدل"

لكن السؤال هنا: هل الذين كفروا كانوا في نور حتى يقال إن الطواغيت يخرجونهم من النور إلى الظلمات؟

للإجابة ثلاث توجيهات:

١ / الآية مخصوصة بأهل الكتاب وكانوا متبعين لملتهم، فهؤلاء كانوا على نور فلما جاءهم محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كفروا به.

قال مجاهد: نزلت في قوم آمنوا بعتسى، فلما جاء محمد عليه السلام كفروا به، فذلك إخراجهم من النور إلى الظلمات.

وقال الكلبي: يخرجونهم من إيمانهم بموسى عليه السلام واستفتحهم بمحمد صلى الله عليه وسلم إلى كفرهم به.

٢ / الحيلولة بينهم وبين الإيمان الفطري بإضلالهم عن طريقه.

قال الألوسي: النور أي الفطري الذي جبل عليه الناس كافة

٣ / لما ظهرت معجزات الرسول محمد -صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان المخالف له خارجاً من نور قد علمه.

قال الزمخشري: من نور البينات التي تظهر لهم إلى ظلمات الشك والشبهة.

** وقد تباينت الإخبار في هاتين الجملتين، فاستفتحت آية المؤمنين باسم الله تعالى، وأخبر عنه بأنه ولي المؤمنين تشريفاً لهم إذ بدء في جملتهم باسمه تعالى، ولقربه من قوله: {والله سميع عليم} واستفتحت آية الكافرين بذكرهم نعيّاً عليهم، وتسمية لهم بما صدر منهم من القبيح .. ثم أخبر عنهم بأن أولياءهم الطاغوت، ولم يصدر الطاغوت استهانة به، وأنه مما ينبغي أن لا يجعل مقابلاً لله تعالى، ثم عكس الإخبار فيه فابتدأ بقوله: أولياؤهم، وجعل الطاغوت خبراً.

كما قال في آية أخرى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [إبراهيم: ٥]

{أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ} أي ملابسوها وملازموها بسبب ما لهم من الجرائم {هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} ماكنون أبداً.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ

لَهُ قَالَ أَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) وَإِذْ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنَ قَالَ
بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ
إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ
سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

لما أخبر أنه ولي الذين آمنوا، وأخبر: أن الكفار أولياؤهم
الطاغوت، ذكر هذه القصة التي جرت بين إبراهيم والذي حازه،
وأنه ناظر ذلك الكافر فغلبه وقطعه، إذ كان الله وليه، وانقطع ذلك
الكافر وبهت إذ كان وليه هو الطاغوت.

وأعلم أنه تعالى ذكرها هنا قصصاً ثلاثاً. الأولى: في بيان إثبات
العالم بالصانع، والثانية والثالثة: في إثبات الحشر والنشر والبعث.
{أَلَمْ تَرَ} أي ألم ينته إلى علمك؟، وهو سؤال مجازي متضمن
معنى التعجب.

{إِلَى الَّذِي حَاجَّ} جادل ومارى وخاصم، وهو النمرود البابلي،
ملك زمانه، صاحب الصرح ببابل، وصاحب النار والبعوضة، وقيل
إنه ملك الدنيا بأجمعها أربعمئة عام، وأنه أول ملك في الأرض،
وأول من وضع التاج على رأسه.. عن مجاهد قال: "ملك الأرض

مؤمنان وكافران، فأما المؤمنان فسلیمان بن داود وذو القرنين، وأما الكافران فنمرود وبختنصر".

{إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ} وكان هذا الحجاج قبل هجرة إبراهيم إلى أرض الشام، وقيل: كانت المحاجة بعد أن خرج من النار التي ألقاه فيها النمرود.

{أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ} تعليل، أي بطرته نعمة الملك الذي آتيته إياه امتحاناً له فكفر وادعى الربوبية.

وقيل وضع المحاجة موضع ما وجب عليه من الشكر لله تعالى على إتيائه الملك، ومنه قوله تعالى: **{وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ}** [الواقعة: ٨٢]

{إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} هذا من إبراهيم عن سؤال سبق من الكافر، وهو أن قال: من ربك؟ وإلا فلا يبدأ كلام بهذا.

واختص إبراهيم من آيات الله بالإحياء والإماتة لأنهما أبداع آيات الله وأشهرها، وأدلها على تمكن القدرة، كما أن هذين الوصفين العظيمين المشاهدين للعالم لا ينفع فيهما حيل الحكماء ولا طب الأطباء.

{قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ} ولم يقل: أنا الذي يحيي ويميت، لأنه كان يدل على «الاختصاص»، وكان الحس يكذبه إذ قد حيي ناس قبل وجوده وماتوا، وإنما أراد أن هذا الوصف الذي ادعيت فيه الاختصاص لربك ليس كذلك، بل أنا مشارك في ذلك.

{قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ} لما خيل الكافر أنه مشارك لرب إبراهيم في الوصف الذي ذكره إبراهيم، ورأى إبراهيم من معارضته ما يدل على ضعف فهمه أو مغالطته، فإنه عارض اللفظ بمثله، ولم يتدبر اختلاف الوصفين، ذكر له ما لا يمكن أن يدعيه، ولا يغالط فيه.

{فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ} انقطع عن الحجة متحيراً مدهوشاً، فأفحم وبان عجزه وظهر كذبه.

{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} فإذا كان الظالم لا يهديه الله، فصاحب العدل حري بأن يهديه الله عز وجل؛ فإن الإنسان الذي يريد الحق ويتبع الحق - والحق هو العدل - غالباً يُهدى، ويوفق للهداية؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في العقيدة الواسطية عبارة من أحسن العبارات؛ قال: "من تدبر القرآن طالباً الهدى منه

تبين له طريق الحق"؛ وهذه كلمة مأخوذة من القرآن منطوقاً، ومفهوماً.

والآية دليل على جواز المجادلة والمناظرة في إثبات العقائد، والقرآن مملوء بذلك، وأما ما نهى عنه من الجدل فهو جدال المكابرة والتعصب وترويج الباطل والخطأ.

{أَوْ كَالَّذِي} أو رأيت مثل الذي؟ **{مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ}** قيل: القرية كانت بيت المقدس لما خربها بختنصر، وقيل: قرية الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف.

{وَهِيَ خَاوِيَةٌ} فارغة من البشر **{عَلَى عُرُوشِهَا}** العروش جمع عرش وهو السقف، والمعنى أنها خاوية ساقطة جدرانها على سقوفها، وذلك أشد الخراب لأن أول ما يسقط من البناء السقف ثم تسقط الجدران على تلك السقف

{قَالَ أَنَّى} اسم استفهام للاستبعاد؛ وسياق الآية يرححه.

{يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا} أي أنه استبعد حسب تصويره أن الله سبحانه وتعالى يعيد إلى هذه القرية ما كان سابقاً، وقال: كيف يحيي الله هذه القرية بعد موتها

{فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ} أي أحياه؛ ولعل قائلًا يقول: إن المتوقع أن يقول: «ثم أحياه» ليقابل {أماته}؛ لكن «البعث» أبلغ؛ لأن «البعث» فيه سرعة؛ ولهذا نقول: انبعث الغبار بالريح، وما أشبه ذلك من الكلمات الدالة على أن الشيء يأتي بسرعة، واندفاع؛ فهذا الرجل بعثه الله بكلمة واحدة؛ قال مثلاً: «كن حياً»، فكان حياً.

{قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ} تذكر أنه نام في أول النهار ووجد الوقت الذي أفاق فيه آخر النهار.

{قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ} وكان سلة من تين **{وَشَرَابِكَ}** كان عصيراً من عنب **{لَمْ يَتَسَنَّهْ}** لم يتغير، وأصله مشتق من السنة لأن مرور السنين يوجب التغير

{وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ} فكان من قوة الكلام انظر إلى ما ذكر جعلناه آية لك على البعث، وجعلناك آية للناس، لأنهم لم يروا طعامه وشرابه وحماره، ولكن رأوا ذاته وتحققوه بصفاته، فقد روي أنه قام شاباً على حالته يوم مات فوجد أولاده وأولادهم شيوخاً.

{وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا} وقرأ جمهور العشرة **{نُنْشِرُهَا}** بالراء، مضارع أنشر، بمعنى الإحياء. وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم والكسائي وخلف: **{نُنْشِزُهَا}** النشز: هو ما ارتفع من الأرض، ومعنى: أنشر الشيء جعله مرتفعاً، ومنه: **{وَإِذَا قِيلَ انْشُرُوا فَانْشُرُوا}** [المجادلة: ١١]، وامرأة ناشز، أي: مرتفعة عن الحالة التي كانت عليها مع الزوج. والمعنى: نرفعها ونجمعها لتكون حماراً كما كانت

{ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا} وتجلت قدرة الله تعالى في عدم تغير الذي جرت العادة أنه يتغير في ظرف يوم واحد، وهو سلة التين وشراب العصير. وفي تغير الذي جرت العادة أنه لا يتغير إلا في عشرات الأعوام، وهو الحمار. كما هي ظاهرة في موت صاحبهما وحياته بعد لبثه على وجه الأرض ميتاً لم يعثر عليه أحد طيلة مائة عام.

{فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}
«القدرة» صفة تقوم بالقادر بحيث يفعل الفعل بلا عجز.

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ} معطوف على قوله: **{أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ}** [البقرة: ٢٥٩]، فهو مثال ثالث لقضية قوله: **{اللَّهُ وَلِيُّ**

الَّذِينَ آمَنُوا { [البقرة: ٢٥٧] ومثال ثاني لقضية {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ}.

وإبراهيم -عليه السلام- هو الأب الثالث للأنبياء؛ فالأول: آدم؛ والثاني: نوح؛ والثالث: إبراهيم، كما قال الله سبحانه وتعالى: {مَلَأْنَا أَرْضَكُمْ إِبْرَاهِيمَ} [الحج: ٧٨]، وقال تعالى في نوح: {وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ} [الصافات: ٧٧]؛ وآدم معلوم أنه أبو البشر: قال الله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ} [الأعراف: ٢٦]

{رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى} سؤال عن حال الإحياء وصورته لا عن وقوعه، فإن إبراهيم لفرط محبته الوصول إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث رام الانتقال من العلم النظري البرهاني، إلى العلم الضروري، فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس.

والمعنى: أي اجعلني أنظر، وأرى بعيني؛ والسؤال هنا عن الكيفية لا عن الإمكان؛ لأن إبراهيم لم يشك في القدرة؛ ولا عن معنى الإحياء؛ لأن معنى الإحياء عنده معلوم؛ لكن أراد أن يعلم الكيفية: كيف يحيي الله الموتى بعد أن أماتهم، وصاروا تراباً وعظاماً.

{قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ} هذا الاستفهام للتقرير؛ وليس للإنكار، ولا للنفي؛ فهو كقوله تعالى: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح: ١]

يعني: قد شرحنا لك؛ فمعنى **{أو لم تؤمن}**: أأنت قد آمنت؛
لتقرير إيمان إبراهيم صلى الله عليه وسلم.

{قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي} أي ليزداد طمأنينة بالمعينة؛ وإلا
فقد كان مطمئناً؛ و«الطمأنينة» هي الاستقرار، كما قال النبي صلى
الله عليه وسلم: (اركع حتى تطمئن راكعاً... اسجد حتى تطمئن
ساجداً)، أي تستقر.

{قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ} وجيء بـ **{من}** للتبويض لدلالة على
أن الأربعة مختلفة الأنواع، والظاهر أن حكمة التعداد والاختلاف
زيادة في التحقق أن الإحياء لم يكن أهون في بعض الأنواع دون
بعض، فلذلك عدت الأنواع، ولعل جعلها أربعة ليكون وضعها
على الجهات الأربعة: المشرق والمغرب والجنوب والشمال لئلا
يظن لبعض الجهات مزيد اختصاص بتأتي الإحياء.

{فَصُرُّهُنَّ إِلَيْكَ} اضممهن إليك، وفائدة الأمر بإدنائها أن يتأمل
أحوالها حتى يعلم بعد إحيائها أنها لم ينتقل جزء منها عن موضعه

{ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْأً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا}
أخذ برأس كل طير على حدة ودعاه فاجتمعت أجزاؤه المفارقة

المختلطة بأجزاء غيره وجاءه يسعى فقدم له رأسه فالتصق به وطار في السماء.

{وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ} غالب لا يمتنع عنه ولا منه شيء أرادته بحال من الأحوال

{حَكِيمٌ} لا يخلق عبثاً ولا يوجد لغير حكمه، ولا يضع شيئاً في غير موضعه اللائق به.

والله سبحانه وتعالى يقرن كثيراً بين هذين الاسمين: «العزیز» و «الحكيم»؛ لأن العزیز من المخلوقين قد تفوته الحكمة لعزته: يرى نفسه عزيزاً غالباً، فيتهور في تصرفاته، ويتصرف بدون حكمة؛ والحكيم من المخلوقين قد لا يكون عزيزاً؛ فإذا اقترنت حكمته بعزة صار له سلطان وقوة، ولم تفتته الأمور؛ فجمع الله لنفسه بين العزة، والحكمة.

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ

عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ
مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ
حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ
بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ
وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)

{مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أي في مرضاة الله،
فلم يبح الله جلّ وعلا صرف المال في كل شيء، بل أباح بعض
الصرف وحرّم بعضه؛ وقال تعالى في الصرف الحرام: {إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً} [الأنفال: ٣٦]

{كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ} وتأمل كيف جمع السنبلة في
هذه الآية على «سنابل» وهي من جموع الكثرة، إذ المقام مقام
تكثير وتضعيف، وجمعها على «سنبلات» في قوله تعالى: {وسبع
سنبلات خضر وأخر يابسات} فجاء بها على جمع القلة لأن
السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير {فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّمَّةٌ حَبَّةٌ} ففي قوله

تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} لم يبين هنا قدر هذه الأضعاف الكثيرة، ولكنه بين في هذا الموضع أنها تبلغ سبعمائة ضعف وتزيد، قال الحسن والسدي: لا يعلم كُنْه التضعيف إلا الله تعالى {وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ} والمضاعفة درجات كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى، لأنها تترتب على أحوال المتصدق، وأحوال المتصدق عليه من: شدة الحاجة وعظيم النفع، وحسن الموقع، وأوقات ذلك وأماكنه. وبالنسبة للمتصدق من: الإخلاص، وقصد الامتثال، ومحبة الخير للناس، والإيثار على النفس وغير ذلك مما يخف بالصدقة والإنفاق، مما له تأثير في تضعيف الأجر، والله واسع عليم.

{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} كل ما يوصل إلى مرضاة الله تعالى {ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا} المن: ذكر الصدقة وتعدادها على من تُصَدَّق بها عليه على وجه التفضل عليه

** وفي صحيح مسلم عن عَنْ أَبِي ذَرٍّ -رضي الله عنه- عَنْ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْمَنَانُ الَّذِي لَا يُعْطَى شَيْئًا إِلَّا مِنْهُ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتُهُ بِالْحَلِفِ الْفَاجِرِ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ)

** وفي سنن النسائي عن سالم بن عبد الله، عن أبيه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ، وَالْدَّيُّوثُ، وَثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: الْعَاقُ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمُدْمِنُ عَلَى الْخَمْرِ، وَالْمَنَانُ بِمَا أُعْطِيَ)

** وفي مسند أحمد عن ابن الأحمسي، قال: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ، فَقُلْتُ لَهُ: بَلَّغْنِي عَنْكَ أَنَّكَ تُحَدِّثُ حَدِيثًا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُ لَا تَخَالِنِي أَكْذِبُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَمَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ، فَمَا الَّذِي بَلَغَكَ عَنِّي؟ قُلْتُ: بَلَّغْنِي أَنَّكَ تَقُولُ: "ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمْ اللَّهُ، وَثَلَاثَةٌ يَسْنُوهُمْ اللَّهُ" قَالَ: قُلْتُ: وَسَمِعْتُهُ. قُلْتُ: فَمَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُحِبُّ اللَّهُ؟ قَالَ: "الرَّجُلُ يَلْقَى الْعَدُوَّ فِي الْفِتَّةِ فَيَنْصِبُ لَهُمْ نَحْرَهُ حَتَّى يُقْتَلَ، أَوْ يُفْتَحَ لِأَصْحَابِهِ، وَالْقَوْمُ يُسَافِرُونَ فَيَطُولُ سُرَاهُمْ حَتَّى يُحِبُّوا أَنْ يَمَسُّوا الْأَرْضَ، فَيَنْزِلُونَ فَيَتَنَحَّى أَحَدُهُمْ، فَيُصَلِّي حَتَّى يُوقِظَهُمْ لِرَحِيلِهِمْ، وَالرَّجُلُ يَكُونُ لَهُ الْجَارُ يُؤْذِيهِ جَوَارُهُ، فَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا مَوْتُ أَوْ ظَعْنٌ" قُلْتُ: وَمَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْنُوهُمْ اللَّهُ؟ قَالَ: "التَّاجِرُ

الْحَلَّافُ، أَوْ قَالَ: الْبَائِعُ الْحَلَّافُ، وَالْبَخِيلُ الْمَنَّانُ، وَالْفَقِيرُ
الْمُخْتَالُ "

فالمعطي قد تولى الله ثوابه ورد عليه أضعاف ما أعطى، فبقي عوض
ما أعطى عند الله، فأى حق بقي له قَبْلَ الآخذ، فإذا امتن عليه فقد
ظلمه ظلماً بيناً.

{وَلَا أَذَى} الأذى: التناول على المتصدق عليه وإذلاله بالكلمة
النايبة أو التي تمس كرامته وتحط من شرفه.

** فالمن والأذى ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه ضر بصاحبه
ولم يحصل له مقصود الإنفاق، ولو أتى بالواو وقال: «ولا يتبعون»
ما أنفقوا منا ولا أذى لأوهمت تقييد ذلك بالحال.

** قال زيد بن أسلم رضي الله عنه: إذا أعطيت أحداً شيئاً وظننت
أن سلامك يثقل عليه فكف سلامك عنه

** وكانوا يقولون إذا اصطنعت صنيعاً فانسوها وإذا أسديت إليكم
صنيعاً فلا تنسوها

{لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} لا
خوف عليهم فيما يستقبلونه من حياتهم، ولا هم يحزنون على ما
يتركون وراءهم ويخلفون.

وفي الآية الأخرى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: ٢٧٤] ذكر الإنفاق بالليل والنهار سرا وعلانية، فذكر عموم الأوقات وعموم الأحوال، فأتى بالفاء في الخبر ليدل على أن الإنفاق في أي وقت وجد من ليل أو نهار، وعلى أي حالة وجد من سر وعلانية، فإنه سبب للجزاء على كل حال، فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله، ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار، ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر، ولا بنفقة السر وقت العلانية، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت سبب لأجره وثوابه.

{قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ} كلام طيب يقال للسائل المحتاج نحو: الله يرزقنا وإياكم {وَمَغْفِرَةٌ} ستر لحالته وعدم فضيحته أو عفو عن سوء خلقه كإلحاحه في المسألة {خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى} فالقول المعروف إحسان وصدقة بالقول، والمغفرة إحسان بترك المؤاخذه والمقابلة، فهما نوعان من أنواع الإحسان، والصدقة المقرونة بالأذى حسنة مقرونة بما ييطلها، ولا ريب أن حسنتين خير من حسنة باطلة.

{وَاللَّهُ غَنِيٌّ} غنى ذاتي لا يفتقر معه إلى شيء أبداً. وإنما الحظ الأوفر لكم في الصدقة فنفعها عائد عليكم لا إليه سبحانه وتعالى **{حَلِيمٌ}** لا يعاجل المنان بالعقوبة بل يعفو ويصفح.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى} وهذا دليل على أن الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ}** [الحجرات: ٢] **{كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ}** كإبطال الذي ينفق **{رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ}** أي مثل هذا المنفق الذي قد بطل ثواب نفقته **{كَمَثَلِ صَفْوَانٍ}** حجر صلد **{عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ}** مطر شديد **{فَتَرَكَهُ صَلْدًا}** أملس **{لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا}** يعجزون عن الانتفاع بشيء من صدقاتهم الباطلة، وهذا من أبلغ الأمثال وأحسنها فإنه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرائي الذي لم يصدر إنفاقه عن إيمان بالله واليوم الآخر بالحجر لشدته وصلاته وعدم الانتفاع به، وتضمن تشبيه ما علق به من أثر الصدقة بالغبار الذي علق بذلك الحجر، والوابل الذي أزال ذلك التراب عن الحجر فأذهبه بالمانع الذي أبطل صدقته وأزالها كما

يذهب الوابل التراب الذي على الحجر فيتركه صلداً، فلا يقدر المنفق على شيء من ثوابه لبطلانه وزواله

** وفيه معنى آخر وهو أن المنفق لغير الله هو في الظاهر عامل عملاً يرتب عليه الأجر ويزكو له كما تزكو الحبة التي إذا بذرت في التراب الطيب أنبتت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة ولكن وراء هذا الإنفاق مانع يمنع من نموه وزكائه كما أن تحت التراب حجراً يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه فلا ينبت ولا يخرج شيئاً.

{وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} إلى ما يسعدهم ويكملهم لأجل كفرانهم بالله تعالى، وهذا التذليل مسوق لتحذير المؤمنين من تسرب أحوال الكافرين إلى أعمالهم فإن من أحوالهم المن على من ينفقون وأذاه.

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيثًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنَّ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ

الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

{وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ} الأمثال تجلي المعنى وتبهج
السامع خاصة كلما كانت أكثر تركيباً {ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ} خالصاً
له وحده لا رياء فيه ولا سمعة {وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ} تحقيقاً وتيقناً
بمثوبة الله تعالى لهم على إنفاقهم في سبيله، قال الشعبي، وقتادة،
والسُّدي: معناه «وتيقناً»، أي: إن نفوسهم لها بصائر متأكدة، فهي
تثبتهم على الإنفاق.

وقيل: أنهم يثبتون من أنفسهم على الإيمان بهذا العمل الذي
هو إخراج المال الذي هو عديل الروح في سبيل الله ابتغاء رضاء،
فإنفاق المال من أعظم ما ترسخ به الطاعة في النفس، لأن المال
ليس أمراً هيناً على النفس وشاق عليها، فهم يعملون لتثبيت النفس
على الإيمان، وما ترجو من الله بهذا العمل الصعب، لأنها إذا ثبتت
على الأمر الصعب انقادت وذلت له.

هذا مثل الذي مصدر نفقته عن الإخلاص والصدق فإن ابتغاء
مرضاته سبحانه هو الإخلاص والتثبيت من النفس هو الصدق في
البذل فإن المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان إن نجا منهما كان مثله

ما ذكره في هذه الآية إحداهما طلبه بنفقته محمداً أو ثناء أو غرضاً من أغراضه الدنيوية وهذا حال أكثر المنفقين والآفة الثانية ضعف نفسه وتقاعسها وترددتها هل يفعل أم لا فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله والآفة الثانية تزول بالتثيت فإن تثيت النفس تشجيعها وتقويتها والإقدام بها على البذل وهذا هو صدقها وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها فإذا كان مصدر الإنفاق عن ذلك كان مثله كجنة.

قال الفخر الرازي: تقرر في الحكمة الخلقية أن تكرر الأفعال هو الذي يوجب حصول الملكة الفاضلة في النفس، بحيث تنساق عقب حصولها إلى الكمالات باختيارها، وبلا كلفة ولا ضجر. فالإيمان يأمر بالصدقة وأفعال البر، والذي يأتي تلك الأمور يثبت نفسه بأخلاق الإيمان، وعلى هذا الوجه تصير الآية تحريضاً على «تكرير الإنفاق».

قال الزمخشري: فإن قلت: فما معنى التبعض؟ قلت: معناه أن من بذل ماله لوجه الله فقد ثبت بعض نفسه، ومن بذل ماله وروحه معاً فهو الذي ثبتها كلها {وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ} [الصف: ١١]

{ كَمَثَلِ جَنَّةٍ } المكان من الأرض ذو شجر كثير بحيث يجن - أي يستر - الكائن فيه، وأكثر ما تطلق الجنة في كلامهم على ذات الشجر المثمر المختلف الأصناف، فأما ما كان مغروسا نخيلا بحثا فإنما يسمى «حائطا».

والمشتهر في بلاد العرب من الشجر المثمر غير النخيل هو الكرم وثمره العنب أشهر الثمار في بلادهم بعد التمر فقد كان الغالب على بلاد اليمن والطائف.

ومن ثمارهم الرمان، فإن كان النخل معها قيل لها جنة، قال تعالى: **{ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ }** [الأنعام: ١٤١] والعريش يكون للكرم

{ بَرْنَوَةٍ } المرتفع من الأرض، وخص البروة لحسن شجرها وزكاء ثمرها، لأن ريع الربا أكثر، ومن السيل والبرد أبعد **{ أَصَابَهَا وَابِلٌ }** مطر شديد **{ فَآتَتْ أَكْثَلَهَا ضِعْفَيْنِ }** فأثمرت ضعفين مما أثمرته غيرها من الجنان، أو ضعفين مما كانت تثمره قبلا.

{ فَإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ } مطر خفيف، يكفيها لجودة تربتها، وحسن موقعها، فهي لا تمحل أبدا، فالندى والمطر اللين الخفيف كافٍ في سقيها وريها حتى تؤتي ثمارها مضاعفاً مرتين.

والمعنى: إن الطل يكفيها وينوب مناب الوابل في إخراج الثمرة ضعفين، وذلك أكرم الأرض وطيبها، فلا تنقص ثمرتها بنقصان المطر.

وقيل: المعنى فإن لم يصبها وابل فيتضاعف ثمرها، وأصابها طل فأخرجت دون ما تخرجه بالوابل، فهي على كل حال لا تخلو من أن تثمر. لأن زرع الطل أضعف من زرع المطر وأقل ريعاً.

قال الزمخشري: مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل، فكما أن كل واحد من المطرين يُضعف أكل الجنة، فكذلك نفقتهم كثيرة، كانت أو قليلة، بعد أن يطلب بها وجه الله ويبذل فيها الوسع، زاكية عند الله، زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده.

وقد يكون المعنى: وكذلك الإنسان الجواد البر إن أصابه خير كثير أغدق ووسع في الإنفاق، وإن أصابه خير قليل أنفق بقدره، فخيره دائم، وبره لا ينقطع.

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} فواعد به المنفقين ابتغاء مرضاته وتثبيتاً من أنفسهم بعظم الأجر وحسن المثوبة، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً، بل يتقبله الله ويكثره وينميه.

والله لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد، من رياء وإخلاص، وفيه وعد ووعد.

{أَيُّودُ أَحَدُكُمْ} استفهام إنكار وتحذير كما في قوله: **{أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا}** [الحجرات: ١٢]، والمعنى على التباعد والنفي، أي: ما يود أحد ذلك؟ .. أيحب أحدكم أيها المنفقون في غير مرضاة الله تعالى بالرياء والمن والأذى.

{أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ} نص على النخيل دون الثمرة، وعلى ثمرة الكرم دون الكرم، وذلك لأن أعظم منافع الكرم هو ثمرته دون أصله، والنخيل كله منافع عظيمة، توازي منفعة ثمرته من خشبه وجريده وليفه وخصوه.

{تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ} هذا يدل على أنه فيه أشجار غير النخيل والكرم **{وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ}** ريح شديد **{فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ}** فهذا مفاجأة الخيبة في حين رجاء المنفعة .. وهكذا الذي ينفق أمواله رياء الناس يخسرها كلها في وقت هو أحوج إليها من حاجة الرجل العجوز وأطفاله الصغار، وذلك يوم القيامة.

روى البخاري عن عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ قَالَ: قَالَ عُمَرُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يَوْمًا لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِيمَ تَرَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ: {أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ} قَالُوا اللَّهُ أَعْلَمُ فَغَضِبَ عُمَرُ فَقَالَ: قُولُوا نَعْلَمُ أَوْ لَا نَعْلَمُ. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي نَفْسِي مِنْهَا شَيْءٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ عُمَرُ: يَا ابْنَ أَخِي قُلْ وَلَا تَخْخِرْ نَفْسَكَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضَرَبْتُ مَثَلًا لِعَمَلٍ. قَالَ عُمَرُ: أَيُّ عَمَلٍ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِعَمَلٍ. قَالَ عُمَرُ: لِرَجُلٍ غَنِيَ يَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ثُمَّ بَعَثَ اللَّهُ لَهُ الشَّيْطَانَ فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَغْرَقَ أَعْمَالَهُ.

{كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ} يمتن تعالى على عباده بما يبين لهم من الآيات في العقائد والعبادات والمعاملات والآداب ليتفكروا فيها فيهدتوا على ضوئها إلى كمالهم وسعادتهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ

وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨)
يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا
كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩) وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ
نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِّنْ
أَنْصَارٍ (٢٧٠)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ} من جيد
أموالكم وأصلحها {وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ} الحبوب والثمار
{وَلَا تَيْمَمُوا} لا تقصدوا {الْخَيْثَ} الرديء {مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ
بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ} وأنتم لو أعطيتموه في حق لكم ما كنتم
لتقبلوه لولا أنكم تغمضوا وتتساهلون في قبوله، وهذا منه تعالى
تأديب لهم وتربية.

{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} الغني الذي لا يحتاج إلى ما
تكثر حاجة غالب الناس إليه، والحميد مبالغة: أي شديد الحمد،
شاكر لمن تصدق صدقة طيبة.

أو محمود في الأرض والسماء، وفي الأولى والأخرى، لما أفاض
ويفيض من النعم على خلقه، أي فتخلقوا بذلك لأن صفات الله

تعالى كمالات، فكونوا أغنياء القلوب عن الشح محمودين على صدقاتكم، ولا تعطوا صدقات تؤذن بالشح ولا تشكرون عليها.

{الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ} أي بخوفكم منه **{وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ}** فينفقون أموالهم في الشر والفساد ويبخلون بها في الخير **{وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا}** أي الرزق الواسع الحسن **{وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}** واسع الفضل العليم بالخلق

{يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ} الحكمة إتقان العلم وإجراء الفعل على وفق ذلك العلم، فلذلك قيل: نزلت الحكمة على ألسنة العرب، وعقول اليونان، وأيدي الصينيين. وهي مشتقة من الحكم - وهو المنع - لأنها تمنع صاحبها من الوقوع في الغلط والضلال، قال تعالى: **{كِتَابٌ أُخْكِمَتْ آيَاتُهُ}** [هود: ١] ومنه سميت الحديدية التي في اللجام وتجعل في فم الفرس: حكمة.

** ومن يشاء الله تعالى إيتاءه الحكمة هو الذي يخلقه مستعدا إلى ذلك، من سلامة عقله واعتدال قواه، حتى يكون قابلا لفهم الحقائق منقادا إلى الحق إذا لاح له، لا يصدده عن ذلك هوى ولا عصبية ولا مكابرة ولا أنفة، ثم ييسر له ذلك من حضور الدعاة

وسلامة البقعة من العتاة، فإذا انضم إلى ذلك توجهه إلى الله بأن يزيد أسبابه تيسيراً ويمنع عنه ما يحجب الفهم فقد كمل له التيسير.

{وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا} فليطلب العاقل

الحكمة قبل طلب الدنيا، هذه تذكرة **{وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ}**

قال الفخر الرازي: "نبه على أن الأمر الذي لأجله وجب

ترجيح وعد الرحمن على وعد الشيطان هو أن وعد الرحمن ترجحه

الحكمة والعقل، ووعد الشيطان ترجحه الشهوة والحس من حيث

إنهما يأمران بتحصيل اللذة الحاضرة، ولا شك أن حكم الحكمة

هو الحكم الصادق المبرأ عن الزيغ، وحكم الحس والشهوة يوقع

في البلاء والمحنة. فتعقيب قوله: **{وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً}**

[البقرة: ٢٦٨] بقوله: **{يُؤْتِي الْحِكْمَةَ}** إشارة إلى أن ما وعد به

تعالى من المغفرة والفضل من الحكمة، وأن الحكمة كلها من عطاء

الله تعالى، وأن الله تعالى يعطيها من يشاء.

{وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ نَّفَقَةٍ} يريد قليلة أو كثيرة من الجيد أو الرديء

{أَوْ نَذَرْتُمْ مِّنْ نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ} فما كان مبتغى به وجه الله ومن

جيد المال فسوف يكفر به السيئات ويرفع به الدرجات، وما كان

رديئاً ونذيراً لغير الله تعالى فإن أهله ظالمون وسيُغرَمون أجر نفقاتهم

وندورهم لغير الله ولا يجدون من يشبههم على شيء منها لأنهم ظالمون فيها حيث وضعوها في غير موضعها {وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ}.

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْافًا وَمَا يُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)

{إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ} أي نعم الشيء هي، وهذا مع الآداب الأخرى كالسلامة من الرياء والمن والأذى وتحري الخبيث.

{وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ} عطف إيتاء الفقراء على الإخفاء المجعول شرطاً للخيرية في الآية -مع العلم بأن الصدقة للفقراء- يؤذن بأن الخيرية لإخفاء حال الفقير وعدم إظهار اليد العليا عليه، أي فهو إيماء إلى العلة وأنها الإبقاء على ماء وجه الفقير، وهو القول الفصل لانتفاء شائبة الرياء.

{فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} وقد جعل -صلى الله عليه وسلم- من السبعة الذين يظلمهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله (رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه)، يعني من شدة القرب بين اليمين والشمال، لأن حساب الدراهم ومناولة الأشياء بتعاونهما، فلو كانت الشمال من ذوات العلم لما اطلعت على ما أنفقته اليمين.

وفيه دلالة على أن إخفاء الصدقات مطلقاً أولى، وأنها حق الفقير، وأنه يجوز لرب المال أن يفرقها بنفسه، على ما هو أحد قولي الشافعي.

وعلى القول الآخر، ذكروا أن المراد بالصدقات هاهنا، هو التطوع بعد الفرض الذي إظهاره أولى، لئلا تلحقه تهمة، ولأجل ذلك قيل: صلاة النفل فرادى أفضل، والجماعة في الفرض أولى، لأن إظهار الفرض أبعد عن التهمة.

قال ابن عباس -رضي الله عنهما- صدقات السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفاً، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً.

وقال الزجاج: كان إخفاء الزكاة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن، فأما اليوم فالناس مسيئون الظن بإظهارها أفضل.

وقال ابن العربي: ليس في تفضيل صدقة السرّ على العلانية، ولا صدقة العلانية على صدقة السر، حديث صحيح.

وظاهر الآية: أن إخفاء الصدقات على الإطلاق أفضل، سواء كانت فرضاً أو نفلاً، وإنما كان ذلك أفضل لبعدها عن المتصدق فيها عن الرياء والمن والأذى، ولو لم يعلم الفقير بنفسه، وأخفى عنه الصدقة أن يعرف، كان أحسن وأجمل بخلوص النية في ذلك.

قال بعض الحكماء: إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا اصطنع إليك فانشره.

وقال العباس بن عبد المطلب: لا يتم المعروف إلا بثلاث خصال: تعجيله، وتصغيره في نفسك، وستره. فإذا عجلته هنيئته، وإذا صغره عظمته، وإذا سترته أتممته.

{وَيُكْفِّرُ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ} وفي الحديث: (تصدقوا ولو بتمرة، فإنها تسد من الجائع، وتطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار) [صحيح الجامع: ٢٩٥١]

{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} ختم الله بهذه الصفة لأنها تدل على العلم بما لطف من الأشياء وخفي، فناسب ختمها بالصفة المتعلقة بما خفي.

وإخباره إيانا بذلك يستلزم أن نخشى من خبرته عز وجل فلا يفقدنا حيث أمرنا، ولا يرانا حيث نهانا.

{لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ} خلق الهدى في قلوبهم، وفي ذلك تسلية له -صلى الله عليه وسلم-، ولينبه على أنهم وإن لم يكونوا مهتدين، تجوز الصدقة عليهم. وقيل: ليس عليك أن تلجئهم إلى الهدى بواسطة أن تقف صدقتك على إيمانهم.

{وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} وهذا كالأستدراك لما سبق؛ أي لما نفى كون هدايتهم على الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين أن ذلك إلى الله عز وجل وحده؛ فيهدي من يشاء ممن اقتضت حكمته هدايته.

{وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ} تأكيد على أن أعمال الإنسان لا تنصرف إلى غيره، لكن ليس في الآية دليل على منع أن يتصدق الإنسان بعمله على غيره؛ ولكنها تبين أن ما عمله الإنسان فهو حق له؛ ولهذا جاءت السنة صريحة بجواز الصدقة عن الميت، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري في قصة الرجل الذي قال: «يا رسول الله، إن أُمي أفُتلتت نفسها [أراد اختلست نفسها وماتت فجأة] وأراها لو تكلمت تصدقت أفأُتصدق عنها؟ قال: نعم تصدق عنها»

{فَلأنفُسِكُمْ} حكي عن بعض أهل العلم أنه كان يصنع كثيراً من المعروف، ثم يحلف أنه ما فعل مع أحد خيراً قط، ف قيل له في ذلك، فقال: "إنما فعلت مع نفسي"، ويتلو هذه الآية.

{وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ} وما تنفقون النفقة المعتد لكم قبولها إلا ما كان إنفاقه لا ابتغاء وجه الله.

{وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} أي: تعطونه

وافياً من غير نقص؛ بل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

فقطع عذرهم في عدم الإنفاق، إذ الذي ينفقونه هو لهم حيث يكونون محتاجين إليه، فيوفون كاملاً موفراً، فينبغي أن يكون إنفاقهم على أحسن الوجوه وأفضلها.

وظاهر سياق الآية، تعلق الكلام بما تقدم من قوله: **{إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ}**، فدل المساق والمتقدم، على أن المراد به الصدقة عليهم، وإن لم يكونوا على دين الإسلام... والمراد بالكفار الذين يختلطون بالمسلمين غير مؤذنين لهم وهم أهل العهد وأهل الذمة والجيران.

قال يزيد بن أبي حبيب: نزلت في الصدقة على اليهود والنصارى.

ونظير ذلك قوله تعالى: **{وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا، وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}** [الإنسان: ٨] والأسير في دار الإسلام لا يكون إلا مشركاً.

ونظيره قوله: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} [الممتحنة: ٨]

وظواهر هذه الآيات تقتضي جواز صرف الصدقات إليهم جملة، إلا أن النبي عليه السلام، خص من ذلك الزكوات المفروضة. فاتفق العلماء أن زكوات الأموال، لا تصرف إليهم، لقوله -صلى الله عليه وسلم- لمعاذ: (خذ الصدقة من أغنيائهم وردها في فقرائهم)

وحكمة ذلك أنها إنما فرضت لإقامة أود المسلمين ومواساتهم، فهي مال الجامعة الإسلامية يؤخذ بمقادير معينة، ففيه غنى للمسلمين، بخلاف ما يعطيه المرء عن طيب نفس لأجل الرأفة والشفقة.

ورأى أبو حنيفة، أن غير زكاة المال يجوز صرفها إليهم، مثل صدقة الفطر، نظراً إلى عموم الآية، في البر وإطعام الطعام وإطلاق الصدقات.

ورأى الشافعي ومعه الجمهور أن الصدقات الواجبة بجملتها مخصوصة منها، لقوله عليه السلام في صدقة الفطر: (اغنوهم عن

الطلب في هذا اليوم). وظاهر أن ذلك كان لتشاغلهم بالعيد وصلاة العيد، وهذا لا يتحقق في المشركين.

{لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ} عيقوا عن أعمالهم لأجل سبيل الله وهو الهجرة أو الجهاد أو أشباهه.

{لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ} عاجزون عن التجارة لقلة ذات اليد أو سائر العمل لعاهة أو قلة حيلة.

{يَخْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ} أي الجاهل بحالهم، وفيه التنبيه على أنه ينبغي للإنسان أن يكون فطناً ذا حزم، ودقة نظر؛ لأن الله وصف هذا الذي لا يعلم عن حال هؤلاء بأنه جاهل؛ فينبغي للإنسان أن يكون ذا فطنة، وحزم، ونظر في الأمور.

{أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ} تكلف العفاف، وهو النزاهة عما يليق. أي بسبب تعففهم عن السؤال، وإظهار المسكنة؛ فإذا رأيتهم ظننتهم أغنياء مع أنهم فقراء.

روى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: (لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللَّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ

الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلَا يُفْطِنُ بِهِ فَيَتَصَدَّقْ عَلَيْهِ وَلَا يَقُومُ
فَيَسْأَلُ النَّاسَ)

وفي البخاري أيضا: باب الاستعفاف عن المسألة، أخرج فيه
حديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- إِنَّ نَاسًا مِنْ
الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ
سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ مَا يَكُونُ
عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ وَمَنْ يَسْتَغْفِرْ يُعْفِهِ اللَّهُ وَمَنْ
يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا
وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ.

{تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ} أي بعلامة الحاجة: رثاة أثوابهم، وصفرة
وجوههم، والسيما هي العلامة التي لا يطلع عليها إلا ذوو الفراسة؛
وكم من إنسان سليم القلب ليس عنده فراسة، ولا بُعد نظر يخدع
بأدنى سبب؛ وكم من إنسان عنده قوة فراسة، وحزم، ونظر في
العواقب يحميه الله سبحانه وتعالى بفراسته عن أشياء كثيرة. كما
قال الله عز وجل: **{وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}** [محمد: ٣٠].

{لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا} إن وقع منهم سؤال، فإنما يكون
بتلطف وتستر لا بالاحاح، ومن خصائص الإسلام في هذا الباب أنه

كما أدب الأغنياء في طريقة الإنفاق فقد أدب الفقراء في طريقة الأخذ، ففيه تعريض بالملحفين في السؤال.

وقد كان من جملة ما بايع النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعض أصحابه [منهم ثوبان]: ألا يسألوا الناس شيئاً؛ حتى إن الرجل ليسقط سوطه من على بعيه، فينزل، فيأخذه ولا يقول لأخيه: أعطني إياه؛ كل هذا بعداً عن سؤال الناس.

{وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ} أعيد التحريض على الإنفاق فذكر مرة رابعة **{فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}** كناية عن الجزاء عليه لأن العلم يكنى به عن أثره كثيراً، أي فهو لا يضيع أجره إذ لا يمنعه منه مانع بعد كونه عليماً به، لأنه قدير عليه.

وقد حصل بمجموع هذه المرات الأربع من التحريض ما أفاد شدة فضل الإنفاق بأنه نفع للمنفق، وصلة بينه وبين ربه، ونوال الجزاء من الله، وأنه ثابت له في علم الله.

{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً} جملة مستأنفة تفيد تعميم أحوال فضائل الإنفاق بعد أن خصص الكلام بالإنفاق.. فهم يعملون الأوقات والأحوال بالصدقة لحرصهم على

الخير، وتقديم الليل على النهار، والسر على العلانية يدل على تلك أفضلية صدقة السر.

{فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}

وهذا بشارة للمنفقين بطيب العيش في الدنيا فلا يخافون اعتداء المعتدين لأن الله أكسبهم محبة الناس إياهم، ولا تحل بهم المصائب المحزنة إلا ما لا يسلم منه أحد مما هو معتاد في إبانة. وفيه أيضا أن الإنفاق يكون سبباً لشرح الصدر، وطردهم والغم.

أما انتفاء الخوف والحزن عنهم في الآخرة فقد علم من قوله: **{فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ}**.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {٢٧٥} يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلِ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ {٢٧٦}

لما حث الله تعالى على الصدقات وواعد عليها بعظيم الأجر ومضاعفة الثواب، ذكر المرابين الذين يضاعفون مكاسبهم المالية بالربا وهم بذلك يسدّون طرق البر.

{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا} الربا في اللغة هو الزيادة، والمعنى: يأخذونه ويتصرفون فيه بالأكل في بطونهم، وبغير الأكل، وإنما خص الأكل لأنه أعظم منافع المال .. والأكل في الحقيقة ابتلاع الطعام، ثم أطلق على الانتفاع بالشيء وأخذه بحرص، وأصله تمثيل، ثم صار حقيقة عرفية فقالوا: «أكل مال الناس» قال تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى}** [النساء: ١٠]

قال الطبري: فإن قال لنا قائل: أفرأيت من عمل ما نهى الله عنه من الربا في تجارته ولم يأكله، أيستحقّ هذا الوعيد من الله؟ قيل: نعم، وليس المقصود من الربا في هذه الآية الأكل، إلا أن الذين نزلت فيهم هذه الآيات يوم نزلت، كانت طُعْمَتُهُمْ ومَأْكُلُهُمْ من الربا، فذكرهم بصفته، معظّمًا بذلك عليهم أمر الربا، ومقبّحًا إليهم الحال التي هم عليها في مطاعمهم وفي قوله جل ثناؤه: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}** [البقرة: ٢٧٨ -

[٢٧٩]، ما ينبئ عن صحة ما قلنا في ذلك، وأنّ التحريم من الله في ذلك كان لكل معاني الربا، وأنّ سواءً العملُ به وأكله وأخذه وإعطائه، كالذي تظاهرت به الأخبار عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من قوله: (لعن الله آكلَ الربا، ومُؤْكَله، وكاتبه، وشاهديه إذا علموا به). أه

وروى مسلم عن جابر -رضي الله عنه- قال: لعنَ رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- آكلَ الربا ومُؤْكَله وكاتبه وشاهديه وقال هم سواءٌ.

وقال الشوكاني: اختصاص هذا الوعيد بمن يأكله، بل هو عام لكل من يعامل بالربا، فيأخذه، ويعطيه، وإنما خص الأكل؛ لزيادة التشنيع على فاعله، ولكونه هو الغرض الأهم، فإن أخذ الربا إنما أخذه للأكل.

روى البخاري عن سمرّة بن جندب -رضي الله عنه-، قال: كان رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- ممّا يُكثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: (هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا) قَالَ: فَيَقْصُرُ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقْصُرَ، وَإِنَّهُ قَالَ ذَاتَ غَدَاةٍ: (إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالَا لِي انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا .. فَانْطَلَقْنَا،

فَاتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ -حَسِبْتُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ- أَحْمَرَ مِثْلِ الدَّمِ، وَإِذَا فِي
النَّهْرِ رَجُلٌ سَابِحٌ يَسْبَحُ، وَإِذَا عَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ
حِجَارَةً كَثِيرَةً، وَإِذَا ذَلِكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ مَا يَسْبَحُ، ثُمَّ يَأْتِي ذَلِكَ
الَّذِي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الْحِجَارَةَ، فَيَفْغَرُ لَهُ فَاهُ فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا فَيَنْطَلِقُ
يَسْبَحُ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ كُلَّمَا رَجَعَ إِلَيْهِ فَغَرَ لَهُ فَاهُ فَأُلْقِمَهُ حَجَرًا ..
(وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهْرِ وَيُلْقِمُ الْحَجَرَ، فَإِنَّهُ
أَكَلُ الرَّبَا)

والربا في اصطلاح الشرع على قسمين: ربا الفضل وربا النِّسَاءِ

أو النسيئة.

فأما ربا الفضل فهو التفاضل بين الطعامين أو النقدين في
المبادلة من الجنس الواحد، فإن اختلفت الأجناس فلا حرج.
وأما ربا النساء فهو بيع الطعامين أو النقدين بعهما ببعض
بالتأخير، وهذا حرام ولو اختلفت الأجناس.

ومن صورته أن يكون لك على المرء دين فإذا حل أجله ولم يقدر
على تسديده تقول له: «أخر وزد» فتؤخره أجلا وتزيد في رأس
المال قدراً معيناً، وكان هذا هو المشهور في ربا الجاهلية، والظاهر
أنهم كانوا يأخذون الربا على المدين من وقت إسلافه، وكلما طلب

النظرة أعطى ربا آخر، وكان العباس بن عبد المطلب مشتهراً
بالمراعاة في الجاهلية، وجاء في خطبة حجة الوداع: (ألا وإن ربا
الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي عباس بن عبد
المطلب)

والعمل به اليوم في البنوك الربوة فيسلفون المرء مبلغاً إلى أجل
ويزيدون قدراً آخر نحو العشر أو أكثر أو أقل.

{لَا يَقُومُونَ} من قبورهم يوم القيامة **{إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي**
يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ} يضربه الشيطان ضرباً غير منتظم عشوائياً **{مِّنَ**
الْمَسِّ} الجنون أو الصرع، وأصله من المس باليد، كأن الشيطان
يمس الإنسان فيجنه، فيقومون من قبورهم في البعث يوم القيامة
كالمجانين، علامة يعرفون بها يوم القيامة، كما يعرفون بانتفاخ
بطونهم وكأنها خيمة مضروبة بين أيديهم.

وقد أثر في حديث الإسراء أن رسول الله -صلى الله عليه
وسلم- رأى أكلة الربا، كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم،
وذكر حالهم أنهم إذا قاموا تميل بهم بطونهم فيصرعون، وفي طريق
أنه رأى بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم.

القول الثاني: إنهم لا يقومون عند التعامل بالربا إلا كما يقوم المصروع؛ لأنهم -والعياذ بالله- لشدة شغفهم بالربا كأنما يتصرفون تصرف المتخبط الذي لا يشعر؛ لأنهم سكارى بمحبة الربا، وسكارى بما يربحونه وهم الخاسرون؛ فيكون القيام هنا في الدنيا؛ شبه تصرفاتهم العشوائية الجنونية المبنية على الربا العظيم الذي يتضخم المال من أجل الربا بالإنسان المصروع الذي لا يعرف كيف يتصرف؛ وهذا قول كثير من المتأخرين؛ وقالوا: إن يوم القيامة هنا ليس له ذكر؛ ولكن الله شبه حالهم حين طلبهم الربا بحال المصروع من سوء التصرف؛ وكلما كان الإنسان أشد فقراً كانوا له أشد ظلماً؛ فيكثرون عليه الظلم لفقره؛ بينما حاله تقتضي الرأفة والتخفيف؛ لكن هؤلاء ظلمة ليس همهم إلا أكل أموال الناس.

{ذَلِكَ} أي أصابهم ذلك الخزي والعذاب والجنون بسبب **{بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا}** كابروا فألحقوا الربا بالبيع؛ وعكسوا التشبيه، فقالوا: إنما البيع مثل الربا، ولم يقولوا: «إنما الربا مثل البيع».. مبالغة أهل الباطل في ترويح باطلهم؛ لأنهم جعلوا المقيس هو المقيس عليه.. فعلى زعمهم: الربا الزيادة في نهاية الأجل، والبيع في أوله.

ورد تعالى عليهم فقال: **{وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}** وفي هذه الآية دلالة على أن القياس في مقابلة النص لا يصح، إذ جعل الدليل في إبطال قولهم هو: أن الله أحل البيع وحرم الربا. فهو إعراض عن مجادلتهم إذ لا جدوى فيها لأنهم قالوا ذلك كفرا ونفاقا، فليسوا ممن تشملهم أحكام الإسلام. وهو إقناع للمسلمين بأن ما قاله الكفار هو شبهة محضة وأن الله العليم قد حرم هذا وأباح ذاك، وما ذلك إلا لحكمة وفروق معتبرة لو تدبرها أهل التدبر لأدركوا الفرق بين البيع والربا، وليس في هذا الجواب كشف للشبهة فهو مما وكله الله تعالى لمعرفة أهل العلم من المؤمنين.

قال أهل العلم: قياسهم فاسد، لأن الزيادة في البيع هي في قيمة سلعة تغلوا وترخص وقد تفسد، وتعاطي الربا يمنع الناس من اقتحام مشاق الاشتغال في الاكتساب، لأنه إذا تعود صاحب المال أخذ الربا خف عنه اكتساب المعيشة، فإذا فشا في الناس أفضى إلى انقطاع منافع الخلق لأن مصلحة العالم لا تنتظم إلا بالتجارة والصناعة والعمارة. كما أن الربا يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس بالقرض الحسن، لأن فيه نوعا من الاستغلال.

ثم اختلف علماء الإسلام في أن لفظ الربا في الآية باق على معناه المعروف في اللغة، أو هو منقول إلى معنى جديد في اصطلاح الشرع.

فذهب ابن عباس وابن عمر ومعاوية إلى أنه باق معناه المعروف وهو ربا الجاهلية، أعني الزيادة لأجل التأخير، وتمسك ابن عباس بحديث أسامة: (إنما الربا في النسيئة) ولم يأخذ بما ورد في إثبات ربا الفضل بدون نسيئة، فروى مسلم عن أبي صالح قال سَمِعْتُ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يَقُولُ: "الدِّينَارُ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَمُ بِالدِّرْهَمِ مِثْلًا بِمِثْلِ مَنْ زَادَ أَوْ أَزْدَادَ فَقَدْ أَرْبَى" فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ غَيْرَ هَذَا، فَقَالَ: لَقَدْ لَقِيتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي تَقُولُ أَشَيْءٌ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَوْ وَجَدْتَهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فَقَالَ لَمْ أَسْمَعْهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَلَمْ أَجِدْهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَكِنْ حَدَّثَنِي أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: (الرَّبَا فِي النَّسِيئَةِ).

ومراد النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بجواز الفضل ومنع النسيئة، إنما هو في جنسين مختلفين، بدليل الروايات الصحيحة

المصرحة بأن ذلك هو محل جواز التفاضل، وأنه في الجنس الواحد ممنوع.

ويدل له رواية عن أبي المنهال، قال: "سألت البراء بن عازب وزيد بن أرقم عن الصرف فكلاهما يقول: نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن بيع الذهب بالورق دينا"، رواه البخاري ومسلم، وهذا لفظ البخاري ومسلم بمعناه. وفي لفظ مسلم عن بيع الورق بالذهب دينا، فهو يبين أن المراد صرف الجنس بجنس آخر.

وأما جمهور العلماء فذهبوا إلى أن الربا منقول في عرف الشرع إلى معنى جديد كما دلت عليه أحاديث كثيرة، وإلى هذا نحا عمر بن الخطاب وعائشة وأبو سعيد الخدري وعبادة بن الصامت، بل رأى عمر أن لفظ الربا نقل إلى معنى جديد ولم يبين جميع المراد منه فكأنه عنده مما يشبه المجمل، فقد حكى عنه ابن رشد في المقدمات أنه قال: "كان من آخر ما أنزل الله على رسوله آية الربا فتوفي رسول الله ولم يفسرها، وإنكم ترعمون أنا نعلم أبواب الربا، ولأن أكون أعلمه أحب إلي من أن يكون لي مثل مصر وكورها" قال ابن رشد: ولم يرد عمر بذلك أن الرسول -صلى الله عليه وسلم-

لم يفسر آية الربا، وإنما أراد -والله أعلم- أنه لم يعم وجوه الربا بالنص عليها. وقال ابن العربي: بين رسول الله -صلى الله عليه وسلم- معنى الربا في ستة وخمسين حديثاً.

وقال ابن عاشور: والوجه عندي أن ليس مراد عمر أن لفظ الربا مجمل لأنه قابله بالبيان وبالتفسير، بل أراد أن تحقيق حكمه في صور البيوع الكثيرة لم يعمه النبي -صلى الله عليه وسلم- بالتصيص.

والذي حمل الجمهور على اعتبار لفظ الربا مستعملاً في معنى جديد أحاديث وردت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من قول أو فعل دلت على تفسير الربا بما هو أعم من ربا الجاهلية المعروف عندهم قبل الإسلام، وأصولها ستة أحاديث:

١ / الحديث الأول: روى مسلم من حديث أبي سعيد الخدري: (الذَّهَبُ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةُ بِالْفِضَّةِ وَالْبُرُّ بِالْبُرِّ وَالشَّعِيرُ بِالشَّعِيرِ وَالتَّمْرُ بِالتَّمْرِ وَالْمِلْحُ بِالْمِلْحِ مِثْلًا بِمِثْلٍ يَدًا بِيَدٍ فَمَنْ زَادَ أَوْ اسْتَزَادَ فَقَدْ أَرَبَى الْآخِذُ وَالْمُعْطَى فِيهِ سَوَاءٌ).

٢ / الثاني حديث رواه النسائي أَنَّ عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ قَامَ خَطِيبًا فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ قَدْ أَحْدَثْتُمْ بَيْوعًا لَا أَدْرِي مَا هِيَ إِلَّا إِنَّ

الذَّهَبَ بِالذَّهَبِ وَزَنًا بِوَزْنٍ تَبْرُهَا وَعَيْنُهَا وَإِنَّ الْفِضَّةَ بِالْفِضَّةِ وَزَنًا بِوَزْنٍ تَبْرُهَا وَعَيْنُهَا وَلَا بِأَسَ بَيْعِ الْفِضَّةِ بِالذَّهَبِ يَدًا بِيَدٍ وَالْفِضَّةُ أَكْثَرُهُمَا وَلَا تَصْلُحُ النَّسِئَةُ، فسماه في هذين الحديثين ربا.

٣ / الثالث رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه قال: جاء بلالٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتمرٍ برنيٍّ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم من أين هذا قال بلالٌ كان عندنا تمرٌ رديٌّ فبعتُ منه صاعين بصاعٍ لنطعم النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك أَوْه أَوْه عَيْنُ الرَّبَا عَيْنُ الرَّبَا لَا تَفْعَلْ وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ فَبِعِ التَّمْرَ بِبَيْعِ آخَرَ ثُمَّ اشْتَرِهِ فسمى التفاضل ربا.

٤ / الرابع حديث "الموطأ" و "البخاري" من حديث أبي سعيد الخُدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا عَلَى خَيْبَرَ فَجَاءَهُ بِتَمْرٍ جَنِيبٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكُلْتُ تَمْرَ خَيْبَرَ هَكَذَا قَالَ لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لَنَأْخُذُ الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعَيْنِ وَالصَّاعَيْنِ بِالثَّلَاثَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لَا تَفْعَلْ بَعِ الْجَمْعَ بِالذَّرَاهِمِ ثُمَّ ابْتَغِ بِالذَّرَاهِمِ جَنِيبًا).

٥ / الخامس رواه البخاري من حديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "لَمَّا نَزَلَتْ الْآيَاتُ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي الرَّبَا قَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ حَرَّمَ التَّجَارَةَ فِي الْخَمْرِ" فظاهره أن تحريم التجارة في الخمر كان عملاً بآية النهي عن الربا، وليس في تجارة الخمر معنى من معاني الربا المعروف عندهم وإنما هو بيع فاسد.

٦ / السادس حديث الدارقطني -ورواه ابن وهب عن مالك- أن الْعَالِيَةَ بِنْتُ أَيْفَعَ وَفَدَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ مِنَ الْكُوفَةِ، فَلَقِيَتْ عَائِشَةَ فَأَخْبَرَتْهَا أَنَّهَا بَاعَتْ مِنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمٍ فِي الْكُوفَةِ جَارِيَةً بِثَمَانِمِائَةِ دِرْهَمٍ إِلَى الْعَطَاءِ [أَي نَسِئَةٍ]، ثُمَّ إِنَّ زَيْدًا بَاعَ الْجَارِيَةَ فَاشْتَرَاهَا الْعَالِيَةُ مِنْهُ بِسِتْمِائَةِ نَقْدًا، فَقَالَتْ لَهَا عَائِشَةُ: "بِئْسَ مَا شَرَيْتِ وَمَا اشْتَرَيْتِ"، أَبْلَغِي زَيْدًا أَنَّهُ قَدْ أَبْطَلَ جِهَادَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ"، قَالَتْ فَقُلْتُ لَهَا: "أَرَأَيْتِ إِنْ لَمْ آخِذْ مِنْهُ إِلَّا رَأْسَ مَالِي" قَالَتْ: "{فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ} فَجَعَلَتْهُ عَائِشَةُ مِنَ الرَّبَا وَلِذَلِكَ تَلَتْ الْآيَةَ.

{فَمَنْ جَاءَهُ} والمجيء بمعنى العلم والبلاغ، أي من علم هذا الوعيد **{مَوْعِظَةٌ}** أمر أو نهى **{مَنْ رَبَّهُ}** في ذكر الرب تأنيس لقبول

الموعظة. إذ الرب فيه إشعار بإصلاح عبده، **{فَانْتَهَى}** فانتهى تبع النهي، ورجع عن المعاملة بالربا، أو عن كل محرم من الاكتساب **{فَلَهُ مَا سَلَفَ}** ليس عليه أن يرد الأموال التي سبقت توبته **{وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ}** وهو بمعنى التأنيس له وبسط أمله في الخير.

وقيل: يعود على ذي الربا، أي: في أن يشته على الانتهاء، أو يعيده إلى المعصية.

والمعنى: وأمره بعد ذلك إلى الله إن شاء ثبته على التوبة فنجاه، وإن شاء خذله لسوء عمله، وفساد نيّته فأهلكه وأرداه وهذا معنى قوله تعالى **{وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}** أي عاد إلى استحلال الربا، فأكل الربا لا يكفر إلا إذا استحلّه، فإن كثيرا منهم قد شق عليهم ترك التعامل بالربا، فعلم الله منهم ذلك وجعل عدم إقلاعهم عنه أمانة على كذب إيمانهم، فالخلود على حقيقته.

وقال البعض: والخلود طول المكث، وتمسك بظاهر هذه الآية ونحوها الخوارج القائلون بتكفير مرتكب الكبيرة كما تمسكوا بنظائرها. وغفلوا عن تغليظ وعيد الله تعالى في وقت نزول القرآن،

إذ الناس يومئذ قريب عهدهم بكفر. ولا بد من الجمع بين أدلة الكتاب والسنة.

{يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا} استئناف لبيان سوء عاقبة الربا في الدنيا بعد أن بينت عاقبته في الآخرة **{يَمْحَقُ}** المحق: الإزالة، أي يذهب شيئاً فشيئاً حتى لا يبقى منه شيء كمحاق القمر آخر الشهر، وعن ابن مسعود: "الربا وإن كثر، فعاقبته إلى قل"

وممكن تكون إزالة معنوية بعدم البركة فيه

{وَيُرِي الصَّدَقَاتِ} يبارك في المالك الذي أخرجت منه، والإرباء حقيقة هو أنه يزيدها وينميها في الدنيا بالبركة، وكثرة الأرباح في المال الذي خرجت منه الصدقة.

وقيل: الزيادة معنوية، وهي تضاعف الحسنات والأجور الحاصلة بالصدقة، كما جاء في كثير من الآيات والأحاديث.

فقد رُوي عنه -عليه الصلاة والسلام- أنه قال: (ما نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ) (وأنه يُربي الصدقة حتى تكونَ مثلَ الجبل) قال يحيى بن معاذ: "ما أعرفُ حبةً ترن جبال الدنيا إلا الحبة من الصدقة".

{وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ} شديد الكفر، يكفر بكل حق وعدل وخير **{أَثِيمٍ}** منغمس في الذنوب لا يترك كبيرة ولا صغيرة إلا ارتكابها.

فيه تغليب أمر الربا، وإيدان أنه من فعل الكفار لا من فعل أهل الإسلام، وأتى بصيغة المبالغة في الكافر والآثم، وإن كان تعالى لا يحب الكافر، تنبيهاً على عظم أمر الربا ومخالفة الله.

وفيه أيضاً إثبات المحبة لله عز وجل، لأن نفي المحبة عن الموصوف بالكفر والآثم يدل على إثباتها لمن لم يتصف بذلك - أي لمن كان مؤمناً مطيعاً؛ ولولا ذلك لكان نفي المحبة عن «الكفار الأثيم» لغواً من القول لا فائدة منه؛ ولهذا استدل الشافعي - رحمه الله - بقوله تعالى: **{كَأَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ}** [المطففين: ١٥] على أن الأبرار يرون الله عز وجل؛ لأنه لما حجب الفجار عن رؤيته في حال الغضب دل على ثبوتها للأبرار في حال الرضا؛ وهذا استدلال خفي جيد

والمحبة الثابتة لله عز وجل هي محبة حقيقية تليق بجلاله، وعظمته؛ وليست - كما قال أهل التعطيل - إرادة الثواب، أو الثواب؛ لأن إرادة الثواب ناشئة عن المحبة؛ وليست هي المحبة؛

وهذه القاعدة -أعني إجراء النصوص على ظاهرها في باب صفات الله- اتفق عليها علماء السلف، وأهل السنة والجماعة؛ لأن ما يتحدث الله به عن نفسه أمور غيبية يجب علينا الاقتصار فيها على ما ورد.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا
الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا
بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا
فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ
أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو
عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ
تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا
الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما ذكر حال آكل الربا، وحال من عاد بعد مجيء الموعظة، وأنه كافر أثيم، ذكر ضد هؤلاء ليعين فرق ما بين الحالين، فهي جملة معترضة لمقابلة الدم بالمدح.

والمعنى: إن الذين تابوا من أكل الربا وآمنوا بما أنزل عليهم، وانتهوا عما نهوا عنه وعملوا الصالحات {لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا} إفشاء إلى التشريع بعد أن قدم أمامه من الموعظة ما هيأ النفوس إليه.

ومن فوائد الآية: أنه لا يجوز تنفيذ العقود المحرمة في الإسلام - وإن عقدت في حال الشرك؛ لعموم قوله تعالى: {وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا}، ولقول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في خطبته في عرفة عام حجة الوداع: (وَرَبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رَبَا أَضَعُهُ رَبَانَا رَبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ) [أبو داود]؛ ولكن يجب أن نعلم أن العقود التي مضت في الكفر على وجه باطل، وزال سبب البطلان قبل الإسلام، فإنها تبقى على ما كانت عليه؛ مثال ذلك: لو تباع رجلان حال كفرهما بيعاً محرماً في الإسلام، ثم أسلما فالعقد يبقى بحاله؛ ومثال آخر: لو تزوج الكافر

امرأة في عدتها، ثم أسلما بعد انقضاء عدتها فالنكاح باق؛ ولهذا أمثلة كثيرة.

{إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} هذا للتحدي، وليس هنا تناقض؛ لأن معنى الثانية التحدي؛ أي إن كنتم صادقين في إيمانكم، فلا ينافي قوله ابتداء: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}**

و «التقوى» وصية الله لعباده الأولين، والآخرين؛ قال الله تعالى: **{وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ}** [النساء: ١٣١]

وأمرُوا بتقوى الله قبل الأمر بترك الربا لأن تقوى الله هي أصل الامتنال والاجتناب، ولأن ترك الربا من جملتها. فهو كالأمر بطريق برهاني.

ومن فوائد الآية: أن ممارسة الربا تنافي الإيمان؛ لقوله تعالى: **{إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}**؛ ولكن هل يُخرج الإنسان من الإيمان إلى الكفر؟ مذهب الخوارج أنه يخرج من الإيمان إلى الكفر؛ فهو عند الخوارج كافر، كفرعون، وهامان، وقارون؛ لأنه فعل كبيرة من كبائر الذنوب؛ ومذهب أهل السنة والجماعة أنه مؤمن ناقص الإيمان؛ لكنه يُخشى عليه من الكفر لاسيما آكل الربا؛ لأنه غذي بحرام؛

وقد قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حين ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام: (فأنى يستجاب لذلك) - نسأل الله العافية.

ومن فوائد الآية: أن مدار صفاء المعاملة على تصفية اللقمة، فمن صفاً طعمته صفت معاملته، ومن صفت معاملته أفضى الصفاء إلى قلبه، ولذلك قال بعضهم: "مَنْ أَكَلَ الْحَلَالَ أَطَاعَ اللَّهَ، أَحَبَّ أَمْ كَرِهَ، وَمَنْ أَكَلَ الْحَرَامَ عَصَى اللَّهَ، أَحَبَّ أَمْ كَرِهَ".

ومن الفوائد أيضاً: أن من شأن الحق -جلّ جلاله- مع عباده: أن من طلب الزيادة في حس ظاهره محق الله نور باطنه، ومن حسم مادة زيادة الحس في ظاهره قوي الله مدد الأنوار في باطنه.

{فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ} قال مالك: تصفحت كتاب الله وسنة نبيه فلم أر شيئاً أشر من الربا، لأن الله تعالى قد آذن فيه بالحرب.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إنه جاء في الوعيد على الربا ما لم يأت على ذنب دون الشرك؛ ولهذا جاء في

الحديث الذي طرّقه متعددة: (الربا اثنان وسبعون باباً أدناها مثل إتيان الرجل أمه) [صحيح الجامع: ٣٥٣٧]

ثم بيّن لهم طريق التوبة وسبيل الخلاص من محنة الربا وفتنته **{وَأِنْ تَبُتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ}** أصولها **{لَا تَظْلِمُونَ}** بأخذ زيادة **{وَلَا تَظْلِمُونَ}** بنقص من رأس مالكم، وظاهر الجواب أنهم يسترجعونها معجلة، إذ العقود قد فسخت، فعطف عليه حالة أخرى **{وَأِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ}** إمهال **{إِلَى مَيْسَرَةٍ}** يسار وسعة **{وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ}** وشيء آخر وهو خير لكم أن تتصدقوا بالتنازل عن ديونكم كلّها تطهيراً لأموالكم التي لامسها الربا وتزكية لأنفسكم من آثاره السيئة.

{إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} يريد العمل، فجعله من لوازم العلم، فجوابه محذوف أي: إن كنتم تعلمون أنه خير لكم عملتموه .. وهذه الجملة الشرطية مستقلة يراد بها الحث على العلم؛ «مستقلة» أي أنها لا توصل بما قبلها؛ لأنها لو وصلت بما قبلها لأوهم معنى فاسداً: أوهم أن التصدق خير لنا إن كنا نعلم؛ فإن لم نكن نعلم فليس خيراً لنا؛ ولا شك أن هذا معنى فاسد لا يراد بالآية؛ لكن المعنى: إن كنتم من ذوي العلم فافعلوا - أي تصدقوا.

روى البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: (كَانَ تَاجِرٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، فَإِذَا رَأَى مُعْسِرًا قَالَ لِفَتْيَانِهِ: تَجَاوَزُوا عَنْهُ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا فَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُ).

وروى مسلم من حديث أبي اليسر، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: (مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظْلَهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ) وهي كرامة وحماية من مكاره الموقف، وإنما استحق المنظر ذلك لأنه آثر المديون على نفسه وأراحه فأراحه الله والجزاء من جنس العمل.

وروى أحمد من حديث أبي قتادة -رضي الله عنه- قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: (مَنْ نَفَسَ عَنْ غَرِيمِهِ أَوْ مَحَا عَنْهُ كَانَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

وقال -صلى الله عليه وسلم-: (من أنظر معسرا فله بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثله صدقة) [صحيح، الحاكم وأحمد]

{وَاتَّقُوا يَوْمًا} أي احذروا عذاب يوم، وهو يوم القيامة.

وفيه: أن التقوى قد تضاف لغير الله - لكن إذا لم تكن على وجه العبادة؛ فيقال: اتق فلاناً، أو: اتق كذا؛ وهذا في القرآن والسنة كثير؛ قال الله سبحانه وتعالى: **{وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ}** [آل عمران: ١٣١]؛ لكن فرق بين التقويين؛ التقوى الأولى تقوى عبادة، وتذل، وخضوع؛ والثانية تقوى وقاية فقط: يأخذ ما يتقي به عذاب هذا اليوم، أو عذاب النار؛ وفي السنة قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (اتق دعوة المظلوم)؛ فأضاف «التقوى» هنا إلى «دعوة المظلوم»؛ واشتهر بين الناس: «اتق شر من أحسنت إليه»؛ لكن هذه التقوى المضافة إلى المخلوق ليست تقوى العبادة الخاصة بالله عز وجل؛ بل هي بمعنى الحذر.

{تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ} مرجع الخلائق كلها إلى الله حكماً، وتقديراً، وجزاء؛ فالمرجع كله إلى الله -سبحانه وتعالى-، كما قال تعالى: **{وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى}** [النجم: ٤٢]، وقال تعالى: **{إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى}** [العلق: ٨]، أي في كل شيء.

{ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ} أي تعطى؛ والتوفية بمعنى الاستيفاء؛ وهو أخذ الحق ممن هو عليه **{مَّا كَسَبَتْ}** من خير وشر، وهو نص على تعلق الجزاء بالكسب، وفيه ردّ على الجبرية **{وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}** أي:

لا ينقصون مما يكون جزاء العمل الصالح من الثواب، ولا يزدون
على جزاء العمل السيئ من العقاب.
وهذه الآية آخر ما نزل من السماء على رسول الله صَلَّى الله
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى
فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ
كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ
اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ
سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ
بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا
رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ
إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا
دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَُمْ
أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ
تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا

تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {٢٨٢} وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ {٢٨٣}

هذه الآية الكريمة أطول آية في كتاب الله؛ وهي في المعاملات بين الخلق؛ وأقصر آية في كتاب الله تعالى قوله عز وجل: {ثم نظر} [المذثر: ٢١] وأجمع آية للحروف الهجائية كلها آيتان في القرآن فقط؛ إحداهما: قوله تعالى: {ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاساً} [آل عمران: ١٥٤]، والثانية قوله تعالى: {محمد رسول الله والذين معه...} [الفتح: ٢٩]، فقد اشتملت كل واحدة منهما على جميع الحروف الهجائية.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ} دأين بعضكم بعضا في شراء أو بيع أو سلم أو قرض {إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى} فأما الآجال المجهولة فلا تجوز {فَاكْتُبُوهُ} لأن ذلك أوثق وآمن من النسيان، وأبعد من الجحود، وظاهر هذه الآية الكريمة أن كتابة الدين واجبة؛

لأن الأمر من الله يدل على الوجوب، ولكنه أشار إلى أنه أمر إرشاد لا إيجاب بقوله: **{وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ}** والرهن لا يجب إجماعاً، وهو بدل من الكتابة عند تعذرهما، فلو كانت الكتابة واجبة لكان بدلها واجباً.

وصرح بعدم الوجوب بقوله: **{فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ}**، فالتحقيق أن الأمر في قوله: **{فَاكْتُبُوهُ}** للندب والإرشاد؛ لأن لرب الدين أن يهبه ويتركه إجماعاً، فالندب إلى الكتابة فيه إنما هو على جهة الحيلة للناس، قاله القرطبي.

وقال بعضهم: إن أشهدت فحزم، وإن ائتمنت ففي حل وسعة .. قاله ابن عطية، وهذا القول هو الصحيح.

{وَلْيَكُتَبْ بَيْنَكُمُ} التنية تقتضي أن لا ينفرد أحد المتعاملين لأن يتهم في الكتابة، فإذا كانت واقعة بينهما كان كل واحد منهما مطلعاً على ما سطره الكاتب **{كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ}** وفيه أن يكون الكاتب فقيهاً عالماً بالشروط، حتى يجيء مكتوبة معدلاً بالشرع، وهو أمر للمتدائنين بتخير الكاتب، وأن لا يستكتبوا إلاً فقيهاً ديناً.

وقال القفال: أن يكون ما يكتبه متفقاً عليه بين أهل العلم، لا يرفع إلى قاض فيجد سبيلاً إلى إبطاله بألفاظ لا يتسع فيها التأويل، فيحتاج الحاكم إلى التوقف.

{وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ} لأن إملأه اعتراف منه وإقرار بالذي عليه من الحق **{وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ}** وجمع بين اسم الذات (الله) وبين وصف (الرب)، وإن كان اسم الذات منطوقاً على جميع الأوصاف. ليذكره تعالى كونه مربياً له، مصلحاً لأمره، باسطاً عليه نعمه. وقدم لفظ: الله، لأن مراقبته من جهة العبودية والألوهية أسبق من جهة النعم.

{وَلَا يَبْخَسُ} ينقص **{مِنْهُ شَيْئاً}** لا ينقص من الدين الذي عليه شيء ولو قل، وليذكره كله **{فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً}** لا يحسن التصرفات المالية، وقيل الأحمق، وقال الشافعي: المبذر لماله المفسد لدينه **{أَوْ ضَعِيفاً}** كالشيخ الهرم أو الصغير السن **{أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ}** كالأخرس أو المريض العقلي أو الغائب عن موضع الإشهاد **{فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ}** وكيله **{بِالْعَدْلِ}** **{وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ}** لم يقل شاهدين، فشهد للمبالغة، وكأنهم أمروا بأن يستشهدوا من كثرت منه الشهادة، فهو عالم بمواقع

الشهادة وما يشهد فيه لتكرر ذلك منه، فأمرُوا بطلب الأكمل، وكان في ذلك إشارة إلى العدالة، لأنه لا يتكرر ذلك من الشخص عند الأحكام إلاّ وهو مقبول عندهم {من رَجَالِكُمْ} أي المسلمين الأحرار دون العبيد والكفار {فَإِنْ لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ} بتعذرهما أو قصد أن لا يشهد رجلين لغرض له {فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ} ولا يجوز استشهاد المرأتين إلاّ مع عدم الرجال.

{مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ} قيداً في الجميع، ولذلك جاء متأخراً بعد ذكرهم جميعاً. والعبرة «بالرضا» عند عموم الناس؛ لا برضا المشهود له؛ لأنه قد يرضى بمن ليس بمرضي.

قال ابن عباس: من أهل الفضل والدين والكفاءة.

وقال الشعبي: ممن لم يطعن في فرج ولا بطن.

وقيل: المرضي من الشهود من اجتمعت فيه عشر خصال: أن يكون حراً، بالغاً، مسلماً، عدلاً، عالماً بما يشهد به، لا يجر بشهادته منفعة لنفسه، ولا يدفع بها عن نفسه مضرة، ولا يكون معروفاً بكثرة الغلط، ولا بترك المروءة، ولا يكون بينه وبين من يشهد عليه عداوة.

وعن محمد: لا تقبل شهادة من ظهرت منه مجانة، ولا شهادة مخنت، ولا لاعب بالحمام يطيرهنّ.

وعن الشافعي: إذا كان الأغلب من حاله المعصية وعدم المروءة ردت شهادته.

وعنه: إذا كان أكثر أمره الطاعة، ولم يقدم على كبيرة، فهو عدل، وينبغي أن تفسر المروءة بالتصاون، والسمت الحسن، وحفظ الحرمة، وتجنب السخف، والمجون، لا تفسر بنظافة الثوب، وفراهة المركوب، وجودة الآلة، والشارة الحسنة. لأن هذه ليست من شرائط الشهادة عند أحد من المسلمين.

{**أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى**} ومعنى الضلال هنا هو عدم الاهتمام للشهادة لنسيان أو غفلة، ولذلك قبول بقوله: {**فتذكر**}

من البلاغة: إظهار في موضع الإضمار؛ لأنه لم يقل: «**فتذكرها الأخرى**»؛ لأن النسيان قد يكون متفاوتاً، فتنسى هذه جملة، وتنسى الأخرى جملة؛ فهذه تذكر هذه بما نسيته؛ وهذه تذكر هذه بما نسيته؛ فلهذا قال تعالى: {**فتذكر إحداهما الأخرى**} لئلا يكون المعنى قاصراً على واحدة هي الناسية، والأخرى تذكرها.

{وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا} وهذا النهي ليس نهى تحريم،
فله أن يشهد، وله أن لا يشهد.

وقال الشعبي: إن لم يوجد غيره تعين عليه أن يشهد، وإن وجد
فهو مخير.

ولما نهى عن امتناع الشهود إذا ما دعوا للشهادة، نهى أيضاً
عن السّامة في كتابة الدين، كل ذلك ضبط لأموال الناس، وتحريض
على أن لا يقع النزاع، لأنه متى ضبط بالكتابة والشهادة قل أن
يحصل وهم فيه أو إنكار، أو منازعة في مقدار أو أجل أو وصف،
وقدم الصغير اهتماماً به، وانتقالاً من الأدنى إلى الأعلى.

{وَلَا تَسْأَمُوا} لا تضجروا أو تملّوا من الكتابة ولو كان الدين
صغيراً **{أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ}** نص على الأجل
للدلالة على وجوب ذكره، فيكتب كما يكتب أصل الدين ومحلّه
إن كان مما يحتاج فيه إلى ذكر المحل، ونبه بذكر الأجل على صفة
الدين ومقداره، لأن الأجل بعض أوصافه.

{ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ} أعدل في حكم الله وشرعه **{وَأَقْوَمُ}**
{لِلشَّهَادَةِ} أثبت لها وأكثر تقريراً لأن الكتابة لا تنسى والشهادة

تنسى أو يموت الشاهد أو يغيب **{وَأَذْنَىٰ إِلَّا تَرْتَابُوا}** أقرب أن لا تشكّوا بخلاف الشهادة بدون كتابة

ثم رخص تعالى رحمةً منه في عدم كتابة التجارة الحاضرة التي يدفع فيها السلعة في المجلس، ويقبض الثمن فيه، فقال **{إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ}** أي: تتعاطونها، البائع يعطي البضاعة والمشتري يعطي النقود فلا حاجة إلى كتابتها ولا حرج أو إثم يترتب عليها.

{فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ إِلَّا أَنْ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ} ولم يبين الله تعالى في هذه الآية اشتراط العدالة في الشهود، ولكنه بينه في مواضع أخر كقوله: **{مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ}**، وقوله: **{وَأَشْهَدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ}** [الطلاق: ٢]

{وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ} في أوامره فافعلوها، وفي نواهيها فاتركوها **{وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ}** وكما علمكم هذا يعلمكم كل ما تحتاجون فاحمدوه بألسنتكم واشكروه بأعمالكم، وسيجزيكم بها.

والواو هنا للاستئناف؛ ولا يصح أن تكون معطوفة على {اتقوا الله}؛ لأن تعليم الله لنا حاصل مع التقوى، وعدمها - وإن كان العلم يزداد بتقوى الله، لكن هذا يؤخذ من أدلة أخرى.

{وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} وأعيد لفظ الله في هذه الجمل الثلاث على طريق تعظيم الأمر، وليست في معنى واحد، فالأولى: حث على التقوى، والثانية: تذكّر بالنعم، والثالثة: تتضمن الوعد والوعيد. **{وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ}** الرهان جمع رهن، وذلك بأن يضع المدين رهناً لدى دائنه عوضاً عن الكتابة يستوثق به دينه هذا في حال عدم ائتمانه، والخوف منه.

وجمهور العلماء على جواز الرهن في الحضر، ومع وجود الكاتب، وأن الله تعالى ذكر السفر على سبيل التمثيل للإعذار، لأنه مظنة فقدان الكاتب، وإعواز الإشهاد، فأقام التوثق بالرهن مقام الكتابة والشهادة، ونبه بالسفر على كل عذر، وقد يتعذر الكاتب في الحضر؛ كأوقات الاشتغال والليل وقد صح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رهن درعه في الحضر، فدل ذلك على أن الشرط لا يراد مفهومه.

{فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ

رَبَّهُ} فأمر بالتقوى حين الإقرار بالحق، وحين أداء ما لزمه من الدين، فاكشفه الأمر بالتقوى حين الأخذ وحين الوفاء.

وهذه الآية تفيد أن الكتابة والإشهاد والرهن للندب والإرشاد وليس للوجوب .. قال ابن العربي المالكي: إن هذا قول الكافة. وهو الصحيح ولم يحك عن أحد ممن قال بالوجوب إلا الضحاك. وقد باع النبي -صلى الله عليه وسلم- وكتب، ونسخة كتابه: "هَذَا مَا اشْتَرَى الْعَدَاءُ بْنُ خَالِدِ بْنِ هَوْذَةَ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم-، اشْتَرَى مِنْهُ عَبْدًا، أَوْ أَمَةً، -شَكَّ عَبْدًا- لَا دَاءَ [مرض]، وَلَا غَائِلَةَ [سكوت البائع عما يعلم من مكروه في المبيع ككونه آبقا]، وَلَا خَبَثَةَ [الأخلاق الخبيثة كالإباق والزنا والسرقة]، بَيْعُ الْمُسْلِمِ لِلْمُسْلِمِ". وقد باع ولم يشهد واشترى ورهن درعه عند يهودي ولم يشهد، ولو كان الإشهاد أمرا واجبا لوجب مع الرهن لخوف المنازعة. اهـ.

{وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ} لأن الكتمان

من عمل القلب فنسب الإثم إليه.

وإسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ وآكد، ألا ترى أنك تقول: أبصرته عيني، وسمعتة أذني، ووعاه قلبي. فإسناد الإثم إلى القلب إذ هو متعلق بالإثم، ومكان اقترافه، وعنه يترجم اللسان. ولئلا يظن أن الكتمان من الآثام المتعلقة باللسان فقط، وأفعال القلوب أعظم من أفعال سائر الجوارح، وهي لها كالأصول التي تتشعب منها، لو خشع قلبه لخشعت جوارحه. **{وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}**

وفي الآية من التأكيد في حفظ الأموال في المعاملات ما لا يخفي: من الأمر بالكتابة للمتدائنين، ومن الأمر للكاتب بالكتابة بالعدل، ومن النهي عن الامتناع من الكتابة، ومن أمره ثانياً بالكتابة، ومن الأمر لمن عليه الحق بالإملاء إن أمكن، أو لوليه إن لم يمكنه، ومن الأمر بالاستشهاد، ومن الاحتياط في من يشهد وفي وصفه، ومن النهي للشهود عن الامتناع من الشهادة إذا ما دعوا إليها، ومن النهي عن الملل في كتابة الدين وإن كان حقيراً، ومن الشئ على الضبط بالكتابة، ومن الأمر بالإشهاد عند التبائع، ومن النهي للكاتب والشاهد عن ضرار من يشهد له ويكتب، ومن التنبيه على أن الضرار في مثل هذا هو فسوق، ومن الأمر بالتقوى، ومن

الإذكار بنعمة التعلم، ومن التهديد بعد ذلك، ومن الاستيثاق في السفر وعدم الكاتب بالرهن المقبوض، ومن الأمر بأداء أمانة من لم يستوثق بكاتب وشاهد ورهن، ومن الأمر لمن استوثق بتقوى الله المانعة من الإخلال بالأمانة، ومن النهي عن كتم الشهادة، ومن التنبيه على أن كاتمها مرتكب الإثم، ومن التهديد آخرها بقوله: **{والله بما تعملون عليم}**

فانظر إلى هذه المبالغة والتأكيد في حفظ الأموال وصيانتها عن الضياع، وقد قرنها رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالنفوس والدماء، فقال: (من قتل دون ماله فهو شهيد) وقال: (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم) ولصيانتها والمنع من إضاعته، ومن التبذير فيها كان حجر الإفلاس، وحجر الجنون، وحجر الصغر، وحجر الرق، وحجر المرض، وحجر الارتداد.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْذُورُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤) آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ

وَمَلَايِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا
 سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ
 اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ
 رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا
 إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا
 طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا
 فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

اختلف المفسرون في هذه الآية هل هي محكمة أم منسوخة؟

فالقول الأول:

أنها منسوخة، واستدلوا بما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة -
 رضي الله عنه- قال: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ- {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي
 أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن
 يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

قَالَ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ- فَاتَّوَا رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى
 الرَّكْبِ فَقَالُوا: أَيُّ رَسُولَ اللَّهِ، كُلُّنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ الصَّلَاةَ

وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا،
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا
قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا بَلْ قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا
غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ
فِي إِثْرِهَا {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ
بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا
وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}

فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {لَا
يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا
لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} قَالَ: نعم [وفي رواية ابن عباس
قال: قَدْ فَعَلْتُ] {رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِنَا} قَالَ: نعم {رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ} قَالَ: نعم
{وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ} قَالَ: نعم

ومما استدلووا به أيضاً على النسخ أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (إن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل).

القول الثاني:

أنها ليست منسوخة، وقد نصره شيخ الإسلام ابن تيمية، وعزاه لابن عمر -رضي الله عنهما-، والحسن وأبي سليمان الدمشقي، والقاضي أبي يعلى.

وقالوا: إن ما في الآية خبر، والأخبار لا تنسخ.
وقالوا -أيضاً- إن مما في النفس مما قد يحاسب عليه الإنسان كالرياء وظن السوء بالله تعالى، وبغض ما جاء به الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- والمحاسبة أعم من المعاقبة.
وقالوا: من سمى ذلك نسخاً من السلف فإنما جرى على تسمية سبقت ضبط المصطلحات الأصولية فأطلق النسخ على معنى البيان وذلك كثير في عبارات المتقدمين.

وقد وجه ابن تيمية وغيره بعض الأحاديث والآثار التي ذكر فيها أن الآية منسوخة بأن لفظ النسخ مجمل، فالسلف كانوا يطلقونه فيما يظن دلالة الآية عليه من عموم إطلاقه أو غير ذلك، وكذلك

نسخ ما قد يقع من النفوس من فهم معنى محتمل، وإن كانت الآية لم تنزل عليه - كهذه الآية -.

قال في البحر المحيط: ولما كان اللفظ مما يمكن أن يدخل فيه الخواطر، أشفق الصحابة، فبين الله ما أراد بها وخصصها، ونص على حكمه أنه لا يكلف نفساً إلاّ وسعها، والخواطر ليس دفعها في الوسع، وكان في هذا فرجهم وكشف كربهم. والآية خبر، والنسخ لا يدخل الأخبار.

وبكل حال: فإن الآية لا تتعارض مع الحديث؛ لأن الأصل أن الإنسان لا يُعاقب على ما تحدث به نفسه دون كلام أو عمل ما دام هماً مجرداً، لكن إذا تجاوز مرحلة «همّ الخطرات» بحيث اقترن مع هذا الهم ما يستطيعه الإنسان من قول وعمل - حتى ولو لم يصل إلى ارتكاب المعصية - أو كان الحائل بينه وبين فعل المعصية هو عجزه عنها أو نحو ذلك فهذا مما يحاسب عليه الإنسان، وقد جاء في الحديث قوله - صلى الله عليه وسلم -: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)، قالوا: هذا القاتل فما بال المقتول، قال: (إنه كان حريصاً على قتله صاحبه). فهذا الإنسان مع أنه لم يقتل ولكن لما هم بالقتل «همّ إصرار»

وفعل ما يستطع في سبيله، ولكن حال بينه وبين قتل أخيه المسلم عجزه عن ذلك - كان آثماً مستحقاً للعقوبة، وقد قال الإمام أحمد: الهم همان، هم خطرات، وهم إصرار. ١.هـ.

ف «هم الخطرات» هو الذي يعرض ثم يذهب، ويدافعه صاحبه، فلا يَأْثِمُ في ذلك بل ربما كان مأجوراً لأنه مجاهد لنفسه، وترك السيئة ابتغاء وجه الله تعالى، وهم الإصرار هو الذي يكون معه ما يستطيع الإنسان فعله من الأقوال والأعمال حتى ولو عجز عن فعل المعصية فهذا آثم مستحق للعقوبة.

ومن الأول هم يوسف عليه السلام، ومن الثاني هم امرأة العزيز التي همت وسعت في المعصية ولم ترتكبها عجزاً عنها لا خوفاً من الله تعالى.

والخلاصة أن الهم الذي يعرض للإنسان أنواع:

- **الأول:** أن يكون ما يطرأ على النفس وساوس لا قرار لها، ولا ركون إليها؛ فهذه لا تضر؛ بل هي دليل على كمال الإيمان؛ لأن الشيطان إذا رأى من قلب الإنسان إيماناً و يقيناً حاول أن يفسد ذلك عليه؛ ولهذا لما شكا الصحابة إلى رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ما يجدونه في أنفسهم من هذا قال - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

وَسَلَّمَ-: (وقد وجدتموه؟) قالوا: نعم؛ قال: (ذاك صريح الإيمان)؛ وفي حديث آخر: (الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة).

- **الثاني:** أن يهّم بالشيء المحرم، أو يعزم عليه، ثم يتركه؛ وهذا أنواع:

١/ النوع الأول: أن يتركه لله؛ فيثاب على ذلك، كما جاءت به السنة فيمن همّ بسيئة فلم يعملها أنها تكتب حسنةً كاملة؛ قال الله تعالى: (تركها من جرّائي)، أي من أجلي.

٢/ النوع الثاني: أن يهّم بها، ثم يتركها عزوفاً عنها؛ فهذا لا له، ولا عليه؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات؛ وإنما لكل امرئ ما نوى).

٣/ النوع الثالث: أن يتمناها، ويحرص عليها؛ ولكن لا يعمل الأسباب التي يحصلها بها؛ فهذا يعاقب على نيته دون العقاب الكامل، كما جاء في الحديث في فقير تمنى أن يكون له مثل مال غني كان ينفقه في غير مرضاة الله؛ فقال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (فهو بنيته؛ فهما في الوزر سواء).

٤/ النوع الرابع: أن يعزم على فعل المعصية، ويعمل الأسباب التي توصل إليها؛ ولكن يعجز عنها؛ فعليه إثم فاعلها؛ لقول النبي

-صلى الله عليه وسلم-: (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)، قالوا: يا رسول الله هذا القاتل؛ فما بال المقتول؟ قال: (إنه كان حريصاً على قتل صاحبه).

ومن الفوائد في الآية:

أن الله سبحانه وتعالى لم يصرح بالمعاقبة؛ ولا يلزم من المحاسبة المؤاخذة؛ لقوله تعالى: **{فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ}**؛ ويؤيده ما ثبت في الصحيح أن الله عز وجل يخلو بعبده المؤمن، فيقرره بذنوبه، ويقول: «عملت كذا في يوم كذا» حتى يقر؛ فإذا رأى أنه قد هلك يقول الله عز وجل: «قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»

{لِّلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ} لله ملك وتدبير ما في السموات وما في الأرض، وخص السموات والأرض لأنها أعظم ما يرى من المخلوقات، ولأنه ليس معلوماً لنا سوهما، وقدم السموات لعظمها، وجاء بلفظ: «ما» لغير العاقل تغليباً لما لا يعقل على من يعقل، لأن الغالب فيما حوته إنما هو جماد وحيوان، لا يعقل، وأجناس ذلك كثيرة. وأما العاقل فأجناسه قليلة إذ هي ثلاثة: إنس وجنّ وملائكة.

والمعنى: إنكم عبيده فلا يفوته عملكم والجزاء عليه. وعلى هذا الوجه تكون جملة {وَأِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ} عطف على سابقتها، ونظيرها في المعنى قوله تعالى: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ} [الملك: ١٣-١٤]

{وَأِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ} فيها عموم علم الله وسعته؛ فلا محاسبة إلا من بعد علم {فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ} «المغفرة» ستر الذنب مع التجاوز عنه؛ لأن مادة «غفر» مأخوذة من المغفر - وهو ما يلبسه المقاتل على رأسه ليتقي بها السهام؛ وهو جامع بين ستر الرأس والوقاية {وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} وهذا كقوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} [فاطر: ٤٤].

ولما ذكر المغفرة والتعذيب لمن يشاء، عقب ذلك بذكر القدرة، إذ ما ذكر جزء من متعلقات القدرة.

أيضا صفة «الملك» تدل على القدرة الباهرة، وذكر المحاسبة يدل على العلم المحيط بالجليل والحقير، فحصل بذكر هذين الوصفين غاية الوعد للمطيعين، وغاية الوعيد للعاصين.

وهنا سؤال: لماذا ختم الآية بالقدرة من بعد قوله تعالى: **{فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**؛ ولم يختمها بالرحمة، ولا بالعقوبة؟

فالجواب: أنه لو ختمت الآية بما يقتضي الرحمة وفيها التعذيب لم يكن هناك تناسب؛ ولو ختمت بما يقتضي التعذيب وفيها مغفرة لم يكن هناك تناسب؛ والقدرة تناسب الأمرين: تناسب المغفرة، وتناسب التعذيب؛ لأن المغفرة، والتعذيب كل لا يكون إلا بقدرة الله عز وجل.

ومما يدل على أن الله تعالى يؤاخذ بما تجن القلوب، قوله: **{وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}** [البقرة: ٢٣٥] فالمحبة والإرادة والعلم والجهل أفعال القلب وهي من أعظم أفعال العباد.

وخلاصة القول: أن ما يخطر في النفس إن كان مجرد خاطر وتردد من غير عزم فلا خلاف في عدم المؤاخذة به، إذ لا طاقة

للمكلف بصرفه عنه، وهو مورد حديث التجاوز للأمة عما حدثت به أنفسها، وإن كان قد جاش في النفس عزم، فإما أن يكون من الخواطر التي تترتب عليها أفعال بدنية أو لا، فإن كان من الخواطر التي لا تترتب عليها أفعال: مثل الإيمان، والكفر، والحسد، فلا خلاف في المؤاخذة به؛ لأن مما يدخل في طوق المكلف أن يصرفه عن نفسه، وإن كان من الخواطر التي تترتب عليها آثار في الخارج، فإن حصلت الآثار فقد خرج من أحوال الخواطر إلى الأفعال كمن يعزم على السرقة فيسرق، وإن عزم عليه ورجع عن فعله اختياراً لغير مانع منعه، فلا خلاف في عدم المؤاخذة به وهو مورد حديث: (من هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة) وإن رجع لمانع قهره على الرجوع ففي المؤاخذة به قولان.

{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}

قال ابن عطية: سبب نزولها أنه لما نزل: **{وإن تُبدؤا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله}** أشفقوا منها، ثم تقرر الأمر على أن **{قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا}** فرجعوا إلى التضرع والاستكانة،

فمدحهم الله وأثنى عليهم، وقدم ذلك بين يدي رفقه بهم، وكشفه
لذلك الكرب الذي أوجبه تأولهم، فجمع لهم تعالى التشريف
بالمدح والثناء ورفع المشقة في أمر الخواطر، وهذه ثمرة الطاعة
والانقطاع إلى الله تعالى، كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك من:
ذمهم وتحميلهم المشقات من الذلة والمسكنة والجلاء، إذ {قَالُوا
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا} وهذه ثمرة العصيان والتمرد على الله، أعادنا الله
تعالى من نقمه.

قال في البحر المحيط: وظهر بسبب النزول مناسبة هذه الآية
لما قبلها، ولما كان مفتتح هذه السورة بذكر الكتاب المنزل، وأنه
هدى للمتقين الموصوفين بما وصفوا به من الإيمان بالغيب، وبما
أنزل إلى الرسول وإلى من قبله، كان مختتمها أيضاً موافقاً
لمفتتحها.

وقد تتبع أول السور المطولة فوجدتها يناسبها أواخرها،
بحيث لا يكاد ينخرم منها شيء، وذلك من أبدع الفصاحة، حيث
يتلاقى آخر الكلام المفرط في الطول بأوله، وهي عادة للعرب في
كثير من نظمهم، يكون أحدهم آخذاً في شيء، ثم يستطرد منه إلى

شيء آخر، ثم إلى آخر، هكذا طويلاً، ثم يعود إلى ما كان آخذاً فيه أولاً.

ومن أمعن النظر في ذلك سهل عليه مناسبة ما يظهر ببادئ النظم أنه لا مناسبة له، فبين تعالى في آخر هذه السورة أن أولئك المؤمنين هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

{آمَنَ الرَّسُولُ} الألف واللام للعهد، وهو علم بالغلبة على محمد صلى الله عليه وسلم في وقت النزول، قال تعالى: **{وَهُمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ}** [التوبة: ١٣]

والذي أنزل إلى الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بيَّنه الله سبحانه وتعالى في قوله: **{وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}** [النساء: ١١٣] - فهو القرآن، والسنة.

{بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ} يراد بها الربوبية أخص الخاصة؛ لأن ربوبية الله عز وجل عامة؛ وخاصة؛ وأخص الخاصة؛ فالعامة الشاملة لكل الخلق، مثل: **{رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [الفاتحة: ١]؛ والخاصة للمؤمنين؛ وخاصة الخاصة للرسول -عليهم الصلاة والسلام-؛ فالذين يقولون: **{رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا}** [آل عمران: ١٦] هذه ربوبية خاصة لكل المؤمنين؛ ومثل: **{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ**

رَّبِّهِ { هذه أخص الخاصة. ومثلها: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً} [النساء: ٦٥]

يقابل ذلك «العبودية»: عبودية عامة؛ وخاصة؛ وأخص الخاصة؛ العامة مثل قوله تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم: ٩٣]؛ والخاصة مثل قوله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: ٦٣]؛ وخاصة الخاصة مثل قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} [الفرقان: ١]، وقوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا} [البقرة: ٢٣]؛ ولا شك أن الربوبية الخاصة تقتضي تربية خاصة لا يماثلها تربية أحد من العالمين.

{كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتِبَ عَلَيْهِ} والكتب المنزلة على الأنبياء الذي يظهر من نصوص الكتاب والسنة أنها بعدد الأنبياء، كما قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ} [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} [البقرة: ٢١٣]؛ ولكن مع ذلك فنحن لا

نعرف على التعيين إلا عدداً قليلاً منها: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وصحف موسى – إن كانت غير التوراة؛ وإن كانت هي التوراة فالأمر ظاهر؛ نعرف هذه الكتب، ونؤمن بها على أعيانها؛ والباقي نؤمن بها على سبيل الإجمال.

{وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} هنا التفات من الغيبة إلى التكلم؛ ومقتضى السياق لو كان على نهج واحد لقال: «لا يفرقون بين أحد من رسله»؛ ولكنه تعالى قال: **{لا نفرق}**؛ وفائدة الالتفات هي التنبيه؛ لأن الكلام إذا كان على نسق واحد فإن الإنسان ينسجم معه، وربما يغيب فكره؛ وأما إذا جاء الالتفات فكأنه يقرع الذهن يقول: انتبه!

{وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} سمعنا قولك وأطعنا أمرك، ولا يراد مجرد السماع، بل القبول والإجابة. وقدم: {سمعنا}، لأن التكليف طريقه السمع، والطاعة بعده، وينبغي للمؤمن أن يكون قائلاً هذا دهره.

{غُفْرَانِكَ رَبَّنَا} من التقصير في حقك، أو لأن عبادتنا وإن كانت في نهاية الكمال فهي بالنسبة إلى جلالك تقصير، ومن فوائد

الآية: تواضع المؤمنين، حيث قالوا: **{سمعنا وأطعنا}**، ثم سألوا
المغفرة خشية التقصير.

{وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} يحتمل أن يكون حقيقة فيكون اعترافاً
بالبعث والمعاد، وجعل منتهاً إلى الله لأنه منتهٍ إلى يوم، أو عالم،
تظهر فيه قدرة الله بالضرورة.

ويحتمل أنه مجاز عن تمام الامتثال والإيمان. كأنهم كانوا قبل
الإسلام آبقين، ثم صاروا إلى الله تعالى، وهذا كقوله جل وعلا:
{فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ} [الذاريات: ٥٠]. وجعل المصير إلى الله تمثيلاً
للمصير إلى أمره ونهيهِ: كقوله: **{وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ}**
[النور: ٣٩].

{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} طاقتها واستطاعتها **{لَهَا مَا
كَسَبَتْ}** من خير **{وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ}** من شر، فالإنسان لا
يحمل وزر غيره .. وهو بيان كيفية الوسع الذي كلفت به النفس:
وهو أنه إن جاءت بخير كان نفعه لها وإن جاءت بشر كان ضرره
عليها.

وظاهره أنه استئناف، خبر من الله تعالى أخبر به أنه لا يكلف
العباد من أفعال القلوب والجوارح إلا ما هو في وسع المكلف،

ومقتضى إدراكه وبنيته، وانجلي بهذا أمر الخواطر الذي تأوله المسلمون في قوله: {وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ}، وظهر تأويل من يقول: إنه لا يصح تكليف ما لا يطاق، وهذه الآية نظير قوله تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: ١٨٥] {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: ٧٨] {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} [التغابن: ١٦] وهذا إخبار عن عدله ورحمته، لأنه كان في إمكان الإنسان وطاقته أن يصلي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من الشهر، ويحج أكثر من حجة.

ومن فوائد الآية: إثبات القاعدة المشهورة عند أهل العلم؛ وهي: «لا واجب مع العجز؛ ولا محرم مع الضرورة»؛ لكن إن كان الواجب المعجوز عنه له بدل وجب الانتقال إلى بدله؛ فإن لم يكن له بدل سقط؛ وإن عجز عن بدله سقط.

ومعنى الضرورة أنه لا يمكن الاستغناء عن هذا المحرم؛ وأن ضرورته تندفع به - فإن لم تندفع فلا فائدة؛ مثال ذلك: رجل ظن أنه في ضرورة إلى التداوي بمحرم؛ فأراد أن يتناوله؛ فإنه لا يحل له ذلك لوجوه:

الأول: أن الله حرمه؛ ولا يمكن أن يكون ما حرمه شافياً لعباده، ولا نافعاً لهم.

الثاني: أنه ليس به ضرورة إلى هذا الدواء المحرم؛ لأنه قد يكون الشفاء في غيره، أو يشفى بلا دواء.

الثالث: أننا لا نعلم أن يحصل الشفاء في تناوله؛ فكم من دواء حلال تداوى به المريض ولم ينتفع به؛ ولهذا قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الحبة السوداء: (إنها شفاء من كل داء إلا السام - يعني الموت)؛ فهذه مع كونها شفاءً لا تمنع الموت؛ ولذلك لو اضطر إلى شرب خمر لدفع لقمة غص بها جاز له ذلك، لأن الضرورة محققة، واندفاعها بهذا الشرب محقق.

أيضا لا يلزم من رفع المؤاخذة سقوط الطلب؛ فمن ترك الواجب نسياناً، أو جهلاً، وجب عليه قضاءؤه، ولم يسقط الطلب به؛ ولهذا قال النبي - صلوات الله وسلامه عليه - في الحديث الذي رواه أنس - رضي الله عنه -: (مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا) [مسند أبي يعلى وإسناده صحيح]؛ ولما صلى الرجل الذي لا يطمئن في صلاته قال له -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (ارجع فصل؛ فإنك لم تصل)؛ ولم يعذره بالجهل مع أنه لا يحسن

غير هذا؛ إذاً فعدم المؤاخذه بالنسيان والجهل لا يسقط الطلب؛ وهذا في المأمورات ظاهر؛ أما المنهيات فإن من فعلها جاهلاً، أو ناسياً فلا إثم عليه، ولا كفارة؛ مثال ذلك: لو أكل وهو صائم ناسياً فلا إثم عليه؛ لقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: (من نسي وهو صائم فأكل، أو شرب، فليتم صومه)؛ وكذلك لو أكل وهو صائم جاهلاً فإن صومه صحيح سواء كان جاهلاً بالحكم، أو بالوقت؛ لأن أسماء بنت أبي بكر قالت: «أفطرنا على عهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم غيم، ثم طلعت الشمس»؛ ولم يؤمروا بالقضاء؛ ولكن لو فعل المحرم عالماً بتحريمه جاهلاً بما يترتب عليه لم يسقط عنه الإثم، ولا ما يترتب على فعله؛ مثل أن يجمع الصائم في نهار رمضان وهو يجب عليه الصوم عالماً بالتحريم - لكن لا يعلم أن عليه الكفارة: فإنه آثم، وتجب عليه الكفارة؛ لما في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رجلاً أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: «يا رسول الله، هلكت قال: ما أهلكك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم»؛ فألزمه النبي -صلى الله عليه وسلم- بالكفارة؛ لأنه كان عالماً بالحكم بدليل قوله: «هلكت».

فإن قال قائل: قد ذكرتم أن المأمور لا يسقط بالجهل والنسيان، فما الفائدة من عذره الجهل؟

فالجواب: أن الفائدة عدم المؤاخظة؛ لأنه لو فعل المأمور على وجه محرم يعلم به لكان آثماً؛ لأنه كالمستهزئ بالله عز وجل وآياته، حيث يعلم أن هذا محرم، فيتقرب به إلى الله.

{رَبَّنَا} منادى حذف منه «يا» النداء اختصاراً، وتيمناً بالبداء باسم الله عز وجل، وهذه الجملة مقول لقول محذوف، أي: قولوا في دعائكم: **{ربنا لا تؤاخذنا...}**، مثل ما لقنوا التحميد في سورة الفاتحة **{لَا تُؤَاخِذُنَا}** المؤاخظة مشتقة من الأخذ بمعنى العقوبة، بقوله: **{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ}** [هود: ١٠٢] **{إِنْ نَسِينَا}** هو ذهول القلب عن معلوم **{أَوْ أَخْطَأْنَا}** هي المخالفة بلا قصد للمخالفة؛ فيشمل ذلك الجهل؛ فإن الجاهل إذا ارتكب ما نهي عنه فإنه قد ارتكب المخالفة بغير قصد للمخالفة.

{رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا} أتى بالواو ليفيد أن هذه الجملة معطوفة على التي قبلها؛ وكرر النداء تبركاً بهذا الاسم الكريم،

وإظهاراً للتذلل، وتعطفاً على الله سبحانه وتعالى؛ لأن هذا من أسباب إجابة الدعاء.

والحمل مجاز بأمر شديد يثقل على النفس من التكاليف أو العقوبات، وهو مناسب باستعارة الإصر **{إِصْرًا}** الإصر ما يؤصر به أي يربط، وتعقد به الأشياء، ثم استعمل مجازاً في العهد والميثاق المؤكد فيما يصعب الوفاء به، ومنه قوله في آل عمران: **{قَالَ أَفَرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي}** [آل عمران: ٨١] وأطلق أيضاً على ما يثقل عمله، والامتثال فيه، قال تعالى في صفة سيدنا محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **{وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ}** [الأعراف: ١٥٧] وعن ابن عباس: **{وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا}** عهداً لا نفي به، ونعذب بتركه ونقضه".

{كَمَا حَمَلْتُهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا} اليهود والنصارى، مثال ذلك: قيل لبني إسرائيل الذين عبدوا العجل: لن تقبل توبتكم حتى تقتلوا أنفسكم - أي يقتل بعضكم بعضاً؛ قيل: أنهم أمروا أن يكونوا في ظلمة، وأن يأخذ كل واحد منهم سكيناً، أو خنجراً، وأن يطعن من أمامه سواء كان ابنه، أو أباه، أو عمه، أو أخاه، أو غيرهم؛ وهذا لا شك تكليف عظيم، وعبء ثقیل؛ أما نحن فقليل

لنا - حتى في الشرك: {والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهاناً *} إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأُولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات { [الفرقان: ٦٨-٧٠] .

{رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ} فالله تعالى بعد أن قرر لهم أنه لا يكلف نفساً إلى وسعها، لقنهم مناجاة بدعوات هي من آثار انتفاء التكليف بما ليس في الوسع. والمراد من الدعاء به طلب الدوام على ذلك لئلا ينسخ من جراء غضب الله كما غضب على الذين قال فيهم: {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ} [النساء: ١٦٠] .

والدعاء هو العبادة، إذ الداعي يشاهد نفسه في مقام الحاجة والذلة والافتقار، ويشاهد ربه بعين الاستغناء والإفضال، فلذلك ختمت هذه السورة بالدعاء والتضرع، وافتتحت كل جملة منها بقولهم: {ربنا} إيذاناً منهم بأنهم يرغبون من ربهم الذي هو مربيهم، ومصلح أحوالهم، ولأنهم مقرون بأنهم مربوبون داخلون تحت رق العبودية والافتقار.

{وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا} لم يأت لفظ: {ربنا} في

الجميل الطلبية أخيراً لأنها نتائج ما تقدّم من الجمل التي دعوا فيها:
بربنا، وجاءت مقابلة كل جملة من الثلاث السوابق جملة:

فقابل قوله: **{لا تؤاخذنا}** بقوله **{واعف عنا}**

وقابل قوله: **{ولا تحمل علينا إصراً}** بقوله: **{واغفر لنا}**

وقابل قوله: **{ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به}** بقوله: **{وارحمننا}**

لأن من آثار عدم المؤاخذة بالنسيان والخطأ «العفو»، ومن
آثار عدم حمل الإصر بالتكاليف الشاقة «المغفرة»، ومن آثار عدم
العقوبة الدنيوية والأخروية «الرحمة».

وقيل: طلب العفو عن التفريط في الطاعات؛ والاستغفار عن
فعل المحرمات؛ والرحمة فيما يستقبله الإنسان من زمنه – أن الله
يرحمه، ويوفقه لما فيه مصلحته.

{أَنْتَ مَوْلَانَا} فصله لأنه كالعلة للدعوات الماضية: أي دعوناك

ورجونا منك ذلك لأنك مولانا، ومن شأن المولى الرفق بالمملوك،

وليكون هذا أيضاً كالمقدمة للدعوة الآتية **{فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ**

الْكَافِرِينَ} وفيه من التوسل ما لا يخفى.

وولاية الله نوعان: خاصة، وعامة؛ فالولاية الخاصة ولاية الله للمؤمنين، كقوله تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [البقرة: ٢٥٧]، وقوله تعالى: {وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: ٦٨]، وقوله تعالى: {إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ} [الأعراف: ١٩٦]؛ والولاية العامة: ولايته لكل أحد؛ فالله سبحانه وتعالى ولي لكل أحد بمعنى أنه يتولى جميع أمور الخلق؛ مثاله قوله تعالى: {وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [يونس: ٣٠]

{فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} جيء فيه بالفاء للتفريع عن كونه مولى، لأن شأن المولى أن ينصر مولاة.

وفي التفريع بالفاء إيذان بتأكيد طلب إجابة الدعاء بالنصر، لأنهم جعلوه مرتباً على وصف محقق، وهو ولاية الله تعالى للمؤمنين، قال تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا} [البقرة: ٢٥٧] وفي حديث يوم أحد لما قال أبو سفيان: "لنا العزى ولا عزى لكم" قال النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أجيبوه الله مولانا ولا مولى لكم).

ووجه الاهتمام بهذه الدعوة أنها جامعة لخيري الدنيا والآخرة؛
لأنهم إذا نصروا على العدو، فقد طاب عيشهم وظهر دينهم،
وسلموا من الفتنة، ودخل الناس فيه أفواجاً.

وهذه الآيات (خواتيم سورة البقرة) وردت فيها نصوص تدل
على الفضل العظيم؛ منها:

** أنها من كنز تحت العرش .. روى أحمد عن أبي ذرٍّ -رضي
الله عنه- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (أُعْطِيَتْ
خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ بَيْتِ كَنْزٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ وَلَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ
قَبْلِي)

وروى ابن حبان عن حُذَيْفَةَ -رضي الله عنه- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتِ الْأَرْضُ
كُلُّهَا مَسْجِداً، وَجُعِلَ ثُرْبُهَا لَنَا طَهُوراً، وَجُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ
الْمَلَائِكَةِ، وَأُوتِيَتْ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتِ
الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُ أَحَدٌ قَبْلِي، وَلَا يُعْطَى أَحَدٌ بَعْدِي).

** أن من قرأهما في ليلة كفتاه. في "الصحيح"، عن أبي
مسعود الأنصاري البصري: أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-

قال: (من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه) وهما من قوله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ} إلى آخر السورة. قيل: معناه كفتاة عن قيام الليل، فيكون معنى (من قرأ) من صلى بهما، وقيل: معناه كفتاه بركةً وتعوذاً من الشياطين، والمضار، ولعل كلا الاحتمالين مراد.

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnaggar66@hotmail.com

٠١٢٢٩٥٩٦٦٥٨

٠١١٥٥٥٨١١٧٥

طنطا - مصر

ليلة الجمعة ١٢ ربيع الثاني ١٤٤٥هـ، ٢٧ أكتوبر ٢٠٢٣م